اليزابيث رودينسكو

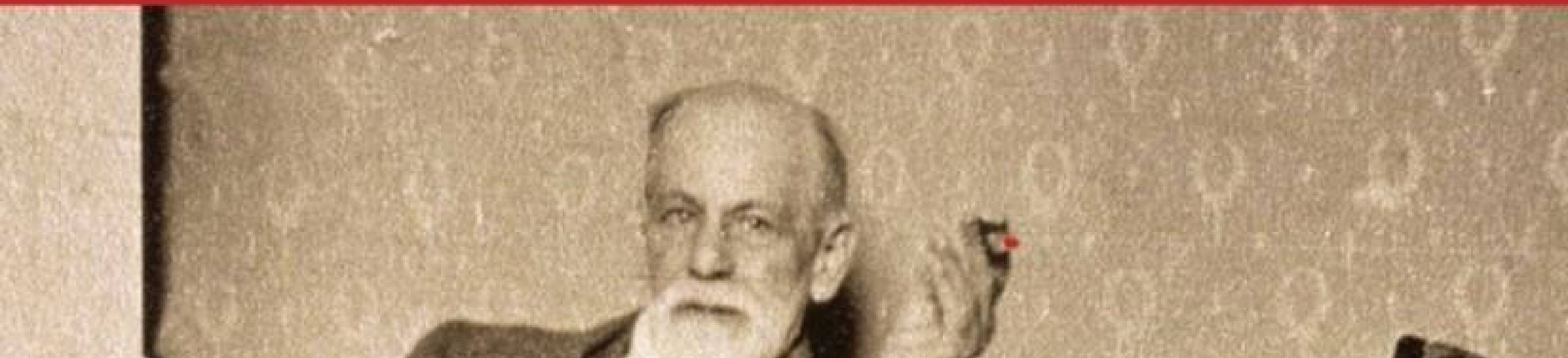

سيغموند فرويد

في زمانه وفي زمانه

ترجمة: سلمان حرفوش

التنوير

إليزابيث رودينسكو

سيغموند فرويد
في زمانه وفي زمانا

دار التنوير للطباعة والنشر

جميع الحقوق محفوظة©

«السرّ عند أيّ إنسان، لا يكمن في عقدة أوديب لديه، بل يكمن تحديدًا في مدى حريته، وفي قدرته على مقاومة العذابات والموت».

جان - بول سارتر

مدخل

لا يموت الإنسان حقًا كما كان يقول Jorge luis Borges، إلّا عند موت آخر إنسان ممن عرفوه، وتلك هي حالة فرويد في أيامنا الحالية، رغم أنه ما يزال هناك نفرٌ قليل من الأشخاص الذين أمكنهم الالتقاء به في طفولتهم، لقد أمضى فرويد عمره بالكتابة، ورغم أنه في أحد الأيام أتلف مستندات عمل ورسائل كي يكلّف الباحثين مستقبلًا في سيرته المزيد من التعقيد، فلم ينتقص ذلك أي شيء من شغفه بالأثر، والأركيولوجيا، والذكرى، بحيث إن ما ضاع لا قيمة له تُذكر بالقياس إلى ما تمّ الحفاظ عليه، وحيال مثل هذا المصير، ها هو المؤرّخ يجابه فيضًا من الملفات، وبالتالي فهو حيال وفرةٍ لا نهائية من التأويلات.

وذاك لأن فرويد، بالإضافة إلى ما يناهز عشرين كتابًا، وما يزيد عن ثلاثمائة مقالة، ترك عددًا لا يستهان به من المذكرات والمسودات، والأجندات، والإهداءات والتعليقات في مكتبته الضخمة المرتبة في «متحف فرويد» في لندن، وقد كتب - على ما يبدو - قرابة عشرين ألف رسالة، لم يبق منها سوى النصف[1]، ونُشر معظمها في يومنا هذا بالفرنسية، أو، حين لم يتحقق ذلك، فهي قيد التبويب بالألمانية، يضاف إليها مداخلات وأحاديث شديدة الغنى عائدة إلى الخمسينات، وقام بتجميعها كورت إيسلر، المحلل النفسي المهاجر من فيينا إلى نيويورك، أضف إلى كل هذا ما يقرب من مائة وستين مريضًا ممّن تم التعرف على هوياتهم، وإن كانوا في معظمهم من غير ذوي الشهرة.

تُرجمت مؤلفات فرويد إلى قرابة خمسين لغة، وبهذا أصبحت في متناول الجمهور في سنة 2010، كما أن أرشيفه بات في متناول اليد، في معظمه، في إدارة مخطوطات LOC: «مكتبة الكونجرس» في واشنطن بعد ثلاثين عامًا من المساجلات والمعارك الضارية[2]، كما يمكن الاستعانة على حدٍ سواء بمستندات متنوعة من «متحف فرويد» في فيينا.

كتبت سِيَرٌ بالعشرات عن فرويد، أولها السيرة الصادرة أثناء حياته في عام 1934 بقلم تلميذه فريتز ويتلز، الذي أصبح أمريكي الجنسية، وآخرها السيرة الصادرة في عام 1988 بقلم بيتر غاي، وما بين هاتين السيرتين المؤلف الضخم في ثلاثة مجلدات بقلم إرنست جونز ، والذي تعرّض للانتقاد بدءًا من عام 1970 على يد هنري ف.إلينبرجر ومن ثمّ الأعمال التأريخية الأكاديمية من طرف إيميليو رودريغي، أول كاتب سيرة لاتيني - أمريكي، وقد واتته الجرأة في عام 1996، فاخترع «فرويد» يقول

باللاعقل وجعل منه شخصية أقرب إلى شخصيات غارسيا ماركيز منها إلى شخصية عالم من نتاج أوربا العجوز. هذا، ولكل مدرسة من مدارس التحليل النفسي فرويدها - الفرويديون، ما بعد الفرويديين، جماعة كلين، جماعة لاكان، جماعة المثاقفة، المستقلون - مثلما أن لكل بلد «فرويد» خاص به، كما تناولوا كل لحظة من حياة فرويد بعشرات التعليقات والشروح، وتأويل كل سطر من كتاباته تأويلات متعددة، حتى بات بإمكاننا وضع لائحة، على طريقة جورج بيريك، تشمل جميع الدراسات الصادرة حول موضوعة «فرويد وملحقاته»: (فرويد واليهودية، فرويد والدين، فرويد والنساء، فرويد الطبيب، فرويد مع أسرته والسيجار، فرويد والمراكز العصبية، فرويد والكلاب، فرويد والماسونيون، إلخ.) ناهيك عن المناهضين بصورة جذرية للفرويدية (أو الـFreud bashing) حيث إننا سنرى: (فرويد المفترس، فرويد أبو المعتقلات العلاجية، فرويد الشيطاني، الداعية لسفاح المحارم، الكذّاب، المزوِّر، الفاشي). وهكذا يكون فرويد حاضرًا في جميع صيغ التعبير والحكايات: (رسوم كاريكاتير، شرائط مصورة، كتب فنية، لوحات بورتريه، رسوم، صور فوتوغرافية، روايات كلاسيكية، أو إباحية، أو بوليسية، أفلام خيالية، وثائقية، ومسلسلات تلفزيونية).

ومن بعد عقود من دراسات المديح، أو النفور والتنفير، ومن البحوث التخصصية والتأويلات التجديدية والتوضيحات المضلِّلة، ومن بعد الرجوع مرات ومرات إلى نصوصه التي تركت بصمتها على النصف الثاني من القرن العشرين، أصبحنا نعاني كثيرًا إذا أردنا أن نعلم من هو فرويد حقًا، نظرًا لفيض الشروح، والتخييلات، والحكايات الخرافية والإشاعات، ما ألقى بظلالٍ معتمة على حقيقة قدر ذلك المفكر الفريد أثناء زمانه وفي زماننا.

لهذا السبب، ولأنني عايشت ولأمدٍ طويل نصوص فرويد والأماكن التي تنضح بذكراه، في نطاق عملي التعليمي أو أثناء رحلاتي وبحوثي، فقد أخذت على عاتقي استعراض حياة فرويد، وولادة كتاباته، والثورة الرمزية التي كان رائدها مع شروق فجر «العصر الجميل» - بداية القرن العشرين - وعذابات الشؤم «سنوات الجنون»، والأوقات العصيبة التي جرى أثناءها تدمير مشاريعه على أيدي الأنظمة الديكتاتورية. إن فتح الملفات وتيسير الوصول إلى مجموعة من الوثائق التي لم يتم التطرق إليها بعدُ وفّرا لي إمكانية القيام بمثل هذه المقاربة، وزاد من سهولة هذا المشروع أن أي مؤرخ فرنسي لم يكن قد غامر حتى ذلك التاريخ بالتجوال في ذلك

الميدان الذي وُضع مذ ذاك تحت الأضواء الساطعة باللغة الإنجليزية وهي بحوث قيّمة.

أريد، بهذا الصدد، توجيه الشكر، إلى الراحل جاك لوغوف، الذي شجعني أثناء حديث مطوّل بعد أن رأى ترددي كي أنطلق في مشروعي هذا، وقدم إلي إيضاحاتٍ قيّمة حول الطريقة المناسبة لملاحقة فرويد الذي أضفى على عصره صفته الخاصة، علمًا بأن ذلك العصر طبعه - هو أيضًا - بطابعه.

سوف يجد القارئ بالتالي في هذا الكتاب، المنقسم إلى أربعة أقسام، حكاية حياة إنسان طموح من سلالة عائلة عريقة من التجار اليهود في غاليسيا الشرقية، إنسان تنغم، على امتداد حقبة شديدة الاضطراب - تقطيع أوصال الإمبراطوريات المركزيّة، الحرب العالمية الأولى، الأزمة الاقتصادية، صعود النازية الظافر - بأن يظل - في الوقت نفسه - محافظًا مستنيرًا يسعى إلى تحرير الجنس كي يتحكم به بصورة أفضل، ومفسرًا للأحاجي، ومعاينًا متيقظًا للأنواع الحيوانية، وصديقًا للنساء، ورواقيًا من أتباع الأزمنة الغابرة و«مزيلًا للغشاوة» عن العنصر الخيالي، ووريثًا للرومانتيكية الألمانية، ومحركًا لما في الوعي من أبواب اليقين. وأخيرًا، ربما وعلى وجه الخصوص، يهوديًا من فيينا، يحطم اليهوديات وهويات الأقليات الدينية، مع ارتباطه الحميم بالمآسي الإغريقية (أوديب) وبتراث المسرح الشكسبيري على حدّ سواء (هاملت).

لقد جعل من الفيزيولوجيا - أقوى علم في زمانه منهجًا له من دون أن يمنعه ذلك من استهلاك الكوكايين لعلاج النوراستانيا عنده وخيّل إليه أنه اكتشف، في 1884، فضائله على جهاز الهضم، كما غامر في أرجاء العالم اللاعقلاني وعالم الحلم، متماهيًا مع معركة فاوست ومفيستو، ويعقوب والملاك، ليؤلف من بعد ذلك ندوة على غرار الجمهورية الأفلاطونية، مستدرجًا وراءه لفيفًا من التلامذة التوّاقين إلى تنوير الوعي عند البشر، وهو حين زعم إمكانية تطبيق أفكاره على جميع ميادين المعرفة لم يحالفه التوفيق بصدد التجديدات الأدبية لدى معاصريه، علمًا بأنهم استعاروا منه نماذجه، كما أنه تنكر للفنون والتصوير في زمانه وتبنّى مواقف أيديولوجية وسياسية أقرب إلى المحافظة، لكنه فرض على الذاتية الحديثة ميثولوجيا مذهلة تعود إلى الأصول الغابرة وتبدو قدرتها أشد حيوية من أي وقت مضى، رغم السعي إلى تحطيمها، على هامش تاريخ «الرجل اللامع»، تطرّقتُ إلى تاريخ بعض مرضاه، كلحنٍ مُرافق - كونتربوان -، فمنهم من عاش «حياة موازية» لا علاقة لها مع عرض «حالتهم المرضية»، ومنهم من أعاد بناء شفائه كما في الخيال، ومنهم

أخيرًا، وهم الأضعف شأنًا وأهمية، ممَن جرى إخراجهم من دائرة الظلّ بعد فتح الملفات.

لقد تراءى لفرويد على الدوام أن ما يكتشفه في اللاشعور يمثل استباقًا لما كان يحصل مع البشر في الواقع، غير أنني اخترتُ أن أعكس هذه المقولة لأبيّن بأن ما اعتقد فرويد أنه يكتشفهُ لم يكن بالعمق غير ثمرة مجتمع، ومحيط عائلي، ووضع سياسي راح يُفسر دلالته بألمعية ليجعل منه نتاجًا للّاشعور.

ها هو الرجل وتآليفه وقد انبثق في مدّ الزمان التاريخي، من خلال روايةٍ مطوَّلة تختلط فيها الأحداث الصغيرة والكبيرة والحياة الخاصة والعامة، والإرهاق والكآبة، وكوارث الموت والحرب، وأخيرًا النفي باتجاه مستقبل لا يقرُّ على قرار، ودائمًا قيد الابتكار من جديد.

---

1 أمضى جيرهارد فيختنر، المختص بكتب فرويد المنشورة، عمره (2012 - 1932)، وهو يبحث عمّا لم يُنشر وعلى تجميع رسائله. انظر، «رسائل فرويد كمصدر تاريخي»، و«ثبت رسائل فرويد» في: «المجلة العالمية للتحليل النفسي»، 2، 1989، ص.51 - 81. انظر أيضًا إرنست فالزيدر: «هل ما زال فرويد مجهولًا؟» في «العلاج النفسي»، بتاريخ، 2007، 3، 27.

2 قدمتُ في الخاتمة والملاحق جميع التوضيحات الضرورية لوضع ثبت بالمصادر المستخدمة في كتابي هذا وسوف يجد القارئ أيضًا في نهاية الكتاب دراسة تأريخية وتوضيحات لشجرة النسب والتسلسل الزمني، ما يسمح بتفهم النزاعات حول أرشيف فرويد، وقد أوردت معظم الدراسات عن فرويد في مختلف الهوامش المرافقة لصفحات هذا الكتاب.

القسم الأول

حياة فرويد

الفصل الأول
البدايات

في منتصف القرن التاسع عشر كانت نفوس الأوربيين متأجّجة بتطلّعها إلى أن تتولى زمام أمورها بنفسها، فحيثما توجهت، من الشرق إلى الغرب - وسط الأمم التي أصبحت ديمقراطية كما في خضمّ الجماعات التي ما تزال ذات طابع سلفي أو الأقليات المندمجة بالإمبراطوريات المركزية - ثمّة مُثلٌ أعلى قد انبثق في وعي الناس داعيًا إلى الانعتاق والتحرر، تجسيدًا لنبوءة سان - جوست العظيمة في 1794: «بأن أوربا تعلم أنكم ما عدتم تطيقون وجود بائس واحد على سطح الأرض ولا بوجود مستبد على الأرض الفرنسية؛ وأن هذه الأمثولة بدأت تؤتي ثمارها في الكرة الأرضية [...] والسعادة فكرة جديدة في أوربا».

وجاءت سنة 1848 لتدشن منعطفًا، إنه ربيع الشعوب والثورات، ربيع الليبرالية والاشتراكية، فجر الشيوعية، فبعد سنوات من الحرب، والمجازر، والاستعباد، والتمردات، راح الناس على اختلاف ألسنتهم وعاداتهم يطالبون بتحطيم الأنظمة الملكية البالية التي تأسست في البلدان التي سبق للملحمة النابليونية تحرير مُثلها العليا عام 1989: «هناك شبحٌ يقضُّ مضاجع أوربا»، هكذا كتب ماركس وإنجلز في 1848: «إنه شبح الشيوعية، وها هي قوى أوربا العجوز مجتمعة قد اتحدت في حلف مقدس لملاحقة هذا الشبح[3]».

وإذا كانت هذه الثورات قد تمَّ قمعها في جميع أرجاء أوربا، فإن الأفكار التي جاءت بها استمرت بالانتشار بطريقة متناقضة تبعًا لمرجعيتها، أكان إلى التنوير الفرنسي، المتميز بالبحث عن مثلٍ أعلى لحضارة إنسانية شاملة تنهض على ممارسة سياسية، أم إلى التنوير الألماني، الذي يقوم على رسالةٍ فلسفية تستمد أصولها من الإصلاح الديني[4].

في هذه الأثناء، في منتصف القرن التاسع عشر، دخل هذان المفهومان عن التنوير (حضارة وثقافة) - الأول بمدى إنساني شامل والثاني بطابع ماهوي أكثر انكفاءً - في مجابهة مع الأنظمة السياسية المنشغلة بأن تعيد بأشكال جديدة بناء النظام القديم للعالم، والذي تزعزعت أركانه بصورة خطيرة تحت تأثير ربيع الثورات. وهكذا ولدت القوميات.

إن البرجوازية الصناعية، في تصديها لتطلع الشعوب ومكافحتها لنزعته الإنسانية الشاملة في المُثل العليا لعصر التنوير، جيَّرت لصالحها وهي في أوج نهضتها فكرة الأمة لتحولها إلى عكس ما هي عليه، فلم توجه

اهتمامها حينذاك إلى توحيد البشر، بل سعت إلى إيجاد أمم متفاوتة الدرجات وضُمت ككيانات يتمايز بعضها عن بعض، وكل أمةٍ رهينة بمقدار ما فيها من المزايا الخاصة، وهكذا مقابل المبدأ الذي أكّد في التنوير الفرنسي، بأن «الإنسان» يجب تعريفه بصفة مواطن حر، ومقابل المثل الأعلى الألماني حول الثقافة المؤسسة للهوية، أطلّ مذهبٌ يقول بجبرية الانتماء إلى جماعة أو عرق، فالإنسان بذاته لا وجود له كما راحوا يقولون، إذ لا وجود إلّا لبشرٍ يخضعون لأرض، ودولة - أمة. وبات على كلّ فردٍ أن يكون فرنسيًا، أو إيطاليًا، أو ألمانيًا، قبل أن يكون مواطنًا حقيقيًا، لا علاقة له بأي انتماء.

كان اليهود يتطلعون - هم أيضًا - إلى مثلٍ أعلى للانعتاق والتحرر، في خضم هذا العالم الأوروبي قيد التحول الكبير، وإذ أصبح اليهود الفرنسيون مواطنين بالكامل في عام 1791، فقد اكتسبوا الحقوق نفسها التي يتمتع بها باقي المواطنين، شرط التخلي عن ازدواجية الهوية، والأمر الوحيد الذي كان يُحسب حسابه لديهم هو الوصول إلى صفة مواطن ذي حقوق وواجبات كاملة، متحرر من كل أصناف العبودية الدينية ومن الهيمنة الطائفية، بفضل ذلك أصبح من المسموح لهم، في حياتهم الخاصة، ممارسة العبادة التي يرون اختيارها، وبالمقابل، أصبحت اليهودية، ضمن الدولة المدنية، ديانة مثل غيرها من الديانات ولم تعد تعتبر الديانة الأم - الديانة الممقوتة منذ العصر الوسيط - ديانة الشعب المختار التي كانت من وراء ولادة المسيحية، فتعريف اليهودي لنفسه بأنه يهودي ينتمي إلى الهوية الدينية اليهودية أصبح يتناقض مع المثل الأعلى الإنساني الشامل في العلمانية الفرنسية.

وفي ألمانيا، أرض الإصلاح اللوثري، توجهت سيرورة التحرر كما أرادت الـ Haskala - حركة التنوير اليهودي التي تأسست على يد موشي مندلسون - ليس نحو دمج اليهود كمواطنين بالكامل، وإنما نحو السماح لهم بأن يكونوا في الوقت ذاته «يهودًا وألمان»، إنهم على نقيض الهسيدية، المكوّن الآخر للتنوير، التي كانت تسعى إلى إعادة القيمة للروحانية اليهودية - لا سيما في أوربا الشرقية - يؤكدون بصفتهم من أنصار الهاسكالا، بأن اليهود الحديثين يمكنهم العيش وفق انتمائين إيجابيين: انتماء يقوم على الإيمان الديني، وانتماء آخر مرتكزه الأرض، إنما بشرط التخلص من وطأة عرف ديني متشدد وقسري إلى حد بعيد.

غير أن اليهود الأشكيناز، في عموم أراضي العالم الجرماني الداخل إلى ميدان التصنيع - من أوربا الشمالية إلى البحر الأبيض المتوسط - لم

يحصلوا على الحقوق نفسها التي حصل عليها اليهود في فرنسا، لقد توزعوا في الأقاليم الأربعة التي كانت في ما مضى في قلب الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة - غاليسيا، مورافيا، بوهيميا، سيليزيا - والتي ألحقت بعد ذلك بالإمبراطورية النمساوية - الهنغارية، وكانوا يشغلون فعليًا أرضًا فسيحة الأرجاء بحدودٍ مفتوحة - هي أرض الييديش الشهيرة - حيث عادوا إلى التجمع في طوائف تتكلم لغة واحدة وتنتقل في قطاع متحرك ما بين بولونيا، ليتوانيا، بيلاروسيا، أوكرانيا، رومانيا، وهنغاريا.

وبما أن أولئك اليهود لم يكن بإمكانهم الوصول إلى جميع الوظائف، فقد وجدوا أنفسهم مجبرين، كي يتجنبوا الذل المفروض عليهم لأنهم يهود، إمّا على تغيير دينهم، أو على ممارسة كراهية الذات لولادتهم يهودًا، أو على النجاح ثقافيًا، وهذا ما كانوا يعيشونه في أغلب الأحيان على سبيل التحدي: «إذا كان اليهود قد لمع نجمهم في الجامعة، كما كتب ويليام جونستون، فما ذاك إلّا لأن أهاليهم قد استنهضوا هممهم كي يعملوا بحماسٍ زائد للانتصار على الحجج التي تُرفع في وجوههم[5]».

كان اليهود الذين تحرروا على هذه الصورة يظنون أنهم يستطيعون بذلك التحرر من الاضطهاد الغابر عن طريق الاندماج بالمجتمع البورجوازي الصناعي والثقافي بأساليب مختلفة، حسب البلدان التي يقيمون فيها، بصفة مواطنين يتمتعون بكل الحقوق في فرنسا، وبصفة أفراد ينتمون إلى طائفة في إنجلترا ثم في الولايات المتحدة، وبصفة رعايا يهود - ألمان في العالم الجرماني، وبصفة أقليات في الإمبراطوريات المركزية، وقد غيَّر عدد منهم أسماء عائلاتهم تبعًا للهجرات المختلفة التي تعرضوا لها، ومن هنا كانت عملية جَزمنة أو فَرنسة الأسماء البولونية، والروسية، والرومانية في تلك الحقبة، كما أن الكثيرين بينهم رفضوا الختان أو غيروا دينهم.

لكنهم، مع ابتعاد النزعة القومية عن المُثل العليا القديمة لربيع الشعوب، جرى نبذهم واستبعادهم، ليس بسبب دينهم، وإنما بسبب «عِرقهم». أي بسبب انتماءٍ كيانيٍ غير منظور يبدو وكأنه يعيق تغييرهم لدينهم، ويجبرهم في الوقت نفسه على تعريف أنفسهم - هم أيضًا - بأنهم ينحدرون من أمة، ومن هنا كانت مفارقة ولادة معاداة السامية، التي حلَّت محلَّ معاداة اليهودية التي كانت سائدة في غابر الأيام، فإقصاء اليهودي لم يعد يتم نتيجة لممارسته دينًا «آخر» - أول دين توحيدي - بل أصبحت النظرات تُوجه إليه على أنه ينحدر من عرقٍ يبحث عن قومية.

وإذا كان الأوروبيون، على امتداد قرونٍ طويلة، قد تعاملوا مع «يهود» لا غير، أي مع شعب من المنبوذين يدرك ما يثير من رغبة في الإقصاء

والنبذ ويرى بأن وحدته أو طابعه الإنساني الشامل لا علاقة لهما بالحدود، ها هم سريعًا وقد توجب عليهم مواجهة شعب، مثلهم سواء بسواء، أصبح لزامًا عليه أن يقدم نفسه كقومية: القومية اليهودية، لكن ما هذه القومية التي لا حدود لها؟ وما هذا الشعب الذي لا أرض له؟ وما هذه القومية وهذا الشعب وقوامهما أفراد أو أتباع، مواطنون ينتمون إلى لا مكان نظرًا لأنهم ينحدرون من أممٍ شتى مختلفة[6]؟

في هذا العالم المتأجج بزخم قوميته، والمتميز بتوسعٍ عمرانيٍ وبجرمنةٍ في تزايد مطّرد تركت تأثيرها على اليهود في إمبراطورية الهابسبورغ، كانت ولادة يعقوب كالامون (كالمان) فرويد، في تيسمينيتز، في قرية (Shtetl) من قرى غاليسيا الشرقية، في 18 ديسمبر/ك ١ 1815، بعد ستة أشهر من هزيمة القوات النابليونية في واترلو[7]، وكما شأن العديد من اليهود المستقرين في ذلك القسم من أوربا الشرقية والمرتبطين منذ ذلك الحين وصاعدًا بإمبراطورية الهابسبورغ، فإن والده شلومو فرويد الذي تعود أصوله إلى Buczacz، كان يمارس التجارة، ومن بعد ولادة ابنه البكر، ولدت زوجة شلومو، بيبي هوفمان - فرويد ابنة أبراهام سيسكاند هوفمان، تاجر أقمشة ومواد أخرى من ضروريات الحياة، ولدين آخرين - آباي ويوسف - بالإضافة إلى بنت، ومما لا شك فيه أن اسم Freud مشتق من اسم Freide الذي حملته جدة شلومو.

لقد عمل آباي بتجارة الصوف في بريسلو، لكنه لم يحالفه الحظ مع أبنائه، فهناك ابن مصاب باستسقاء دماغي وشيء من الخبل، وثمّة ابن آخر أصيب بالجنون، وها هو فرويد يسترجع ذكريات عمومته أثناء رحلته إلى باريس في 1886، حين كان من كبار المعجبين المتحمسين لجان - مارتان شاركو، وحين كان على اقتناع بالأصول الوراثية للأمراض العصابية، ولا يتردد في التأكيد بأن عائلته مصابة وتعاني من «مرض - عصبي»: «حيث إنني أنا طبيب الأمراض العصبية، أتخوّف من جميع تلك القصص تمامًا كما يتخوّف البحار من البحر»، ثم ها هو يضيف: «وهذه القصص واسعة الانتشار في العائلات اليهودية[8]».

في منتصف سنة 1832 تقريبًا، حين كان عمر يعقوب بالكاد سبعة عشر عامًا تزوج في تيسمينيتز من الشابة سالي كانر، ابنة أحد التجار، ووفق العادات التي كانت ما تزال مرعيّة في تلك الحقبة، تمّ ترتيب الزواج بين العائلتين، في المرحلة الأولى، سكن الزوجان في بيت عائلة كانر حيث أنجبت سالي ولدين: إيمانويل في عام 1833، وفيليب بعده بعام. ثم رُزقت في ما بعد بولدين آخرين توفيا في سن الطفولة.

أمّا سيسكند هوفمان وشلومو فرويد فكانا على تفاهمٍ رائع، فكما كان الحال في أغلب الأحيان في العائلات المتوسعة في البلدة والمحكومة بسيطرة الأب وبزيجات الأقارب، كان هناك ثلاثة أجيال يعيشون تحت سقف واحد في الحيّ نفسه، أمّا النساء فيلازمن البيت لتنشئة الأبناء بصحبة الأمّ، والأخوات، والحماة، والخدم أو المربية، بينما الرجال، الآباء، والأصهار، والأبناء، يقومون بإدارة شؤون أعمالهم خارج البيت، فمن جانب هناك القوة النسائية المقتصرة على ميدان الشؤون الحميمة والأعمال المنزلية، ومن الجانب الآخر هناك السلطة الذكورية المنفية على الدوام، وسط هذا النظام العائلي، حيث يحتلُّ كلّ فردٍ موقعًا محددًا بدقة من الولادة إلى الوفاة، كانت علاقة الحمو بالصهر تماثل بأهميتها علاقة الأب بالابن، والجدّ بالحفيد، أو بين العم وابن الأخ، وهكذا فإن يعقوب الذي تزوج في سنّ المراهقة، ليصبح أبًا لولدين وعمره تسعة عشر عامًا، لم يخرج عن تلك الأعراف، وكما حال والده، فقد اعتاد على مصاحبة جدّه من جهة الأم (سيسكند) في سفراته التجارية إلى مورافيا، حيث كانت سياسة الاستيعاب النمساوية أكثر تشددًا مما هي عليه في غاليسيا، وبالتالي فهي موجّهة بقوةٍ أكبر باتجاه جَزمنة اليهود، وفوق هذا باتجاه اندماجهم بحياةٍ مدنية أوسع مدى. كان الرجلان ينامان في استراحات يهودية، ويتقيدان بالشعائر المتوارثة ويصطدمان، في عملهما ذاك، بتشريعات التمييز، هذا مع اكتشافهما لأساليب توفر لهما معيشة أكثر حداثة من معيشتهما في «مجمَعهما» اليهودي في البلدة، بقي أحدهما على تعلّقه بتراث الهسيدية، بينما يعقوب - على الرغم من تقواه ومعرفته التامة للّغة المقدسة - بدأ يهتم بالمثل العليا للهاسكالا[9]، وعند بلوغه العشرين من عمره، أصبح يعقوب شريك جدّه.

بعد ذلك بأربعة أعوام، أتاحت ثورة الشعوب، التي هزت أركان أوربا، ليهود الأمبراطورية النمساوية الهنغارية، الحصول على حقوقٍ مدنية وسياسية. وراح التوسع العمراني يتزايد، بتأثير انفجارٍ سكاني، ما حدا بالمجموعات اليهودية في غاليسيا للهجرة نحو الغرب والجنوب[10]، واغتنم يعقوب هذا الوضع ليستقر به السكن في فريبرغ، ومع مرور السنوات تحلّل على مهلٍ من العلاقات التي ما تزال تربطه بالعرف الهسيدي لدى أبيه كي يبتعد عن عقلية المجمع اليهودي ويندمج بالمجتمع البورجوازي الجديد.

وتأكيدًا على هذا التطور لديه، حصل على نسخة من الكتاب المقدس بترجمة لودفيغ فيليبسون، أوّل مترجم للنص العبري إلى الألمانية، فهذا الكتاب، المطبوع ما بين 1838 و1854 ليكون تحت تصرّف اليهود

الإصلاحيين، أخذ على عاتقه احترام الكتاب المقدس بكليته، لكنه دمج مع النص تصاوير باذخة مستمدة من مصر القديمة، وعلى صفحة الإهداء، دوّن يعقوب تاريخ الأول من نوفمبر/ت$_2$ 1848، تمجيدًا لربيع الشعوب.

لقد أصبح ليبراليًا، إنما مع الاحتفاظ بتطعيم أقواله بطرائف عديدة مستمدّة من العرف المتوارث على مرّ الأجيال للروح اليهودية الساخرة، حتى وصل به الأمر إلى إهمال الاحتفالات الدينية، لكنه تمسك باحتفال Pourim واحتفال Pessa'h باعتبارهما من أعياد العائلة، أما الاحتفال الأول فإحياءٌ لذكرى تحرّر اليهود من الإمبراطورية الفارسية، بينما يحيي الاحتفال الثاني ذكرى الخروج من مصر وإنهاء استعباد الإنسان للإنسان، إنهما عيدان للحرية تعلّق بهما تعلّقًا راسخًا وفاءً للمثل العليا التي حرّكت تمرّد الشعوب.

ما بين 1848و1852، تابع يعقوب حياته الجوّالة، وعند وفاة سالي، تزوج من فتاة مغمورة الشأن اسمها ربيكا، وهي ابنة أحد التجار، لكنه لم يرزق منها بأي مولود، بينما ابنه البكر تزوج وعمره تسعة عشر عامًا من شابة يهودية، ماريا روكاخ، أسرتها قادمة من روسيا، وفي 1855، أنجبت هذه الأخيرة ابنه الأول، جوهان (جون) فرويد، وهو من سوف يكون رفيق اللعب مع عمّه سيغموند، الذي وُلد بعده بعام، ومن ثمّ أطلت على الدنيا بولين، التي وُلدت في 20 نوفمبر/ت$_2$ [11] 1856.

أمّا إيمانويل، الابن الأول ليعقوب، فأصبح هو الآخر شريكًا مع أبيه، مثلما كان هذا الأخير قد أصبح في الماضي شريكًا مع أبيه وجده. ننتقل من ثمّ إلى فيليب، الابن الأصغر، فقد بقي عازبًا ولم يؤسس أسرة إلّا من بعد استقراره في مانشستر حيث هاجر إلى هناك مع شقيقه في حدود 1859 حين غادر والده فريبرغ، ونجح الاثنان في جمع ثروة من تجارة القماش والمجوهرات. إن يعقوب لم يذكر أبدًا زواجه الثاني، الذي لم يكن ليُعرف لولا اكتشاف بعض المؤرخين له، هل كان نافرًا من ربيكا وهجرها؟ لا يوجد ما يبرهن على هذا، لقد حاول بعض الدارسين اختراع رواية كاملة عن تلك الزوجة الثانية التي لا تتوافر معلومات عنها بالمرّة وحتى سيغموند فرويد لم يكن على علمٍ بوجودها[12].

نعم، كان يعقوب، بتاريخ 29/ يوليه - تموز من عام 1855، قد عقد زواجًا جديدًا مع شابة، آماليا ناتنسون، بنت يعقوب ناتنسون، وهو وكيل تجاري قادم من أوديسا ومقيم في فيينا، كانت ابنته المولودة في برودي وحيدة وسط أربعة صبيان، وكانت بعمر ولَدَيْ زوجها، وأقيمت شعائر الزواج وفق الإصلاح الذي جاء به إسحق نوحِ مانهايم، . إذ قرأ رجل الدين

التبريكات السبع، كما حطم الزوج كأسًا بقدمه إحياءً لذكرى تدمير الهيكل في أورشليم.

كانت هذه الزوجة ذات شخصية آمرة، متسلطة، وتعاني دون شك، أكثر بكثير من أمها وجدتها، بسبب غياب الحرية الفردية، وهو ما يجعل دور نساء تلك الحقبة مقتصرًا على الأمومة لا غير، علمًا بأن آماليا رفضت أن تحتجز داخل قيود نمط عائلي في طريقه إلى الاندثار، من دون أن يعفيها ذلك من القيام بدورها كزوجة داخل البيت، كانت نحيلة القوام، جميلة، بشوشة، وتتمتع بقدرة هائلة على المقاومة الجسدية، والنفسية، والمعنوية، فعرفت كيف تحافظ على استقلاليتها في خضم عالم متغير جذريًا، وقد أنجبت لذلك الزوج الذي كان يمكن أن يكون والدها ثمانية أطفال، ثلاثة صبيان وخمس بنات، خلال عشرة أعوام وهم سيغموند، يوليوس، آنا، ريجينا ديبورا (الملقبة روزا)، ماريا (الملقبة ميتزي)، وإيستر أدولفين (الملقبة دولفي)، وبولين ريجين (الملقبة بولا)، واسكندر، ما يعني أنها كانت حاملًا منذ زواجها إلى ولادة ابنها الأخير دون انقطاع أي حتى 1866، ولا ندري لماذا لم تنجب هذه الولود بعد ذلك التاريخ أحدًا؟

في 6 مايو/أيار1856، أنجبت ابنها الأول، سيغموند(سيجسموند)، ولُقب شلومو - شيليموح، تبركًا بالبطرك في تيسمينيتز، أمّا يعقوب، الذي سبق له أن دوّن بالعبرية على كتابه المقدس الشهير تاريخ وفاة والده الواقع في 21 فبراير/شباط، فأضاف تاريخ ولادة شلومو الجديد ذاك، والذي «عُقد بالرباط المقدس» (أي أنه خُتن) بعد أسبوع من ولادته[13].

وفي 1891، قدّم إليه ذلك الكتاب المقدس هدية في عيد ولادته، بعد تجليده من جديد وكان الإهداء: «ابني الغالي شلومو[...] أهديتك إياه ليكون لديك تعبيرًا وذكرى عن مودة أبيك الذي يحبك حبًا أبديًا، في فيينا العاصمة، في 29 نيسان 565، 6 مايو/أيار [14]1891».

منذ ولادة سيغموند كان مصدر اعتزاز وفخر لأمه آماليا التي كانت تناديه «حبيبي سيغي الذهبي» وتخاطبه بالييديشية عن طيب خاطر، واستمرت تفضّله على جميع أبنائها الآخرين، لاقتناعها بأنه سوف يصبح رجلًا عظيمًا، وذات يوم في محل للحلويات، التقت بامرأة عجوز وهذه بشّرتها بأن ابنها عبقري، وهذا ما جعلها تطمئن أكثر إلى صدق يقينها، وهو ما نظر إليه فرويد دائمًا بأنه أمرٌ مضحك: «مثل هذه النبوءات لا بد أنها كثيرة، فكثير من الأمهات لديهن أمل كبير، والعديد من القرويات العجائز ومن الطاعنات في العمر، من اللواتي لم يعد لهن من دور في الحاضر، يعوضن على أنفسهن بالتوجه نحو المستقبل[15]».

ونقلت آماليا قناعتها إلى يعقوب الذي راح آنذاك ينظر بإعجاب إلى ابنه، آملًا أنه ذات يوم سوف يتفوق عليه إذ بينما كان رجال العائلة ومساعدوهم من أصهار وأعمام، قد تآلفوا دائمًا مع تفكيرهم بأنهم تجار أجواخ ومواد متنوعة من الشرفاء النزيهين، فإن يعقوب بعد اعتقاده في التنوير اليهودي توجّه تفكيره باكرًا جدًا إلى أن ابنه يمكنه الوصول إلى قدَرٍ يختلف عن أقدار أسلافه: «ليس إلى التجارة وإنما إلى المعرفة». ولذلك أخذ بيده ليتناول القصص التوراتية كما لو أنها رواية عائلية تُجري مراجعة لشجرة العائلة وهذا ما ولّد لديه سرورًا كبيرًا، وقد استمرَّ فرويد خلال المرحلة المدرسية بالكامل يتشرّب اللغة التوراتية، بتماس على وجه الخصوص مع صمويل هامرشلاغ، أستاذه في مادة العبرية والذي سوف يساعده - أيضا - لتمويل دراسته: «في روحه، كما سوف يكتب فرويد في 1904 عند وفاة ذلك الأستاذ، كانت تتوهج شرارة وقّادة من فكر وروح أنبياء اليهودية العظام[16]».

ومهما كان ما قاله فرويد عن هذا الأمر، فهو قد اطّلع باكرًا جدًا على النص المقدس، فلا شيء بات يجتذبه، في طفولته، غير الملحمة المصرية، ومغامرات يوسف وإخوته أو الزيجات العديدة للآباء الأوائل المعمرين الذين خلّفوا ذرية غفيرة من نسائهم أو محظياتهم أو خادماتهم، لقد تولّع بشمشون وشاؤول، وداوود، ويعقوب، كان يجد في النصوص اليهودية، بعض السمات البنيوية لعائلته بالذات، وهو ما سوف يستخلص منه لاحقًا أن العائلة غفيرة العدد فيها دائمًا بركة مثلما أنها مصدر همّ مقيم. وفي سعيه إلى الاستمتاع قدر المستطاع بخيالاته وأحلامه، راح يتخيل بسرور أن أخاه غير الشقيق فيليب، الذي يسكن معه تحت سقف واحد هو زوج والدته، وأن والده هو جدّه، ولذلك كان يشعر بالحسد حيال ذلك العازب، بينما كان يتفاهم تفاهمًا رائعًا مع أخيه الآخر، إيمانويل، الذي تزوج امرأة من جيله. وقد خُيّل لنفرٍ من المؤرخين، من دون تقديم أدنى برهان، بأن فيليب كان بالفعل عشيق آماليا.

كان فرويد، بتعلقه بأمه الشابة الجذابة وبمحبتها له محبة أنانية، ينظر إليها في طفولته كامرأة هي في الوقت نفسه مسترجلة وذات جاذبية جنسية، وأثناء رحلة بالقطار ما بين فريبرغ وليبزغ، انبهر بعريها وروى لاحقًا حلمًا مشهورًا سبّب له ضيقًا شديدًا لأنه رآها فيه نائمة ويحملها في سريرها أشخاص لهم مناقير طيور ما ذكّره بالآلهة المصرية القديمة المصورة في توراة والده، وفي ما بعد، كان من رأيه أن الأطفال الذين تمتعوا بتفضيل أمهم لهم يحملون في نفوسهم، بعد سنّ النضج، تفاؤلًا

راسخًا لا يمكن أن يزعزعه شيء، وأبعد من ذلك سوف يستخلص من هذا الاقتناع فكرة مفادها أن علاقات الحب بين الأمهات والأبناء هي الأكمل والأكثر بعدًا عن أي التباس، وحقيقة الأمر أنه لم يتمكن أبدًا من جلاء طبيعة ارتباطه بأمه، لأن الحب الأمومي، في نظره، وتحديدًا حبّ الأم للابن هو من الأمور الطبيعية البيّنة.

كما أنه في تعامله مع «ناني» اكتشف وجهًا آخر للحب الأمومي، لقد تعاقدوا مع مربية للأطفال اسمها ريزي فيتيك (أو مونيكا زاييك)[17]،

وهي متقدمة في العمر، ودميمة الشكل، وغير جذابة، تمامًا على نقيض آماليا، لكنها قدمت إليه المودة واللذة الحسية، أي، أنها قدّمت شيئًا من اللذة الجسدية التي كان يفتقر إليها في علاقته مع أمه: كانت كما سوف يقول لاحقًا: «معلمتي في المجال الجنسي، كانت تغسلني بماء مائل إلى الاحمرار تكون هي قد اغتسلت به قبلي[18]»، كانت كاثوليكية متحمسة، وتكلمه بلغة تشيكية، فتروي له قصص شياطين وقديسين، وتأخذه إلى كنائس حيث تُمجّد مريم العذراء، وهكذا اكتشف الديانة الثانية التوحيدية، ديانة الجسد، والخطيئة، والاعتراف، والشعور بالذنب، وما فيها من تصاوير تقوى وورع، وأيقونات من عصر الباروك، وصور عذابات جهنم، ولدى عودته إلى البيت، ها هو سيغموند يبشّر ويمجّد باسم رب المسيحيين، ولكن مع ولادة آنا ها هو فيليب، « الأخ الشقي» يضع مونيكا في الحبس بتهمة السرقة، ولذلك فإن سيغموند المحروم من والدته الملازمة لسريرها بعد الولادة الجديدة، والفاقد لمربيته، بدأ يتلوّى ألمًا. لقد آمن إيمانًا جازمًا بأن آماليا قد ابتلعها صندوق محكم الإقفال.

في عام 1905، في «ثلاث دراسات حول النظرية الجنسية»، أكد بأن المربيات إذا كنّ قليلات الوجدان ينوّمن الأطفال بمداعبة أعضائهم التناسلية[19]، وبعد أخذ العلم بتلك الملاحظة بدأ عددٌ من الباحثين يتخيلون لاحقًا بأن مونيكا كانت تداعب عضو سيغموند الصغير، ويرون من دون أدنى شك، أن شغفه بدراسة الشأن الجنسي عند البشر لاحقًا مصدره تلك المداعبات[20]، وكان أن شقت طريقها الفكرة المصورَة، لفرويد بأنه ضحية خداع مربيته من بين إشاعات عديدة أخرى أحاطت بالحياة الخاصة لمؤسس التحليل النفسي.

في طفولته، كان صاحبا سيغموند في اللعب أولين وجون بحيث شكل معهما ثلاثيًا، وبعد مرور ثلاثين عامًا، في مقالة عن «الذكريات - الساترة»، روى كيف أن رجلًا عمره ثمانية وثلاثون عامًا، كان قد شفاه من رُهابٍ حلَّ به، أعاد إلى ذاكرته ذكرى طفولية كانت تُخفي وراءها ذكرى ثانية أشد كبتًا

من الأولى.

وللحقيقة، في هذا النص كان فرويد يحرك ذكرياته الخاصة للبرهان على نظريته، والرجل الذي كان بصدد سرد قصته ما هو إلّا فرويد بالذات، فهناك ابنا عم مع ابنة عم يلعبون في مرج، على حدّ قوله، وقد قطف كلٌّ منهم باقة زهور، ونظرًا لأن ابنة العم جمعت من الزهور أكثر منهما، فقد شعر ابنا العم بالغيرة، وانتزعا منها باقتها، وحين شكت أمرها إلى إحدى القرويات، قامت هذه بمواساتها وأعطتها قطعة من الخبز وها هما يرميان الزهور للحصول - هما أيضًا - على حصتهما من الخبز: «طعم ذلك الخبز، كما رسخ في ذاكرتي، له لذّة لا تصدّق، وهنا ينتهي المشهد»، وها هو فرويد يشرح من بعد ذلك «بأن انتزاع زهرة من بنت يافعة يشير بوضوح إلى فضّ بكارتها»[21].

لكن لم يُقصر بعض الشارحين والمتابعين لفرويد، من الذين خلطوا الحقيقة الواقعية بالتخيل اللاشعوري، في التأكيد على أن فرويد يُرجِّح أنه، في طفولته قد فض عمليًا بكارة ابنة عمه بالتواطؤ مع ابن أخيه.

والأسطورة التي بنيت حول فرويد الذي كان ضحية مربيته ومغتصب ابنة أخيه وجدت مستندًا لها، كما في جميع الأساطير، في أعمال فرويد بالذات، التي يُعاد تأويلها حسب مزاج تأملات أو مستندات غير موثقة، على أن ما هو ثابت بالمقابل ثبوتًا يقينيًا، يتمثل بأن فرويد كان يقيم علاقات تواطؤ وتنافس مع ابن أخيه الأكبر منه سنًا، وكما حال جميع الصبيان حين يلتقون بفتيات من أعمارهم، فإن جون وسيغموند عاملا بولين أحيانًا «بشيء من القسوة[22]»، كانا متلازمين باستمرار، متحابين، وكانا يتبادلان الاتهامات أو يتنازعان، وفرويد، بمقارنته تلك الصداقة الطفولية بالصداقة ما بين بروتوس وقيصر، جعل منها رَحِم ما سوف يُكوِّن لاحقًا علاقات مع الرجال المحيطين به، من أساتذة، وتلامذة، وأصدقاء، وخصوم، وأعداء: «إن الغيظ في أيما صداقة، والمقت حيال أيما عدوّ كانا دائمًا من الأمور الجوهرية في حياتي العاطفية، ولم أتمكن أبدًا أن أتخلص من ذلك، ولقد حققت الحياة غالبًا مثلي الأعلى لطفل كان بالتمام والكمال هو في الوقت نفسه صديقًا وعدوًّا[23]».

في عام 1860، استقر المقام بعائلة فرويد في ليوبولدشتات، وهي ضاحية شعبية من فيينا يقطنها يهود فقراء كانوا أحيانًا يسكنون بيوتًا غير صحية، وإذ أصبحت آماليا من جديد حاملًا، فقد أصيبت بداء السُل وتوجب عليها أن تقضي فترات عديدة في جبال القرباط للتداوي، في تلك الحقبة، استمر يعقوب بالتميز كتاجر أقمشة، علمًا، بأنه وقع ضحية مكننة

إنتاج الأقمشة، ولم يتمكن أبدًا من أن يصبح تاجرًا ذا بحبوحة، وبمساعدة أبنائه من الزواج الأول نجح رغم ذلك بتوفير حياة لائقة لذرّيته غفيرة العدد.

ومن بعد أن كان يعقوب يجسد سلطة أبويه قوية، ها هو يعطي عن نفسه صورة رجل ضعيف وموضع ازدراء، وهذا ما جعله يتحمس أكثر من أي وقت مضى، حالمًا بأن ابنه سوف يعيش قدَرًا مجيدًا أكثر بكثير من قدَره الخاص هو شخصيًا من دون أن ينسى تمجيد ما كان عليه في الماضي: «سيغيسموند عنده في أصبع رجله الصغيرة من الذكاء أكثر مما عندي في رأسي، لكنه لن يتجرأ أبدًا على مناقضتي[24]»، شلومو - سيغيسموند كان الأول من سلالة آل فرويد، الذين جاؤوا من مجمع في أوربا الشرقية، وأمكنه أن يتوصل إلى عمل غير التجارة[25].

إلى تلك الحقبة يعود تجسيده لنفسه بصورة الفاتحين، المنتصرين ومن ثم المهزومين، لكنهم دائمًا جاهزون كي ينتقموا من الأب أو يتفوقوا عليه: هنيبعل، الإسكندر المقدوني، نابليون، وتشهد على ذلك الذكرى التي احتفظ بها من مشهد طفولي كان قد سمع أثناءه والده يروي له حكاية قديمة يريد منها البرهان على أن الوقت الحاضر أفضل من أيام زمان، ففي الماضي، كما حدثه يعقوب، «رمى مسيحي طاقيتي الصوف في الوحل وهو يصرخ: يا يهودي، انزل عن الرصيف»، وحين سأله ابنه ماذا فعل، أجابه: «التقطتُ طاقيتي».

مقابل هذا المشهد الذي لم يكن يرتاح إليه، وضع سيغموند مشهدًا معاكسًا، أكثر انسجامًا مع تطلعاته: ألا وهو المشهد التاريخي الذي قام به هاميلقار عندما جعل ابنه هنيبعل يُقسم بأنه سوف ينتقم له من الرومان وأنه سوف يدافع عن قرطاجة حتى الموت[26].

وهكذا ترسخ في خيال الرجل اليافع اهتمامه بإعادة بناء ذكرى قدرة أبوية كانت تتضاءل وتتحلل أمام ناظريه من دون توقف وحكاية الطاقية كانت تُبين، في واقع الحال ليس مجرد قصة تخاذل الأب في مواجهة معاداة السامية، وإنما أيضًا مسيرة ابن أخذ على عاتقه باكرًا جدًا إعادة إعطاء القيمة رمزيًا لقانون الأبوة بفعلٍ متمرد على طريقة هنيبعل. لم يكن يتوجب عليه مجرد التفوق على الأب لا غير، وإنما كان يرى ضرورة تغيير الثقافة من دون أن يخرج أبدًا على الهوية اليهودية للأسلاف، وإذ رسم على هذه الصورة قدره، فإن فرويد قد ربط نفسه بتاريخ أبناء البرجوازية اليهودية التجارية في الإمبراطورية النمساوية الهنغارية، والذين وجدوا أنفسهم مجبرين على التخلي عن طابعهم اليهودي كي يصبحوا مفكرين أو

علماء، وفي سبيل استمرارهم كيهود، توجب عليهم تبني الثقافة الإغريقية، واللاتينية، والألمانية.

لقد أكد إرنست سيمون، الفيلسوف الإسرائيلي الذي تعود أصوله إلى برلين، في 1980، بأن فرويد كان قد اتبع تهيئة للدخول في طقوس الـ bar - mitsva وأنه قد أنجز ذلك الطقس وعمره ثلاثة عشر عامًا، وللبرهان على ما جاء به، أشار إلى مكاشفة من طرف فرويد شخصيًا، فقد روى هذا الأخير ذات يوم، بالفعل، بأنه جاءته هدية وعمره أربعة عشر عامًا وهي مؤلفات الكاتب اليهودي الألماني لودفيغ بورن، المعجب بالثورة الفرنسية والوريث للتنوير الألماني، لقد حافظ فرويد بخشوع على هذه المؤلفات باعتبارها الكتب الوحيدة التي تعود إلى أول شبابه، واستخلص سيمون من ذلك أن تلك المؤلفات قُدمت إليه فعليًا بعد أن أتم ثلاثة عشر عامًا، وأنه بالتالي أمرٌ يتعلق بهدية مقدمة بمناسبة الـ bar - mitsvaألا وأن هذا التأويل هو جذاب دون شك لكن ليس هناك ما يبرهن على أن ذلك الطقس قد تم فعليًا، بالمقابل، من المؤكد بأن فرويد كان معجبًا بذلك الكاتب الذي حفظ عنه هذه الكلمات: «ثقة خوف معيب وخسيس يمنعنا جميعًا من التفكير، والأشد اضطهادًا من رقابة الحكومات هي الرقابة التي يمارسها الرأي العام على مؤلفات فكرنا[27]».

وطوال صيف عام 1865، جرى توقيف جوزيف فرويد، شقيق يعقوب، بسبب بطاقات بنكية مزورة، وبعد ذلك بشهور قليلة، سوف يُحكم عليه بعشرة أعوام حبس: «كان والدي، الذي شيب الحزن والأسى شعره، غالبًا ما يقول بأن عمي جوزيف لم يكن إنسانًا سيئًا لكنه إنسان بليد الذهن[28]»، لا شيء يسمح بالقول كما فعل بعض الباحثين بأن هذه القضية كانت قد أخفيت على سيغموند في شبابه وسببت في شخصيته بعد البلوغ «كارثة وجودية عظمى[29]»، في واقع الحال تحسس فرويد لهذا الاحتقار الجديد للأب وتذكر بهذه المناسبة بأن العلاقة ما بين العم وابن الأخ كانت في طفولته منبعًا للكراهية والصداقة.

لقد ارتبط، وعمره ثلاثة عشر عامًا، مع إدوار سيلبيرستين، ابن أحد المصرفيين اليهود من رومانيا وكان مقيمًا في جاسي، ثم في برايلا على نهر الدانوب[30]، كان إدوار قد نشأ على يد أب نصف مجنون وواقع تحت سيطرة التشدد الديني، بينما كان ابنه يصبو إلى التفكير الحر، وهكذا أصبح صديق وتلميذ ابن يعقوب في Realgymnasium في فيينا ثم في الـ Obergymnasium.

نشأت حينذاك روابط ما بين عائلتي هذين المراهقين، وكانت آنا

سيلبيرستين وآماليا فرويد تلتقيان في محطة الاستشفاء في روزانو حيث تستفيدان من المياه المعدنية ويتم تبادل الأحاديث بينهما حول الشؤون البيتية الصغيرة، بينما الشابان المولعان بالأدب يتخيلان أنهما أبطال في رواية، وفي سبيل تنشيط أحلامهما، أسسا «أكاديمية كاستيلانا، - قشتالة -» تكريمًا لكاتبهما المفضل: سرفانتس، وفي هذا المنتدى الأكاديمي، المؤلف منهما لا غير كأعضاء، كانت مسرّاتهما الثقافية تنبع من الممارسة الحرة لأقوال الإرشاد والهداية، وكانا يتبادلان الرسائل ما بينهما بالألمانية والإسبانية مع تطعيم اللغتين بكلمات تُستخدم كلغة مشفَّرة، وتعبيرًا منهما عن تبجيل الرواية البيكاردية، نسب كلٌّ منهما إلى نفسه اسمًا مستعارًا من قصة «حديث كلبين» من ضمن المجموعات الجديدة الصادرة.

في تلك القصة، وضع سرفانتس على المنصة الكلب برغانزا، الحكواتي الضليع، والكلب سيبيون، الفيلسوف المتهتك والمشبع بالمرارة، والكلبان هما ابنا الساحرة مونتيلا وهما مدينان لها بعبقريتهما المذهلة في تناول ضياع وضلالات النفس البشرية، ومن خلال هذا الحديث، استرسل الكاتب مع نقد لا يرحم لكلّ شذوذات ومظالم البشر في عصره.

لن يُدهشنا أن يكون فرويد قد اختار اسم سيبيون، مؤكدًا لنفسه بذلك إيمانه بعجز المخلوق البشري عن التحكم بأهوائه، علمًا، كما كان يقول، «بأن الإنسان الذي يفكر» هو الوحيد الذي يستطيع تقرير هذا الأمر: «إنه في وقتٍ واحد المشرّع لنفسه، والمعترف لنفسه، والقاضي على نفسه[31]».

إن فرويد، الذي حمل باكرًا جدًا مثل ذلك الهاجس عن تصوّر الحرية الإنسانية، والذي وصل إلى المراهقة، كان له حيال حياته الجنسية الخاصة موقف ملتبس، فمن جهة، كان يعاني من أنواع الكبت المفروضة عليه من طرف المجتمع الذي يعيش في وسطه، إلى درجة تجعله يعتبرها سببًا للعذابات الذاتية الأكثر تجهمًا؛ ومن جانبٍ آخر، كان يعتبر المجاهرة بالدوافع الغريزية منبعًا للتدمير، ومن هنا كانت ولادة مبدأ التحكم باضطرابات الأنا، وإذْ فضّل الرغبة التي لا يتم إشباعها على المتعة الجسدية، لم يكن يتردد باسترجاع ذكرى مشهد من طفولته قام اثناءه بالتبول في حجرة نوم والديه وبوجودهما: «لن نفعل شيئًا مع هذا الصبي غير النافع بأي شيء»، هكذا قال يعقوب، وعلى سبيل التحدي لتلك المقولة من الأب، لم يكف فرويد، على مدى سنوات، عن تجميع كل نجاحاته الفكرية ليبرهن لنفسه بأنه أبدًا لن يكون من الذين لا يُرتجى منهم أي نفع[32]، إنه يهودي لا إله له، وبوريتاني متحرر قادر على التحكم بغرائزه وعلى توجيه الانتقاد إلى مساوئ البوريتانية، وهكذا قدم فرويد نفسه

بصورة متمرد شديد الانضباط، مولع منذ طفولته بالأمور الغامضة والشطحات في الجنسانية الإنسانية، وسوف يعرّف نفسه دائمًا بأنه «ليبرالي من الموضة القديمة»، ومستندًا في تحصيل معرفته من صحيفة Freie Presse، وهي الصحيفة اليومية الرئيسية في الإمبراطورية النمساوية الهنغارية[33]، وتأسست في 1864، وكان يتعامل معها مفكرون بارزون من فيينا: هوغو فون هوفمانشتال، ستيفان زفايغ، وآرثر شنيتزلير، وتيودور هرتزل.

طوال صيف 1871، أقام في فريبرغ، بصحبة إدوار، عند عائلة إينياس فلوس، تاجر الأقمشة والصديق منذ تاريخ بعيد ليعقوب فرويد، وإذ أصابه التشوش بسبب ابنة إينياس، الصبية جيزيلا، وعمرها آنذاك اثنا عشر عامًا وهي شقيقة زميله إيميل فلوس، فقد أطلق عليها اسم Ichthyosaura كما أطلق على نفسه اسم «أمير لياس وسيد كريتاسي» مشيرًا على هذه الصورة إلى قصيدة من تأليف فيكتور فون شيفيل مع نهاية عصر الحراذين، تلك الحيوانات المتمردة على نظام العالم لكنها عاجزة عن منع وقوع الكارثة النهائية.

في السنة التالية، رأى فرويد جيزيلا مرة ثانية، فتظاهر باللامبالاة، وتركها تعود إلى البانسيون الذي تقيم فيه ثم بدأ في مشوار مشتت في غابات طفولته، حالمًا بما كان يمكن أن تكون عليه حياته لو أن والديه لم يغادرا فريبرغ ولو أنه، بدلًا من تحمل أعباء قدَره الجديد في فيينا، كان قد قبل العودة إلى تجارة يعقوب والزواج، في مثل عمر ذلك الأخير عند زواجه، من شابة تعود إلى الوسط الذي يعيش فيه.

وفي سبيل وضع نهاية أفضل للعصر ما قبل التاريخي للغراميات المستحيلة ما بين الحراذين - باعتباره سيد كريتاسي وإختوسورا -، شرح لإدوار بأن الموضوع الحقيقي لرغبته لم يكن جيزيلا وإنما إليونورا، والدتها: «يتراءى لي بأنني قمت بتحويل الاحترام الذي أوحت لي به الأم، بصيغة صداقة، على ابنتها، إنني مراقب شديد التدقيق أو على الأقل أنا اعتبر نفسي كذلك: إن حياتي وسط عائلة كبيرة العدد، حيث تطورت شخصيات عديدة، شحذت نظرتي، وأنا كلّي إعجاب بتلك المرأة التي لا يرتفع أحد من أبنائها إلى مستواها أبدًا[34]».

كانت إليونورا فلوس تتمتع بمزايا لم تكن لدى آماليا. فهي عصرية، ومتحررة، ومثقفة، ولذلك فقد تخلصت من عقلية الغيتو، وأما زوجها، على نقيض يعقوب فرويد، فكان قد برهن على قدرته بالتغلب على الأزمة التي حلت بصناعة الأقمشة، ولأنه احتفظ بثروته، فلم يغادر فريبرغ إلى فيينا،

المدينة غير المحبوبة لدى سيغموند الذي كان يحب الطبيعة، والأزهار، والفطور، والغابات، والحيوانات والحياة في الهواء الطلق، وبمناسبة رجوعه إلى مسقط رأسه، فبرَك الشاب اليافع لنفسه «رواية عائلة» مزدوجة. إذ بينما راح يتخيل ما كان يمكن أن تكون عليه حياته لو أنه دخل ميدان تجارة الأقمشة، تخيَّل أيضًا أن لديه أبوين مختلفين: أن يكون والده كما والد إينياس فلوس وأمه مشابهة لإيلينيورا، وهذا ما كان يتيح له، بالتأكيد، تصعيد وإعلاء انجذابه الجسدي إلى جيزيلا، وهي طريقة من الطرق التي تساعد على وضع مسافة بينه وبين والده الذي لم يكن مجبرًا، عندما كان في عمره على لجم نزوعه الجنسي.

وهناك حكاية طريفة تبين مدى قدرة فرويد في الوقت نفسه على اختراع رواية عائلية مناسبة لرغباته وكذلك - أيضا - على إصدار أحكام قاسية جدًا على العائلات التي تخرق أصول الكياسة البرجوازية، كان، بطبيعة الحال، يرى أن الواجب يقضي ضمن هذه المنظومة العائلية بأن تكون العائلة اليهودية القدوة لجميع الآخرين، وهذا ما جعله يشعر برعب، في سبتمبر/أيلول من عام 1872، عندما اكتشف الفظاظة الخشنة لزوجين في قطار كان يتوجه من فريبرغ إلى فيينا: «كان من معدن الغرور الذي يصنع مثل هؤلاء الأوغاد، كلما واتاه الظرف المناسب: فهو خبيث، كذاب، وتعتني به عائلته العزيزة لاقتناعها بأنه صاحب مواهب، علمًا أنه من دون مبادئ، ولا أي تصوّر للياقات المجتمع، ومعه طباخة من بوهيميا، وجهها أكمل وجه كلب بولدوغ رأيته في حياتي، وهي تلتهم كل شيء، شعرت بقرفٍ شديد من هذه الحثالة، وأثناء الحديث، علمت بأن السيدة اليهودية وكلّ عائلتها من ميزيريتش؛ ألا فإنها بالضبط المزبلة التي تناسب مثل هذه البضاعة[35]»، وبعد أسطر قليلة راح يروي لإيميل فلوس، انسجامًا مع حساسيته حيال الأم، عن الأمهات العصبيات، أنه في القطار نفسه التقى مع «امرأة عصبية، متهيجة، مرتجفة، وبصحبتها فتاة عمرها اثنا عشر عامًا وذات وجه ملائكي». لم يكف عن التحديق بها طوال السفرة: «وهكذا وصلت إلى فيينا. مرةً ثانية، رأيت الأم العصبية والطفلة الشقراء، وأقسمت أن أدوِّن أين سوف ألتقي مجددًا، بهما، وسط جمهور فيينا، وهذه خاتمة روايتي الصغيرة[36]».

لقد نشأ في جو ليبرالي، وسط منظومة عائلية قائمة على التزاوج الداخلي كما أنها تتصف باحترام عرف الزيجات المنظمة، ولذلك عاش فرويد طفولة سعيدة بين أبٍ كان يمكن أن يكون جده، وأمٍ كان يمكن أن تكون زوجة لأخيه غير الشقيق، وأولاد أخ كانوا بعمره، وإذا كانت أخواته

الخمس يحترمنه، فهن كنَّ يعتبرنه طاغية، كان يراقب ما يقرأن، ولا يتحمل سماع ضجيج البيانو، الذي كان ينغص عليه دراساته الغالية، وكان يعتبر من الطبيعي أن يُحتجزن في حجرة واحدة، مُضاءة بشمعة، بينما هو من جانبه يشغل قاعة له وحده ويتمتع بقنديل إضاءة.

إن أخوات فرويد، كما حال معظم نساء جيلهن لم يكن أمامهن سوى أن يصبحن زوجات، أمهات أو خادمات، لم يحصلن على أي تأهيل ثقافي يسمح لهن بالهروب من هذه الشروط، كانت آنا الوحيدة التي تابعت دراساتها لتصبح معلمة مدرسة ابتدائية، وفي سن ستة عشر عامًا، تودد إليها رجلٌ كبير السن من عائلة ناتانسون كان قد بدأ يفتش عن زوجة جديدة زاعمًا بأنه سوف يأخذها معه إلى أوديسا غير أن فرويد شعر برعب حيال فكرة هذا الزواج الداخلي بين مُراهقة وعجوز، وعارض الأمر بحزم شديد[37]، وكان من حظ آنا الزواج الرائع بعد ذلك من إيلي برناي، شقيق مارتا، لتهاجر من ثم معه إلى الولايات المتحدة حيث عاش أبناؤها الخمسة حياةً رغيدة[38].

أمَّا روزا، المفضلة عند فرويد، والنوراستانية مثله سواء بسواء، فتزوجت قاضيًا، جيريست هنريخ غراف، وقد مات بعد ذلك بفترة بسيطة، وابنها هيرمان قُتل في الحرب الكونية، وابنتها كاسيلي (موزي) انتحرت في عام1922 بعد أن هجرها عشيقها وهي حامل[39]، أمَّا ماريا فتزوجت من ابن عم من قراباتها البعيدة في بوخارست، موريس فرويد، ورُزقت منه بخمسة أطفال[40]، من بينهم، جنين ولد ميتًا وآخران راحا ضحية موت عنيف (انتحار وحادث سير) وبولا، التي تزوجت فالنتين ونترنتز، وترملت بعد ذلك الزواج، لكنها رُزقت بابنة هي طفلها الوحيد[41]، وأمَّا أدولفين، فبقيت عازبة وعملت كمشرفة على والدتها التي أغرقتها بصنوف من الإذلال لا عدَّ لها ولا حصر.

وسط هذا التنظيم من القرابات حيث النساء ما يزلن محرومات من كل إمكانية لممارسة وظيفة ما، وحيث أبناء الخؤولة والعمومة يتزاوجون في ما بينهم، أحيانًا بفارق كبير في العمر ما يجعل الزوجات الفتيات أرامل باكرًا، أصبح فرويد منذ نعومة أظفاره متفرجًا دقيق الملاحظة لتطور العائلة البرجوازية وللانتقال من النمط القديم - المتجسد في أبيه وجده - إلى نمط جديد، نمط زيجات الحب، والقائمة على حرية اختيار الأزواج المقبلين.

وبمراقبته لعائلات عديدة قريبة من عائلته، كان يتسلى باختراع علاقات بين أمهات، وآباء، وأطفال، لم تكن فعليًا سوى مرآة تعكس تغيرات

النظام العائلي الذي كان هو شخصيًا في مواجهته، وهذا ما يفسر لماذا مال إلى الفكرة القائلة بأن الأب في طريقه إلى فقدان كل قدرة موروثة وأنه بات لزامًا عليه أن يتقاسم سلطته مع الأم.

إن النظام العائلي الذي ترعرع فرويد فيه أثناء طفولته وطوال مراهقته كان قائمًا على ثلاث دعائم: سلطة الزوج، خضوع النساء، تبعية الأطفال، وحين أصبح للأم موقع مركزي، وفي هذا ما يهدد سلطة الأب، فقد سعى النظام الجديد أيضًا لإيجاد الوسائل التي توفر السيطرة والإشراف على ما كان، بتخيل مجتمع النصف الثاني من القرن التاسع عشر، يهدد بفتح الطريق من دون أي مانع أمام انبثاق خطير للسلطة الأنثوية، أي لتلك الجنسانية التي تُوصف بأنها «هستيرية» أو «عصبية»، وكان الرأي بأنها سوف تكون أكثر تخريبًا عندما لا تعود خاضعة لوظيفة الأمومة.

تجنبًا لتلك «النكبة الأنثربولوجية» المخيفة كثيرًا، والتي أصبح معيارها انخفاض حقيقي في نسبة الولادة وفي خصوبة النساء في الغرب[42]، فإن الأطباء ومتخصصي الديموجرافيا راحوا يؤكدون بأن على المرأة قبل أي أمر آخر أن تكون أمًا وذلك كي تتمكن الهيئة الاجتماعية من مقاومة طغيان اللهو الأنثوي المتحرر من كل العوائق والكفيل، كما يقولون، بالقضاء على المجتمع.

وإذا كان فرويد، الواقع في قبضة رغبته الجسدية، يفضل أن يرى في كل فتاة طيف أمه حتى يقع في غرامها، فما كان ذلك سوى نتيجة لشغفه وانبهاره بانبثاق الرغبة الأنثوية، وإذ كان بعيدًا كل البعد عن إبعاد تلك الرغبة أو الحكم عليها بأنها تهدد المجتمع، أراد أن يلتقط دلالتها، ويكتشف أبعادها، ويجاهر بها بكل قوة، وفي الوقت ذاته، تبنى موقفين متناقضين ظاهريًا: أحدهما يهدف إلى إعطاء طابع شهواني لجميع العلاقات ضمن العائلة، بل حتى تخيّل خروقات واعتداءات لم يكن لها وجود إلّا في خيالاته، والموقف الثاني على العكس يميل إلى إضفاء العقلانية على الخطورة المتوقَّعة نتيجة الدافع الجنسي وقمع هذا الدافع، ما يحقق الشرط للانعتاق الحقيقي من كل جنسانية بشرية، وهذا الديالكتيك ذو الأثر الراجع إلى تأكيد القيمة الخلّاقة للإباحية وإلى ضرورة وضعها تحت السيطرة هو ما سوف يشكل أحد ثوابت حياته ومؤلفاته.

لقد شعر، باكرًا جدًا، بميل شديد إلى أساطير قدامى الإغريق، وهو ما سوف يساعده لاحقًا على أن ينقُل إلى مصح الأمراض العصابية والنوراستانية في نهاية القرن التاسع عشر قصةً مطولة عن الجذور وتقوم على ثنائيات متعددة الأشكال: ثنائية التيتان، قدامى الآلهة، وأرباب

الأولمب، الذين تغلبوا على العمالقة الكونيين القدماء؛ ثنائية بين مبدأ اللذة ومبدأ الواقع، بين اللاعقلاني والعقلاني، وحتى أيضًا بين نزوع التدمير (ثاناتوس) ونزعة الحياة (ايروس)، إلخ.

لقد دلَّ الانتماء إلى مثل هذه الجدلية منذ البدايات على تلك السياسة حول الصداقة المميزة للعالم النفساني الفرويدي: فالصديق الذي لا غنى عنه قدره أن يكون العدو الذي لا غنى عنه، وقد اختار فرويد باستمرار، نظرًا لميله إلى الصياغات الحاسمة والحصرية، في مواجهة المحيطين به، أن يكون دائمًا المناقض الجريء، المستعد على الدوام للدفاع عن المواقف المتطرفة ولدفع الثمن المطلوب لذلك. وكان ينسب تلك الحميّة، ليس إلى مجرد تكوين نتج عن علاقاته الطفولية مع ابن أخيه جون، وإنما إلى إرث مأخوذ من الأسلاف البعيدين: كان يشعر بأنه قادر، على ما يقول، على التضحية بحياته بكل يسر مثلما فعل العبرانيون سابقًا عند الدفاع عن هيكلهم.

طول السنوات التي أمضاها في المدرسة، كان من حظ فرويد أنه بين أيدي أساتذة جيدين ولذلك فقد تألق كطالب: فهو الأول على صفه، علمًا، بأنه لم يكن يتردد بأن يكون الناطق باسم زملائه للاحتجاج على معلم غير محبوب أو يُحكم عليه بأنه جاهل، في يونيو/ حزيران 1869، عوقب عدد من الطلاب لأنهم توجهوا إلى أماكن سيئة السمعة، لم يكن فرويد من بينهم لأنه على ما يبدو لم يكن يهتم إلّا بالمعرفة والثقافة، وليس لدينا معلومات إطلاقًا عن أي علاقة ذات معنى قبل الزواج، وعندما سألته ماري بونابرت، التي لديها فضول لا ينتهي حيال الأمور الجنسية، إن كان قد أقام علاقات جسدية أثناء شبابه، وإن كان كما شباب جيله، قد تردد على البيوتات المغلقة في فيينا، كان جوابه عدم الرد[43]. ولم يتكلم فرويد أبدًا عما كانت حياته الجنسية قبل الزواج، وهذا ما أفسح المجال لعدد كبير من الإشاعات والأحكام خبط عشواء.

أثناء استعداده للدخول إلى الجامعة، كانت الليبرالية تبدو في أوج ازدهارها داخل الإمبراطورية النمساوية الهنغارية، مع العلم، بظهور تباشير أزمة مالية ذات خطورة قصوى، منذ أشهر قليلة، انفجرت الأزمة في مايو/ أيار 1873، وفي الوقت نفسه عمَّت جائحة كوليرا، وكان من نتائج ذلك سلسلة من الانهيارات المالية والإفلاسات التي امتدت على جميع أرجاء أوربا. وكان أن راح الليبراليون، الذين دمرتهم منظومة اقتصادية تعلقوا بها تعلقًا حماسيًا، يتخلون تدريجيًا عن أوهامهم، بينما كانت الأقليات القومية تزعزع، بمطالبها، الاستقرار النسبي للملكية الثنائية، لقد وُجهت إلى يهود

فيينا الذين انخرطوا في الحياة المدنية حينذاك اتهامات بأنهم المسؤولون عن فقدان الاستقرار في الأسواق، وراح الصحافيون يندون بالـ«التصرفات» المزعومة المنسوبة إليهم، ومن جانبهم انطلق رسامو الكاريكاتير وراحوا يستفيضون بنشر سمومهم في الصحف، فهنا وهناك كنت لا تُرى سوى رسوم تمثل صرافي العملة بأنوفهم المعقوفة وشعورهم المنبوشة.

مرة جديدة، ضمن هذا السياق، اعتُبر اليهود مسؤولين عن زعزعة سيرورة تحول اجتماعي كان يتجه نحو تحقيق تطوير للعادات والتقاليد، وهو تطوير قائم على تنظيم جديد للأسرة، فالشعب اليهودي، كما راحوا يقولون، أليس هو منذ الأزل شعبٌ مشردٌ دون وطن ولا حدود، شعبٌ حلّت به لعنة، ولا تحركه سوى شهوة الربح وأنه على الدوام مستعد لتشجيع المعاملات الجنسية الشاذة؟ أليس بطبيعته يقول بسفاح الأقارب وبالعلاقات الشاذة؟ أليس اليهودي يمثل خطرًا مثله مثل الشاذ جنسيًا، أو المخنث، أو المرأة الهستيرية؟ أليس الذنب ذنبه، حين دمر الأسرة ذات السلطة الأبوية، بسبب «طبعه الأنثوي»؟

في تلك الحقبة، كانت فيينا قد أصبحت ملاذًا لجميع يهود أوربا الشرقية، من ذوي الأصول التي تعود إلى غاليسيا، هنغاريا، روسيا، مولدافيا، على العكس من يعقوب فرويد، كانوا قد تمكنوا، في معظمهم، من الاندماج بالمجتمع الليبرالي الجديد، بدايةً كتجار أو مصرفيين - بالنسبة للجيل الأول -، ومن ثم كناشرين، وصحافيين، وأغنياء من رعاة الأدب والفكر، ومحامين، وكتاب، وشعراء، وعلماء، وفلاسفة، ومؤرخين. لكن، على التوازي مع توسع مدى الأزمة، فإن ذلك الاندماج الناجح، ضمن نطاق جماعات صغيرة، أصبح موضع شبهة بنظر الرأي العام وولّد الكراهية والتمييز[44].

إن أول استخدام لنعت «معادٍ للسامية» جرى في ألمانيا في عام 1860 على يد يهودي رفيع الشأن تعود أصوله إلى بوهيميا وكان قد وصف بهذا النعت تعبيرًا معاديًا لأولئك الذين أصبح اسمهم حينذاك، بتعبير أكاديمي، ليس اليهود، وإنما الساميين[45]، في مواجهة هذه الصيغة الجديدة للكراهية، إن حركة التحرر الكبرى للهاسكالا، التي ولدت مع عصر التنوير، قد أصبحت مهددة منذ ذلك الحين وصاعدًا بأن تغدو نوعًا من الاستراحة الترفيهية. كان اليهود حتى ذلك الحين يُشار إليهم بالبنان بسبب انتمائهم إلى دين، أما الآن فأصبحوا موضع تنديد لأنهم أبناء «عرق سيء»: عرق الساميين. وفي 1879، خرجت هذه المفردة من نطاق المجادلات

الأكاديمية بين فقهاء اللغة لتصبح، تحت ريشة الدعائي الهزيل ويلهلم مار، نواة رؤية جديدة للعالم: «معاداة السامية».

لقد رفعتها جمعيات تشكّلت حديثًا، وانتهى بها الأمر كي تشدَّ من عزم حركة جعلت وجهتها إقصاء يهود ألمانيا نحو فلسطين والتشهير بهم باعتبارهم «طبقة خطيرة» تهدد نقاء العرق الجرماني، المسمّى «آريّ». خلال سنوات قليلة وصولًا إلى الحرب الكونية الأولى، انتشرت معاداة السامية في جميع أنحاء أوربا بتنويعات عديدة: بيولوجية، صحية، عرقية، قومية.

إن فرويد، الذي اصطدم طول سنوات الجامعة بتلك الطفرة التي حولت معاداة اليهودية إلى معاداة السامية، لبس لبوس بطله أثناء يفاعته: هانيبعل، القائد العسكري السامي، وعلى امتداد كل مراحل دراسته، واجه باحتقار جميع مَن كانوا يتعاملون معه على أنه «يهودي قذر» أو الذين كانوا يريدون منه أن يعترف بـ«دونيته العرقية»، وفي أكثر من مناسبة، لم يتردد عن ردع الأوباش، بعكازه المرفوع فوق رؤوسهم، بعد إغراقه بالإهانات والشتائم، وكردة فعل، تبنى الفكرة القائلة بأنه نظرًا لإقصائه، كيهودي، من «الأكثرية المتماسكة»، سوف يكون بإمكانه المحافظة على الاستقلالية في إعطاء الأحكام وهذا ما سوف يتيح له في ما بعد الدفاع عن نفسه دفاعًا أفضل في وجه الذرائع المختلفة، لم يكن فرويد يحب كثيرًا «طقوس الهيئة الاجتماعية، والجوقات الاحتجاجية، والشعارات المجهولة التي يتردد الهتاف بفيها بصورةٍ عمياء[46]».

كان متعطشًا للمعرفة، حالمًا بالمجد والانتصار، فتوجّه تفكيره بادئ الأمر للقيام بدور سياسي، لكن انتهى إلى أن اتخذ قرارًا بأنه سوف يصبح فيلسوفًا، ومن ثمّ قاضيًا، وأخيرًا عالم طبيعيات... لقد راودته مرات عديدة فكرة الإبحار على ظهر مركب كي يعبر المحيطات، على منوال شارل داروين، بطل العلم الحديث وكان يحمل حياله إعجابًا كبيرًا لأن «مذهبه، كما يقول، يسمح بقطع شوط كبير إلى الأمام في مجال فهم العالم[47]»، لكنه أيضًا كان يشبّه نفسه بكريستوف كولومبس، المغامر في البحار، مكتشف العالم الجديد، إنه يحلم بهوية مختلفة ويحمل على الدوام همّ التفوق على والده من خلال الوصول، بفضل معلمين استثنائيين، إلى ثقافة علميةٍ عالية، وهذا ما جعله حينذاك يدخل في المجادلات الفلسفية لعصره بالاحتكاك مع فرانس برينتانو، والذي كان يتابع تعليمه لديه.

إنه حفيد كليمن برينتانو، وبرز من خلال المدرسة الرومانتيكية الألمانية، وكان هذا الفيلسوف، الذي سوف يصبح لاحقًا معلم هوسرل،

يشرح بإفاضة، في تعليمه في فيينا، ما بين 1874و1894، مبادئ علم نفس تجريبي متمحور على تحليل أنماط الوعي الذي يُستبعد عنه كل شكل من أشكال الذاتية، وفي هذا الميدان، كان فرانس برينتانو يقدم نفسه على أنه المجدد لطروحات الفيلسوف الألماني يوهان فريدريخ هربار الذي على خط كانط وفيخته، أحد مؤسسي علم النفس الحديث وهذا تحديدًا ما جعل له أتباعًا عديدين في العالم الأكاديمي الناطق باللغة الألمانية، لا سيما في النمسا، حيث الأطباء والمربون العلمانيون راحوا ينتسبون إلى تعليمه.

إن هربار، حين جعل نقطة استناد مقاربته قائمة على مفهوم الأنا التي تفترض وجود علاقة مع غيرية - «اللا أنا» -، كان قد أسهم بتفجير التصور الكلاسيكي للماهية الذاتية، وكان يعلم بأن فكرة الذات الإنسانية منقسمة إلى مجموعة من الذرات المكبوتة عند عتبة الوعي والتي تكافح بعضها ضد بعض لاقتحام تلك الذات والسيطرة عليها، بتعبير آخر، كان قد طرح، على امتداد النصف الأول للقرن التاسع عشر مبادئ نظرية وُصفت بأنها «دينامية» حول اللاشعور، حيث تدخل في اللعبة ثلاثة محاور: التمثل، النزوع، الكبت[48].

لقد كان هربار من أنصار النظام السياسي القائم ومن المحافظين في المجال السياسي، ولذلك فقد كان المروّج في ألمانيا لتربية تعطي قيمة كبيرة لمعرفة «الخبراء» على حساب الفكر الإبداعي، كانت أعماله موضع تقدير كبير في الوسط الأكاديمي في فيينا، وبهذا فقد كسب إلى صفّه مريدين بين جميع أولئك الذين حاولوا لاحقًا إصلاح تعليم العلوم الطبيعية والطب، ومع بقائه مؤمنًا بوجود إله، ومع تبشيره بقيم كاثوليكية إصلاحية، فإن برينتانو كان ينسب نفسه إلى مذهب هربار كما كان يلجأ إلى مفهوم القصدية الذي كان يجمعه مع مفهوم التمثل المشخَص كي يُشير إلى الفعل الذي به يتوجه الوعي نحو موضوع، كما كان يميز أيضًا بين صنفين من الأفعال الذهنية: أحكام التأكيد والنفي والمواقف المشتركة للكراهية والحب.

سوف يتذكر فرويد هذا التعليم حين راح يبلور مذهبه، لكنه في تلك الحقبة، كان ما يزال يفكر بالتوجه نحو دكتوراه في الفلسفة، وبمساعدة صديقه وزميله جوزيف بانث[49]، ها هو يشرع بالتشكيك بإيمان برينتانو بوجود إله من خلال انتسابه إلى مادية لودفيغ فويرباخ، الفيلسوف الألماني الذي كان قد توفي منذ فترة بسيطة والذي كان تعليمه حاضرًا بقوة في ثقافة فيينا في سنوات 1870، فهذا الأخير، المنتقد للتفكير

الهيغلي، كان يؤكد بشدة بأن الإصرار على وجود إعلاء يؤدي إلى انسلاب وأنه لا بد، للخروج من هذا الاستلاب من الرجوع إلى الإنسان المحسوس، القول بالمحسوس ونقد الدين: هاتان هما مقولتان ألهمتا فرويد باكرًا كما أنهما - فعليًا - أسهمتا في تلك الحقبة بفصله عن التأمل الفلسفي الذي يقوم على تجريد زائد عن الحدّ، بالإضافة إلى أنه تحديدًا لاهوتي أكثر من اللازم، من خلال رجوع فويرباخ إلى الحسي، توصل إلى أن يأخذ بعين الاعتبار الاختلاف بين الجنسين والاعتراف بوجود غيرية - وجود أنا ووجود أنت -، ومن خلال نقد الاستلاب نسب إلى نفسه الفكرة القائلة بأن الدين هو دائمًا عقبة في وجه نقد المعرفة الإنسانية، وهكذا فإن فرويد في شبابه أولى ذلك الفيلسوف المادي إعجابًا لا حدود له، وكان قد اكتشف حياته وتفكيره بقراءة السيرة التي خص بها كارل غرون ذلك الفيلسوف.

من بعد أن شنّ حملة على برينتانو - أستاذه المبجل، الذي قبل مع ذلك الإشراف على أطروحته -، تخلى فرويد عن مشروعه بالدخول إلى ميدان الفلسفة ليكون فيلسوفًا من دون أن يتخلى رغم ذلك عن التصاقه بمادية فويرباخ، في عام 1873، وعمره سبعة عشر عامًا دخل إلى جامعة فيينا للقيام بدراسات علمية: تشريح، بيولوجيا «علم أحياء»، زوولوجيا «دراسة الحيوانات»، فيزيولوجيا، طب، إنما انسجامًا مع ميله لحرمان نفسه من الملذات كي يكون وصوله أفضل إلى ما يرى بأنه جوهري بالنسبة له شخصيًا، فقد استمر مسترسلًا مع إغراءات التفكير التأملي، وهذا التفكير في جميع الأحوال لن يغيب أبدًا عن طريقه بل إنه، بعد عام 1923، سوف يغمر جميع أعماله: «كنت أثناء شبابي، كما سوف يقول لجونز، منجذبًا انجذابًا قويًا إلى التأمل الفلسفيK غير أنني أبعدت نفسي عنه بشجاعة[50]».

كانت جامعة فيينا الضخمة تتمتع بتنظيم استثنائي، وهي حينذاك في أوج توسعها رغم المصاعب المادية الكبيرة، وفي ميدان العلوم الطبيعية، كانت تبدو أفضل جامعات أوربا لقدرتها على تجميع علماء لامعين من العالم الناطق بالألمانية، وغالبًا ما كانوا ليبراليين سياسيًا، وفي جميع الأحوال من المتفوقين في المبارزات الخطابية وألمع المناظرات، من بينهم، كارل كلوس، أستاذ التشريح المقارن وعلم الحيوانات، وهو من أدخل الفكرة الداروينية إلى النمسا، وإرنست ويلهلم فون بروك، الطبيب وعالم الفيزيولوجيا الذي تعود أصوله إلى برلين، وهو من المتخرجين من التيار الوضعي والمعادي للإحيائية كما تمثّل على يد هيرمان فون هيلمولتز وإيميل ديبوا - ريمو.

إذا أردنا أن نفهم دور هذا التعليم في مسيرة فرويد، لا سيما في بلورته لدينامية مادية جديدة في عالم النفس، يجب أن نتذكر بسيطرة الدراسات الطبية مع نهايات القرن التاسع عشر، انطلاقًا من المنهج التشريحي - السريري، الذي بموجبه يُعتبر المرض تعبيرًا عن خلل عضوي. كانت المقاربة الفيزيولوجية تعتبر ذلك الخلل ناتجًا عن تعديل وظيفي في عضو من الأعضاء[51]، لكنها كانت تستند أيضًا على المذهب الدارويني، الذي كانت تستمد منه وسائل طرح الأسئلة حول أصول وتطور العضويات الحية، وكذلك حول القوى الغريزية التي هي في صميم النشاط الإنساني، وهكذا فإن ممثلي هذا المنهج كانت تحركهم روح حماسية حقيقية كما لو أنهم في حملة صليبية، وهذا الفكر وجهته وغايته، في مواجهة الطب الرومانتيكي العتيق، إبراز قيمة الفكرة القائلة بأن العضوية الإنسانية مكونة حصريًا من قوى فيزيائية وكيميائية.

في ثلاثين عامًا، ودون تأسيس مدرسة، انتهى الأمر بعلماء الفيزيولوجيا إلى فرض أنفسهم كممثلين لنوع من الطليعة الطبية في ألمانيا، وطبقوا أنموذجهم على علم الأعصاب وعلى علم النفس من أجل توحيدهما وفصلهما عن الفلسفة التأملية، وفي الوقت عينه، رفضوا أن يقيموا أي اعتبار للذاتية - بالمعنى الفلسفي - فجعلوا مركز أعمالهم أولوية المعاينة. ضمن هذا المنظور لم يكن بالإمكان حل مشاكل الروح والنفس إلّا بمقاربة أحادية قادرة على إدخال ظاهرة الوعي في الحقل الفيزيولوجي أي في العلم التجريبي، وبالنسبة لفرويد الشاب، فإن هذا الالتزام بالفيزيولوجيا وبالتطورية رسّخ التصاقه القديم أساسًا بالفلسفة المادية.

في صيف 1875، حقق أخيرًا حلمه بالذهاب إلى مانشستر للإقامة مع أخيه غير الشقيق، لقد حضّر سفرته بكل عناية، واستظهر أشعارًا، وكتب رسائل، وغرق في التاريخ الإنجليزي وأكد تأكيدًا صارمًا بأنه «رجل إنجليزي». بل لقد بدأ يحلم بأن يصير مواطنًا إنجليزيًا «to become an Englishman». وعلى الرغم من «الضباب، والمطر، والروح المحافظة، والسكر»، كان يشعر بانجذاب إلى إنجلترا، بنظامها الاقتصادي والسياسي، بأدبها وبتكريسها لعلم تجريبي كان يبدو له بعيدًا جدًا عن العرف الميتافيزيقي الألماني: «لو كنت أريد التأثير على جمهور كبير من الناس، هكذا كتب إلى إدوار سيلبيرستين، بدلًا من جمهور صغير من القراء أو النخب، فإن إنجلترا هي البلد الذي تُشد إليه الرحال من أجل مثل هذا الطموح: فالإنسان الذي ينال التقدير، وتدعمه الصحافة والأغنياء، بإمكانه صنع المعجزات لتخفيف الآلام الجسدية إذا كان يتمتع كفاية بالسعي إلى

الانخراط على طرق علاجية جديدة[52]».

بانتظار ذلك، ها هو فيتريستا، حيث كان كارل كلوس قد أنشأ معهدًا للبحوث حول الحيوانات البحرية، يقوم بأعماله الأولى في مجال الدراسات الحيوانية، ما ساعده على اكتشاف عالم البحر الأبيض المتوسط. ولشغفه بحالة الخنث، كلّفه كلوس بأن يختبر التأكيد الذي جاء به مؤخرًا الباحث البولوني سيرسكي والذي يزعم أنه قد اكتشف وجود خصى عند سمك الأنقليس (السلور) فمن بعد إقامتين وفحص أربعمائة عينة، حاول فرويد جاهدًا إثبات فرضية «جهاز سيرسكي»، لكنه علم خصوصًا، على غير ما كان يشتهي، بأن عليه الخضوع لمتطلبات العلم التجريبي. وقد اغتنم إقامته تلك كي يهتم بشهوانية النساء الإيطاليات، اللواتي كان يشبههن بربات.

كان بروك، الأستاذ الكبير في مدرسة الفيزيولوجيا النمساوية، قد نجح بأن يضم في تعليم واحد العرف الألماني للطب المخبري مع النظرة السريرية الناتجة عن ممارسة الإقامة في المستشفيات في فيينا، إن ذلك الاختصاصي البرليني، ذا اللون المتوهج، وصاحب الغرة البرصاء والابتسامة الشيطانية، كان مختصًا بفيزيولوجيا العين، وبالهضم، وبالصوت، مثلما كان أيضًا عاشقًا للشعر والتصوير، بحيث لم يتردد باختراع «كتابة عالمية» - البازيغرافي - كان يفكر بأنها قد تتيح ذات يوم كتابة جميع لغات كوكب الأرض، كان يمارس على تلامذته سلطة حقيقية جذابة، إنْ بإمكانياته في نقل مبادئ علم الأعضاء الحية أو بمفهومه النخبوي، وحتى الطغياني، في مجال الهيكلية الجامعية، كان يعطي قيمةً للموهبة ويشجع لدى مريديه تفتح الذكاء، ولا يتردد بمساعدتهم على تحقيق التقدم والتخلص من كلّ روح وصولية، وهكذا كان الجميع أوفياء له وحالما أصبح فرويد تحت تأثيره، راح ينظر إليه كمعلم، معجبًا بنظرته الزرقاء والثاقبة، ولا سيما بتلك السلطة الأبوية التي كانت تبدو له في منأى عن أي ضعف: على النقيض تمامًا من يعقوب فرويد.

وفي مخبر بروك تحديدًا تعرف على ثلاثة علماء فيزيولوجيا كبار: سيغموند إكزنير، إرنست فون فليخل - ماركسو، وجوزيف بروير، كان هذا الأخير قد بدأ يهتم بالدراسات الطبية المتعلقة بالنفس، وبالتالي بالأمراض العقلية، من جانب، والتي كان علم النفس المخبري يعالجها، كما بالأمراض العصبية من جانب آخر، والتي تتصل مع علم الأعصاب، كان هؤلاء الثلاثة يُشكلون نفرًا من جماعة علمية ذات مظهر عريق، حيث تمتزج العلاقات العائلية، والتبادلات الطبية، والصداقات، والميول الغرامية، والطموحات

الاجتماعية، والميول الجمالية، ورغبة تغيير الحياة، بالاستناد إلى علم التشريح - السريري الأكثر تقدمًا وكمالًا في العالم الأوربي. كان معظم أعضاء هذه الحلقة، أغنياء كانوا أم فقراء، خارجين من البرجوازية الليبرالية التقدمية، وبارتيادهم للصالونات الأدبية والمقاهي، فقد أنشأوا بعناية علاقات مع فنانين، وكتاب، وفقهاء لغويين، وجامعيين، وصحافيين، كان بعضهم من اليهود، والبعض الأخر ليسوا كذلك، ومنهم مفكرون أحرار أو حتى بروتستانت أو كاثوليك، لكنهم جميعًا لم يكونوا قد انفصلوا عن هيمنة مثل أعلى ديني يُنظر إليه حكمًا بأنه معادٍ للعلم وظلامي[53].

بعد دراسة الحياة الجنسية لأسماك الأنقليس، ارتأى فرويد أن يتوجه إلى برلين، المدينة التي تحظى بالإعجاب كي يحضر محاضرات هيلمولتس وديبوا - ريمون، لكنه لم يُكمل هذا المشروع الذي ارتسم في خياله وتابع أعماله في علم الحيوان، وبإدارة بروك وبتأثره الشديد بمفهوم التطور، كرّس نفسه، مستعينًا بسحر الميكروسكوب، لدراسة العصبونات عند جراد البحر (السراطين) ثم بالنخاع الشوكي لإحدى أقدم الأسماك البدائية (Ammocoetes Petromyzon)، وهذا ما أتاح أمامه الارتقاء باتجاه الجملة العصبية المركزية عند الإنسان، ثم عمل في ما بعد على بلورة نظرية حول وظيفة الخلايا والألياف الدقيقة والعصبية دون أن يتوقف عن حضور دروس طبية كلاسيكية استكملها بتأهيل خلال فصلين دراسيين في المخبر الكيميائي للبروفسور كارل لودفيغ، مختصر القول، كان فرويد في تلك الحقبة قد توافرت أمامه الفرص ليصبح أحد أفضل الباحثين من أبناء جيله في مجال التشريح، والبيولوجيا، والفيزيولوجيا[54].

في آذار 1881، أكمل دراسته، ودافع عن أطروحة الدكتوراه ليعيّن من بعدها بوظيفة أستاذ مساعد في معهد الفيزيولوجيا التابع لأستاذه المبجل، وفي هذه الأثناء، كان قد أكمل سنة خدمته الإجبارية في الجيش وكي يقاوم الضجر، ترجم الجزء الثاني عشر من الأعمال الكاملة لجون ستيوارت ميل وهو مكرس لمعالجة موضوع تحرر النساء، وموضوع أفلاطون، والقضية العمالية والاشتراكية، ودعوته إلى القيام بهذا العمل صدرت عن تيودور غومبيرز، الذي كان قد توجه بالطلب إلى برينتانو، وهذا الأخير زكّى مزايا تلميذه القديم، كان غومبيرز، ابن عائلة مصرفيين وصناعيين يهود قدموا من مورافيا، وهو متعدد اللغات وهيلّيني متميز، لكنه كان يعاني من أزمات كآبة وفورات حماس، لم يكن يتصور الثقافة والتقدم إلّا بصيغة الارتقاء المتزايد، المرهف في مجال استخدام اللغات[55]، من بعد ذلك، سوف يحتفظ فرويد بعلاقات ممتازة مع مثقف فيينا ذاك الذي جعله

يكتشف منهج الاشتقاقات اللغوية، بل وسوف يكون أيضًا طبيب زوجته[56].

رغم مزاياه كباحث، قرر فرويد، بناءً على نصيحة من بروك أن يتوجه، في صيف 1882، نحو ممارسة عمله كطبيب وبالتالي متابعة تأهيله في المستشفى العام في فيينا، ونظرًا لصغر سنه، لم يكن لديه أي فرصة كي يحتل مكان أستاذه على رأس المعهد، وذلك لأن مساعدين هذا الأخير - إيكس نير وفليخل - لهما الأسبقية عليه[57]، علاوة على ذلك، بما أنه لم يمتلك أي ثروة شخصية، فلم يكن باستطاعته أن يضع نصب عينيه استلام منصب يكون تعويضه المادي سيء جدًا، علمًا، بأنه في ذلك التاريخ، كان تفكيره قد بدأ يتجه نحو مستقبل مختلف كليًا.

وهكذا بعد أن أظهر فضولًا لا يرتوي حيال العلوم الطبيعية الأكثر تطورًا في زمانه، تعلّم أن يخضع لحقيقة توبيخ مفيستو في فاوست غوته: «عبثًا تحوم من حول العلوم، فلا أحد يستطيع تعلّم إلّا ما هو قادرٌ على تعلّمه[58]».

---

3 كارل ماركس وفريدريك إنجلز، «بيان الحزب الشيوعي» (1848)، باريس، المطبوعات الاجتماعية، 1966، ص.25.

4 انظر، فنسينزو فيروني ودانييل روش: «عالم التنوير»، باريس، فايار، 1999.

5 ويليام جونستون، «روح فيينا، تاريخ ثقافي واجتماعي»، 1938 - 1848، (1972)، باريس، دار PUF، ص. 27. ارجع أيضًا إلى جان كلير، «فيينا، القيامة البهيجة»، كتالوج العرض، مركز جورج - بومبيدو، 1986.

6 سبق أن تناولت هذه الإشكالية في كتابي «رجوعًا إلى القضية اليهودية»، باريس، ألبان ميشيل، 2009.

7 جميع الوثائق المتعلقة بالقيد المدني لأسرة فرويد سبق أن نشرتها ماريانا كرول في كتابها: «سيغموند، ابن يعقوب» (1979)، باريس، غاليمار، 1983. ارجع أيضًا إلى رينيه جيكلورن، «أسرة فرويد في فرايبرغ» (1969)، في: دراسات فرويدية، 11 - 12يناير/ك2 1976، ص.231 - 238. وإلى إرنست جونز ، «حياة فرويد ومؤلفاته»، الجزء الأول: 1856 - 1900(1953)، باريس، PUF، 1958. وإلى هنري ف. إلينبرجر، «تاريخ اكتشاف اللاشعور» (1970) باريس، فايار، 1994، ص.439 - 446. وإلى بيتر غاي «فرويد، حياته» (1988) باريس، هاشيت، 1991. وإلى إيمانويل رايس «Freud and Moses. The

State University of New York، نيويورك، «Long Journey Home 1900. اسم Kallamon(Salomon - اسم سليمان -) تُكتب أحيانًاKalman، أوKallmann، أوKelemen. أما اسم القريةTysmenitz فيمكن أن تُكتب Tysmenicaأو Tisenitz. وكذلك Freiberg تُكتب أحيانًاFreyberg، أوPribor، باللغة التشيكية، وبخصوص Jacob، نجد أيضًا Jakop، كما نجد اسم Peppi مكتوبًاPepi. انظر بهذا الصدد رسالة فرويد إلى حاكم مدينة Pribor، في 25 أكتوبر/ك، 1931.

8 سيغموند فرويد، «رسالة مارتا برناي»، المراسلات، 1878 - 1939(1960) باريس، غاليمار، 1967، ص. 223 - 224. والقول، المغلوط، بوجود «عصاب يهودي»، كان واسع الانتشار في تلك الحقبة، لا سيّما بفضل تعاليم شاركو. ارجع إلى إليزابيث رودينسكو، «تاريخ التحليل النفسي في فرنسا»، (1982 - 1986) وإلى جاك لاكان (1993)، في مجلّد واحد، باريس، «كتاب الجيب»، مجموعة «بوشوتيك» 2009. اختصارًا بالأحرف: HPF - JL.

9 تخيل عدد كبير من الدارسين، دون وجه حق، بأن يعقوب بقي شديد التعلّق بالشعائر الموروثة.

10 أشكر ميشيل روتفوس الذي قدّم إليّ مصادر حول تطور اليهود في الأقاليم الأربعة لإمبراطورية الهابسبورغ.

11 رسائل سيغموند فرويد العائلية وآل فرويد في مانشستر، 1911 - 1938، باريس. 1996، PUF.

12 في 1979، أثناء سعيها إلى تثبيت تحول فرويد إلى المسيحية، زعمت ماري بالماري أنها عثرت على «غلطة مخفيّة» في حياة يعقوب وادّعت دون أي مستند بأن ربيكا قد انتحرت بالقفز من أحد القطارات، انظر أيضًا: «رجل التماثيل. فرويد وغلطة الأب المخفيّة»، باريس، غراسيه، 1979.

13 . تشير شهادة الميلاد إلى اسمه اليهودي، شلومو، المولود في فريبرغ، يوم الثلاثاء Rosc Hodesch السنة 5615 من التقويم اليهودي، أي 6 مايو/ أيار 1856. كان مسقط رأسه في بيت يقع في 117 شارع سيروريبه - صانعي الأقفال - تزعم ماري بالماري بأن آماليا كانت حاملًا قبل الزواج وأن فرويد ولد في 6 مارس/ آذار 1856 وليس في 6 مايو/ أيار، وهذه التأكيدات لا يوجد أي مستند يدعمها، والوثيقة الأصلية هي تحت تصرف من يريد على الإنترنت والتاريخ هو 6 مايو/

أيار وليس أي تاريخ آخر.

14 . مترجم عن العبرية على يد يوسف حاييم ييروشالمي، كتاب «موسى» لفرويد، يهودية لها نهاية وليس لها نهاية (1991)، باريس، غاليمار، 1993، ص 139 - 140. قدّم ييروشالمي فرضية تقول إن فرويد، على عكس ما أكد دائمًا، كان يعرف العبرية، وضوحًا، كان يعرفها أكثر مما ينسب إلى نفسه، إلى روباك الذي، في 1930، كان قد أرسل إليه نسخة بإهداء لكتابه، فكتب فرويد هذه الكلمات: «لم تكن تربيتي يهودية إلّا قليلًا ولذلك لا أستطيع أن أقرأ إهداءك المكتوب على ما هو ظاهر بالعبرية، وقد تحسرت لاحقًا على هذه الفجوة» (سيغموند فرويد، المراسلات، المصدر السابق، ص430).

15 . سيغموند فرويد، «تأويل الأحلام» (1900)، باريس، PUF، 1967، ص 171. لقد اخترت ترجمة إينياس ميرسون، بمراجعة وتدقيق دينيز بيرجيه، كانت ترجمته الأولى بعنوان «علم الأحلام»، ثم أعيدت طباعة الكتاب باللغة الفرنسية تحت عنوان «تأويل الأحلام». في الحقيقة Die Traumdeutung يجب ترجمتها «تأويل الحلم»، وهذا هو العنوان الذي اعتُمد منذ 203 في المجلد الرابع من «الأعمال الكاملة لفرويد. التحليل النفسي» (OCF , P)، في PUF، وكذلك عند جان - بيير لوفيفر في الطبعة الصادرة عن دار سوي بتاريخ 2010.

16 سيغموند فرويد، «في ذكرى الأستاذ هامرشلاغ» (1904)، في «المجموعة الكاملة لأعمال فرويد»، المجلد السادس، ص.41. وأنا قد أعدث ترجمة المقطع، انظر أيضًا سيوفرهم، «فرويد، قارئ التوراة» باريس، puf 1984 وانظر على حدّ سواء إرنست هامرشلاغ (حفيد صمويل)، مكتبة البيت الأبيض، أرشيف 113.

17 ثمة ريبة تحوم حول الاسم الذي نُسب إلى تلك المربية، فاسمها في وثيقة رسمية بتاريخ 5 يونيه/حزيران 1857 هو ريزي فيتيك، أمّا اسم مونيكا زاييك فنجده في وثيقة أخرى باعتبارها من قريبات حدّاد الأقفال زاييك، وكانت أسرة فرويد تسكن عنده في فريبرغ، والمؤكد أن المرأتين هما امرأة واحدة لا غير باسمين مختلفين. انظر ماريانا كرول، «سيغموند، ابن يعقوب»، المصدر السابق. ص335.

18 سيغموند فرويد، «رسائل إلى ويلهلم فليس» 1878 - 1904، الأعمال الكاملة، باريس، PUF، 2006، تاريخ الرسالة 3 أكتوبر/ت1، ص. 341. وكذلك، «ولادة التحليل النفسي» (1950)، الأعمال الكاملة، بإشراف ماري بونابرت، وآنا فرويد، وإرنست كريس، باريس، PUF، 1956.

19 سيغموند فرويد، «ثلاث دراسات حول نظرية الجنس»، 1905، باريس، غاليمار 1987.

20 ماريان كرول هي التي جاءت بتلك الفرضية وتبعها كثيرون من بعد ذلك...

21 سيغموند فرويد، «الذكريات - الساترة» (1899)، في «عصاب، وذهان، وشذوذ»، باريس، PUF، 1973، ص. 126 - 121. سيغفريد بيرنفيلد، «صفحات مجهولة من سيرة فرويد»، إيماغو الأمريكية، 1946، 1، 4؛ وسوزان كاسيرير - بيرنفيلد، «الطفولة المتأخرة عند فرويد»، نشرة مينينجر كلينيك، 1944، 8، ص 115 - 107. كما سبق وأشرت، فأنا تجنبت بعناية إعادة بناء حياة فرويد انطلاقًا من إعادة تأويل أحلامه.

22 سيغموند فرويد، «رسائل إلى ويلهيلم فليس»، المصدر السابق، ص 340.

23 سيغموند فرويد، «تأويل الحلم»، المصدر السابق، ص412.

24 فريتز ويتلز، «فرويد، الإنسان، والمذهب، والمدرسة»، باريس ألكان، 1925، ص. 46 - 47. إعادة الطباعة عند إدوار تيمز، «فرويد والمرأة - الطفل. مذكرات فريتس ويتلز»، باريس 1999، PUF.

25 ثمّة آخرون من غاليسيا ارتقوا إلى مواقع بارزة: إيزيدور إسحاق رابي، الذي هاجر والداه إلى الولايات المتحدة الأمريكية في 1899 والذي حصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1944؛ وكذلك رولد هوفمان، المولود في 1937، والمنفي إلى الولايات المتحدة الأمريكية، سوف يحصل هو أيضًا على جائزة نوبل في الكيمياء، وجورج شارباك، المهاجر إلى فرنسا، والحاصل على جائزة نوبل في الفيزياء، وكان فرويد يحلم كثيرًا بتلك الجائزة التي لم يحصل عليها أبدًا.

26 سيغموند فرويد، «تأويل الحلم»، المصدر السابق، ص175.

27 سيغموند فرويد، «حول ما قبل تاريخ تقنية التحليل النفسي» (1920)، في الأعمال الكاملة، الجزء الخامس عشر، ص268. إرنست سيمون، «فرويد وموسى»، في Entscheidung zum Judentum.Essays and Vortrage، فرانكفورت، سيركامب، 1980. ويشير جونز أن تلك الهدية قُدمت إليه في عيد ميلاده عند بلوغه أربعة عشر عامًا.

28 سيغموند فرويد، «تأويل الحلم»، المصدر السابق ص127.

29 ألان دو ميولا، «عمي جوزيف في الصفحة الأولى»، دراسات فرويدية، 15 - 16 أبريل/نيسان/1979، ص 183 - 192. نيقولا راند وماريا توروك، «أسئلة متعلقة بفرويد»، باريس بِلَ ليتر، 1995.

30 سيغموند فرويد، «رسائل الشباب» (1989)، باريس، غاليمار، 1990. سوف يستقبل فرويد زوجة هذا الشخص لاستشارة طبية، واسمها بولين سيلبيرستين (1871 - 1891)، وكانت مصابة بعصاب الكآبة، وسوف تنتحر بإلقاء نفسها من الطابق الأخير في البناية، انظر ج. و. هاملتون، «فرويد وانتحار بولين سيلبيرستين»، مجلة التحليل النفسي، 89، 6، 2002، ص 889 - 909.

31 المصدر المذكور سابقًا، ص 134 - 133.

32 سيغموند فرويد، «تأويل الحلم»، المصدر السابق، ص. 191.

33 وهذه الصحيفة جاءت عقب صحيفة Die Presse، وكانت قد صدرت في ربيع مارس/أذار 1848.

34 سيغموند فرويد، «رسائل الشباب»، المصدر السابق، ص 46 وجرى الرجوع إليها في «الذكريات - الساترة»، المصدر المذكور سابقًا.

35 المصدر السابق، «رسالة إلى إيميل فلوس»، ص228. ميزيريتش (أو غروس - ميزيريتش) هي مدينة من مورافيا واقعة بين فريبرغ وفيينا. وقد تخيَّل بعض الصحافيين أنهم يستطيعون الإمساك بخيط من معاداة الساميّة في هذا الوصف.

36 المصدر السابق، ص 230.

37 آنا فرويد - برناي Eine wiener in new York: die Erinnerungnen der schwester Sigmund Freuds، المطبوع من طرف كريست فريد توجل، برلين، أوفبو فيرلاغ، 2004.

38 جوديث هيلر - برناي (1858 - 1977)، لوسي ليا - برناي (1886 - 1980)، هيلا - برناي (1893 - 1994)، مارتا (1894 - 1979). بخصوص القدر الاستثنائي لإدوار برناي (1891 - 1995)، صاحب النظرية الحديثة في الدعاية انظر لاحقًا. ومارتا برناي، شقيقة إيلي، سوف تتزوج سيغموند فرويد.

39 هيرمان غراف (1897 - 1917)، كاسيلي غراف (1899 - 1922).

40 مارغريت فرويد - ماغنوس، الملقبة غريتل (1887 - 1984)، ليلي فرويد - مارلي (1888 - 1970)، مارتا جيرترود الملقبة توم سيدمان - فرويد (1892 - 1930) تيودور فرويد (1904 - 1927)، جورج فرويد (1904، توئمان ولدا ميتين). انظر، كريست فريد توغل - Luzifer Amor ,»Freuds Berliner Schwester Maria(Mitzi) und ihre Familie«، 33، 2004، ص. 33 - 50 وليلي فرويد - مارلي، في «خالي سيغموند فريد»، برلين أوفبو فيرلاغ، 2006.

41 روز وينترنيتز - والدينجر (1896 - 1969). بخصوص مصير وشهادات أبناء وبنات الأخوة لفرويد، كما جمعها كورت إيسلر لصالح مكتبة الكونجرس.

42 هذا الانخفاض الذي تنبه إليه جميع علماء السكان لا يمكن أن ننسبه إلى منع الحمل بكل بساطة، والذي بدأ ينتشر في الأوساط الميسورة، باستخدام الواقي أو بقطع الاتصال عند القذف، وأنا تناولت هذه المشكلة «العائلة المضطربة»، باريس، فايار، 2002.

43 ماري بونابرت، اليوميات غير المنشورة.

44 جاك لوريدر، «الحداثة في فيينا وأزمة الهوية»، باريس1994 ،PUF. وبيتر غاي، «فرويد»، المصدر السابق، ص22 - 27. وفي مقالة لاهبة، أكد جاك بينستو بأنه لا وجود لأي معاداة للسامية في فيينا نظرًا للوجود الكثيف لليهود في الوظائف الحرة والثقافية، وأن فرويد هو الذي اخترع الاضطهادات المعادية للسامية بحقه: «أكاذيب فرويدية»، هاين، مارداغا 2002، ص.190 - 191. بل على العكس، فهذا الوجود الكثيف لليهود هو الذي كان من وراء تزايد معاداة السامية في فيينا.

45 حول ولادة هذا الثنائي الجهنمي، ثنائي السامي والآري، انظر موريس أوليندر، «لسانا الجنة. آريون وساميون: ثنائي رحماني»، باريس، غاليمار/سوي، مجموعة، «الدراسات العليا» 1989.

46 أندريه بولزنجر، «لوحة عن سيغموند فرويد. كنوز مراسلات»، باريس، كامباني بريمير، 2012 ص132.

47 سيغموند فرويد، «سيغموند فرويد يقدم نفسه بنفسه» (1925)، باريس، غاليمار، 1984، ص16.

48 من بعد لويز فون كاربانسكا، عالمة النفس البولونية، نحن مدينون لماريا دورير، في 1932، بأول دراسة علمية حول أهمية طروحات هربار في ولادة النظرية الفرويدية عن اللاشعور: «القواعد التاريخية للتحليل النفسي»، باريس آرمتان، 2012. كما أن المؤرخ والمحلل السويدي أولا أندرسون سوف يعود إلى هذه المسألة في 1962: «فرويد قبل فرويد. التحليل النفسي في مراحله الأولى»، باريس، سانتيلابو، سلسلة. «الممانعون للتفكير في حلقة مستديرة»، 1997، مقدمة بقلم إبير ماغنوس جوهانسون وإليزابيث رودينسكو. مع، في ملحق، تبادل رسائل بين أندرسون وإيلينبرجر.

49 جوزيف بانيث سوف يأتي هو أيضًا ويقدم دعمًا ماليًا لفرويد. انظر شهادة ماري بانيث (كنّة جوزيف بانيث)، 7 آذار 1950، ونقل هذه

المعلومات كورت إيسلر.

50 إرنست جونز، «حياة وأعمال سيغموند فرويد»، الجزء الأول، المصدر السابق، ص.32. على أن فرويد لن يُبعد نفسه بمقدار ما كان يعتقد عن التأمل الفلسفي، وهو ما سوف يمر معنا لاحقًا.

51 لدراسة المنهج التشريحي - السريري (إكزافييه بيشا)، انظر ميشيل فوكو، «ولادة الفحص السريري»، باريس، PUF، 1963. حول الفيزيولوجيا والطريقة التجريبية، انظر جورج كانغيلهم، «كلود برنار»، في «دراسات تاريخ وفلسفة العلوم»، باريس، فرين، 1968.

52 سيغموند فرويد، «رسائل الشباب»، المصدر السابق ص171.

53 نجد وصفًا جميلًا لحياة هذا الوسط في كتاب ألبريخت هرش مولر، «جوزيف بروير» (1978)، باريس، PUF، 1991، ص52 - 72.

54 سوف نجد تحليلًا جيدًا عن تلك الحقبة من حياة فرويد عند فرانك ج. سولو واي، «فرويد، بيولوجيَ الفكر» (1979)، مقدمة بقلم ميشيل بلون، باريس، فايار، 1998. في هذا الكتاب، سولوواي يطرح فرضية (موضع نقاش) تقول إن فرويد بقي طيلة حياته عالم بيولوجيا متستر (عالم بيولوجيا باطني) رغم توجهه نحو علم النفس. انظر أيضًا فيليب جيراردين وجيرترودي فان دو فيفير (مباشرةً)، «عند منابع التحليل النفسي»، باريس، هارماتان، 2006.

55 جاك ريدر، «يهود فيينا إبان العصر الجميل»، باريس ألبان ميشيل، 2012، ص142.

56 إليزا غومبيرز، زوجة تيودور غومبيرز، كانت تعاني من اضطرابات عصبية، واستشارت شاركو، الذي حوّلها نحو فرويد في 1892 كي تلتزم بعلاج تطهيري. وقد استخدم فرويد الكهرباء والتنويم المغناطيسي، ولا يمكن بحال من الأحوال القول بأن ذلك العلاج قد فشل كما يُلمّح ميكائيل بروخ - جاكوبسن، في «مرضى فرويد. أقدار»، أوكسير، مطبوعات العلوم الإنسانية، 2011، وبقيت إليزا طيلة حياتها على ما هي عليه، امرأة «عصبية» ومكتئبة، غير أن علاقتها مع فرويد ظلت ممتازة.

57 فليخل توفي باكرًا في 1891 وبالتالي كان من نصيب إيكسنير أن يخلف بروك.

58 سيغموند فرويد، «سيغموند فرويد يقدم نفسه بنفسه»، المصدر السابق، ص17.

الفصل الثاني
غراميات، وعواصف، وطموحات

كما قلت، غالبًا ما أكّد فرويد بأن حياته بأكملها طُبعت بطابع ضرورة إيجاد صديق صدوق وهو في الوقت نفسه عدو لدود، وفي 1899، مستشهدًا بما جاء في «فاوست»، أشار بهذا الصدد إلى أن جميع صداقاته الذكورية كانت تجسيدًا لصورة من طفولته - ابن أخيه جون - «الذي تجلى أمام عيني في غابر الأيام من خلال نظرة قاتمة، ألا فإن تلك الصداقات أشباح هائمة عائدة من الماضي[59]».

إن فرويد، بإشاراته مرات ومرات، إلى نصوص غوته، نسب إلى نفسه كيانًا مشابهًا لكيان أمير الآداب الألمانية، كاتبه المفضل، كان معجبًا مثله بالـ Weltliteratur، الأدب العالمي، والحضارة الإغريقية - اللاتينية، والمشرق، وشهوانية أوائل الشعوب، وكان يستحب سرد قصة الصائغ ديميتريوس الذي، في العام 54 في إيفيز، وقف في وجه اليهود، والمسيحيين، والرسول بول؛ لأن الديانة التوحيدية الجديدة راحت تهاجم الآلهة القديمة وتجارة التماثيل الصغيرة للربة أرتميس: «عظيمة هي ديانا الإيفيزيين»، هكذا كان المتمردون يهتفون، وها هو فرويد، كما غوته، يجعل من الصائغ رمزًا لمقاومة الفنان للعدوانية الدينية، مع التذكير بأن تصاوير الربة - الأم (Ur Mutter) كانت موجودة في جميع العبادات منذ أوبيس البدائية وصولًا إلى العذراء مريم[60].

كان فرويد يشعر بأنه وريث غوته، فهو مثله كان المفضل عند أمه؛ لأنه وُلد «أسود[61]» وبانتظاره قدر بطولي، كان ينتسب إلى فاوست وإلى مفيستو سواءً بسواء، ولذلك أخذ على عاتقه باكرًا جدًا إظهار ما كان خطاب العقل يحاول وضع حجاب عليه: الجانب المظلم عند البشر، ما هو شيطاني لديهم، باختصار، المكبوت، المجهول، الجنس المحرم، الغرابة، اللاعقلاني، الأمراض والعلاجات جميعها[62]، وفوق ذلك، كان فرويد يشترك مع غوته بالتقديس نفسه للطبيعة، وبالنفور من التعصب العقائدي، وبحب مجنون للأركيولوجيا وإيطاليا، وإهمال ورفض الميتافيزيقا وقدرة لا مثيل لها على بناء صداقات دائمة ومن ثم فك عرى هذه الصداقات.

ألا وإنه وفق العرف النقي في الـ Sturm und Drang (العاصفة والشغف) - وهو العرف المتجسد لدى غوته في «آلام فيرتر[63]» - ها هو فرويد، العالم الوضعي، الدارويني والعقلاني، الساعي إلى المجد والمخاصمة، المتخصص في دراسة الحيوانات البحرية، يقع في غرام مارتا

بيرناي، وعمره ستة وعشرون عامًا. ومنذ الانفعال الذي شعر به حيال جيزيلا فلوس قبل عشرة أعوام خلت، لم يكن قد أولى الفتيات كبير اهتمام، إنه يعاني الكبت، والقلق الشديد، والنوراستانيا، ولذلك كان دوريًا ضحية أمراض جسدية: توعكات، إغماءات، اضطرابات قلبية وهضمية، حالات الصداع، آلام عصبية ذات منشأ التهابي، والتهابات كولون، إن جسده، الذي كان يطلق عليه اسم «كونراد التعيس»، لم يكن يتركه أبدًا في حالة راحة. فذات يوم، أصيب حتى بتيفوئيد خفيف وبعد ذلك بحالة خفيفة من الجدري، ونظرًا لأوجاعه الجسدية المستمرة، وهو الشغيل الذي لا تضعف همته، سرعان ما أصبح تحت سيطرة النيكوتين، بصيغة سيجارة أولًا ومن ثم بصيغة سيجار: عشرون مرة في اليوم[64]، الإنسان الذي يُقاسي من الألم هو وحده القادر على إنجاز شيءٍ ما، هكذا كان يفكر، وإذا ما وصل إلى البحبوحة والرفاه، لا يعود بإمكانه أن يبدع ولا أن يفكر، في 1897، أعلن بأن المخدرات المسكنة لم تكن سوى بدائل عن ممارسة العادة السرية: تلك الحاجة المميزة للجنس البشري الخارج من العالم الحيواني[65]، فكيف يمكننا الامتناع عن توجيه تفكيرنا إلى تلك الكلمة الشهيرة عند داروين والتي تناسب تمامًا إلى حدٍ بعيد ولادة وصيرورة مؤلفات فرويد: «الشيطان بوجه القرد بابوان هو جدنا»؟

ومن جديد، نحن حيال قصة عائلية وحكاية لقاءات متقاطعة، لقد ولدت مارتا في هامبورغ، في 26 يوليه/تموز 1861، وهي ابنة بيرمان بيرناي، تاجر أجواخ ومطرزات، كان قد تعرض لإفلاس وحُبس لقيامه بصفقات مشبوهة ثم استقر به الحال في فيينا 1869. رغم ضعف ثروة آل بيرناي، كانوا يعيشون وضعًا اجتماعيًا وثقافيًا أعلى من وضع آل فرويد، إن يعقوب بيرناي عالم لغوي ألماني متعلق باليهودية الأرثوذكسية، وهو شقيق بيرمان وعم مارتا، وكان قد رفض تغيير دينه، مفضلًا التخلي عن منصب أستاذ في جامعة بروسيا على خيانة إيمانه. كان من شُراح أرسطو، وقد بيّن بجلاء - على عكس التفسير الكلاسيكي - الطابع الطبي العلاجي في الكاتارسيس، التي كان ينظر إليها ليس كعملية تطهير للنفس وإنما بالأحرى عملية علاج من الأسلاف الغابرين، ومصدرها العالم الطبي الناشئ من حول هيبوقراط وتتيح تقليص أعمال العنف الجماعية، وكان أن ورث اليونان ذلك التقليد. ورغم أن فرويد لم يعرف هذا الشخص، كان يُكن له إعجابًا كبيرًا كعالم متين وكزاهد وأنه محب للرجال، كما كان عشيق الشاعر بول هيز، تلميذه القديم[66].

كانت مارتا، الطفلة الخامسة من بين مجموعة من ستة أطفال توفي

منهما اثنان في عمر صغير كما توفي الثالث في سن المراهقة، شديدة التعلق بشقيقها إيلي، الذي أصبح رب العائلة بعد موت بيرمان، وبشقيقتها الصغرى مينا، التي لم تكن تشبهها في أي شيء، كان الثلاثة يعيشون مع أمهم إيميلين، وهي ابنة عائلة من التجار، ويهودية تمارس الطقوس الدينية، وكانت ذات عنجهية، وأنانية، ومشبعة بالحجج الدينية وهي التي، حسب الطقس الأرثوذكسي، كانت قد ضحت بشعرها غداة ليلة عرسها كي ترتدي الباروكة.

وإذ أصبح إيلي خطيبًا لآنا، شقيقة سيغموند، كان غالبًا ما يزور الأسرة بصحبة أمه وشقيقتيه، وذات مساء من شهر أبريل/نيسان تعرفت مارتا بذاك الذي سوف يكون زوجها مستقبلًا، وعند رؤيته لتلك الصبية الأنيقة، ذات الملامح الدقيقة والشعر ذي اللون القاتم بفستانها ذي الياقة المرتبة والمزينة بباقات من الخيوط الرفيعة، شعر فرويد بإحساس غريب، واقتنع في لحظة بأنها سوف تكون امرأة حياته، فهي امرأة على عكس والدته، وهكذا استسلم وانجرف مع تلك الحالة الغرامية التي كان على الدوام يتهيب من آثارها المدمرة، فطيلة سنوات دراسته لم يكن قد فكر سوى بالعلم والشهرة وإن كان الثمن كبت مشاعره.

ورغم خجله المرضي، فقد سارع إلى الفوز بتلك المرأة، التي كان بعض العشاق الآخرين يحومون حولها والتي أراد أن يكون هو المسيطر عليها، ففي كل يوم، كان يرسل إليها وردة ومعها بيت شعر باللغة اللاتينية. في 27 يونيه/حزيران1882، عقدا خطوبتهما سرًا وقررا بتوافق ما بينهما أن يحترما التقاليد الفيكتورية في ذلك الزمان والتي كانت تُجبر المقبلين على الزواج بالتزام فترة طويلة من العفة ما قبل الأعراس، وكان فرويد لم يُكمل تأهيله الطبي وبالتالي لا يستطيع التفكير بتأسيس عائلة سريعًا.[67] في أواخر القرن التاسع عشر، كانت الفتيات من بنات المجتمع الراقي، خاضعات لخطوبات لا نهاية لها وينخرهن الحرمان والكبت، ولذلك غالبًا ما كنّ يقعن في غصايات هيستيرية تقودهن إلى عيادات المختصين بالأمراض العصبية، وأما الذكور، فكانوا من رواد البيوت المشبوهة أو أنهم يقيمون علاقات مع نساء متزوجات، هنّ أيضًا مرهقات بسبب حياة زوجية غالبًا ما تكون رتيبة ومملة، غير أن فرويد اختار التعفف، والمخدرات، والانتشاء الرومانتيكي والإعلاء، وهذا ما أدى به ليكون من أبرع كُتاب الرسائل.

فقد تبادل، لسنوات، مع مارتا التي كانت تعيش في واندسبك، قرب هامبورغ، رسائل غرامية بالأكداس وفيها كان يُعبر عن نفسه على التناوب

كطاغية، كآمر متشدد، مثلما هو غيور، وكئيب، وفياض بالكتابة وقادر، حتى في أدق التفاصيل، على وضع خطط لمشاريع الحياة اليومية وصولًا إلى وصف مسبق للكيفية التي يرى اتباعها من أجل تنظيم بيته الصغير، وكان على مارتا أن تكون أميرته الوديعة، كما كان يؤكد، الأميرة التي تُقدم إليها آلاف الهدايا، وآلاف الملابس الأنيقة، لكن المطلوب منها أيضًا أن ترابط داخل الركن العائلي للقيام بتنظيم الأمور المنزلية وكذلك لتعليم وتنشئة الأطفال، وبالتالي يجب أن تدير ظهرها لكل مشروع يدعو للتحرر، كان فرويد يناقض في كل صفحة مقولات ستيوارت ميل علمًا بأنه هو الذي ترجم كتابه المكرس لموضوع حرية النساء.

مثلما أنه، كان يفكر على عكس ما هو عليه حين يتبنى في حياته الخاصة ذرائع وسلوكيات هيمنة، علمًا بأنه يستنكرها في خياراته العامة، وكانت مارتا ترد عليه دائمًا بشيء من الحزم معلنة بأنها لا تقبل أن تكون خاضعة لمثل هذا الاستبداد، دون أن تتوصل أبدًا إلى منع خطيبها من إعلان غيرته وشعوره بالمنافسة حيال أولئك الذين كانوا يترددون عليها، لا سيما فريتز وال، وهو فنان ذو جاذبية، وكان قد تجرأ على اختطاف قبلة منها، كما كان فرويد يحظر على أميرته الغالية والرقيقة أن تتصرف بعفوية وإلفة مع المعجبين بها، أو حتى أن تمسك بذراع رجل حين كانت تستمتع بالتردد على مركز التزلج، وذات يوم، شعر بالإهانة لأنها قامت بزيارة إحدى صديقات الطفولة التي كانت قد أقامت علاقة جسدية مع خطيبها قبل زفافها، كان يريدها في صحة جيدة، ويشعر بالقلق إزاء وزنها وشحوب بشرتها، بكلمة مختصرة، كانت حالته الغرامية وتعففه يجعلانه لا يُحتمل، مثلما هو أيضًا مستبد، ولا عقلاني.

ولاقتناعه بأنه مغرم بمارتا أكثر مما هي مغرمة به، وصل به الأمر إلى توبيخها لأنها أعطته موافقتها دون أن تشعر حياله بميل حقيقي، ناهيك أنه كان لا يكفّ عن الشكوى من الأوجاع التي يعاني منها حين يظن بأنه قد تبين له أنها إنما تبذل جهدًا دون طائل كي تحبه، في يونيه/حزيران 1884، وضع جردًا بالعلاقات بينهما: «أنا فرضت نفسي عليكِ وأنتِ قبلت دون ميل كبير، أعلم في النهاية أن كل شيء قد تغير وأن ذلك النجاح الذي كنت أرغب به أكثر من أي أمر آخر في العالم، والذي جعلني غيابه في غاية التعاسة، يسمح لي أن آمل الحصول على نجاحات أخرى أنا ما أزال بحاجة إليها[...] كنا نتشاجر من دون توقف ولم تكوني أبدًا تفعلين أيّ شيء كي ترضيني، كنا مثل مخلوقين آراؤهما متباعدة في جميع تفاصيل الحياة وهما مع ذلك يريدان أن يحب أحدهما الآخر وهما متحابان رغم كل شيء،

في ما بعد، لم نتبادل كلمات جارحة لفترة طويلة، وأصبح لزامًا عليّ الاعتراف بأنك أنتِ الفتاة التي كنت أحب وكنتِ نادرًا ما تقفين في صفي بحيث إنه لا يمكن لأحد، عندما يرى تصرفكِ، أن يفكر بأنك فعلًا في طريقك لمشاركتي حياتي[68]».

وفي سعيه من جديد للعثور على العدو الذي لا غنى عنه، شرع بتنمية كراهيته حيال إيميلين، أم مارتا، والتي كانت تقابله كراهية بكراهية، والتي - على العكس من ابنتها - لم تكن لتقدر صهرها المقبل بصفة إنسان استثنائي، علمًا أنها كانت تعترف له ببعض الحسنات: الثبات على الموقف، الإصرار، الإقدام. وإذا كان فرويد قد سبق له أن وقع في غرام شابة يافعة؛ لأنه كان يعجب فيها بما هو ظلٌ لوالدتها، فهذه المرة بذل جهده لفصل الأم عن البنت، فكان يلوم الأم بأنها تشبه الرجال وأنها حرمته من ابنتها حين غادرت فيينا لتسكن في واندسبك، وفوق ذلك، كان يتهكم على المكشوف من الممارسات الدينية لعائلة برناي. كان يطلق صفة تزهات ظلامية على الشعائر المرافقة للطعام، وعلى التقيد بيوم السبت، وكان يحض مارتا كي تتخلص وتنفض يدها من ذلك وإلا فإنه سوف يوبخها. إن قدر الفتيات، كما كان يقول أيضًا، هو مغادرة الأب والأم والانتقال إلى سلطة الزوج.

وحيث أن مارتا كانت قد كلّفت شقيقها إيلي بإدارة قسم من الدوطة التي ورثتها من عمها يعقوب، فقد اغتنم فرويد ذلك ووجد وسيلة للتخاصم مع شقيق زوجته المستقبلية حتى أنه اتهمه بتلاعبات مشبوهة مطالبًا زوجته المقبلة بقطع العلاقة مباشرةً معه، وواقع الأمر، كان إيلي ضحية لابتزاز من طرف امرأة، هي دون شك عشيقة قديمة، راحت تطالبه بالمال لتنشئة الطفل الذي يفترض بأنها رزقت به منه هو بالذات، وهكذا صرف الدوطة المخصصة لشقيقته، وإذْ شعرت مارتا بالإهانة، فقد دعمت موقف إيلي الذي تعامل معه فرويد على أنه زنديق، وكان لا بد من انتظار وقوع زواج إيلي من آنا[69]، في 1883 كي تصل تلك العداوات إلى نهايتها.

مثلما أن فرويد شعر بالحاجة لخلق عدو كي ينتزع المرأة المرغوبة من محيطها، كذلك فإنه، كي يجعلها تحبه، لجأ في معركته إلى صديقة لا غنى عنها: مينا برناي الأخت الصغرى لمارتا، على امتداد هذه الخطوبة الطويلة، أصبحت مينا متواطئة معه وحليفة في المجال الثقافي، وكانت قادرة على التصدي لإيميلين لا سيما في المجال الديني: «أنتِ لا تحبين أمك كثيرًا، كما سوف يقول ذات يوم لمارتا، ولكنكِ تقومين بلياقات كثيرة حيالها، بينما مينا تعبدها دون أن تراعي جانبها[70]»، كان ذلك الوضع يتناسب مع مفهومة للنظام العائلي الموسع. منذ 1882، راح يقول إنه أكثر إنجذابًا إلى

مينا بسبب خطبتها إلى صديقه من فيينا إينياس سكونبيرغ. وكان مأخوذًا بذكاء أخت زوجته المقبلة وبروح النقد اللاذع لديها إلى أبعد حد. ولذلك دأب على كتابة رسائل في غاية الرقة كان يبوح لها فيها بأمور عديدة تخصه ويناديها «عزيزتي، أختي[71]». وحيث أن إيميلين لم تسمح لمينا بأن يخطبها سكونبيرغ، فإن فرويد راح يرسل إليها سرًا رسائل صديقه، وبسبب تلك اللعبة جزئيًا، ما بين مارتا، ومينا، والصديقين افترض بعض الدارسين وجود علاقة، غير معلن عنها في الأرشيف ما بين سيغموند وشقيقة زوجته[72].

كان فرويد قد أصبح على يقين بأن مينا تشبهه وأنها شديدة الشغف بصورة بدائية مثله تمامًا، حتى وإن كانت، جسديًا، يبدو عليها وكأنها توأم شقيقتها، نتيجة لذلك، كان ينظر إلى إينياس - الرجل المتزن والحكيم - وكأنه نسخة عن مارتا التي كانت تفضل أن تكون امرأة قوية ومتسلطة على أن تكون أميرة وديعة ورقيقة، واستنتج من هذا الواقع بأن هذين الثنائيين سوف يشكلان مستقبلًا رباعيًا رفيع القيمة حيث يمكن أن تتمازج، بتناغم، أمزجة متعارضة، وهكذا كان يفكر أن باستطاعته أن يعيد في حياته المستقبلية بناء ذلك المثل الأعلى عن الأخوّة المتعاركة التي كان شديد التعلق بها منذ طفولته، لكن، في عام 1885، قابل سكونبيرغ، وكان قد أصيب بالسل، للمرة الأخيرة قبل أن يلتقي بفرويد في بادن، وهذا الأخير رأى بأن حالته ميؤوس منها. وحين توفي، فقد شعر فرويد بصدمة أكبر وذاك لأنه، قبل الوفاة بفترة قصيرة، علم بنبأ انتحار زميله ناثان ويس الذي شنق نفسه في مبنى للحمامات العامة لدى رجوعه من رحلة شهر العسل، وكان مرشحًا ليحتل مكانة بارزة في مجال علم الأعصاب.

إن رسائل فرويد، المكتوبة أغلب الأحيان بأسلوب مشوش أثناء تلك الحقبة، تشهد على موهبة أدبية حقيقية، كان يكتب كما تقوده ريشته ويعرف كيف يعبر بأسطر قليلة عن مشاعره، وكيف يستجوب لاشعوره واندفاعاته الغريزية، وكيف يبرز بكلمات بسيطة لكنها مختارة باختيار علمي حالاته النفسية، اضطراباته، تردداته، تضارب ميوله، كان دائمًا جاهزًا بسرعة ليتهم نفسه وليتلاعب بروح التهكم، بفيض هادر من الانفعالات، وهكذا كان يحسن إعطاء صورة عن نفسه وعن الآخرين معبرة وبعيدة النظر، راسمًا بالخط العريض هنا وهناك، بورتريهات فائقة العمق والدقة، كما كان يرسم الخطوط العريضة لمواقف، ويروي حكايات وطرائف أو يقص أحلامه من دون أن يغرق أبدًا في اللغة العلمية المتخصصة - رغم استخدامه لكلمات لاتينية - ولا في الاسترسال مع السرد الزاهي، إنه درس

حقيقي في التشريح الرومانسي.

غير أن التهاب المشاعر الغرامية التي برهن عليها في أكثر من مناسبة كانت أيضًا بنتيجة استهلاك مفرط للعقاقير، ما بين 1884و1887، حين كان طبيبًا متدربًا في المستشفى العام، أظهر فرويد حماسة ملحوظة حيال الخصائص العديدة للنَّبتة التي اسمها كوكا (Erythroxylum coca) وللكالويد المستخرج من أوراقها، وهو الكوكايين[73]. إن هذه المادة، المعروفة منذ أواسط القرن التاسع عشر بتأثيراتها القوية والمنشطة جدًا، كانت قد نشرت عنها دراسات عديدة، ونظرًا لشعور فرويد بالتعاسة لأنه كان مضطرًا لترك البحث العلمي والانتقال إلى ممارسة الطب، يأمل بأن يشقُّ طريقه نحو اكتشاف عظيم سوف يحقق له الشهرة. وهكذا انطلق في دراسة تاريخية - سريرية حول فضائل الكوكايين إذا استخدم في الإصابات القلبية، وفي حالات الإعياء النفسي والجسدي والحالات الناجمة عن تعاطي المورفين.

وها هو، يجرب هذه المادة على نفسه بالذات كعلاج معجز يقول إنه يتيح له صد حالات النوراستانيا عنده والتأثيرات المدمرة لتعففه الجنسي: «خذي حذرك يا أميرتي، هكذا كتب إلى مارتا في يونيه/حزيران 1884، عندما آتي سوف أقبلك حتى يحمر وجهك[...] وإذا أظهرتِ عدم الاستجابة سوف ترين من منّا هو الأقوى: الفتاة الصغيرة الناعمة التي لا تأكل ما فيه الكفاية أو السيد الضخم العامر بالنشاط والذي يحمل الكوكايين في جسمه[74]»، وإذ أراد مساعدة صديقه إرنست فونفليخل - ماركسو، الذي جُرح جرحًا بليغًا أثناء تجربة لدراسة تلف الأنسجة ووقع ضحية بتر غير موفق لإبهامه، فقد أشار عليه بالكوكايين، وكان يظن بذلك أن يساعده على تخليصه من التداوي بالمورفين الذي بات لا غنى عنه لتخفيف آلامه، وكان فرويد يجهل حينذاك أن هذا العلاج سوف يؤدي بفليخل إلى تبديل مادة مخدِّرة بأخرى، وحيث إنه لم يكن شخصيًا مرتبطًا بذلك العقار كان يرفض تقبل وجود حالات متعددة من الإدمان، علمًا بأن الأدبيات الطبية في زمانه قد أشارت إليها.

وفي غمرة حماسه، اقترح من طرف آخر على اثنين من زملائه أطباء العيون، كارل كولير وليوبولد كونيغستين، استخدام الخصائص التخديرية للكوكا في عمليات العين، وهكذا أصبح كولير أول مخترع للتخدير الموضعي.

إن حكاية الكوكايين التي ولّدت عند عدد من الدارسين تأويلات تصل إلى حد الهذيان[75]، يجب فهمها كمرحلة هامة في مسيرة فرويد الشاب،

ويروي ذات يوم بأن دراسة الكوكا قد شكّلت لديه allotrion[76] أراد عبثًا أن يجعله بعيدًا عنه: إنها لحظة هامشية لكنها عميقة وجوهرية، بتعبير أخر يجب القبول بأن فرويد اصطدم، عن طريق استخدام هذا العقار، بـ«شيطانه» بـ«hubris»، بغلوه، بذلك الجانب اللاعقلاني من شخصيته والذي سوف يقوده دائمًا إلى تحدي العقل، أكان بسبب الاهتمام الذي سوف يوليه للظواهر الباطنية وللتخاطر أو بسبب انجذابه الذي لن يفارقه إلى أبعد التأملات شططًا. طوال هذه الحقبة، شعر كم يمكن لهذا المخدر أن يكون في الوقت نفسه العلة ودواء العلة، الأداة الشيطانية القادرة على فبركة حالات عقلية مرضية كي يحاول من ثمَّ استئصالها، إن العبور في مجازة المخدر، والذي استمر لسنوات عديدة، كان بالتالي يمثل لديه إعلان الحداد على المقاربة الفيزيولوجية لصالح دراسة الظواهر النفسية.

لقد أتاح له عمله في المستشفى بمقابلة العديد من القامات الشاهقة في العلوم الطبية، وهكذا استطاع فرويد الولوج إلى جميع الاختصاصات: إلى الجراحة عند تريودور بيلروس، وإلى الأمراض الجلدية عند هيرمان فونزيسل، وإلى طب العيون، وإلى مصح الأمراض العصبية، وإلى العلاج النفسي أثناء خدمته عند تيودور مينيير، وأخيرًا إلى الطب الداخلي بإشراف هيرمان نوثناجل، الذي شبهه بأنه عملاق من أقوام التوتون في الغابات الجرمانية في غابر الأيام: «هذا الرجل ليس من جنسنا، شعر أشقر ووجه مغطى بالوبر مع ثؤلولين على الخد وعند قاعدة الأنف[77]».

في هذه الحقبة تعاظم تأثير الطب المرتبط بالمستشفيات في فيينا، وهذا ما أدى إلى عدد كبير من المرضى القادمين من جميع آفاق العالم الجرماني، وترافق ذلك مع موقف فريد لبعض أعضاء الهيئة الطبية ممن انصب اهتمامهم أكثر بكثير على البحوث، على تشريح الجثث، على دراسة تلف الأنسجة، منه على الأمور العلاجية، بالنسبة إليهم، كان التعلق الشديد بالموت أقوى من الرغبة بالشفاء أو بمعالجة أجساد الذين يتألمون، وكان فن الاستشفاء الأكمل قائمًا حينذاك على التقاط مؤشرات في جسم المحتضر لمرضٍ لن يتم كشفه إلّا من بعد تشريح الجثة، وقد واجه فرويد هذا الاختبار حين مكث ليلة بأكملها عند وسادة مريض مصاب بخَفَر الدم وكان يشتبه بأنه أصيب بنزفٍ دماغي. ساعةً بساعة، سجل تطور الأعراض وحضر الوفاة معاينًا كيف يقوم الكائن البشري بالانتقال الكبير.

وفي وسط المستشفى، كان كبار الأطباء يُظهرون اللامبالاة، بل حتى العجرفة الواضحة، حيال المرضى، وهكذا تفتّحت تلك «العدمية العلاجية» التي اتّصف بها الأطباء في فيينا إبان النصف الثاني من القرن التاسع عشر،

ولاقتناعهم، محقين رغم كل شيء، بأن الأمراض جزء من الحياة، فإن أتباع تلك العقلية كانوا يبحثون ويسعون إلى فهم الأمراض وتقديم وصف عنها أكثر مما هم مهتمون بعلاجها[78].

إن تيودور ميينير، المتصل مباشرةً بعرف دراسة تلف الأنسجة، كما تجسد على وجه الخصوص لدى كارل فون روكيتانسكي، وكان أستاذًا كبيرًا في الطب النفسي في فيينا، مثلما هو شخص شديد البأس، غضوب، متقلب المزاج، وقد وُهِب « مظهرًا خارجيًا يصدم بقوة، برأس ضخم مستقر فوق جسم ضئيل، وشعر مشعث اعتاد بصورة تثير الغيظ على أن ينزل فوق جبينه وهو بالتالي لا يكفّ عن إرجاعه إلى الخلف[79]»، من دون شك، ألم تكن تلك الطريقة غريبة على اهتمامه بالاضطراب العقلي (Amentia)؟ لقد استلهم الأنموذج المأخوذ عن هيربار، ولذلك كان يميز القشرة الدماغية العلوية، التي يجعل منها توليفة تجميع للمعطيات الاجتماعية، والقشرة الداخلية، المقر المتميز لما هو بدائي. ضمن هذا المنظور، كان يتمثل الأنا الأولية على أنها القسم الجيني الأول للاشعور، والأنا الثانية على أنها أداة التحكم بالإدراك الحسي، سوف يعود فرويد إلى مقولات ميينير في «مخطط أولي لعلم نفس علمي»[80].

لقد ترك ميينير بصمته على مدرسة فيينا في الطب النفسي حين أبرز أكثر فأكثر الفكرة القائلة بأن جميع الظواهر البسيكولوجية تعود في منشئها إلى عنصر عضوي، وإذ بلور ما هو نوع من «الميثولوجيا الدماغية» الحقيقية، فقد تبنى، في هذا الميدان، وجهة نظر العدمية العلاجية، فهو لم يكن ليهتم كثيرًا بالمختلين الذين هم تحت رعايته، مفضلًا تكريس وقته لدراسة تشريح الدماغ كي يتوصل إلى اقتراح تصنيف «طبيعي» للاضطرابات العقلية.

في 1883، كان فرويد لخمسة شهور تلميذ ذلك العالم الذي ترك لديه أثرًا قويًا، وأثناء تلك الخدمة أتيحت له الفرصة للمرة الوحيدة في حياته كي يعاين عشرات من المرضى العقليين الذين كان الأطباء يفرضون عليهم معالجات جسدية متنوعة من دون الاهتمام بأقوالهم، بكل وضوح، لم يكن فرويد ليشعر بأي ميل لمقاربة الجنون (الأمراض الذهانية) ولم يكن ليشترك مع ميينير بفكرة الميثولوجيا الدماغية، ولا مع عدميته. وحيث إنه كان قد تخلّى عن البحث الفيزيولوجي لينتقل إلى ممارسة الطب، كان عليه أن يأخذ بعين الاعتبار الأمور المتصلة بالعلاج، ولذلك اتخذ قراره بالتوجه بدايةً نحو علم الأعصاب ومن ثم نحو دراسة الأمراض العصبية، تلك الحالات العصابية الشهيرة التي راجت في قلب المجتمع الغربي والتي

كانت تؤدي إلى اضطرابات الشخصية[81]: القلق، الهستيريا، الوسواس، النوراستانيا، وكان هو شخصيًا نتاجًا خالصًا لتلك الحالات، في 1885، بفضل ميينير، نوثناجل، بروك، نال لقب «معالج خاص»، وهذا ما كان يسمح له بأن يكون معلمًا في جامعة فيينا.

إن جوزيف بروير، الابن لأحد الحاخامات، وإن كان ينتمي إلى ذلك الجيل من اليهود أبناء فيينا المهتمين بالاندماج، والمولود في 1842، قد كرّس نفسه هو الأخر للفيزيولوجيا[82]، وفي مخبر إيوالد هرانغ تحديدًا، منافس بروك، بدأ يبحث في مشكلة التنفس، قبل أن يصبح مساعدًا لجوهان فون أوبولزر، وهو طبيب مقيم مشهور، وقبل أن يختار الوظيفة الطبية ليوجه اهتمامه من بعد ذلك إلى علم الأعصاب ثم إلى علم النفس، أي الأمراض العصبية، إنه ممارس إنساني، بعيد جدًا عن العدمية العلاجية عند كبار الأطباء في الكلية، وبذلك عرف كيف ينسج شبكة من علاقات شخصية وسط البرجوازية الميسورة، حتى أنه أصبح طبيب زملائه وعدد كبير من المثقفين في فيينا، من بينهم، برينتانو، بيل روث، رودولف شروباك، المختص الكبير والمشهور بالتوليد، وأخيرًا ماري فون إيبنر - إيخنباخ، وكانت له معها مراسلات كثيرة: «عند بروير، كما كتب هيرشمولر، كان المرضى يجدون، علاوة على الطبيب الكفء، محاورًا يحض على الكلام وصديقًا شخصيًا، كان يمثل النمط الصحيح لطبيب الأسرة كما عُرف مع مطلع القرن التاسع عشر لكنه، مع تزايد التخصصات، بدأ يتضاءل وجوده تدريجيًا[83]».

كان فرويد قد قابله في حدود عام 1877 - قبل ذلك بفترة بسيطة - وحضر محاضراته حول الإصابات الكلوية مع ارتباطه في الوقت نفسه، مثل الأستاذ نفسه، بارتباطه بفليخل وإكسنير، تدريجيًا وجد لدى ذلك الطبيب المعتدل راحةً دائمة، ومن جديد، وقع تحت سحر الصديق الذي لا غنى عنه، القادر على أن يحتل، في خياله العائلي موقع الأخ البكر.

كان بروير يعبر عن كرم كبير حيال أصدقائه. وها هو يساعد فرويد ماديًا، ويجود عليه بالنصائح المستنيرة مشجعًا إياه على سبيل المثال كي يختار علم الأعصاب بدلًا من الطب النفسي، أو كي يوجد أفضل العلاقات مع البوجوازية في فيينا، وختامًا، بعد ملاحظته لفضوله الشديد حيال التجارب التجددية أو المتجاوزة للحدود، فقد دفعه كي يهتم بالتنويم المغناطيسي الذي هو موضع مقت شديد من طرف القائلين بالعدمية، لأنهم يرون في تلك التقنية القائمة على تنويم مرضى من أجل غايات علاجية أنها تقنية غير جديرة بمثلهم الأعلى في البحث العلمي، لكن بروير أصر

على إظهار تفهمه لتلك التجربة الناجمة من التأثر المغناطيسي قديمًا. برينتانو نفسه حدثه عنها أفضل حديث مشيدًا بها، بعد أن قام بالزيارة في بريسلو، إلى عالم الفيزيولوجيا رودولف هيدنهين الذي كان يهتم بالحالات المعدلة في الوعي[84] والتي كان يَظن بأنها حالات تساعد على كشف أسرار الاعتلالات المكبوتة فيه ما دون الشعور.

في عام 1880 تولى بروير علاج برتا بابنهيم، وهي شابة من فيينا عمرها أحد عشر عامًا وتنتمي إلى عائلة يهودية متشددة، كانت تعاني من أمراض هستيرية خطيرة، وبعد هذا التاريخ بأربعة أعوام، استقبل فرويد، الذي كان يعرف قصة برتا، مريضته الأولى المصابة باضطرابات مماثلة.

بالنسبة إلى جميع أولئك الذين كانوا في تلك السنوات يتوجهون نحو مداواة الأمراض العصبية، كانت المدرسة الفرنسية تتبدى، بأنها أكثر تطورًا من المدرسة النمساوية، وهكذا كانت باريس بنظر الباحثين الشبان، عاصمة أكثر المعارف تطورًا في هذا المجال، ألح فرويد كي يحصل على منحة دراسية لمتابعة العلم عند ذاك الذي كان يعتبر في جميع أرجاء العالم الغربي، كأكبر اختصاصي في الهستيريا: جان مارتان شاركو، ولقبه «القيصر» في مستشفى سالبيتريير.

هذا الطبيب القادم من وسط اجتماعي متواضع، كان متسلطًا وجميلًا جمالًا مذهلًا، وفي بعض الأحيان يدس يده في سترته السوداء كي يتخذ الوضعية الإمبراطورية، وغالبًا ما كان يرتدي قبعة مستديرة، وكان آنذاك في أوج مجاله الوظيفي، إنه متجهم وصموت، ومصاب بحَوَل خفيف متعارض مع انتظام تقاطيع وجهه الخالي من الشعر، وهذا الشخص الذي يشبه شخصيات هوغو كان يتهيب من الاحتكاك مع البشر رغم تقديره للعلاقات الاجتماعية، كان يعشق الحيوانات وكان يعيش محاطًا بكلاب وبقردة صغيرة وكان يعبّر عن اهتمامه بالسيرك والكائنات المختلفة، المصابة بأمراض عصبية. لقد عرف عنه دفاعه عن مقولات باستور ونضاله ضد صيد الحيوانات وتشريحها حيةً، إنه من الأطباء ذوي النظرة الثاقبة، وهو على اطلاع واسع مثلما هو حساس للأمور الجمالية، ولذلك كان يبدو بعيدًا كل البعد عن المعارك السياسية التي كانت تمزق فرنسا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

إنه وريث مدرسة كلود برنار في الطب التجريبي، رمز النجاح الجمهوري للطب في المستشفيات، وقد توجه نحو علم الأعصاب وقام بوضع وصف للمرض الرهيب الذي يحمل اسمه: التشنج الجانبي في العضلات، في 1870 وبينما كانت باريس تحاصرها القوات البروسية، قرر

إعادة تنظيم المصح الذي كان مشرفًا على أموره وذلك بفصل المختلين عقليًا عن المصابين بالصرع (غير المختلين عقليًا) وعن المصابين بالهستيريا. وهكذا أخذ على عاتقه معالجة مسألة الهستيريا التي كانت تشكل هاجس الخطاب الطبي في ذلك العصر.

هذا المرض المعروف منذ القديم، والذي كان يطلق عليه منذ ذلك الوقت اسم «غُصاب»[85]، اعتبروه على مدى قرون عديدة تعبيرًا عن جنونٍ جنسيٍ يصيب النساء حصرًا وينشأ من الرحم، فالتشنجات والاختناقات التي تهز روح وجسم المرأة ينسبونها إلى حالة شيطانية، لأن الشيطان المخادع، كما كان يقال يدخل في رحم المرأة كي يحرفها عن قدرها التشريحي وكي يمنعها من أن تكون في خدمة استمرار الجنس البشري.

وحقيقة الأمر، أن الانتقال من التصور الشيطاني للهستيريا إلى مقاربة علمية، إنما تمّ مع فرانز أنطون مسمير، عشية الثورة الفرنسية، فمن خلال النظرية الخاطئة حول قوة التأثير المغناطيسي الغريزية، دافع مسمير عن الفكرة القائلة بأن الأمراض العصبية منشؤها اضطراب في انتشار«سيّالة طاقة شاملة عند الجميع». وكان بالتالي يكفي الطبيب استدراج نوبات تشنجية عند المرضى - من النساء عمومًا - ليتم إعادة التوازن إلى الطاقة المفقودة، ومن هذا التصور ولد أول طب نفسي دينامي[86] رفع «العلاجات المغناطيسية» إلى مرتبة الشرف، وهكذا ابتعدت الهيستريا عن الدين وأصبحوا ينظرون إليها كمرض في الأعصاب يصيب النساء اللواتي يقال عنهن «ممسوسات»، أي مسكونات بعفريت الجنس، فهن ساحرات دون إله ولا شيطان، وهنَّ بالتالي مؤذيات للمجتمع ويتهمن أيضًا بأنهن ينقلن علة مخيفة: السفلس، إنهن عندما يعرّين أجسادهن المتهيجة بالجنس، كما كان يقال، يخرقن نظام التناسل والإنجاب، ويرفضن أن يكنَّ أمهات وزوجات.

كان شاركو يستهجن تلك المقولات وهو، أثناء دروسه الشهيرة يوم الثلاثاء والجمعة حيث يحضر أطباء ومثقفون من جميع المشارب السياسية، يعلّم نظريته حول مختلف أوجه استشعار الحالة التنويمية: خدر، تعطل إحساس، حركات مضحكة، نوام، وهناك على وجه الخصوص، أثناء عرض مجنونات سالبيتريير - أولئك النساء من عامة الشعب في حالة النشوة والتشنج -، كان يبين بأن حالات الشلل عندهن أو حركاتهن الفاحشة لم تكن ناتجة عن تأثير شيطاني، ولا عن اختلالات موضعية، وإنما هي ذات منشأ صادر عن صدمة، وكان يقدم البرهان بتغييب ثم إعادة ظهور أعراض المرض، وهكذا فإن بلانش وايتمان، وأوغسطينا غليز، وروزالي ديبوا، وجوستين إتشفيري وكثيرات غيرهن، تعرضن إلى معاملة

سيئة في حياتهن، واغتُصبن أو تعرضن للاستغلال في طفولتهن، وهنّ اللواتي كنّ بطلات تلك التجارب التي قام بها معلم متمرس كانت نظرته العميقة سريريًا تكاد تكون إعجازًا عبقريًا، إن قدرهن أصبح خالدًا بسبب اللوحة التي جاءت على يد أندريه برويي والتصاوير الفوتوغرافية في سالبيتريير على حدّ سواء، وتلك تصاوير أنجزها بول رينيار ومغلوار بورنفيل: وذلك عملٌ بديع على شرف العروض البصرية عن الهستيريا في نهاية القرن.

وكي يبرهن شاركو على أنها ليست داء العصر، فقد جعل منها مرضًا وظيفيًا ذا منشأ وراثي وجزم بأن آثارها كانت ماثلةً في الأعمال الفنية في الماضي. وهو في سعيه لإدانة محققي التفتيش، نوّه إلى أنهم، في زمانهم أمروا بإدانة نساء هستيريات بتهمة ممارسة السحر[87]، ثم إنه، لتخليص الهستيريا من كل زعم ينسبها إلى بيت الرحم، بين أنها يمكن أن تصيب الرجال أيضا، لا سيما بعد صدمات ناتجة عن حوادث في السكك الحديدية، وهكذا فقد ضم إلى الاضطرابات وظيفية (هستيريا كلاسيكية) اضطرابات من بعد صدمات (حوادث سير).

كان شاركو يشترك مع المدرسة الألمانية بعقيدتها حول التموضعات، وكان من رأيه أن إنشاء الطب الحديث يمضي على التوازي مع بلورة تصنيف متين، ودون أن يتبنى مبدأ العدمية، لم يكن يبدي كبير اهتمام بصدد مداواة أو شفاء العُصابات، وكان لا يستخدم التنويم المغناطيسي من أجل غايات علاجية، وإنما للبرهان على صحة تصوره للهستيريا، وهذا ما جعل غريمه في مدرسة نانسي، هيبوليت برنهايم، يوجه إليه اللوم.

ليس هناك أدنى شك بأن شاركو قد جاء بتصور جديد عن الهستيريا. علمًا بأنه لم يستطع القيام بتلك اللفتة إلّا لأن الهستيريا كانت قد أصبحت في جميع أرجاء أوربا التعبير عن تمرد عاجز للنساء في وجه سلطة أبوية هاجسها شبح حدوث تأنيث للهيئة الاجتماعية، لقد ظلت هذه الثورة، في فيينا، ضمن نطاق العائلات البرجوازية، لكنها في باريس - مدينة الانتفاضات الثورية - اتخذت منحى سياسيًا وزاد من طابعه السياسي أن طب الدولة أراد لنفسه أن يكون شعبيًا وجمهوريًا.

وهكذا فإن النساء اللواتي تعرت حالتهن في سالبيتريير كنّ، على غير علم منهن، وريثات تلك الصورة عن الساحرة التي أعيدَ إليها الاعتبار على يد جول ميشليه، والتي كان آرثر رامبو الشاعر الكبير الذي مجد في 1872 «يدَيْ جانا ماري»، تلك البطلة من كومونة باريس والتي عوملت وكأنها «امرأة هستيرية فاجرة» وعذبتها ونكلت بها جماهير فرساي.

لقد تدخل بروك لصالح فرويد وكان هذا الأخير، في يونيه /حزيران 1885، قد شمح له بمغادرة المستشفى كطبيب مقيم لمدة ستة شهور[88]، وفي 13 أكتوبر/ ت[1]، استقر به المقام في فندق السلام، في الشارع المسدود روييه - كولار، في قلب الحي اللاتيني، على مقربة كبيرة من السوربون والبانتيون.

كان قد شعر بسعادة قصوى حين فكر أنه سوف يتسكع في شوارع مدينة الأنوار تلك حيث، لأول مرة في أوربا، تحقق لليهود التحرر والانعتاق، لقد زار مقبرة بير - لاشيز كي يطل على قبريي هاينه وبورن، مع ذلك، لم يكن يشعر بكبير مودة حيال الفكر الجمهوري، نظرًا لتعلقه بمثاليات الأسر الملكية، وهذا ما جعله ينظر إلى الملحمة الثورية الفرنسية على أنها التعبير عن نوع من المرض العقلي، على غرار هيبوليت تين والرجعيين في نهاية القرن، أولئك الذين سيطرت عليهم هواجس ذكريات كومونة باريس والتي كانوا ينظرون إليها على أنها مثل نوبة هستيريا سواء بسواء[89].

إن فرويد، بتبنيه لذلك الخطاب المعادي للثورة ولعصر التنوير، وهو الخطاب الذي نبعت منه مصادر معاداة السامية في العصر الحديث والذي سرعان ما تجسد لدى إدوار درومون[90]، يبدو وكأنه تقريبًا قد نسي حبه لبونابرت، وريث اليعاقبة، لكنه في غلوّ دائم، ولذلك سرعان ما أصدر حكمًا قاسيًا على الشعب الباريسي، كما أنه وجد النساء قبيحات ولم يستطعم كثيرًا المطبخ الفرنسي: «عندي صورة إجمالية عن باريس، هكذا كتب إلى مارتا، ويمكنني أن أصبح سياسيًا بشدة، لأقارنها بأبي هول هائل متألق المظهر ويلتهم جميع الغرباء غير القادرين على حل أحجياته وما لا أدري ماذا تكون [...] لكن قد أكتفي وأقول لك بأن هذه المدينة وسكانها ليس عندهم حقًا أي شيء يبعث في نفسي الطمأنينة، فالبشر هنا يبدون لي وكأنما ينتمون إلى جنس آخر يختلف كليا عن جنسنا، وأظنهم جميعًا مسكونين بآلاف العفاريت وأسمعهم يهتفون «إلى الثورة!» و«يسقط فلان!» بدلًا من «يا سيدي» و« هذا صدى باريس»، أظن أنهم يجهلون الحشمة والخوف؛ والنساء كما الرجال يتدافعن من حول المناظر العارية كما لو حول جثث في المشرحة أو حول إعلانات شنيعة في الشوارع، وفيها إعلان عن رواية جديدة في هذه الصحيفة أو تلك مع إعطاء نبذة عن مضمون الرواية، إنه شعب الجائحات النفسية، والتشنجات التاريخية الجماهرية، وهو لم يتغير منذ رواية نوتردام باريس لفيكتور هوغو. و: في ساحة الجمهورية، رأيت تمثالًا ضخمًا عن الجمهورية ويحمل التواريخ:

1789، 1792، 1830، 1848، 1870، وهذا يعطي فكرة عن الوجود غير المتواصل لتلك الجمهورية البائسة[91]».

إذا كانت الثقافة الجمهورية غير مستحبة لديه وإذا كانت بوريتانيته تجعله أحيانًا ينسى روحه المتمردة، فإن فرويد يظل متحمسًا للظواهر الفنية الأكثر تنوعًا. في فيينا، كان قد أحب دائمًا المسرح والأوبرا رغم إصراره على النفور من ارتياد المقاهي والأماكن التي توصف بأنها زائدة الضجيج، أما في باريس حالما تمكّن من ذلك، فقد توجه إلى الجادات الفسيحة كي يبدي إعجابه بممثلته المفضلة، ساره بيرنهار، التي كان صوتها ونظرتها ينوّمان الجماهير، والتي يمقتها كثيرًا، إنها، كما الحال مع شاركو، راحت تستعرض على المنصات المسرحية التساؤلات السائدة في عصرها حول ثنائية التكوين الجنسي البشري، وذلك بقيامها حينًا بأدوار رجال يصطدمون بأنوثتهم وحينًا آخر بشخصيات نسائية يسيطر عليهن ليبيدو الذكورة، وفي ميلودرامات فيكتوريان ساردو، وهو من قدم فرويد لمارتا وصفًا عنه عامرًا بالحماس، كانت تجسد دور تيودورا، الإمبراطورة الملعونة، وقد ارتدت ملابس بيزنطية فاخرة، وكانت عشيقة طبيب غير مطلع على هويتها الحقيقية.

تردد فرويد على الأوساط الثقافية الراقية في العاصمة، وفي نوتردام باريس شعر بأنه موجود للمرة الأولى في كنيسة لم تكن تذكره بأي شيء عن الكنائس التي سبق له أن زارها في طفولته مع مربيته ناني، وعاهد نفسه أن يعيد قراءة رواية فيكتور هوغو، ولم يكفّ إلى أن صعد على الأبراج ليتجول بين الوحوش والشياطين العابسة فوق الكاتدرائية، وقد توجه تفكيره بالكامل إلى احتضان خطيبته بصورة مسعورة، كان معجبًا جدًا بمعلمه شاركو، حين حضر في إحدى الأمسيات في قصره الخاص في شارع سان - جيرمان وهنالك جذبت انتباهه ابنة شاركو حتى أنه تعمد الابتعاد عنها والبقاء مع «السادة العجائز». لاحظ أنها قبيحة لكن ما يثير التشويق إليها هو «مشابهتها المضحكة» لأبيها، وراح من جديد، يتخيل ما كان يمكن أن تكون عليه حياته لو، بدلًا من محبته لمارتا، وقع تحت تأثير مفاتن جانا شاركو: «لا شيء أخطر من صبية ملامحها كملامح رجل نحمل حياله شعورًا بالإعجاب، فيمكن حينذاك أن يسخروا مني، وربما يسترضونني ولا يعود بين يدي سوى ذلك الشعور بأنني عشت مغامرة جميلة، ألا وهذا أفضل رغم كل شيء[92].» في ذلك المساء، كان قد تناول مقدارًا صغيرًا من الكوكايين، وحلق لحيته وقص شعره، وكان فخورًا بالتباهي بثيابه الجديدة، بذلة سوداء، قميص لا غبار عليه، ربطة عنق كان

اشتراها في هامبورغ، وقفازات بيضاء، كان ينظر إلى نفسه بأنه جميل ويعطي لنفسه عن نفسه أفضل انطباع.

في 28 فباير/ شباط 1886، غادر باريس ليتوجه إلى واندسبك، ومن هناك إلى برلين كي يتابع تعليمه عند أدولف آرون باجنسكي، وهو أستاذ في طب الأطفال ومنخرط انخراطًا كبيرًا في الطائفة اليهودية للمدينة، وهو مرشد لسياسة وقاية من الأمراض الطفولية، والعقلية والعضوية، دون أدنى شك لقد أتيحت له الفرصة في برلين ليكتشف مدى أعمال التعذيب والبتر التي كانت مفروضة حينذاك على الأطفال لمنعهم من ممارسة العادة السرية[93].

رغم أنه لم يحمل كبير تعاطف ومودة حيال أمبراطورية هونهزولرن، كان فرويد يحب برلين، تلك المدينة التي كانت تجسد في ناظريه كمال الثقافة والعلم في العالم الجرماني، وكان لتلك المقابلة أن تتيح له الاستعداد لممارسة وظائف هامة في قسم علم الأعصاب في اشتيندلغاس، المعهد الشعبي الأول في فيينا لمعالجة أمراض الطفولة بإدارة ماكس كاستوس في أبريل/نيسان، استقر في المكان كطبيب خاص في الراتوستراس، وبدأ باستقبال مرضى يرسلهم أصدقاؤه إليه، لقد استكمل ترجمة كتاب شاركو، دون أن يكفّ عن التفكير بمارتا التي بات زواجه منها وشيكا رغم صعوباته المالية وتحذيرات حماته.

ومن شدة مواظبته على التعفف وعلى الـsturm und drang، تارة كي يجد الراحة في الآلام الرومانتيكية، وطورًا كي يتوجه مشروعه بصورة أفضل نحو المستقبل، لم يكن يكف عن رغبته باشتهاء كل شيء ونقيضه، فمن جهة كان ينظر إلى نفسه كرب بيت يعيش إلى جانب زوجة رائعه متفانية بالأعمال المنزلية وبالذرية غفيرة العدد، ومن جهة أخرى كان يخشى بعد اكتمال فترة الخطوبة أن يجد في مواجهته العقبة المخيفة، عقبة «منافسين خطيرين»: تدبير شؤون البيت والتربية للأطفال، ليصبح الزوج الذي ينضم إلى أصدقائه في المقهى، مهملًا لزوجته إلخ..

جرى الاحتفال بالزواج في واندسبك بتاريخ 13 سبتمبر/أيلول 1886، كان فرويد منطلقًا مع أمله بأن هذا قد يكون كافيًا وأنه لم يكون مجبرًا على الخضوع للشعائر الدينية التي كانت ترعبه لكنه، ويالخيبة أمله الكبيرة، قد اضطر على مواجهة الواقع: ففي النمسا لا يمكن لمثل هذا الزواج أن يحظى بالتصديق عليه في حال غياب المراسيم الدينية، وهكذا فقد وجد نفسه مضطرًا، وفي اليوم التالي للقبول باحتفال ديني جرى في كنيس واندسبك على يد الحاخام دافيد هانوفر، وهذا ما جعله يطلب من

الياس فيليب، خال مارتا، مساعدته على استظهار الصلوات العبرية ويعلمه كيف يجب أن تكون وقفته حين سوف يقوم بمناولة القبة الحريرية التي ترمز إلى الهيكل، وفي يوم الزفاف بكامل أناقته وبلحيته على طريقة الوجهاء، اكتفى بوضع معطف وقبعه مستديرة فوق رأسه متجنبا بذلك ارتداء الثياب التقليدية.

حال استقراره في شقته الجديدة في فيينا الترسيانستراس، حزم على مارتا الاحتفال بيوم السبت والطبخ وفق قواعد الـ casherout، هذا ولن يتمّ ختان أيّ من أبنائه[94]. كان رفض الشعائر لدى فرويد يمثل الوسيلة الوحيدة كي يعتبر نفسه يهوديًا بمعنى اليهودية الاجتماعية دون أن يتوجب عليه إنكار هويته باعتناق دين آخر لا على التعيين، فهو على وعي كما كان الحال مع سبينوزا، بأنه وريث شعب كان قد حقق التحام وحدته التاريخية، ليس بالمذهب المقدس حول الشعب المختار، وإنما بالكراهية التي يولدها لدى باقي الأمم، وهو بذلك يجعل من اعتزازه بأنه يهودي أقوى خميرة لمقاومة جميع التقاليد المحافظة[95].

انتقلت مارتا من وضعية الخطيبة المشتهاة بحرارة فائقة إلى وضعية الزوجة والأم المغمورة بالاهتمام والمحترمة والمجردة من الاشتهاء الجنسي القوي، ما بين يناير/ك^{2} 1887 وديسمبر/ك^{1} 1895، أنجبت ستة أطفال: ماتيلدا، مارتن، أوليفر، إرنست، صوفيا، آنا، لقد أطلق فرويد على الصبيان أسماء «أبطاله» المفضلين - شاركو، كرومويل، بروك - وعلى الفتيات الأسماء المختارة ضمن محيط عائلي شديد الانغلاق: ماتيلدا، زوجة جوزيف بروير، صوفيا، زوجة جوزيف بانيس، آنا، ابنة صمويل هامرشلاغ، بمقدار ما كانت بنات فرويد على هذه الصورة «قريبات» للعائلات اليهودية البرجوازية في فيينا، تمامًا مثلما كان والدهن صديقًا لها، ابتعد أبناؤه عن هذا النمط وذلك بإعطائهم تسمية أكثر رمزية: فمن جانب هناك الزواج الداخلي واستمرارية الركن العائلي، ومن الجانب الآخر العلم والسياسة، والخروج من الغيتو[96].

في 1891، استقرت العائلة في البناية 19 في برغاس، في شقة فسيحة إلى حدّ ما، غير أن فرويد، في السنة التالية، استأجر شقةً ثانية في قبو كي يجعل فيها مكتبه. بعد 5 أعوام، جاءت مينا إلى المكان نفسه لتسكن مع أختها وتساعدها بتربية الأطفال وبإدارة شؤون البيت، وهذا أمرٌ مألوف جدًا في العائلات المتوسعة في ذلك الزمن، حيث مكان المرأة العازبة غير المتزوجة أو التي ترمّلت - ابنة، عمة، خالة، ابنة عم أو عمة، ابنة خال او خالة، أخت - كان محددًا وفق معايير متشددة: فهي أم ثانية،

ربة بيت، مساعدة لا غنى عنها.

منذ 1893، بعد أن لاحظ فرويد الإرهاق الواقع بمارتا بعد الولادات المتعاقبة، قرر اللجوء مرة ثانية إلى التعفف والامتناع عن المعاشرة الزوجية، من بعد أول فشل كانت ترجمته ولادة آنا، آخر أبنائه، رفض ممارسة قطع العلاقة قبل القذف وكذلك مختلف وسائل منع الحمل المستخدمة في سنوات 1880: الواقي الذكري، الحاجز، الاسفنجة. كان عمره بالكاد أربعين عامًا، ويعاني أحيانًا من العجز الجنسي، فحرّر مارتا من خشيتها الدائمة من الأمومة بالامتناع عن كل علاقة جسدية، شعرت بأنها أصبحت أقل قلقًا وهو أصبح أكثر تطلعًا للانصراف إلى مثل تلك التجربة التي كانت تحرك وتثير خياله: إذ كان يعتبر فعليًا بأن التسامي بالدوافع الجنسية هو فنٌّ في الحياة مخصَّص لنخبةٍ، هي وحدها القادرة على الوصول إلى هذا المستوى الرفيع من التمدن.

وهكذا فالحياة الجنسية لأهم المنظرين حول الحياة الجنسية في العصر الحديث، لم تستمر سوى تسعة أعوام، علمًا، بأنه حتى بلوغه الستين عامًا، وبينما أنه لم يكن يستفيد من الحرية الجنسية التي ينصح فيها بمذهبه، رأى فرويد أحلامًا شهوانية عديدة: وكان من دواعي سروره أن يقوم بتحليلها، ولم يكفَّ من طرف آخر عن بحثه في «المسببات الجنسية» لجميع السلوكيات البشرية، ولهذا فقد اتهموه أكثر من مرة بأنه بورجوازي ليبيدي، وأنه مجهِض متستر، ومن المترددين على المواخير، والممارسين للعادة السرية، وأنه لا يتردد بإخفاء علاقات جنسية مع أخت زوجته. لقد نشرت عشرات الكتب، والروايات، والدراسات، لـ«البرهان» على أن فرويد لم يكفَّ أبدًا طيلة حياته عن إخفاء حياته الجنسية البدائية حكمًا والخارجة عن الأعراف، في حقيقة الأمر، مرات ومرات، حاول فرويد إعادة الاتصال الجنسي مع مارتا. لكنه كان يشعر بأنه تقدم في العمر وأصبح قليل الدراية وحسن التصرف، فانتهى به الأمر إلى التخلي عن ذلك «حين أكون قد تغلبت على الليبيدو عندي «بالمعنى المعروف» سوف أشرع في حياة عاطفية كباقي الرجال»، ويقول أيضا: «رجوع الشهوة التي شغلتنا أثناء السفر انتهى بصورة مؤسفة تحت وطأة أوقات العمل، وقد تأقلمت مع واقع كوني قد تقدمت في العمر علمًا بأنني لا أفكر دائمًا بالشيخوخة[97]».

كانت جميع الشائعات حول الحياة الجنسية لفرويد مستندة على واقع أعيد تأويله آلاف المرات: الزواج الداخلي من طرف، ونظرية البدائل من طرف آخر. لقد انبهر منذ طفولته بالرغبة السفاحية، وبتزاوج الأقارب،

وبالعلاقات داخل العائلة خارج نطاق الأعراف، وبالأنساب العرجاء في شجرة العائلة. وهذا ما جعل فرويد يرى في كل فتاة الصورة السلبية أو الإيجابية عن الأم، أو الانعكاس المقلوب عن الأخت، أو حتى في كل مربية البديل عن أم، عن خالة وعمة، عن شقيقة أو جدة. وكذلك كان ينظر إلى كل ابن، أو صهر كوريث للأب أو الجد، وحتى كصورة عن الأخ[98]، وهذا هو السبب الذي دفعه ليجعل مينا «زوجته الثانية»، وأخته، ونجية أسراره في كل آن، بشرط ألّا تأخذ أبدًا محل مارتا.

في سبتمبر/أيلول 1897، بعد أربعة شهور من تنازل الأمبرطور فرانسوا - جوزيف وقبوله بالتصديق على انتخاب عمدة مدينة فيينا كارل لويجير، المعجب بدرومون وزعيم الخط المعادي للسامية على طريقة الحزب المسيحي الاشتراكي، انتسب فرويد إلى جماعة B'nai B'rith، الجمعية اليهودية الخيرية والثقافية، وتوجب عليه أن يلقي أمامها لاحقًا زهاء عشرين محاضرة، وحيال «إخوانه» في هذا الرباط المقدس، كان يعلن ويطلب علاقات ذات طابع أخلاقي مع اليهودية لا تمت بشيء مع أي «معتقد» آخر، بقي فرويد ملحدًا وكان يصوت للحزب الليبرالي رغم استمراره بمعاشرة الديمقراطيين الاشتراكيين.

كان لقاؤه مع شاركو حاسمًا، ليس لمجرد أن تصوره حول الهستيريا كان قد فتح أمامه آفاقًا جديدة يطل منها على الحياة النفسية وعلى حقيقة الجنسانية عند البشر، وإنما لأن ذلك المعلم كان ينتمي، أكثر بكثير من بروك، إلى سلالة من العلماء الذين يتجاوز إشعاعهم تجاوزًا كبيرًا نطاق الحرم الجامعي، فشاركو، المعروف عالميًا، كان بداية وقبل كل شيء «رائيًا» يتمتع بقدرة تخيلية تماشي تمامًا وتوافق أغرب أحلام فرويد، ألم يكن، عندما راح يبتر الهستيريا عن كل مرجعية إلى مقر تشريحي، قد همس في أذن الشاب العاشق القادم من فيينا، لاقتناعه بموهبته، بأن الأسباب الحقيقية لذلك الداء التشنجي هي أسباب تناسلية؟ ألم يقل ذات يوم، أمام تلامذته المذهولين بأن النظرية، مهما كان مجال صدقيتها، تظل عاجزةً حيال واقع ما يزال يناقضها؟ «النظرية شيء جيد لكنها لا تستطيع أن تعيق سير الحياة»: وسوف يتذكر فرويد دائمًا وأبدا هذا التأكيد الجازم[99].

كانت دراسة الجنسانية قد أصبحت في نظر علماء تلك الحقبة، في أوربا وفي الطرف الآخر للأطلسي، القضية الكبرى لذلك القرن المقبل. ويبدو بأن الهستيريا كانت أهم الأمور فيها، خارج نطاق المناظرات الطبية ما بين الاختصاصيين. ومما لا شك فيه بأن شاركو لم يكن مجرد أستاذ

في نظر فرويد، بل كان الشخص الذي تم من خلاله احتلال قارة جديدة: قارة الجنسانية.

يقينًا، كان بروير النزيه قد أخذ بيد فرويد على طريق جلاء الظواهر العصابية حين دلّه على أهمية الجبرية النفسية في تحري بواعث الهستيريا، لكنه، كطبيب متزمت، وجلّ اهتمامه التحري التجريبي، كان يشك بكل شيء، ويصدر دون توقف تحفظات حول فرضيته الخاصة ويشير على فرويد بالتزام أقصى ما يمكن من الحذر، كان بروير يحب فرويد، كما كان فرويد يحب بروير، غير أن فرويد، بتأثير محبته القوية لشاركو، لم يكن يعلم كيف يمكنه أن يكون حذرًا.

ولهذا السبب، في 15 أكتوبر/ت[1] 1886، حين دعي لإلقاء محاضرة أمام جمعية الأطباء الإمبراطورية في فيينا بما لها من سمعة كبيرة، وقع في خطأ حين لم يقدم عملًا أصيلًا كما كان يقضي العرف، وإنما جعل من نفسه الناطق المروّج لمقولات شاركو حول الهستيريا الذكورية والتنويم المغناطيسي، ولاقتناعه بأن القامات الحاضرة في القاعة تجهل مذهب المعلم الفرنسي، فقد ألقى عليهم فرويد درسًا وافيًا شكلا ومضمونًا، فنسب بالتالي إلى شاركو أنه أول من اكتشف أن الهستيريا لم تكن بتأثير تلاعب شيطاني ولا كانت مرضًا من أمراض الرحم، ناسيًا بأن هذه الحقيقة كانت معروفة تمامًا في فيينا[100]، وفوق هذا، فقد تجنب الإشارة إلى أن النزاع بين فيينا وباريس يقع بسبب التمييز الذي يرفض شاركو الاعتراف به بين الهستيريا الوظيفية وهستيريا الصدمات[101].

مختصر القول، تعرض فرويد من طرف هنريخ فون بامبرجر، وإيميل روزنتال، وخاصة من تيودور ميينير، المعادي بشدة للتنويم المغناطيسي، لانتقادات قاسية، وترك ذلك في نفسه شعورًا قويًا بالمرارة، وتشبث بفكرة ثابتة، كما حاله لاحقًا مع الهجائيات الموجهة إليه، بأنه مكروه بسبب اكتشافاته الجديدة العبقرية كعالم مستقل ولا دعم له. علمًا بأن ذلك لم يكن صحيحا[102].

كان بروير وفرويد غالبًا ما يتناقشان حول مرضاهما ويتبادلان خبراتهما. كانا كلاهما يمارسان العلاجات الرائجة في ذلك العصر: العلاج الكهربائي، والعلاج بالحمامات البحرية، والعلاج بالماء. كان بروير يميل إلى منهج الكاتارسيس، الذي روّج له من جديد يعقوب برناي، وهو ما كان يتيح للمرضى التخلص من المشاعر المريضة ومن ثم «تصريفها» من خلال استرجاع الأحداث التي كانت تشكل الصدمة الأولى والتي هي من وراء تلك المشاعر المريضة، كان على فرويد هو الآخر اللجوء إلى ذلك لكنه، في

خريف 1887، توجه بصورة أكبر نحو الإيحاء التنويمي، وهي لعبةٌ يدور حولها نزاع حقيقي، ليس بين أطباء فيينا لا غير، وإنما أيضا بين مدرسة باريس ومدرسة نانسي. لقد أراد فرويد ان يلبس لبوس «المنوم المغناطيسي» وهو بذلك يسعى، عن طريق العلاقة الدينامية، لإيجاد مخرج من العدمية العلاجية، وفي مواجهته للقامات الطبية الكبيرة التي كانت قد وجهت إليه الانتقاد لاستخدامه الكوكايين ولتمجيده شاركو، كان يريد عن سابق تصور وتصميم أن يقوم بذلك الدور الخارج عن الأعراف وهو دور المتمرد الذي يتناسب معه كل التناسب، وعلى المستوى نفسه، ها هو قد ابتعد عن تعليم سالبيتريير.

أمّا بيرنهايم، أستاذ الطب الداخلي في نانسي، فكان قد تبنى منهج التنويم المغناطيسي كما جاء لدى أوغست ليبوبو، ولم يكن يداوي سوى مرضى قادرين على الخضوع لحالة التنويم المغناطيسي، وإذا كان المركيز آرمان دو ويزيغور، عشية وقوع ثورة 1789، قد فتح الطريق أمام الفكرة القائلة بأن المعلم - النبيل، الطبيب، العالم - يمكن الحدّ من سلطته إذا وقف في وجهه مواطن معارض، فإن بيرنهايم كان يبين بأن التنويم المغناطيسي لم يعد، مع نهاية القرن التاسع عشر، أكثر من مسألة إيحاء لفظي. في ذلك العصر، كان مستشفى الكلام قد بدأ يأخذ محل مستشفى النظر، وها هو بيرنهايم يسهم في تذويب أواخر بقايا التأثير المغناطيسي عن طريق عكس العلاقة التي تحدث عنها ويزيغور، حتى لو أدى ذلك إلى تذويب التنويم المغناطيسي داخل إطار الإيحاء.

كان بالتالي يأخذ على شاركو بشدة فبركته بصورة مصطنعة للأعراض الهستيرية وتلاعبه بالمرضى، بينما كان منطق انصهار التنويم المغناطيسي مع الإيحاء يقود بيرنهايم إلى الدفاع عن حقيقة أن الآثار التي يتم الحصول عليها عن طريق التنويم المغناطيسي يمكن الحصول عليها بإيحاء في حالة الرقاد، وهو ما سوف يطلق عليه سريعًا مصطلح العلاج النفسي.

في صيف 1889، برفقة آنا فون ليبن، وهي مريضة من الأرستقراطية اليهودية في فيينا، وكان شاركو قد سبق له أن عالجها، قام فرويد بزيارة بيرنهايم قبل تعريجه على باريس لحضور مؤتمرين دوليين، وقد حضر تجاربه الإيحائية، وكانت له معه مناقشات قوية وتعهد بترجمة كتابه[103]. ودون أن يتخلى عما سبق أن تعلمه عند شاركو، استعار من بيرنهايم مبدأ علاج يفتح الطرق إلى الاستشفاء بالكلام، هو بالتالي لم يدخل في النزاع الذي كان ناشبًا بين المدرستين، لكنه سرعان ما تنبه إلى

أن الإيحاء لا يعمل إلّا ضمن ظروف معينة، لا سيما في وسط استشفائي، ولذلك فضل استخدام طريقة الكاتارسيس دون أن يستبعد مع ذلك التنويم المغناطيسي، وهذا ما انتهى به إلى أن يأخذ بعين الاعتبار عنصر العشق الماثل في الشفاء، أي التحويل[104]: «بينما نجحت ذات مرة في تخليص إحدى مريضاتي من علّتها، وكانت من أكثر المريضات وداعةً، أتاح التنويم المغناطيسي لديها تحقيق أعظم النتائج، حيث تمّ إرجاع هجمة المرض إلى مصدره، وها هي قد عانقتني عند يقظتها ووضعت ذراعيها حول عنقي [...] وقد احتفظت ببرودة أعصابي كي لا أنسب هذه المصادفة وأجعلها ناتجة عن سحرٍ شخصي لا يُقاوم، وتوجه تفكيري إلى أنني قد التقطت مذ ذاك العنصر الوجداني الذي يعمل من وراء التنويم المغناطيسي، ولإخراجه من تلك الدائرة، كان لا بد من التخلي عن التنويم المغناطيسي».[105] ولم يحتفظ فرويد بعد ذلك من التنويم المغناطيسي إلا بوضعية التمدد للمريض فوق ديوان وهو من جانبه يجلس وراءه، فيرى المريض دون أن يراه هذا الأخير. أما بصدد آنا فون ليبن، لاعبة الشطرنج الكبيرة، المصابة بالجنون، والبطينة، والتي تستهلك الكافيار دون أي تحفظ، والشامبانيا، والمخدرات، ولا تنام في الليل أبداً، فكانت في تلك الحقبة مريضته الرئيسية، «سيدته الأولى».[106] وفي عائلة هذه الأخيرة كانوا يسمّونهُ «الساحر». لكن فرويد استُبعد من بعد ذلك، لعدم تمكنه أبدًا من شفاء آنا من تعاطيها المدمن للمورفين، لا بالتنويم المغناطيسي ولا بالطريقة الكاتارسيسية[107].

منذ زواجه واستقراره كاختصاصي بالأمراض العصبية، كان فرويد يفتقر لوجود محاور بعيد عنه بما فيه الكفاية، ما يتيح له الرجوع مجددًا إلى مواهبه التي لا مثيل لها في كتابة الرسائل، استمر انتظاره سنة كاملة، إلى أن كان يوم، في خريف 1887، بناءًا على نصائح بروير حضر ويلهيلم فليس وهو طبيب من برلين اختصاصي بأمراض الأنف والحنجرة[108]، كي يتابع دروسه ومحاضراته، بينما كان يستكمل تأهيله في المستشفى العام في فيينا كان من جيل فرويد وينادي مثله سواء بسواء بالداروينية وبالمدرسة الوضعية عند هيلمولز، وكان ابن تاجر حبوب قليل الحظ ومصاب بانهيار وهو من عائلة يهودية سفاردية، وقد استقر بها المقام في منطقة براند بورغ منذ القرن السابع عشر.

من الصعب معرفة حقيقة شعور فليس في علاقة الصداقة تلك بطابعها البركاني كما، من جديد، كان الأمر مع فرويد على العكس من تلك التي أقامها مع مارتا، فمراسلاته مع فليس متعذرة التجميع بالكامل، حيث بقيت

لدينا فقط رسائل فرويد[109]، ها نحن من جديد مع حالة Sturm und Drang! كان فرويد يكتب بسرعة كبيرة، ويكثر من الاختصارات والكلمات اللاتينية، راسمًا لوحة لكل ما يتناهى إلى علمه حول الحياة الجنسية لمرضاه، ولكل ما يعلم عن حياته الجنسية الخاصة به وبالعائلات في فيينا: آباء، أمهات، أخوات، بنات، خدم، كان يصنف، ويرتب، ويكثر من الجداول السريرية ويعبر عن حماسة متوقدة عند كل رسالة يبعث بها أو يستلمها.

باختصار، منذ اللقاء الأول، وقع فرويد تحت تأثير سحر هذا الطبيب الذي لم يكن يشبه أيًا من أصدقائه أبناء جيله في فيينا ولا حتى بروير الذي، على الرغم من حذره الأسطوري، كان معجبًا به كما لو أنه تحت حمايته.

كان فليس يتمتع بتأهيل طبي وعلمي متين، لكنه ينتمي مع ذلك إلى تلك السلالة الطويلة من العلماء البروميثيون الذين هم موضع تقدير في الأدب الرومنتيكي والذين نجد أثرًا منهم في أعمال توماس مان، كان من أتباع نظرية عشق وجداني وعضوي يتمثل في الجنسانية، فهو إلى حدٍّ ما نسخة ثانية عن فرويد، هو «عفريته»، «شخصه الآخر»، الذي يحرض فيه أكثر التأثيرات الفكرية، ومن شدة تبادل المحبة والتعارض، جعل الآخر شاهدًا على أدق خصوصيات حياته اليومية أو روايته له لحكايات وقصص عن الحالات التي يراها أمامه والتي يبني حولها أجرأ الفرضيات، وكذلك لقاءاتهما في أوربا أثناء «مؤتمرات» هما فيها المستمعان الوحيدان والمتدخلان الوحيدان، وصل بهما الأمر فأصبح ينظر كل منهما إلى الآخر على أنه الأخ التوأم والتقطت لهما صورة فوتوغرافية باللحية نفسها، والثياب نفسها، والنظرة نفسها: وقد وزعا هذه الصورة على أصدقائهما.

في 1892، تزوج فليس من إيدا بوندي، إحدى مريضات بروير، والتي تزوجت أختها ميلاني، بعد أربعة أعوام أوسكار راي، طبيب عائلة فرويد وشريك سيغموند في لعب الورق (تارو) ومن زواج فليس بإيدا وُلد روبير، الذي سوف يصبح من أطباء التحليل النفسي، بينما رُزق أوسكار ابنتين، مارغريت وماريانا تزوجت الأولى من هيرمان نونبيرغ والثانية من إرنست كريس، وكلاهما من تلامذة فرويد، فهذه بالتأكيد قصة عائلية!

إن فليس وارث المقاربة العلمية في أوج انطلاقتها، حيث اختلطت التفسيرات الأكثر عقلانية، والأكثر تجديدًا وغرابةً بصدد العلاقات بين النفس والجسد، لم يكن، وهو الذي كان يعاني من آلام صداع لا تفسير لها، ليشك أبدًا بفرضياته التي كان يعتبرها أمورًا يقينية ثابتة منذ أن يتوصل إليها بالحدس، كان مولعًا بالفن، بالرياضيات، بالبيولوجيا، بالتاريخ، بالأدب،

بالأنثروبولوجيا، ولذلك اكتسب عادة إيجاد علاقة بين جميع الظواهر المرضية في الحياة البشرية حتى عندما لا يربط بينها أي شيء، وخطوته تلك بالتالي والتي تكتسب ألقًا بمقدار استنادها إلى تصوُّر للعلم يقول بأن الشك لا محل له بتاتًا وبمقدار استنادها إلى تأملات فيها ما فيها من الهذيان حينذاك.

وحين التقى مع فرويد، كان فليس في طريقه لبلورة مذهب يتمحور على ثلاثة مفاصل: المعاينة السريرية للعصاب، نظريه فيزيولوجية بخصوص التعاقب الزمني، وعرض بيو - طبي وكوني للثنائية الجنسية عند البشر.

وإذ قدم وصفًا لحالة سريرية سمّاها «العصاب الأنفي المنعكس»[110]، ووجد تفسيرًا لهذه الحالة حينًا في أسباب تعود إلى اضطرابات عضوية مرتبطة بأمراض متنوعة - من بينها حالات الصداع - وطورًا في أسباب تعود إلى اختلالات ناجمة عن الأجهزة التناسلية، وهذا ما جعله يوجد علاقة تربط بين الغشاء المخاطي للأنف وبين النشاطات التناسلية ليتوصل بالنتيجة إلى أن هناك رابطة بين قرينات الأنف والدورة الشهرية عند النساء، والحمل، والولادة. ومن هنا فكرة تقول إن أعراض ذلك «العصاب»، وكذلك حالات الصداع وبعض منغصات الدورة الشهرية، تخضع لإيقاع منتظم مقداره ثمانية وعشرون يومًا. كما أضاف فليس حلقة جديدة مقدارها ثلاثة وعشرون يومًا، هي كما اعتبرها دورة ذكورية مماثلة للدورة الشهرية النسائية. وحيث إن هاتين الدورتين تظهر عند الجنسين، فقد استنتج وجود ثنائية جنسية أساسية في الكائن البشري، وترجمتها حسب رأيه وجود جانبين فيزيولوجيًا، إذ أن كل إنسان هو في الوقت نفسه رجل (من جهة اليمين) وامرأة (من جهة اليسار)، لقد أشعرته معرفته بالجدولة الزمنية وبالثنائية الجنسية عند البشر بالقوة، ما دفعه إلى التفكير أنه بات يستطيع أن يحدد جازمًا التواريخ الحساسة للدورتين اللتين تحددان الولادة، والمرض، والموت[111].

لاقتناعه بأن مختلف الاضطرابات يمكن التخفيف عنها هكذا أو شفاؤها بعلاج فتحتي الأنف، ها هو فرويد، الذي شبه فليس بـ« كليبر البيولوجيا»، قد جعله يجري له عمليتين جراحيتين، لفترة بسيطة، عانى من تقيحات. وعبثًا حاول فليس معالجة إدمانه على النيكوتين الذي توسع أفقه عندما كفَّ عن تناول الكوكايين، وبينما بلغ الرجلان سن النضج، فقد استرسلا مع عمليات حسابية علمية من أجل تحديد تاريخ الوفاة والولادة، استنادًا إلى النظرية الفليسية.

كان فرويد في تلك الحقبة يتخوف من الموت قبل أن يقوم بزيارة روما، أرض الميعاد لديه أو قبل إنجاز أعماله: الانتقال من علم الأعصاب إلى علم النفس، علمًا بأنه كلما سمحت الفرصة للقيام بتلك الزيارة كان يصرف النظر متعللًا بحساباته الرقمية الشهيرة، وعندما أصبحت إيدا حاملًا تقريبًا في وقتٍ واحد هي ومارتا، شخّص فليس ولادة ابنة له وولادة صبي لفرويد سوف يسميه ويلهيلم، غير أن القدر شاء غير ذلك: إذ إن فليس رزق بصبي (روبير) وفرويد بابنة (آنا).

بينما راح فليس يتقدم في اكتشاف يبتعد أكثر فأكر عن العقلانية، ألا وهو اكتشاف الثنائية الجنسية عند البشر، مع المناداة بضرورة إجراء عمليات جراحية خطيرة في فتحتي الأنف، بدأ فرويد يقيم بناء جميع أنواع الفرضيات حول النفس البشرية، وفي مخطوط يقع في مائة صفحة، (مخطط أولي لعلم نفس علمي)، وُضع كدراسة في علم النفس ليكون بين يدي أطباء الأعصاب شرح لصديقه في 1895 مخططًا عامًا عن مقاربته العصبو - بسيكولوجية في الذاكرة، والإدراك الحسي، والوعي، وقد وصف في عرضه هذا العمليات العلاجية التي من خلالها كان يحاول تبيان سمات الظواهر الفيزيولوجية التي تسمى «طبيعية». على العكس من فليس فهو على تشكك دائم من نفسه ولذلك كان يسعى إلى أن يجعل من علم النفس علمًا طبيعيًا بعيدًا كل البعد عن مشروع إرجاع جميع الظواهر النفسية إلى اختلالات عضوية.

وهذا ما جعله يضع عددًا من الترابطات بين الهيكليات الدماغية والجهاز النفسي محاولًا أن يعرض العمليات النفسية باعتبارها حالات محددة كميًا بجزيئات مادية أو عصبونات، وكان يرتب تلك العصبونات في ثلاث منظومات متمايزة: إدراك حسي (عصبوناتW) ذاكرة (عصبونات C)، وعي (عصبونات V)، وأما في ما يخص الطاقة الناقلة (الكمية)، فهي محكومة، حسب رأيه، بمبدأين - أحدهما مبدأ همود، والأخر مبدأ ثبات واستمرار - وهي ناجمة حينًا من العالم الخارجي، محمولة حينذاك على الحواس، وطورًا من العالم الداخلي، أي من الجسم، وكان طموح فرويد أن يربط بذلك الأنموذج العصبو - فيزيولوجي مجمل الوظيفة النفسية، أكانت طبيعية أم مرضية: الرغبة، حالات الهلوسة، وظائف الأنا، آلية الحلم، إلخ.

كان مردّ تلك الحاجة لـ«عصبنة» الجهاز النفسي هو أيضًا الرغبة بفبركة «ميثولوجيا دماغية»، وقد تنبه فرويد سريعًا لهذا الأمر وتخلى عن ذلك المشروع كي يؤسس نظرية نفسية خالصة عن اللاشعور[112]. ومنذ ذلك الحين وصف ما سبق أن قام به بالهذيان، بالتلعثم، والغمغمة.

بفضل هذا المنظور الجديد، الذي أدى به إلى اكتشاف الظواهر اللاشعورية، بدأ يعتبر بأن منشأ الأعراض العصابية - لا سيما تلك المميزة لحالات الهستيريا - يعود إلى صدمات جنسية حصلت أثناء الطفولة، وكان هذا متطابقًا مع ما سبق ما تعلمه على يد شاركو. وأطلق اسم «إغواء» أو «اعتداء» على الاستغلالات الجنسية الواقعة أثناء الطفولة على المريضات اللواتي كان يستمع إليهنّ واللواتي، غالبًا جدًا ما كنّ أثناء التداوي، يروينه باستغراق فخور يشمل كل التفاصيل وفيها اتهام بحق أب، خال، عمّ، صديق للعائلة.

في جميع الأحوال، ما بين 1892 و1895، كانت الشابة إيما اكستين الضحية الرئيسية لتبادل المعلومات السريرية والتهويمات النظرية بين فليس وفرويد[113].

كانت من البرجوازية اليهودية التقدمية، ومنخرطة بقوة في الحركة النسائية النمساوية، وكانت، على ما يبدو، ضحية عملية بتر بغرض علاجي في طفولتها، حسب قولهم وهذا البتر منعها من ممارسة العادة السرية، كانت منذ فترة طويلة تعاني من آلام في المعدة ومن دورات شهرية مؤلمة. ونظرًا لأن فرويد كان قريبًا من عائلتها، فقد أخذ على عاتقه أن يداويها بالكاتارسيس، دون أن يتقاضى أجرًا، وكان يزورها في منزلها، لقد اقتنع بأن آلامها يمكن وضعها على ارتباط مع مخاطية الأنف. ولذلك طلب إلى فليس المجيء إلى برلين كي يجري لها عملية جراحة في الأنف، وكان أن بتر فليس ثلث القرينة الداخلية الوسطى اليسارية من أنف إيما.

بعد أسبوعين من التدخل الجراحي، شعرت الشابة بأوجاع رهيبة سببها إفرازات إنتانية متقيحة حيث تصدر عنها رائحة منتنة وثمة قطعة من العظم تهشمت، مسببة رُعافات، وإذ شعر فرويد بالقلق، فقد استنجد بصديقه إينياس روزان الذي، عند تنظيفه للجرح، تبين له بأن فليس كان قد نسي في فتحة الأنف قطعة من شاش مغموسة باليود، وقد تدفق الدم بشدة أثناء انتزاعها، كان فرويد على وشك أن يصاب بالإغماء فهرب إلى الحجرة المجاورة، وبعد أن تجرع كأسًا من الكونياك، عاد إلى جانب المريضة التي استقبلته بهذه الكلمات: «هكذا هو الجنس القوي[114]»، وسوف ترافقها طيلة حياتها آثار ذلك التدخل الجراحي: فعظم الأنف كان قد أصابه نخرٌ لا علاج له.

لقد تأثر فرويد تأثرًا حقيقيًا بتلك القضية ورأى بأنه هو وفليس قد أظهرا لا مسؤولية حيال إيما، علمًا بأنها لم توجه إليهما أبدًا اللوم على خطئهما لكن كي يخفف من ذنب صديقه، أشار إلى أنها كانت قد عانت منذ

طفولتها من رعافات أنفية، وعادت إيما إلى التداوي على يد فرويد. وحين سمعها تتكلم عن رهبتها وتخوفها من الدخول إلى المخازن، استنتج بأن هذا الرهاب يعود إلى مشهد إغواء حدث معها وهي في سن الثامنة: وذاك أن صاحب حانوت جرّب معها ملامسة المنطقة الحساسة، ذلك المشهد كان قد كُبت لكنه كان مصدر الأعراض التي راحت إيما تشتكي منها لاحقًا[115].

عقب ذلك، مع تقديمه فرضية قائلة بأن اعتراف المصابات بالهستيريا بوقوع إغواءات أثناء الطفولة كانت تشبه العلاقة الجنسية التي كان مفتشو التحقيق في ما مضى يفرضونها بالتعذيب، فقد انبهر فرويد حين رأى بأن إيما وافقت على مقولته وراحت تروي مشهدًا كان الشيطان فيه يزرع في أصابعها إبرًا ويضع من بعد ذلك قطعة حلوى على كل نقطة دم، وها هو، من جديد، يجد عذرًا لفليس، علمًا بأن هذا الأخير استمر بعدم اعترافه بخطئه[116].

أصبحت إيما اكستين أول امرأة في التاريخ الفرويدي كمحللة نفسية، وما بين **1905** و**1910**، كتبت مقالات عديدة وتبادلت بعض المسائل مع فرويد الذي استمر على جهله بالأسباب الكثيرة التي هي من وراء اضطراباتها النفسية والجسدية، ومن بعد مغامرة عاطفية مؤلمة حاولت الانتحار، لكن لم يتمكن ابن أخيها، ألبيرهيرست[117]، الذي قدم إلى كورت إيسلر شهادة مؤثرة جدًا، ولا أي طبيب آخر من شفائها، ولا حتى من فهمها[118].

رغم وعيه الدائم لوجود السر، رفض آلاف المرات الاعتراف بأنه قد يكون فقد سمته وضلّ عن الطريق السديد، ولهذا شخّص فرويد بأن إيما لن تتعافى أبدًا، وهذه نبوءةً لا يمكن تصديقها! لأنها أصيبت بالشلل جزاء علة لا تفسير لها، وقضت السنوات الأخيرة من حياتها ممددة على سرير وسط كتبها.

إذا نظرنا إلى تلك الواقعة، يمكننا التساؤل مَن كان يخترع الاستغلالات المزعومة وغيرها من التصرفات الشاذة التي قيل بأنها متسترة في قلب العائلات الشريفة، أهو فرويد نفسه أم المريضات اللواتي جعلنه يؤمن بوجود مشروع إغواء منظم من البالغين حيال الأطفال؟ بخصوص هذا الموضوع عبّر بروير، الذي كان يحضّر حينذاك مع محميّه دراسة حول الهستيريا بأنه على الدوام شديد التحفظ حول ما يتعلق بإرجاع الأسباب إلى صدمات ماضية.

لسنواتٍ عديدة، جعل فرويد نفسه تحت جناح فليس، وهذا الأخير احتجزه داخل نطاق تصوُّر للعلم حيث لا محل للخطأ ولا للتجريب ولا

للبحث عن الحقيقة، وذلك لقوة اليقين الذي كان يتحكم بالعمل التأملي، على امتداد الرسائل، يتبين معنا لذلك بأن فرويد بدأ يتطوّر باتجاه معاكس لفليس. فهو وإن كان يرفض بكل وعي وضع فرضيات صديقه موضع التشكيك، راح يبتعد عنها تدريجيًا، بمواقف نفي، ووضع أكثر من تفسير، وبحركات انتقافية قاسية، كما لو كان ما يجري في داخله دون علمه يدفعه إلى الشك بما كان يجزم بأنه يمثل خطوة علمية حقيقية.

واقع الأمر، أنه بتواصله مع فليس، انفصل عن علم الأعصاب، وتشوشت علاقته أخيرًا مع بروير، فابتكر معالجة التحليل النفساني، وتخلى عن نظريته حول الإغواء، واستدعى التراجيديا الإغريقية لتعزيز نظريته عن اللاوعي، وكان جهّز كتابه العظيم الذي سوف يجعل منه أحد أهم المفكرين في القرن العشرين: «تأويل الحلم»، وكما كان الحال مع إيما اكستين، فإن فليس صار الضحية الرئيسية لتلك المعركة التي يخوضها فرويد على نفسه بالذات. فبينما، في حياته، كان قد اشتهر بأعماله في البيولوجيا الطبية، ها هو وقد خكم عليه حكمًا قاسيًا من الأجيال اللاحقة باعتباره مهووسًا بالأرقام، وصانع معجزات بالهذيان، وآخر شاهد على طب رومانتيكي في حالة احتضار، وقد نُسيت أعماله حتى أنه لم يعد له من وجود إلّا من خلال الدور الذي نسبه إليه المؤرخون في مجال تبيان أصول ومصادر التحليل النفسي[119]، مثلما أن فرويد نفسه رفض على الدوام أن يربط مع العرف الرومانتيكي.

مع فجر القرن العشرين بعد سنوات من الجنون المتبادل، وبعد الاتحاد بزواجين متقاطعين بين صديقين قريبين وسط عائلة ثقافية مُوسعة، مع وجود خلفية مزدوجة يتمثل فيها صعود روح الحداثة في فيينا وبرلين على حد سواء، ها هما الصديقان يفترقان كي لا يكون لهما بعد ذلك من لقاء، كان فرويد هو المستفيد من تلك الصداقة على مدى قرابة خمسة عشر عامًا والتي انتهت مع فليس بكارثة ومع التحليل النفسي بانتصار[120].

كانت القطيعة عملًا شديد العنف، وفي يوليو/تموز 1900، التقى الرجلان عند بحيرة آخن، واتهم فليس فرويد بأنه برهن عن عدوانية حياله كما عتب عليه فرويد لأنه لم يعترف بقيمة اكتشافاته، وبعد فترة بسيطة، ها هو القاضي النمساوي هيرمان شوبودا، الذي يتولى فرويد تحليله، يسمع هذا الأخير يشرح له نظريته حول الثنائية الجنسية، وفي ذلك المساء تحدث عن ذلك مع صديقه أوتو ويننجر الكاتب اليهودي من أبناء فيينا، هذا وبعد عام من ذلك التاريخ، نشر كتابه الوحيد «الجنس والشخصية»، وهو بيان حقيقي عن الثنائية الجنسية وعن كراهية النساء واليهود.

من بعد ذلك بفترة قصيرة، أقدم وينجر على الانتحار، حيث استأجر غرفة في البيت القديم لبيتهوفن وأطلق على نفسه رصاصة في القلب[121].

علم فليس بشأن الكتاب في 1904 وشعر، مثله مثل شوبودا وبول يوليوس موبيوس[122]، بأنه وقع ضحية سرقة أدبية واتهم فرويد أنه سرق من أفكاره طوال تلك السنوات التي كانا أثناءها صديقين، قضية «سرقة الأفكار» غيّرت مسار فرويد وجعلته يقرُّ بما لفليس من دَينٍ في عنقه[123]، لكنه كان يعلم أيضًا بأن «سرقة الأفكار»، على خلاف السرقة الأدبية، لا وجود لها وأن نظرية الثنائية الجنسية كانت مخيمة، في تلك الحقبة، فوق جميع الأعمال العلمية عند العلماء، إنها منتمية للداروينية ولعلم الأجنَّة، وبهذا فهي تعيد الحياة جزئيًا إلى الأساطير التي قامت عليها بلاد الإغريق القديمة، بالتأكيد، شعر فرويد بالذنب، لأنه تكلم مع شوبودا لكنه لم يكن أبدًا صورة عن ذلك التهويم الخيالي القائل بوجود «سرقة أفكار»[124]، أما بشأن الثنائية الجنسية، فقد جعل منها لاحقًا مفهومًا مركزيًا في مذهب التحليل النفسي الذي لم يعد له كبير اتصال مع عرض فليس لثنائية الجانبين عند الإنسان.

غير أن فرويد بقي مع ذلك تحت تأثير هاجس تلك الصداقة لمرحلة من الزمن والتي، من خلال ضياع طويل الأمد، جعلت منه إنسانًا آخر، لقد أتلف، من دون أن تواتيه الجرأة للاعتراف كليًا بذلك، رسائل فليس، وحين اشترت ماري بونابرت رسائله من أحد التجار 1936، عارض فرويد بشدة موضوع نشرها[125].

باستناده من بعد ذلك إلى تصوّره الخاص للبارانويا شرح فرويد لساندور فيرينتزي، في 1910، بأن فكرة ربط معرفة البارانويا بفكرة استثمارٍ مثلي والمعرفة النظرية برفض ذلك الاستثمار، كانت قد جاءته من إعادة التفعيل المؤلم للقطيعة مع فليس، «منذ قضية فليس [...]، اختفى جزء من الاستثمار المثلي وقد استخدمت ذلك لتوسيع أفق الأنا عندي بالذات، وكان أن نجحتُ حيث فشل المصاب بالبارانويا»[126]، وهذه النظرية كانت على أقل تقدير قابلة للنقاش.

وكان قد تراءى لفرويد أنه يستطيع الانفصال عن هذا الجانب من تاريخه في أوغسطس/آب 1897، فزعم بأنه كان في طريقه إلى القيام بما سماه «التحليل الذاتي». وهي طريقة لإعادة النظر والتشكيك، من دون ذكر ذلك، بكل منظومة التفكير الذي قام به حتى ذلك التاريخ. غير أن هذه القضية أيضًا كان مصيرها إلى فشل، فقد شرح فرويد في البداية لفليس بأن مريضه الرئيسي كان هو بالذات، ثم إنه قام بتحليل أحلامه الخاصة

كي يعلن من بعدها أنه لا يفهم أي شيء مما يجري في داخله، كان قد ظن لبرهة من الزمن بأن « التحليل الذاتي» قد انطلق بالفعل لكن انتهى به الأمر إلى أن ذلك من الأمور المستحيلة: «ظلّ تحليلي الذاتي مبتورًا». وفهمت لماذا، فأنا لا أستطيع تحليل نفسي بنفسي إلّا بمعلومات موضوعية مكتسبة (كما لو كنت غريبًا). التحليل النفسي بكل معنى الكلمة أمرٌ مستحيل، إلّا أن يكون مرضًا. وحيث أنني ما أزال حيال بعض المعامع في حالاتي، فلا بد لهذا الأمر من أن يتوقف داخل نطاق تحليلي الذاتي أيضًا[127].

كان اختراع التحليل الذاتي محاولة للخروج من طريق مسدود، وهو تحليل يصعب العثور عليه علمًا بأنه أصبح ذخيرةً عند الجماعة الفرويدية، تلك الجماعة التي قالت بأن فرويد دون سواه، باعتباره «الأب المؤسس» لهذا العلم، كان قد مارس فعليًا تحريًا لذاته يمكن الاستعانة به كنمط إرشادي لجميع ما يتفرع عنه من تشعبات مستقبلية، إنه «ولد نفسه بنفسه»، كما كانوا يقولون، وبالتالي يجب على كل ما يتصل بسياق أصول نشأة التحليل النفسي وضعه على محك الرفض لصالح ميثولوجيا «الرجل العظيم».

وتلك كانت وضعية جونز في 1953، إذ إنه ضمن هذا المنظور، جعل من فليس عالمًا مزيفًا مستنيرًا ومن فرويد بطلا للعلم قادرًا، من علياء «عزلته الباهرة»، على اختراع كل شيء من دون أن يكون مدينًا بأي شيء لعصره، وها هو، يسترسل مع تأويل نفساني للتاريخ سوف يعود إليه لعقودٍ من الزمن جماعة المذهب الفرويدي وكان في ذلك الأذى الكبير لهم: إذ أصبحنا مع أسطورة حقيقية بدلًا من التاريخ، وهي أسطورة مفادها أن فليس قد شغل على ما يفترض إلى جانب فرويد وضعية الإغواء الفصامي والبديل عن الأب بحيث إن فرويد قد انفصل عن هذا الأخير نهائيًا بقوة عبقريته.

كما هو معلوم إن مثل هذه الأساطير لا تستطيع أن تقف في وجه الدراسات النفسية، فحتى لو أن علمًا جديدًا يعود الفضل به إلى «أب مؤسس»، فهذا الأب يؤسس سياقًا جدليًا لا يمكن أن يكون من صنعه بمفرده فلو كان عقلانيًا، سوف يولّد إمكانية لا نهائية من النقاشات القادرة بدورها على أن تكون موضع إعادة تأويل[128].

وهناك تفسير آخر لهذه الواقعة وهو تفسير أكثر أهمية وجاء به فرويد في بداية قطيعته مع فليس، ففي رسالة تاريخها 7 مايو/أيار 1900، غداة عيد ميلاده الأربع والأربعين، عاد يؤكد أنه بحاجة، كي يفكر، للاتصال مع

صديق قادرعلى أن يكشف له ما في داخله من «أنثوية»، ثم إنه، بعد الإشارة إلى عدم استطاعة أي عالِم أن يعلم مسبقًا ما سيكون عليه حكم الأجيال المستقبلية، أضاف يقول: «ما من ناقدٍ أقدر مني على أن يفهم بوضوح عدم التناسب القائم بين المشاكل والحل الذي أقدمه. ومن أجل عقابي المستحق، ما من منطقة غير مكتشفة من عالم النفس، حيث غامرتُ كأول الفانين فيها، إلّا وسوف تحمل اسمي، إلّا ستخضع لقوانيني، وحين كادت أنفاسي تتقطع وتخونني أثناء الكفاح، رجوتُ «الملاك» أن يعدل عن معركته، وهو ما قام به منذ ذلك الحين. لم أحقق اليد العليا وها أنا الآن أعرج عرجًا واضحًا. لقد بلغت تمام الأربعة والأربعين عامًا وها أنا عجوزٌ يهودي بائس[129]».

يُلمح فرويد هنا إلى المقطع الشهير في قصة التكوين التي تستعرض المعركة الليلية بين يعقوب والملاك. فابن إسحاق، وحيدًا في الليل، وهو حفيد إبراهيم، تصارع حتى الفجر مع خصم مجهول غريب يجهل جنسه كما يجهل أنه في الوقت ذاته الرب ورسول الرب (إيلوهيم والملاك)، وإذ فهم بأنه لن يتغلب على الإنسان، فقد جرحه الملاك في عنق فخذه بحيث جعله يعرج، وحين أراد الفرار، طلب يعقوب منه أن يباركه، فبشّره الملاك أنه في المستقبل سوف يحمل اسم إسرائيل، هازم الخصم لكنه جريح أبد الحياة، إنه الأب الثالث المجسد لفكرة أعظم انتصار للإنسان. وهذا الانتصار يتمثل بأنه يفوز به على نفسه وعلى غطرسته[130].

وتحديدًا فهذه المقولة المأخوذة من الكتاب المقدس هي التي قام فرويد من خلالها بقطيعته مع فليس ليجعل لنفسه قدرًا مستقلًا: قدر إنسان مجروح يستعد للمعركة الدائمة مع جميع الناس ومع نفسه بالذات، تلك كانت إذًا في 1900، حالته الفكرية عندما، كما كان الحال مع الأب الثالث يعقوب، بدأ يفكر بأنه قام باكتشاف لم يتمكن أبدًا من التحكم بمستقبله، لتقديره بأنه تقدم في العمر وأنه «أعرج» بما لا يؤهله لوضع هذا الاكتشاف قيد العمل[131].

تبين هذه المغامرة بصورة قطعية، إذا كان من الضروري الإشارة إلى ذلك، إلى أن كل خطوة علمية قوامها حكمًا الانتقال من الخطأ إلى الحقيقة، وما من فكرةٍ، حتى لو كانت الأكثر عقلانية والأكثر منطقية، يمكن أن تكون سالمةً من اللاعقلانية التي تزعم بأنها تريد التخلص منها، بتعبير آخر، لن يتخلص فرويد أبدًا في أعماله اللاحقة من آثار ضياع - أو من معركة دائمة مع «الملاك» -، نلتقط شواهد عليها في مراسلاته مع فليس.

59 سيغموند فرويد، «تأويل الحلم»، م. سابق، ص. 414. وهذه صورة مستخرجة من فاوست غوته.

60 سيغموند فرويد، «عظيمة هي ديانا الإفيزيين» (1911)، في UCF.P المجلد 11، المصدر السابق، ص 51 - 53. نقلًا من قصيدة لغوته.

61 أي أنه وُلد بشعر أسود كثيف جدًا.

62 مونيك شنايدر، «فرويد، قارىء وشارح غوته»، المجلة الألمانية العالمية: «غوته الكوني»، 12، 1999، ص 243 - 256.

63 رواية بصيغة رسائل من تأليف غوته ظهرت في 1774.

64 نجد وصفًا دقيقًا إلى حد بعيد عن « أمراض» فرويد في كتاب ماكس شور، «الموت في حياة فرويد» (1972)، باريس غاليمار، 1975. ناهيك أن فرويد يروي عن طيب خاطر من دون حرج في مراسلاته «أمراضه» بتعابير تقنية، كما يفعل الأطباء عمومًا.

65 انظر ماكس شور، «الموت في حياة فرويد» المصدر السابق، ص.86. يشير فرويد أحيانًا في رسائله، بصورة التفافية، إلى ممارسته للعادة السرية.

66 انظر جان بولاك: «يعقوب بيرناي» (1821 - 1881). «رجل بين عالمين»، المطبوعات الجامعية سيبمتريون. فيلنوف - أسكي، 1998. لقد استلهم فرويد نظرية التفريج (الكاتارسيس) من يعقوب بيرناي، وأشار على أرنولد زويغ بقراءة رسائل هذا الأخير. سيغموند فرويد وأرنولد زويغ، «المراسلات»، 1927 - 1939(1998)، باريس غاليمار، 1973، ص 84.

67 نشر مراسلات فترة الخطوبة بين سيغموند فرويد ومارتا بيرناي (ألف وخمسمائة رسالة من 1882 إلى 1886) قيد الإنجاز بإدارة إيلس غروبريخ - سيميتس وألبريخت هيرشمولر. ظهر حتى الآن المجلدان الأولان، وهما يغطيان حقبة 1882 - 1883. وهناك ثلاثة مجلدات تنتظر الصدور بتواريخ لاحقة. انظر «Sigmund Freud et Martha Bernays, Sein mein, wie ich mir's denke»، الجزء الأول: فرانكفورت، فيشير فيرلاغ، 2011. والمصدر نفس، الجزء الثاني: «Unser Roman in Fortsetzungen»، 2013. استخدمتُ بالإضافة إلى ذلك مجلد «المراسلات» الصادر بالفرنسية عن دار غاليمار (المصدر السابق)، والذي يضم ثلاثًا وتسعين رسالة من فرويد إلى مارتا. لقد استثمر إرنست جونز وبيتر غاي بكثرة تلك المراسلات التي توصلوا إليها والمحفوظة في مكتبة الكونغرس. انظر أيضًا كاتيا بهلينغ، «مارتا

فرويد» (2003)، وكتب تصدير الكتاب أنطون و. فرويد وكتبت مقدمته جوديث ديبون، باريس ألبان ميشيل، 2006. وكذلك إيلس غروبريخ - سيميتيس، «العاطفة والنظرية، سيغموند ومارتا: مقدمة موسيقية فرويدية. بذور ومفاهيم أساسية في التحليل النفسي»، المجلة الفرنسية للتحليل النفسي، 3، 76، 2012، ص 779 - 795. هذه المراسلات، التي ما تزال جزئيًا غير منشورة، تعتبر مصدرًا هامًا لفهم تطور فرويد، فهي تضم، بالإضافة إلى الرسائل الغرامية التي أشير إليها، ملاحظات غزيرة حول عمله، لقاءاته، ميوله، حياته اليومية، عذاباته الممزقة، بحوثه، وبعض اللوحات الوصفية لأساتذته ومعاصريه، وهي لوحات لا يمكن نسيانها، انظر أيضًا كتاب أندريه بولزينجر، «شخصية سيغموند فرويد»، المصدر السابق، كما أن بحوث هانس لانج حول الأسرة موجودة في كتالوغ متحف فرويد في لندن، وبعض الاقتباسات مذكورة في كتاب إيمانويل رايس، «فرويد وموسى»، المصدر السابق.

68 سيغموند فرويد، «المراسلات»، المصدر السابق، ص 130 - 131.

69 شقيقة فرويد. وقد دفع إيلي المبلغ المستحق بالكامل لشقيقته.

70 رسالة إلى مارتا بتاريخ 27 ديسيمبر/ك1 1883. الرسالة غير منشورة، هي واردة عند إرنست جونز، «حياة فرويد وأعماله»، الجزء الأول، المصدر السابق، ص 130.

71 مراسلات فرويد مع مينا برناي هي قيد الترجمة إلى اللغة الفرنسية. وسوف تقوم بنشرها دار سوي. أنا أشكر أوليفييه مانوني لأنه سمح لي بالاطلاع عليها. انظر سيغموند فرويد ومينا برناي، وتوجد رسالتان غير منشورتين، مكتوبتان بخط كأنه خربشة على السريع. (28 أغسطس/آب 1882 و28يوليه/تموز 1883)، يمكن الرجوع إليهما في مكتبة الكونجرس ضمن أوراق العائلة. الرسالة الأولى هي من سكومبيرغ وكان فرويد قد فتحها من دون قصد، وهي غير موجودة في الكتاب، أما الرسالة الثانية فتشير إلى عيد ميلاد مارتا وإلى شراء هدية.

72 حول ظهور هذه الإشاعة الخارقة التي ما تزال رائجة حتى يومنا هذا، انظر المراجع اللاحقة.

73 أفضل مرجع هنا هو الكتاب المطبوع للمؤلف روبير بيك: «سيغموند فرويد. حول الكوكايين»، بروكسل، 1976، وهذا الكتاب يضم النصوص الخمسة لفرويد حول الموضوع: «حول الكوكا» (1884)، «إسهام بالتعريف بالكوكايين» (1885)، «حول التأثير العام للكوكايين» (1885)، «من آديندا إلى: حول الكوكا» (1885)، «الهوس بالكوكايين

ورهاب الكوكايين» (1887). كما نجد فيه أيضًا شروحًا لباحثين متعددين، انظر أيضًا، جاك ميشيل، «فرويد والكوكايين»، بإدارة جان - كلود بون، فلسفة الدواء، باريس، شان فالون، 1993، ص. 1 - 14. وفرونسواز كوبلينس، «فرويد والكوكايين»، المجلة الفرنسية للتحليل النفسي، 2، 66، 2002، ص. 371 - 383. وأيضًا فرانك ج. سولوواي، «فرويد، بيولوجي التفكير»، المصدر السابق، ص. 21 - 22.

74 سيغموند فرويد، رسالة بتاريخ 2يونيه/حزيران 1884، أوردها روبير بيك في «سيغموند فرويد. حول الكوكايين»، المصدر السابق.

75 لقد اتهموا فرويد خاصة بأنه اغتال عن وعي صديقه فليخل كي يزيح منافسًا، وكذلك بأنه أسهم بانطلاقة الوباء الثالث عند بني البشر (من بعد الكحول والمورفين)، وأخيرًا أنه كتب مجموع مؤلفاته وهو تحت تأثير الكوكايين، للحق والحقيقة، لقد كفَّ عن استهلاكه بصورة منظمة في عام 1887، ثم تخلى عنه نهائيًا في عام 1892، وأصبح منذ ذلك الحين أكثر تعلقًا بالتدخين. حول الاتهامات التي لا مستند لها، انظر أ. م. ثورنتون، «فرويد والكوكايين. الوهم الفرويدي»، لندن، بلوند وبريغ، 1983. ولسنوات عديدة، قلَّل المؤرخون الرسميون من جانبهم، من أهمية مرحلة تعاطي الكوكايين.

76 Allotrion: كلمة يونانية تعني شيئًا آخر أو غريبًا عن الذات.

77 سيغموند فرويد ومارتا بيرناي، «Sein mein, wie ich mir s denke». الجزء الأول، المصدر السابق، رسالة تاريخها 5 أكتوبر/ ت 1 1882، ص 367.

78 انظر ويليام جونستون، «الفكر الطبي في فيينا»، المصدر السابق، ص 267 - 283.

79 هنري ف. إيلينبيرجر، «تاريخ اكتشاف اللاشعور»، المصدر السابق، ص 455، حسب البورتريه عند بيرنار ساش، التلميذ الأمريكي لتيودور مينير، ألبريخت هيرشمولر، «جوزيف بروير»، المصدر السابق، ص 122.

80 سيغموند فرويد، «مخطط أولي لعلم نفس علمي»، في «ولادة التحليل النفسي» (1950)، باريس، 1956 ،PUF، انظر على حد سواء كريستين ليفي - فريزاخر، «مينير - فرويد»، باريس، 1983 ،PUF.

81 مرضى العصاب كانوا يعالجون على حد سواء في مراكز طب نفسي أو من طرف أطباء نفسيين في عيادات خاصة، وسوف نستخدم كثيرًا تعبير «الطب العصابي» كي نشير إلى الحالات المرضية التي تتنوع أطرها في كل حقبة.

82 أفضل كتاب حول جوزيف بروير هو كتاب ألبريخت هيرشولار الذي أستشهد به كثيرًا، يجب أن نشير إلى أن إرنست جونز من جانبه يقدم صورة بغيضة، وظالمة، ومغلوطة عن بروير، حين يقدمه على أنه معالج شديد الخوف، غير قادر على أن يفهم أي شيء حول الشؤون الجنسية.

83 ألبريخت هيرش مولر، «جوزيف بروير»، المصدر السابق، ص 59.

84 المصدر السابق، ص129.

85 هذا المصطلح اقترحه في 1769الطبيب الاسكتلندي وليم كولن (1710 - 1790) للتعريف بالأمراض العصبية التي تؤدي إلى اضطرابات في بناء الشخصية، انظر اليزابيث رودينسكو وميشيل بلون «قاموس التحليل النفسي» (1997)، باريس، كتاب الجيب، سلسلة «لابوش وتيك»، 2011.

86 حسب المصطلح المستخدم من طرف هنري إيلنبيرجير الذي يبقى أفضل مؤرخ للطب النفسي الدينامي، وخاصةً تاريخ تطور الطاقة المغناطيسية والانتقال من المعالجات المغناطيسية إلى علم النفس العلاجي، انظر أيضًا جان كلير، «النفس في الجسد. فنون وعلوم»، 1793 - 1993، كتالوغ معرض/ اجتماع المتاحف الوطنية/غاليمار / إليكترا، 1993.

87 لقد نوهث طويلًا إلى مسيرة شاركو وإلى قضية الهستيريا وتقطيع أجزائها على يد جوزيف بابنسكي، وكذلك إلى الانتقادات التي واجهته من طرف ليون دوديه (تلميذه القديم)، وأنا هنا أضيئ على الموضوع بطريقة مختلفة. انظر أيضًا جان - مارتان شاركو «دروس الثلاثاء في سالبتريير»، باريس، لكرونييه وبابيه، 1892، في مجلدين، وبول ريشر، «شياطين الفن» (1887)، باريس ماكولا، 1984. وجورج ديدي - هوبرمان، « اختراع الهستيريا، شاركو والأيقونات الفوتوغرافية في سالبتريير»، باريس، ماكولا، 1982. انظر أيضًا، مارسيل غوشيه، وغلادي سوين، «شاركو الحقيقي. دروب اللاشعور غير المتوقعة»، باريس، كالمان - ليفي، 1997.

88 مكث فرويد في باريس أربعة أشهر ونصف.

89 هيبوليت تين، «مصادر فرنسا المعاصرة»، باريس، لافون، سلسلة «كتب»، 1986، بدأ نشر الكتاب في 1875. ونجد فيه مقولة الجماهير المريضة والخوف الذي تبعث به لدى غوستاف لو بون، « سيكولوجيا

الجماهير» (1895)، باريس، PUF، 1963. ونعلم بأن فرويد سوف يستند على هذا الكتاب كي يبلور علم النفس الجماعي عنده دون أن يتبنى لصالحه فكرة عدم المساواة واللاشعور الموروث «على الطريقة الفرنسية».

90 «فرنسا اليهودية» سوف يظهر في 1886.

91 سيغموند فرويد، «المراسلات»، المصدر السابق، ص. 186 و300.

92 سيغموند فرويد «المراسلات»، المصدر السابق، ص 209، سوف يترجم هو نفسه إلى الألمانية «دروس الثلاثاء» وعند وفاة شاركو، في 1893، سوف يكتب تأبينًا جميلًا يبيّن فيه الأهمية التي كان يعترف بها لتعليم معلمه شاركو. انظر، «شاركو»، في «نتائج، وأفكار، ومشاكل»، الجزء الأول: 1890 - 1920، باريس، PUF، 1984، ص 61 - 73.

93 انظر لاحقًا. ارجع إلى كارلو بونومي، «لماذا تجاهلنا فرويد كطبيب أطفال؟ العلاقة بين التأهيل لطب الأطفال عند فرويد وأصول التحليل النفسي»، في أندريه هاينال، «التحليل النفسي بعد مرور 100عام...مشاركة بالتاريخ الثقافي للقرن العشرين»، جنيف، جورغ، 1996، ص 87 - 153.

94 حقق هذه الواقعة ألبريخت هرشمولر الذي رجع في فيينا إلى سجلات الطائفة اليهودية حيث يوجد الدليل على ولادة ثلاثة أبناء لفرويد، أمّا الإشارة إلى الختان فغير موجودة، انظر ا. رايس، «التراث اليهودي عند سيغموند فرويد»، مجلة التحليل النفسي، 2، 1994، ص.236 - 258. كما أن كارلو بونومي رجع أيضًا إلى السجل نفسه، حول مقاومة النزعة المحافظة، انظر، سيغموند فرويد، رسائل إلى أطفاله (2010) باريس، أوبييه، 2012، ص96.

95 تحديدًا في الفصل الثالث من «دراسة لاهوتية سياسية»، المنشورة في 1670، نسب سبينوزا بقاء الشعب اليهودي على قيد الحياة إلى كراهية الأمم.

96 سيغموند فرويد«رسائل إلى أطفاله» المصدر السابق. قضية الحلقة العائلية سوف نتطرق في القسم الثالث من هذا الكتاب.

97 رسائل إلى يونغ في 19 سبتمبر/أيلول 1907 وفي 2 فبراير/ شباط 1910 (بعد السفر إلى الولايات المتحدة)، سيغموند فرويد وكارل غوستاف يونغ، «المراسلات»، الجزء الأول: 1906 - 1909 والجزء الثاني: 1910 - 1914، باريس غاليمار، 1975، ص142 (الجزء الأول)

و22 (الجزء الثاني)، أوجّه شكري إلى جون فورستر، لأنه نقل إلي مقالته المكتوبة على الآلة الكاتبة حول هذا الموضوع: «قضية مينا: زوجة فرويد الثانية؟» باكرًا جدًا في حياته تكوّن عند فرويد الانطباع بأنه عجوز، تحديدًا بسبب انطفاء الليبيدو الخاص به، سوف أعود لاحقًا إلى هذا الموضوع.

98 ولهذا السبب سوف يختار أنموذج القرابة في تراجيديا أوديب.

99 سيغموند فرويد، «شاركو». في «نتائج، أفكار، مشاكل»، الجزء الأول، م. س، ص. 61 - 73.

100 في 1864، موريس بينيديك كان قد دافع عن الحقيقة القائلة بأن الهستيريا هي مرض لا تعود أسبابه إلى الرحم، كما كان يؤكد على وجود الهستيريا الذكورية، بخصوص مصير ذلك الرائد الغريب من نوعه، انظر هنري ف. إلينبيرجر، «طب النفس. دراسات حول تاريخ الجنون والمعالجات النفسية»، باريس، فايار، 1995.

101 سيغموند فرويد، Uber Mannliche hysterir (1886). هذه المحاضرة لم تنشر، وكذلك المحاضرة الثانية بتاريخ 26 نوفمبر/ ت2، لكننا نعلم مضمونها بالتقارير الواردة عنها، هنري ف. إلينبيرجر كان أول من سجل مضمون المناظرات التي كانت في تعارض بين فرويد وزملائه في فيينا. انظر، «محاضرة فرويد حول الهستيريا الذكورية، فيينا في 15 أكتوبر/ ت1 1886» (1968) في « طب النفس»، المصدر السابق، ص 207 - 225. انظر أيضًا فرانك ج. سلوواي، «فرويد، بيولوجي الفكر»، المصدر السابق، ص 31.

102 في سيرته الذاتية، يشير فرويد إلى الاستقبال الهزيل الذي حظيت به محاضرته حين أكد على أن أحد المشتركين كان ينكر وجود الهستيريا الذكورية، انظر «سيغموند فرويد» يقدم نفسه بنفسه، المصدر السابق، وللعلم فقد أكد بأن مينير عشية وفاته كان قد كاشفه بأنه هو أيضًا حالة هستيرية ذكورية، وهذه المكاشفة أجمل من أن تكون ذات مصداقية.

103 هيبوليت بيرنهاييم، «تنويم مغناطيسي، إيحاء، علاج نفسي» (1891)، باريس، فايار، سلسلة «مجموع مؤلفات الفلسفة باللغة الفرنسية» 1995، انظر على حدّ سواء «قاموس التحليل النفسي» (1997)، المصدر السابق.

104 سوف يصبح التحويل مفهومًا يحتل المركز الأول في النظرية الفرويدية.

105 سيغموند فرويد، «سيغموند فرويد يقدم نفسه بنفسه»، المصدر السابق ص 47.

106 جوزيف بروير وسيغموند فرويد «دراسات حول الهستيريا» (1895) باريس، PUF، 1967، آنـا فون ليبن تظهر هنا تحت اسم فروكاسيلي.

107 حديث كورت إيسلر مع هنرييت موتيسيسكي فون كيسيليوكو (1882 - 1978)، ابنة آنـا فون ليبن، ارجع إلى بيتر سوال، «freud, His Teacher, and the Birth of Pychoanalysis»، عند بول ا. ستيبانسكي «Freud; Appraisals and Reappraissals, New jersey, the Analytic press. 1986.»

108 أنف، أذن، حنجرة.

109 وجه فرويد إلى فليس مائتين وسبعًا وثمانين رسالة، وامتدت المراسلات بين الرجلين من 1887 إلى 1904. سيغموند فرويد، «رسائل إلى ويلهيم فليس» طبعة كاملة، المصدر السابق، و«ولادة التحليل النفسي»، المصدر السابق.

110 و. ا. هاك (1851 - 1887)، وهو طبيب أنف - أذن - حنجرة من فريبرغ، كان قد شرع قبله بوصف العصاب الأنفي المنعكس.

111 ويلهيلم فليس، «العلاقات بين الأنف والأجهزة التناسلية النسائية، معروضة حسب دلالاتها البيولوجية» (1897). باريس، سوي، 1977، سلسلة، «الميدان الفرويدي»، بإشراف جاك لاكان، وفي مقالة بتاريخ 1895 مخصصة لدراسة حول الصداع عند بول يوليوس موبيوس (1853 - 1907)، أشاد فرويد بفليس، الباحث الشهير من برلين، انظر «صداع موبيوس» (1895)، في مكتبة البيت الأبيض الجزء الثالث، المصدر السابق، ص.97 - 103.

112 سيغموند فرويد «مخطط أولي لعلم نفس علمي»، المنشور في المرة الأولى ضمن «ولادة التحليل النفسي»، المصدر السابق. وقد تُرجم مرة ثانية تحت عنوان «مشروع علم نفس» في 2006، ضمن سيغموند فرويد «رسائل إلى ويلهيلم فليس»، المصدر السابق، ص593 - 693.

113 ماكس شور، في 1966، هو أول من كشف الستار عن معاناة إيما الأليمة، وهو ما تستر عليه علماء النفس لفترة طويلة، وقصتها المشروحة في الرسائل المتبادلة بين فرويد وفليس، جرى التعليق عليها لاحقًا مرات عديدة. انظر مايكل بورخ - جاكوبسن، «مريضات فرويد، أقدار»، المصدر السابق، ص66 - 93. كارلو بونومي يضع فرضية مفادها أن إيما عاشت عمليتها الجراحية كإعادة مكررة للبتر

الجراحي الذي تعرضت له في طفولتها وهو ما يشير إليه فرويد في مراسلته مع فليس، انظر «Withstanding Trauma; The Singnificance of Emma Eckstein,s Circumcision to Freud,s Irama Dream», the psychoanalytic quarterly, 82، يوليه/تموز 2013، ص689 - 740.

114 سيغموند فرويد، «رسائل إلى ويلهيلم فليس» المصدر السابق، ص153.

115 انظر «مخطط أولي لعلم نفس علمي»، المصدر السابق، ص657.

116 المصدر السابق، ص286.

117 ألبير هيرست (1887 - 1914)، مكتبة الكونجرس، صندوق 115، البطاقة 12. اسمه الحقيقي ألبيرهيرش، وقد غير اسمه عندما هاجر إلى الولايات المتحدة. لقد قام فرويد بتحليله، وقال له بأن ممارسته للعادة السرية لم تكن مؤذية، وبدلًا من أن يجعله يتمدد على الديوان فقد جعله يجلس على كرسي طالبًا منه أن يتخذ الوضعية التي يمارس بها العادة السرية، كما كان يعاني هيرست أيضًا من مشاكل في القذف، دافيد ج. لين، «تحليل سيغموند فرويد النفسي لألبير هيرست»، نشرة تاريخ الطب، المجلد الأول، 71، ربيع 1997، ص69 - 93.

118 محاضر الأحاديث مع إيسلر في 1952 موجودة في مكتبة الكونجرس.

119 انظر فرانك، ج. سولوواي «فرويد بيولوجي الفكر»، المصدر السابق، ص132.

120 أفضل ملف حول العلاقات بين فرويد وفليس هو الملف الذي جمعه إيريك بورج، «سرقة أفكار؟ ويلهيلم فليس سرقته الأدبية وفرويد»، ومن بعده «دفاعًا عن قضيتي الخاصة» بقلم ويلهيلم فليس، باريس، دونويل، 1994. وماكس شور «الموت في حياة فرويد»، المصدر السابق، ثم، بالطبع، فرانك ج. سولوواي، «فرويد، بيولوجي الفكر» المصدر السابق.

121 أوتو وينجر «الجنس والشخصية» (1903)، لوزان، لاج دوم، 1975. ترجم هذا الكتاب إلى عشر لغات، وحقق أكبر دخل وأعيدت طباعته ثماني وعشرين مرة حتى 1947 قبل أن يسقط في وهدة النسيان، انظر جاك لو ريدر، «حالة أوتو وينجر. جذور معاداة السامية ومعاداة النساء»، باريس، PUF، 1982.

122 بول يوليوس موبيوس (1853 - 1907): وهو طبيب أعصاب ألماني،

ألّف العديد من الكتابات العلاجية، وكان على اقتناع بوجود نقص عقلي عند النساء بالمقارنة مع الرجال، وكان يدافع عن الفكرة القائلة بأن التعبيرات الهستيرية الظاهرة تنشأ على مستوى الجسد من خلال تأثيرات نفسية.

123 نجد مجموع المستندات المتصلة بهذه القضية في كتاب إيرك بورج، «سرقة أفكار؟»، باريس، دونويل، 1994. لكن بيتر سواليس تخيل، دون أن يقدم أي برهان دعمًا لما جاء به، بأن فرويد أثناء لقائه مع فليس عند بحيرة آخن، قد حاول اغتيال هذا الأخير: «فرويد، فليس، وجريمة قتل الأخ. دور فليس في تصوّر فرويد عن البارانويا»، عند لورانس سبورلينغ، «Sigmund Freud. CRITICAL Assessments,»، لندن ونيويورك، روتليدج 1982 الكتاب الأول.

124 سيغموند فرويد، «رسائل إلى فريتز ويتيلز»، 15 أغسطس/آب 1924، «المجلة العالمية لتاريخ التحليل النفسي»، 6، 1993، ص.98.

125 هذه الواقعة رواها أكثر من مرة إرنست جونز، ماكس شور، بيتر غاي، وبطبيعة الحال ماري بونابرت نفسها.

126 سيغموند فرويد وساندور فيرينتزي، «المراسلات»، الجزء الأول: 1908 - 1914، باريس، كالمان - ليفي، 1992، رسالة 6 أكتوبر/ت19101 ص 231. وشوقي عازوري، «نجحت حيث فشل المصاب بالبارانويا.» هل للنظرية أب؟ باريس، دونويل، 1990.

127 سيغموند فرويد «رسالة إلى ويلهيلم فليس»، المصدر السابق، ص. 331، 339، 351، 357. وسوف ينتهي الأمر بفرويد إلى تقليص تحليله الذاتي المزعوم إلى مقطع لا غير، المصدر ذاته، ص. 430.

128 كان لا بد من انتظار الأعمال التاريخية العلمية لرد تلك الأسطورة المذهبة القائلة بأن فرويد ولد نفسه بنفسه، بما يتصل بحركة التحليل النفسي، نشير إلى أن أوكتاف مانوني بدّل في 1967 مصطلح «التحليل الذاتي» بمصطلح «التحليل الأصلي»، مبينًا بأن النظريات الفليسية في المذهب الفرويدي كانت التعبير عن التوزع المعقد بين العلم والهذيان، انظر «مفاتيح للخيالي»، باريس، سوي، 1969، ص 115 - 131.

129 سيغموند فرويد، «رسائل إلى ويلهيلم فليس»، المصدر السابق، ص 521، أنا قمت بإعادة ترجمة المقطع، انظر أيضًا ماكس شور، «الموت في حياة فرويد»، المصدر السابق، ص 253 - 254.

130 الكتاب المقدس، العهد القديم، باريس، غاليمار، سلسلة «مكتبة لا

بلياد» الجزء الأول، ص109 - 110.

131 نشير بهذا الصدد إلى أن فرويد كان يشعر بإعجاب شديد بكاتب فيينا ريتشارد بير - هوفمان وكان يحب أكثر ما يحب إحدى مسرحياته الأكثر شهرة، «حلم يعقوب»، المنشورة في 1918. إن المعركة مع الملاك كانت حاضرة على امتداد حياته الطويلة، وقد استخدمها أيضًا للإشارة إلى الطاغية الداخلي الكامن في نفسه، لا سيما سرطانه. وإسرائيل هو أيضًا الاسم الذي سوف يطلق في عام 1948على دولة اليهود، التي كانت موضع حلم عند تيودور هيرتزل، وهي دولة محكوم عليها بمعركة لا تنتهي مع البشر ومع نفسها، وهي المقولة التي عاد إليها فرويد في 1930، ثم في كتابه «موسى والتوحيد».

الفصل الثالث
ابتكار التحليل النفسي

في 1895، كانت هستيريا جميع النساء اللواتي عاينهن العديد من العلماء ما تزال سرًا من الأسرار، فكان على الروائيين وعلى بطلاتهن - من فلوبير إلى تولستوي، من إيما بوفاري إلى آنا كارنينا - أن يقوموا بجدارة بإعطاء وجه إنساني لتلك الحالة الهستيرية: وجه يعبر عن ثورة عاجزة نهايتها الانتحار أو الجنون. وعبثًا كانوا يؤكدون في باريس كما في فيينا، وجود هستيريا ذكورية، فذلك «المرض» كان على ما يبدو يصيب النساء على وجه الخصوص.

إن مصطلح «المرأة الهستيرية»، الذي بدأ التخلي عنه في القرن العشرين[132]، بقي مرتبطًا بحالة اجتماعية لم يكن للنساء فيها من وسيلة للتعبير عن تطلعهن إلى الحرية، سوى تعرية جسد متألم، وإذا، مع نهاية القرن العشرين، استُخدمت النساء المجنونات أو نصف المجنونات من سكان الضواحي البارسية الفقيرة كرصيد للاشتغال على مستوصف النظر - أي مستوصف شاركو - فإن نساء فيينا اللواتي يُستقبلن سرًا في عيادة خاصة بالاستماع: فهذا مستوصف للداخل ولم يعد مستوصفًا للخارج. وعلى نقيض النساء من عامة الشعب، كان من حق أولئك البورجوازيات أن يكون لهنّ حياة خاصة، وجو حميم، وقد أتاح مرضهن الوجودي لرجال العلم أن يبلوروا نظرية جديدة حول الذاتية، إن حضورهن الصامت، والروايات المرضية التي تشوّه حياتهن الحقيقية، هو ما كان في أصل ابتكار التحليل النفسي، وهو أصلٌ لا يدور الحديث عنه، من واجب كل مؤرخ أن يرسم مسار نشأته.

لن نشعر بالدهشة إذًا حيال «دراسات حول الهستيريا»، المنشورة في 1895 من طرف فرويد وبروير، إذا كانت قد تركت كل ذلك الانطباع القوي لدى الكتاب نظرًا لأن الكلام فيها أُعطي للمريضات وللطبيبين سواء بسواء، حتى وإن كان الطبيبان لا غير هما المفوضان بعرض حكاية المريضات[133].على امتداد تلك الحكايات عن حالات للهستيريا، كان قرّاء ذلك الزمن يحضرون التخلي عن مستوصف النظر لصالح مستوصف العلاقة التبادلية بين المحلل والمريض، وهذا وجة جديد للعلاج الدينامي، المستند إلى قدامى المنوِّمين سابقًا.

لكن التجديد الحقيقي يعود إلى أن الكاتبين تبنيا التوجُه المضاد للتوصيفات الباردة والمحشوة بمصطلحات تقنية كما كان الحال مع أطباء

النفس، من معاصريهم، وكانوا مفتوحي الشهية لتلك التوصيفات، كانا مهتمين بتحريك الخيال، ولذلك فضّلا التوجه، بموهبة، نحو الرواية الرومانسية على حساب عرض الحالة، كما كانا مهتمين بالدخول بأسلوب أدبي إلى أعماق الجغرافيا التاريخية للاضطرابات الأسرية في تلك الحقبة وذلك كي يبعثا الحياة والغرابة في الحكايات الدرامية اليومية لجنون خاص يتخفى وراء مظاهر تبدو طبيعية إلى أبعد حد: «روت لي، هكذا كتب فرويد، بأن أمها عولجت لفترة من الزمن في مصح للأمراض العقلية. وكان لديهم خادمة كانت سيدتها السابقة، هي الأخرى، قد أقامت لفترة طويلة في مصح للمرضى العقليين، وأنها كانت قد اعتادت أن تحكي لها حكايات مرعبة»، كما يقول أيضًا: «وهكذا فقد استرسلت وبدأت تحكي عن أسرتها، بالتفافات من كل صنف ولون، وهي تحكي عن ابن عم لها غير متزن قلع له والداه جميع أسنانه في جلسة واحدة [...]. وروت لي أيضًا كيف كانت تداوي شقيقها المريض الذي، بسبب المورفين كان عرضةً لنوبات رهيبة يبعث فيها أثناء تلك النوبات الرعب بالقبض عليها بعنف [...]، وقد رأت أحلامًا مخيفة، فقوائم الكراسي ومساند المقاعد المنجدة كلها كانت ثعابين، كما أن وحشًا رأسه رأس غُقاب راح ينقرها ويعض جميع أجزاء جسمها[134]»...

لكن النساء اللواتي كان فرويد وبروير يعرضان ما هنّ عليه من قلق، لم يتخيلن أبدًا، من دون شك، أن حكايتهن - حقيقية كانت أم مخترعة - يمكن عرضها هكذا أمام الجمهور، نظرًا لأن «المرض» عندهن كان ما يزال موضع شبهه أمام هؤلاء الذين يمثلون العلم الطبي: من تشنجات، وغمغمات، وحالات شلل، وهلوسات، وتكشيرات، ومظاهر رعب مرتسمة على الوجه، وحالات قلق، ورعب، ولاسيما الهواجس الجنسية المرتبطة بحكاية صدمات وحالات استغلال في مرحلة الطفولة.

كان فرويد يهتم دائمًا بأن يعطي قوامًا محسوسًا لما يقوم باكتشافه ولذلك دفع بروير، المتردد كثيرًا، كي ينتقل إلى الفعل، لا سيما بخصوص القصة الغريبة عند بيرتا بابنهيم، وهي شابة من فيينا من البرجوازية اليهودية الميسورة، وكان علاجها قد بدأ واستمر ما بين 1880 و1882. غير أن بروير ظلّ مترددًا، لعدم رضاه عن النتائج التي تم الوصول إليها لدى المريضة والتي، بعد مسيرة علاجية ماراثونية عرضت أثناءها سلسلة كبيرة التأثير من الأعراض[135]- هلوسات، حالات شلل، سعال شديد، إلخ. -، كانت قد وُضعت في مستوصف بيلفي في كروزلينجن، وهو مصح رائع بإدارة روبير بنسوانجر ويقع على ضفة بحيرة كونستانس، في ذلك المكان

الرائع، التحقت بنخبة من المرضى العقليين الميسورين من جميع أرجاء أوربا القديمة. كانت مستمرة على المورفين ولا تزال ضحية لحالات القلق نفسها، ولذلك قبلوها فيما بعد في أماكن ومؤسسات مختلفة للعناية قبل أن تعاد لتنضم إلى حضن الأسرة[136].

في 1895، لم يعد بروير يستخدم الطريقة التفريجية - الكاتارسيس - ولم يكن يريد أن يعطي صفة ظواهر تحويلية للواقعة التي تتحدث عن أن بعض المريضات تمكنّ من غواية الأطباء المعالجين لهن، لكن فرويد كان رأيه عكس ذلك ويعتبر بأن معالجة بيرتا قدمت البرهان ليس على التفسيرات الجنسية وحسب وإنما، نظرًا لأنه كان سابقًا للتجارب التي قام بها بيير جانيه[137]، مع مريضات تبدو عليهن الأعراض نفسها، فقد رأى أن بإمكان هذا العلاج البرهان على أن ذلك الغريم الفرنسي لم يكن، كما يظن نفسه، مبتكر ذلك النمط من العلاج. وكانت لفرويد الكلمة العليا أخيرًا، وها هي الحمية تمسك به وتجرفه، فعلى الرغم من اطلاعه الكامل على قصة بيرتا، التي كانت من طرف آخر صديقة مارتا برناي، فلم يكن باستطاعته الاستغناء عن مساعدة بروير، لأنه أكثر شهرةً منه، ولأنه أول من أرشد إلى ذلك المنهج.

لقد أشار الكاتبان، في عرضهما للكتاب، إلى أن اختيارهما لم ينبع من اعتبارات ذات طابع علمي: «فالمريضات موضع الدرس، كما قالا، ينتمين جميعهن إلى وسط متعلم ومثقف، هو تحديدًا وسط زبائننا الخاصين، وغالبًا ما وفّرت لنا هذه الدراسة الولوج إلى أعماق الأمور الحميمة لديهن، ما أتاح لنا معرفة حياتهن السرية، ونحن نستغل استغلالًا خطيرًا ثقتهن إذا ما نشرنا مثل هذه المعاينات دون التنبه إلى ضرورة عدم إعطاء ما يدل على المريضات، بحيث لا ننشر في أوساطهن وقائع كشفنها تحديدًا للطبيب دون سواه، وهذا ما جعلنا نبتعد عن نشر أكثر المعاينات إقناعًا ودقةً[138]».

كان من الضروري إذًا تفضيل بعض الجوانب من الحياة مع تجنب كامل لعرض حقائق يمكن أن تسبب مشاكل في الوسط الاجتماعي المشترك بين الأطباء والمريضات، إن المريضات اللواتي كان بروير وفرويد يقومان بمعالجتهن يشكلن جزءًا من أسرة موسعة: كنّ في أغلب الأحيان صديقات، أو شقيقات، أو بنات عم لزوجتيهما، واللواتي كان يمكن أن يتحولن إلى غريمات منافسات لهن، وفوق ذلك إذا كنّ يبدين مثل تلك الأعراض، فهذا معناه أن هاتين الزوجتين يمكن أن يكنّ من حاملات وباء الهستيريا على غير علم منهن، كان الواجب يقضي أيضًا بعرض جميع تلك المعالجات على

أنها نجاحات علاجية وليس كـ«تجارب» يمكن للصدقية فيها أن تكون مباشرةً موضع أخذ ورد. وإلا، فما الفائدة من عملية النشر تلك؟

هكذا إذًا كانت الحالة الفكرية لكلٍّ من فرويد وبروير عشية ظهور كتابهما، كان بروير يشك بكل شيء، ويفضل اللجوء إلى التفسير الفيزيولوجي ويرفض أن ينغلق داخل إطار التفسير الجنسي، ناهيك عن تخوفه من الهجمات المسمومة لزميله أدولف سترامبل الذي كان يؤكد مثل ريتشارد فون كرافت بينغ وكثيرين غيره أيضًا، بأن المريضات أوقعن، بأعراضهن، الأطباء في أخطاء، ومن جانبه، راح فرويد يدافع بأن التخلخل العقلي الماثل في العرض الهستيري كان الحافز له الدفاع النفسي والذكريات المرتبطة بصدمة جنسية تعود إلى زمن الطفولة. كان على ثقة من قدره وعلى اقتناع من صحة نظريته حول الغواية، ولهذا فقد حزم أمره في وجه التشكيك بالمعالجة، كي يبرهن على القيمة الشافية في العلاج النفسي: «غالبا ما سمعت مريضاتي يعترض علي عندما كنت أعدهن بالمساعدة أو بالتحسن بطريقة التفريج: فيقلن لي ولكنك تقول بأن مرضي يتعلق مع ظروف حياتي، وبقدري. وعليه، كيف سيكون بإمكانك أن تساعدني؟ ويكون ردي عليها كالتالي: هذا صحيح، لكن مالا شك فيه أن الأسهل هو أن يقوم القدر بدلًا مني بتخليصك من أمراضك، وفي جميع الأحوال يمكن لكِ الاقتناع بشيء وحيد ألا وهو أنكِ سوف تجدين فائدةً عظمى، في حال النجاح، وسوف تغيرين بؤسك الهستيري فيتحول إلى معاناة تافهة، وبنفسيةٍ استعادت صحتها، سوف يكون باستطاعتك مقاومة هذه المعاناة[139]».

كان الكاتبان على خلاف في ما بينهما، لكنهما متفاهمان بخصوص مسألة الاستذكار وضرورة التأكيد على المريضات الثمانية اللواتي عرضا حالاتهن التي شفين منها، إن لم يكن من المرض، فعلى الأقل من أعراضهن: «فرولين آنا و.»، «فرو إيمي فون ن.»، «الآنسة لوسي»، «كاترينا»، «روزالي ه.»، «فرو كاسيلي». الشخصية الحقيقية لخمس نساء منهن كشفها مؤرخون اعتبارًا من سنوات 1960[140]، وأسماؤهن الحقيقية هي بيرتا بابنهيم، فامي موزر، أوريليا أوم، آنا فون ليبن، إيلونا ويس.[141] ولم يتم «شفاء» أيٍّ منهن، لكن ليس هناك ما يمنع من القول بأن حياتهن تبدلت من خلال تجربة العلاج.

بهذا الصدد لم تكن «الدراسات» تلك، والمعتبرة بأنها شهادة ولادة تطبيق التحليل النفسي، لتستعرض سوى معالجات تنويميية وتفريجية، وأضيف إلى ذلك طريقة التركيز (إيلونا ويس، «الآنسة لوسي»)، وذلك

بالضغط على الجمجمة أو على الفخذ وهو ما كان يلجأ إليه فرويد لإقناع مريضاته بأن يحكين له جميع ما يتوارد إلى أذهانهن.

وفي ما يتعلق بـ«الحالة التأسيسية» - «آنا و.» -، فلم تكن سوى تجربة علاجية سحرت فرويد إنما قام بها بروير، وأمّا بيرتا بابنهيم، فلم تقبل أبدًا أن تكون آنا و. كما أن المريضات اللواتي استعرض فرويد وبروير حالاتهن على امتداد كتابهما «دراسات حول الهستيريا» فلم يتعرفن على أنفسهن في اللوحات التي رسمها فرويد لهن انطلاقًا من توصيفاته، وها هي إيلونا ويس، عندما سألتها ابنتها، تجيب بأنها تتذكر «الطبيب» ذا اللحية من «فيينا»، وأنه طبيبٌ مشهور، كانوا قد أرسلوها إليه، وقد جزب، من دون رضاها أو موافقتها، إقناعها بأنها كانت عاشقة لصهرها، علمًا أننا في هذه القصة، لا نستطيع أن ننسب إلى أحد من أبطالها الكذب أو التحريف، فالحديث عن الحالات، كما يعرضها العلماء، لا تمتُ عمومًا بكبير صلة بحقيقة حياة المريضات.

لنقل ببساطة بأننا من خلال المسافة الفاصلة يمكن أن نقيس التعارض الجدلي بين نظامين من الذاتية - ذاتية الطبيب من جانب، وذاتية المريض من الجانب الآخر - وإن هذين النظامين يعبران عن انقسام كامن في صميم العلاقات التي تربط الجنون الذي يدور الحديث عنه مع العلاج النفسي له، وهذا انقسام بين وعي للذات ووعي نقدي، فمن جانب هناك حياة لمجهول يُعالج كمريض وهو غارقٌ في معاناته، ومن جانب آخر هناك عقلانية النظرة السريرية التي تنأى عنه كي تتمكن من التقاط حالته التقاطًا أفضل.

وفي هذا المجال، يتبيّن لنا بأن دراسة الحالات مبنية دائما، على تصورات خيالية، أو أخبار، أو على استعراضات أدبية مهمتها إعطاء مصداقية لفرضيات العلماء. ومن هنا ضرورة إجراء مراجعات يتبيّن عمومًا من خلالها إلى أي مدى يرفض المريض مصداقية خطاب يعاد تركيبه، ويشعر بأنه ضحية له.

وهكذا كانت وضعية بيرتا بابنهيم، إذ أنها بعد تداويها عند بروير وبعد جولاتها العلاجية، نبذت كل ما كان له صلة بعلاجها وألزمت أسرتها بأنها لن تقدم أبدًا أي معلومة حول تلك المرحلة في حياتها[142]. وفي أكثر من مرة، عبرت عن عداوة كبيرة حيال التحليل النفسي، رافضةً تقديم أي تعليق مهما كان شأنه حول المصير الأسطوري لآنا و.، لا سيما من بعد نشر كتاب «دراسات حول الهستيريا»، فهل شقيت من شيء ما؟ نعم دون أي شك. ترى أكانت حياتها ستكون كما هي عليه لو أنها لم تجتمع أبدًا مع بروير؟ لا

أحد يعلم. لقد توصّلت بيرتا بنوع من التسامي، من تحويل أعراضها المرضية إلى نشاط خيري إنساني جعل منها، في سنوات قليلة وجهًا من أبرز وجوه الحركة النسائية اليهودية في ألمانيا، فهي بادئ الأمر كانت مديرة لميتم في فرانكفورت، وها هي تُسافر بعد ذلك إلى البلقان، والشرق الأوسط، وروسيا، للقيام بتحقيقات حول تجارة الرقيق الأبيض، وأسست في عام 1904 الـ«judicher Frauenbund[143]»، وهي منظمة تعمل على تشجيع تحرر النساء بالعمل، وكتبت مقالات لا عد لها ولا حصر، وحكايات، ومسرحيات للأطفال قبل أن تكون إلى جانب مارتن بوبر وجيرشم سخولم، كانت معادية للصهيونية، وتقية ومتسلطة كما كانت والدتها، ولذلك وقفت تندد بهجرة اليهود خارج ألمانيا. لقد توفيت في عام 1936، قبل وفاة فرويد بثلاثة أعوام، وبعد أن نجت بالكاد من اضطهادات النازيين.

بينما كانت بيرتا تتابع حياتها العامة، آنا و.، النسخة الثانية عنها وإن كانت نسخة مكروهة. عاشت مصيرًا مختلفًا كل الاختلاف، إن فرويد، الذي اقتنع بأن بروير خاف خوفًا شديدًا من الطابع الجنسي للتحويل الغرامي عند مريضته نحوه، قدم، ما بين 1915 و1932 - لا سيما إلى ستيفان زفايغ[144] - تنويعات متعددة عن نهاية ذلك العلاج، بإعادة بناء قصة قطيعته مع صديقه القديم بالطريقة التي رآها مناسبة، لقد حاول البرهان على أن تلك القطيعة من ورائها اختلاف بخصوص التفسير الجنسي للعصاب الهستيري، ولذلك جزم بأن آنا في يوم من الأيام ظهرت عليها جميع علامات حمل عصبي، وإذ خاف بروير على سمعته، فقد لاذ بالفرار، بينما زوجته ماتيلدا يُقال بأنها حاولت أن تنتحر بسبب تأثير الغيرة.

عاد جونز إلى الحكاية الخيالية عن ذلك الحمل العصبي مُحولًا إياه في عام 1953، إلى رواية حقيقية عن أصول التحليل النفسي، واضعًا في حالة اشتباك «الرعديد» بروير والـ«الباسل فرويد»، استنادًا إلى هذا التناول، «فرَّ» بروير بكل معنى الكلمة إلى فينيسيا مع زوجته لقضاء شهر عسل جديد، خلاله أصبحت الأم حبلى بابنتها دورا، وأضاف جونز إلى ذلك رواية تقول بأن بروير، بعد عشرة أعوام استدعى فرويد لاستشارة بصدد حالة مماثلة، وحين أشار هذ الأخير إلى أن أعراض هذه المريضة الجديدة تكشف عن تخيل حمل، لم يتحمل تكرار هذه الواقعة التي مرت معه سابقًا: «ودون أن ينطق ولو بكلمة واحدة، تناول عكازه وقبعته، وعجل مسرعًا ليغادر المنزل[145]».

في جميع الأحوال، لم يكن بالإمكان تجنب القطيعة بين فرويد وبروير،

ليس لمجرد عدم تقاسمهما التصور نفسه حول مقاربة الحالات العصابية، وإنما لأن فرويد لم يكن يطيق مُعارضة رجلٍ له وكان في الماضي مُحسنًا إليه، ولرغبته بتأكيد شخصيته في اللحظة التي بدأت علاقته المشغوفة مع فليس، ولعجزه عن التحكم بكبريائه، ها هو يُحاول مرةً جديدة تحويل الصديق الحميم إلى عدو.

في 1925، عند وفاة بروير، شعر بندم لموقفه حين علم بأن حاميه القديم لم يتوقف لسنوات عديدة بعد القطيعة بينهما، عن الاهتمام بأعماله، وحين بلغ سبعين عامًا وكان قد وصل إلى الشهرة، سوف يعترف لابن ذاك الأخير كم كان على خطأ لعقود من الزمن: «ما ذكرتَ حول علاقة والدك بأعمالي المتأخرة هو أمرٌ جديد بالنسبة لي وفعل فعله كما لو أنه بلسم وضع على جرحٍ مؤلم لم يندمل أبدًا[146]».

وهكذا ضمن مناخ خصومة ونزاع، نسب فرويد إلى بروير، في مارس/ آذار 1896، ابتكار طريقة جديدة لتحري اللاشعور، التحليل النفسي[147]. لكنه في حقيقة الأمر هو شخصيًا كان قد بدأ يمارس التحليل النفسي منذ ستة أعوام وذلك بوضع المريض ممدّدًا على سرير غير طويل من فوقه سجادة شرقية وأريكات كانت قدمتها إليه إمرأة اسمها السيدة بينفينستي. ومع مرور الزمن أصبح معتادًا على أن يجلس خلف ذلك الديوان كي يستمع إلى شلال كلمات المريض[148]، وهذا بيان حقيقي تصديًا لورثة شاركو الفرنسيين، وهو النص الذي يظهر فيه لأول مرة مصطلح «التحليل النفسي»، وهو يحتوي على التصنيف الأول الفرويدي الكبير لحالات العصاب.

كان المؤلف يؤكد فيه أيضًا بأن الوراثة المقدسة - ذات القيمة الكبيرة عند الأطباء النفسانيين، وعلماء النفس، والقائمين على نقد الطرق العلاجية - لا يمكنها بحالٍ من الأحوال تفسير نشوء حالات العصاب، لأن السبب الحقيقي في نظره يكمن، في صدمة حقيقية وقعت أثناء الطفولة. بمثل هذا المفهوم حول الاضطرابات النفسية، كان فرويد يقوم بثورة علاجية، كان يدافع فعليًا عن أن الاضطرابات النفسية، بفضل الطريقة الجديدة في العلاج بالكلام، وهي الطريقة التي ابتكرها بروير، لتكون من بعده بين يديه هو شخصيًا، يمكن سماعها، ومداواتها، وأحيانًا شفاؤها، كان يكفي لتحقيق ذلك أن يعود أصل الداء ويوضع في دائرة الضوء من طرف المريض بالذات بمساعدة المعالج وحسب التقنية القديمة في الاعتراف. وهكذا فقد ربط نفسه، دون أن يكون قد فكر بذلك، ليس مع تراث «فرانس أنطون ميسمر» لا فقط وإنما على وجه الخصوص، وبطريقة أبعد بكثير، مع المبدأ

العظيم حول الاعتراف الموروث من الإصلاح الديني المضاد ولاسيما كما ورد في مجمع ترنت المسكوني والذي جعل من الاعتراف تقديسًا، ممارسةً حميمة، دون تماس بالنظر أو جسديًا ما بين مُستمع الاعتراف والتائب المعترف[149]. وسواءٌ أراد فرويد ذلك أم لا، فهو أيضًا قد كان، قليلًا أو كثيرًا، وريث بعض الأعراف الكاثوليكية، وهو الدين الذي أخذت مربيته بيده إليه مثلما أنها في الوقت نفسه قد كانت «أستاذته في الشأن الجنسي».

وكي يرد على اتهامات أولئك القائلين بأن اعترافات المهسترين لا يمكن الوثوق بها أو أنها ناتجة بتأثير من الأطباء أنفسهم، فقد جعل فرويد من نفسه المدافع الصلب عن المرضى الذين يعانون وهم يسترسلون ويستسلمون لشراسة النظام الأسري في نهاية القرن، كان بالتالي يوجد تعليل، رغم كل شيء، لصدقية تلك الحالات المعروضة في «دراسات حول الهستيريا».

في أغلب الأحيان، كما كان يقول، تكون الفتيات ضحايا استغلال الإخوة الاكبر سنًا، وهؤلاء يكون تعليمهم الجنسي قد تم على يد مربية أو خادمة. وأدهى من ذلك أيضًا، كان فرويد يؤكد على وجود «اعتداء مبكر»، في داخل جميع العائلات، وهو اعتداء يقوم به بالغ على طفل عمره عمومًا من سنتين إلى خمس سنوات.

ومن هنا نشأ تصنيفه لحالات العصاب، وهو التصنيف القائم على الاختلاف بين الجنسين: العصاب الهجاسي من جانب، والعصاب الهستيري من الجانب الاخر، في رأيه، كان العصاب الأول ناتجًا عند الصبي من مشاركته الفعالة بالاعتداء الواقع عليه، بينما العصاب الثاني عند الفتاة يقودنا إلى القبول السلبي بالاستغلال: «إن أهمية العنصر الإيجابي في مجال الوساوس الهجاسية وكذلك السلبية الجنسية في نشأة الهستيريا يبدو أنها بينت سبب الربط الحميم للهستيريا مع الجنس النسائي والأفضلية الواردة عند الرجال للعصاب الهجاسي، ونجد أحيانًا زوجين من المرضى العصابيين كانا ثنائيا من عاشقين صغيرين في طفولتهما الأولى، فالرجل يعاني من عصاب الهجاس، بينما المرأة تعاني من الهستيريا؛ ونحن هنا إذا كنا حيال شقيق وشقيقة، يمكننا أن نعتبر أثرًا وراثيًا عصابيًا لما هو في حقيقة الأمر ناتج عن تجارب جنسية مبكرة[150]».

في 2 مايو/ أيار 1896، ها هو فرويد، الذي مايزال يحمل الجرأة نفسها، يعرض نظريته الجديدة عن الغواية أمام هيئة الطب النفسي والعصبي في فيينا. لكن استقباله كان باردًا جدًا، لاسيما من طرف كرافت -

إبينغ، الأخصائي في الشأن الجنسي وفي حالات الشواذ، والذي وصف مداخلته بأنها «حكاية علمية من حكايات الجنيات[151]»، مشيرًا من جديد إلى أن «اعترافات» الهستيريين يمكن تمامًا أن يكون الحصول عليها قد تمّ بإيحاء جاء به الطبيب، وشعر فرويد مجددًا بالاضطهاد من أعلام الجامعة. علمًا بأنه، بعد خمسة عشر شهرًا من ذلك التاريخ كان عليه الإقرار بأن نظريته لا يستقيم حالها.

بانتظار ما سوف يكون، تابع فرويد ضياعه. وحين توفي يعقوب بتاريخ 21 أكتوبر/ت[1] 1896، شعر بألم حقيقي وهو يتذكر ذلك الأب خائر القوى والذي لعب دورًا بالغ الأهمية في حياته، بطريقته في دمج الحكمة الأكثر عمقًا مع أسلوبه المليء بالتخيل المجنح: «كانت حياته قد انتهت منذ فترة طويلة حين مات، لكن في تلك المناسبة استيقظت دون شك في أعماق نفسي جميع أمور الماضي[152]».

بعد ثلاثة أشهر أقنع فرويد نفسه بأن يعقوب كان قد تصرف كما حال جميع البالغين الآخرين، المستغلين للأطفال: «كان أحد أولئك الشاذين وهو المسؤول عن هستيريا شقيقي (الذي تتطابق أعراضه جميعها مع حالة التماهي) وحالة بعض أخواتي الأصغر سنًا. إن تكرار تلك العلاقة غالبًا ما تدفعني إلى إعمال التفكير[153]». علمًا، بأنه لم يكن لديه كبير ميل لينظر إلى نفسه كأب يشعر برغبات آثمة حيال ذريته، فقد بدأ يتشكك بصحة نظريته.

كان ملتزمًا بالامتناع عن المعاشرة الجنسية، ولذلك كان فرويد يسترسل كما نعلم، مع جميع صنوف الأهواء البديلة التي أضيف إليها حمّى السفر، اعتبارًا من 1895، بعد أن سيطرت عليه رغبة عميقة باستكشاف أماكن ومواقع الثقافة الإغريقية اللاتينية وفن عصر النهضة، كان قد عزم على وضع حدّ لخشيته من حوادث السكك الحديدية وهاجسه من عبور الحدود وها هو يتوجه كل سنة إلى إيطاليا[154]، في سبتمبر/أيلول 1895، كان قد اكتشف روائع وعجائب فينيسيا، وبعد عام من ذلك التاريخ، بصحبة شقيقه الإسكندر وفليكس غاتيل، قام بجولةٍ طويلة في توسكانيا وبعدها بسنة، زار فينيسيا من جديد قبل أن ينزل متوجهًا نحو سيينا، وأورفيتو، بيروز، أزيرو، فلورانسا. في ما بعد، بصحبة مينا، ثم الاسكندر، ثم ساندور فيرينتزي، وابنته آنا، لم يتوقف أبدًا عن التوجه جنوبًا: روما أولًا، ثم بومباي، ونابولي، ورافيلو، وسورينت، وكابري، وباليرم، وسيراكوزا، وأثينا[155]، ولأنه كان منبهرًا بالدراسات المصرية، ومعجبًا بشامبوليون، فقد خطر له غالبًا، إنما من دون أن يتمكن من ذلك أبدا، أن يتوجه إلى ضفاف

النيل كي يلتقي بأرض الفراعنة في قديم الزمان.

هذا وإنه في سبتمبر/ أيلول 1897، منتشيًا ببحثه عن عالم سفلي يشبه العالم الموصوف في قصيدة لهنريخ هاينه، أرسل إلى فليس رسالةً أكّد فيها أنه فتش في إيطاليا عن «شراب نهر ليتي»، وهو شراب يسكر بالنسيان، إنه عقار جديد، نبع خلأق: «إنني أتجرع منه هنا وهناك جرعة. ويشعر المرء بارتياح وسرور أمام جمال غريب وانطلاقة خلاقة هائلة، حيث في الوقت نفسه يجد ميلي إلى ما هو غريب وإلى النفسية الشاذة مبتغاه[156]».

هذه الغطسة الأولى في أعماق نشوة السفر إلى إيطاليا كانت الفصل الأخير من تفكير طويل الأمد قاده، لدى عودته إلى فيينا، إلى التخلي عن نظرية الغواية التي جاء بها: «لم أعد مؤمنًا بالـ neurotica [...] قد أشعر جراء ذلك باستياء كبير، الشهرة الخالدة والثروة الموفورة، والاستقلال الكامل والرحلات، واليقين بتجنيب الأبناء الهموم الخطيرة التي أثقلت كاهلي أيام الشباب، هذا ما كان عليه أملي الجميل[157]»، ألا قد فات الأوان كثيرًا، رغم كل شيء لإنصاف يعقوب الذي وضع في دائرة الاشتباه ظلمًا وعدوانًا!

نظرا لعدم قبوله بانتقادات معاصريه الذين كانوا يرون في نظريته حول الغواية أنها تكريس لتضليل ناتج عن إيحاء، فإن فرويد كان على صدام مع واقع معقد، بالتأكيد لم يكن بالإمكان التفكير بأن جميع الآباء يقومون بالاغتصاب، إنما، على المستوى نفسه لم يكن بالإمكان اعتبار جميع النساء الهستيريات مدعيات أو مريضات بالتظلم حين يؤكدنَ بأنهن ضحايا استغلال جنسي، وعلى هذا كان الواجب يقضي بتقديم فرضية قادرة على احتواء حقيقتين متناقضتين: فحينًا تخترع المريضات بالهستيريا مشاهد غواية في غير محلها وغير حقيقية، وحينًا آخر حين تكون تلك المشاهد قد تحققت فعلًا، فهنَّ ما كان لهنَّ بمفردهن تفسير غصابٍ يتفتح عندهن.

إن فرويد بتخليه عن الـ neurotica، قد ابتعد على حدٍّ سواء عن طب الأعصاب وعن الفيزيولوجيا مثلما ابتعد عن العلوم الجنسية وهي العلوم المرتبطة بالطب النفسي والبيولوجيا، وهي التي تتخذ موضوعًا لها دراسة السلوك الجنسي عند البشر من أجل وضع قوانين وعلاجات.

لقد انشغل علماء الجنس الكبار في نهاية القرن التاسع عشر - كرافت - ايبينغ، ألبير مول، هافلوك إيليس - ولذلك فقد قل اهتمامهم بالأمور العلاجية وبالبحوث التخصصية في مختلف أشكال الممارسات والماهيات

الجنسية: المثلية الجنسية، الثنائية الجنسية، التنكر، الانتقال إلى الجنس الآخر، طب الأطفال، طب الحيوانات، إلخ. بكلمة واحدة، كان اهتمامهم منصبًا قبل كل شيء على قضية حالات الجنس الشاذة وعلى مصدرها الطفولي، وإذا كان مصطلح المرأة الهستيرية قد غزا حقل دراسة حالات العصاب بأكملها، فإن الصيغتين العظميين لـ«الجنس غير المنجِب» - المثلية الجنسية والطفل الممارس للعادة السرية - كانتا الميدان المكرس لعلماء الجنس، وللمهتمين بأمور الصحة وشؤون الأطفال، وهؤلاء كانوا يتركون للأطباء النفسيين، ورثة المختلين، أمر الاهتمام بالجنون، أي بالحالات العصابية.

بعد تخليه عن الفكرة القائلة بأن الأسرة البرجوازية يمكن أن تكون قائمة على تحالف بين أب شاذ وطفل موضع استغلال، حوّل فرويد قضية السببية الجنسية في الحالات العصبية إلى ميدان لم يعد ميدان العلوم الجنسية، ولا حتى الطب النفسي أو علم النفس. لقد تخلى عن مجال توصيف السلوكيات إلى مجال تأويل الخطابات، مُعتبزا بأن المشاهد الجنسية الشهيرة التي يُقدم المرضى وصفًا لها يمكن أن تكون قائمة على محض خيال، أي أنها نتيجة حالة ذاتية أو تشخيص خيالي. وكان يضيف حتى حين يكون الإغواء قد وقع فعليًا، فهو ليس بالضرورة مصدر العصاب، وعلى هذا فهو يقبل في الوقت نفسه التخيل الموهوم ووجود الصدمة، كما أنه يشير إلى أن المعالج، بفضل طريقة التحليل النفسي - تحري اللاشعور والمعالجة بالكلام -، كان عليه منذ ذلك الحين وصاعدًا أن يكون قادزا على تمييز أنساق عديدة من الواقع والتي غالبًا ما تكون متشابكة: الاستغلال الجنسي الحقيقي، الغواية الجنسية، التخيل الموهوم، التحويل.

لكن كان لابد أيضًا من التساؤل عن موقع الطفل الحقيقي في تلك القصص عن الغواية المعترف بها أو المتخيلة.

كان جسد الطفل منذ سنوات قد بدأ يشكل موضوعًا مفضلًا بامتياز لمهتمين بشؤون الصحة والأطباء، وثمة مئات من الكتب كانت تسرد مساوئ العادة السرية عند الأطفال وتأثيرها في نشوء حالات العصاب والشذوذ، لقد اهتم فرويد بهذه المسألة 1886 أثناء إقامته في برلين، حين كان في مقرّ طبيب الأطفال أدولف باجنسكي[158]، وباعتباره هو شخصيًا كطفل نشأ في عائلة موسعة قبل أن يصبح شخصيًا أبًا يقظًا حيال ذريته الكثيرة العدد فلم يتوقف عن القيام بدور المراقب الحصيف للعلاقات الجسدية الحقيقية أو الخيالية مما كان يبعث الاضطراب في

قلب علاقات القرابة. كان النقاش بأكمله في ذلك النصف الثاني من القرن التاسع عشر يتناول مسألة معرفة إن كان يمكن لطفل أن يولد، إن لم يكن مجنونًا فعلى الأقل شاذًا، وإن كان ذلك «الجنون» الخاص يظهر أم لا يظهر من خلال ممارسة جنسية نوعية - العادة السرية - التي كانوا حتى ذلك الحين قد أنكروا آثارها السيئة. وحيث إنه بات مقبولًا منذ ذلك الحين وصاعدًا كون الطفل يشكل موضوعًا جنسيًا - وليس مجرد موضوع في حالة عطالة ومتنكر بصورة بالغ - أصبح من الضروري أن نحدد له إطارًا قانونيًا، واجتماعيًا، ونفسيًا، والطفل، باكتسابه حق الوجود، بات لزامًا حمايته من نفسه ومن محاولات الغواية التي تهدد كمال كيانه.

نتيجةً لذلك ودائمًا ضمن منظور الطفل الذي يجب أن يصبح بالغًا «طبيعيًا» مندمجًا اندماجًا جيدًا بالنظام العائلي، كان لابد أيضًا إقناعه، في أعماق نفسه، بأن تعلّم الحياة يمر بتربية جسدية ونفسية قائمة على أن تجعله أفضل، تلك كانت مبادئ تربية شاذة، يتم الاعتماد عليها خاصةً في ألمانيا وتقوم على إقناع الأطفال بأن العقوبات الجسدية المفروضة من طرف البالغين تجعلهم أفضل، وأنهم بذلك يصبح بإمكانهم التغلب على عيوبهم بُغية الوصول إلى «خير عميم»، وأبعد من ذلك وأفضل، رغبتهم بالوصول إليه.

من بين المنظّرين المروجين لتلك «التربية السوداء[159]»، اكتسب غوتليب موريتز شريبر شهرةً حين ألف كتبا تعليمية بفضلها يزعم أنه يداوي انحطاط المجتمعات بخلق إنسان جديد: عقل سليم في جسم سليم، وهذه المقولات، المدعومة بدايةً من طرف الديموقراطيين الاشتراكيين، سوف يتم الرجوع إليها من طرف الحزب القومي الاشتراكي، ودانييل بول شريبر، القاضي المجنون، سوف يخضع لتلك التربية التي لا معنى لها والتي نجد أثرها ماثلًا في «مذكراته»، وهي ما سوف يقوم فرويد بالتعليق عليها في فترة لاحقة[160].

إذا كان طب الأطفال قد ضرب جذوره العميقة في فلسفة عصر التنوير، فإن إلحاق مجال الطفولة بالخطاب الصادر عن الطب النفسي قد تم مع نهاية القرن التاسع عشر حين بدأت الموجة الكبرى للمعالجة الطبية التي تتناول مجمل سلوكيات البشر من خلال الطب الجنسي، والطب الجنائي والمهتم بدراسة أسباب الجريمة، وعلم النفس. وهكذا انتهى الأمر حينذاك بتحطيم التصور القائل ببراءة الطفولة من خلال المعرفة النفسية وكان ذلك في صالح مقولات متعددة متناقضة، إذ كان الاعتقاد، وفق المنظور الدارويني، موجهًا إلى أن الطفل، المولود دون إنسانية، كان يحمل

في داخله، في جسمه وبالتالي في أعضائه التناسلية، بقايا حالة حيوانية لم يتم تجاوزها بعد. لكنهم كانوا يرون أيضًا بأن الطفل، إذا كان فاسدًا، فتلك طريقة نابعة من نفسه وبالتالي فهو عيب يطال الإنسانية كصفةٍ من صفاتها.

حينذاك تحديدًا بدأت العادة السرية تناقش على أنها السبب الرئيسي لبعض الهذيانات التي تتجلى ليس عند الأطفال لا غير، وإنما أيضًا، في فترةٍ لاحقة عند جميع الأشخاص الذين يقال عنهم إنهم «هستيريون»، فهؤلاء وأولئك جرى تصنيفهم باعتبارهم «مرضى بالجنس»: الأوائل - أي الأطفال - لأنهم ينساقون دون حد مع ممارسة الجنس بصورة انفرادية، والأخيرون - أي الهستيريون - لأنهم كانوا قد عاشوا - أو هم يؤكدون بأنهم عاشوا -، في طفولتهم، صدمات ذات طابع جنسي مماثل لتلك الناتجة عن الاستمناء (استغلال، غواية، اغتصاب، إلخ...).

كان من أبرز من أدان خطورة العادة السرية هو جان - جاك روسو، ليس فقط بتاريخ 1762 في مقطعٍ شهير في كتابه إميل - «إذا عرف ذلك الخطر الإضافي» -، وإنما أيضًا في «اعترافاته» المنشورة بعد وفاته في عام 1780: «كنت قد شعرت بتقدم الأعوام؛ حيث ظهر واضحًا مزاجي القلق، وكان انبثاقه الأول، بصورة لا إرادية تمامًا، قد نبهني إلى ما يتهدد صحتي من أخطار تصورُ أفضل من أي أمرٍ آخر البراءة التي عشتها حتى ذلك الحين. وبعد الاطمئنان سريعًا، تعلمت ذلك البديل الخطير الذي يُخادع الطبيعة ويخلص الشباب الذين هم من مزاجيتي من كثير من الاضطرابات لكن على حساب صحتهم، وصلابتهم وأحيانًا حياتهم[161]».

بعد مرور قرن من الزمان، وبدلًا مكن أن تعتبر العادة السرية «بديلًا خطيرًا»، راحوا ينظرون إليها، هي والمثلية الجنسية، باعتبارها الشذوذ الاكبر، لأنها تعرّض تعريضًا مهلكًا للجنون وللموت، باختصار، هي تمثل ضياعًا جوهريًا يهدف إلى «تبديل» الطبيعة، إلى تصرف بدلًا من الطبيعة[162]، إلى فرض ثقافة جنسية في قطيعة مع النظام الطبيعي لعالم الأحياء، نتيجةً لذلك، اعتُبر الإنسان بأنه المسؤول عن الغواية التي يمارسها على نفسه بالذات من خلال هوسه بالغلمة الذاتية. وأطباء الأطفال، نظرًا لثقتهم بالتقدم الحاصل في الجراحة المتطورة، راحوا يوصون بعلاج وقائي لتلك الحالة المرضية: بتر أو كي البظر عند الفتيات، وختان الصبيان، كما ابتكروا أيضًا أصنافًا لا تعد ولا تحصى من «المعالجات» للانتهاء من طاعون الاستمناء: مشدات مضادة للاستمناء، أغماد لمنع الانتصاب، أجهزة لتأمين تباعد الساقين عند الفتيات الصغيرات،

التهديد بالخصاء، وتربيط الأيدي، وأخيرًا إقامة دعاوى على المربيات المتهمات بـ«معاملة جسدية قاسية».

لكن، في سبيل تطبيق مثل تلك «المعالجات» ولإطلاق مثل تلك التهديدات كان لا بد من أن يكون بالإمكان البرهان على وجود التهيج الجنسي. هنالك شرعوا، في قلب العائلات، بتعقب منهجي لآثار الممارسة المشؤومة، فكانوا يترصّدون بالعدسة المكبرة كل التهاب في الاعضاء التناسلية، كل انتفاخ، كل تمزق نسيجي، كلى ظهور لبثور أو لاحمرار، غير أن العادة السرية نوقشت ليس باعتبارها مجرد ثمرة لممارسة انفرادية بل أيضًا باعتبارها لذه «دون نسب» وفيها أحيانًا افتراض لوجود شخص آخر: تدليك، يد مجهولة، ثياب، أحاسيس لمس وشمّ. وبعد فترة طويلة من انتصار المقولات الباستورية، كانوا ما يزالون يؤمنون بالخرافة القائلة بأن جميع الأمراض الالتهابية أو الفيروسية منبعها وأساسها ممارسة العادة السرية.

لكن ما يكون أصل نزوة الاستمناء؟

ضمن هذا المستوى، تتصادم فرضيتان، حيث كلّ فرضية منهما تتحدث عن علاقة تربط الغلمة الذاتية بالغواية، فإذا كانت العادة السرية «بديلًا خطيرًا»، فهذا معناه أنها ناتجة عن الثقافة والمحيط. وإذا كان الأمر كذلك، من المهم حينذاك أن نعلم إن كان الطفل هو نفسه ممارس الغواية على نفسه منذ أن يكون قد أصبح فردًا اجتماعيًا منتقلًا من الفطرة الطبيعية إلى الثقافة، أو إن كانت الغواية ناتجة عن بالغ يستغل الطفل ويؤذيه، والنقاش الدائر بأكمله حول قضية الصدمة من جانب، والنظريات الجنسية الطفولية من الجانب الآخر، ناشئ من هاتين الفرضيتين، اللتين سوف يهجرهما فرويد ويتخلى عنهما مثلما سوف يتخلى عن كل تصور للعادة السرية بأنها «بديلٌ خطير».

وهكذا فإن الهجمة الجراحية التي انصبت على أوربا من عام 1850 إلى العام 1890 أصابت على حدٍّ سواء الطفل الممارس للعادة السرية والمرأة الهستيرية. أوليسا كلاهما، ومثلهما أيضًا المعكوس (المثلي جنسيًا)، يقومان بالأدوار الباهرة في ذلك «البديل الخطير»؟ وهم جميعًا على كل حال بينهم نقطة مشتركة، في نظر العين الطبية، وذاك أنهم يفضلون جنسانية قائمة على غلمة ذاتية بدلًا من الجنسانية القائمة على الإنجاب. إن فرويد، بتخليه عن الـ«neurotica»، وبتحديده للشروط الأصيلة في المعالجة بالاعتراف، كان يستكشف وسيلة لا سابق لها في تناول التفكير للجنسانية عند البشر، كان أبعد ما يكون عن التعلّق بإيراد توصيفات حتى

الغثيان بخصوص الاغتصابات، والأمراض الجنسية، والممارسات الغلمية أو السلوكيات الغريزية، وبدلًا من بلورة جداول تشريحية تضيع في قياسات، أو حسابات متنوعة، أو تقديرات وتقويمات، أو إملاء قوانين أو وضع كتالوج لجميع الانحرافات الجنسية، فقد عرض ووسع تصور الجنسانية باعتبارها استعدادًا نفسانيًا يشمل الجميع، وجعل منها جوهر النشاط الإنساني تحديدًا، وهكذا أيضًا فالجنسانية لم تصبح بحد ذاتها ذات أولوية في مذهبه، وإنما هي بالأحرى مجموعة مفاهيم تسمح باستعراضها: النزوة، منبع التشغيل النفسي اللاشعوري، والليبيدو، المصطلح الشامل للنوع البشري بأكمله والذي يشير إلى الطاقة الجنسية، والشد، أو عملية الربط بعلاقات، والثنائية الجنسية، هذا الاستعداد الخاص بكل صيغة جنسية إنسانية، وأخيرًا الرغبة، الميل، الإنجاز، التحري اللانهائي، والعلاقة المزدوجة مع الغير.

كان فرويد عالمًا وضعيًا، مُطعَمًا بالفيزيولوجيا وبالتجارب في المجال الحيواني، وها هو بتاريخ 1897 يتوجه نحو إقامة نظرية عن العشق - أو الـ«Eros» -، كما سبق أن فعل قبله معلمو الفلسفة الغربية، لكنه كان داروينيًا، ومشبعًا بأسطورة فاوست وحلفه مع الشيطان، لذلك كان لا يؤكد مجرد أن المبدأ المسيحي القائل بمحبة القريب كحب المرء لنفسه هو مبدأ معاكس للطبيعة العدوانية عند الكائن البشري، وإنما أيضًا أن اكتساب الحرية الذاتية يتم من خلال القبول بجبرية لاشعورية: «أنا آخر».

وإذ لم يعد فرويد يريد أن يصبح فيلسوفًا، فقد اقتنع بأن على مذهبه أن يكون قبل أي شيء آخر علمًا للنفس، وهو علمٌ قادر على إعادة بناء حقل العلم النفسي، الذي كانت دعائمه مستندة إلى البيولوجيا والعلوم الطبيعية. في حقيقة الأمر لقد وضع قيد العمل شيئًا آخر مختلفًا كليًا: إنها ثورة لما هو حميم من نتاج عصر الأنوار القاتمة ومن الرومانتيكية السوداوية، ثورة في آنٍ واحد عقلانية ومسكونة بهاجس اكتشاف الأنهار التحتية. أوليس الباحث عن أرض ميعاد تسكنها أشباح، وسرابات، وإغراءات: ذلك هو وعد الرحلة الفرويدية في أعماق لاشعور معرَف بأنه «مشهدٌ آخر»، وهذا يفترض تنظيمًا لهيكليات القرابة القادرة على تقديم صورة عن واقع صيغ نظام عائلي جديد كان يريد أن يكون الباحث عنه والمعالج له، إنما أيضًا مع كونه صانعه.

كان متأثرًا كجميع أبناء جيله بالـ«قصص الدرامية حول القدرية» الشهيرة والتي كانت تعرض على المنصة مشاهد لقصص رهيبة عن ملوك، وأمراء، وأميرات ضمن إطار حالات سفاحية وجرائم اغتيال للأب، ولذلك

أراد فرويد لنفسه أن يكون الشاهد المتميز لمرض العائلات السائد في فيينا حتى في صميم السلالة الإمبراطورية لآل الهابسبورغ،

في تلك المسرحيات، التي كانت تثير رعبه، كان «القدَر» يتدخل بصيغة إله آلي يتيح لزوجين من الشباب محطمين بالقدرة الأبوية أن يتحررا من وطأة نسب خادع.

وهو قد وجّه تفكيره إلى واحدٍ منهم من بعد أن استعاد من جديد ذكريات طفولته وشعوره الغرامي حيال أمه اليهودية ومربيته المسيحية، فكتب رسالة إلى فليس بتاريخ 15 أكتوبر/ ت1 1897، يشرح فيها الفكرة العبقرية حول تشبيه قدر العصابيين في نهاية القرن بقدر بطل من التراجيديا الإغريقية: «إن كل مستمع كان في يومٍ من الأيام بذرةً، في الخيال، لأوديب الذي يشعر برعب شديد حيال تنفيذ حلمه بعد نقله إلى الواقع، إنه يرتعش بمقدار المسافة الفاصلة للكبت في حالته الطفولية عن حالته الحالية[163]».

لكن سرعان ما أضاف فرويد إلى بنائه المسرحي شخصية هاملت، الأمير الكئيب المتردد بأخذ الثأر لأبيه وقتل عمه، الذي أصبح زوجًا لأمه. وقد جعل من أمير الدنمارك ذاك هستيريًا مخنثًا يسيطر عليه هاجس ذكرى اشتهائه لأمه: «كيف نفهم تردده بالانتقام لوالده الذي اغتاله عمه [...]؟ كل شيء ينجلي بوضوح أكبر عندما نفكر بالعذاب المتولد في أعماقه بالذكرى الغائمة غير الواضحة والتي تجعله، نظرًا لشغفه بوالدته، يتمنى لو قام حيال والده بتلك الجريمة تحديدًا[164]».

إن أوديب، الوجه الاكثر توجّعًا بين الشخصيات التي تخيلها سوفوكليس في ثلاثيته المخصصة لعائلة لابداسيد، تحوَّل تحت قلم فرويد إلى الأنموذج الأمثل للعصابي الحديث حيث هذا الأخير يحرِّف بقصد وبراعة حكاية ذلك الطاغية النبيل والكريم، الذي أصيب بالعنف العاطفي وحكمت عليه العزافة بأن يكتشف أنه غير ما كان عليه، وذاك لأن أوديب سوفوكلس كان فعلًا قاتل أبيه (لايوس) وزوجًا لأمه (جوكاستا) لكنه لم يكن يعرف هوية ذلك الأب كما لم يكن ليرغب بتلك الأم التي أسندتها مدينة طيبة إليه، بعد أن حلّ لغز أبي الهول، اللغز الذي يشير إلى المراحل الثلاث لتطور الإنسان (الطفولة، نضج، شيخوخة)، وأوديب، أب وشقيق أبنائه الذين أنجبتهم أمه، سوف ينهي حياته في المنفى، بصحبة أنتيغونا، ابنته التي حلّت بها لعنة، وحكم عليها بأن لا تنجب أبدًا. لكن هذا الأوديب لا يمت بصلة إلى أوديب الذي أعاد فرويد ابتكاره، كمذنب برغبة مزدوجة: قتل الأب وامتلاك جسد الأم جنسيًا».

في نهاية القرن التاسع عشر بعد عمليات الحفر والبحث الأثري التي أتاحت تحديد موقع طروادة وميسينا، بات الرجوع إلى الإغريق التراجيديين، وإلى الميثولوجيات الغابرة، وإلى موضوع العنف العاطفي أمرًا رائجًا. وضمن سيرورة تلك الحكايات الخرافية القديمة التي كانت تضع آلهة في مواجهة البشر، دون النظر أبدًا إلى البشر، الخاضعين للقدر، بأنهم مذنبون بما يقومون به، فإن مفكري الحداثة كانوا يعتقدون أنهم يرون سيرورة التاريخ الحاضر لموت المنظومة الأبوية التي كانوا يرفضونها رغم تعلقهم بها: ألا وهي منظومة القوة الإمبراطورية الأوربية، ينظرون إليها كأنها تنفيس جماعي.

إن هيكليات القرابة الخاصة بعائلة لابداسيد، تلك العائلة ذات الامتياز عند سوفوكلس، كانت ذات تأثير ساحر على المؤرخين لأنها تبدو وكأنها تؤكد، مثلما هي أيضًا عقبة أمامه، على مجيء ذلك الكابوس المرهوب كل الرهبة لزوالٍ ممكن للاختلاف بين الجنسين، في التاريخ الطويل لعائلة لابداسيد، كان الرجال، والنساء والأجيال اللاحقة محكومًا عليهم ألّا يكون لهم من موضع إلّا تحت إشارة الجنون والجريمة، والدنس حتى اندثار جنسهم نهائيًا.

بالمقابل في تاريخ الأتريديين، كان لكل جريمة قصاصها بجريمة أخرى وكل جيلٍ، بقيادة الإيرينيس - ربات الانتقام -، يجب عليه أن ينتقم لجرائم الجيل السابق ويكفّر عنها، وهكذا فإن أغاممنون، ملك ميسينا، الذي ضحى بابنته إيفيجيني ذبحته زوجته كليتمنسترا، بالتواطؤ مع عشيقها إيجست الابن السفاحي لتيست، لقد انتقمت الأم للابنة، وحينذاك أصبح أورست مجبرًا على الانتقام لوالده وعلى قتل والدته وإيجست بمساعدة شقيقته إليكترا، في نهاية هذه الحلقة[165]، وضع أبولون وأثينا نهايةً لقانون الجريمة في سبيل تأسيس الحق والعدالة في المدينة. وبعد أن أصبح أورست مجنونًا تم تطهيره من ذلك، وأما ربات الانتقام فقد أصبحن الأومينيد (ربات الإحسان)، وانتصر نظام الحضارة على نظام الطبيعة المتوحشة، السفاحية، التدميرية.

تمامًا مثلما أن تاريخ عائلة لابداسيد يعرض أمامنا تدميرًا ذاتيًا لا هوادة فيه، وهو تدمير لا تاريخي للذاتية عند كل فرد في كل جيل، فإن تاريخ الأتريديين يشير إلى أن الحضارة يمكن لها أن تضع حدًا للعنف الوحشي لدى البشر والآلهة، من طرف هناك تراجيديا اللاشعور، التدمير الذاتي، الوحشية، ومن الطرف الآخر هناك التاريخ، السياسة، مجيء الديمقراطية، بالنظر إلى هذا الاختلاف، نفهم لماذا، في عام 1897، اختار فرويد نمط

شجرة نسب عائلة لابداسيد المرتكبة لجريمة تدمير نفسها من حول طيبة، المدينة التي تكاد تكون شبيهة بمدينة فيينا، المدينة ذات الزواج الداخلي، والمغلقة على نفسها: فهذا جنون داخلي في الكيان النفسي.

إذا كان أوديب سوفوكلس يجسدُ لفرويد اللاشعور الذي صيغ مفهومه عن طريق التحليل النفسي، فإن هاملت شكسبير، الأمير المسيحي من بداية القرن السابع عشر، جعل من الممكن وضع نظرية عن «الوعي المذنب»، فهاملت، بما هو شخصية كوبرنيكية، لم يتمكن بعد من الشك بطريقة ديكارتية حول دعائم التفكير العقلاني، إنه قلِق ومحبَط، ولذلك لا يستطيع أن يبقى أميرًا ولا أن يصبح ملكًا، ما دام غير متأكد إن كان «موجودًا أم غير موجود» وضمن المنظومة الفرويدية، يطل علينا هاملت وكأنه شبيه أورست المتحول إلى المسيحية، والمذنب، والعصابي.

إن فرويد، بابتكاره لشخصٍ حديثٍ، موزعٍ بين أوديب وهاملت، بين لاشعور يتحكم به من غير أن يعلم وشعور بالذنب، يقيد حركة حريته، كان يتصور مذهبه كأنثروبولوجيا عن الحداثة التراجيدية، فهذه «رواية عائلية[166]»: إن التراجيديا اللاشعورية حول السفاح والجريمة، كما كان يقول، تتكرر في الوعي المثقل بالشعور بالذنب. هذا التصور للإنسان الحديث لم يعد يتصل أدنى اتصال بأي علم نفس قائم على المعالجة الطبية، وأمّا بما يخص التحليل النفسي، فهو قد كان اختراقًا وتجاوزًا، طريقةً بالإصغاء إلى الكلمات وجمعها من دون علم من المريض، ودون أن يبدو على الطبيب المحلل ما يبيّن أنه يستمع إليها أو يضع تعريفًا لها. إنه علمٌ غريب، مزيج هش يجمع بين النفس والجسد، العاطفة والعقل، السياسة والحيوانية: أنا حيوان سياسي Zoon politikon -، هكذا كان يقول فرويد مستشهدًا بأرسطو.

في اللحظة التي بدأت تتبلور فيها في جميع أرجاء أوربا برامج بحث، قائمة على دراسة الوقائع والتصرفات، توجه فرويد بالتالي نحو الأدب والقصص الميثولوجية حول أصول الحياة كي يضفي على نظريته في المجال النفسي صلابةً لم يكن بإمكانها، بنظر معاصريه، أن تنسب نفسها بحالٍ من الأحوال إلى العلم: لا إلى الفيزيولوجيا التي كانت تعدد سلوكيات وتريد أن تكون موضوعية، ولا إلى الأنثروبولوجيا التي تسعى إلى وصف المجتمعات البشرية، ولا إلى علم الاجتماع الذي كان يدرس حقائق ووقائع اجتماعية ولا إلى الطب الذي، منذ بيشا، وكلود برنار، وباستور، كان يعرف قانونًا وعلاجًا قوامهما التغيرات العضوية والفيزيولوجية، ورغم ذلك، كان يؤكد بأنه مُبتكر علم حقيقي للنفس.

نفهم حينذاك لماذا أمكن لتلك الثورة الغريبة حول ما هو في أعماق الإنسان، وهي الثورة المعاصرة لاختراع فن السينما - وهذه الأخرى معمل كبير لتصنيع أحلام وأساطير، وأبطال -، أن تثير اهتمام الكتاب، والشعراء، والمؤرخين وتنفّر أتباع العلوم الوضعية، علمًا بأنهم هم من كان يسعى فرويد لإقناعهم، كان وفيًا دون أن يعلم لعرف الرومانتيكية السوداء، ولذلك فقد عانق فكرة الإغريق التراجيديين وهي الفكرة القائلة بأن الإنسان هو القائم لا شعوريًا بتدمير ذاته نظرًا بالتحديد لأنه يضرب جذوره في شجرة نسبٍ ليس هو السيد عليها، هنا يتم تحويل العقل إلى نقيضه، ويجري البحث في الجانب المعتم من الذات، والبحث أيضًا عن الموت الذي يفعل فعله في الحياة: تلك بالضبط كانت طبيعة التنقيب الذي قام به مبتكر التحليل النفسي عند مطلع القرن العشرين، والتي قال عنها توماس مان محقًا، على عكس رأي فرويد، بأننا حيال «رومانتيكية أصبحت علمية».

منذ طفولته، كان فرويد على الدوام معجبًا بالأبطال المتمردين: من فاتحين، مؤسسي سلالات ملكية، مغامرين، قادرين في الوقت نفسه على تحطيم قانون الأب وعلى إعادة التأسيس رمزيًا لسلطة الأبوة المهزومة أو المنظور إليها بازدراء، وهو حين ربط قدر هاملت بقدر أوديب، كان يلقي على التحليل النفسي مهمة أن يحتل موقعًا إمبراطوريًا لا لبس فيه في صميم ما سوف يطلق عليه لاحقًا العلوم الإنسانية، لكنه موقع يستحيل تحديده وتعريفه: ما بين علم عقلاني وتفكير بدائي، بين طب النفس وتقنية الاعتراف، بين الميثولوجيا والممارسة العقلانية.

كان فرويد يقوم بثورة رمزية: إذ غيّر نظرة عصر بأكمله إلى نفسه بالذات وإلى طرائق التفكير عنده؛ لقد ابتكر رواية جديدة عن الأصول، كان الإنسان الحديث بطلًا فيها، ليس بسبب مرض بسيط لا غير وإنما بسبب تراجيديا: وخلال قرن من الزمان، سوف يطبع هذا الابتكار الفرويدي العقول بطابعه. لكن فرويد، مع إرجاع تراجيديا أوديب إلى عصره، قد غامر باحتجاز روايته داخل «عقدة» ليخلق بذلك شروط تقليص مدى مذهبه ليقتصر على علم نفس العائلة، وسوف يحتاج إلى ثلاثة عشر عامًا كي يعطي قوامًا متماسكًا لتلك العقدة الأوديبية، دون أن يكرس ولا حتى مقالا واحدا لهذا التصوّر، الماثل في جميع مؤلفاته لكنه في نهاية المطاف نادرًا جدًا ما يُعلن عنه بوضوح، وللحقيقة فنحن نجده في 1910 بالضبط بعد كتابة دراسته عن ليوناردو دافنشي، وقد استخدم للمرة الأولى مصطلح Odipuskomplex[167].

كان فرويد يعتبر قصة «حالة دورا» كأول علاج بالتحليل النفسي قام به شخصيًا. وللعلم، إذا ما نظرنا إلى الموضوع عن كثب يتبين لنا بأن المريضة التي أطلق عليها هذا الاسم، إيداب وير، كانت على تشابه مع باقي النساء صغيرات العمر من فيينا، من بنات البرجوازية الميسورة التي تحدث عن قدرها في «دراسات حول الهستيريا»، مرةً جديدة، ها هو يصطدم بحالة مرضية عائلية، على حدٍّ سواء بصفته كطبيب وبصفته كاختصاصي بالأمراض العصبية، ومن جديد أيضًا، كتب بخصوص إيدا، وبموهبة كتابية كبيرة، حكايةً يمكن أن يقرأها القارئ كما لو كانت قصة من تأليف ستيفان زفايغ أو أرثر شنيتزل، إنها ضحية رباعي من البالغين المتهتكين، حاول أحدهم استغلالها جنسيًا عندما كان عمرها ثلاثة عشر عامًا، وهكذا أجبر والد إيداب وير ابنته على التداوي عند فرويد.

كان فيليب بوير من كبار رجال الصناعة، وهو أعور ومصاب بالتهاب السفلس، وقد أصيب أيضًا بالسل في 1888، وهذا ما جعله يعيش في ميرانو، في جبال التيرول، مع زوجته كاترينا وجميع أفراد العائلة، وهناك تعرف على هانز زيلنكا، أحد رجال الأعمال الأقل ثروةً منه، وهو متزوج من إيطالية جميلة، جيوسيبينا أو بيبينا، وكانت تعاني من اضطرابات هستيرية وتتردد دائمًا على المصحات. وقد أصبحت عشيقته وبقيت إلى جانبه، في 1892، عندما أصيب بتمزق شبكية العين.

في تلك الحقبة، بعد عودته إلى فيينا، كان يسكن في الشارع نفسه الذي يقطنه فرويد وقد استشاره بشأن هجمة شلل واضطراب عقلي ناشئ عن السفلس. لقد استراح للعلاج، ولذلك وجه إليه من بعدها شقيقته مالفين فريدمان، العصابية بصورة خطيرة والغارقة في الشقاء ضمن حياة زوجية معذبة، وسرعان ما توفيت بسبب هزال شديد أصابها وتطور بسرعةٍ كبيرة.

كاترينا، أم إيدا، كانت مثل زوجها من عائلة يهودية تعود أصولها إلى بوهيميا. كانت قليلة الثقافة وفيها من الغباء ما يكفي، وكانت تعاني من أوجاع في البطن بصورة دائمة، وورثت ابنتها هذه الحالة عنها، لم تهتم أبدًا بأبنائها، ومنذ مرض زوجها والانفصال بينهما إثر ذلك، فهي تمثل جميع علامات «العصابية المنزلية»: دون أن تفهم شيئًا من طموحات أبنائها، كانت تخصص جميع نهاراتها، على ذمة فرويد، لتنظيف الشقة وجعلها دائمًا في أحسن حال من الترتيب، الموبيليا وأدوات المطبخ، إلى درجةٍ لم يعد بإمكانها الاستمتاع بها أو استخدامها. لم تكن الابنة تعير أمها أدنى اهتمام، وكانت تنتقدها بقسوة بعد أن خرجت كليًا عن أي تأثير من جانبها. وذاك

لوجود مربية وقفت إلى جانب إيدا تدعمها. إنها امرأة من الطراز الحديث وهي «متحررة»، كانت تقرأ كتبًا عن الحياة الجنسية وتخبر تلميذتها بذلك سرًا، وقد فتحت عينيها بصورة خاصة على علاقة أبيها مع بيبينا. علمًا بأن إيدا من بعد محبتها لها والإصغاء لما تقول تخاصمت في النهاية معها.

أما بالنسبة للشقيق أوتو بوير، فكان يفكر تحديدًا بالفرار من المشاجرات العائلية، وحالما كان يشعر بأن عليه أن يقف في صفّ هذا أو ذاك، كان يصطف إلى جانب أمه. عندما كان عمره تسعة أعوام، أصبح طفلًا معجزةً حتى أنه كتب دراما حول نهاية حكم نابليون. من بعد ذلك، ثارَ متمردًا على الآراء السياسية لأبيه علمًا بأنه كان يستحسن حياة الدعارة لديه، ومثله سوف تكون له حياة مزدوجة، مطبوعة بالسرية وبالتناقض، فهو سكرتير الحزب الديمقراطي الاجتماعي من 1907 إلى 1914، ليصبح من بعدها مساعدًا لفيكتور أدلر في وزارة الشؤون الخارجية بتاريخ 1918، وسوف يصبح أحد أبرز وجوه الأنتليجنسيا النمساوية في فترة ما بين الحربين العالميتين.

في أكتوبر/ت[1] 1900، ها هي إيدا بوير وقد بلغت ثمانية عشر عامًا، تزور فرويد بضغطٍ من والدها، كي تباشر بعلاج سوف يستمر بالضبط أحد عشر أسبوعًا، كانت مصابة باضطرابات مختلفة عصبية - صداعات أليمة، حالات سعال تشنجية، فقدان الصوت، انهيار معنويات، ميول للانتحار -، وكانت قد تعرضت لإهانة ثانية، كانت على وعي منذ فترة طويلة بـ«خطيئة» أبيها وبالكذبة التي يقوم صرح الحياة العائلية عليها، ولذلك فقد رفضت مرةً جديدة المقاربات الغرامية التي قام بها حيالها هانس زيلينكا على ضفة بحيرة غارد، ومن بعدها تناولته بصفعة، وانفجرت الدراما حول هذا الموضوع حين اتهمها هانز ووالده بأنها لفّقت مشهد الإغراء من خيالها، وأدهى من ذلك، فقد كذبتها بيبينا زيلينكا التي كانت تشتبه بأنها تقرأ كتبًا جنسية إباحية لاسيما «فيزيولوجيا الحب» من تأليف باولو مانتيكازا، والمنشور بتاريخ 1872، والمترجم إلى الألمانية بعد خمسة أعوام من صدوره. كان مؤلف الكتاب من أطباء الجنس الداروينيين وكثيرًا ما يستشهد به ريتشارد فون كرافت إيبنغ وهو مختص بالوصف الأنثروبولوجي للنشاطات الكبرى الجنسية عند البشر: السحاق، الاستمناء، العادة السرية، المثلية، التهييج بالمص، إلخ..

عندما أرسل فيليب بوير ابنته إلى فرويد، كان لديه أملٌ كبير بأن هذا الأخير سوف يوافقه الرأي وسوف يهتم بوضع نهاية لتخيلاتها الجنسية المزعومة. لكن فرويد كان أبعد ما يكون عن الخضوع لما يطلب الأب، وها

هو يتخذ توجهًا مختلفًا كل الاختلاف. خلال أحد عشر أسبوعًا وعبر حلمين - أحدهما بخصوص حريق في البيت العائلي والآخر حول موت الأب -، أعاد بناء الحقيقة اللاشعورية من وراء تلك الدراما. فالحلم الأول يكشف بأن دورا كانت قد استرسلت مع العادة السرية وأنها في واقع الأمر تعشق هانز زيلينكا. غير أن بروز هذه الحالة أيقظ أيضًا رغبة سفاحية مكبوتة حيال الأب. وأما الحلم الثاني، فيسمح بالذهاب إلى ما هو أبعد في تحري واكتشاف «الجغرافيا الجنسية» عند دورا، لاسيما تسليط الضوء على أنها تعرف الحياة الجنسية عند البالغين معرفةً تامة[163].

تبين لفرويد بأن مريضته لم تكن تتحمل الكشف عن رغبتها بالرجل الذي سبق أن صفعته، حينذاك انساق إلى تأويلات عفو الخاطر وخاطئة حول واقعة نوبة التهاب للزائدة الدودية ناتجة عن تخيل وهمي لعملية إنجاب. لقد رفضت أن تحاصر ضمن هذا الخطاب، ولذلك تركها فرويد تمضي في حال سبيلها عندما قررت قطع العلاج.

بدايةً كان يحبذ التداوي، لكن الأب تبيَّن له سريعًا بأن فرويد لم يقبل بفرضية التخيلات، وهكذا، فقد تخلى عن اهتمامه بالقضية، ومن جانبها لم تجد إيدا عند فرويد الراحة التي كانت تنشدها لديه. في ذلك التاريخ بالفعل، لم يكن يعلم بعد كيف يتعامل بتقنية التحويل في العلاج، كذلك، كما سوف يشير في مذكرةٍ له بتاريخ 1923، لم يكن قادرًا على فهم طبيعة الرابطة الجنسية التي تربط بين إيدا وبيبينا: «إذا كان فرويد قد استخدم لغةً خشنة مع دورا، هكذا كتب باتريك ماهوني، فلم يكن أيضًا يعبر بهدوء: فهو مضطرب ويظهر تهيّجه بنبرات سخرية، وحرمان، ومرارة، وانتقام، وعنفوان المنتصر بكل افتخار[169]».

مختصر القول، كانت لدى فرويد شكوك، وكان يقاوم الإغراء الذي يدفعه لتطبيق نظريته الجديدة كليًا على قصة تلك الشابة الهستيرية البائسة كي يجعل منها حالة، وكانت إيدا تفرّ منه، إنما، مهما كان ما قالت عنه في ما بعد، كان قد حررها مع ذلك جزئيًا من أغلال العائلة المريضة.

لن تشفى إيدا بوير أبدًا من نفورها من الرجال. غير أن أعراضها تضاءلت وهدأت. ومن بعد تحليلها القصير، انتقمت مما تعرضت إليه من إذلال وذلك بإجبارها بيبينا على الاعتراف بعلاقتها الغرامية وإجبارها هانز زيلينكا على الإقرار بأنه حاول إغراءها. ونقلت الحقيقة في ما بعد إلى أبيها، ثم قطعت كل علاقة لها مع هذا الثنائي. بتاريخ 1903، تزوجت إرنست أدلر، وهو ملحن يعمل في المشغل العائلي العائد لأبيه، بعد عامين من ذلك التاريخ، أنجبت ابنًا حقق لنفسه حياةً ناجحة كموسيقي في

الولايات المتحدة.

بتاريخ 1923، بعد تعرضها لحالات اضطراب جديدة - غثيانات، أصوات رنين في الأذن، حالات أرق، صداعات[170] -، استنجدت بفيليكس دوتش، وهو من تلامذة فرويد، كي يسعفها وهي طريحة الفراش، قضت عليه حكايتها بالكامل، وتحدثت عن أنانية الرجال، عن مشاعر الحرمان، وعن برودتها الجنسية. لدى استماعه لشكاواها، تعرف دوتش على الحالة الشهيرة عند «دورا». وأكد بأنها كانت قد نسيت مرضها القديم في الماضي وأنها تعبر عن افتخار عظيم لكونها قد أصبحت موضوع كتابات شهيرة في تاريخ الأدب النفساني، وناقشت حينذاك تأويلات قام بها فرويد بصدد الحلمين اللذين رأتهما. حين عاد دوتش ليراها من جديد، كانت هجماتها قد انتهت[171].

سوف تكون «حالة دورا» من أكثر الحالات تعليقًا ودراسةً في تاريخ التحليل النفسي بأكمله، بل وأكثر حتى من حالة بيرتا بابنهيم وأفسحت المجال لعشرات المقالات، والدراسات، ولمسرحية ولروايات عدّة، كانت الحالة بالفعل تضم جميع مكونات تلك الجنسانية المميزة لنهاية القرن والتي كانت تبعث المسرة والاستمتاع عند الكتاب وأطباء النفس: التهيج الهستيري، المثلية الجنسية، هواجس التخوف من الأمراض الجنسية، استغلال جسد المرأة والطفل، ملذات الدعارة.

حتى قبل أن يكون قد هجرَ دراسة الأعصاب - neurotica -، بدأ فرويد يخصص جانبًا هامًا من وقته لدراسة ما كان يجتذبه كثيرًا منذ سنوات، ألا وهو تحليل الأحلام، كان معتادًا على استهلاك المخدرات، ولذلك استرسل بسهولة مع نشاطات كبيرة ليلية. وهكذا بدأ يكتب يوميات عن خواطره وتخيلاته، وغالبًا ما كان يرى أحلامًا، بطريقة مشوشة: عن سفريات مستقبلية، عن أصدقائه، عن الحياة اليومية في فيينا، عن أمور تافهة أو على العكس عن أحداث هامة متصلة بالحياة، والغذاء، والحب، والموت، وعلاقات القرابة.

وها هو على امتداد رحلاته الليلية يهاجم أنداده ومنافسيه، ويعرّض نفسه لمجازفات، ويعيش من جديد مشاهدًا من طفولته، ويحلم بأنه موجود في قلب مدينة من الأطلال، تسكنها تماثيل، أو أعمدة، أو بيوت مطمورة تحت التراب، وهو يتجوّل في شوارعها الصغيرة ضائعًا في المتاهة الأركيولوجية لرغباته الآثمة، كان يحلم بلغات عديدة، وفي مواقف عديدة؛ كما كان يحلم بأمور جنسية، وبالسياسة في ذلك الوقت، وبعمليات اغتيال تخريبية، بالعائلة الإمبراطورية، بهانيبعل، بروما، بمعاداة السامية،

بالإلحاد، بالأمهات، بالآباء، بالأخوال والأعمام، وبمربيات الأطفال.

نعم، كان يحلم: فيخترع هيروغليفيات ويسقط نفسه على شخصيات أدبية، مجتازًا الأنهار أو مسترسلًا في جولات هائلة داخل متاحف أوروبية ليتأمل فيها لوحات رساميه المفضلين. في أحلامه تلك، كان يستعرض جميع مؤلفات الثقافة الغربية، يستشهد بأسماء مدن، وأماكن، أو بعلماء مشهورين أو مغمورين، بهذه الحالة شرع بكتابة المؤلّف الذي كان يزعم أنه يؤسس به نظريته حول النفس. في البداية اتخذ شكل نوع من الموسوعة التي يعاد بناؤها وتعديلها مرات عديدة، قبل أن يسلك طريق الحكمة والتعقل عبر مسارٍ إرشادي متألق بلحظات عظيمة من التوقد، والشك، والقلق، والكآبة.

على امتداد هذا الـ«sturm und drang» - العاصفة والاندفاع - الجديد، والذي تحدث أثناءه مع نفسه بالذات مابين 1895 و1900، دون أن يتوقف مع ذلك عن التوجه إلى فيليكس باعتباره نسخة من مفيستو، وقد اعتاد فرويد حينذاك الرجوع إلى «الكوميديا الإلهية» حتى أنه ألقى في جهنم أعداء وخصومًا، وهكذا جمع مائة وستين حلمًا، خمسون بينها من أحلامه وسبعون منقولة من أقاربه، كي يؤلف قصيدة هائلة من الشعر المرسل وأبياتها مسكونة بأحلام وخواطر من كل صنفٍ ولون: حلم بسمارك، حلم الجواد الرمادي، وكازيمير بونجور، بمقالة في علم النبات، حلم فيديليو، والطفل الميت الذي يحترق، بالوشق فوق سطح البيت، بابني المصاب بالحَوَل، بيوليوس قيصر، بنابليون، بأوديب متنكرًا، حلم بالأب الميت أو بسوناتا تارتيني، هذا الكتاب، كما سوف يضيف بتاريخ 1908، له أيضًا «دلالة أخرى، دلالة ذاتية لم تتبين لي إلّا بعد الانتهاء من الكتاب، إذ فهمت بأنه قطعة من تحليلي الذاتي لنفسي، من ردة فعلي على الموت وعلى أبي، الدراما الأكثر إيلامًا في حياة إنسان[172]». إنها ملاحظة غريبة تؤكد في جميع الأحوال أن الأب في نظره فانٍ بينما الأم خالدة لا تموت.

إن فرويد، باسترساله مع ذلك السبر للنفس، أثناء رحلة دانتي كما أثناء تجوال أوليس، تكوّن لديه الوعي بأنه في طريقه إلى أن يبدع، تقريبًا على غير علمٍ منه، كتابًا من أهم ما كتب، وهو كتاب أخذه إلى غابات مظلمة في أعماق لاشعوره المتوقد في أوج فورانه، «علم الحلم» ذاك، الخارج من العرف الرومانتيكي، كان يحرك استفهامات وتساؤلات بشأن الجنسانية الطفولية وأصل حالات العصاب مع استناده لاستدارة راجعه إلى الآلهة والأبطال في بلاد الإغريق القديمة، من خلال هذه الرحلة في أعماق النفس

أراد فرويد أن يكون رسول حقيقة واقعية مرفوضة، لا أحد يعترف بها وهي حقيقة مكبوتة: «لقد كان قدري، على ما أظن، كما سوف يقول ذات يوم لجونز، هو ألا أكتشف سوى ما هو واضحٌ بجلاء: أن الأطفال لهم حياة جنسية - وهو ما تعلمه كل مربية -، وأن أحلامنا الليلية، شأنها كأحلامنا النهارية سواء بسواء، هي أبواب تحقيق لرغبة[173]».

لقد أدرك فرويد أنه وصل إلى شواطئ قارة مجهولة منذ غابر الأزمنة، وتمّ استثمارها بصورة فريدة طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولذلك قرر قراءة أكثر المؤلفات التصاقًا بالموضوع، وهكذا خصص الصفحات الثمانين من الفصل الأول لكتابه العظيم لتحليل نقدي لما سبق من كتابات قام بها من تناولوا الموضوع قبله، منذ أرسطو وأرتيميدور الدالدي إلى المعاصرين الأقرب إليه، فهؤلاء بالذات، بتهربهم من حقيقة أن الحلم هو هاجس «مفتاح تخيلات» أو التعبير عن نشاط فيزيولوجي ناتج عن تحريضات حسية أو جسدية، جعلوا من الحلم موضوع علم ومعرفة للذات، هوتيلف هانريخ فون شوبير، إدوار فون هارت مان، يوهان فولكيلت، أدولف استرامبل، هافلوك إليس، ألبير مول، جوزيف ديلبوف، إيف ديلاج، وليهيلم غريسنجر، وكثيرون غيرهم لا سيما ألفريد موري، كارل ألبير شيرنر، هيرفي دو سان - ديني[174].

جميع أولئك الكتّاب، وعلى وجه التحديد آخر ثلاثة بينهم، كانوا قد ابتكروا تقنيات تحرّي ذلك الجانب من الحياة الإنسانية وهو الجانب المحمي بالنوم، كانوا قد أدركوا بأن الأحلام هي تعبيرات مشوهة عن أفكار لا يمكن البوح بها، وعن رغبات مكبوتة، وذكريات طفولة أو تخيلات جنسية تلامس المحرمات الأساسية: السفاح، العادة السرية، الشذوذ، الجنون، الخروج عن الأعراف، وبينهم عديدون سبق أن قدموا فرضية تقول بأن فك الشيفرة العقلانية للصور البلاغية الخاصة بهيكلية الحلم يمكن أن تتيح للاختصاصين بالأمراض العقلية تقديم معالجة لمرضاهم. وبينما راح بعض الكتاب يؤكدون بأن الحلم كان من طبيعة مشابهة لعرض ذهاني كان الآخرون يشيرون إلى أن النشاط في الحلم يقوم بدور علاج عفوي للاضطرابات عند الشاذين وهؤلاء الأخيرون، بالفعل، كما كان يقال، يمكنهم تمامًا أن يشاهدوا طوال النوم انحرافاتهم الجنسية، وذلك كي يكون بإمكانهم التخلص منها بصورة أفضل عند اليقظة. باختصار، عندما انخرط فرويد بالسير في طرق تحليل الأحلام أصبح مجبرًا في الوقت ذاته على استقبال موروثٍ وعلى أن يعزل نفسه عنه أيضا.

وهكذا، بدلًا من أن يرجع كما كان الحال مع من سبقه، إلى «حياة

للأحلام» أو إلى طريقة للتحكم بها وتوجيهها، قرر إجراء تركيب يجمع كل أنماط المقاربة الممكنة لموضوع الحلم عمومًا وللأحلام بصورة خاصة، وأن يقدم كتابه المأمول كما لو كان بيانًا عن فهم جديد للذاتية الإنسانية. ومن هنا كان اختياره لتاريخ ذي دلالة - 1900 وليس 1899 - لعنوان يثير الدهشة: Die Traumdeutung. من خلال هذا المصطلح النوعي (تأويل الحلم)، أعاد فرويد إيجاد الرابطة، بما هو أبعد من تجارب العلماء، مع عرف المتنبئين[175]، لم يقل «الأحلام» وإنما «الحلم - مع أل التعريف»، ولم يستخدم كلمتين، «Deutung Des Traums» وإنما تسمية واحدة تتناغم مع فكرة تسليم الجمهور قيمة نهائية حاسمة وتشمل الجميع، كما لو أنها كتابٌ مقدس هو في الوقت نفسه دراسة للعرافين والعرافات وتعبير عن علم يتناول النفس.

أما تصدير الكتاب فقد اختار فرويد أن يستشهد ببيت من الشعر من النشيد السابع في الإنيازة: «Flectere si nequeo Superos, Acheronta movebo» (إذا كنت لا أستطيع التغلب على الآلهة في الأعالي، سوف يكون بإمكاني تحريك أشيرون - نهر جهنم -)، حيث جينون - ربة الزواج تدافع عن ديدون - ابنة ملك صور، بانية قرطاجة، ملكة قرطاجة، في تصديها لإينيه، الطروادي الخاسر والباني مستقبلًا لروما. فنظرًا لعدم تمكن جينون من إقناع جوبيتر (آلهة الأعالي) بالسماح لإينيه بأن يتزوج ديدون، ها هي تستدعي ربة انتقام منبثقة من نهر أشيرون، ألا وهي أليكتو، وهي نوع من الغورغون ثنائية الجنس وقادرة على إطلاق الأهواء الغريزية من عقالها ومعها القوات المسلحة في معسكر حلفاء إينيه. وإذ تخلى عنها عشيقها، قتلت ديدون نفسها وحين لحق بها إينيه في الجحيم، رفضت أن تمنحه أي غفران: لذلك سوف يتكلم مع شبحها.

بهذا التصدير، حرَّك فرويد بجملة واحدة، ليس مجرد جوهر مذهبه في الجنسانية - القوى المنبعثة من النوازع التي أعيد تفعيلها بقدرات الجحيم الكامنة في أعماق الأرض -، وإنما أيضًا بعض المؤشرات الكبرى في قصة حياته، فنجد فيه أولًا التعبير عن تمرده على المدينة الإمبراطورية المرغوبة جدًا والتي يستحيل الوصول إليها، تلك المدينة التي لم يتمكن هنيبعل، بطل فرويد بامتياز، من فتحها، وبذلك فشل بالانتقام لهاميلقار. وهكذا فإن فرويد، المتماهي مع هانيبعل كما نعلم، كان يشعر بالذنب دائمًا لأنه لم يتخلَّ عن نظريته حول الغواية قبل وفاة أبيه. الذي وضع ظلمًا موضع الشبهة بأنه استغل بناته.

غير أن دخول جينون على الخط، في ملحمة فيرجيل، يحيلنا أيضًا إلى

الموقف السياسي المتناقض عند فرويد حيال الأسرة النمساوية المالكة، لا سيما حيال ممثلها الأكثر رهبةً، الكونت فون تون[176]، الذي روى له بأنه عزض نفسه لإهانة، وكان ذلك على رصيف محطة القطار الغربية في فيينا، بتاريخ 11 أغسطس/آب 1898، بينما كان في طريقه لقضاء العطلة الصيفية. في ذلك اليوم، التقى بالكونت فون تون المتوجِّه إلى مقر الإمبراطور الصيفي حيث من المقرر عقد اتفاقيات اقتصادية مع هنغاريا، ورغم أن هذا الأخير لم يكن لديه تذكرة سفر، فقد دفع الجابي جانبًا وجلس في مقطورة فخمة، حينذاك شرع فرويد يصفِّر لحن الخادم في «عرس فيغارو» من تلحين موزار: «إذا كان حضرة الكونت يريد الرقص، فأنا سوف أعزف على الغيتار»، وفيغارو، كما نعلم، كان يتهكم هكذا على الكونت ألمافيفا الذي كان يغازل خطيبته.

في اليوم التالي، رأى فرويد «حلمًا ثوريًا» تجسد أثناءه بصورة طالب أسهم باندلاع ثورة 1848. ورأى طبيبًا يهوديًا آخر ينبثق، هو فيكتور أدلر، وكان زميلًا قديمًا سبق أن تحداه أثناء الدراسة بمناسبة نزاع، وفي مشهد آخر، بعد التهرب من المشهد السياسي، وجد نفسه على رصيف محطة القطار. لكنه، بدلًا من أن يجابه فون تون، مشى بصحبة رجل أعمى قدم إليه مبولة. عند تحليله لهذا الحلم، فسَّر فرويد بأن ذلك العجوز كان يمثل صورة والده الميت، وكان قد تحداه في ما مضى بالتبول في غرفة نومه، كان قد حوَّل إذًا صورة فون تون المقيتة إلى صورة يعقوب وهو يحتضر.

فكيف يمكننا ألّا نرى في هذا الحلم الإشارة الواضحة إلى قدر فرويد وإلى تصوّره للسلطة التي وفقًا لها قام كل مجتمع في أصوله على نزاع بين أب مستبد وابن متمرد مضطر ليقضي عليه بالموت؟ وهو ما سوف يجعل منه فرويد لاحقًا نظريته في «طوطم وتابو» ثم في «موسى وديانة التوحيد».

لكن، في عام 1900، أعلن فرويد أيضًا، من خلال بيت الشعر المستعار من فيرجيل، عن نيته الحاسمة بأن يمجد أولوية التحليل النفسي ويجعل له اليد العليا على السياسة وأن يجعل من مذهبه الذي تبلور غضًا منذ فترة بسيطة أداة ثورة: «تغير الإنسان باستكشاف الوجه المستتر لرغباته»[177].

في رسالة بتاريخ 1927 إلى ويرنر أشيلي، أكد فرويد أنه أخذ علمًا بذلك الاستشهاد عند قراءة منشور صدر عن فردينان لاسال، في 1859 يهاجم فيه عائلة الهابسبورغ التي يرى فيها أنها ظلامية: «أنت تترجم Acheronta movebo بـ«حرِّك أعماق الأرض»، هكذا قال لي محاوره، بينما هذه الكلمات تعني بالأحرى «حرِّك العالم السفلي»، وأنا استعرت هذا

الاستشهاد من لاسال الذي كان بالتأكيد يرى فيه معنى شخصيًا ويتصل الأمر عنده بالطبقات الاجتماعية وليس بعلم النفس، أما أنا، فقد تبنيته لا لشيء إلّا للتأكيد على جزءٍ أساسي من ديناميكية الحلم والاقتراح بأن الرغبة المكبوتة بالضرورات النفسية العليا (الرغبة المكبوتة في الحلم) يحرّك العالم النفسي السفلي (اللاشعور) كي يظهر ويصبح في متناول الإدراك[178]».

وكما أشار كارل شورسكي، كان هناك تماثل كبير بين الاختيارات السياسية لفرويد الشاب واختيارات لاسال، فكلاهما يرفض الكاثوليكية الرومانية وسلالة الهابسبورغ، غير أن فرويد على وجه الخصوص كان يطرح تناظرًا بين الثورة الاجتماعية المطلوبة من طرف لاسال والثورة التي يصبو هو إليها.

وذلك لأنه بإبرازه للنوازع، والأساطير، والقصص الميثولوجي، والأعراف الشعبية، كان الأمر يعني له مهاجمة المثقفين الكبار وممثلي العلم الرسمي. وطلب النجدة من الحلم ومن تأويله كان يعني المطالبة بأن قدرة الخيالي، وفك الطلاسم على يد عالم طموح، يمكن أيضًا بكل صوابية أن يتجسد في حركة واسعة الأرجاء قادرة على تحدي السلطة السياسية. وخلف قناع هانيبعل الذي أضفي عليه فكاهة فيغارو، كان فرويد يصنع قصة ميثولوجية، قصة البطل الوحيد الغارق في «عزلة براقة[179]» وهو يجابه عالمًا معاديًا لعبقريته.

بفضل هذا التركيب الرمزي، بدأ يعتبر نفسه شخصيًا زعيم ثورة في الجنسانية التي وضعت تحت رعاية علم جديد: التحليل النفسي، لكن فرويد مع ذلك كان يشك بنفسه لدرجة جعلته يعتقد بأنه هدفٌ لجميع صنوف الاضطهادات: «كنت أتمثل بيني وبين نفسي ذلك القدر بالطريقة التالية: قد أنجح على الأرجح بالثبات والتماسك بفضل النجاحات العلاجية التي تعود إلى الطريقة الجديدة؛ مع ذلك، في حياتي، لن يقيدني العلم في سجله، ومن بعد عقود تالية، لا بد من أن يقع شخص آخر على الأمور نفسها، والتي هي في الوقت الحاضر في غير أوانها، وسوف يفرض الاعتراف بها ويكرمني باعتباري الرائد الذي بالضرورة لم يحالفه الحظ. بانتظار ذلك، كما كان حال روبنسون، فها أنا قد استقر بي المقام بكل راحة قدر الإمكان في جزيرتي المهجورة[180]».

وللعلم، في تلك الحقبة، لم يكن فرويد معزولًا ولا مرفوضًا، وإنما يُنظر إليه بالأحرى على أنه طبيب لامع أمامه مستقبل حافل، وإذا كان ينظر إلى نفسه بأنه متمرد، فإن علماء الجنس وأطبائه كانوا يعتبرونه محافظًا وأما

كبار المشتغلين بالعلم الطبي فيعتبرونه «أديبًا».

لكن « تأويل الحلم»، لو كان قد كُتب كقصيدة رائعة، ما كان ليُتيح أن يفرض مقابلة جديدة للنفس البشرية. ولهذا السبب فإن فرويد، مع اعتماده في كتابة ذلك التأليف أسلوبًا خاصًا يمكن أن يتناسق مع رومانسية حياة الحلم، فقد ارتبط أيضًا بأن يجعل منه منشورًا نظريًا وعياديًا فيه قوة وحداثة لا مثيل لهما.

في قسمين رئيسيين من الكتاب، استعرض بالتفصيل منهجه التأويلي: وهو منهج قائم على التداعي الحر، أي على الإصغاء لما يعبر الحالم عنه مفسحًا المجال الحر لأفكاره دون تمييز. ضمن هذا المنظور، يكف الحلم عن أن يكون مقولة محنطة ليصبح سردًا روائيًا، عملًا في حركة دائمة، تعبيرًا حقيقيًا مشوهًا أو تحت مراقبة رغبة مكبوتة المطلوب فك شيفرتها وفهم دلالتها، وقد ميّز فرويد، في تفسيره لأنماط التحليل، بين مضمون ظاهر - حكاية الحلم من طرف الحالم المستيقظ - ومضمون مطمور يتم وضعه تدريجيًا في دائرة الضوء بفضل آلية التداعي.

في رأيه ثمة عمليتان كبيرتان ترسمان هيكلية بلاغة الحلم: عملية الإزاحة، التي تقوم بالتغير عن طريق زحلقة العناصر الأهم في المضمون المطمور، وعملية التكثيف، التي تقوم بدمج أفكار عديدة في ذلك المضمون للوصول إلى خلق صورة واحدة في المضمون الظاهر.

وعلى امتداد الفصل السابع الشهير، الذي جرى شرحه والتعليق عليه مرات عديدة، والذي يؤلف كتابًا في حد ذاته، عائمًا إذا صح هذا التعبير، في المجموع الرحب لـ«تأويل الحلم»، يبرز فرويد تصوّره للجهاز النفسي - أو الموقع الأول - انطلاقًا من «مخطوطات» أرسلت إلى فليس، والتي سعيًا منه لكتابتها كان قد استلهم جميع نظريات النفس المعلن عنها لدى مفكري القرن التاسع عشر، وهو يميّز أيضًا بين الشعور، المعادل للوعي، وما قبل الشعور، المدخل المؤدي إلى الشعور، وأخيرًا اللاشعور، «المشهد الآخر»، المكان المجهول في الوعي، لكنه إذا كان يعود إلى ذلك المصطلح الأخير المستخدم منذ غابر الأزمنة والموضوع في نظرية لأول مرة في 1751، فهو إنما يريد أن يجعل منه المفهوم الأكبر لمذهب في قطيعة جذرية مع التعريفات القديمة: لسنا بعد مع ما فوق الوعي، أو ما دون الوعي، أو خزان الخروج عن العقل، وإنما مع مكان قام الكبت بتأسيسه، أي من خلال سيرورة تهدف إلى إقصاء كل صيغة واعية، كما لو أنها «غلطة ترجمة»، لجميع تشخيصات النوازع القادرة على أن تصبح مصدرًا للتنفير، وبالتالي تثير التشويش في توازن الوعي الذاتي، ضمن المنظومة

الفرويدية للموقع الأول، يمثل الكبت بالقياس مع نهر أشيرون ما كان اللاشعور يمثل عند أوديب بالمقارنة مع ما قبل الشعور عند هاملت.

أغرب ما في هذه القضية التي بها شرح فرويد موضحًا أن التحليل للأحلام هو «الطريق الملكي نحو اللاشعور»، هو أنه كان قد بنى الـtraumbush عنده، رغم أنه ذو توجه شامل، وفق النمط الذي أصبحت عليه فيينا عند المثقفين من أبناء جيله: مدينة موزعة بين بغض ومحبة، وعظمتها المكبوتة كانت تحرض فيهم جاذبية حقيقية ليس بسبب لا زمانية وتفكيك الأنا التي تعيش فيها وحسب، وإنما أيضًا من أجل اكتشاف حداثة شديدة الغرابة متمركزة حول الرجوع إلى ماضي الجدود الأقدمين. إن فيينا حسب كلمات روبير موزيل كانت حينذاك، في خيال ذلك الجيل، الـ«مقر المتوحش لملك في حكم الميت ولإله ما زال قدومه منتظرًا[181]».

وكيف لنا ألّا نرى في الحلم الشهير حول «إعطاء حقنة لإيرما»، والذي جرى تأويله ألف مرة[182]، التصوير البارز «لرواية عائلية» كانت تربط فرويد مع فيينا برباط وثيق؟

طوال صيف1895هناك مريضة أطلق عليها اسم إيرما كانت قد خضعت لعلاج عند فرويد. وحين لاحظ أنها لا تشفى، اقترح عليها توقيف العلاج، لكنها رفضت ذلك. أمضى حينذاك أيامًا قليلة عند عائلته في مقر بيلفو، على المرتفعات قرب فيينا، حيث جاء أوسكار راي لينضم إليه بعد أن أقام مع عائلة إيرما، وهذا الأخير وجه إليه بعض التوبيخات بصدد معالجة إيرما وكتب فرويد معاينته كي يعرضها على بروير. أثناء هذه الأيام القليلة، كان على مارتا الاحتفال بعيد ميلادها واستقبال صديقتها إيرما.

في ليل 24يوليه/تموز، رأى فرويد في الحلم أنه يلتقي بإيرما بمناسبة سهرة وبأنه راح يقول لها إنها سوف تعاني أيضًا المزيد بسبب خطيئتها، على أنه، وهو يتفحصها، اكتشف بقعًا تميل إلى اللون الرمادي في فمها وكانت البقع تشبه قرينات الأنف أو أعراض مرض الدفتيريا - الذباح - ثم استدعى للكشف عليها وهي في السرير الطبيب م.، وكان يعرج وبدأ يقول كلمات مواساة، ثم استدعى صديقين آخرين ليوبولد وأوتو وهذا الأخير أمر بحقنها حقنة تريميتيلامين كي يشفيها من الالتهاب الذي كان هو نفسه قد أوجده عندها باستخدام إبرة حقن غير نظيفة.

خطر لفرويد أن هذا الحلم ذو أهمية كبرى: وهو أول حلم، حسب قوله، أخضعه لتحليل تفصيلي في خمس عشرة صفحة، في نظره كان الأمر متعلقًا بتنفيذ رغبة عنده لتبرئة نفسه من كل مسؤولية في مرض إيرما.

هناك رابطة بين الأهمية العظمى التي نسبها فرويد لذلك الحلم وعملية التخيل الذاتي التي استرسل معها تحت غطاء عقلانية لا تشوبها شائبة، كما الحال مع تحقيق رغبة أو التأكيد بتأويل يصل إلى الحد النهائي، كان ذلك الحلم يضم فعليًا ما يشبه رواية عائلية عن أصول التحليل النفسي المرتبطة في فيينا، فنحن نجد فيه أوسكار راي (أوتو) عديل فليس، وإرنست فون فليخل - مارك سو (ليوبولد)، وجوزيف بروير (الدكتور م.) وأخيرًا مزيج من إيما إكستين وآنا لختيم (إيرما)، ابنة صمويل هامرشلاغ: خلاصة المرأة اليهودية في فيينا مع نهاية القرن[183].

في اللحظة التي قدم فرويد نفسه أثناءها باعتباره مبتكر مذهب يفترض بأنه سوف يعمل على تثوير العالم، كان يحلم بالتالي بفشل علاج إيما إيكستين. وينسب مسؤولية ذلك إلى فليس - عن طريق أوسكار راي، المجسد باسم أوتو - وإلى إيما نفسها. ومن ثم كان ينتقم من ناقديه بتحويل أصدقائه إلى خصوم وضمن السياق نفسه كان يعلل اختياراته حيال بروير، ويتذكر بأن ابنته ماتيلد كادت تموت بمرض الدفتيريا. وأخيرًا فقد تحرر من شعوره بالذنب حيال فليخل - ماركسو ويؤكد، في مواجهة كبار المشتغلين في العلم الطبي بأن الحلم لم يكن بالإمكان تقليصه إلى مجرد تعبير عن نشاط دماغي.

في 12 يونيه/حزيران 1900، كتب إلى فليس: «هل تظن حقًا أنه سوف تُرفع ذات يوم فوق هذا البيت لوحة رخامية يمكن أن يقرأ الإنسان فيها: هنا انكشف، بتاريخ 24 يوليه/تموز 1895، أمام عين الدكتور سيغموند فرويد سر الحلم[184]؟» ثم إنه، في 10 يوليه/حزيران، بعأن أحس بالإنهاك وأنه غير صالح للانقضاض على مشاكل أخرى كبيرة، تولّد لديه الانطباع بأنه يدخل إلى جحيم ثقافي ويميز، في النواة الأكثر عتمة وغموضًا في أعماقه المجهولة، «معالم الـ[185]luzifer - amor».

حتى عام 1929، لم يكف فرويد أبدًا عن التعديل في كتابه الأول، وعن تعميق تحليله وضمّ جداول لمؤلفات مرجعية مع مداخلتين من صديقه وتلميذه أوتو رانك.

لفترة طويلة سيطرت الفكرة القائلة بأن الـtraumbuch قد استقبل استقبالًا سيئًا ورغم أنه كان له حظوة عند فرويد تمامًا كما أسطورة «التحليل الذاتي» و«العزلة الرائعة»، فهذا العرض المهين لاستقبال أحد أهم مؤلفات مؤسس التحليل النفسي الكبرى عاد إليه جونز وأجيال من الممارسين. وفي مقدمته للطبعة الثانية بتاريخ 1908، أشار فرويد نفسه إلى صمت الأموات، الذي قوبل به كتابه كما أنه، بعد عامٍ من ذلك التاريخ،

ظلّ يشتكي من أن عمله لم يؤخذ بعين الاعتبار، على أن حقيقة الأمر تدعونا إلى إعطاء بعض التخفيفات إذا ما علمنا خاصةً ما كانت عليه الحياة الثقافية والعلمية في ذلك الزمن.

وذاك لأن فرويد كان يتوقع لذلك الكتاب رواجًا منقطع النظير، وكان يتوقع على وجه الخصوص أن يلقى ترحيبًا من علماء النفس والأطباء باعتباره عبقرية حقيقية في ميدان العلم، لكن الواقع كان مختلفًا كل الاختلاف. بالتأكيد، جرى التنويه إلى الكتاب في معظم المجلات الطبية والسيكولوجية في أوربا. وبيع منه وسطيًا سبعون نسخة كل عام على امتداد ثمانية أعوام، ما وفَّر على كل حال لفرويد شهرة دولية[186]، تُرى ألم تكن الهجمات والإهانات التي اضطر لتحملها، وكذلك المجادلات التي أثارها الكتاب، شهادة على التقدم في مذهب فرويد في حقل الطب النفسي والعلاجات النفسية؟

وأما بصدد استقبال «تأويل الحلم» في الأوساط الأدبية، والفلسفية، والفنية - لا سيما من طرف الطليعة والحركة السوريالية[187] -، فقد حقق تدريجيًا لفرويد المكان البارز الذي هو من حقه في تاريخ الفكر الغربي.

منذ 1897، كان نوثناجل وكرافت - إيبنغ قد اقترحا ترشيح فرويد لمنصب الأستاذية في جامعة فيينا، ومن بعد تنغيصات إدارية كثيرة، لأنه لم يدرّس أبدًا واختار عمله كطبيب في المدينة، لكنه في النهاية حصل، في فبراير/شباط 1902، على تسميته المرغوبة: بروفسور فوق العادة[188]، وهذا ما يعني وضوحًا أن أعماله بدأت تلاقي الاعتراف بها، ومذ ذاك وصاعدًا، سوف يصبح الهر - بروفسور[189].

في ذلك التاريخ، كان هناك ما قبل فرويد وما بعد فرويد. أما بالنسبة إليه، فقد كان راضيًا بقدره كليًا، ببصيرةٍ واضحة وفي الوقت نفسه كان منتصرًا، ويشعر بالمرارة ويشك ولايشك بعبقريته، كما لو أنه لم تتوافر عنده الإرادة حتى ذلك الوقت ليدرك قيمة الحدث الذي كان هو خالقه.

---

132 كي يحل محله مصطلح «المريض المصاب بإعياء»، إعياء من نفسه بالذات، وأنا من جانبي أستعرض تلك الإشكالية في «لماذا التحليل النفسي؟»، باريس، فاير، 1999. وكلما ازداد تحرر النساء وانطلاقهن أثناء القرن العشرين تناقص النظر إليهن بصفة هستيريات، بالنتيجة، ها هي الهستيريا الذكورية تـُصبح أكثر فأكثر موضع دراسة واهتمام.

133 تخيّل المؤرخ مارك ميكال أن فرويد تعمّد عدم ذكر حالات الهستيريا الذكورية بسبب علاقته الكبيرة مع هذا العصاب، وقدّم فرضية دون أي

برهان، بأن نوراستينيا فرويد كانت هستيريا مستترة، وأن هذا الأخير «أعطاها صبغة نظرية» مُخفيًا حالته خلف وصف النساء الهستيريات. انظر «Hysterical men. The hidden history of male nervous illness »، كامبردج، (MA) مطبوعات جامعة هارفارد، 2008.

134 «دراسات حول الهستيريا»، المصدر السابق، ص. 41 - 47.

135 نسب بروير إلى آنـا و(بيرتا بابنهايم)، التي كانت تتكلم الإنجليزية، ابتكار مصطلحين talking Cure (ابتكار علاج الكلام) وChimney sweeping (تنظيف المدخنة وهذا ما يسمح بإعادة التذكر).

136 نحن تحديدًا مدينون لألبرخت هيرشمولر بإعادة استعراض قصة بيرتا بابنهيم بأفضل صورة.

137 كما سبق لي أن وضحت، فأنا لا أتناول - أو أتناول قليلًا جدًا - قصة ترسيخ التحليل النفسي في فرنسا، وهو ما سبق أن درسته مُطولًا حول العلاقة بين فرويد وجانيه، ارجع إلى المصدر السابق.

138 المصدر السابق، «المدخل».

139 المصدر السابق، ص. 247.

140 لا سيّما إرنست جونز، أولا اندرسن، هنري ف. إيلنبيرجر، بيتر سوالس، ألبرخت هيرشمولر، مايكل بورخ - جاكوبسن.

141 معظم هؤلاء المريضات يحضرن باسمهن الحقيقي وبسيرورة حياتهن الفعلية في «قاموس التحليل النفسي» (1997)، باريس، «سلسلة كتاب الجيب»، مجموعة «بوش وتيك»، 2011.

142 انظر دورا إيدنجر، «bertha Pappenheim. leben und schriften»، فرانكفورت نيد - تميد فيرلاغ، 1963.

143 جامعة النساء اليهوديات.

144 سيغموند فرويد وستيفان زفايغ، «المراسلات» (1987)، باريس، بايو وريفاج، 1995، ص 88 - 89.

145 إرنست جونز، «حياة سيغموند فرويد ومؤلفاته»، المصدر السابق، ص. 249. حول مراجعة تلك الأسطورة يمكن الرجوع، علاوةً على نصوص هنري ف. إيلنبيرجر وألبرخت هيرشمولر، إلى ما جاء عند جون فورستر، «حقيقة قصة آنا، والبحوث الاجتماعية»، 53، 2، صيف عام 1986. وأنا من جانبي كاشفت مايكل بورخ - جاكوبسن وأعطيته المقطع الذي يُقدم إضاءة جد قوية على مخطوط لم ينشر بقلم ماري بونابرت حول الشؤون الشخصية عند فرويد. انظر «ذكريات آنا و. قرن من الأسطرة»، باريس، أوبييه، 1995، على الرغم من جميع هذه

الأعمال مايزال المحللون النفسيون يفضلون أسطورة آنا على قصة بيرتا بابنهيم. انظر «قاموس التحليل النفسي»، المصدر السابق، ص. 1127.

146 سيغموند فرويد، «رسالة إلى روبير بروير»، 26 يونيه/حزيران 1925، والرسالة يذكرها ألبرخت هيرشمولر، «جوزيف بروير»، المصدر السابق، ص. 228.

147 سيغموند فرويد «مصدر الحالات العصابية وراثيًا وتفسيرها» (1896)، المصدر السابق، ص 105 - 120، صدر باللغة الفرنسية في 30 مارس/آذار 1896.

148 حسب شهادة ماري بونابرت، وكانت متمسكة بما جاء عند فرويد شخصيًا.

149 كانت الكنيسة في العصر الوسيط، تحبذ التقوى والحج بينما الكنيسة الناشئة من مجمع ترونت (1542)، تؤسس للاعتراف ردًا على إهانة البروتستانت، كان جاك لو غوف على اقتناع دائمًا مثل ميشيل فوكو وميشيل دوسارتو، بأن تلك الممارسة مرتبطة في جانب منها مع الابتكار الفرويدي.

150 سيغموند فرويد، «الوراثة في الحالات العصابية وأسبابها» (1896)، المصدر السابق، ص.120.

151 سيغموند فرويد، «حول تفسير أسباب الهستيريا» (1896)، المصدر السابق، ص. 147 - 180.

152 سيغموند فرويد، «رسائل إلى ويلهيلم فليس»، المصدر السابق، ص. 258.

153 المصدر السابق، ص.294.

154 كان فرويد قارئًا كبيرًا لمؤلفات جاكوب بورخارت. وهي تحتل موقعًا بارزًا في مكتبته ويوجد في هوامشها تعليقات وشروح.

155 سيغموند فرويد، «قلبنا يميل نحو الجنوب». مراسلات الرحلات، 1895 - 1923، باريس، فايار، 2005.

156 سيغموند فرويد، «رسائل إلى ويلهيلم فليس» المصدر السابق، ص333.

157 سيغموند فرويد رسالة بتاريخ 21 سبتمبر/ أيلول 1897. في «ولادة التحليل النفسي»، ص192.

158 حول هذه المسألة، انظر كارلو بونومي، sulla soglia della psicoanalisi. Freud e la follia infantile، تورين، بولاتي

بورانجيري، 2007.

159 في 1977، أطلقت المؤرخة كاترينا روتشكي اسم «التربية السوداء» على تلك الطرق التربوية. وتبنت المحللة النفسية السويسرية أليس ميلر ذلك المصطلح، وقد بين ميكائيل هانيكي مساوئ تلك الطرق في عام 2009 في فلمه «الشريطة البيضاء».

160 دانيل بول شريبر، «مذكرات عصبي» (1903)، باريس، سوي، 1975. سيغموند فرويد، «ملاحظات تحليلية نفسية حول السيرة الذاتية لحالة بارانويا (1911)، «في خمس دراسات للتحليل النفسي»، باريس، PUF، ص. 263 - 321، وOCF.P، المجلد العاشر، المصدر السابق، ص. 225 - 305.

161 جان - جاك روسو، «الاعترافات» (1780)، في «الأعمال الكاملة»، الجزء الأول باريس، غاليمار، سلسلة، «مكتبة لا بلياد»، 1959، ص. 108 - 109.

162 انظر جاك ديريدا، «ذلك البديل الخطير»، «علم النحو»، باريس، مينوي، 1967. انظر أيضًا توماس لاكور، «معمل الجنس، دراسة عن النوع والجسد في الغرب» (1990)، باريس، غاليمار، 1992.

163 سيغموند فرويد، «ولادة التحليل النفسي»، المصدر السابق، ص. 198؛ «رسائل إلى ويلهيلم فليس»، المصدر السابق، ص344.

164 المصدر السابق، ص 198 - 199 و344 - 345.

165 ولها روايات مختلفة.

166 «رواية عائلية»: تعبير ابتكره فرويد ورانك في 1909 للإشارة إلى الطريقة التي يقوم بها أي شخص ليغير شجرة نسبه مبتكرًا عائلة أخرى غير عائلته. انظر أوتو رانك، «أسطورة ولادة البطل»، باريس، بايو، 1983.

167 ظهر المصطلح للمرة الأولى في 1910 «حول نمط خاص لاختيار الموضوع عند الإنسان» (1910)، في OCF.P، المجلد العاشر، ص197. يجب أن نشير إلى أن فرويد نفسه أخطأ في المناسبة الأولى بصدد «العقدة» الشهيرة في كتبه. فهو قد جعل منشأها عائدًا إلى «تأويل الحلم»، المصدر السابق، ص 229، الهامش الأول.

168 سيغموند فرويد «مقطع من تحليل هستيريا (دورا)» (1905)، في خمس دراسات في التحليل النفسي، باريس، 1954 ،PUF، ص 1 - 91، وOCP.F المجلد السادس، المصدر السابق، ص183 - 291. أفضل إعادة تركيب لقصة دورا نجده عند باتريك ماهوني، «دورا ذهبت في حال

سبيلها، العنف في التحليل النفسي» (1996)، باريس، 2001. انظر أيضًا أرنولد روغو، «A further footonote to freud,s "fragment of an analysis of a Case of hysteria»، يوميات التحليل النفسي الأميركي، 26، 1978، ص311 - 330. هيلين سيكسوس، «لوحة عن دورا»، باريس، مطبوعات فام، 1986. هانا س. ديكارت، «فرويد، ودورا، وفيينا»، 1900، نيويورك، ذا فري برس، 1991. في هذا الكتاب نجد وصفًا جميلًا ليهود بوهيميا عند نهاية القرن.

169 باتريك ماهوني، «دورا تمضي في حال سبيلها»، المصدر السابق، ص 201.

170 هذا هو مرض منيير.

171 وقد هاجرت إلى الولايات المتحدة كما فعل فيلكس دويتش، وهربت من اضطهادات النازيين. توفيت بتاريخ 1945 بمرض السرطان، وقد علم دويتش بوفاتها بعد عشرة أعوام، وأكد بأنها كانت، حسب أحد المخبرين «من أشد الهستيريات تنفيرًا ممن التقى بهن طيلة حياته». وقد قدّم كورت إيسلر معارضته لتلك الشهادة في رسالة موجهة إلى آن‌ا فرويد في 10 أغسطس/ آب 1952. ناهيك بأنها لم توافق أبدًا على ما يبدو على أقوال دويتش حول افتخارها بأنها حالة شهيرة كما نسب إليها في 1923.

172 سيغموند فرويد تأويل الحلم، «مقدمة للطبعة الثانية»، المصدر السابق، ص 4.

173 إرنست جونز، «حياة سيغموند فرويد ومؤلفاته»، الجزء الأول، المصدر السابق، ص384.

174 كارل ألبير شيرنر، «حياة الحلم» (1861)، باريس، شام، 2003. ألفريد موري، «الرقاد والأحلام»، دراسات بسيكولوجية حول هذه الظواهر، باريس، ديدييه، 1861، ليون هيرفي دو سان -ديني، «الأحلام ووسائل توجيهها، معاينات عملية» (1867)، إيل سان - ديني أورينوس 1895، جوزيف ديلبوف، «الرقاد والأحلام ونصوص أخرى» (1885)، باريس، فايار، 1993. من أجل الحصول على دراسة شاملة، انظر جاكلين كاروا، «ليالي بليغة، تاريخ الأحلام» (1800 - 1945)، باريس، 2012. كان فرويد قد جمع في مكتبته عددًا كبيرًا من المؤلفات حول الحلم.

175 انظر فرانك ج. سولوواي، «فرويد، بيلولوجي التفكير»، المصدر السابق، ص 309، هنري ف.إلينبرجر خصص صفحات جميلة من مؤلفاته حول الحلم عمومًا وحول حلم فرويد بصورة خاصة. انظر

أيضًا « قاموس التحليل النفسي»، المصدر السابق.

176 فرانس فون تون (1847 - 1916)، أرستقراطي ملاك لأراضٍ وبيروقراطي متميز في السلالة الإمبراطورية، وقد استلم لمرتين منصب حاكم بوهيميا، قبل أن يشغل لفترة قصيرة منصب رئيس وزراء النمسا، من مارس/ أذار 1898 إلى أكتوبر/ت 1899.

177 كارل أ. شورسكي، «فيننا، نهاية القرن، سياسة وثقافة» (1961)، باريس، سوي، 1981. لا سيما فصل «السياسة وقتل الأب في تأويل الحلم». انظر أيضًا جاك لو ريدر، «سوف أجعل نهر أشيرون في هياج، قيمة ودلالة استشهاد مأخوذ من فيرجيل»، أوربا، 954، أكتوبر/ت، 2001، ص113 - 122.

178 سيغموند فرويد، «المراسلات»، المصدر السابق، ص. 408. كان فرويد قد أخبر فليس عن اختياره في رسالة بتاريخ 17 يوليه/تموز 1899، المصدر السابق، ص 458. فردينان لاسال، «حرب إيطاليا ورسالة بروسيا»، في ريدن أوند شيفن، برلين، 1892.

179 تعبير «عزلة براقة» غالبًا ما كانت تستخدم لتعريف السياسة البريطانية الخارجية مع نهاية القرن التاسع عشر، وها هو فرويد يأخذ ذلك التعبير لصالحه، بعد أن ناشده فليس بهذا الصدد، في محاولة لمواساته والتخفيف عنه.

180 سيغموند فرويد، «حول تاريخ حركة التحليل النفسي» (1914)، باريس، غاليمار، 1991، ص 39.

181 عاش فرويد حياته بالكامل في فيينا، المدينة التي كان يتساوى لديه تعلقه بها وكراهيته لها.

182 ديدييه أنزيو، «التحليل الذاتي لفرويد» (1959)، PUF، 1988. ماكس شور» الموت في حياة فرويد « المصدر السابق، جاك لاكان، « الدورة الإرشادية، الكتاب الثاني: الأنا في نظرية فرويد وفي تقنية التحليل النفسي» (1954 - 1955)، وقام بجمعها جاك آلان ميلر، باريس، سوي، 1977، ص 177 - 207.

183 أليزون روز، «المرأة اليهودية مع نهاية القرن في فيينا»، أوستين، جامعة تكساس برس، 2008.

184 «رسائل إلى ويلهيلم فليس»، ص527. كان لا بد من الانتظار حتى 6 مايو 1977 كي تتحقق أمنية فرويد وتوضع لوحة على الجدار في بيت بيل فيو، و«رسائل إلى ويلهيلم فليس»، م، س ص532.

185 بتاريخ 1988، أطلق جيرد كيميرل ولودجير م.هيرمان اسم لوزيفور -

أمور على مجلة تاريخ التحليل النفسي، بإدارة ميكائيل شروتر منذ 2004، انظر رينات ساش، «لوزيفور - أمور 51»، 32، 2014ص103 - 113.

186 نورمان كييل، «Freud Without Hindsight»، 1893 - 1939، ماديزون، أنترناسيونال يونيفيرسيتي برس، 1988. وهنري ف. إيلينبيرجر، «تاريخ اكتشاف اللاشعور»، المصدر السابق.

187 حول علاقات فرويد مع السورياليين الفرنسيين أمرٌ لا أتناوله في هذا الكتاب، انظر JL - HPF، المصدر السابق.

188 وسوف يوقع الرسالة الإمبراطور فرنسوا - جوزيف، بتاريخ 5 مارس/ آذار 1902، انظر، هنري ف. إيلينبيرجر، «تاريخ اكتشاف اللاشعور»، المصدر السابق ص 476 - 478.

189 : Herr بالألمانية، هو اللقب المكافئ لكلمة السيد.

«السرّ عند أيّ إنسان، لا يكمن في عقدة أوديب لديه، بل يكمن تحديدًا في مدى حريته، وفي قدرته على مقاومة العذابات والموت».

جان - بول سارتر

الفصل الأول
عصر جميل

في مكاشفة صارح بها ماري بونابرت، في 4 يناير/ك[2] 1926، تحدث فرويد عن مدى شعوره شخصيًا بخيبة الأمل حين قرأ «جانب منزل سوان»: «أعتقد أن رواية بروست لا يمكنها أن تدوم طويلًا. ثم لديه ذلك الأسلوب! هو يريد دائمًا التغلغل نحو الأعماق ولا يكمل جمله أبدًا[190]...»

إذا كان فرويد قد عبّر هكذا عن رواية بروست، فإن مؤلف «البحث عن الزمن الضائع» كال لفرويد بالمكيال نفسه، وذاك أنه لم يُشر أدنى إشارة أو يلفح إلى أعماله، رغم أنها استقبلت بحماسة، ما بين 1910 و1925، في الوسط الأدبي الباريسي: من أندريه جيد إلى أندريه بريتون، وفي عام 1924، بعد أن شعر بالحيرة حيال هذا التجاهل المتبادل، ها هو جاك ريفيير، مدير مجلة «نوفل ريفيو فرانسيز» - المجلة الفرنسية الجديدة -، يتصدى في محاولةٍ له كي يشرح، بمناسبة محاضرات توافد إليها جمهور غفير، وكان يُلقيها في مسرح «فيو - كولومبييه»، كم عمل فرويد وبروست على استكشاف الحلم، واللاشعور، والذاكرة، والجنسانية، بطريقة متوازية وإن لم تكن متشابهة[191].

إذا كان كلٌ من فرويد وبروست، وإن بطريقة مختلفة، من الرواة الحديثين الذين يستكشفون الأنا، فقد كان يربطهما أيضًا برباط مشترك الفكرة القائلة بأن الأم هي أول موضوع يتعلق الإنسان به ويتوجه نحوه: الأم أو بديلها، ومن هنا ينتج، في رأي الكاتب كما في رأي العالم، تصوّر عن الحب مفاده أن كل مخلوق بشري يرغب بأن يكون محبوبًا من مخلوق آخر مثلما كان محبوبًا من أمه، أو إذا تعذر ذلك، بمقدار ما قد يتمنى أي شخص. أما بصدد المثلية الجنسية - التي يطلقان عليها اسم «انحراف» -، فإن فرويد وبروست يعزفانها باعتبارها نتيجة لثنائية ضرورية في الحضارة ولاستمرار النوع البشري. إذ من دونها فعليًا، كان البشر المحكومين بفحولة مفرطة والذين لا يميلون إلّا قليلًا إلى التسامي، سوف يُبيد بعضهم بعضًا إلى ما لا نهاية.

وبما هو أبعد من هذه التماثلات، التجديدية كليًا مع مطلع القرن العشرين، كان فرويد وبروست يشعران بانجذاب حقيقي إلى إغراءات أرستقراطية في طريقها إلى الانهيار، بعد أن أصبحت برجوازية، ورفضت ممارسة السلطة السياسية كي تكرّس نفسها للبحث عن الذات، ساعيةً من خلال ذلك للوصول إلى الزمن المستعاد، وهم حياة مرتهنة بنهايتها الذاتية،

كان فرويد وبروست معًا، من اليهود والمتحررين من يهوديتهم في الوقت نفسه، ولذا يشعران بأنهما خارج المجتمع الذي يعيشون في رحابه مثلما أنهما مرتبطان بتقاليده وبأعرافه العائلية، وهكذا تمامًا كانا يعلمان حق العلم كلاهما كيف يصفان ببصيرة واعية مختلف القطاعات لذلك الوسط الذي كان بالعمق وسطهم: كبار البرجوازيين، الوصوليين، الخدم، الهامشيين. ولأن «البحث عن الزمن الضائع» قد اكتمل غداة الحرب العالمية الأولى، كيف لنا ألا نرى بأن ذلك البحث وضع على المنصة تاريخ طبقة اجتماعية أصبح مثلها الأوربي مخترقًا، منذ صعود الاشتراكيات ومعاداة السامية، بقناعة مفادها أنها لن تستمر على قيد الحياة إلّا بتحويل كل قدر فريد إلى عملٍ من أعمال الفن؟

كان المرضى وأوائل مريدي فرويد يتشابهون بالتالي مع شخصيات بروستية، تشعر في أعماقها بالقلق لأنها تعيش ذاتها، وأيضًا بالسعادة لأنها تعيش حرية فردية تم الحصول عليها أخيرًا، وسط مجتمع بعيد بعدًا عميقًا عن المساواة، حيث العمال، والفلاحون، والفقراء، يعيشون ضمن شروط بائسة.

كان علماء «العصر الجميل»، المنشغلون بالبحث عن الذات وتمجيد الفن وقيم الليبرالية، يعلّقون فوق ذلك كل آمالهم على العلم، ومن طرف آخر، في قلب تلك القارة الأوربية في خضم التحوّل الكبير، كان يهود فيينا، هم أيضًا أبطال لحظة عظيمة من التوقد الذي كان يبدو بأنه سوف يستمر إلى الأبد، كانوا قد توصلوا إلى المثل الأعلى حول تجاوز الغيتو، ولذلك أضاؤوا بنيران مشعة جوانب هويتهم المتعددة، ومن هنا نشأ السعي الدائم إلى مستقبل سوف تكون إسقاطاته على الماضي: عقلانية علمية وإعادة حياة لقصص ميثولوجية عند سيغموند فرويد، والحلم بالرجوع إلى أرض الميعاد عند ناتان بيرن بوم وتيودورهرتزل؛ وتخيّل «فيينا حمراء» عند فيكتور أدلر وأوتو بوير؛ وتبني مثلٍ أعلى قائم على تدمير وإعادة بناء هجائية للّغة الألمانية عند كارل كروس؛ والحنين إلى انصهار التنوير الفرنسي والتنوير الألماني عند ستيفان زفايغ؛ والتأكيد على جمالية رومانسية يهودية والنمساوية عند أرثر شنيتز؛ وبلورة تشكيل موسيقي جديد عن غوستاف مهلير وأرلوند سكونبيرغ. وجميع أولئك اليهود الذين ما عادوا يهودًا كانوا يسعون للتعبير عن الوجه المستتر ليوتوبيا قادرة على أن تأتي عقب احتضار عالم كانوا يعلمون بأنهم أبطاله الرئيسيون[192].

إن فرويد بتبنيه تمامًا لموقف يهودي سبينوزي، أظهر دائمًا علامات تدل على التناقض الخاص بأزمة الهوية اليهودية في نهاية القرن، كان يتكلم

بطيب خاطر عن «عرق يهودي»، عن انتماء عرقي، أو حتى عن «فروق» بين اليهود و«الآريين»، مشيرًا فعليًا إلى اللا يهود باعتبارهم من «الآريين»، وحين شعر باليأس من مريديه الأوائل، راح يتعامل معهم من دون حرج على أنهم «يهود» غير مؤهلين لكسب أصدقاء للمذهب الجديد. علمًا بأن استخدام مثل هذه التعابير لم يوصله أبدًا إلى تحريك علم نفس حول الاختلاف العرقي، كما شرح ذات يوم لساندور فيرينتزي، في رسالة بتاريخ 8 يوليو/ حزيران 1913: «أما بخصوص السامية، هكذا كتب، فهناك يقينًا اختلافات كبيرة مع العقلية الآرية. ونحن لدينا ما يثبت ذلك على مدى الأيام، بالتأكيد سوف ينتج عن ذلك أيضًا هنا وهناك تصورات مختلفة عن العالم وفن مختلف. رغم ذلك لا يجوز أن يوجد علم آري أو يهودي مستقل وفريد. بل إن النتائج لا بد لها أن تكون متماهية وما من اختلاف وتنوع إلّا في العرض [...] إذ إن دخول هذه الاختلافات إلى التصور العلمي بخصوص العلاقات الموضوعية، سوف يثير التشوش لا محال في بعض الجوانب[193]».

كان فرويد يشعر بالكرب لأنه لم يكن معترَفًا به بما يكفي، ولذلك كان يبدو وكأنه يجهل أن «عزلته الرائعة» لم تكن سوى محض تخيّل، وأن كتابه حول الحلم، أثار في واقع الأمر من المديح مثلما حرّك من انتقادات، لم يكن على ما يبدو يعي تمامًا أنه رجل زمن أصبحت أثناءه الحالات النفسية موضوع شغف لدى جيل سيطر عليه هاجس الانطواء، ونظرًا لسيطرة الشك عليه، لم يكن يرى من عصره سوى ما كان يتيح له تدعيم حالة النوراستانيا عنده وأنه عبقرية منعزلة في ركنها، وعلى هذا فهو لم يكن يعلم بأنه عندما أعاد خلق هاملت وأوديب، كان قد جعل من المريض المتمدّد على ديوان التحليل الانعكاس الدقيق لتلك الشخصية التي قام برسمها ألفريد بوبن في 1902: في صورة رجل عارٍ مقطوع الرأس، ويتأمل رأسًا ضخماً كئيبًا موضوعًا على الأرض، وفمه منفتح قليلًا وهو يحدق به بعينيه اللتين أصابهما العمى[194].

في تلك الحقبة، كان فرويد يطلق لحيةً محلوقةً بعناية يومًا بعد يوم على يد حلاقه. كان منحني الظهر قليلًا حين يمشي مشية سريعة بثيابه الواسعة قليلًا لكنها متقشفة وأنيقة، وكان ينظر دائمًا في عيون زائريه، كما لو كان يريد البرهان على أنه ما من شيء يغيب عن ملاحظته. كان يتكلم اللغة الألمانية بلكنة أهل فيينا، بصوت واضح ومنخفض، وكان ميالًا إلى سرد وقائع حياته اليومية مستعينًا بالتخيلات. وحين يتنبه إلى نسيان أو إلى فعل لم يكتمل، وأن محادثه يحاول تبرير نفسه بطريقة عقلانية، كان

يبرهن عن تصلب، وتقع الإدانة على محادثه كما لو أنها ضربة ساطور[195].
كان فرويد يعمل من ستة عشر إلى ثمانية عشر ساعة يوميًا، ويتنقل مستعملًا عربة خيل ليقوم بزيارة مرضاه إذا كان ضروريًا كما كان يفرض على أهل بيته الالتزام الدقيق بمواعيد الطعام. وأما بصدد مارتا، فقد أصبحت امرأة متصلبة داخليًا، ومتعلقة بطقس لا يحول ولا يزول: المظهر اللائق لبيتها.

كان فرويد على اطلاع كبير جدًا وكان ذا ذكاء استثنائي، فكان يقرأ ويتكلم تمامًا الإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية، والألمانية، كما كان يفهم البرتغالية، ويكتب الألمانية بأحرف غوطية، ويعرف الإغريقية، واللاتينية، والعبرانية، والييديش: «Mare Nostaum - بحرنا -»، هكذا كان يقول، كي يعطي وصفًا للبحر الأبيض المتوسط، في وجه السلتيين، والجرمان، والبروسيين، والشماليين، والأميركيين، والسويسريين. كان نتاجًا خالصا لثقافة فيينا، برج بابل حقيقي يضم أرفع الأصوات في الثقافة الأوربية. لم يكن شرهًا ولا ذوّاقة، علمًا بأنه لم يكن يرفض بعض ملذات مائدة الطعام. كان يكره تناول الطيور أو القرنبيط، ولا يعطي كبير أهمية لتفننات المطبخ الفرنسي، لكنه كان ميالًا بصورة خاصة إلى الأرضي شوكي الإيطالي، وإلى لحم العجل المسلوق، وإلى اللحوم المحمرة مع البصل. كان قاسيًا حيال كل شكل من أشكال الإهمال ويتمتع بسخرية شرسة، علمًا بأنه لم يكن له كبير سحر، ولم يكن يغفر الفروق اللغوية المتفاوتة ولا الملابس السيئة ويعبر عن بعض الاحتقار للأشخاص ذوي البدانة الزائدة، لم يكن يحب العروض المسرحية ولا العشاءات في المدينة، كما لم يكن يرقص الفالس ولم يكن يشعر بالراحة حين يضطر لمخالطة عليّة المجتمع الأرستقراطي.

مع ذلك، كان ينتقل بطيب خاطر ويسافر كي يحضر عرض ما لأوبرا من تلحين موتسارت، ملحنه المفضل. كان شديد اللياقة وحسن التربية، لذلك كان يقدم أزهارًا للسيدات ويفضّل من بين الأزهار الأوركيديا وأكثر منها الغاردينيا، كان يلعب أحيانًا الشطرنج لكنه يفضل لعبة التاروت بالورق، حتى أنه كرّس أمسيات يوم السبت لهذه اللعبة بصحبة أوسكار راي، وليوبولد كونغستين ولودفيغ لوزنبيرغ، وهم ثلاثة من ألمع الأطباء، بتاريخ 1895 قام بتركيب وتوصيل التليفون، وهو جهاز مقيت في نظره لكنه ضروري، إنما من دون التخلي عن كتابة الرسائل الشهيرة عنده يومًا بيوم.

كما كان حال جميع أطباء فيينا في بداية القرن العشرين، وظّف لخدمته أربعة من الخدم: طباخة، وامرأة لتنظيف البيت، ومربية أطفال،

وأخيرًا خادمة لتفتح الباب لمرضاه، بصورة عامة كان يعطي نفسه أكثر قليلًا من شهرين كعطلة صيفية ما بين منتصف يوليه/ تموز ونهاية سبتمبر/ أيلول. خلال تلك الفترة، لا سيما في شهر أغسطس/ آب كان يهتم بأبنائه، بينما يخصص الشهر التالي لرحلاته. كان يحب السباحة والاستحمام على بلاجات الأدرياتيكي: عمي ألكسندر، هكذا كتب مارتن فرويد، كان يقيم معنا، هو ووالدي كانا نادرًا ما يخرجان من الماء. وكان جسم كلٍ منهما ملونًا بلون برونزي على الأقل ضمن ما كان يسمح به المايوه المناسب للسباحة في القرن الماضي، كانت تلك الملابس البحرية تغطي أكتاف الرجال وحتى قسمًا من الذراعين. وكان الأمر أدهى من ذلك عند النساء: إذ كان عليهن تغطية سيقانهن بجوارب طويلة سوداء، ولا أذكر أني رأيت في يومٍ من الأيام، لا أمي ولا شقيقتي بلباس البحر، أكان ذلك على الشاطئ الأدرياتيكي أو على شاطئ البحيرات حيث كنا نذهب في العطلات. من المحتمل أنهن كنّ متواضعات أكثر من اللازم أو متكبرات أكثر من اللازم كي يظهرن بمثل ذلك المايوه البحري للقرن التاسع عشر؛ ومن يدري ربما أنهن لم يكنّ يحسنّ السباحة[196].

ذلك العصر الجميل كان أسعد فترة في حياة فرويد. فخلال سنوات قليلة، وصل تأثيره إلى العالم الغربي، وسافر بحميّة متوقدة متابعًا سعيه لرسم خارطة اللاشعور والتي حلم بها منذ طفولته، وأسس حركةً عالمية وأحاط نفسه بزمرة من المريدين الذين، من بعد قراءتهم الحماسية لكتابه «تأويل الحلم»، أسهموا بنشر مذهبه وتشكيله كما لم يفعل ولم يزِد أي عالِم بين معاصريه: بيير جانيه أو تيودور فلورنوا. وتمامًا كما كان الحال مع الاشتراكية، والحركة النسائية، وأفكار الطليعة الأدبية والفلسفية، فقد أصبح التحليل النفسي حينذاك رمز ثورة في عالم الفكر.

نجد أثرًا لتلك الحياة السعيدة في «العلاج النفسي في الحياة اليومية»، والذي كُتب مسلسلًا ونُشر في قسمين في مجلة بتاريخ 1901، قبل أن يظهر في كتاب[197]، كان فرويد قد قام بتعديله مرات ومرات على مر السنوات، فكما كان تحليل الحلم يسلّط الضوء على التحركات الليلية للأفكار، كذلك كان هذا الكتاب الجديد، الأكثر حداثة في بعض جوانبه، يبرهن على أن اللاشعور يظهر على الدوام من خلال الظواهر الطبيعية في الحياة النفسية لجميع الناس المستيقظين والذين هم بصحة وعافية. وقد يكون في ذلك النص مبعث ابتهاج لدى الكتاب، والشعراء، والألسنيين، والبنيويين، وكتاب الروايات البوليسية، وجاك لاكان[198]. وها هو فرويد، بمسرةٍ لا نهائية، يقتحم الكلمات والسياق، والخطاب، والسرد: النسيانات،

الانقطاعات العابرة في الذاكرة، الأخطاء، الأفعال غير المكتملة، التصرفات التي في غير محلها، الذكريات - الساترة -. هذه العدة اللغوية كلها، كما كان يقول، ليس لها من شأن سوى أنها تفضح حقيقة تغيب عن الشخص المعني الذي يكوّن نفسه على غير علمٍ منه وفق معرفة منظّمة، وفق تشكيل للاشعور.

قبل أن يكون فرويد قد انكبّ على تلك القضية، كان نفرٌ من الكتّاب قد بدأوا بالتفكير حول المبدأ الناظم في مجال «التداعي الحر»، مشيرين إلى أن ذلك التداعي يتيح استخراج ما عند الفرد من جانب يجهله هو نفسه، وهذا هانز غروس، القاضي النمساوي والأب المؤسس لعلم الجريمة، كان على سبيل المثال قد وجه اهتمامه إلى الانقطاعات في الذاكرة وما فيها من كشف في بعض الحالات للشهادات المزورة. أما تلامذته، فأبرزوا طريقة استقصاء - »اختبار التداعي» - يمكن استخدامها أثناء التحقيقات وجمع المعلومات[199].

غير أن فرويد ذهب إلى ما هو أبعد بكثير، إذ كان يؤكد بأن تلك الأخطاء وغيرها من السقطات كانت مظهرًا يعبر عن رغبةٍ مكبوتة، غالبًا ما تكون ذات طابع جنسي وهي تطل كي تنقض جذريًا نيةً واعية. وكعادته دائمًا، كان يورد حكايات عديدة مأخوذة من حياته الخاصة أو من حياة المحيطين به، وبالاستعانة باللغة الألمانية، من خلال التركيز على الجزء السابق للكلمة Ver -، وضع الجدول المنطقي لجميع السقطات عند الحديث:**Versprechen**(نقطاع لغوي في الذاكرة) **verhoren** (انقطاع سمعي في الذاكرة) **Verlesen**(انقطاع أثناء القراءة) **verschreiben** (انقطاع أثناء الكتابة)، **Vergriffen**(حركة غير مكتملة)، **Vergessen**(نسيان كلمات أو أسماء). أضف إلى ذلك دراسة حول المعتقدات، والمصادفات، والغيبيات.

فهل من عجب أن يكون هذا الكتاب، المخصص للسقطات ولطرق تعقبها، قد رفع إلى المنصة القطيعة بين فرويد وفليس على خلفية أفعال غير موفقة واتهامات متبادلة؟ في جميع الأحوال، في اللحظة التي كان فرويد يكمل الجزء الأول من كتابه، مضيفًا إليه استشهادًا مأخوذًا من فاوست، كان فليس شخصيًا[200] هو من عثر عليه، أراد أيضًا الاستمرار باقتناعه بأن الاستقبال الذي سوف يحظى به سوف يكون سلبيًا: «الكتاب لا يعجبني إطلاقًا وسوف لا يعجب، كما أرجو الآخرين أكثر مني، هذا العمل هو بالكامل ضائع الملامح وفيه أكداس من أمور ممنوعة[201]». وإلى جانب هذه الكلمات - أو «الأشياء الممنوعة» -، وضع الصلبان المسيحية

الثلاثة. صلبان التضرع، والتي كانوا حسب الأعراف ينسبون إليها قوة شفاء مرض أو إزالة قدر سيئ.

ومرةً جديدة أيضًا، كان على خطأ، فهذا الكتاب المشرق استقبل بحماسة من جمهور عريض وأسهم ليس فقط بشهرته، وإنما بتعميم مفهوم اللاشعور لدى جميع الناس.

وبينما كان فرويد يعود إلى التشكك من جديد بنفسه ويشعر بأنه أكثر اضطهادًا من أي وقتٍ مضى، فكر بالابتعاد مرة أخرى عن فيينا حين راح يتأمل شيئًا من بين مجموعته: «قطعة من جدار بومباي ومعها قنطور وفون - إله المراعي - تقلتني إلى إيطاليا؛ المكان الذي أرغب فيه بشدة»، وأضاف، بعد أن اتجه تفكيره إلى إقامته المؤقتة في باريس: «Fluctuat Nec Mergitur[202]».

في رسالة بتاريخ سبتمبر/ أيلول 1900، موجهة إلى مارتا، ومكتوبة في لافارون، وهي مدينة صغيرة من تيرول الجنوب، أورد جملةً تلخص على حدٍّ سواء ميله للقيام برحلات ورغبته بالوصول إلى روما كي يهرب من بعدها نحو الجنوب: «لماذا إذًا نهجر هذا المكان الجميل والهادئ والغني بالفطور المميزة؟ ببساطة لأنه لم يعد لدينا سوى أسبوع بالكاد وأن قلبنا، كما تبين لنا، يميل نحو الجنوب، نحو ثمار التين، والكستناء، والغار، والسرو، والبيوت المزينة بالشرفات، وبائعي التحف الأثرية وإلى ما هنالك[203]».

بعد عامٍ من هذا التاريخ في 2 سبتمبر/ أيلول 1901، بصحبة إسكندر، حصل أخيرًا على روما، المشتهاة مرات عديدة، والتي جرى من حولها طواف وابتعاد: بعد وصولي إلى روما في الساعة الثانية، بدلت ثيابي في الساعة الثالثة بعد الحمام وأصبحت رومانيًا، إنه أمرٌ لا يصدق أن تكون قد تخلفنا عن المجيء إلى هذا المكان منذ سنوات[...]. الجنوب مقابل الباتثيون، هذا إذًا ما تخوفت منه خلال سنوات: كان الجو تقريبًا فيه بعض الحرارة بصورة لذيذة، وهذا ما نتج عنه ضياء رائع انتشر في كل مكان حتى في كنيسة سكستين، بخصوص الأمور الأخرى عشنا بغبطة لا توصف دون أن نلتفت إلى موضوع التوفير، فالماء، والقهوة، والطعام، والخبز، أشياء ممتازة[...]. اليوم، أضع يدي في Bocca de la verita وأنا أقسم بالرجوع[204].

لم تكن الرحلة إلى روما مجرد تحقيق ثأر كان موضع حلم، فالمدينة كانت أيضًا مكانًا لوعود أركيولوجية عظيمة، واكتشافات الطبيعة الخالدة للأنوثة. كانت روما في نظر فرويد الدواء الشافي من فيينا، كانت الترياق،

ومثل مخدر، أرض ميعاد، مدينة مجيدة، مملكة البابوات والكاثوليكية، وبهذا أرجعت روما فرويد إلى سعيه لإيجاد مكان آخر. مدينة ثنائية الجنس، مدينة معبودة لما هي عليه من قدرة ذكورية ولما فيها من مفاتن أنثوية: «إلى أن يحط الرحال في إنجلترا أو باريس، كما سوف يشير كارل شورسكي، يظل تصوّره لروما تصورًا يهوديًا، تصور شخص غريب، لكنه أيضًا تصوّرٌ مزدوج، فمن جهة، روما مدينة ذكورية، إنها قلعة السلطة الكاثوليكية، والحلم - الرغبة عند فرويد، بصفته ليبراليًا وكذلك بصفته يهوديًا، هو الاستيلاء عليها، ومن جهة أخرى، يحلم بها على أنها مدينة أنثوية، الأم المقدسة للكنيسة، الحاملة لوعد الثواب والتي لا تزار إلّا بمحبة[205]».

في حنايا وأطلال روما، ولج فرويد إلى المباهج الناعمة والعنيفة لعلمٍ محرّم. وفي طبوغرافيتها، اكتشف سر ملذات لا نهائية: ملذات الفم، ملذات العين، ملذات الأذن، ملذات النفس، وكما كان الحال مع غوته قبله، أحسَّ بأنه قد تحول إلى شخصٍ آخر على يد إيطاليا الرومانية.

بعد ثلاثة أعوام من ذلك التاريخ، بمناسبة الأيام الخمسة التي قضاها في أثينا، وبعد جولة طويلة في البحر قادته من تريست إلى كورفو، زار أخيرًا الاكروبول: «لبست أجمل قميص عندي من أجل زيارة الاكروبول [...]. هذا يفوق كل ما شاهدناه حتى هذا الوقت الحاضر وما أمكننا أن نتخيل[206]».

لدى وصوله عند أسفل البارثينون، تواردت من جديد إلى ذاكرته صورة أبيه، لكن في بلاد الأولمبيين، لم يكن المطلوب بالدرجة الأولى الانتقام له كما في روما، بقدر ما هو تفسير مدى نجاحه بالولوج إلى الثقافة الإغريقية ما أتاح له التفوق عليه. وتحت المطر، همس فرويد في أذن إسكندر الكلمات التي جاءت على لسان بونابرت يوم تتويجه كإمبراطور مخاطبًا شقيقه جوزيف - يوسف -: «ترى ماذا كان يمكن أن يقول والدنا[207]»؟ ثم إنه في اللحظة نفسها التي تماهى مع بونابرت، أحسّ وكأنه مخترق كما في السرد البروستي، بشعور قوي بالذنب. بانتسابه المتحمس إلى تلك الثقافة الكلاسيكية، ترى ألم يتخلّ عن جانب من ماهيته اليهودية؟ وهذا ما جعله حينذاك يشعر بأن كل ما يراه موجود بصورة حقيقية وليس في الكتب، «لست جديرًا بمثل هذه السعادة»، هكذا خطر له، مع ما كان لديه من انطباع بأنه حيال أشياء سبق أن رأها وسبق أن عاشها: وعيٌ مضاعف، انشطار، شيءٌ ما، فيه غرابة، كما لو أن حياة ماضية، راحت تلامس وعيه، كما لو أن ما يراه أمامه غير حقيقي.

وعاد إلى هذه الموضوعة في كتابٍ كان يعتبره هو شخصيًا نوعًا من التسلية، علمًا بأنه كان يدل على المرحلة الأخيرة من ثلاثية نضجه المكرسة للحلم، ولانقطاعات الذاكرة مؤقتًا وإلى الأفعال غير المكتملة: الكلمة المبطنة الذكية في علاقتها مع اللاشعور[208].

مرةً ثانية، يقدم فرويد نفسه في ذلك الكتاب بصفة خبير بالشؤون العائلية، وخاصةً بصفة «خطّاب يهودي» (Schaden) يروي حكايات عن متسولين (Schnorrer) ومن خلالها يتم التعبير، عن طريق الضحك، عن المشاكل الكبرى والصغرى للطائفة اليهودية في أوربا الوسطى في مواجهة معاداة السامية، ونظرًا لما يتحلى به فرويد من فكاهة لاذعة، كان يعشق تجميع الطرائف كي يتهكم على نفسه أو على المحيطين به ضاحكًا حيال أكثر الوقائع تجهمًا. وهي طريقة من بين طرق أخرى كي يستعيد الذكرى الطيبة عن الـ Yiddishland - أرض الييديش -، أرض أسلافه تجار الزيت والأقمشة والتي لن يعود إليها أبدًا.

وتحديدًا من بعد قراءة كتاب مشهور بقلم تيودور ليبز[209]، وهو فيلسوف التعرف على الآخرين، حزم فرويد أمره كي يتابع موضوع العلاقات بين الكلمة المبطنة الذكية واللاشعور، دون أن يمنعه ذلك من استلهام برغسون أو حتى حِكم لختنبيرغ، بل وأيضًا القصص الكوميدية التي جاءت عند هنريخ هاينه أو سرفانتس.

في ذلك الكتاب راح يدرس في البداية تقنية الـ Witz - الطزفة - بما هي تسمح بأن تبرز اجتماعيًا ونفسانيًا آلية الاستمتاع بحضور مالا يقل عن ثلاثة أطراف: مؤلف المزاح، والمتلقي، والمتفرج، لكنه، كما بيّن، حكم بأن ذلك لا يكفي للوصول إلى غايته النهائية: الريبية. فالكلمة الذكية، باعتبارها من تشكيلات اللاشعور، يجب أن تكون موجهة للتصادم مع طرفٍ رابع، أكثر تجريدًا بكثير: الثقة التي يفترض أنها مرافقة للحكم على هذه الكلمات. وهكذا فالكلمة الذكية هي دائمًا، حسب رأي فرويد، نوع من «اللا-معنى»، فهي تكون كاذبة عندما تقول الحقيقة مثلما أنها تقول ما هو حق من زواية كاذبة، كما تشهد هذه القصة الشهيرة عند اليهود: «في محطة قطار في غاليسيا، التقى يهوديان في قطار، سأل أحدهما: «إلى أين أنت ذاهب؟»، أجابه الآخر: «إلى كراكوفي. فهتف الأول، حانقًا: انظروا إلى هذا الكذّاب! إذا كنت تقول إنك ذاهب إلى كراكوفي، فأنت قطعًا تريدني أن أظن بأنك ذاهب إلى لامبرغ. على كلٍّ من جانبي أعلم بأنك ذاهب فعلًا إلى كراكوفي، إذًا لماذا تكذب؟»».

إذا كان فرويد قد رأى في الحلم ما يشبه التعبير عن إنجاز رغبة تؤدي

إلى تراجع نحو التفكير بالصور، فهو قد جعل من الكلمة الذكية مولدة للمتعة وتسمح بممارسة وظيفة التلاعب بالكلمات في اللغة. المرحلة الأولى فيها كما أشار، تتمثل في اللعب الطفولي، والمرحلة الثانية تتمثل في المزاح: «الحماسة الكبيرة التي نطمح للوصول إليها بهذه الطرق لا يمثل شيئًا آخر سوى المزاج [...] المزاج في طفولتنا، ذلك العمر الذي نجهل فيه المضحك، وكنا فيه عاجزين فكريًا ولا حاجةَ لنا للفكاهة كي نشعر بأننا سعداء في الحياة[210]».

كان للأطفال والطفولة في حياة فرويد موقعٌ جوهري، وما دام رأيه أن المشاكل العاطفية عند البالغين تعود جذورها إلى تلك المرحلة من العمر فقد شرع بتأليف كتاب صغير وضع فيه في دائرة الضوء نظرياته حول الجنسانية الطفولية وبصورة أعمّ، حول الجنسانية عند البشر وذاك الكتاب هو «ثلاث دراسات حول النظرية الجنسانية».

بعد الثلاثية الممتعة عند منعطف القرن، هاهي تلك السيرة الذاتية التي هي أيضًا استكشاف للتشكيلات المتنوعة لـ اللاشعور. كان فرويد يزعم الآن أنه يدخل في أعماق الميدان، منذ سنوات، كان هذا الميدان موضوع دراسات عديدة بين علماء التربية، والأطباء، والقضاة، وعلماء الجنس، مع ذلك، وعلى نقيض أسطورة مسيطرة بقوة، لم يكن هو بطل تقطيع أوصال «الجنة الخضراء للغراميات الطفولية»، إذ في 1905، حين شرع بذلك العمل الجديد، كان ذلك الميدان فعليًا قد بدأ اكتشافه على مدى واسع من طرف علماء عصره الذين كانوا على اقتناع، كما أشرنا إلى ذلك، بأن الطفل كان كائنًا شاذًا ومتقلب الوجوه. مع ذلك، فقد أسهم فرويد في زيادة تفكيك عالم الطفولة بوصفه للجنسانية الطفولية على أنها «قابلية للشذوذ وتقلب الأوجه»، واستخدام مصطلح الـ Sexualtheorie - نظرية الجنسانية - يدل عن وجود نية مبيّتة لإيجاد قطيعة مع المقاربات السابقة بما أن فرويد كان يشير من خلال ذلك، إلى الفرضيات المطروحة من طرف العلماء، وإلى «النظريات» أو الاستعراضات المجنحة الخيالية من ابتكار الأطفال - وأحيانًا من طرف البالغين -، من أجل حلّ أحجية المعاشرة الجنسية، والتناسل، والإنجاب، والاختلاف بين الجنسين.

إن فرويد بتلاعبه بهذا الالتباس، قدّم وصفًا مطعّمًا بالفكاهة، عن النشاطات الجنسية عند الأطفال، ومن دون استخدام أي مصطلح نفساني، استنفر له جميع معلوماته التي تراكمت لديه حول هذا الموضوع، إمّا من طفولته، وإما بالاحتكاك مع أبنائه بالذات، وها هو يستذكر دون حرج ولا إفحاش «المصمصة»، وتلك الألعاب مع التبرز، والتغوط ومختلف وسائل

التبول أو التفوه بكلمات قذرة. باختصار، لقد جعل من الطفل دون سن الرابعة مخلوقًا يحب الابتهاج، وهو مخلوق عنيف وبربري، وقادر على الاسترسال مع جميع أنواع التجارب التي سوف يكون مجبرًا على تركها في سن البلوغ. ومن هنا فكرة المراحل المختلفة - الشرجية، الفموية، التناسلية، وفيما بعد القضيبية - وهي فكرة مستعارة من القول بمبدأ التطور ومهمتها تعريف مراحل الحياة الذاتية حسب المواضيع المختارة: الخراء، الثدي، الأعضاء التناسلية.

أضاف فرويد أيضًا أن الجنسانية الطفولية لا تعرف قانونًا ولا تحريمًا، وأنها تسدد على جميع الأهداف وعلى جميع الأشياء الممكنة. ولهذا السبب فإن «النظريات» من فبركة الأطفال تشكل تفكيرًا سحريًا حقيقيًا: فالأطفال الرضع يأتون إلى العالم من المعي المستقيم، والكائنات البشرية، رجالًا كانوا أم نساءً يلدون من السرّة، الخ.

وهكذا، بأسلوب صافٍ ومباشر، اقتلع فرويد ضمن هذا السياق الـ Libido sexualeis - الليبيدو الجنساني من الخطاب الطبي ليجعل منه المحدد الجبري الأكبر لعالم النفس: فغاية الجنسانية عند البشر، كما كان يقول، ليست الإنجاب وإنما ممارسة متعة مكتفية بذاتها وتبتعد عن النظام الطبيعي. إن الجنسانية تستند إلى نزوة (دافع)، تتجلى من خلال رغبة تسعى لتحقيق الإشباع بانصبابها على موضوع، بالتأكيد، يجب التحكم بها، إنما ليس استئصالها من خلال عقوبات جسدية.

عند بنائه لمذهبه الجنسي حول مصطلحات النزوة[211]، والليبيدو، والمرحلة، والرغبة أو السعي نحو موضوع، حرر فرويد الطفل - وبالتالي البالغ - من جميع الاتهامات التي دعمتها الممارسات التطبيقية الطبية في نهاية القرن التاسع عشر والهادفة إلى قمع مظاهر جنسانيته، لا سيما تلك المستمدة من «التربية السوداء»، وهكذا فالطفل الممارس للعادة السرية بات يُنظر إليه، ضمن هذا المنظور، ليس كبدائي يجب لجم غرائزه السيئة، وإنما باعتباره الأنموذج الأساسي للكائن البشري قيد الصيرورة. لقد أضفى فرويد صفة الأمور الطبيعية على «الانحراف الجنسي» حين حرره من كل مقاربة على أساس أنه حالة مرضية أو استعداد فطري يمكن تشبيهه بـ«نقيصة» أو «انحطاط».

وانتهى به الأمر، بطبيعة الحال، إلى تحليل الشذوذات الجنسية بما يخص البالغين، جميع تلك الممارسات التي كانت تُعالج حينذاك بطريقة شديدة الصخب على أيدي أطباء الجنس في عصره (الميل نحو الأطفال، الميل نحو جزءٍ ما إلى حد العبادة، الميل إلى الحيوانات، والسادو -

مازوشية، والمثلية، إلخ.)، غير أن فرويد لم ينظم جدولًا لهذه الحالات، وإنما راح يبذل جهده لإرجاعها إلى بنية مرتبطة بمرحلة ما من مراحل التطور الذاتي. ضمن هذا الإطار على وجه الخصوص، جعل من المثلية الجنسية، ليس مجرد أنها نتيجة لثنائية جنسية حاضرة عند جميع بني البشر، بل وأنها مكوّن مكتسب من مكونات الجنسانية البشرية: ميل لا شعوري يشمل الجميع من دون استثناء، ومن هنا تلك المقولة الشهيرة التي سبق أن فكر بها في عام 1896: «العصاب يمكن أن نصفه بأنه نيغاتيف صورة الشذوذ».

من خلال هذا الكتاب، الذي جرت عليه تعديلات كثيرة، فتح فرويد الطريق لتطور التحليل النفسي للأطفال والطريق إلى إعمال التفكير العريض بخصوص التربية الجنسية، وراح يترافع عن أن المجتمع يجب عليه أن يلتزم بالتسامح حيال مختلف أشكال الجنسانية - لا سيما المثلية الجنسية -، وكان يلح بإصرار كي لا يكذب البالغون على الأطفال حين يسألون عن أصل مجيئهم.

وهكذا بدأت تفرض نفسها طريقة أصيلة بخصوص التفكير حول شمولية الحالة الجنسانية، وعلى امتداد سنوات وسنوات، أسهمت هذه الطريقة في الوقت نفسه بالقضاء على علم الجنس - علمًا بأنه كان الرحم الأولى لها - وكذلك، في النصف الثاني من القرن العشرين، بانطلاق أعمال المؤرخين والفلاسفة المهتمين بتاريخ الجنسانية في الغرب، من ميشيل فوكو إلى توماس لاكور مرورًا بجون بوزويل.

مرّة جديدة، أقنع فرويد نفسه بأن كتابه الجديد كان محكومًا عليه إثارة فضيحة منذ أن نُشر وأنه سوف يجعل من كاتبه «فاقد الشعبية بصورة تامة». ولدى كل طبعة جديدة، كان يشتكي من الاستقبال السيء الذي يُقابل به، وفي الحقيقة في عام 1905، لاقى الكتاب ترحيبًا في أغلبية المقالات المؤيدة، مع العلم أنه لم يُوزع بشكل واسع. على كل حال وبعد سنوات لاحقة، ومع انتشار مذهب التحليل النفسي في المجتمعات الغربية - من خلال حركة تشكلت ومطبوعات جديدة -، باتوا ينظرون إليه بنظرة مختلفة معتبرين إياه كتابًا سيئًا، فاحشًا، إباحيًا، مثيرًا للفضيحة، إلخ.

وهكذا إذًا حين بدأت الفرويدية تلاقي اعترافًا عالميًا، ظهرت في مواجهتها اتهامات التعميم الجنساني. ومقاومة هذه النظرية حول الجنسانية، من خلال «ثلاث دراسات»، أصبحت حينذاك دليلا البيّن على تقدمها الفعّال[212].

بتاريخ 1909، ها هو أدولف ألبريخت فريدلاندر، الطبيب النفساني الألماني[213]، يهاجم التحليل النفسي هجومًا عنيفًا مؤكدًا أنه مدينٌ بنجاحه إلى «عقلية فيينا» المزعومة، والتي أضفت على الجنسانية أهميةً عظمى. لقد تمسك بقولته تلك بالموضوع القومي، موضوع الـ«عبقرية الوطنية»، التي انتشرت انتشارًا كبيرًا منذ ولادة معاداة السامية وعلم نفس الشعوب، حيث راج الزعم بأن كل أمة يمكن لها ليس مجرد أن تكون مختلفة عن سائر الأمم بل ومتفوقة عليها، على هذه القاعدة أمكن استخدام الاتهام بالتعميم الجنساني كوسيلة هجوم للحركة المعادية للفرويدية في بداياتها عند انطلاقها الموسع، وهذا المصطلح كان المقصود منه التأكيد بأن ذلك المذهب لم يكن سوى التعبير عن ثقافة تريد أن تتحكم بغيرها.

وفي فرنسا، البلد الذي يعيش رُهابًا جرمانيًا بصورة استثنائية، دُمجت النظرية الجنسية الفرويدية برؤية بربرية لجنسانية، قالوا عنها بأنها جرمانية، «توتون» أو بوش. وفي وجه تلك الثقافة الألمانية، وضعوا الإشراق الديكارتي المزعوم بخصوص «الحضارة» الفرنسية[214]، بينما أنهم، في البلدان الإسكندنافية وفي ألمانيا الشمالية، اتهموا الفرويدية على العكس بأنها تعطي امتيازًا لتصور «لاتيني» حول الجنسانية، لا يمكن الترحيب به من طرف «العقلية» الشمالية.

في تلك الفترة تحديدًا استقبل فرويد استشارات قصيرة من شخصيات تنتمي إلى العالم الفني، وكانت تتشوق لمقابلته، وتركت عنه شهادات أصيلة، لوحات ينكشف من خلالها حماس رجل شديد الثقة بقدرته على فك الأحاجي والطلاسم.

بتاريخ 1905، ها هو الشاعر السويسري الشاب برونوغوتس، وكان يتابع في فيينا محاضرات حول الهندوسية، وكان يعاني معاناة عنيفة من آلام عصبية في الوجه، كان فرويد قد قرأ بعضًا من قصائده، لمدة ساعة، حدثه غوتس عن أبيه، قبطان أعالي البحار، وعن غرامياته التعيسة مع بعض الفتيات ومع أحد البحارة وكان يلتهمه بالقبلات. أجبره فرويد في البداية على أن يسترجع ذكرى من طفولته مرتبطة برب البحار بوسيدون وقال له بأن حالته غير مناسبة للتحليل. في الختام، بلهجة أبوية، أشار عليه بأن يأكل جيدًا، وأن يتناول اللحوم، وأعطاه وصفة طبية ومغلفًا يحوي مائتي كورونا: «هذه إكرامية صغيرة للفرح الذي حركته في نفسي أشعارك وحكاية شبابك».

في وقتٍ لاحق غير بعيد عن ذلك التاريخ، عندما رآه من جديد، حذره من قراءة البهاغافاد - جيتا، لأنه خطرٌ عليه وسوف يغرقه في حالة من

التلاشي، كانت الآلام العصبية قد توقفت: «أنا طبيب، قال له، وبودي تقديم المساعدة قدر ما أستطيع لأولئك الناس العديدين جدًا والذين يعيشون في يومنا هذا في جحيم داخلي، ولا يعيش هؤلاء الناس في جهنم في مكانٍ آخر، وإنما هنا تحديدًا، على سطح الأرض. وهذا ما كان شوبنهاور قد رآه وكان محقًا في رؤيته، معلوماتي، ونظرياتي، وطرائقي يجب عليها أن تجعلهم واعين لتلك الجهنم، كي يكون بإمكانهم الخلاص منها، فالناس تحديدًا إنما يتمكنون من تعلم ما يمكن أن يكون عليه الفن مجددًا عندما يصبح بمقدورهم أن يتنفسوا بحرية، في يومنا هذا، هم يتعاطون الفن كما لو كان مخدرًا، للخلاص، ولو لم يكن إلّا لساعات قليلة، من عذاباتهم، الفن عندهم هو نوعٌ من المشروبات الكحولية القوية[215]».

بعد عام، استشار برونو والتر، قائد أوركسترا أوبرا القصر الإمبراطوري، فرويد بصدد ألم عصبي في الذراع يعيقه عن العزف على البيانو وعن قيادة الموسيقيين، وبدلًا من أن يبدأ معه علاجًا، نصحه فرويد أن يقوم برحلة إلى صقلية، وهذا ما أتاح للموسيقي أن يكتشف، وهو بحالة انبهار، المعابد الإغريقية من دون أن يشفيه ذلك من أوجاعه. لدى عودته، استعان فرويد بالإيحاء كي يجرب أن يأخذ على عاتقه «مسؤولية» وجعه، وأقنعه بألّا يعود إلى التفكير بذلك الوجع، وكان أن توصل والتر إلى نسيان أوجاعه. لاحقًا، لجأ إلى علاج ذاتي، استوحاه من كتاب الطبيب الرومانتيكي إرنست فون فختيرسليبن حول حمية النفس. وهكذا تغلب على علته، وبقي يكن لفرويد الإعجاب، ونصح صديقه غوستاف ماهلر الذي، من جانبه غرق في الكآبة، بأن يقابله[216].

وبعد إلغاء مواعيد عديدة، التقى الرجلان أخيرًا في ليد، بتاريخ 26 أغسطس/آب 1910، لمدة أربع ساعات، وهي الفترة اللازمة لمسيرتهما الطويلة في شوارع المدينة. «أفترض، قال فرويد لماهلر، بأن أمك اسمها ماريا، بعض تعابيرك، في هذا الحديث، تجعلني أفكر هكذا. كيف إذًا تزوجت من امرأة تحمل اسمًا آخر، آلما، ما دامت أمك قد لعبت بكل وضوح دورًا رئيسيًا مهيمنًا في حياتك؟» وكان جواب ماهلر أنه قد اعتاد على مناداة امرأته باسم ماريا (وليس آلما)، أثناء الحديث، توصل ماهلر إلى فهم السبب الذي يجعل موسيقاه «مخرِّبة» بسبب التسلل المكرر لميلودي تافه القيمة. فهو في طفولته، عقب مشهد عائلي شديد العنف بين أبيه وأمه، فرّ من البيت إلى الشارع وسمع أورغ يعزف لحنًا شعبيًا من ألحان فيينا: فهذا اللحن كان قد ثبت في ذاكرته ويعود بصورة ميلودي مضجر[217].

لم يكن فرويد ليرى بعد أن في صميم ذلك العصر الجميل الذي، حلم

كثيرًا بالتفتح العظيم لأوربا التنوير، ضمن سياق تقدم التصنيع والديمقراطية، بدأت ترتسم ملامح، كما لو كانت نذيرًا متجهمًا، كراهية الأمم بعضها لبعض، ما سوف يؤدي بها عن قريب، من خلال الحرب العالمية الأولى إلى تلاشيها.

إن البرجوازية، لكثرة ما تأملت نفسها في مرآة ضجرها، وهي البرجوازية الأكثر ثقافةً في العالم الغربي، كانت قد صرفت النظر عن أن تأخذ بعين الاعتبار البؤس الكبير عند الشعوب، والتحليل النفسي، المبتكر على يد يهودي من الهاسكالا، هذا العلم التوتون - الألماني القديم - في نظر البعض، واللاتيني في نظر الآخرين، بدأ يعاني تداعيات تلك الحالة: «لم نكن نرى الإشارات النارية على الجدار، كما سوف يكتب ستيفان زفايغ بصدد/عالم الأمس/ ذاك، ولأننا، من دون وعي كما كان حال الملك بالتازار في غابر الأيام، نتجرّع ونملأ أفواهنا بمأكولات الفن اللذيذة، من دون أن نلقي نظرة قلقة على المستقبل، ونحن لم نعترف، إلّا تحديدًا عندما، بعد سنوات، راحت السقوف والجدران تنهار فوق رؤوسنا، بأن الدعائم كانت مدمرة ملغومة منذ فترة طويلة، وأننا مع قدوم القرن الجديد بدأنا نرى بداية تدمير الحرية الفردية في أوربا[218]».

---

190 حديث غير منشور، أرشيف ماري بونابرت.

191 انظر جان - إيف تاديبه، «البحيرة المجهولة. بين بروست وفرويد»، باريس، غاليمار، 2012. أمّا حول علاقات فرويد مع الكتّاب الفرنسيين - أندريه جيد، رومان رولان، أندريه بروتون، الخ. -، انظر إليزابيث رودينيسكو، HPF - JL، المصدر السابق.

192 جاك لوريدر، «يهود فيينا في العصر الجميل»، باريس، ألبان ميشيل، 2013.

193 سيغموند فرويد، وساندور فيرينتزي، «المراسلات»، الجزء الأول: 1908 - 1914، المصدر السابق، رسالة 8 يونيه/ حزيران 1913، ص. 519 - 520.

194 ألفريد كوبين، «تفكير متمعّن»، 1902، لقد أشار بيتر غاي إلى هذا التفصيل إشارة واضحة...

195 شهادة جوديث هيلر - برناي، مارس/ آذار 1953، LoC, pox 120, folder 36.

196 مارتن فرويد، «فرويد والدي» (1958)، باريس، دونوي، 1975، ص 54 - 55.

197 سيغموند فرويد، «العلاج النفسي في الحياة اليومية» (1905)، باريس، غاليمار، 1997، وفيه مقدمة رائعة بقلم لورانس كاهن.

198 كان ذاك هو أول كتاب قرأته لفرويد بناءً على نصيحة والدتي قبل أن أتناول الكتاب الكلاسيكي لليوناردو دافنشي.

199 بشأن أوتو غروس، ابن هانز، انظر لاحقًا.

200 «بمثل هذه الأشباح، الهواء الآن متخم / حتى أن أحدًا لا يعلم كيف السبيل إلى تجنبها».

201 سيغموند فرويد، رسالة بتاريخ 8 مايو/ أيار 1901، في «ولادة التحليل النفسي»، المصدر السابق، ص 293 - 294، و«رسائل ويلهيلم فليس»، المصدر السابق، ص 556.

202 المصدر السابق، ص 556. الشعار المنقوش على أسلحة البطل باريس: «هزمته الأمواج لكنه لم يغرق».

203 سيغموند فرويد، «قلبنا يميل نحو الجنوب»، المصدر السابق، ص 132.

204 المصدر السابق، ص 15.

205 كارل أ. شورسكي «عن فيينا وأماكن أخرى» (1998)، باريس، فايار، 2000، ص 264.

206 رسالة إلى مارتا في 4 سبتمبر/أيلول 1904، في «قلبنا يميل نحو الجنوب»، المصدر السابق.

207 في رسالة بتاريخ 1936، سوف يروي فرويد لرومان رولان الاضطراب الذي شعر به ذلك اليوم عند قمة الأكروبول، انظر سيغموند فرويد، «اضطراب في الذاكرة فوق قمة الأكروبول» (1936)، في «ثماني دراسات حول الذاكرة واضطراباتها»، باريس، غاليمار، 2010، ص 41 - 61. لقد أثيرت تعليقات وشروح لهذا النص مرات عديدة، فهنري راي - فلود يفسر تلك الظاهرة الغريبة كنقطة «ذهانية» في العالم النفسي لفرويد، انظر «لا أفهم عمّا تكلمني»، باريس أوبييه، 2014. وانا من جانبي قد أقول أيضًا بأن الواجب يقضي بقراءة هذا النص كتأمل حول «يوسف»، الشخصية التوراتية، إنما أيضًا شقيق بونابرت، بخصوص المبدأ الناظم لليهودية وحول قضية الحياة التي سبق أن عاشها الإنسان كما سوف يقول توماس مان.

208 سيغموند فرويد، «الكلمة الذكية المبطنة في علاقتها مع اللاشعور» (1905)، باريس، غاليمار، 1988، ولم يعدل فرويد أي شيء في ذلك الكتاب، كما فعل بخصوص الكتابين الآخرين من الطينة نفسها.

209 تيودور ليبس «- Komik und Humor Eine psychologisch asthetische Untersuchung» (1898)، أعيدت طباعته، دوغما، 2013.

210 سيغموند فرويد «الكلمة الذكية»، المصدر السابق، ص 411. جاك لاكان حوّل الـ Witz إلى مفهومٍ ذهني وقدم توصيفًا للكتاب على أنه «نص ديني»، وقد استلهمه إلى حدٍ بعيد من أجل تعريف تصوّره عن الدالّ، إلى الحد الذي جعله يقترح ترجمة هذه المفردة بـ«طرفة». وفي اللغة الإنجليزية اختار جيمس ستراشي مفردة Joke.

211 نستخدمه هنا لأول مرة.

212 عالجتُ هذه المسألة في HPF-JL، م، سابق، انظر أيضًا، «قاموس التحليل النفسي»، م، سابق.

213 أدولف ألبريخت فريدلاندر، «الهستيريا والتحليل النفسي الحديث»، في «مجلة الطب النفسي»، مقررات المؤتمر العالمي السادس عشر للطب، بودابست، 1909، الجزء 12، ص 146 - 172.

214 مقولة العبقرية الوطنية والتعميم الجنساني عاد إليها بيير جانيه أثناء المؤتمر الشهير في لندن، وقد عارض بها جونز ويونغ، «التحليل النفسي»، تقرير المؤتمر السابع عشر للطب في لندن، «يوميات علم النفس»، الجزء 11، مارس/آذار - أبريل/نيسان 1914، ص 97 - 130. وHPF - JL، م، سابق.

215 برونو غوتس، «ذكريات عن سيغموند فرويد»، في «فرويد: أحكام وشهادات»، باريس، PUF، 1978، ص 221 - 222.

216 برونو والتر، «فكرة وتنويعات»، لوزان، فوتيخ، 1952، أندري هاينال، «فرويد المعالج بالتحليل النفسي، دراسة تاريخية»، مجلة «العلاج بالتحليل النفسي»، 4، 2007، ص. 239 - 242. إن «مداواة» غوستاف ماهلر جرى الحديث عنها مرات عديدة.

217 المصدر السابق، و«قاموس التحليل النفسي»، المصدر السابق.

218 ستيفان زفايغ، «عالم الأمس» (1944)، باريس، بيلفون، 1993 ص 91.

الفصل الثاني
مريدون ومنشقّون

إن التحليل النفسي، هذا العلم الغريب الذي يقف في منتصف الطريق ما بين الأركيولوجيا، والطب، والتحليل الأدبي، والأنثروبولوجيا، والسيكولوجيا التي تحفر في أكثر الأعماق حميمية، لم يقلّصه مبتكره أبدًا ليكون محض مقاربة عيادية للنفس. بل أراد فرويد، دفعة واحدة، أن يجعل منه، نظام تفكير كامل الأهلية، وهو نظامٌ قادر على أن تحمله حركة سوف يغدو، ليس رئيسها، وإنما أستاذها، وهكذا فقد رفع لواء تعليمه ليكون ضمن ميراث المدارس الفلسفية الكبرى في بلاد الإغريق القديمة، بعد أن أضيف إليها عرفٌ مدني من المسيانية اليهودية - المسيحية، وفي عصر تطورت أثناءه الحركة النسائية، والاشتراكية، والصهيونية، راح فرويد يحلم، هو أيضًا، باقتحام أرض ميعاد جديدة، وذلك بتحوله ليكون سقراط الأزمنة الحديثة. وفي سبيل إنجاز مشروعه لم يكن يستطيع الاكتفاء بتعليم جامعي، بل كان عليه أن يؤسس حركة سياسية.

عندما بلغ سن الأربع والأربعين، كان قد اكتسب شهرةً في قلب حركة واسعة من التجديد في علم النفس والطب النفسي الحيوي، التي كانت تجتاز أوربا منذ نهاية القرن التاسع عشر، على خلفية صعود قوة عدم إيمان وتشكيك بالأوهام الدينية، وهكذا راح يجمع من حوله، بدايةً بصورة غير منسقة، حلقة من المريدين الذين، في معظمهم لم يكونوا بمستوى واحد في الوسط الأكاديمي في فيينا، كان رودولف ريتلر، طبيب العلاج بالمياه المعدنية، من أبناء عائلة برجوازية كاثوليكية، هو أول طبيب لامع في ذلك المجمع، وأما ماكس كاهان، الطبيب الكئيب والناطق بالفرنسية من أصول رومانية، صديق الشباب لفرويد، وهو مشغوف بالتنويم المغناطيسي وبالعلاجات المختلفة، وهاهو يرافق بدايات الحركة دون أن ينتسب مع ذلك إلى المفهوم الفرويدي عن الجنسانية[219].

وفي خريف 1902، أسهم ريتلر وكاهان، مع ألفريد أدلر وويلهلم ستيكل، بتأسيس جمعية الأربعاء السيكولوجية (psychologische mittwochs gesellschqft PMG)[220]، وهي أول حلقة في تاريخ التحليل النفسي، وسرعان ما لحق بهم بول فيدرن، الذي كان يشبّه نفسه من دون حرج بالرسول بولس أو بضابط ملحق بجيش التحليل النفسي، ومن بعده هوغو هيلر، ناشر وصاحب مكتبة، ثم ماكس غراف، باحث موسيقي، وإدوار هيرشمان، مؤرخ متحمس بشراسة للتحليل النفسي،

وأخيرًا ايزيدور سادجر وابن أخيه فريتز فيتيلس، وكلاهما من المتعصبين تعصبًا أعمى للفرويدية ومن النافرين الكارهين للنساء[221].

إن هؤلاء الرجال، الغارقين بعقلية فيينا، والذين هم في معظمهم من اليهود، بأعمار في حدود الثلاثين - مواليد ما بين 1865 و1880 - اعتادوا على الاجتماع يوم الأربعاء مساءً بعد تناول العشاء في بيت فرويد، في كل جلسة، جالسين من حول طاولة بيضاوية، كانوا يخضعون للطقس نفسه: إذ يضعون في إناء أسماء المتكلمين القادمين ثم يصغون بصمت إلى محاضرة ذاك الذي يكون اسمه قد سحب بالقرعة، خلال استراحة قصيرة، كانوا يشربون القهوة ويتناولون حلويات لذيذة. وها هم حينذاك يغرقون في مناقشات لا نهاية لها وهم يدخنون بنهم السيجار والتبغ: كان محظوزا عليهم قراءة صفحة مكتوبة مسبقًا، ولم يكن لأي امرأة أن تأتي وتثير الاضطراب في تلك المأدبة التي كان فرويد، رغمًا عنه، نبيها الدنيوي، في تلك الأزمنة، ولفترة قصيره جدًا، كانت الكلمة الأخيرة له وكان يحظى من كل عضوٍ بالتقدير والتبجيل الكبير، ولولا الحوار الذي قام في ذلك الوقت بين فرويد والجيل الأول من مُريديه ما كان يمكن له أبدًا أن يغني كتبه، مثلما فعل، حين راح يعدلها من دون توقف على ضوء ما كان يأتي به كل عضو.

هؤلاء الرجال الذين لم يمارسوا بعدُ المعالجة بالتحليل النفسي كانوا يشبّهون أنفسهم في أغلب الأحيان بفرسان القصر، فهم كمثقفين وكمناضلين كانوا يمثلون أفضل تمثيل ثقافة أوربا الوسطى. وهم بتأسيسهم لهذا المجمع، كانوا يسعون إلى تهدئة ماعندهم من قلق وإلى إعطاء حضور محسوس لأحلامهم الموجّهة نحو عالمٍ أفضل، حين كانوا يتكلمون عن الحالات العيادية عندهم، كانوا في أغلب الأحيان يرجعون إلى أنفسهم بالذات، إلى حياتهم الخاصة التي هي غالبا مشوشة، إلى أنسابهم العائلية المعقدة، وإلى حالاتهم العصابية، كما إلى هويتهم اليهودية، وإلى اضطراباتهم النفسية والجنسية، وإلى ثورتهم على آبائهم وغالبًا إلى كآبتهم العميقة.

بكلمة مختصرة، كانوا يشكلون نوعًا من عائلة موسعة ويشبهون مرضاهم الذين كانوا ينتمون إلى الطبقة الاجتماعية نفسها، ومن بينهم عددٌ تم علاجهم على يد فرويد، ومن بينهم عديدون اعتادوا على مُداواة أقاربهم أو توجيههم نحو عيادة المعلم أو إلى عيادات زملائهم، وها هي زوجات، وعشيقات، وشقيقات يصبحن هكذا مريضات ثم يتحولن لاحقًا إلى معالِجات. وأما في ما يخص أبناء أعضاء هذه الحلقة الأولى، فكانوا

أول من أجري عليهم العلاج الفرويدي، الذي لم يصبح فعليًا ما بينهم إلّا بعد 1904.

وهكذا فإن الباحث الموسيقي ماكس غراف، من فيينا، تعرّف على فرويد عن طريق أولغا هونيغ[222] وكانت مريضة يعالجها هذا الأخير بتاريخ 1897، في اللحظة التي تم التخلي فيها عن نظرية الغواية، وقد انتحر شقيقا أولغا وهي نفسها عانت من عصاب شديد، حين قام ماكس بزيارة فرويد، سأله إن كانت حالة الفتاة العقلية تسمح له بزواجها. وباركهُ فرويد، وبتاريخ 1902، التحق غراف بجمعية الأربعاء. بعد ستة أعوام من ذلك التاريخ، بإشراف فرويد، وجّه عملية مداواة ابنه هيربر، كان قد بدأ بتدوين مذكرات حول الطريقة التي تكلم بها الولد عن الحياة الجنسية طارحًا أسئلة مباشرة ومسترسلًا مع ملامسات لـ«عضوه الصغير». وتحت اسم «هانز الصغير»، سوف يصبح هيربر غراف حالة طفولية، وسوف يوفر انطلاقة حاسمة للتحليل النفسي للأطفال، وهكذا كان فرويد قد عالج الأم، ثم عندما أصبح الأب تلميذه، قَبِل أن يكون، محللًا لابنه تحت إشراف فرويد، في تلك البدايات، لم يكن تاريخ التحليل النفسي يمثل سوى أنه عائلة يعادُ تركيبها[223].

كان ستيكل طبيبًا وكاتبًا غزير الانتاج، وكان يعتبر فرويد مسيحًا وهو رسولٌ له ُ. وقد تبنى المقولات الجنسية لمعلمه بتعصب عادَ به إلى مشاكله العصابية الشخصية. كان يعاني من هاجس مرضي بشأن العادة السرية، وقد عالجه الهر بروفسور لمدة ثماني جلسات من دون أن يتخلص من أعراضه. كان فرويد معجبًا بموهبته وبإبداعه وقد استعار منه بعض الأفكار التي سوف يجعلها تثمر في مؤلفاته: حول الحلم بصورة خاصة، وحول الكبت، مع ذلك عَبرَ سريعًا جدًا، حياله، عن شعور قوي بالإحباط، حتى أنه راح ينظر إليه باعتباره «مجرد خنزير» وأصبح يشعر بالرغبة الملحة كي ينفصل عنه[224].

إذا كان ألفريد أدلر أول أكبر منشق في تاريخ حركة التحليل النفسي، التي انفصل عنها بتاريخ 1911، فذاك لأنهُ، على عكس ستيكل، لم ينتسب أبدًا إلى مقولات فرويد، في وسط جمعية الأربعاء تلك، كان قد بدأ يبلور منظومة تفكير أصيلة متمحورة على أولوية قيمة الأنا - علم النفس الفردي - وهو غير مدين بهذا الأمر لمن كان صاحبهُ ومنافسه ُ طوال تسعة أعوام كانت أصوله من عائلة تجار يهود من الطائفة الناطقة باللغة الألمانية في برجنلاند، وهي مقاطعة أكثر ازدهارًا من منطقة غاليسيا الشرقية. وهكذا كان أدلر يعلق أهمية أكبر بكثير على علاقات الجماعة والأخوة من

العلاقات على أساس الانتساب العائلي أو الأشتغال بالطب النفسي. وبينما كان فرويد يجعل من العائلة حجر الأساس في نظريته، إلى درجة جعلته يطبق عقدة أوديب على جميع المجتمعات فإن أدلر كان يعتبرها جماعة متغيرة قوامها يجب أن يكون موضع دراسة من طرف علم الاجتماع، والتاريخ، والأنثروبولوجيا. في رأيه، كان العصاب ناجمًا عن الصراع بين الأنثوي والذكوري ويصدر هذا العصاب من شعور بالنقص مكبوت منذ العلاقة الأولى للطفل مع الجنسانية، وكان أدلر يهتم بالماركسية وخالط ليون تروتسكي بعد أن تزوج رايسا أبستين، والتي كانت هي نفسها تتردد على صفوف الأنتلجنسيا الروسية. بالإضافة إلى هذا الأمر، كان من المستحيل عليه أن ينظر إلى فرويد، الأكبر منه بأربعة عشر عامًا، كأب يجب عليه الخضوع له من دون أي شرط.

لم يكن أدلر في يوم من الأيام فرويديًا ولم يستطع في يوم من الأيام القبول بميثولوجيا عائلة لاباسيد، ليس هذا وحسب وإنما أيضًا لم تكن علاقته مع أصله اليهودي كما كانت علاقة فرويد. فعلى الرغم من أنه لم يكن لتحزكه، مثل كارل كروس أو أوتو فيننجر، عاطفة «كراهية الذات اليهودية»، فقد أراد، بتاريخ 1904 التخلص من وضعه كيهودي وذلك باعتناق البروتستانتية، دون أن يمنعه ذلك من أن يعيش حياة مفكر حر من أتباع الاشتراكية الإصلاحية[225]. منذ تلك الحقبة، تنبه إلى أنه لن يستطيع أن يكون مريدًا كما حال باقي أعضاء المجمع. ولهذا السبب، بدأ يشكك بفكرة كون الجنسانية مسببًا ومحوزًا مركزيا ً لمذهب سيكولوجي يتمحور هو نفسه أيضا حول تصور شبه أنطولوجي حول العائلة، وتثبيت الطفل مع الجنس الآخر من الأبوين وفق علاقة سفاحية، ولذلك فإن الحرب، ومن بعدها القطيعة بين الرجلين كانت لا مهرب منها، فأحدهما بورجوازي أنيق وصاحب ثقافة أدبية، ويحمل ألقابًا جامعية، وهو واثقٌ من عبقريته، يريد أن يأسس جيشًا من الدعاة؛ والآخر، أقل تألقا ً ويعاني من عدم الاعتراف الأكاديمي به وهو يسعى لتأسيس منتدى للنقاش وتبادل الرأي: «نظريات أدلر تبتعد ابتعادًا كثيرا ً عن الطريق المستقيم. وقد آن الأوان لمجابهتها. إنه يتناسى أقوال الرسول بولس التي تعرفونها أفضل مني: إذا لم تكن لديكم المحبة... لقد ابتكر لنفسه منظومة شاملة، من دون محبة، وأنا على وشك أن أقيم عليه حد انتقام الربّة «ليبيدو» بعد أن أهينت[226]».

بتاريخ مايو / أيار 1906، قدم بعض المريدين إلى فرويد، بمناسبة عيد ملاده الخمسين، ميدالية برونزية نقشها كارل ماريا شويرتنر وهي

مستوحاة من رسم شهير **jugendstil** (من الفن الحديث) وهو من إنتاج برتولد لوفلر، ويستخدم كواجهة أمام الهر - بروفسور[227]، على وجه الميدالية نقش النصف العلوي الجانبي لفرويد وعلى القفا تشخيص بأسلوب فني لموقف أوديب أمام الوحش على باب طيبة. فهذا الأوديب القادم من فيينا، المستند إلى عصا، المتأمل والمفتول العضلات، لم يكن يشبه أي صورة معروفة عن شخصية سوفوكليس، وكذلك الوحش الزابض وقد أعطي ملامح امرأة حديثة ساحرة إلى حد ما، ونصفها العلوي أقل أهمية من النصف الإنساني السفلي، والنقش المحفور باليونانية قام باختياره فيدرن، ولا علاقه له بتاتًا بـ«عقدة أوديب» وإنما بالمعنى الحقيقي لدى سوفوكليس: «ذاك الذي حلَ اللغز الشهير وأصبح رجلًا يمتلك سلطةً عظيمة».

لدى قراءة هذه الكلمات، بدا وكأن فرويد نسي لبرهة تأويله الملتوي لتراجيديا سوفوكليس كي يسترجع بتأثر الذكرى، أثناء دراسته الجامعية، أنه أعتاد أن يراقب الجذع العلوي من الأساتذه الشهيرين قائلًا لنفسه بأنه في يوم من الأيام، ربما، سوف يكون له جذع ٌ منحوت، ومن تحته هذه العبارة الشهيرة[228].

في تلك السنة، بعث الناشر هوغو هيلير قائمة أسئلة إلى فرويد وكذلك إلى العديد من المفكرين الآخرين طالبًا منهم تسمية عشرة كتب يحبون أن تكون دائمًا بجانبهم، وكان جواب فرويد في يوم عيد القديسين، حيث أصر على التأكيد للناشر بأنه لا يهتم شخصيًا باختيار روائع الكتب الأدبية العالمية، وإنما بالأحرى كتب أصحاب وأصدقاء هو «مدين لهم بجانب من معرفته بالحياة وباستعراض العالم».

وهاهو يقدم عشرة أسماء وعشرة عناوين لا ترابط بينها: مولتاتولي (الاسم المستعار لأدوار ديكر)، الرسائل والأعمال؛ روديار كبلنغ، كتاب البراري؛ أناتول فرانس، «على الحجر الأبيض»؛ إيميل زولا، «الخصوبة»؛ ديميتري ميرج كوفسكي، «رواية ليوناردو دافنشي»؛ غوت فريد كيلر، «رجال سلدويلا»؛ كونراد فردينان ميير، «أيام هوتن الأخيرة »؛ توماس بابنغ تون مكولي، « دراسات»؛ تيودور غومبرس، «مفكرو الإغريق»؛ مارك توين، «رسوم أولية»[229]. ما مجموعه كاتبان فرنسيان، وهولندي، وسويسريان، وإنجليزيان، وروسي، والنمساوي وأمريكي، وكلهم مرتبطون ومتعلقون بتقاليد التنوير. فكتاب عن جمال البراري مقابل ما في الحياة الحديثة من وسائل مصطنعة، وكتاب آخر مضاد للاستعمار، وآخر حول القضاء على نظام العبودية، ورابع بخصوص البحوث الأثرية، وآخر أيضًا

حول محبة بلاد الإغريق، وكتاب حول الأمومة (كاتبه كان مناصرًا كبيرًا لقضية دريفوس)، وآخر فيه تمجيد للبروسي الإصلاحي، وكتاب حول المباهج الديونيزية، والكتاب الأخير بخصوص القصص السوداوية التي يتناولها بروح متهكمة كاتبٌ كان يدافع عن اليهود، لقد قبل فرويد بذلك اللجوء إلى نوع من الاختيار المتداعي أتاح َ لقرائه ولمفسريه في المستقبل الاسترسال مع عدد كبير من التأويلات حول حياته وكتبه. وكما كان الحال مع أوديب، فإن المهتمين بحل الألغاز انصرفوا إلى عملهم بكل فرح.

في تلك الحقبة أدخل إلى حلقته شابًا عصاميًا، يبلغ من العمر ستة وعشرون عاما، متدزب في مهنة الخراطة، واسمه أوتو رانك، كان ابن جواهري مدمن على الكحول، وكانت أصوله تعود مثل أدلر إلى برجنلاند[230]، وهو مصاب بروماتيزم المفاصل ويخشى من هذا المرض مثلما يخشى من كونه دميم، وفوق ذلك كان في طفولته ضحية استغلال جنسي ويعاني من رهاب يمنعه من ملامسة أي شيء إلّا إذا كان يرتدي قفازات.

كان فرويد يحبه حبًا عميقًا واعتبره سريعًا جدًا ابنًا بالتبني، وقد دفعه للدخول إلى الجامعة وللحصول على دكتوراه في الفلسفة. لكنه على وجه الخصوص عينه أمين سر جمعية الأربعاء وكلفه بتدوين محاضر الاجتماعات، حينذاك أصبح المجمع المقر الأقدس للذاكرة، وكان رانك أول من اشتغل بأرشفتها، «في المسودات»، المحفوظة بعناية والتي نقلت إلى الأجيال اللاحقة، يستعرض بالتسلسل ولادة حركة، جاعلًا من نفسه رسولَ تفكير جدلي تبلور داخل المجمع.

بتاريخ 1907، كانت «الجمعية» ما تزال تضم واحدًا وعشرين عضوًا نشيطًا حين أعلن فرويد حلّها، ونظرًا لاهتمامه في ذلك الوقت بأن يكون موضع احترام وتوقير، وسعيًا منه لتهميش بعض أبناء فيينا من مفرطي الحماسة، ومفرطي التعصب الأعمى أو مفرطي الانشقاقات في نظره، فقد أنشأ اتحادًا حقيقيًا، الـla wiener psychoanalytique vereinigung WPV، أول هيئة للتحليل النفسي في تاريخ الحركة الفرويدية. وقد ألغى القاعدة التي كانت تلزم كل عضو بأن يستلم الكلام ضمن بعض الشروط، وأسس نظامًا داخليًا يقوم، بحكم الواقع، على وجود تسلسل بين المعلم وتلامذته، بل بين معلمين وتلامذة، إنما على وجه الخصوص، استحسن إدخال مريدين «أجانب»[231] إلى تلك الهيئة الجديدة، لا سيما ماكس ايتنغون، ساندور فيرينتزي، كارل أبراهام، كارل غوستاف يونغ، إرنست

جونز.

وهكذا تشكلت، ما بين 1907 و1910، النواة الأولى لكبار مريدي فرويد - جميعهم من الرجال - والذين، تدريجيًا، أسهموا في إعطاء الحركة طابعها العالمي، كانوا يمارسون التحليل النفسي في أغلب الأحيان بعد اتباع علاج عند هذا أو ذاك من بينهم، أو مع فرويد نفسه، أو فيدرن، أو فيرينتزي، وجاء بدلًا من المأدبة السقراطية ما يشبه أكاديمية، مخترقة بنزاعات، لكن وظيفتها على وجه الخصوص تشغيل سياسة للتحليل النفسي الذي خرج عن مركزه في فيينا وجعل وجهته أوربا، وسرعان ما توجه إلى القارة الأمريكية، وفي سبيل توفير نقل المعرفة في ميدان التحليل النفسي، أنشأ فرويد ومريدوه ثلاث مجلات بمساعدة هوغو هيلير: الـ le jahr buch fur psychanalytische und psychopathologische forschunger بتاريخ 1909، والـ le zentralblatt fur psychoanalyse medizinische monatss بتاريخ 1910، وأخيرًا Imago بعد عامين من ذلك التاريخ. كانت المجلة الأولى عامة، والثانية لسان حال الحركة العالمية، والثالثة كانت ذات إلهام أقرب إلى الناحية الجمالية[232].

إن فرويد، أثناء احتكاكه بأعضاء هذه الحلقة الجديدة، عاد إلى نشاطه المكثف بكتابة الرسائل، وهو النشاط الذي كان يفتقده منذ قطيعته مع فليس، كان يكتب يوميًا عشرات الرسائل ويعالج فيها على حد سواء قضايا نظرية، وعيادية، أو سياسية، كما كان يتطرق إلى المشاكل اليومية، في هذه الرسائل تخلى عن صيغة المخاطب بلغة المفرد، كما الحال مع أصدقاء الشباب ومع أعضاء الأسرة، وأصبح المخاطب بلغة الجمع لأن الموضوع يخص مريدين، من رجال أو نساء[233].

كان الهر بروفسور يطلب من جميع من يراسلهم أخبارًا عن زوجاتهم وأبنائهم، مهتمًا بصحتهم من دون أن ينسى أبدًا تاريخ ميلاد كل منهم، كان كل مريد يشغلُ في هذه العلاقات موقعًا فريدًا، كما كانَ يكلم كل مريد عن الآخرين بحيث يجعل بينهم علاقة تمر من خلاله، أحيانًا، كانَ يقول عبارات متناقضة في اليوم نفسه، وغالبًا يقوم بإفشاء أسرار، متعللًا بأنهُ يبوح لهذا بمكاشفات عن ذاك، والعكس بالعكس. وهكذا أصبح لدى كل مريد انطباع بأنه المفضل عند المعلم. وهؤلاء الرجال، الذين أصبحَ عليهم منذ ذلك التاريخ أن يشكلوا من حولهم مدارسَ وزمرًا من أجل إشهار المذهب الجديد، كانوا جميعًا مناضلين متفانين في سبيل القضية التي يرونَ بأنها أعظم ثورة في القرن العشرين ولم يكن أحدٌ منهم يشعر

بالعبودية، لان أحدًا منهم لم يكن يشك بعبقرية من كانوا قد اختاروه معلما. وكان فرويد يشكلُ جزءًا من عائلة كلٍّ منهم، ومن حياتهم الخاصة الحميمة، ومن قصصهم الشخصية[234].

هذا التصعيد نحو إعطاء صفة عالمية لحركة التحليل النفسي كانت في صلب، ليس مجرد نزاعاته المذهبية المختلفة أو نزاعاته الانتقالية، بل هي أيضًا في صلب بناء تاريخ رسمي قائم على «أسطورة البطل»، وعلى مَر الأيام، بدأ المحيطون بفرويد ينظرون إليه كمفكر منعزل يتعرض دون وجه حق إلى الهجوم عليه لكنهُ ينتصر انتصارًا مجيدًا على أعدائه في الخارج والداخل على حد سواء، بتاريخ 1914، أسهم هو شخصيًا في بتلك الأسطورة حين نشر مداخلة عن تاريخ حركة التحليل النفسي، حيث راحَ يؤكد بأن التحليل النفسي «شيء» يخصّهُ (die sache): «التحليل النفسي هو من ابتكاري وإبداعي فعليًا؛ لأنني، طوال عشرة أعوام، كنت الوحيد الذي اهتم بهذا الموضوع، وكل الانزعاج الذي ثارَ بسبب هذا التجديد بينَ المعاصرينَ انصبَّ على رأسي بصيغة انتقادات»[235].

بعد أحد عشر عامًا من ذلك التاريخ، بناءً على طلب من أحد الناشرين، كتبَ، ضمن هذا السياق، تعريفًا بنفسه (selbstdarstellung) وفيه عرضَ أناه - التاريخية والخلق الذاتي الذي كانَ من وراء اكتشافاته[236].

هذان الكتابان، المكتوبان بصورة رائعة، وخدا التاريخ السديمي لأصول التحليل النفسي ضمنَ سرد أسطوري مقنع، تقوم هيكلتهُ على الثنائية الفرويدية التي تشمل الأب المحتقر والابن المتمرد الذي يرتفع ويرتقي نحو قدر بطولي، في هذه الأثناء، أضافَ فرويد إلى هذا البناء الفكرة القائلة بأن التحليل النفسي، كعلم، يفترضُ تغير مركز الشخص الذي يمر بثلاثة احتكارات نرجسية[237]: ألّا يكون بعدُ في مركز الكون، ألّا يكون بعدُ خارج العالم الحيواني، ألّا يكون بعدُ سيدًا في مقر إقامته بالذات، ولأنه ُ غير راض عن تسيير مذهبه ضمنَ سياق قدر أوديبي، فإن فرويد، الذي تماهى مع هانيبعل ومع بونابرت، راح ينظر إلى نفسهِ أيضًا منذُ ذلك التاريخ على أنهُ وريث كوبرنيكوس، وهنا تأكيد جديد على همٍّ مقيم: محاولة جعل حركته قادرة على أن يكون مرجعها ملحمة منذُ الأصول - عمل بطولي، بحكاياته، وأساطيره، وتاريخه التقي، وصوره.

بتاريخ 8190 انعقد في سالزبورغ أول اجتماع كبير لـ«علماء النفس الفرويديين» الجدد، وقد اشتركَ بهذا الاجتماع اثنتان وأربعون شخصية قادمة من ست بلدان وقرروا العودة إلى التلاقي بعدَ عامين في نورمبرغ. كان فرويد قد عزمَ أمرهُ على إخراج التحليل النفسي من الـ«غيتو اليهودي

في فيينا»، ولذلك أسس حينذاك، بتاريخ 1910، مع فيرينتزي الـ Internationale psychoanalytische vereinigung IPV[238] والتي سوف يطلق عليها اسم «Verein» (الجمعية)، وكلَّف يونغ بإدارتها، في خطاب الافتتاح، استرسلَ فيرينتزي في تدريب متألق لمؤرخ رسمي حينَ ميّزَ ثلاث مراحل في حركة التحليل النفسي: الحقبة المسماة «بطولية» (1896 - 1907)، والتي خلالها كان فرويد قد أسس منتدى صغيرًا؛ والحقبة المسماة «حقبة يونغ» (1907 - 1909)، وهي التي أتاحت له ' ترسيخ قواعد التحليل النفسي ضمنَ مملكة الطب النفسي؛ وأخيرًا الحقبة المسماة «أمريكية» (1909 - 1910)، والتي جاءت كتتويج لرحلته إلى ما وراء الأطلسي.

بعد هذه الانطلاقة المجنحة، أكدَ فيرينتزي على وجوب رجوع الحركة إلى علم عقلاني، مع البرهنة على بعد نظرٍ ثاقب بخصوص صيرورة التنظيمات: «أعرف حقَ المعرفة مرض الجمعيات وأعلمُ كم يسود غالبًا في التجمعات السياسية والاجتماعية والعلمية، جنون العظمة الصبياني، والغرور، وتمجيد الشكليات الفارغة من كل معنى، والطاعة العمياء، والمصلحة الشخصية عوضًا عن عمل وجداني مكرس للمصلحة العامة»[239]. حتى تاريخ 1918، من بعد سالزبورغ ونورمبرغ، سوفَ تعقد الـ Verein مؤتمراتها كل عامين في العالم الناطق باللغة الجرمانية، عالم الإمبراطوريات: فيمار (1911)، ميونيخ (1913)، بودابست (1918)، من بعد ذلك، مع نهاية الحرب العالمية، من 1920 إلى 1936، توسعَ مدى الاختيار بنقلات شملت البلدان المنخفضة، وسويسرا، وبريطانيا العظمى: لاهاي، برلين، سالزبورغ، باد - هامبورغ، أنسبروك، أوكسفورد ويسبادن، لوسرن، مارنباد، كانَ ساندور فيرينتزي الممثل النموذجي لأنتلجنسيا بودابست، وهو ابن صاحب مكتبة يهودي من أصول بولونية، وكانَ قد ساند ربيع الشعوب حينَ اعتنقَ قضية الليبرالية. لقد تربّى على فكر التنوير على يد أب يحبهُ حتى العبادة، وكانَ قد انخرطَ بحماس في ميدان الدراسات الطبية، مع اقتناعه، كما حال مثقفي أبناء جيله بضرورة تخليص هنغاريا القديمة من أحلام أيام زمان، في سبيل تحويلها إلى بلد حديث، يشبه الديمقراطيات الغربية.

وهكذا كان منذ البداية، على عكس فرويد، منفتحًا على المناقشات الجارية في مجلات الطليعة بخصوص الفن الجديد (Jugendstil)، وتحرر النساء، والحرية الجنسية، وتوسع علوم الإنسان الجديدة، بتاريخ 1905، حين بلغَ من العمر اثنين وثلاثين عامًا، وبعدَ أن اشتغلَ في

مستشفى سان - روخ، استقرَ به المقام في عيادة خاصة حيث كان يمارس الطب العام، وطب الأعصاب، والطب النفسي، وكان في الوقت نفسه يعملُ خبيرًا لدى المحاكم، كان غارقًا في الداروينية، ومأخوذًا بالتنويم المغناطيسي، واستحضار الأرواح، والتخاطر، والسحر والتنجيم، والقصص الميثولوجية، كما كان منبهرًا بدراسة المخدرات والظواهر النفسية الجسدية. وكانت ثقافته تشمل على حد سواء الفلسفة والأدب، وقد تبنى الدفاع عن المثليين الجنسيين - الـ«السماويين» - في نصٍ شجاع قدمه إلى الجمعية الطبية في بودابست.

لقد تبنى أعمال ماغنوس هيرشفلد مستندًا له[240]، ولذلك َ دحضَ فيرينتزي جميع التهجمات ووقف في وجه نظرية الانحطاط، مضيفًا قيمة على فكرة الثنائية الجنسية الخاصة بالجنس البشري، وهو يستعرض كيفما اتفق أفلاطون، ليوناردو دافنشي، مايكل - أنجلو، أوسكار وايلد: «لا أحد يُعاقَب البشر إذا أحب َ أحدهم شخصا من الجنس الآخر، وكذلك، فإن المثلية الجنسية، ما دامت لا تسبب أي ضرر للمجتمع، لا يجوز أن يقع عليها العقاب، من حق القضاة أحيانًا حماية مصالح مجتمعنا لكن ليس من حقهم معاقبة أحدهم لقيامه بفعل ليس فيه أي أذى، إنهم بعملهم ذاك يرمون أناسًا ذوي قيمة كبيرة بتهمة غريزة شقية، بحيث يصيرون ضحية لأفراد منحطين وبؤساء. وهذا لا يؤدي إلى تحقيق مصلحة المجتمع»[241].

كان فيرينتزي شهوانيًا، وأنثويًا ويتحسس لألم مرضاه، وقد قابلَ فرويد في عام 1908 وأصبح أقرب مريديه إليه، ليس كولي عهد ولا كوريث وإنما كابنٍ بالتبني يحبهُ معلمهُ إلى حد أنهُ حلمَ بأن يقدم إليه ابنته ماتيلد زوجةً له. وكان َ فيرينتزي شخصًا متميزًا بأنه أحد «فرسان القصر»، أو أنه «الوزير الأول السري» بل حتى بصفة «منجّم البلاط»، وكان مغرمًا بزيارة عرّافات بودابست، لم يكن ليترددَ بالاسترسال في معارضات، رافضًا السلطة المطلقة لفرويد من دون أن يخطر بباله أبدًا أن يتخلى عنهُ ويغادرهُ، طوال ربع قرن، تبادلَ الرجلان ألف ومئتي رسالة: إنه كنزٌ من كنوز العيادة الطبية والنظرية وفيه مكاشفات وشهادات كبيرة القيمة بما يخص العادات والتقاليد والحياة اليومية للفرويديين في أيام «العصر الجميل». كان مهتمًا أكثر من فرويد بمداواة المرضى، وهذا ما جعله يبتكر مفهوم التحويل المضاد ولم يتوقف، على امتداد حياته، عن تعديل مبادئ المداواة وعن إدخال علاقة تقوم على تواصل خاص مع مرضاه وتلامذته.

وكما كان الحال مع غالبية مريدي الحلقة الأولى، كان يمزجُ المعالجة مع الحياة الخاصة ومع الشؤون العائلية. بتاريخ 1908، بدأ بتحليل

عشيقته جيزيلا بالو، ولم تكن قد تطلقت بعد من زوجها الأول والتي كانت ابنتها البكر، ماجدا، متزوجة من شقيقه، لايوس فيرينتزي. بعد ثلاثة أعوام من ذلك التاريخ، قرر القيام بتحليل إلما، الابنة الصغرى لجيزيلا، وكانت تعاني من خمود وإحباط ولم تقصر بالوقوع في غرامه بعد فترة بسيطة، على امتداد الرسائل، كشف لفرويد عن صعوباته، وهذا الأخير من جديد انطلق بلذة لممارسة نشاطاته كـ«خطّاب يهودي» وخبير كبير في الغراميات العائلية، فهو نفسه كان قد مرَّ أيضا بمواقف مشابهة، إمّا الوقوع في غرام فتاة تكون أمها هي التي تجذبه، وإمّا بانتزاع خطيبة من تأثير أم مع الدخول في علاقة تواطؤ مع ابنتها الأخرى وفوق ذلك، كان مستمرًا في طرح الأسئلة حول رغبة السفاح الخاصة بالجنس البشري[242]، وحول موضوع العلاقات بين الحب والتحويل، لقد خلط فيرينتزي بين الرغبة والحب، والحب والتحويل، ولذلك قررَ الزواج من إلما، مع إجباره فرويد على أن يتولى تحليل هذه الأخيرة. بعد فترة قصيرة، قام بخطوة إلى الوراء وتخلى عن ذلك الزواج بعد أن قام هو شخصيًا بتحليل التحويل المضاد عنده متمددًا على أريكة المعلم. لقد خيّل إليه أنه يحب الفتاة، بينما كان في الحقيقة يحب الأم وسوف ينتهي به الأمر إلى الزواج منها بعد أن تبيّن مدى تعلقها به، في تاريخ 1919، بعد إعادة الرسائل المتبادلة التي كانت تضم «جميع ما في التاريخ القريب من إشارة إلى تطورات التحليل النفسي»، وجه فيرينتزي إلى فرويد شكرًا عظيمًا لتعاونه: «بهذه المناسبة، فهمت في لحظة إشراق، بأنني منذ أن نهيتني عن الزواج من إلما، كنتُ قد عبّرتُ عن مقاومة لشخصك، مقاومة لم تتأكد محاولة المداوة التحليلية من التغلب عليها، وكانت مسؤولةً عن جميع الانفعالات المتهيجة عندي، غير أني، وفي قلبي ضغينة غير واعية، رأيتُ الاستمرار كـ«ابن» مخلص باتباع جميع نصائحك، فهجرت إلما، وتوجهتُ من جديد نحو زوجتي الحالية (جيزيلا)، التي تمكنت وأنا معها من الاستمرار رغم إغراءات متكررة لا عدَّ لها ولا حصر»[243].

بمقدار ما كان فرويد يظهر من مودة حيال فيرينتزي، كان يضع مسافة فاصلة بينه وبين كارل أبراهام. ف. أبراهام لطيف، وشديد الانتباه، وبليغ، ومثقف، ظلَّ مع ذلك حتى وفاته المبكرة، في 1925، من المتمسكين الأذكياء بحرفية المذهب التحليلي، فهو «صخرة من البرونز» حسب كلمات فرويد، وقد كرّس جميع جهوده لترسيخ الأفكار المشتركة في وسط الطب النفسي في برلين، كما عمل على تنظيم اتحاد صلب للأطباء المعالجين. كان المريد الوحيد الذي لا يستنجد بفرويد كي يأخذ رأيه حول بعض

القضايا العاطفية أو العلاقات الجنسية العابرة مع مريضاته، علمًا بأنه سوف يحلل ابنته هيلدا أبراهام، التي عمرها ستة أعوام، والتي سوف تصبح محللةً نفسية، وسوف يقوم بوصف «حالتها»، في مقالة بتاريخ 1913[244]. وفي ديسمبر/ ك1 1907 تحديدًا توجه إلى فيينا كي يلتقي بفرويد الذي كان قد استقبل قبل أشهر قليلة ماكس إيتنغون، القادم من زيوريخ، والذي سوف يقوم بتحليله أثناء «مشاوير مسائية».

كان ماكس إيتنغون الابن الثاني لعائلة من اليهود المحافظين ومن أصول بيلوروسيا، وهو صهيوني مقتنع بتلك الدعوة، وكان معتادًا منذ طفولته على العيش متنقلًا من مكان لآخر، كان عمره اثنا عشر عاماً حين استقر المقام بوالده، تاجر الفرو الغني، في ليبزغ وهناك قضى مرحلته الدراسية قبل الشروع، كمستمع حر بدراسات جامعية في ماربورغ ثم في هيديلبرغ، بتاريخ 1902، بعد أن اختار أن يكون طبيبًا نفسيا، تابع دراسته كمعيد في عيادة مصح برغولدزلي في زيوريخ، على يد أوجيل بلولير، وهناك تحديدًا تعرف إلى كارل غوستاف يونغ وأبراهام، ليلحق بهما بتاريخ 1909 إلى برلين حيث سوف يستقر مقيمًا إلى حين رحيله النهائي إلى فلسطين عام 1934[245]، وبتاريخ فبراير/ شباط 1920، تحديدًا بعد انهيار الإمبراطوريات المركزية سوف ينجز، إخلاصًا منه للتحليل النفسي، أكبر عمل في حياته: le berliner psychoa nalytisches institut BPI، أول معهد إعداد سوف يصبح أنموذجًا لجميع المعاهد التي سوف تنشأ من بعد ذلك في العالم قاطبةً[246]، وعلى امتداد حياته الصاخبة، وضعَ ثروته بخدمة معهده، كما اقترح أيضًا، ضمن إطار «مستوصف مجاني[247]»، معالجات مجانية لصالح المعوزين، لكنه مستوصف يتقاضى أتعابه من باقي المرضى، بتاريخ 1930، كان قد أصبح بمفرده، حسب كلمة إرنست جونز، «قلب» الحركة العالمية التحليلية بأكملها.

بموقعه فوق الهضبة الحراجية في حي ريسباخ، جنوب شرق زيوريخ، كان مستشفى برغولزلي الفسيح يستقبل، منذ تأسيسه في عام 1870، مرضى مصابين باضطرابات عقلية، وقد راعى مهندسو العمارة عند إنشاء هذا البناء أن يكون ظهره نحو البحيرة وذلك كي لا يرى النزلاء فيه الماء لأن بعضهم قد تكون لديه فكرة الانتحار. وبإشراف أوغست فوريل ثم أوجين بلولير، فرضت مقاربة جديدة للجنون، مع مطلع القرن العشرين، داخل ذلك الحصن الحصين الذي سوف يصبح، مع مرور السنوات، معبرًا إجباريًا لجميع المختصين بأمراض النفس، ضمن هذا السياق، كان من شأن انفتاح فرويد على عالم الحلم واللا شعور أن يثير حماسة: إذ كان معالجو

الجنون ينظرون إلى أعمال فيينا كتجديد كفيل بإخراج الطب النفسي من متاهة العلاج غير المجدي.

في عام 1898 مع بدء إدارة بلولير لهذه المؤسسة، كان الطب النفسي باللغة الألمانية - المشع في أوربا وفي العالم قاطبةً - ما يزال تحت هيمنة وصف الحالات المرضية كما جاء لدى إيميل كرابلين، كان هذا الأخير معاصرًا لفرويد، وقد وضع تصنيفًا متشددًا للأمراض العقلية مع احتفاظه بالمفهوم القمعي للجنون، ذلك المفهوم الذي لم يكن يسعى كثيرًا لتحسين مصير المختلين عقليًا. ورغم قوة منظومة كرابلين، كانت مع ذلك في طريقها إلى التصدع بتأثير ما تحقق من تقدم في مقاربة قائمة على الاستماع للمرضى. فالإصغاء لمعاناة المرضى، وتفهّم لغتهم، والتقاط الدلالة في هذيانهم، وإقامة علاقة تبادلية معهم: ذاك هو البرنامج العلاجي الذي راح يبشر به فريق مستشفى برغولزلي.[248]

وهكذا من خلال عمل طويل النَّفَس مخصص للخرف المبكر (Dementia braecox) والذي كان بلولير قد جمّع أطروحة عنه بتاريخ 1911، مطلقًا على هذه المقاربة اسم شيزوفرانيا، وهي نوع من الجنون متصف بتشوش التفكير وبنشاط هذياني. ومن دون التخلي عن تحليل التأثير العضوي، وضع هذا المرض في حقل الإصابات السيكولوجية ووصفه بأنه تفكك في الشخصية (Spaltung) وانطواء على الذات (autisme)[249].

ورغم أنه لم يشارك بالمفهوم الفرويدي عن الجنسانية، فقد اقترح بلولير دمج المقاربة التحليلية بعلاج حالات الذهان، ومن هنا جاء هذا التماثل: فكما كان فرويد قد غير الهستيريا لتصبح حالة حديثة من حالات العصاب، كذلك فعل بلولير حين ابتكر الشيزوفرانيا كي يجعل منها النمط الهيكلي للجنون في القرن العشرين.

عندما بدأ يونغ، حيث كان مساعد لبلولير في وقتها، اتصاله مع فرويد بتاريخ أكتوبر/ت1 1905، كان هذا الأخير يعلم منذ ذلك الحين بأن هذا اللقاء سوف يكون حاسمًا في تاريخ حركته، فحتى ذلك التاريخ، فعليًا، كان التداوي بالتحليل النفسي يبدو وكأنهُ مخصص لعلاج حالات العصاب، وها هو الآن وقد انفتح أمامهُ، بعيدًا عن فيينا وعن برلين، الطريق إلى قارة الذهان: وهذه «أرض ميعاد» جديدة. بمقدار ما كان التحليل النفسي ظاهرة مرتبطة بالمدينة، حيث كان يمضي على التوازي مرافقًا تحول العائلة الكلاسيكية ويفترض وجود صدام للشخص مع نفسه بالذات، كان الطب النفسي، كأحد فروع الطب، ما يزال على ارتباط بتصور جماعي

للعناية بالصحة النفسية. ناهيك، أن بناء وتنظيم المصحات بدأ بالانتشار منذ أواسط القرن التاسع عشر، خارج المدن وفي وسط الطبيعة، وذاك لأن الطب النفسي قامَ على فرضية خلق أماكن للحياة، بصورة انتقالية أو نهائية، بحيث تكون تلك الأماكن قادرة على أن تحل محل عائلات منهارة لم يكن بإمكانها الاهتمام بشؤون أفرادها. وعلى هذا المنوال تطورت، على غرار البنسيونات والمصحات، مساحات مترامية لمستشفيات خاصة أو عامة، وفي داخلها يتعايش أطباء ومرضى، ممرضون ومعالجون، وبفضل تنظيم فيدرالي ومواقع جغرافية خاصة، مرتبطة بعرف تربوي كثيف مستلهم من المذهب الكالفيني، ها هي سويسرا تصبح في مدى عقود من الزمن - مع بحيراتها العديدة ومناطقها الجبلية - أحد بلدان أوربا حيث ازدهرت مراكز الاستشفاء أكثر من أي مكان آخر، كما كان بلولير وفريق العمل في مستشفى برغوزلي، لم يكن يونغ يتناول ولو قطرة واحدة من الكحول. ونظرًا لأنه على اطلاع حميم في مجال الجنون، كان يشعرُ بانجذاب حقيقي نحو مرضى الذهان عنده. ولم يكن أبدًا ليخاف من تهديداتهم؛ لأنه يعلم بأنه قادر على رد الضربات بضربات، وهكذا كان ينظم معهم أمسيات راقصة وحفلات رقص بثياب رسمية.

للمرة الأولى ها هو فرويد في مواجهة مريد شاب ذي ذكاء استثنائي، وهو تلميذ من ألمع تلامذة بلولير، لم يكن مدينًا له بأي شيء بل وكان قد أصبح مشهورًا بأعماله الخاصة حول التداعي الحر ودراسة نشوء الأمراض النفسية والعقلية[250]، ولهذا السبب أراد دفعة واحدة تحويل ابن رجل الدين، صاحب الموهبة والمولع بالكذب حينذاك، إلى ولي عهد سوف يصبح، حسب ظنه، مفيدًا جدًا نظرًا لأنه ليس يهوديًا ولا من أبناء فيينا، وهو بإسناده مثل هذا الموقع لذلك الرجل الذي بلغ من العمر ثلاثين عامًا ويحلم مثله بتحقيق مجد كبير، كان يتخيل أنه بذلك يخلّص التحليل النفسي من الصفة العالقة به بصورة مزعجة، صفة أنه «علمٌ يهودي»، وهذه الصفة مترافقة مع الاتهام بالـ«التعميم الجنسي[251]».

وهكذا، طوال تلك الحقبة، رفض أن يرى أميره الغالي الوريث له، والذي كان يشبهه بطبيب خاطر بإشعيا[252]، أنه يقيم مع «المسألة اليهودية» علاقة أقل ما يقال عنها إنها ملتبسة[253]، وهذا ما لم يغب عن عين كارل أبراهام: «كن متسامحًا، هكذا سوف يقول فرويد في 1908 له، من الأسهل عليك أكثر من يونغ متابعة أفكاري لأننا [...] بسبب قرابتنا العرقية، أنت أقرب إلى تكويني الثقافي، بينما هو من جانبه؛ لأنه مسيحي وابن رجل دين، لا يجد الطريق الذي يوصله إلي إلّا من بعد ممانعات داخلية كبيرة. وارتباطه

بنا تزداد قيمته من خلال هذا الأمر. وأكاد أقول بأن مجرد دخوله إلى الحلبة خلّص التحليل النفسي من خطر أن يصبح قضية قومية يهودية[254]».

كان فرويد وريث تصوّر عقلاني للعلم ونظرة شاملة لا تسمح بوجود أي شكل من أشكال النسبية، بالمقابل كان يونغ خارجًا من عرف مختلف كل الاختلاف حيث تمتزج الباطنية، ومعاداة المادية، والتعامل مع الأرواح، والاشتغال بالسحر، والاندفاع نحو الأمور الروحانية، والانجذاب إلى اللاشعور القائم على التسامي وإلى ظواهر الشخصية المتعددة الجوانب[255]، وأخيرًا الانتماء إلى سيكولوجيا الشعوب، بصفته طبيب أعصاب وفيزيولوجي، كان فرويد يراعي التعفف رغم أنه يقيم مذهبه على أولوية النزوع الجنسي، أما يونغ فهو طبيب نفساني وقارئ للنصوص الفلسفية - كانط، نيتشه، هيغل -، ولذلك فهو يريد على العكس أن يجعل من نفسه أحد أتباع تصوّر موسّع عن الليبيدو بحيث يفهمه كـ«طاقة حيوية». كان في الوقت نفسه كالفينيًا ومن القائلين بتعدد الزوجات، ولذلك لن يتردد بالإكثار من المغامرات الغرامية مع مريضاته اللواتي سوف يجعل منهن مريدات له.

كانت العلاقة بين الرجلين في البداية مشبوبة العواطف قبل أن تصبح قائمة على التنازع ومن ثم إلى الحرب. وبعد قطيعة 1913، سوف يتهم فرويد يونغ بأنه انجرف مع «الوحل الأسود للتنجيم والسحر»، بينما سوف يعيش يونغ قطيعته مع فرويد على أنها تحرر، رغم أنه في ما بعد وقع ضحية نوبة اكتئاب[256].

وسوف يظل يونغ طوال حياته على وعي بتفوق المذهب الفرويدي على مذهبه[257]، رغم أنه كان يشعر اجتماعيًا بتفوقه على فرويد، الذي لم يكن في نظره سوى ابن تاجر يهودي من أصول طبقية شعبية ومتزوج من امرأة فقيرة[258]، أما في ما يخص فرويد، المقتنع بقيمة منظومته في التفكير، ها هو، مرةً جديدة، قد أحب رجلًا نظر إليه بادئ الأمر كابن ومريد، قبل أن يحوله إلى عدو.

عاش يونغ طفولة مشوشة، حتى أنه عند بلوغه سن الرشد، أصبح تحت سيطرة هاجس ذكريات مرعبة تجعله يشعر بكراهية اليسوعيين والكنيسة الكاثوليكية، وتذكّره كم كان شعوره بالإهانة الوهمية حاضرًا على امتداد مرحلته الدراسية الأولى، فكانوا في واقع الأمر يذكّرونه بأنه حفيد كارل غوستاف آخر - يسمونه «البكر» -، الطبيب والمدير لجامعة بال وهو من تقول أسطورة راسخة بأنه على ما يفترض الابن الطبيعي لغوته. كان

يونغ الشاب سريع الغضب، متمردًا على النظام الأبوي، وعرضةً لإغماءات عديدة، ولذلك لجأ في وقت باكر إلى التأمل ودراسة أعلام نصوص الحضارة الغربية قبل أن يتجه نحو الدراسات الطبية. كان قد اكتسب معرفة حدسية بالجنون في وسط عائلته بالذات، ولا سيما في ما يخص أمهُ إيميلي بريسورك، التي كانت تنصرف أمامه إلى تحضير الأرواح برفقة أبيها، رجل الدين المستنير، وشقيقها وبنات شقيقها، حين بدأ يتبادل مع فرويد مراسلات غنية جدًا، تولد لديه الشعور بأنه التقى بمسيح قادر على تخليصه من «مهانته» المرتبطة باعتداء جنسي: «في الحقيقة - ما يجب أن أعترف لك به بتحفظ -، أنا معجبٌ بك دون حدود كرجل وكباحث، ولا أحمل تجاهك أي ضغائن. وبالتالي ليس هذا مصدر عقدة حرصي على البقاء، وإنما الأمرُ يرجع إلى أن تبجيلي إياك لهُ طابع التعلق العاطفي، الديني الذي، رغم أنه لا يسبب لي أي إزعاج، هو مع ذلك منفّر ومثير للسخرية أمام نفسي بسبب ما فيه من غلمية لا يمكن نكرانها، وهذا الشعور المقيت مصدره أنني وأنا طفل صغير، تعرضت لاعتداء جنسي من رجل. كنتُ أبجّله في وقت سابق[259]».

عندما أصبح يونغ مساعدًا لبلولير بتاريخ 1895، دافع عن أطروحته حول حالةِ وسيطةٍ روحية فتية مصابة بالنوام وهو ما سوف ينكشف لاحقًا بأنه يخص ابنة خاله، هيلين بريسورك. في تلك الدراسة، التي هي سيرة ذاتية مقنّعة، رسمَ لوحةً مرعبة عن العالم الأثري لمريضته التي كان يتعامل معها باحتقار، إذ يجعل منها مجرد موضوع معاينة طبية، مشيرًا إلى أن والديها كانا من أصحاب المرض العقلي، ورغم استقبال فلورنوا الجيد لهذا النص، فقد أثار عاصفةً من الاستهجانات[260].

حينذاك حالف الحظ يونغ ليفرَ من أسرته بزواجه من امرأة جميلة، ذكية، غنية، متميزة، إيما روشنباخ، وهي التي أتاحت ثروتها لهُ، ليس مجرد أن يكتب دون اهتمام بالعائدات المالية، وإنما أيضًا العيش في شروط متميزة سمحت له بالتردد على أفضل حلقات البرجوازية المالية الكبرى في سويسرا الناطقة باللغة الألمانية، وعلى الرغم من معاناتها كأم وكزوجة، ومن الإرهاق الذي حلّ بها بسبب ولادات متعددة ورغمَ ما لاقته من خيانات زوجها، أصبحت إيما مريدته بعد أن قام هو شخصيًا بتحليلها.

وفي يوم أحد بتاريخ 3 مارس/ آذار 1907، سوف تصحبُ زوجها إلى فيينا، بكل أناقتها المعتادة، وهناك قابلت فرويد لأول مرة وهذا الأخير استقبلها في قصره حاملًا باقة زهور في يده، ونظرًا لشعور يونغ ببعض الخشية، فقد طلب إلى لودفيغ بنسوانجر أن يحضر معه هذا الموعد

المنتظر طويلًا، وهذا الأخير هو ابن أخ أوتو بنسوانجر، المدير الاكبر للمصح الشهير، مصح كروسلينجن، حيث كانت في ما مضى برتا بابنهيم، وكان الشاب لودفيغ يرغب بحرارة أن يتعرف على ذلك المعلم الذي يُكنّ له إعجابًا كبيرًا[261].

لقد تأثر فرويد بإيما، المختلفة كل الاختلاف عن النساء المحيطات به خاصةً وأنها ابنةُ طبقة اجتماعية غير طبقته تمامًا، ولذلك عبّر عن مودة وسرور كبيرين. وعندما دعُيَ الضيوف للمشاركة في مأدبة العائلة المجتمعة بجميع أفرادها، فهموا سريعًا جدًا كم كان الرجلان على عجلةٍ كي ينفردا للشروع بحوار انتهى عند منتصف الليل[262]. تكلم يونغ من دون توقف لمدة ثلاث ساعات، وانتهى الأمر بفرويد إلى مقاطعته مقترحًا عليه التحادث بشكل منظم، حينذاك استمر تبادل الحديث لمدة عشر ساعات، وشعر كلٌ منهما بأنه يتقاسم مع الآخر آراءً متلاقية. علمًا بأن يونغ شعر بصدمة للغياب «الكامل للوعي الفلسفي» عند من يتحاور معه، كما صُدم بـ«موضوعيته» وبالمغالاة في الأهمية التي ينسبها إلى نظريته الجنسية. وبينما كانا يتبادلان الحديث، سمعا ضجة صاخبة قادمة من المكتبة فانتفضا بسببها. كان يونغ مقتنعًا بأن الأمر يعود إلى ظاهرة «تعبير خارجي عن حالة تشنج[263]»، وذلك لأن يونغ، المطارِد من دون توقف للأصوات القادمة من وراء المحسوس، أعلن أن ضجة ثانية ستُسمع على الفور. وكان رأي فرويد أن هذا القول «محض حماقة» لأنه لا يؤمن بغيبيات مضيفه، لكن هذا الأخير خيّل إليه تبين علامة رعب على وجه فرويد حين حدثت طقطقة ثانية.

كان يونغ على اقتناع بعمق عبقرية فرويد، لكنه مع ذلك اقتنع تمامًا بأن عصابه سوف يقفُ عائقًا يصعب التغلب عليه في العلاقة بينهما، فمن جانبه، رغم خشيته من ألّا يكون يونغ بمستوى ما عقد عليه من آمال، اقترح عليه فرويد الدخول إلى منتداه من دون أن يشك بأن هذا الأخير، سريعًا جدًا، نظرًا لشعوره الكبير بتفوقه، سوف ينظر إلى أعضاء المنتدى كـ«شلة من فنانين، وهابطين، وذوي مواهب تعيسة[264]»، وللحقيقة، منذ ذلك اللقاء الأول، وجد فرويد ويونغ نفسيهما من البداية وجهًا لوجه في موقف لا يمكن الاستمرار به. كان فرويد يعتقد أنه قد عثرَ على وريث يمكن أن ينتسب إلى مذهبه بينما يونغ يفكر أنه قد التقى بأب قادر على أن يحبه، إنما، في اللحظة التي أراد الاثنان إقناع نفسيهما بقوة الرباط الذي انعقد، فالابن بدأ منذ ذلك الحين يتمرد على الأب، بينما كان فرويد يخشى بأن هذا (اليوشع الخيالي) ربما يصبح غريمه الرئيسي.

بالإضافة إلى ذلك، لم يكن أيٌ منهما يريد أن يرى، في تلك الحقبة، بأن الابتكار الفرويدي ليس صالحًا صلاحية كاملة، بالمعنى الدقيق والحصري، للعيادة النفسية. والحال، فإن الغالبية العظمى من تلامذة الهر - بروفسور ويونغ في المقدمة - كانوا أطباء نفسيين يرون، بصورة لا تخرج عن الحقيقة، بأن طريقة التحليل النفسي، الموروثة من المقاربة الدينامية، سوف تقلب رأسا على عقب النظرة التي كان المجتمع الغربي يحملها عن الجنون، وإذا كان فرويد يعتبر هذا الفرع العلمي الجديد كأرض ميعاد يجب الاستيلاء عليها، فإن الأطباء النفسيين كانوا يرون في التحيل النفسي سلاحًا سوف يتيح لهم القيام بهذا الاستيلاء.

في جميع الأحوال مصدر مفهوم التحليل النفسي يعود في الواقع إلى رفض حقيقي للتصورات السائدة بقوة في الطب النفسي وفي علم النفس الطبي، وفرويد، مع إعجابه بفيليب بينيل لم يستخدم أبدًا مفردات معالجي الأمراض العقلية: حالة عقلية، شخصية، طبع، ازدواجية، سيكولوجيا عيادية، اختلال عقلي، سلوك، إلخ. ولم يكن يصف الأدوية، كما لم يكن يخطر له تهيئة مصحات ولم يكن يهتم بإدارة الحياة الجماعية لذوي الزمراض العقلية. لم يكن ليأخذ بعين الاعتبار سوى الكلام، اللغة، الجنسانية، العصاب، الحياة، الموت، في نظره كان القدر الإنساني نظامًا حول شروط إلزامية، مبادئ طاقة، البناء النفسي. بكلمة واحدة، كان فرويد يعزف الذهان كإعادة تشكيل لا شعوري لحقيقة هاذية وكان يضع هذا الأمر داخل نطاق هيكلية ثلاثية الأبعاد بفضلها يتم التمايز عن العصاب والشذوذ.

لم يكن فرويد طبيبًا نفسيًا ولا طبيبًا للجنس، ولذلك كان ينبذ جميع أشكال المسميات. وبهذا، لم يكن يفكر جديًا أن بالإمكان تحليل المجانين، حيث أن اللاشعور عندهم مكشوفٌ بالكامل. وهكذا كان يحاول، كلما وجدَ نفسه أمام قضية جنون فردي، أن يحوّل الأمر إلى «حالة عصبية»، كان فرويد قبل أي أمر آخر طبيبًا للنفس، وأنسنيًا في مجال الكلمات، والحلم، والميثولوجيات، وهو طبيب لمعالجة الألم الإفرادي، رجل علم تكون في ميدان طب الأعصاب والفيزيولوجيا. أما عالم الطب النفسي، بتصنيفاته المبدئية، وبعالمه القائم على مصحات، وبمعاينته للأجسام وللسلوكيات، ذلك العالم، المنظم سياسيًا كدولة ضمن الدولة، ذلك العالم المنغلق - عالم بلولير، ويونغ، وبنسوانجر وكثيرين غيرهم - لم يكن عالمه. في غداة اللقاء التاريخي في بيرغاس، استرسل فرويد مع الممارسة المفضلة عنده حين سأل يونغ وبنسوانجر أن يسردا له أحلامهما: «لم أعد أذكر حلم يونغ، هكذا

سوف يقول بنسوانجر، ولكن أتذكّر تأويل فرويد له. فالتأويل كان باتجاه تبيان أن يونغ يريد إنزاله عن العرش كي يجلس مكانه، وأنا كنت أحلم بمدخل بيت 19 برغاس، الذي كان بالضبط في حالة إعادة بناء وبالثريا المغطاة على عجل، بسبب تجديد البناء. وكان تأويل فرويد الذي لم أجده مقنعًا بصورة واضحة [...] أن الحلم يتضمن تمنّي الزواج من ابنته (البكر)، وفي الوقت نفسه رفض هذه الأمنية، إذ كان يعلن [...]: أنا لا أتزوج من أحد يعلّق في بيته ثريا بهذه التفاهة[265]».

واظب فرويد ويونغ لفترة طويلة على الاسترسال مع شغفهما بتأويل الأحلام. فكلاهما، كما جميع مريدي المنتدى الأول، كانا على يقين أنه منذ ذلك الحين فصاعدًا، بفضل مذهبهما المشترك، حقق اللاشعور دخولا عظيمًا إلى الحياة اليومية في المجتمعات الأوروبية. كان كل شيء يتم كما لو أصبح الاعتقاد راسخًا بأن الوقت لن يطول مع تصور الحلم كأنه غرق ً في حالة النوم، وأنه كامن في أعماق حياة الليل، وذاك لأن معجزة التأويل الفرويدي جعلت من الإنسان نفسه تجسيدًا للحلم، وهذا كان شعار الأزمنة الحديثة، ذلك الشعار الذي سوف يلخصه الشاعر جوي بوسكي بصيغةٍ مؤثرة: «أنتمي من الآن وصاعدًا إلى زمن لن يكون هناك بعد من حلم، لأن الإنسان قد أصبح هو الحلم».

كان الفرويديون من أبناء ذلك الجيل على اقتناع بأن الثورة الرمزية التي كانوا ممثلين لها يجب أن تنتشر وتتوسع لتشمل جميع ميادين التفكير، كان الواجب يقضي بـ«تطبيق» التحليل النفسي على الأدب، على دراسة الميثولوجيا، وعلى الأديان، على العلم التاريخي، على الأنثروبولوجيا، على الفن، وعلى جميع منتجات البشر، وبدأت تدور مناقشات مكثفة في قلب جمعية الأربعاء، ثم في الـ WBV، لتمييز التحليل النفسي التطبيقي عن «دراسة المرض» التي كانت قد تطورت مع الخطاب الطبي الزاعم بسيطرة على حياة المصابين بالجنون.

ضمن هذا السياق تحديدًا تلقى يونغ، بمسرّة كبيرة، دراسة فرويد المخصصة لإحدى روايات ويلهلم جنسن: «غارديفا، فانتازيا من بومباي[266]». كان ابن زيوريخ الشاب يعشق، هو أيضًا، سرد الأحلام ومقارنة النصوص الأدبية بالحكايات المرضية، كما كان قد بدأ يهتم بالميثولوجيات الكونية وبالاستشراق، كان يعلم، بهذا الصدد، أن فرويد كان قد أغرم بنقش حجري مشهور يمثل شابة يونانية وهي تمشي، وقد رفعت ثوبها قليلًا بحيث ظهر قدماها في صندل، إحدى القدمين على الأرض، بينما القدم الأخرى مرفوعة على رؤوس الأصابع بحيث أن تبدو وكأنها تُلامس الأرض

لمسًا خفيفًا. تلك كانت غارديفا، المرأة الغامضة، المنقوشة في حجر، والمرتدية لثوب ذي ثنيات غير منظمة، وهي تتقدم بخطوة المحارب نحو وجهة مجهولة: فهل كانت في طريقها إلى المعركة أم أنها كانت تريد أن تهب الحياة؟

عندما نشرت بتاريخ 1903، كانت قصة جنسن تضم جميع موضوعات الأدب الغرامي في مطلع القرن: الخلط بين الحلم والواقع، الرحيل بين الماضي والحاضر، بين الهذيان والرغبة، الحضور الدائم للأطلال الغابرة، والنساء الموتى، والمآتم، والأهواء المتبخرة. وكان تعلّق فرويد بغارديفا كبيرًا إلى درجة جعلته يطلب الحصول على نقش مشابه وقد علقه على جدار مكتبه.

في حكاية جنسن، يقع نوربير هانولد، وهو عالم آثار شاب، في غرام المرأة المنقوشة على الإفريز الحجري بعد أن استأثرت بنظره، وفي أحد الكوابيس رآها ضحية فوران البركان الذي كان قد أغرق مدينة بومباي في القرن الأول الميلادي. عند يقظته كان على اقتناع بذلك الحلم، فذهب إلى بومباي بعد أن لمحَ في الشارع طيفًا يشبه طيف غارديفا. وحينذاك تحديدًا أثناء زيارته للأطلال ظنّ أنه يلتقي بها حين لمحَ شابة حقيقية تمامًا، زوي برتغان، واسمها معناه: «تلك التي تلمع وهي تمشي»، ولأنها فهمت الحالة العقلية لدى هانولد، نجحت بأن تشفيه حين تمكنت من تحرير دفقًا من ذكرياته المكبوته. فعليًا، كانت تسكن المدينة التي يسكنها هو أيضًا وفي طفولتهما، كانا صاحبين متوافقين جدًا في الألعاب.

من المفهوم أن يكون الهر - بروفسور قد افتتنَ بهذا النص الذي لفت انتباهه إليه يونغ بالذات، فهذا السرد الخيالي كان كما لو أنه يعرض آليات اللاشعور والحُلم، مع إسناده إلى شخصيات روائية الأدوار المتبادلة بين المريض والمداوي. وهكذا كان بإمكان فرويد تدعيم مقولته حول أن الأحلام التي يبتكرها الكتاب يمكن تأويلها تمامًا كأحلام المرضى. وأبعد من هذا حتى، كانت تلك القصة تبرزُ بالتمام والكمال ما سبق لهُ أن أكده لآرثرشنيتزلر: «غالبًا ما سألت نفسي بدهشة من أين لك هذه المعرفة بتلك النقاط المتخفية، بينما أنا لم أكتسبها إلّا بعد عمل مضن من التحري والبحث، وهذا ما يجعلني أشعرُ بالإعجاب حيال الكاتب الذي كنت أغبطه[267]».

أراد فرويد المضي إلى ما هو أبعد، لكنهُ اصطدم حينذاك بمصاعب جدّية، في واقع الأمر، بعد أن أرسل إلى جنسن نسخة من كتابه، وصلهُ الجواب بصيغة رسالة لطيفة تقرّ له بفهمه للقصة، لكن، بناء على نصيحه

من يونغ، الذي نبّهه إلى وجود نصين آخرين للكاتب، فقد تخيلَ بأن جنسن كان قد شعرَ برغبة سفاحية عنيفة تجاه أخته الصغيرة ذات القدم المشوّهة. وها هو من جديد - يخطئ التقدير ويُصرف بالتي هي أحسن. بعد تنغيص تعرض له جنسن نتيجة طلباته وأسئلته شرح كي يغلق الموضوع بأنه لم يكن لديه أخت إنما، في طفولته، كان فعليًا قد شعر بعواطف غرامية حيال صديقة اختفت قبل الأوان.

وهكذا عرفت غارديفا بفضل فرويد سلالة لا تصدق لا سيما عند السورياليين، فحسب التصور الفرويدي للعُصاب، كان هانولد يعيش هستيريا كاملة، لكن تلك الرواية، في رأي يونغ، كانت التعبير عن هذيان حقيقي بالمعنى النفساني المرضي للكلمة.

والجنون، التقى به فرويد من دون توقف بين مرضاه ومريديه الذين كانوا يجدون في التراجيديا الأوديبية عن ثورة الأبناء في وجه الآباء الصدى المعبر عن تمردهم الشخصي.

وضمن هذا السياق تحديدًا تقاطع أوتوغروس مع المغامرة الفرويدية. إنه ابنٌ وحيد[268]، وقد نشأ في كنف والديه كأمير حيث كانا يريان أنه معجزة بذكائه. ووالده هانز غروس، صديق كرافت - إيبينغ ومعجب بكتابات فرويد الأولى، كان يحلم بأن يضم ذلك الابن النابغة إلى أعماله الخاصة. ولهذا وفرَ له تربيةً خاصة من دون توبيخات ولا ضغوط، ما يتعارض تعارضًا فريدًا مع ما كان يدافع عنه من أفكار يجعلها بخدمة الشرطة العلمية. كان من أتباع مكافحة الانحطاط المزعوم للمجتمعات، ولهذا كان قاضي الجزاء ذاك يفهم أن عليه محاربة البغاء، والجنسية المثلية، والشذوذ، والإباحية، ليس عن طريق القمع البوليسي وحسب وإنما أيضا بمنع الروايات التي قد توصف بأنها «لا أخلاقية». وكان يهاجم النساء «المسترجلات»، والفوضويين والمتشردين، والغجر، «هؤلاء المكارون واللصوص».

نتيجة خضوعه لسنوات من محبة ذلك الأب الذي كانت نظرياته الهاذية تبدو وكأنها ذات تشدد مطلق وأنها على وجه الخصوص منسجمة مع الأيديولوجية العرقية المنتشرة مع نهاية القرن التاسع عشر[269]، أصبح أوتو غروس طبيبًا نفسانيًا لامعًا. لكن، غداة حصوله على شهادة الدكتوراه أبحر كطبيب على متن سفن خط هامبورغ - أمريكا الجنوبية الملاحي وأخذ يتعاطى مخدرات متنوعة: كوكايين، أفيون، مورفين.

لدى عودته، بعد إقامات مختلفة في مصحات عصبية، في ميونيخ وغراز، وضع تحت أول معالجة للتخلص من تأثير المخدرات السامة في

مصح بورغولزي، بتاريخ 1903. تزوج من فريدا شلوفر، وعن طريقها، تعرف بماريان فيبر، زوجة عالم الاجتماع ماكس فيبر[270]، وشقيقات فونر يختوفن اللواتي أقام معهن علاقة، وبعد تعيينه أستاذًا مستقلًا وتأهيله بالطب النفسي العلاجي، أصبح غروس مساعد إميل كرابلين في ميونيخ وأظهر حماسة حيال المؤلفات الفرويدية من دون أن يتوقف عن المطالبة بأن يُنظر إليه كنبي. وبعد مقابلته لفرويد، الذي لم يكن مستاءً بأن يكون تلميذًا له ابنٌ بمثل تلك الشهرة، توجّه نحو ممارسة التحليل النفسي بالتردد على الوسط الثقافي في حي سكوابنغ في ميونيخ، حيث كان يلتقي تلامذة ستيفان جورج وتلامذة لودفيغ كلاج، مع مطلع القرن. وكما نوّهَ جاك لوريدر، كانت النيتشوية تأخذ هناك صورة الحنين إلى ديونيزية غابرة مستوحاة من بحوث باخوفن الميثولوجية حول «المرحلة الأمومية».

ومن خلال هذه العقيدة، والتبشير باللاأخلاقية الجنسية، وممارسة النشوة، راح غروس يناضل في سبيل التحليل النفسي ردًا منه على تعاليم والده، وتمجيدًا لكل ما كان ذلك الوالد يدينه: ضعف البشر، البحث عن اللذة الآنية، المتعة، الأمومية، غير الطبيعيين التخنث، وثورة النساء: «المنحطون هم ملح الأرض» و«الحالة الصحية الأمثل عند العصابي يجب أن تكون اللاأخلاقية الجنسية»، هكذا سوف يقول، مختصر القول، كان يخلط بين الفرويدية والنيتشوية ليتوصل إلى «برنامج» تحرر جنسي سوف يعود إليه ويلهيلم ريخ لاحقًا إنما بطريقة مختلفة ومعه الفرويديون - الماركسيون.

في مايو/ 1908، بضغط من والده، فُرضت عليه الإقامة من جديد في مصح برغولزلي من أجل القيام بمعالجة ثانية ضد آثار المخدرات السامة، برفقة زوجته فريدا التي خضعت لنزواته. وفرويد، الذي كان قد كتب شهادةً لصالحه، طلب من يونغ تدبير الأمر على أمل أن يستطيع من بعد ذلك تناوله بالتحليل وهذا ما لم يحصل. رغم تقديره لمزاياه كمنظر، وضع يونغ تشخيصين الواحد بعد الآخر: عصاب هجاسي، ثم خرف مبكر. وهكذا فإن غروس المريض - التلميذ وقع بين معلم وتلميذ آخر، هو أيضًا سوف يكون من المنشقين مستقبلًا. بفضله إلى حد ما، تمكن يونغ من الدفاع أمام فرويد عن مصداقية مفهوم الخرف المبكر وهذا ما كان فرويد يقاومه، لقد أخذ يونغ في البداية على نفسه أن يتعامل مع غروس كمجنون بالمطلق، ومن بعد ذلك تعلّق به من دون أن يتوصل إلى مساعدته، حتى أنه وصل به الأمر أن يعتبره كأخ توأم.

لم يكن غروس يأكل سوى خضار مطبوخة حسب طريقته، وكان رث

الثياب، ولا يستحم أبدًا، ولا يحلق ذقنه أبدًا، كما كان يخلط منتجات التنظيف مع الأفيون، كان يغطي نفسه بثياب متعددة عندما يشتد الحر، مطالبًا بإضاءة جميع المصابيح، وكان يتسكع في ممرات المصح مخربشًا رسومًا على الجدران والأرض، كما كان ينام ووسادة مضغوطة على رأسه.

انتهى العلاج بكارثة؛ لأن غروس، بعد فترة من الهوس، هرب من المصح ثم وضع نفسه بعد ذلك تحت العلاج، من دون أي نجاح، على يد ويلهيلم ستيكيل، كما اهتم يونغ أيضًا في برغولزلي بفريدا، التي شرحت له محاسن تحررهما الشهواني المشترك، أما مع إرنست جونز فروت له كم كانت تعاني من وضعها ومن انحرافات زوجها[271].

سرعان ما اعتبرَ معظم مريدي فرويد غروس متطرفًا خطيرًا يمكن أن يكون مصدر أذى للحركة، فهو فاسق، لا أخلاقي، فوضوي، متعلق تعلقًا عنيفًا بفكرة الثورة عن طريق الجنس، ولذلك تخلى عنه فرويد دون مجاملة لأنه رأى فجأة أن غروس يشوه طبيعة قضية التحليل النفسي، من دون أن يمنع ذلك غروس من الاستمرارية بممارسة الفرويدية والإعلام عن أنه من أنصارها، وبعد ارتكابه فضيحة عند معالجته لشابة متمردة على السلطة الأبوية، عاش َ مع امرأة رسامة فوضوية انتحرت بتاريخ 1911. اتهموه حينذاك بالتحريض على الانتحار، وبعد توقيفه أكثر من مرة، ومطاردة الشرطة له في النهاية من دون توقف بسبب «نشاطات تخريبية»، سوف يضع حدًا لحياته المشردة، بتاريخ 1920، بعد وفاة والده وسقوط الأمبراطوريات، على أحد أرصفة برلين، حيث قتله الجوع والبرد.

بكل وضوح، لم يكن فرويد يعلم كيف يتصرف مع أولئك المريدين المجانين، الخارجين عن كل عرف، والمبتكرين وأصحاب المواهب[272] الذين، في بعض الأمور، يأخذون مذهبه «بشكل حرفي» وذلك حين يقرأون في نصوصه ما ليس فيها، سعيًا منهم للقيام بثورة على الذات وعلى المجتمع أبعد بكثير مما كان فرويد يتحدث عنه، كان فرويد متحفظًا كطبيب يعالج الجنون، لكنه على وجه الخصوص مهتمٌ ببناء حركة كفيلة بأن تخدم طروحاته، ولذلك كان عليه أن يقدم البرهان أمام الرأي العام على أن جنود جيشه هم من المعالجين الأفاضل، وهذا ما جعله دائما شديد الظلم حيال أولئك الذين بفرط اندفاعهم يقدمون وجهًا مختلفًا كل الاختلاف عن حقيقة مذهبه، وذلك الوجه كان يذكّره بهذيانات فليس وضلالاته هو شخصيًا. بهذا الصدد، لم يكن فرويد يتمتع بالهامش ذاته، هامش المناورة، المتوافر عند الكتاب والشعراء: لقد أخذ على عاتقه أن يضع أسس حركة يقدر لها القبول من العلم، إنها مهمة مستحيلة، بالتأكيد،

لكن ضمن هذه الشروط، كيف يمكن رؤية تكريس هذا المذهب وهو ينتهي دائما بتقوية العقم في التفكير تمامًا كما الحال مع الانحرافات والخروقات؟

سوف يكون فرانز كافكا بالتالي أبعد نظرًا منه وسوف يقدم عن غروس لوحة مؤثرة بما فيها من حقيقة: «كان يجعلني أفكر باضطراب تلامذة المسيح وهم يقفون عند قدمي المصلوب[273]». بالمقابل، ها هو ماكس فيبر، الذي اطلع على التحليل النفسي من خلال مبالغات غروس الغريبة، عبّر عن قسوة شديدة حيال فرويد وتلامذته، معتبرًا بأن التحليل النفسي لا يجلب أية ضرورة أخلاقية جديدة تُلزم الإنسانية وأنه عرضةٌ لكي يجعلَ العالِمَ «مديرًا للنفوس».

بتاريخ 1908، برزَ إرنست جونز كرجل الموقف، ذاك الذي يمكنه أن يجلب لفرويد ما لم يكن يهبه إياه يونغ: الوسائل السياسية الضرورية لانتقال مؤلفاته، وتعميم الممارسة المألوفة للتحليل النفسي، والانتشار العالمي للـ Verein.

لقد ولد في بلاد الغال، في قلب أسرة ريفية من البرجوازية الصغرى، وكانت له طفولة صعبة تحت سلطة أب مقتنع بأن الأبناء لا يجوز أن تصدر عنهم أي أفعال خارجة عن الطاعة، ولذلك جعل وجهته نحو الطب النفسي بعد أن كان تلميذًا لطبيب الأعصاب الكبير جون هوغلين جاكسون. وعندما أخذ علمًا بكتابات فرويد الأولى اقتنع بأن التحليل النفسي يعطي للعالم عقلانية جديدة، وتعلّم الألمانية كي يقرأ النص الأصلي لكتاب «تأويل الحلم».

وقادته التربية التي نشأ عليها، مثل آخرين كثيرين، إلى التمرد على النظام القائم وعلى التقاليد السائدة في إنجلترا التي كانت ما تزال فيكتورية بشدة. باكرًا جدًا توفرت له معرفة حادة بالممارسات الجنسية وراح يتحدث عنها بصراحة لا تناسب إطلاقًا محيطه، وتلك طريقة بالتشكيك بشريعة الأب. وحيث أنه كان من طرف آخر مغريًا للنساء ومعتادًا على بناء علاقات عديدة، لم يكن يستطيع أن يقف لا مباليًا أمام النظرية الفرويدية الجديدة حول الجنسانية، وكان أن بدأ بتاريخ 1906 بصورة عفوية بممارسة التحليل النفسي، بعد عام من ذلك التاريخ، في أمستردام قابل يونغ في مؤتمر عن الأمراض العصبية، وهذا الأخير دعاه ليعمل معه في مصح برغولزلي، حيث دخل إلى عالم الطب النفسي الجديد، مع حضور انحراف أوتوغروس وفريدا[274].

بتاريخ 30 أبريل /نيسان 1908، بعد مؤتمر سالزبورغ، قام بزيارة

فرويد يصحبه الطبيب النفسي أبراهام أردن بريل، من أصول غاليسية، وقد هاجر إلى الولايات المتحدة في حدود 1890 بعد نزاعات عنيفة مع والده، الضابط في الجيش الإمبراطوري، كان جونز راغبًا بمقابلة فرويد بينما كان بريل يريد أن يكون محلله وناشر الدعاية له في أمريكا.

كانت نتيجة هذه الزيارة كارثية على جونز لكنها ذات أثر طيب على بريل، الذي عهد إليه فرويد بترجمة مؤلفاته دون أن يلاحظ بأن ذلك التلميذ المهوَّم الذي لا يتحكم جيدًا باللغة الإنجليزية وأنه على وجه الخصوص، يحلم بتطويع مذهب فيينا لـ«فكر أميركي» مزعوم.

في الفترة الأولى، لم يشعر فرويد بارتياح حيال جونز، ومن هنا كان هذا الحديث المتبادل مع يونغ: »جونز بالتأكيد هو شخص يثير الانتباه جدًا ويتمتع بقيمة عالية، لكنني أشعر تجاههُ، كما لوكان من عرق أجنبي. إنه شديد التعصب ولا يأكل إلّا القليل القليل [...] إنه يذكّرني بكاسيوس، الهزيل النحيل. إنه ينكر كل عنصر وراثي. وأنا في نظره بدأت أشكل شخصية رجعية». وأيضًا: «إن اختلاط الأعراق في جماعتنا مهم جدًا في نظري. إنه من أصول سلتية، ولذلك لا يسهل التواصل بينه وبيننا، من جرمان وأبناء المتوسط[275]».

في الفترة الأولى إذًا، لم يشعر فرويد بأي تعاطف مع ذلك «السلتي» القادم من عالم مختلف عن عالمه. كما أن جونز لم يكن يظهر أي اهتمام بأوربا الوسطى، ولا يفهم أبواب الجنون الباروكية في فيينا الأمبراطورية، ولا الأحلام الكئيبة خارج الزمن التي تؤزق الحلقة الأولى من مريدي المعلم. لم يكن يهوديًا مثلهم، ولا مأخوذًا بتحضير الأرواح والطاولات الدوارة مثل يونغ، وهو إن كان يحترم العبقرية الطبية عند فيرنتزي، محلله المستقبلي، فلم يكن يشعر بأي ميل إلى التخاطر وإلى عرّافات بودابست، إنه محافظ، براغماتي، وهو طبيب أعصاب أكثر مما هو طبيب نفسي، ويؤيد تأييدًا كبيرًا تحرر النساء في بلد كانت القضية النسائية فيه على أسنة الرماح، وكان يرفض الفكرة القائلة بأن التحليل النفسي يحمل ثورة اجتماعية أو فلسفية، ولهذا كان يريد ربطه ُ بالطب ودفعه إلى فتح نقاش مع الفروع العلمية الأخرى، لا سيما مع الأنتروبولوجيا، التي كانت حينها في أوج انتشارها في العالم الناطق باللغة الإنجليزية. مختصر القول، لأنه قادم من الطرف الأقصى الآخر لأوربا، وبصفته ممثلًا صافيًا للقيم الليبرالية لإحدى أقوى الديمقراطيات الغربية، كان جونز تاريخيًا وسياسيًا، وجغرافيًا، رجل المستقبل في التحليل النفسي. لم يكن أبدًا يسعى لإغراء معلم يفترض بأنه سوف يجد بالقرب منه راحة أبوية، ولذلك

كان طموحه الوحيد خدمة «قضية» والدفاع عنها، حتى لو اقتضى الأمر منه أن يقف في وجه مؤسسها وأن يكون غير مخلص له. ومنذ البداية وقف في وجه فرويد، كوريڤ كان الوفاء عنده أكبر بكثير من التعلق بالشخص. وقبل فرويد مجبرًا من ذلك المشتغل بحماسة متوقدة، والذي لم يكن يشعر بأدنى رغبة في «التفوق على الأب»، أن يوفر له ليس مجرد الفعالية التي كان بحاجة إليها داخل تنظيم حركته والخروج الملحوظ بعيدًا عن «غيتو فيينا»، وإنما أيضًا الانفتاح على هذا العالم الجديد الذي كان يحلم به: مملكة شكسبير وكرومويل وفي ما وراء المحيطات، عالم إنجلترا الجديدة، ونظرًا لأن جونز لم يكن بإمكانه فك شيفرة كتابته الغوطية، فقد رضي فرويد منذ ذلك الحين وصاعدًا كتابة رسائله إمّا بأحرف لاتينية، وإمّا «بإنجليزيته الرديئة».

في لندن، لم يكن وضع هذا المريد الجديد يثير كبير حسد، فبعد أن فضحه أمام الناس شقيق إحدى مريضاته، وكانت راغبة بالطلاق من زوجها، ها هو يُتهم بأنه تكلم بفجاجة عن الجنس بين طفلين أخضعهما لاختبار. بالتأكيد، بيّض صفحته بالبراءة بعد ليلة قضاها في الحبس، لكنه قرر مغادرة بريطانيا العظمى والاستقرار مع صديقته لو كان[276] في كندا، حيث أقام هناك طيلة أربعة أعوام. ومن تورنتو تحديدًا بدأ يكاتب فرويد، في مواجهة بريل، فرض نفسه سريعًا جدًا كأفضل منظم لغرس الفرويدية ما وراء الأطلسي وذلك على وجه الخصوص بتأسيس الـ American psychoanalytic Association (APsaA[277])، بتاريخ 1911.

فهم فرويد كم كان على حق، رغم تحفظاته في البداية، حين ربط مصير حركته بهذا الغالي الذي لم يكن يحبه لكنه في طريقه إلى أن يلعب دورًا بارزًا، لما فيه النفع أو الضرر في تاريخ الفرويدية. ومهما كان تفكيره بصدده، فإن الهر - بروفسور كان قد وجد في جونز الصديق الذي لا غنى عنه والذي لا يكون أبدًا عدوًا.

حال وصوله إلى تورنتو، اصطدم جونز بوضع صعب، من جانب كان على صدام مع حركات دينية ترفض كل مقاربة عقلانية للأمور النفسية وتمجّد فضائل الشفاء بالمعجزات، ومن جانب آخر كان عليه مواجهة أنصار تيار كبير يقول بالطب النفسي الدينامي، والمستنير بأعمال بير جانيه ومورتون برانس، الاختصاصي الكبير بالشخصيات المتعددة ورائد مدرسة بوسطن في العلاج النفسي، وهذان الاثنان كانا في حرب لا هوادة فيها على النظرية الفرويدية. فهُما، باسم مقاربة طبية أخرى معتبرة أكثر «علمية»، كانا ينظران إلى الفرويديين على أنهم من المتشبثين بدين

جديد. وأما برجوازية تورنتو، فكان جونز يجدها مقيتة، هزيلة، غيبية.

وها هو، سريعًا، يقع ضحية حملة منظمة من طرف إحدى تلك الجماعات البوريتانية في العالم الجديد الذين دمجوا الفرويدية مع شيطان جنسي والتحليل النفسي مع ممارسة الدعارة والفجور.

لقد أصبح كبش فداء حقيقي، وها هو تنصب عليه الاتهامات بكل صنوف الجرائم الخيالية: إنه يخرض كما يقولون، الشباب على ممارسة العادة السرية، ويوزع على من حوله بطاقات بريدية مصورة فاحشة، أو يرسل مراهقين من أبناء عائلات شريفة عند العاهرات، وإذ كان عدوه على وجه التخصيص السير روبير الكساندر فالكونر وزير الكنيسة البروتستانتية ورئيس الجامعة، فقد لاحقته على حد سواء العدالة على يد الشهيرة إيما ليلا غوردون، أول امرأة طبيبة في كندا وعضوة في الحركة البوريتانية Temperance Union. وذاك أنها اتهمته باستغلاله جنسيًا لامرأة هستيرية، هاذية، مدمنة على حقن المورفين، وكانت تتعالج عنده وكان قد أعطاها بحماقة مالًا كي تخلي سبيله، وتعفيه من أمورها، وتحوّلت القضية إلى مأساة عندما حاولت المريضة قتله قبل أن تحاول الانتحار، بعد التلاعب به على هذه الصورة من طرف جمعية شعارها الفضيلة، أبعدوه خارج أونتاريو.

لقد منع من متابعة عمله في مثل ذلك المناخ من تعقب السحر والسحرة، ولهذا فكز جونز أن يجعل مقامه في بوسطن. وفعلًا، بتاريخ 1910، ها هو الودود جيمس جاكسون بوتنام[278]، المعتنق لمذهب فيينا رغم بوريتانيته، يضع نصب عينيه أن يوفر له منصبًا في جامعة هارفارد، مع تردده بالدفاع عنه نظرًا لميله المفرط للحديث حول الجنس أمام جمهور من المتحفظين، في نهاية الأمر، لم تنجح المحاولة وكان أن غادر جونز كندا أثناء صيف 1912 كي يستقر في لندن[279].

بعد عام من ذلك التاريخ، بنصيحة من فرويد، أمضى شهرين في بودابست كي يقوم فيرينتزي بتحليله في الوقت الذي كان يطلب هو شخصيًا أن يتولى المعلم علاج لو كان التي أصابها الذعر بسبب إقامتها في تورنتو، وراحت تتعاطى المورفين لتهدئة أوجاعها الناتجة عن التهاب الكلية والحويض، كانت من عائلة غنية من البرجوازية اليهودية الهولاندية، وكانت جميلة، وروحانية، وكريمة، ولم تكن لتقيم اعتبارًا لمن يريد أن يفرض عليها شخصيًا تأويلات لم تكن تبدو لها متوافقة مع الحقيقة. مع ذلك قبلت بمقابلة فرويد. فوجدها ممتعة وجرّب أن يشفيها من برودتها الجنسية ومن أوجاعها في أسفل البطن، وهو ما رأى فيه أعراضًا

هستيرية، وهنا انعقد إشكال قائم على تشوش في العلاقة بين المداوي والمريض، وهذا التشوش كان مميزًا جدًا في بدايات المعالجة بالتحليل النفسي.

إذا كان جونز غير منتبه بعد إلى أن «لو» في طريقها للتخلي عنه، فهو كان على حق بتشككه بفرويد الذي لا يكتم الأسرار كما كان متشككًا حيال فيرينتزي، لأن فرويد سوف يخبره عن حاله، وفي حقيقة الأمر، كان فرويد يعلمُ مريده الأثير إلى نفسه عن مراحل معالجة المرأة الشابة، بينما كان الهنغاري يكاشفه بأسرار جونز، في سبتمبر/أيلول 1912، استقرت لو في فيينا مع لينا، وصيفتها، وها هو فرويد يرجو من جونز - حسب القاعدة الشهيرة عنده، قاعدة التعفف التي كانت تروق له كثيرًا - الابتعاد «جنسيًا» عن مريضته، بعد أربعة أشهر، أصبح جونز عشيق لينا، بينما وقعت لو في غرام هربر «ديفي» جونز (الملقب جونز الثاني)، وهو مليونير أميركي تملك عائلته مناجم توتياء في وسكانسن. وفاءً منها لجونز الأول، رافقته إلى لندن كي تساعده ماديًا على إيجاد زبائن.

عشية الحرب، في بودابست، تزوجت من هربر دافي بحضور رانك وفيرينتزي. رغم ريبيتها حيال التحليل النفسي، أصبحت صديقة آنا فرويد، واحتفظت بعلاقات طيبة مع الهر - بروفسور. لكنها لم تُشفَ من إدمانها على المورفين، ولا من برودتها الجنسية، غير أن العلاج أتاح لها الانفصال عن جونز[280].

كان فرويد دائما وأبدًا ميالًا للتدخل في القصص الغرامية لمريديه، وهكذا كان يستخدم التحليل النفسي لتأويل معنى الخلافات التي تنبثق، ليس في حياتهم وحسب، وإنما في كل مرحلة من مراحل تكوين حركته، وهكذا كان ينظر إلى أنصاره القريبين جدًا منه على أنهم أيضًا مرضى، وهم من جانبهم يتجاوبون مع طلباته، كانوا جميعًا يتقاسمون الاهتمام نفسه، اهتمام اكتشاف اللاشعور الخاص بهم، وأحلامهم، وحياتهم الخاصة. كانوا لا يتوقفون عن تحليل بعضهم بعضًا مع استعراض الحالات المرضية لديهم في عياداتهم أثناء اجتماعاتهم أو أثناء تبادلهم للرسائل ما بينهم. باختصار، كان مريدو المعلم يطورون في تلك الحقبة هوسًا حقيقيًا وجهته التأويل[281]، متناسين بأن التأويل لا يجوز له أبدًا أن يغرق في الهذيان، ولا أن يستعمل كمخدر، ولا أن يغذي البهجة، لأن ذلك يعود بالأذى على قضية التحليل النفسي.

بالإضافة إلى ذلك، كان فرويد يقوم بتأويلات منظمة بخصوص النزاعات السياسية أو المذهبية، موجهًا عقدة أوديب المقدسة في تلك

التأويلات بحق أو من دون حق، بعد أن تحولت تدريجيًا على يد مقلديه إلى سيكولوجيا مختصة بالعائلة، وهكذا كان يطبق مفاهيمه، ليس على النصوص الأدبية وحسب، وإنما على مواقف فيها نزاعات ذات تفاهة كبيرة. وكان يرفض أن يرى في ذلك التطور تهديدًا سوف يجعل من التحليل النفسي عقيدة لاهوتية جديدة تريد تحييد كل شكل من أشكال التناقض أو الالتزام، بكل وضوح، أعطى هذا الانحراف جزئيًا الحق لأعداء الفرويدية الذين كانوا يعتبرون التحليل النفسي «منهجًا خطيرًا» ويبتهجون عند رؤية الانشقاقات في التحليل النفسي، وكيف يمكن عدم رؤية كبار الرواد لذلك المذهب الرائع وهم يقضون وقتهم بتصرفات ضمن سياق حياتهم، وكأنهم مخلوقات عاجزة عن التحكم بأهوائها؟ إنهم يلعبون بالنار.

وبتاريخ 1906 تحديدًا استدعى يونغ فرويد بخصوص حالة لشابة روسية اسمها سابينا سبيلرين[282]، وكانت تنتمي إلى وسط من التجار اليهود في روستوف، كانت قد نزلت في مستشفى برغولزلي بتاريخ 17 أغسطس /آب 1904 عقب حالة ذهانية، بعد أن تاهت من مصح إلى مصح من دون أن تتحسن حالتها أبدًا، وسوف لن يتأخر قدرها عن أن يصبح شعارًا لأسطورة أولى النساء المشتغلات بالتحليل النفسي، حسب التقرير الذي قام يونغ بكتابته في سبتمبر / أيلول 1905، كانت سابينا قد نشأت مع أهل عصابيين، وكان زواجهما قد ترتّب حسب رغبة عائلتيهما. ونظرًا لأن الأم شعرت برعب من «الأمور الجنسية»، فقد أمضت وقتها في سفريات وكانت تنزل في فنادق أوروبية فاخرة وتشتري حُليًا وثيابًا فخمة، أما الأب الأرعن والذي يفكر بالانتحار، فكان يضرب أطفاله، لا سيما الأبناء الذكور، ويوجّه الشتائم إلى ابنته، عندما بلغت سنّ السابعة، كانت قد بدأت تتكلم أكثر من لغة وفي المراهقة، انتهى بها الأمر إلى الشعور بالإثارة الجنسية عند رؤية يدي ذلك الأب الذي ضرب، أمام نظرها، مؤخرة شقيقها العارية[283].

وإذ أصيبت باندفاع نحو العادة السرية مترافقٍ مع طقوس مرتبطة بغلمية شرجية، أصبح من عادتها أن تطوي قدمها كي تضغط على شرجها لتحافظ على توازنها مع شعورها برعشة شهوانية عند كل محاولة لتحرير قدمها. لدى وصولها إلى برغولزلي، وعمرها آنذاك تسعة عشر عامًا، كان يبدو عليها الاستمتاع بطقوسها وبالاستمناء على تلك الطريقة وهي تصرخ صراخًا عاليًا في وجه العالم قاطبةً بصورة تشنجيّة.

في 1906، عرض يونغ حالتها على فرويد مشيرًا إلى أنه قام بمعالجة

الشابة على أساس أنها «هستيرية ذهانية»، غير أن فرويد قدم إليه تأويلًا من ابتكاره «في رأيه أن سابينا كانت تعاني من غلمة شرجية ذاتية مع تثبيت الليبيدو على الأب ووجود شذوذ مكبوت[284]».

ولم يقض عليه يونغ إلّا بين 1908 و1909 أن سابينا كانت قد وقعت في غرامه حتى أنها سببت « فضيحة خسيسة»، لكن الحقيقة كانت مختلفة كل الاختلاف؛ لأن يونغ، أثناء العلاج، أصبح فعليا* عشيق مريضته، ودامت علاقتهما لسنوات، أثناءها قامت بدراسات في الطبّ. وإذ شعرت إيما بالغيرة واليأس، فقد أذاعت القصة للجميع وأعلمت والدَي الشابة، هنا شعر يونغ بالذعر، وكان عليه في النهاية أن يعترف بالحقيقة أمام فرويد، الذي وقف في صف ولي عهده الغالي.

بعد شفائها من أعراضها، تحولت سابينا إلى امرأة أخرى بسبب العلاج وكذلك بسبب حبها لمعالجها: وهذا مسار كلاسيكي، يميز نوعيًا علاقات التحويل والتحويل المضاد، وهكذا أصبح تفكيرها موجهًا منذ ذلك الحين وصاعدًا نحو الانخراط للوقوف في صف القضية الكبرى، قضية التحليل النفسي. مع ذلك، نظرًا لأنها بقيت على حبها ليونغ، الذي، من جانبه، استمرّ يخصها بعلاقة غير شرعية، وإذ أصبحت ترغب بأن يكون لها ابن منه، فقد توجهت نحو فرويد، وهذا الأخير أشار عليها بأن تعلن الحداد على علاقة لا مستقبل لها وأن تستثمر عاطفتها في مجال أخر.

في 1911 دافعت عن أطروحتها حول حالة لامرأة ذهانية تمت معالجتها في برغولزلي[285]. وقدمت من بعد ذلك محاضرة في الـWPV عرضت فيها مقولاتها حول نزوة التدمير[286]، مشيرةً إلى أن تلك النزوة تخترق النزوة الجنسية. وكان أن استلهم فرويد هذه الفرضية معدلًا إيّاها، في بلورته لتصوّر جديد حول ثنائية النزوة.

في السنة نفسها، تزوجت من طبيب يهودي روسي، بافيل ناوموفيتش شيفتل، وهذا ما بعث في نفس فرويد فرحًا كبيرًا؛ لأنه في تلك الحقبة، لم يعد يريد أن يسمع أي حديث عن يونغ، ولا عن انتقاده الخاص لهرتزل والصهيونية، ولا عن الخطر الذي يتهدد التحليل النفسي بأن يدمج تحت عنوان «علم يهودي»: «من جانبي، كما تعلمون، كتب إليه، لقد شفيت من كل أثر لتفضيل الآريين وأريد أن أفترض، إن كان المولود ذكرًا، أن يصبح صهيونيًا راسخًا. يجب أن يكون أسمر البشرة أو في جميع الأحوال أن يصبح كذلك؛ لم نعد نريد رؤوسًا شقراء [...]. نحن كنا ونبقى يهودًا[287]».

في خضمّ هذه البلبلة بين فرويد ويونغ، لعبت سابينا سبيلرين دورًا جوهريًا في تطور العلاقات بين من كان عشيقها ومن اعتنقت قضيته،

وسعيًا منها لتجنب القطيعة بين الرجلين، كانت لهذا ولذاك، وبفضل «حيلة تاريخية»رهيبة، كاشفة عن تدهور وضع اعثبر ممثلا لنهاية حقبة محددة من التحليل النفسي، وعن مرحلة من الحماسة حيث الرجال لا غير - من المريدين أو من المنشقين - هم المسموح لهم ليس بمبارزات ثقافية لا غير، وإنما أيضًا الاعتقاد والإيمان بأنهم وحدهم من يمتلكون علمًا حول عالم النفس، القائم على انكسار السلطة الأبوية وعلى تمزد الأبناء، منذ ذلك الحين، سوف تكون القضية في مواجهة تشكيل جديد حيث يكون للنساء موقعهن ولتحليل الجنسانية النسائية أيضًا - إذ لم يعد الأمر يخص علاج الهستيريا المتمركزة حول فتيات من فيينا ضحايا لذكريات بعيدة - وأصبحت النساء رصيد معركة جوهرية في تاريخ التحليل النفسي.

اعتبارا' من 1910، دخلت النساء إذًا إلى تاريخ حركة التحليل النفسي ومن أوائلهن، هيرمين فون هوغ - هيلموس، كاتيانا روزنتال، أوجيني سوكولنيكا، مارغريت هيلفردنغ وأشهرهن لو أندرياس - سالومي[288].

في شهر سبتمبر / أيلول 1911، كان من حول فرويد في مؤتمر الـ Verein في فيمار مدينة غوته، خمسون من مريديه القادمين من بلدان متعددة. وعلى الصورة الملتقطة أمام درج الفندق الكبير، نراه مطلًا في الوسط وتحت قدميه مسند خشبي، بالاتفاق مع المصور، كان قد اختار إخفاء قامته القصيرة كي يظهر كمعلم تلك الأمكنة، إلى جانب يونغ، عن يساره، وفيرينتزي، عن يمينه. وأبعد منهما، أبراهام، وجونز، وبريل وإيتينغون وساش، من دون تنظيم، كان جميع أبناء فيينا حاضرين وكذلك بلولر وكثيرون آخرون: أوسكار بفيستر، السويسري الفونس مايدر، كارل لاندوير، بول بيير السويدي، لودفيغ جيكل. والصف الأول، احتلته ثماني نساء جالسات على كراسٍ بكل أناقة، إحداهن بقبعة على رأسها والأخريات بشعر مرسل، وجميعهن يرتدين جزمات وقد حزمن أوساطهن بمشدات: فرو إيما يونغ، منتصبة القوام ورائعة، فرولين طوني وولف[289] محيرة بغرابتها، ليبيلو، مشرقةً بجمالها، سابينا لم تكن في ذلك اللقاء.

أثناء تلك الساعة بسعادتها الغامرة، كان يونغ ما يزال ولي العهد المفضل، وفيرينتزي الابن المعبود، في مواجهة هذا الحفل من رجال ونساء، الذين قبلوا الوقوف أمام الكاميرا - الـcamera oscura، انطلق فرويد معلقًا تعليقًا بزاقًا على «مذكرات مريض عصابي» بقلم دانييل بول شريبر، عن القاضي المجنون والرئيس القديم لمحكمة الاستئناف في ساكسونيا، وكان مؤلف تلك السيرة الذاتية العجيبة ابن طبيب، دانييل غوتليب شريبر، من أتباع «التربية السوداء»، والذي اكتسب شهرة في

ألمانيا لأنه أراد مداوة انحطاط المجتمعات بخلق إنسان جديد مصنوع من تمرينات رياضية لتقويم اعوجاج الأعضاء: عقل سليم في جسم سليم[290].

من خلال سرده لحياته نجح دانييل بول، الابن، الذي تعالج في البداية في مصح للأمراض العقلية في ليبزغ، على يد البروفسور بول فليخسيغ، ثم في مستشفى برنا بالقرب من دريسدن، بالخروج من المصح مبرهنًا على أن جنونه لا يجوز أن يكون سببًا لاحتجازه، كان يؤكد بأن الله كان قد كلفه برسالة إنقاذ كي يتحول إلى امرأة من أجل إنجاب جنس بشري جديد، وكان أن جعل فرويد منه شخصًا مصابًا ببارانويا، متمردًا على السلطة الأبوية. وراح يحلل هذيانه باعتباره صادرًا عن مثلية جنسية مكبوتة وعن محاولة للتوافق مع صورة أب ميت تحوّل إلى قوة إلهية.

واختتم دراسته باستيحاء أسطورة النسر والشمس، التي كان قد استلهمها من يونغ، وذاك أن فرويد، استنادًا إلى ما كان يقوله شريبر عن علاقته مع الأشعة الشمسية وعن عجزه عن الإنجاب وإتمام وضع شجرة نسب جديدة، أشار إلى أن النسور في الأساطير القديمة، بطيرانها في الطبقات العليا من الغلاف الجوي، كان يُنظر إليها على أنها الحيوانات الوحيدة القادرة على أن تعقد مع الشمس، رمز القوة الأبوية، علاقة حميمة، ولذلك، فهي تفرض على فراخها امتحان التحديق في الكوكب الأعظم دون أن ترف جفونها، وإلّا يُصار إلى رميها خارج العش. أعاد فرويد إحياء تلك الأسطورة ووضعها في الزمن الحاضر مؤكدًا أن العصابي الحديث يحمل في أعماقه البقايا المقدسة من الإنسان البدائي[291]: فكل ابن يجب عليه مجابهة أبيه، وإلا يصير إلى الموت، وذلك كي يبرهن عن شرعيته.

إنه من جديد، يتحدث عن تاريخ تمرد ابن على أبيه: ابن مجنون، جنونه تولّد من جنون أب يقول بنظريات تربوية هاذية كان لها، في تلك الحقبة، مظهرٌ من أكثر المظاهر طبيعية ": إنه «قتل للنفس». كانت قصة دانييل بول شريبر تقدم عددًا من السمات المشتركة مع قصة أوتوغروس لكن فرويد لم يذكر كلمة واحدة عن ذلك، ودون شك لم يكن مدركًا لهذا الأمر، علمًا بأن غروس، بتاريخ 1904، كان قد علّق قبله على ذلك الكتاب[292].

سوف تصبح حالة شريبر موضوعًا كلاسيكيًا للتعليق والمراجعة على يد عشرات المحللين النفسيين الذين على العكس من فرويد، أخذوا بعين الاعتبار، بخصوص نشوء جنون شريبر، «النظريات التربوية لدى والده[293]»، وضمن منظور مختلف كل الاختلاف، عكف الياس كانيتي بدوره، بتاريخ 1960 في «الكتلة والاستطاعة»[294]، على قدر شريبر جاعلًا من منظومة

التفكير عنده إحدى مقولات التصور التآمري للسلطة إبان القرن العشرين، واقترح بأن تتم إضاءة الهذيان الدفين في أعماق ذلك المصاب بالبارانويا من أجل مقارنته مقارنة أفضل بانطلاقة القوة الغامضة آنذاك والتي سوف تنتهي أخيزا بالانتصار على الديمقراطية، وقلب نظام السلطة الشرعية، لتتحول إلى نقيضها: صورة ممجوجة لأنا أحادية، تلغي الغير، والعقل، والتفكير.

بتاريخ 1909 كان فرويد قد قبل، بعد طلب من والديه، القيام بتحليل كاتب من فيينا عمره خمس وعشرون عامًا، البارون فيكتور فون ديرستاي، المعروف بأموره الغريبة وهذياناته، كان أبوه، وهو يهودي هنغاري منح لقب نبيل، قد جمع ثروة بالعمل في بنك وفي التجارة. وكان فيكتور صديقًا لكارل كروس وأوسكار كوكوشكا، وهو يعاني من ذهان خطير ومن مرض جلدي ينسب مصدره إلى ما يشعر به من احتقار لعائلته وإلى الخجل الذي يشعر به بسبب منبته، طوال ما يزيد على عشرة أعوام، عاد ثلاث مرات متعاقبة، إلى برغاس كي يروي عذابه الموجع.

كما الحال مع شريبر، كان يحس بأنه ضحية «قتل نفسي». كان أسير تشوش من خلاله يقف حينًا في وجه كروس وحينًا آخر في وجه فرويد، وانتهى به الأمر إلى الشعور بأنه مضطهد من التحليل النفسي واستقبلوه في مصحات عديدة للأمراض العقلية من بينها مصح رودولفون أوبرانتشيتش، أحد مؤسسي جمعية الأربعاء[295].

بعد هذه التجارب، كتب رواية عن «حالته» وفيها يعرض ثنائيًا شيطانيًا يقوده إلى الموت. مع مرور السنين، انتهى الأمر بالبارون المجنون، الذي كان يظن أنه تحت تأثير سحر، إلى اتهام فرويد وريك بأنهما دمّراه. وبتاريخ 1935، أنهى حياته مع امرأته، التي تعالجت هي أيضًا من ذهان خطير في مستشفى الطب النفسي في شتينهوف[296]. هكذا كان مصير شريبر ذاك، ابن فيينا، البوهيمي والمهتم بالجمال، والذي كان يقال عنه إنه تلميذ فرويد الذي لم تنشر حالته أبدًا وإنما أشير إليها لا غير في بعض المراسلات وفي الصحافة.

بتاريخ 1912، بينما كان فرويد في عراك مع هذا الموت الجديد للنفس، بعد أن قام بالتعليق على «مذكرات» شريبر، اهتم يونغ أيضًا بموضوعة الكوكب الشمسي، لكن بطريقة مختلفة جدًا. كان قد عالج فعليًا مريضًا ذهانيًا - إيميل شفايزر -، والذي دخل إلى برغولزلي في 1901، وكان، إذا نظر إلى الشمس، يرى membrum erectum (قضيبًا منتصبًا). وكان شفايزر مقتنعًا بأنه يستطيع «التأثير على المناخ» وذلك

بتحريك القضيب المنتصب حسب حركات رأسه وبدلًا من تشبيه الزائدة القضيبية ببديل عن السلطة الأبوية، أرجع يونغ هذا الهذيان إلى طقوس ميترا[297]، الربة الهندو - أوربية، بينما أعاد فرويد تأويل الأساطير على ضوء التحليل النفسي، كان يونغ يرى في القصص الميثولوجية التعبير عن لا شعور قديم خاص بكل شعب ويقدم فرصة لولادة أنماط سيكولوجية. كانت المقولتان على تعاكس ولا يمكن التوفيق بينهما. إذ كان يونغ يعود إلى ما دون الشعور القديم عند المشتغلين بتحضير الأرواح والسحرة معتقدًا بأن الإنسان الحديث هو الوريث المباشر لأسلافه، أما فرويد فكان يستمد من أساطير الزمن الغابر أدوات قادرة على تحويلٍ مجازيٍ، لغويًا، لشرط الإنسان الحديث.

بعد 1913، تاريخ القطيعة بين ولي العهد والمعلم، وعشية الحرب القاتلة التي كانت في طريقها إلى تغيير مصير التحليل النفسي وأوربا والنساء على حد سواء، لن يشعر فرويد أبدًا بالحماسة نفسها حيال تلميذ آخر. كما لن ينجذب يونغ أبدًا لأي أب آخر كان يطمح بأن يحظى بعاطفته.

وأما سابينا سبيلرين، بعد انتقالها من وضعية المريضة إلى وضعية الطبيبة المعالجة، فكانت المرأة الأولى في تاريخ التحليل النفسي والتي قامت بعمل حقيقي في هذا المجال، وبالتالي دخلت في تاريخ ـ كانت النساء مبعدات عنه، لأنهن كان المطلوب منهن الاكتفاء بدورهن كمريضات وكزوجات. وكان مصيرها تراجيديًا، فبعد إسهامها بانطلاق حركة التحليل النفسي الروسي، سوف يتم القضاء عليها مع ابنتيها على أيدي النازيين، في روستوف - سير - لو - دون، في يوليه/ تموز 1942.

---

219 بتاريخ 1923، انتحر بقطع الشريان الكعبري، بعد إفلاسه بسبب هزيمة الإمبراطوريات الوسطى.

220 سوف تجتمع الـ PMG من أكتوبر/ت1 1902 إلى سبتمبر/ أيلول 1907. ليس لدينا صور ولا مادة مكتوبة عن المجادلات التي جرت ما بين 1902 - 1906. بما يتعلق بالحقبة اللاحقة، سوف نعود إلى: «أوائل المحللين النفسيين. دقائق جمعية فيينا للتحليل النفسي»، الجزء الأول:1906ـ 1908 (نيويورك، 1962)، باريس، غاليمار، 1976 مع «مقدمة» بقلم هيرمان نونبرغ: المصدر السابق، الجزء الثاني: 1908ـ 1910 (1967)، باريس، غاليمار، 1978؛ المصدر السابق، الجزء الثالث: 1910ـ1911(1967)، باريس، غاليمار1978؛ المصدر السابق، الجزء الرابع:1912ـ 1918(1975)، باريس، غاليمار، 1983. نجد في هذه

الكتب تدوين مائتين وخمسين اجتماعًا. انظر أيضًا إيلك مولهتنر، biographisches lexikon der psychonanalyse: die mitglieder der psychologischen mutwoch - gesellschaft und der wiener psychoanalytischen vereinigung، 1902ـ1938، توبنجن، ديسكورد، 1992، وكذلك إرنست فالزيدر وبرنار هاندلبوير، « فرويد، وأدلر، ومحللون نفسيون آخرون، من بدايات التحليل النفسي المنظّم إلى إنشاء الجمعية التحليلية العالمية» ، مجلة العلاج بالتحليل النفسي، 12، 4، 1992، ص219ـ232 أستندُ في هذا الفصل على حلقة البحث غير المنشورة التي أجريتها بخصوص هذا الموضوع في جامعة باريس السابعة - ديدرو في 1998.

221 ما بين 1902 - 1907، جمعية الأربعاء السيكولوجية كان عدد أعضائها الأصيلين ثلاثة وعشرين عضوًا من جنسيات متعددة، من بينهم، بالإضافة إلى فرويد، تسعة من فيينا، وستة من النمسا، وثلاثة من رومانيا (بوكوفين) وبولوني (غاليسيا)، وتشيكي (براغ)، وهنغاريان. من بين السبعة عشر عضوًا يهوديًا، سوف يبيد النازيون خمسة، (ألفريد باس، أدولف دويتش، ألفريد ميسل، إيزيدور إسحاق سادجر، غيدو بريشر). والباقون، الذين كانوا ما يزالون أحياء بتاريخ 1938 (أحد عشر شخصًا)، هاجروا إلى بريطانيا العظمى أو إلى الولايات المتحدة، في هذه الحلقة الأولى شكل الأطباء الغالبية العظمى (سبعة عشر طبيبًا) وكانت نسبة الانتحار أعلى قليلًا مما هي لدى باقي طبقات الأهالي: اثنان من أصل ثلاثة وعشرين. سوف تنتسب النساء إلى هذه الجمعية اعتبارًا من 1910، عندما تحولت الـ PMG إلى الـ wiener psychoanalytische vereinigung WPV. مرغريت هلفردنغ، من فيينا، سوف يبيدها النازيون، كما سوف يبيدون زوجها رودولف هلفردنغ.

222 أولغا هونيغ تعرضت للاستغلال الجنسي من شقيقيها، ورفضت تقديم شهادة إلى كورت إيسلر.

223 سيغموند فرويد: تحليل رهاب عند صبي صغير عمره خمسة أعوام (هانز الصغير)، (1909)، في «خمسة تحاليل نفسية»، باريس، PUF، 1954، ص 93 - 198، وOCF.P، الجزء التاسع، المصدر السابق، ص 1 - 131.ماكس غراف، «ذكريات عن البروفسور فرويد» (1942)، تل كل، 1988، ص52 - 111؛ « حديث مع كورت إيسلر» (1952)، مذكرات التحليل النفسي، 14، 1995، ص. 123 - 159. كورت إيسلر أنجز هو

الآخر بتاريخ 1995 حديثًا مع هيربر غراف، والحديث مسجل في مكتبة الكونغرس.

224 ويلهيلم ستيكيل، «السيرة الذاتية» «قصة حياة رائد التحليل النفسي»، طبع الكتاب إميل ا. غوتيل، نيويورك، 1950. فانسان بروم، «تلامذة فرويد الأوائل» (لندن، 1967)، باريس 1978 ،PUF. وبول روزن «الأسطورة الفرويدية» (نيويورك، 1976)، باريس، 1986 ،PUF. وقد انتحر ستيكيل، في المنفى، في لندن، بتاريخ 25 يونيه / حزيران 1940.

225 لقد كرّس مانيس سبيربر لألفريد أدلر سيرة تستحق الأعجاب: «ألفريد أدلر وعلم النفس الفردي» 1970، باريس، غاليمار، 1972. انظر أيضًا بول ا. ستيبانسكي «أدلر في ظل فرويد » (1983) باريس، 1992 ،PUF. ترجمة أعمال أدلر إلى اللغة الفرنسية في دار بايو، والقطيعة بين فرويد وأدلر كانت، من طرف كلٍ منهما، عنيفة إلى أقصى حد، وكان هنري ف. ايلينبيرجر محقًا حين نسب إلى أدلر وإلى تعليمه موقعًا هامًا في تاريخ الطب النفسي الدينامي وفي مجال المعالجات النفسية، وقد ألقى أدلر في جمعية الأربعاء السيكولوجية عشر مداخلات.

226 «مراسلات سيغموند فرويد مع الكاهن بفيستر»، 1909 - 1939 (1963)، باريس، غاليمار، 1966، ص 86.

227 «مكتبة فرويد. كتالوغ مفهوم، بلغتين ألمانية وإنجليزية»، بقلم جيم. كيث دافيس وجرهارد فختنر، لندن، متحف فرويد، وتوبنجن، ديسكورد، 2006، ص20، أرفق هذا الكتاب ب CD يضم جميع عناوين مكتبة فرويد.

228 سيغموند فرويد وكارل غوستاف يونغ «المراسلات »، الجزء الأول: 1906 - 1909، المصدر السابق، رسالة بتاريخ 19 سبتمبر / أيلول 1907، ص 141 - 142.

229 انظر أليكساندر غرنستين، «فرويد وتقاطع الدروب» (1990)، باريس، 1998 ،PUF. نجد في هذا الكتاب تحليلًا طويلًا للتفسير الممكن للكتب المنتخبة من طرف فرويد. انظر أيضًا سيرجيو باولو رواني، «Os dez amigos de freud»، ريو دو جانيرو، جمعية الأدب، 2003.

230 اسمه الحقيقي أوتو روزنفلد. انظر ا. جيمس ليبرمان، «الأداة قيد الفعل. حياة ومؤلفات أوتو رانك» (1985)، باريس، 1991 ،PUF.

231 أي من خارج المجمع الأصلي، ابن فيينا هانس ساش لم يكن هو الآخر

من بين أعضاء المجمع الأول، لقد انتسبَ إلى الـ WPV بتاريخ 1909، ثم جعلَ استقراره في برلين بتاريخ 1920 كي يسهم بانطلاقة الـ«du Berliner psyvhoanalytisches institut BPI ». وتيودور رايك، من أبناء فيينا هو أيضًا انتسب بتاريخ 1911. وصديق يونغ الكاهن أوسكار بفيستر قام بزيارة فرويد بتاريخ 1909 وارتبط معه بصداقة، وقد تبادلَ مع فرويد مراسلات هامة: «مراسلات سيغموند فرويد مع الكاهن بفيستر»، المصدر السابق، انظر «قاموس التحليل النفسي»، المصدر السابق.

232 انتهى الأمر بالعناوين الثلاثة لتندمج تحت عنوان واحد « inernationale zeitschrift fur psychoanalyse und imagos IZP imago »، وهي سوف تتوقف عن الصدور في 1941 كي تحتل مكانها مجلة يوميات عالمية للتحليل النفسي (IJB)، وأسسها جونز بتاريخ 1920. انظر «قاموس التحليل النفسي»، المصدر السابق.

233 الصديق المحترم جدًا، أفضل الرجال قاطبةً. انظر أندريه بولزنجر، «لوحة عن سيغموند فرويد »، المصدر السابق...

234 انظر آلان دوميولا، «صور فرويد، من خلال مراسلاته»، وجرهارد فختنر، «رسائل فرويد كمصدر تاريخي» (مع فهرس بمجموع رسائل فرويد المطبوعة في كتب)، «المجلة العالمية لتاريخ التحليل النفسي»، 2، 1998، ص9 - 108. إليزابيث رودينِسكو، حلقة بحث غير منشورة حول مراسلات فرويد، 1999.

235 سيغموند فرويد، «حول تاريخ حركة التحليل النفسي» (1914)، باريس، غاليمار، 1991، ص 13.

236 سيغموند فرويد، «سيغموند فرويد يعزفُ عن نفسه بنفسه »، المصدر السابق.

237 سيغموند فرويد، «صعوبة من صعوبات التحليل النفسي» (1917)، في OCF.P، الجزء الخامس عشر المصدر السابق، ص41_51.

238 وهو ما سوف يصبح بتاريخ 1936 الـInternational Psychoanalytical Association IPA. اعتبارًا من 1910، جميع الفرق المشكلة، ضمنًا الـ WBV، تجمعت داخل هذا التنظيم المركزي.

239 ساندورفيرينتزي، «الأعمال الكاملة. التحليل النفسي»، الجزء الأول: 1908 - 1912، باريس، بايو، 1968، ص 166.

240 ماغنوس هيرشفيلد (1868 - 1935): طبيب نفسي ألماني، ناضلَ في سبيل فهم أفضل للـ«الحالات الجنسية الوسيطة» (مثلية جنسية،

شذوذ، سحاق، غلو جنسي) وأشترك مابين 1908 و1911 بتأسيس جمعية التحليل النفسي في برلين، بتاريخ 1897، كان قد أسسَ أول منظمة لصالح مساواة الحقوق: اللجنة العلمية الإنسانية (Wissenschaftlich - humanitaires Komitee) التي سوف تصبح «معهد هيرشفيلد» انظر لور مورا، « قانون النوع. تاريخ ثقافي للجنس الثالث»، باريس، فايار، 2006.

241 ساندور فيرينتزي «حالات جنسية وسيطة»، في «كتابات بودابست»، باريس، EPEL، 1964، ص 255. وساندور فيرينتزي، «الأعمال الكاملة». التحليل النفسي، الجزء الأول: 1908 - 1912، باريس، بايو، 1968؛ «الأعمال الكاملة، التحليل النفسي»، الجزء الثاني: 1913 - 1919، باريس، بايو 1970؛ «الأعمال الكاملة، التحليل النفسي» الجزء الثالث: 1919 - 1926، باريس، بايو، 1974؛ «الأعمال الكاملة. التحليل النفسي»، الجزء الرابع: 1927 - 1933، باريس، بايو، 1982؛ «اليوميات العيادية، يناير / ك 2 - أكتوبر / ت 1» 1932، باريس، بايو، 1985. وأوتو رانك، «آفاق التحليل النفسي» (فيينا، 1924)، باريس، بايو، 1994؛ جورغ غروديك، «المراسلات»، باريس، بايو، 1982. وسيغموند فرويد، «المراسلات»، الجزء الأول: 1908 - 1914، باريس، كالمان - ليفي، 1992؛ «الـمراسلات»، الجزء الثاني: 1914 - 1919، باريس، كالمان - ليفي، 1996؛ «المراسلات»، الجزء الثالث: 1920 - 1933، باريس، كالمان - ليفي، 2000.

242 نجد هذه الفكرة في «الطوطم والتابو»، المنشور بتاريخ 1912 (باريس، غاليمار، 1993).

243 سيغموند فرويد وساندورفيرينتزي، «المراسلات»، الجزء الثاني: 1914 - 1919، المصدر السابق، رسالة فيرينتزي بتاريخ 23 مايو/ أيار 1919، ص393 - 394.

244 كارل أبراهام، «الأعمال الكاملة» (1965)، باريس، بايو، في مجلدين، 1989. سيغموند فرويد وكارل أبراهام، «مراسلات»، 1907 - 1925 (فرانكفورت 1965)، باريس، غاليمار، 2006.

245 تبادل فرويد وإيتينغون ثمانمائة وإحدى وعشرين رسالة «المراسلات»، 1906 - 1939 (2004)، باريس، هاشيت آداب، 2009. غيدوليبيرمان «التحليل النفسي في فلسطين، 1918 - 1948. أصول الحركة التحليلية الإسرائيلية»، باريس، 2012.

246 حول تطور التحليل النفسي في برلين، انظر ما سوف يأتي لاحقًا.

247 «Policlinique»: ومعناها عيادة في المدينة (polis). يجب عدم خلط هذا الاسم مع كلمة «polyclinique»، مكان علاج الأمراض المتعددة.

248 سوف نجد توصيفًا جميلًا جدًا لنشاطات المستشفى في كتاب هنري ف.إيلينبرجر، «تاريخ اكتشاف اللاشعور»، المصدر السابق. و«قاموس التحليل النفسي»، المصدر السابق.

249 أوجين بلولر، «الخرف المبكر أو حالات الشيزوفرينيا» (ليبزغ، 1911)، باريس، EPEL - GRES، 1993.

250 لا يوجد في اللغة الفرنسية طبعة كاملة لأعمال يونغ، فقد ترجمت مؤلفاته جزئيًا في دار ألبان ميشيل، انظر على وجه الخصوص «نشأة الأمراض العقلية»، باريس، ألبان ميشيل، 2001. مابين 1906 و1914، تبادل فرويد ويونغ ثلاثمائة وتسع وخمسين رسالة في مجلدين عند دار غاليمار بتاريخ 1975. أفضل المصادر لمعرفة تاريخ الحياة الخاصة ليونغ، هو السيرة بقلم دريدر بير، »يونغ»، باريس، فلاماريون، 2007. وقد تناول الكاتب على وجه الخصوص «البروتوكولات»، وهي تسجيل لأحاديث كانت ذات فائدة للخطوط الأولى للسيرة الذاتية بقلم يونغ (حياتي). هناك روايات عديدة للعلاقات ما بين فرويد ويونغ وردت حسب اختلاف مؤرخي السيرة. سوف نقرأ تحليلًا رائعًا عن قدر يونغ عند هنري ف. إلينبرجر، «تاريخ اكتشاف اللاشعور» المصدر السابق. انظر أيضا كارل غوستاف يونغ، «حياتي. ذكريات، وأحلام وأفكار»، وجمعت على يد أنييلا جافي (زيورخ 1962)، باريس، غاليمار، 1966. المؤلفات الكاملة ليونغ متوافرة في اللغتين الإنجليزية والألمانية. وقد أجرى يونغ أحاديثه مع كورت إيسلر في 29 أغسطس /آب 1953، LoC، صندوق 114، رف 4.

251 سيغموند فرويد وكارل أبراهام، «مراسلات كاملة»، 1907 - 1925 (1965) باريس، غاليمار، 2006، رسالة الثالث من مايو/أيار 1908، ص 71.

252 «سوف تكون مثل إشعياء، لو أنني موسى، ذاكَ الذي سوف يضع يده على أرض الميعاد للطب النفسي، وهي الأرض التي لا أستطيع أن ألمحها إلّا من بعيد»، سيغموند فرويد وكارل غوستاف يونغ، «المراسلات»، الجزء الأول: 1906 - 1909، المصدر السابق. رسالة فرويد تاريخها 17 يناير / ك2 1909، ص 271.

253 انظر إليزابيث رودينسكو، «كارل غوستاف يونغ. من الأنموذج الأمثل

إلى النازية، انحرافات بسيكولوجيا الاختلاف»، انفيني، 63 خريف 1998.

254 سيغموند فرويد وكارل أبراهام، «مراسلات كاملة»، 1907 - 1925، المصدر السابق، رسالة تاريخها 3 مايو/ آيار 1908، ص71 كما كان حال جميع معاصريه، وهو ما سبق أن أشرت إليه، كان فرويد يستخدم كلمة «عرق» وكذلك كلمتَيْ «سامي» و«آري»، من ابتكار فقهاء اللغة في القرن التاسع عشر. انظر إليزابيث رودينسكو، «عودة إلى المسألة اليهودية »، المصدر السابق.

255 كان يونغ موضع تبجيل كبير في كتاب تيودور فلورنوا، «من بلاد الهند إلى كوكب المريخ» (جنيف، 1900) باريس، سوي، 1983. انظر إليزابيث رودينسكو، HPF - GL، المصدر السابق.

256 وهو ما يطلق عليه إيلينبرجر اسم «العصاب الخلاق».

257 سوف يصبح يونغ المرشد إلى مدرسة في علم النفس التحليلي الذي لن يتجنب عوائق الانغلاق المتحزب، وسوف تظهر معاداته للسامية أكثر فأكثر اعتبارًا من سنوات 1930، وقد وضعت كتابات كثيرة عن القطيعة بين فرويد ويونغ. وقد أعطى دريدر بير وبيتر غاي عنها روايات مختلفة بصورة محسوسة، لكنها مع ذلك أكثر موضوعيةً من رواية جونز، وما جاء لدى ليندا دون هو الأهم في هذا المجال: « فرويد ويونغ. من الصداقة إلى القطيعة» (1988)، باريس PUF، 1995.

258 دريدر بير، «يونغ» المصدر السابق، ص 257.

259 سيغموند فرويد وكارل غوستاف يونغ، «المراسلات»، الجزء الأول: 1906 - 1909، المصدر السابق، رسالة تاريخها 28 أكتوبر /ت1 1907، ص 149. وفرويد تحديدًا هو أول من قدم فرضية «عقدة الحفاظ على النفس». أمّا القائم بالاعتداء الجنسي فكان كاهنًا كاثوليكًا صديقًا لوالده. انظر ديردر بير، «يونغ»، المصدر السابق ص 115.

260 كشفت هذه القضية بتاريخ 1975 من طرف ستيفاني زومستين - بريسورك، ابنة خال هيلين، ودُرست من طرف هينري إيلينبرجر. انظر «طب النفس» المصدر السابق.

261 إنه طبيب نفسي ملهم، واستمد إلهامه من التيار الظاهراتي الصادر عن إدمون هوسرل ومارتن هايدغر، كما كان لودفيغ بنسوانجر (1881 - 1966) في الوقت نفسه طيلة حياته معجبًا بفرويد ومذهبه. انظر سيغموند فرويد ولودفيغ بنسوانجر، «ال‌مراسلات»،
1908 - 1914 (1992)، باريس، كالمان - ليفي، 1995

262 توجد روايات عديدة لذلك اللقاء الذي لا يتكلم فرويد عنه في مداخلته حول تاريخ حركة التحليل النفسي ولا في التعريف بنفسه. وأنا بالتالي بحثت في تقاطع المصادر المختلفة. انظر ك. ج. يونغ، «حياتي»، المصدر السابق، وكذلك «حديث مدون على الآلة الكاتبة لكارل غوستاف يونغ مع كورت إيسلر» (1953). L o C ديردر بير يقدم رواية قابلة للتصديق تمامًا في «يونغ»، المصدر السابق، ص 182 - 189. انظر أيضًا لودفيغ بنسوانجر، الذي يستعرض جانبًا من الحادثة: «أحاديث، ومسارات، وفرويد»، باريس، غاليمار، 1970 ص267 - 277. ومارتن فرويد «فرويد، أبي» (لندن، 1957)، باريس دونويل، 1975. انظر أيضًا لندا دون «فرويد ويونغ. من الصداقة إلى القطيعة» المصدر السابق.

263 أتباع الروحانيات وتحضير الأرواح كان رأيهم بأن التيار الصادر من شخص في حالة تشنج يمكن أن يكون سببًا في طقطقة الموبيليا، وارتفاع طاولة، وتغيير بعض الأشياء لمواضعها.

264 إرنست جونز «حياة سيغموند فرويد وأعماله» الجزء الثاني: 1901 - 1919، المصدر السابق، ص 36. وفرويد شخصيًا، كما نعلم، لم يكن يشعر بمودة كبيرة حيال أوائل المريدين في جمعية الأربعاء، كما كاشف في فترة لاحقة بنسوانجر: «وإذن، هل رأيت الآن هذه العصابة؟»، في لودفيغ بنسوانجر، أحاديث، ومسارات وفرويد، المصدر السابق، ص 271. ومن هنا كانت إرادته بأن يحيط نفسه بمنتدى جديد.

265 لودفيغ بنسوانجر «أحاديث، ومسارات، وفرويد»، المصدر السابق، ص 268 - 269.

266 سيغموند فرويد «الهذيان والأحلام في /غارديفا / و. جنسن» (1907) باريس، غاليمار، 1986. ومع العنوان نفسه، باريس، سوي، مجموعة «نقاط ودراسات»، 2013، مع مقدمة جميلة بقلم هنري راي - فلود.

267 سيغموند فرويد «المراسلات» المصدر السابق، ص 270.

268 أوتو غروس « تحليل نفسي وثورة دراسات »، باريس، مطبوعات ساندر 2011، مع تقديم طويل ولافت بقلم جاك لوريدر. ويقدم ديردر بير رواية مثيرة للاهتمام عن العلاقات بين يونغ وأوتوغرو: يونغ »، المصدر السابق، ص 209 - 223.

269 يجب أن نقرّب مقولات هانس غروس من مقولات «التربية السوداء».

270 حول هذا الجانب من حياة غروس، يمكن الرجوع إلى كتاب مارتن

غرين «الشقيقتان فون رختوفن: حفيدتا العنصر النسائي في ألمانيا بسمارك، وجهًا لوجه مع أوتوغروس، وماكس فيبر ود. هـ. لورنس» (1974)، باريس، سوي 1979.

271 كان إرنست جونز يعمل حينذاك في المصح، انظر سيغموند فرويد وإرنست جونز «مراسلات كاملة « 1908 - 1939 (1993)، باريس، PUF، 1998، رسالة تاريخها 13 مايو /أيار 1908، ص47.

272 ثمة آخرون عديدون من بينهم فيكتور توسك، جورغ غروديك، ويلهيلم رايخ، وهم الثلاثة الأكثر شهرة وإبداعًا.

273 أوتوغروس، «التحليل النفسي والثورة»، المصدر السابق، ص 78.

274 إرنست جونز، «free associations memories of a psychoanalyst » نيويورك، بيزيك يوكس، 1995. بالإضافة إلى سيرة فرويد كتب جونز مقالات عديدة شكلت مجموعات كثيرة: «هاملت وأوديب» (1949)، باريس، غاليمار، 1967؛ «دراسات في التحليل النفسي التطبيقي»، الجزء الأول: دراسات متنوعة، والجزء الثاني: التحليل النفسي، الفولكلور، الدين (1923 - 1964)، باريس، بايو 1973. ما بين 1908 و1939، فرويد وجونز تبادلا ستمائة وإحدى وسبعين رسالة.

275 سيغموند فرويد وكارل غوستاف يونغ «المراسلات»، الجزء الأول «190: - 1909، المصدر السابق، ص 210 و233.

276 اسمها الحقيقي لويز دوروتيا كان.

277 ما بين الحربين العالميتين، سوف تصبح الـ APsaA القوة العظمى للتحليل النفسي في جمعية الـ IPA وذلك بتجميعها لكل جمعيات التحليل النفسي في أميركا، والتي تشكلت، من بعد ذلك، من جميع المهاجرين تقريبًا الناطقين باللغة الألمانية، الذين سوف يهربون اعتبارًا من صعود النازية في 1933. ومن لندن، سوف يحافظ جونز على سلطة حقيقية عليها.

278 جيمس جاكسون بوتنام كاتب فرويد، انظر «مدخل إلى التحليل النفسي في الولايات المتحدة، حول جيمس جاكسون بوتنام» (1958)، نشره ناتان ج. هال، باريس، غاليمار، 1978.

279 حول تاريخ غرس التحليل النفسي في كندا انظر «قاموس التحليل النفسي»، المصدر السابق.

280 ليز أبينانسي وجون فورستر «نساء فرويد»، نيويورك، بيزيك بوكس، 1992.

281 بتاريخ 1910، بعد وعيه للآثار المشؤومة لذلك الهوس أطلق فرويد اسم «التحليل النفسي المتوحش» على غلطة تقنية ارتكبها طبيب وتمثلت بأنه واجه المريض، منذ الجلسة الأولى، بالأسرار التي خمّنها لديه. سيغموند فرويد «حول التحليل النفسي المتوحش» (1910)، في OCF. P الجزء العاشر، المصدر السابق، ص 118 - 125.

282 قصة سابينا سبيلرين تحولت إلى موضوع في روايات عديدة وأفلام كثيرة، لا سيما الفيلم الناجح جدًا، من إخراج دافيد كروننبرغ «طريقة خطيرة»، 2011، وجرى استعراض هذه القصة مرات عديدة، انظر «سابينا سبيلرين بين فرويد ويونغ»، وهو ملف اكتشفه ألدو كاروتنوتو وكارلو ترومبيتا (روما، 1980)، طبعة فرنسية قام بها ميشيل غيبال وجاك نوبيكور، باريس أوبييه - مونتيني، 1981. في هذا الكتاب، تمّ تجميع أهم المقالات عن سابينا سبيلرين. انظر أيضًا «سابينا سبيلرين، حكاية كلاسيكية تنكّر لها التحليل النفسي» (ملف جماعي)، في الكوك - هيرون، تولوز، إيريس، 2009. وأيضًا «قاموس التحليل النفسي» المصدر السابق، يستعرض ديردر بير بالتفصيل، مقدمًا عناصر جديدة، معالجة سابينا وعلاقاتها مع يونغ وبلولر.

283 تقرير ك. غ. يونغ، وتحدث عنه ديردر بير، بعد الرجوع إلى أرشيف برغولزلي، في «يونغ»، المصدر السابق، ص 139.

284 سيغموند فرويد وكارل غوستاف يونغ «المراسلات» الجزء الأول: 1906 - 1909، المصدر السابق، رسالة تاريخها 27 أكتوبر/ت1 1906، ص 47.

285 «حول المضمون السيكولوجي لحالة شيزوفرانيا». نشر أولًا في الـ Jahabush، الجزء الثالث، أغسطس /آب 1911، ثم تم الرجوع إلى هذا النص والتعليق عليه من طرف يونغ في «تحولات ورموز الليبيدو»، الذي أعيدت طباعته تحت عنوان «تحولات النفس ورموزها»، جنيف، جورغ، 1973.

286 سابينا سبيلرين «التدمير كسبب للصيرورة» (1912)، في «سابينا سبيلرين ما بين فرويد ويونغ»، المصدر السابق، ص 212 - 262.

287 «سابينا سبيلرين بين فرويد ويونغ»، المصدر السابق، ص273. لن يتوقف فرويد أبدًا من بعد ذلك عن لوم سابينا لأنها بقيت متعلقة بيونغ، حتى وصل الأمر به إلى إعطائها تأويلات وحشية حول رغبتها بالحصول على طفل من يونغ، الذي لبس لبوسًا مثاليًا كأنه «فارس جرماني»، كي تعبّر تعبيرًا أفضل عن تمردها على أب كانت، فعليًا،

تتمنى لو أنجبت منه طفلًا.

288 إليزابيث رودينسكو «أوائل النساء المشتغلات في التحليل النفسي»، ألف وتسعمائة، مجلة التاريخ الثقافي، 16، 1998. وتم الرجوع إليها في توبيك، 71، 2000. وحلقة بحث غير منشورة، 1998. انظر أيضًا «قاموس التحليل النفسي» المصدر السابق. من بين اثنتين وأربعين عضوة في الـ WPV في 1938، نسبة الانتحار، والجنون، والموت العنيف كانت بينهن أكبر قليلًا مما هي بين الرجال، حلقة بحث غير منشورة «قاموس التحليل النفسي»، المصدر السابق.

289 أنطونيا آنا وولف (1888 - 1953): مريضة ثم معلمة ومريدة لكارل غوستاف يونغ.

290 دانييل بول شريبر، «مذكرات مريض عصابي» (ليبزغ، 1903)، باريس سوي، 1975، سيغموند فرويد، «ملاحظات تحليل نفسية حول السيرة الذاتية لحالة بارانويا» (1911)، في «خمس تحليلات نفسية»، المصدر السابق، ص 263 - 321، وOCF. P، الجزء العاشر، المصدر السابق، ص 225 - 305.

291 وهذه مقولة يعود إليها فرويد في «الطوطم والتابو»، المصدر السابق.

292 مارتن ستانجلن، استراتيجيات اكتساب الشرعية الذاتية في سيرة شريبر الذاتية ، في «شريبر في زيارة جديدة»، منشور سيريزي، مطبوعات جامعية في لوفان، 1989، ص115 - 127.

293 «حالة شريبر. مداخلات تحليل نفسي باللغة الإنجليزية»، مجموعة منظمة، مترجمة، وقدّم لها لويس إدواردو برادو دوإليفيرا، باريس، PUF، 1979. شوقي عازوري، «نجحتُ حيث فشل المصاب بالبارانويا»، المصدر السابق.

294 الياس كانيتي، الكتلة والاستطاعة، (1960)، باريس، غاليمار، 1966.

295 رودولف فون أوبرانتشيتش (1879 - 1964): طبيب ومحلل نفسي وسوف يهاجر إلى كاليفورنيا بتاريخ 1936.

296 نحن مدينون لإعادة تركيب هذه القصة التراجيدية إلى أولريك ماي. انظر أيضًا رينات ساش «بخصوص بحث أولريك ماي. حول تسعة عشر مريضًا يحللهم فرويد (1910 - 1920)» «إسان، 2، 2008، ص. 187 - 194. أولريك ماي» freuds patientenkalender: siebzehn analytiker in analyse bei freud (1910 - 1920) luzifer - amor، 2006، 37، 19، ص. 43 - 97 انظر أيضًا مايكل بورخ - جاكوبسن

«مرضى فرويد» المصدر السابق.

297 ك. غ. يونغ يستعرض الحالة عن «رجل الشمس ذات القضيب» في «تحولات الليبيدو ورموزه» (1912)، باريس، بوشيه - شاستل، 1953. كان يونغ قد عهد بمعالجة ذلك المريض إلى تلميذه جوهان هونيجر، المصاب هو نفسه باضطرابات مهووسة وأنهى حياته في مارس / آذار 1911 بتناول كمية كبيرة من المورفين.

الفصل الثالث
اكتشاف أمريكا

كما في جميع أرجاء أوربا، كان علماء الساحل الغربي للولايات المتحدة، المتأثرين بانطلاقة الطب النفسي الدينامي، يسعون إلى حل مسألة الأمراض العصبية. ففي ذلك البلد القائم على أكتاف أحفاد البوريتانيين الذين يشعر فرويد حيالهم بإعجاب كبير، كانت الديمقراطية مستوحاة من «إعلان الاستقلال» بتاريخ 1976 ومستندها في آن واحد على تصور فردي للحرية الإنسانية وعلى تأسيس الولايات الفيدرالية، وكان مشروعها يستمد إلهامه من الدين، من خلال «الآباء المؤسسين»، كان الشعب الأمريكي يعتبر نفسه الشارح الجديد للكتاب المقدس ووريث الحلف الإلهي المقدس مع إسرائيل. أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر بأكمله، توافق ازدهار الطب النفسي مع تطور الـ«State menetal hospital»، وهو نظام تأمين يتكفل بشؤون المختلين المعوزين، بينما توجد إنشاءات متعددة ومؤسسات خاصة تكرس نفسها لمعالجة الجنون[298].

وحين دعي فرويد لاكتشاف العالم الجديد، كان هناك تياران يتصارعان في مقاربة أمراض النفس: الجسمانيون، من طرف الذين ينسبون أصول الاضطرابات النفسية إلى مكوّن عصبي مع التبشير بـ«معالجة تربوية»، والمعالجون النفسيون، من الطرف الآخر، الذين، رغم انتقادهم لغلو الجسمانية، كانوا يسعون لإيجاد شرعية رافضين دمجهم بصفة معالجين لا غير، كان جميع كبار الاختصاصيين الأمريكيين لأمراض النفس - مورتوم برانس، أدولف ماير، ويليم جيمس، جيمس جاكسون بوتنام، ستانلي هال - من العارفين معرفة دقيقة للطروحات الأوربية. كانوا يتكلمون لغات عديدة، وقاموا بسفريات وتابعوا باهتمام مطبوعات جانيه، وفلورنوا، وبلولير، ويونغ، وفرويد.

وإذا كان طب الأعصاب، والطب النفسي، وعلم النفس لها دور رئيسي تلعبه في انطلاق المعالجات النفسية، فـ«الأخلاق المتمدنة» ظلت مكوّنًا جوهريًا في بلورة مختلف المقاربات العلاجية، لأن الأيديولوجيين الداعمين للمجتمع الصناعي الجديد، في ذلك البلد المتدين تدينًا عميقًا، كانوا فعليًا على اقتناع بأن تقدم الحضارة مرتبط باستقرار الأسرة أحادية الزواج، والإشراف الممارس على الحياة الجنسية[299]. ضمن هذا السياق، كان تأسيس أخلاق متمدنة يمر بإعطاء قيمة مطلقة لزواج الحب على

حساب الزواج المرتب، وبالتالي هناك إدانة جذرية، ليس فقط لجميع ممارسات «الزنا» - العادة السرية، السدومية، المص...إلخ. وإنما أيضًا لجميع أشكال العلاقات الجنسية خارج سور الحياة الزوجية: ما كان بشأن الرجال أم بشأن النساء، وإذ أصابهم الرعب من قوة الطاقة الجنسية (أو الليبيدو) - وهو ما اكتشفوه في تبعات سيئة تحل بالأجساد المتشنجة عند النساء الهستيريات - فإن المتمسكين بالأخلاق البروتستانتية انطلقوا في حدود عام 1900، في حرب صليبية على ما يتهدد تلك الأخلاق من «تبخر»، فكي يكون الليبيدو مفيدًا للأسرة المنجبة، كان من الضروري تحجيم مساره، وتخليصه من جنسانيته المحسوبة، أو حتى الموجهة نحو نشاطات توصف بأنها ذات ريعية، كالتعليم أو الاقتصاد، ويتم الإشراف عليه حتى داخل العلاقة الزوجية البرجوازية. وهكذا، في مواجهة منع المتعة خارج الزواج، كما تنادي جمعيات الفضيلة، ما يؤدي في النهاية إلى التعفف الإلزامي، ترسخت على التناظر إرادة كفاح، في الزواج، تصديًا لبرودة النساء وعجز الرجال جنسيًا. إذًا يتطلب «الزواج المتمدن» إلزاما ً بممارسة جنسية «في حدود الطبيعة»، قوامها في الوقت نفسه الجماع والوصول إلى ذروة النشوة - الأورجازم - والإنجاب، لكن بالمقابل، خارج رباط الزوجية، لا يحق لأي جنسانية «طبيعية» أن يرد ذكرها.

كانت هذه الوضعية مختلفة كل الاختلاف عن وضعية فرويد المدافع على العكس عن أن قمع الجنسانية هو في أساس العصاب وأن غياب الإشراف على النزوة الجنسية لا يؤدي مع ذلك إلى حل تلك المسألة. بتعبير آخر، في نظره، كان المثل الأعلى لـ«الأخلاق المتمدنة» أساسه، ليس المحافظة على الأسرة أحادية الزواج أو الإخلاص في العلاقة الزوجية، وإنما ضرورة التسامي بالنزوات نحو نشاطات خلاّقة. يقينًا، كان فرويد يرى بأن على الفكر التفوق على الحواس، لكنه كان يعلم أيضًا، لأنه بطبيب خاطر قد مارسه، أن أي تعفف جنسي لا يمكن فرضه على شخص ما باسم أخلاق صحية مستوحاة من معنى ديني[300].

ضمن هذا السياق تحديدًا دعاه عالم النفس اللطيف غرانفيل ستانلي هال لإلقاء محاضرات عدة في جامعة ورشستر، كلارك يونيفيرسيتي، بمناسبة الاحتفال بمرور عشرين عامًا على تأسيسها، كان مشهورًا بـ«حالات الهوس» لديه - كان يمشي حافي القدمين - وأنه على اقتناع بمصداقية النظريات الفرويدية حول الجنسانية، وهكذا فإن ذلك الاختصاصي الكبير بالطفولة والمراهقة، والقائل بالتزام الناحية الصحية، كان يجهل إلى أي مدى يحلم الهر - بروفسور، على الرغم من التفافاته المواربة، بأمريكا، وكم

كان يشعر بأنه موضع احتقار في أوربا. ثم إنه كان محبًا للسفر، ومعجبًا بأبراهام لينكولن، ويريد أن يرى «الدلادل»، كما كان يحلم بفتح أرض ميعاد جديدة.

وحين علم بأن يونغ كان قد دعي إلى الاحتفال نفسه، عقب انسحاب إرنست مومان، الاختصاصي بالطفولة، طلب من فيرينتزي أن يكون برفقته على حسابه شخصيًا، طوال أسابيع عدة اهتم جوهريًا بثيابه الداخلية وبالملابس الرسمية التي يجب أن يلبسها أثناء اجتياز الأطلسي، في الدرجة الأولى، على متن الباخرة جورج واشنطن، وهي مركب رائع للخطوط الطويلة، فخر شركة Norddeutscher Lioyd Dampfer، حيث فيها كبائن أنيقة، وأماكن للتدخين، وصالونات بديكورات، وأنتينات ماركوني، وشيزلونغ، وطوابق متعددة وجسور متشابكة، فهل ستكون هناك حفلات راقصة بملابس سهرة إلزامية؟ وما نوع الطعام الذي يقدم فيها؟ وما هي الاضطرابات المعدية التي يخشى وقوعها؟ كيف سيكون الحلّاق؟ والحمام؟ ها هو إذًا مزودًا بالباديكر، ومكدسًا كتبًا وملابس في حقيبة، وحضّر فيرينتزي تحضيرًا دقيقًا سفرةً مقترحًا في الوقت نفسه على فرويد قراءة كتب علمية حول أمريكا[301]، وهذا الأخير لم يلتزم بتلك النصيحة إطلاقًا.

التقى الرجال الثلاثة بتاريخ 20 أوغسطس / آب 1909 في بريم، عشية الإبحار، وتناولوا الغداء ببهجة في مطعم فخم، وبدفع ـ من فرويد وفيرينتزي، قرر يونغ وقف ما عاهد نفسه عليه من تعفف، وشرب نبيذًا لأول مرة منذ تسعة أعوام. وفسّر فرويد هذا الفعل كعهد جديد للتساهل والتخفيف تكريمًا له، وسرعان ما أطلت الهلوسات التأويلية، من هذا الطرف وذاك، أمام فيرينتزي الذي لم يشأ أن يدخل في اللعبة الكبرى للتحليل المتوحش.

عند المساء، دعا يونغ صديقيه إلى عشاء في فندقه وشرع على الفور برواية أسطورة الأجسام المحنطة لرجال من قبل التاريخ والتي عثر عليها في التوربيات الألمانية - الـ Moorleichen - والذين يُجهل كيف ماتو، حينذاك شعر فرويد بانقباض شديد، وأصيب بإغماء، حين استعاد وعيه، شرح أن هذه القصة تترجم أمنية قتل الأب على يد الابن. وها هو يونغ يرفض التأويل، وهو متهيج، مبينًا قيمة «القضية» ولام فرويد لاسترساله في هذا الهذيان الإسقاطي[302].

طوال فترة عبور الأطلسي، ومع مراقبة تحركات المحيط، استمر الرجلان في اللعب على تحليل كل منهما للآخر بصورة متبادلة. وإذ وجّه

تفكيره إلى التوابيت الزجاجية الموجودة في «قبو الرصاص» لكاتدرائية بريم، روى يونغ حلمًا كان قد رأى أثناءه جمجمتين بشريتين على أرض مغارة. وسرعان ما عاد فرويد ليؤكد أن صديقه يتمنى له الموت لا شعوريًا.

بينما كان المعلم يتهم ولي عهده بأنه يريد «قتل الأب»، أدرك يونغ فجأةً حقيقة التطور الحاصل في داخله. في واقع الأمر، إن انبهاره بالمغاور والموميات، وأطلال الماضي، كان يتجاوب مع تصوّره لعالم اللاشعور. فيونغ لم يتقبل أبدًا النظرية الفرويدية القائلة بلا شعور يتم التفكير به بمصطلحات الضرورة، وأنه منسوج من مكونات مكبوتة، ويتجلى بالكلمات في اللغة اليومية ولم يتقبل أبدًا فكرة ذلك «المشهد الآخر» الهيكلي الأثير إلى نفس فرويد، ذلك المشهد الآخر للذاتية والذي لا علاقة له بأي أمر سابق. كما أنه لم يستمد الالهام أبدًا من التراجيديين الإغريق.

كان يونغ بدأ يفكر منذ ذلك الوقت بإمكانية وجود ما هو أبعد من اللاشعور، وجود شكل من التمثل الأصولي يحمله كل فرد على ما هو مفترض في داخله باعتباره التراث الخاص بمجموع الجنس البشري، فالمغارة، والكهف، والأطلال، والنسب الممتد إلى الأسلاف، والأشباح، والمطمورات أو الأسرار غير المعترف بها شكلت تحديدًا مقولات أدت به إلى ذلك الاقتناع، أي إلى كل ما كان فرويد يحكم عليه بأنه غير عقلاني، وقيمته العلمية ضعيفة جدًا. فما كان يباعد بين الرجلين، لم تكن رغبة يونغ بأن «يقتل الأب»، وإنما استحالة أن يستطيع أي منهما مشاطرة الآخر تصوره عن الاستشفاء، والنفس، والجنسانية: «بدأت أشتبه، كما سوف يقول يونغ، بوجود أمر مسبق جماعي في النفس الفردية، أمر مسبق - a priori - اعتبرته في البداية كبقايا لأنماط وظيفية سابقة [...]»، «ولم يكن باستطاعتي أن أكاشف فرويد بتداعياتي الخاصة من أجل تأويل الحلم دون أن أصطدم بعدم تفهمه، وبمقاومته العنيفة. لم أكن بمستوى الوقوف أمامه ومجابهته. كما كنت أخشى أيضًا أن أخسر صداقته إذا تشبثت بوجهة نظري[303]».

في تلك الآونة، شرح يونغ بأن الجمجمتين كانتا جمجمة زوجة فرويد وجمجمة أختها، ولم يقبل فرويد كلمة واحدة من هذا التفسير كما أنه، لاحقًا، عبّر عن غضب صريح حين تبين له بأن يونغ يتعاطف مع ويليم ستيرن، عالم النفس البرليني، وخصم التحليل النفسي، ومن أتباع مبدأ قياس «العمر العقلي». لقد وصف فرويد ذلك الرجل بأنه «يهودي

مسكين[304]». مع ذلك، بسبب افتتانه بعبور الأطلسي وبالصداقة القوية التي ما تزال تربطه مع مريده، فقد برهن عن روح ساخرة حين لاحظ بأن اسمه مدونٌ «فروند» في جدول المسافرين، وشعر بفرح حقيقي حين تقاطع طريقه مع عامل على ظهر السفينة وهو يستمتع بقراءة «العلاج النفسي للحياة اليومية».

وعند الوصول، مع نهاية الصيف، إلى شواطئ العالم الجديد، وبعد حضوره في العشية حفل وداعٍ راقص، أحسّ فرويد أنه قد تملّكه انفعال شديد. كان قد حلم بأمريكا، وها هي هذه الأمريكا من خلال تلك الدعوة القيّمة، تقدم إليه الوعد بأن التحليل النفسي سرعان ما سوف يخرج خروجًا ظافرًا من «محيط فيينا»، وبينما راحت السفينة تنزلق بصمت على مياه مصب نهر هيستون كي تلقي المرساة، بتاريخ 29 أوغسطس/آب مساءً. في ميناء هوبوكن (نيوجرسي)، لمح تمثال الحرية الهائل يرفع أنواره. التفت حينذاك نحو يونغ وقال هذه الكلمات: «لو أنهم فقط يعلمون ماذا نحمل إليهم[305]...» وفي يناير /ك 2 كان قد كتب إلى فيرينتزي: «سوف يتوجب علينا سريعًا جدًا أن يشار إلينا بالبنان، حالما سوف يكتشفون الدعائم التحتية العميقة جنسيًا في علم النفس الذي نقول به[306]».

كي يواجه ما ينتظره، كان الهر - بروفسور قد عقد عزمه على ألّا يكتب أي محاضرة، وقرر دون أن يأخذ برأي جونز، أن يكون كلامه بالألمانية أمام الحضور، الناطقين تمامًا باللغة الألمانية، وخاصة أن يتناول الموضوع الأساس ألا وهو المسألة الجنسية.

كان بريل ينتظر الرجال الثلاثة على رصيف الميناء، وبصحبته برونيسلاو أونوف، الطبيب الأول في إيليس آيسلند. بعد الانتهاء من المجاملات، اصطحبهم إلى فندق مانهاتن، عند زاوية جادة ماديسون في الشارع 42، طيلة خمسة أيام، متجاهلًا اضطراباتهم الهضمية وتعبهم، جعلهم يكتشفون نيويورك: متحف الميتروبوليتان وآثاره الإغريقية والمصرية، متحف التاريخ الطبيعي، قسم الطب النفسي في جامعة كولومبيا، الأحياء المختلفة - شاينا تاون، هارلم - وكذلك حديقة كوني آيسلند بما فيها من مغريات، وحضر فرويد لأول مرة عرضًا سينمائيًا، وتجول بالتاكسي، ثم حاول زيارة زميل قديم من أيام الدراسة، سيغموند لوستغارتن، وخصوصًا زيارة إلي برناي وزوجته. كانوا جميعًا غائبين بسبب العطلة الصيفية. وراقب الإعلانات المكتوبة باللغة الألمانية، أو الإيطالية أو البيديش، وهذه الأخيرة تتضمن أحيانًا، وهذا ما أثار دهشته الكبيرة، أحرفًا

عبرية. أخيرًا، حكى لمارتا حجه إلى مطاعم عديدة، مشيرًا إلى مذاق القهوة، والفواكه، والخبز، والفطر، واللحم. باختصار، اعتاد على مخالطة شعب مدينة جديدة، شعب الـmelting pot الأمريكي: من السود، والآسيويين، والبيض، واليهود، والخلاسيين، في بعض اللحظات، شعر بأن ذلك الخليط لم يكن سوى الوجه الآخر لخليط أوربا الوسطى.

لساعات وساعات في سنترال بارك تناقش مع يونغ عن الاختلافات بين الشعوب و«الأعراق» لا سيما بين اليهود والـ«اريين». وانزلق الحديث من جديد إلى مجال الأحلام، شعر فرويد باعتلال بولي فسره يونغ، على طريقة فرويد، بأنه رغبة طفولية لجذب الانتباه إليه. ومن ثم أخذه إلى فندقه كي يخضعه لـ« تحليل في العمق»، وهو تحليل «يونغي» أكثر من تحليله السابق.

مثلما كان فرويد يرى في أحلام يونغ قصصًا عن قتل الأب كان يونغ يفتش في لا شعور فرويد عن أسرار نسائية غامضة مطمورة في مغارة أسرية. وحيث إنه لم يكن يهتم إلّا بما له علاقة بالتعفف الزوجي عنده، كان على اقتناع بأن فرويد، تحت غطاء التعفف، يخفي نشاطات مذنبة: «مادة حارقة»، أي علاقات جسدية مع شقيقة زوجته مينا، ولهذا السبب قرر، كي يخفف عنه، أن يجعله يعترف بأسراره المرضية[307]. وإذ تمسك فرويد بسلطته، فقد رفض تمرين يونغ، ويونغ استنتج من ذلك بأن فرويد يسيء معاملته رغم اقتناعه بأنه قد شفاه مؤقتًا من أعراضه[308].

تلك هي إذًا المبارزات التي لا معنى لها والتي كان يقوم بها، في خلواتهما، الرجلان العظيمان اللذان يمثلان أوربا في المقاربة الجديدة لعالم النفس، والمدعوان للتعريف بأعمالهما الطبية والعلمية أمام أعلى سلطات العالم الأكاديمي في إنجلترا الجديدة، وكل منهما على طريقته، كان يحرك الأدوات الخاصة باستكشاف عوالم النفس كي يسبب عذابًا للآخر.

لحق جونز بيونغ، وفرويد، وفيرينتزي، عشية الرحيل إلى ورشستر. وعند العشاء في Hammerstein Roof Garden، نصح فرويد مجددًا بألا يبالغ بالتقدم ضمن نطاق الجنسية، لكنه جهد ضائع. وبتاريخ 5 سبتمبر /أيلول، استقر بهم المقام في فندق ستاندش، في الغداة، حظي يونغ وفرويد بامتياز الإقامة في بيت ستانلي هال ومعهم في الوقت نفسه ويليم جيمس، عالم النفس الشهير، الذي يعتبر النظرية الفرويدية خطيرة - «a dangerous method» - وتأويله للحلم غير مفهوم، كان يشعر بأنه أقرب إلى يونغ نظرًا لما يحمله يونغ من اهتمام بالبارا سيكولوجيا، وبالروحانيات، وبالمداواة عن طريق الإيمان. كان فرويد يحلم بإقناعه

بقوة ورسوخ مذهبه، وكان جيمس يريد بأي ثمن مقابلة ابن فيينا، ذاك المغالي الذي أثار الاضطراب في عالم علم النفس. وتوجها معًا إلى ورشستر واحتفظ فرويد بذكرى مؤثرة عن جيمس كرجل، كان قد اشتد به المرض، لكنه يجابه الموت بصفاء.

لأول مرة في حياته، بتاريخ 9 سبتمبر /أيلول، أثناء عشاء عند مضيفيه، قام على خدمة فرويد خدم سود يلبسون زيًا رسميًا مع قفازات بيضاء. ورغم أن ستانلي هال راح يعلن عن إعجابه بالنظريات الجنسية لضيفيه، لم يكن ذلك ليغير شيئًا من حقيقته كوريث لعائلة قديمة من المزارعين البوريتانيين. وظهر على يونغ ما يشبه التأثر بما لقي من مديح وحسن استقبال لكنه مع ذلك كتب إلى إيما أنه لم يكن يقدر كثيرًا «التقدير الكبير للفضيلة» عند تلك العائلة «المتصلبة». وكي يضع مسافة بينه وبينها، استرسل مع جميع أنواع المزاح في سبيل إضحاك الخدم. إنه من أتباع تفاوت مراتب «الأعراق»، ولذلك كان يشعر بأنه أقرب إلى «أخوته الأفارقة» - الراسخين حسب رأيه بانتسابهم إلى النسب البدائي - منه إلى رجال بيض البشرة متمدنين من الساحل الغربي، وفرويد، الذي كان يرى في كل كائن بشري، بعيدًا عن أي اختلاف، شخصًا ذا صفة شمولية - فرادة -، لم تبدر عنه، من جهته، أدنى ملاحظة بشأن خدم مضيفيه[309].

بتاريخ 7 سبتمبر / أيلول، بعد نقاش مطول مع فيرينتزي حول ما سوف يبادر إلى قوله، بدأ فرويد سلسلة المحاضرات الخمس أمام قاعة تغص بعلماء بارزين[310]، ومن بينهم عالم الأنثروبولوجيا فرانس بوا وعالما الفيزياء ألبير ميكلسون وإرنست روثرفورد، وكلاهما حائز على جائزة نوبل، وويليم جيمس، وغيرهم كثيرون. لقد تكيف تمامًا مع براغماتية جمهوره الأمريكي، فاسترسل دون قراءة أي أوراق أمامه، مع عرض باهر لأعماله العيادية والنظرية، وكي لا يظهر بمظهر المالك لمذهبه، أفاض بمديح مؤثر حيال بروير، مبتكر كلمة: سيكو - أناليز- التحليل النفسي - «وعرض بحماس حالة» آنا و. «باعتبارها قصة شفاء عجائبي، من دون أن يعلم بذلك الصدد أن بيرتا بابنهيم كانت قد جاءت عبر الأطلسي في الوقت نفسه معه كي تتكلم عن البغاء. ثم إنه استعرض منهجه في تأويل الأحلام، وتصوره للكبت، وتقنيته في المعالجة، ورؤيته للهستيريا، وفي الختام، تناول بصورة مباشرة مسألة الجنسانية الطفولية، مشيرًا إلى حالة «الصغير هانز» ومقيمًا توازيًا مع عرض يونغ لحالة «آنا»»[311].

عند كل مرحلة من شروحاته، كان فرويد يقدم أمثلة محسوسة. وهكذا،

كي يشرح «تحزك الرغبة»، أشار إلى احتمال وجود، «مشاغب» جاء ليفسد سير محاضراته. فلو فرضنا وقوع مثل هذه الحادثة، كما قال، لا بد لأشخاص حاضرين في القاعة («المقاومات») لن يتأخر بهم الأمر للقيام بطرد ذلك المشاغب من المدرج: هنا يكون الأمر مرتبطًا بكبت يتيح لسير المحاضرة الاستمرار بهدوء. لكن المشاغب، عندما يصير خارج المدرج، يمكنه تمامًا إحداث ضجة أكبر، وإزعاج المحاضر ومستمعيه بطريقة مختلفة لكنها لا تطاق تمامًا كما الطريقة الأولى، فهذا بالضبط ما كان فرويد يطلق عليه اسم: المظهر المنزاح لحركة اللاوعي المكبوت.

حينذاك قارن المحلل النفسي بـ«وسيط» يكون بإمكانه الدخول في مفاوضات مع المشاغب كي يكون بالإمكان إعادته إلى المدرج بعد تعهده بألّا يعود إلى إزعاج الحاضرين. إذًا دور المحلل النفسي إعادة العرض المرضي إلى المكان الذي جاء منه، أي نحو الفكرة المكبونة.

كانت تلك المحاضرات تقترح نوعًا من التوفيق بين فرويد في البدايات، ذاك المتفائل من أيام العصر الجميل، المقتنع بأنه قدّم إلى العالم الدافع لثورة في فهم أعماق طريقة عمل النفس البشرية، لم يكن الوقت بعد قد حان في ذلك التاريخ لمناقشة النرجسية، والميتاسيكولوجيا، والمحاور المعقدة أو نزوة الموت، كان فرويد يتكلم عن الليبيدو، عن الشفاء، عن تعبيرات اللاشعور في الحياة اليومية، وبالإضافة إلى ذلك، بخصوص الجنسانية فقد برع بإيراد الأعمال الوضعية لستانفورد بيل، الباحث في جامعة كلارك، والذي كان قد جمع عينة من ألفين وخمسمئة حالة لأطفال: «لقد اشتغل بيل وفق الأسلوب الأمريكي كما نقول عنه [...]. ولن أفاجأ إذا اقتنعتم بتلك المعاينات لأحد مواطنيكم وإخوتكم بدلًا من الاقتناع بمعايناتي»[312].

لقد لاقت المحاضرات الخمس تقديرًا جماعيًا في ورشستر واستقبلوها استقبالًا ظافرًا في الصحافة المحلية والوطنية، وفي مقال جميل، وصف ستانلي هال تلك المحاضرات بأنها جديدة وثورية بما فيها من مفاهيم فرويدية، من دون أن يمنعه ذلك في ما بعد، وهذا ما أثار غضب فرويد بشدة، الاهتمام بمقولات أدلر، بتاريخ 10 سبتمبر /أيلول، أثناء عشاء حافل، أنعموا على فرويد، وكذلك على يونغ، بلقب دكتوراه في الحقوق، دكتوراه فخرية، من جامعة كلارك، وذلك سوف يكون التميز الجامعي الوحيد عند فرويد أما، عند يونغ، على العكس، فهو الأول في لائحة طويلة: وكان فخورًا بذلك لدى عودته إلى زيوريخ حتى أنه طلب ورقًا جديدًا لرسائل بترويسة «Med CG Jung LLD».

شعر فرويد بأن تلك الفترة الأمريكية وضعت حدًا لعزلته: «لم يكن عمري حينذاك سوى ثلاثة وخمسين عامًا، كما سوف يقول في 1925، كنت أشعر بأنني مليء بالشباب وبصحة جيدة، إذ كانت تلك الإقامة القصيرة في عالم جديد، بصورة عامة، ذات أثر طيب على حبي لنفسي؛ في أوربا كنت أشعر بشكل من الأشكال أنني منبوذ، أما في أمريكا فكنت أراني موضع ترحيب من أفضل الناس الذين يعتبرونني واحدًا منهم. كان ذلك بمنزلة استكمال حلم ليلي لا يمكن تصديقه، حين صعدت إلى منبر ورشستر كي ألقي الـ«الدروس الخمسة حول التحليل النفسي». لم يعد التحليل النفسي بالتالي تكوينًا هذيانيًا بل أصبح جانبًا قيمًا من الحقيقة الواقعية[313]».

بشأن صورة المجموعة الملتقطة يوم الاحتفال، نلمح وقوفًا في الصف الأول فرويد ويونغ، وقد ارتدى كل منهما معطفًا أسود، إلى جانب ستانلي هال، أدولف ماير، فرانس بوا، وويليم جيمس. ومن ورائهم، جونز، بريل، فيرينتزي، ميكيلسون، روثيرفورد. من بين أولئك الرجال من له لحية أو شارب، وبعضهم بعكاز وقبعة في اليد حيث، وإلى اليمين في الصف الأخير، سولومون كارتن فولر، المولود في ليبيريا وحفيد أرقاء أمريكيين عادوا إلى أفريقيا. وهو أول طبيب نفسي أسود في السلك الجامعي في مدرسة الطب في جامعة بوسطن، وكان يعرف أوربا وألمانيا معرفةً جيدة؛ لأنه كان تلميذ لـ ألويس الزهايمر في ميونيخ، قبل أن يصبح أحد الرواد الأمريكيين لدراسة المرض الرهيب، ونظرًا لأنه يمارس أيضًا العلاج النفسي، فقد حضر باهتمام وشغف محاضرات فرويد.

لم يكن للنساء أي وجود في الصورة، علمًا بأن امرأةً، إيما غولد مان، القوية الفوضوية الشهيرة هي التي قدمت عن تلك الزيارة أكثر التعليقات قوة وحيوية. هي أيضًا كانت تعرف أوربا وكانت تتكلم اللغة الألمانية، وحين كانت تتابع في فيينا، بتاريخ 1896، دراسات لتكون قابلة، توفرت لها الفرصة لمتابعة محاضرات فرويد. وفي ورشستر، تمنت لو تستطيع القيام بمداخلة في القاعة غير أن «السلطات» رفضت طلبها رفضًا قاطعًا، «متفجرة أكثر من اللازم، خطيرة أكثر من اللازم، هستيرية أكثر من اللازم»، هكذا كانوا يقولون عنها: «أهم حادث في زيارتي لورشستر، كما سوف تكتب في سيرتها الذاتية، هو مداخلة فرويد [...] لقد تأثرت تأثرًا عميقًا ببعد نظره الثاقب وببساطة عرضه. وسط جميع أولئك الأساتذة، بقاماتهم المنتصبة وهم يلبسون أحذيتهم العالية ويتلبسون هيئة الخطورة، وقد ارتدوا معاطفهم الجامعية، كان فرويد، بلباسه البسيط،

وبتواضعه، حتى كأنه غائب عن المشهد، يقف وكأنما هو عملاق بين مجموعة أقزام ممسوخين[314]».

«خلال أكثر من سنة بقليل، كتبت ليندا دون، كان فرويد قد انتقل من المجمع المتواضع في سالزبورغ إلى وضع أصبح فيه الأول على أقرانه في حقل علم النفس»[315]. وبينما رحل جونز من جديد نحو تورنتو، استمر يونغ، وفرويد، وفيرينتزي في رحلتهم. وكان أن زاروا شلالات نياغارا، ثم وصلوا إلى وادي كين في جبال أديرونداك بعد عبورهم بحيرة بلاسيد.

كما حال العديد من ممثلي الأرستقراطية في الساحل الغربي، كان بوتنام قد اشترى أرضًا وسط أشجار القيقب، والصنوبر. وفرويد، الذي كان يحب الغابات والطبيعة البدائية، شعر هناك بدهشة أمام عظمة المناظر وروعتها وبطريقة معيشة مضيفيه في تلك المزرعة القديمة التي حولوها إلى مقر إقامة ريفية مع صالونات، ومكتبات، وحمامات، ومدافئ حجرية وفي كل مكان هناك السيجار، ومن أجل استقبالهم، كانت عائلة بوتنام قد زينت الـChatter box - مكان الدردشة - المخصص للزوار بالأسود، والأحمر والذهبي، ألوان ألمانيا الإمبراطورية، ناسين بأن أيًا منهم لم يكن ألمانيًا، لكن من يبالي! غنى يونغ أغنيات جرمانية قديمة، وفيرينتزي ساعد فرويد على الشفاء من «زائدة عصبية» لم تكن سوى ظهور اضطراباته الهضمية المألوفة (Magenkatarrh). كان الهر- بروفسور يجد طبعًا الطعام الأمريكي «مخيفًا» ويرفض شرب الماء المثلج الذي يقدمونه، مطالبًا دائمًا، حيثما وجد، بنبيذ الرين[316].

بعد جهود كبيرة، وجولات طويلة، شاهد أخيرًا حيوان النيص، وكان حلمه أن يشاهد واحدًا، لكنه لسوء الحظ كان ميتًا، وفي سبيل التخفيف عنه، قدم إليه آل بوتنام تمثالًا للحيوان وضعه على مكتبه. لقد كان مسحورًا منذ أمد بعيد بالأمثولة التي جاء بها شوبنهاور، فيلسوفه المفضل، حول التواصل الاجتماعي: «في نهار قارس من نهارات الشتاء تراص قطيع من الدلادل في مجموعة متقاربة كي يحتموا من الصقيع عن طريق حرارة أجسامهم، لكنهم سرعان ما أحسوا بإصابات سهامهم الجارحة، وهو ما أجبرهم على التباعد. وحين قرّبت حاجة الدفء بينهم من جديد، تجدّد معهم التنغيص ذاته، بحيث أصبحوا متجمعين هنا وهناك بين الشرّين إلى أن انتهى بهم الأمر لإيجاد مسافة متوسطة جعلت تقاربهم محمولًا. وهكذا، إن الحاجة إلى المجتمع، المتولدة من الفراغ ومن رتابة الحياة الداخلية، تدفع الناس بعضهم نحو بعضهم الآخر؛ لكن طرائقهم العديدة بالتنافر، ونقائصهم التي لا تطاق تفرق بينهم من جديد، وكان شوبنهاور يستنتج

بالتالي أن الروح الاجتماعية كانت متعاكسة طردًا مع القيمة الثقافية للإنسان، وأن الحكمة الإنسانية تقوم على البقاء خارج المجتمع للعناية بالدفء الداخلي[317]».

رغم اقتحامه للعالم الجديد، لم يخفف ذلك من نظرة فرويد إلى أمريكا باعتبارها «آلة مجنونة»: «نجاحي سوف يكون قصير الأمد»، هكذا سوف يُسرّ سريعًا لبربارة لو، فالأمريكيون يتعاملون معي كطفل يتسلى بلعبته الجديدة، التي في فترة قصيرة سوف يتم استبدالها بلعبة جديدة[318].

بعد مرور سنوات على ذلك التاريخ، أصبح التحليل النفسي «العلاج العقلي» الأكثر شعبية في القارة الأمريكية، وقد أطاح بالمذاهب الجسمانية القديمة، وترسخ في الموقع المناسب في عالم الطب النفسي، مستهزئًا بالمبادئ الكبرى للأخلاق المتمدنة وحرّك حماسة الطبقات الوسطى، وهذا ما يجعلنا نفهم حينذاك الغضب المسعور الذي انطلق من عقاله، من بعد ذلك، وهو الغضب من ذلك الأوربي المتشائم، الذي ليس لديه سوى ميل ضعيف للقبول بمحور الخير والشر في مجال الجنسانية. ألم يزرع، بتاريخ 1909، الاضطراب في وجدان البوريتانيين المضطهدين؟

في واقع الأمر، لقد استقبل الأمريكيون التحليل النفسي استقبالًا ظافرًا لسبب لم يكن ضمن جدوله - علاج للسعادة - ثم أطاحوا به جانبًا بعد ستين عامًا لأنه لم يحقق الوعد، لأنه لم يكن يستطيع القيام به.

وكما لو أنهما حيواني نيص، كان يونغ وفرويد خطيرين أحدهما على الآخر، مثلما كان خطر التحليل النفسي على أمريكا وخطر أمريكا على التحليل النفسي، كان فرويد يعلم ذلك لكنه كان ما يزال يجهل بأن مذهبه بات عليه أكثر فأكثر أن يصبح «أمريكيًا» بمقدار ما سوف تصبح أوربا، بعد حرب أولى قاتلة، وبعد نفي معظم تلامذته، ضحية للنازية.

من إغماءات إلى خلافات، ومن منازعات إلى تأويلات متوحشة وإلى أمراض جسدية، اتخذت القطيعة بين فرويد ويونغ شكلا محسوسًا في صيف 1912، حين توجه فرويد على عجل إلى كروزلنجن ليكون عند وسادة بنسوانجر المصاب بورم خبيث[319]. كان قد أعلم يونغ بزيارته وظن أنه سوف يراه عند فراش صديقهما المشترك، لكنه نسي أن يقوم بدورة عن طريق كوسنخت، مقر إقامة يونغ الذي كان قد رتب أموره هناك، على ضفة بحيرة زيوريخ: وهذا سوء تفاهم جديد، ثم جاء انعقاد المؤتمر الرابع لـ Verein في ميونيخ: وحصلت فيه مناقشات مزعجة بخصوص مقال كارل أبراهام حول أمنحوتب الرابع، ابن الفرعون، وأخيرًا نشر يونغ لكتابه «تحولات الليبدو ورموزه»، وهو الكتاب الذي يقترح فيه تخليص مفهوم

الليبدو كليًا من صبغته الجنسية.

في أثناء هذا الوقت، استمر فرويد بنشر مذهبه والتوسع في جلاء ألغاز الفن والأدب. وكما كان شرلوك هولمز، كان يعشق الاسترسال مع فك شيفرة الحياة اللاشعورية لـ«عظماء الرجال»، ومنذ زمن طويل، كان ليوناردو دافنشي جزءًا لا يتجزأ من ذلك البانتيون للمختارين الذي كان يُكنُّ لهم إعجابًا لا حدود له.

في أكتوبر / ت1 1909، وتحديدا بعد رجوعه من جولته الأمريكية، قرر تخصيص دراسة لتلك العبقرية العالمية من القرن الخامس عشر، وهو الأعسر، المثلي الجنسي، النباتي، الذي كانت تجذبه «الرؤوس الغريبة والمضحكة»، والمعروف عنه أنه ترك أعماله من دون أن يكملها، المهندس، النحات، المشتغل بالتشريح، رسام الكاريكاتير، مهندس العمارة الذي كان في حياته موضع إعجاب جميع معاصريه، الابن غير الشرعي لبييرو دافنشي أحد الوجهاء الأغنياء، من علاقة له مع فلاحة بسيطة، المشهور والمحمي من الأمراء والملوك، من لودوفيك سفورزا إلى فرانسوا الأول، مرورًا بلوران دو ميديتشي.

أعلم فرويد يونغ بمشروعه، كما لو كان في طريقه إلى فتح قارة جديدة: «ميدان السير الشخصية يجب أن يكون أيضًا ميداننا. منذ رجوعي وليس عندي سوى فكرة واحدة. لغز شخصية ليوناردو دافنشي أصبح فجأة شفافًا أمام نظري، فهذه هي الخطوة الأولى في الترجمة الذاتية لشخصيته. غير أن المراجع حول ليوناردو هزيلة جدًا بحيث أشعر بأنني قد لا أتمكن من عرض ما أنا مقتنع به بالكامل على الاخرين بطريقة مؤثرة»[320].

كان فرويد مقتنعًا على وجه الخصوص بأن حياة ليوناردو العظيم الجسدية كانت العرض الكامل لإحدى فرضياته حول النظريات الجنسية الطفولية، وقد استخلص من ذلك بأن ليوناردو كان «غير نشيط جنسياً أو أنه كان مثليًا» وأنه «كان قد حول الجنس عنده إلى نزوع معرفي»، مع بقائه متعلقًا «بأنموذج أمثل قوامه عدم الاكتمال»، كما أنه يضيف مشيرًا إلى التقائه حديثًا عند أحد العصابيين (من دون عبقرية) بأعراض مرضية مشابهة، بتعبير آخر، مرة جديدة، ها هو يطرح فرضية يأمل بأن يتم التحقق منها على ضوء الحقائق.

كي يكتب دراسته، اعتمد على مصادر لا جدال حولها، وتقريبًا مترجمة بأكملها إلى الألمانية: السيرة التي وضعها ادموندو سولمي، ودراسة سميراغليا سكوغناميغليو المخصصة للطفولة والشباب عند دافنشي،

والدراسة الكلاسيكية لجيورجيو فازاري، ودراسة مؤرخ الفن الفرنسي أوجين مونتز و«وثيقة التصوير» بقلم دافنشي نفسه وكذلك «دفاتره»[321]، لكنه تحديدًا كان مدينًا للسيرة الروائية عند ميريكوفسكي، كتابه الأثير إلى جانب وسادته، بقسم كبير من فرضياته، في تلك الرواية التاريخية، ناهيك بأنها موثقة أحسن توثيق، يرسم الكاتب الروسي لوحة عن ليوناردو متخيلًا بأن جيوفاني بولترافيو، تلميذ هذا الأخير، كان يكتب سرًا يوميات معلمه، وهذا ما أتاح له أن يجعل من المصور شخصية منسجمة مع تصوره الثنائي للوثنية والمسيحية: التيارين العالميين اللذين لا يمكن التوفيق بينهما، كما كان يقول، فأحدهما وجهته نحو الله والآخر وجهته الابتعاد عنه، وقد صوّر لنا ليوناردو بألوان تُقرِّبه من المسيح الدجال، والهرطوقي، والكافر، والأنثوي، والذي لم يمس النساء أبدًا لرعبه من كل امتلاك جسدي. هذا التأويل لليوناردو بأنه متعدد الأوجه وكافر، ومأخوذ على حد سواء بابتسامة الملائكة الخنث وبالوجوه الوحشية المرعبة، والذي أخذ على عاتقه، من خلال فنه، تدمير الكتب المقدسة، فهذا ما كان يروق لفرويد، الذي كان يعرف معرفة جيدة باقي الكتب بقلم الكاتب الروسي نفسه.

كما معظم كتّاب سيرة ليوناردو تقريبًا، لم يتطرَّق ميريكوفسكي إلى وجود مثلية جنسية إيجابية عند المصور واكتفى بالتلميح إلى علاقاته الملتبسة مع معلمه أندرياديل فيروتشيو ومع اثنين من تلامذته، بولتافيو وفرانشسكو ميلتزي. كان التجاسر على الحديث بفجاجة عن الحياة الجنسية لدافنشي ما يزال، مع مطلع القرن العشرين، عملًا تخريبيًا يهدد بإثارة فضيحة هائلة[322]. علمًا بأن تلك الحياة كانت معروفة من دون التصريح عنها، ويكفي في هذا المجال الرجوع إلى الملفات كي نعلم بأن المصور كاد أن يموت على المحرقة بعد الوشاية به، بتاريخ 9 أبريل / نيسان 1476، عند «ضباط الليل» في مدينة فلورنسا، بسبب «سدومية إيجابية» مع جاكوبو سالتاريلي، المشتغل عند أحد الصاغة، والعاهر المشهور، لقد أمضى شهرين في الحبس قبل إطلاق سراحه لعدم توافر الأدلة، من دون أن يمنعه ذلك أبدًا من الاستمرار في الحصول على عشاق شباب، ناهيك أنه سوف يقول، بتاريخ 1505، إنهم كانوا قد أدانوه في شبابه لأفعال كان يمارسها دائمًا في سن النضج وكانت حينذاك من دون شك مستهجنة أكثر فأكثر.

كان قد استقبل في بيته جيان جاكومو كبروتي، الملقب Salai (الشيطان)، وهو لص صغير السن، رشيق اليد، بشعر مجعد وابتسامة مبهمة، وهو من سوف يصبح تلميذه ويرسم له لوحة موناليزا المتعزِّية.

وهكذا لم يكن لدى دافنشي «علاقات ملتبسة» مع الرجال، وإنما بالأحرى غراميات مستترة على امتداد عمره مخافة أن يلقى الإعدام. ومن غير المرجح أنه كان، كما تخيل فرويد، رجلًا «غير فاعل جنسيًا» وقام بتحويل الجنسانية عنده إلى نزوع معرفي بقوة فعلٍ تسامٍ. لقد عاش حتى وفاته بصحبة ميلتزي، الذي سوف يجعل منه وريثًا له.

بكل وضوح، كان فرويد يُسقط على تلك العبقرية التي هي موضع إعجاب رفيع المستوى إيمانه بالتعفف. فهو تحديدًا، وليس ليوناردو، من كان قد حوّل نزوعه الجنسي إلى نزوع خلاق، وفي جميع الأحوال، يبقى من الضروري تفسير ولادة تلك المثلية الجنسية. وكان فرويد يعلم بأن ألغازًا عديدة ما تزال معلقة يجب فك شيفرتها في حياة الرجل العظيم، لا سيما ذكرى طفولية واردة بعناية في «دفاتره». كان ليوناردو يشرح فيها لماذا كان يحب الطيور كثيرًا، إلى الحد الذي جعله يتخيل آلات قادرة على تحويل البشر إلى ملائكة تطير بأجنحة: «يبدو أنني سبق أن أسند إليّ في ما مضى، هكذا كتب ليوناردو، أن أهتم أيضًا اهتمامًا جوهريًا بالعُقاب إذ توارد إلى ذهني كذكرى أولى بعيدة أنني وأنا ما أزال في المهد، نزل عقاب حتى وصل إلي، ففتح فمي بذيله، ولمرات متكررة، صدم شفتي بذلك الذيل»[323]، أورد فرويد الترجمة الألمانية لهذا النص، حيث توجد كلمة «عقاب» (Geier)، لكنه في الحاشية الموجودة على الهامش يضيف الترجمة الأصيلة بالإيطالية حيث يتكلم ليوناردو عن طير آخر مفترس اسمه nebbio (الحدأة) وهي كلمة ترجمت في الألمانية بـHuhnergeier أو Gapelweihe. في هذه الترجمة، التي تستشهد بها سكونياميغيليو والمأخوذة من Codex atlanticus، كان دافنشي يقول بأن ذيل الطائر دخل «بين شفتيه» وليس أنه «صدم شفتيه»[324].

لقد أخذ فرويد محقًا بتلك الذكرى الطفولية التي لا تصدق، والتي تبدو وكأنها خارجة بخط مستقيم من «تأويل الأحلام»، غير أنه لم يتنبه إلى الخطأ في الترجمة، ولا أنه من دون شك نسي أن الكلمة ليست أسطورة؟ كان يسعى لحل لغز الرابطة التي تربط مثلية ليوناردو مع ذكرى طفولته، وها هو يضع بالتالي فرضية مفادها بأن كلمة «أم» كتبت عن طريق كتابة تشخيصية تمثلت بصورة العقاب، الذي يمثل رأسه ربة أمومية واسمه يلفظ Mout. وكان أن جعل ذلك التشخيص بالتداعي صدى للأسطورة المسيحية التي تقول بأن العقاب، وهو طائر مؤنث، يفتح مهبله كي يتم إخصابه بالريح، مجسدًا هكذا العذراء الحامل من دون دنس.

وبتقريب هاتين الأسطورتين من ذكرى ليوناردو الطفولية، يستخلص

فرويد بأن المصّ بالذيل لم يكن سوى إعادة لموقف أقدم عهدًا، موقف الرضيع الذي يتناول حلمة الأم في فمه. وهكذا فإن تذكر العقاب والتجانس السلبي المرتبط به يجب أن تُفهم ضمن علاقة مع طفولة المصور، الذي ربته أمه، كاتارينا، وهي الموضوع الحصري لعشقه، من دون أب يتوحد معه في لحظة انبثاق جنسانيته، ما يعني أن فرويد أوجد علاقة سببية بين ارتباط ليوناردو الطفولي بأمه وقصة خلق المثلية الجنسية عنده، ثم إنه يفسر تلك المثلية بانطواء على مرحلة من الغلمة - الذاتية التي أدت إلى ألّا يحب سوى بدائل عن شخصه بالذات وهكذا كما راح يفسر، بأن المثلي الذكوري يكبت عشق الأم بعد أن يكون قد ارتبط بها، ويجد من ثم مواضيع غرامية على طريق النرجسية[325].

حتى تلك اللحظة كان فرويد قد اكتفى، بخصوص التحول الذكوري، بتصريحات متناقضة، فهذا التحول المعكوس يصدر، حسب رأيه، ليس من عنصر وراثي، وإنما من ثنائية جنسية أو حتى من استعداد مسبق أو غلمة - ذاتية. لكن، بما يخص ليوناردو، تكلم لأول مرة عن تثبيت على الأم وعن اختيار نرجسي يستبعد التوحد مع الأب، وتوجه سعيه بكل وضوح إلى حل لغز الابتسامة الشهيرة لموناليزا ديل جيوكوندو، التي تتحدى متأمل تلك اللوحة بحيث يطيش صواب جميع الاختصاصين الناظرين إليها، منذ أربعة قرون، أما غوته فجعل منها التجسيد الأصفى للعنصر النسائي، ما يعادل المثل الأعلى الإغريقي الذي وضع في التماثيل القديمة. وأمّا في نظر فرويد، كان ليوناردو قد صور بكل بساطة ابتسامة أمه، وهي أم تغيرت صورتها من خلال نظرة ابنها. وهكذا فرؤوس الملائكة الجميلة ورؤوس المراهقين المعجب بهم كما ورد عند المصور كانت تمامًا إعادة تشكيل لصورته الطفولية، والنساء المبتسمات لسماع ردود كاتارينا، التي كانت تضع تلك الابتسامة سابقًا على شفتيها، وهي الابتسامة التي فقدها هو شخصيًا.

كان فرويد مفعمًا بالجرأة كحاله دائمًا، ولذلك قام بتقريب مختلف بين الجيوكوندا والقديسة آنا المثلثة (Anna Metterza)[326]، مؤكدًا بأن اللوحة الثانية هي تكملة للأولى، إذ أن ليوناردو كان قد صور القديسة آنا ممسكة بابنتها مريم التي تحاول بحركة منها الإمساك بيسوع الذي يحاول أن يلعب مع حَمَل القربان، كانت آنا تجسد الكنيسة، ومريم تعلم بأن موت ابنها قادم، فالأولى تمسك الثانية التي تمسك الثالث، وكل شخص في هذا الثلاثي كان المفترض أنه يعلم بأن عذاب يسوع وقيامته أمران لا مهرب منهما.

لقد تناسى فرويد أن موضوع Anna Metterza كان كثير الرواج في تصوير القرن الخامس عشر، وأن ليوناردو كان قد رسم خطوطًا أولية لتلك اللوحة قبل التقائه مع موناليزا[327]، ولذلك زعم بأنه اكتشف وجود الأمين: كاتارينا من جانب، الزوجة الشرعية للأب، ودونا البييرا من الجانب الآخر، فهذه وتلك، كما كان يقول فرويد، كانتا بعمر واحد وابتسامة واحدة: «حين استقبل ليوناردو، ولم يكن عمره قد بلغ خمسة أعوام، في بيت جده لأبيه، كانت زوجة أبيه البيرا قد احتلت بالتأكيد في قلبه موضع أمه وقد دخل، من جانبه، في تلك العلاقة التنافسية مع الأب، الذي يجب أن نسميه طبيعيًا. وكما هو معلوم، فالاختيار القطعي للمثلية الجنسية لا ينشأ إلّا مع اقتراب سنوات البلوغ، وحين قام ليوناردو بهذا الاختيار، لم يعد التوحد مع الأب بذي أهمية على الإطلاق في حياته الجنسية وإنما استمر في مجالات آخرى لا علاقة لها بالنشاط الجنسي»[328].

لم يكن فرويد ينسب أمّين لليوناردو وحسب، لكنه كان يفسر بأن التوحد مع الأب كان شؤمًا بالنسبة إليه إذ، نظرًا لإحساسه بأنه أب أعماله، لم يهتم بها أكثر من اهتمام أبيه به. ومن هنا كان النقص الدائم في تلك الأعمال، وأخيرًا فإن حب الطيور والحلم بالطيران في الأجواء يحيلان، حسب فرويد، إلى رغبة طفولية بالولوج إلى نشاط جنسي كثيف تحول فيما بعد إلى ملكة لم يسمع بمثيل لها، ملكة إبداع أشياء غريبة تشبه ألعاب الأطفال، وها هو فازاري يروي بأن ليوناردو كان يفبرك حيوانات مجوفة وخفيفة الوزن ينفخ فيها كي يجعلها تطير، بل إنه ركّب أجنحة على الظهر لحرذون مضيفًا إليه عينين، وقرنين، ولحية كي يخيف أصدقاءه.

إن ابتكار فرويد لليوناردو القرن الجديد لاقى ترحيبًا في محله باعتباره ضربة بارعة وموفقة. ومن خلال أسلوبه، أصبح الكتاب شبيهًا برواية إرشاد - ما بين بلزاك وكونان دويل - تأخذ بيد القارئ إلى قلب عالم باطني يسيطر عليه، كما لو أننا أمام ربة مبهمة، الوجه الغريب المخنث لجيوكوندا ذات ابتسامة لا يمكن فك ألغازها: «إنه الشيء الجميل الوحيد الذي قمت بكتابته»، هكذا سوف يقول بتاريخ 1919. كان فرويد، في مواجهة علماء النفس المعاصرين له، قد ربط تاريخ العصابي الحديث بالاسم المزدوج: هاملت وأوديب، وها هو الآن، في مواجهة علماء الجنس، يطلق اسم ليوناردو على كل ممثل لـ«النسل الملعون» من غابر الأيام، وهو لن يكفّ فيما بعد عن تغيير رأيه حول مقاربته الطبية للمثلية الذكورية[329].

في حواشٍ أضيفت بتاريخ 1919، علق على الرسوم التخطيطية، مبينًا أن دافنشي في أحد تلك الرسوم كان قد مزج بين جسدَي مريم وآنا، كما

لو أنها عملية تكثيف، بحيث لم يعد بالإمكان تمييز إحداهما عن الآخرى، إلّا من خلال الوجه لا غير، كما أنه حلل رسمًا شهيرًا للمصور يمثل فيه عملية جماع ويستنتج منه بأن دافنشي قد تعامل بشيء من الإهمال مع جهاز الأنوثة التناسلي.

على امتداد سنوات، جعل مريدو وأصدقاء فرويد لعبة يتسلون بها باسم «صورة لا شعورية مطلوب أن يخمنوها»، وبتاريخ 1923، تخيل أوسكار بفيستر أنه اكتشف الخطوط الخارجية لعقاب في طيات الثوب الذي يلف المرأتين في لوحة Anna Metterza. وفعليًا، بلعبة التأويلات رغم أنها تأويلات عقلانية، نقش فرويد اسمه، من دون أن يعلم بذلك، في الخط المستقيم لأدب رمزوي وثنائي الجنس موضوعه أسرار حياة دافنشي وأعماله، كي يجعل من ذلك المصور العالمي شعار رؤية مجنسنة عن الكتب المقدسة[330].

في تلك الدراسة، يردّ أيضًا على يونغ المولع بذلك النمط من الأدب، فلم يعد يتكلم عن قتل الأب، وإنما عن العلاقة المبكرة مع الأم كما لو كان يريد أن يبين بوضوح أن الأم تشغل موقعًا حاسمًا رمزيًا، تمامًا موقع الأب في تطور الطفل، وفي ذلك النص، لا تعود الأم منتسبة إلى وضوح طبيعي وإنما إلى وضعية هيكلية. وهكذا استكمل فرويد من خلال تلك الدراسة تصوره للأسرة الغربية، مجازفًا مع ذلك بتغيير حكاية عظيمة عن الأصول - تلك الحكاية التي كان هو شخصيًا مبتكرها - إلى علم نفس مبتذل.

وفعليًا من بعد كتابة دراسته الشهيرة عن ليوناردو تحديدًا استخدم لأول مرة مصطلح Odipuckomplex - عقدة أوديب -[331]. كان يزعم بأنه يترجم طبيًا، على خلفية مشهد بدائي أو جماع موهوم، قصة الرغبة بالأم والتنافس مع الأب، فبعد أن شرح كل ما يحمل الصبي الصغير من احتقار للعاهرات حين يكتشف بأن أمه تشبههن لأنها تنام مع الأب، وها هو يشير: «يبدأ باشتهاء الأم نفسها، بالمعنى المكتسب مؤخرًا، وبكراهية الأب من جديد باعتباره الغريم الذي يقف عائقًا أمام تلك الأمنية. إنه يقع كما نقول تحت سيطرة عقدة أوديب، وهو لا يغفر لأمه ويعتبر علاقتها الجنسية، ليس معه وإنما مع الأب، بأنها خيانة»[332].

بمناسبة تغلغل جديد في قارة أخذ على نفسه استكشافها - قارة الأنتروبولوجيا - تابع فرويد موضوعته حول قتل الأب حين نشر، بين 1911 و1913، أربع دارسات جُمعت في ما بعد تحت عنوان «الطوطم والتابو»، أحد أجمل كتبه[333]. فالطوطمية، كما هي الهستيريا، كانت تجتذب علماء نهاية القرن التاسع عشر، ومفادها إقامة ارتباط بين نوع طبيعي

(حيوان) وجماعة قوامها الزواج من جماعات أخرى من أجل إعطاء توصيف لوحدة أصولية افتراضية بين مختلف الوقائع الإثنوغرافية[334].

كان الكتاب معروضًا كحكاية داروينية عن أصل الجنس البشري، وعن القدرة الخلاقة للتفكير، وعن علاقة البشر بالآلهة. وهكذا كان يسبح بعكس تيار تطور الأنثربولوجيا الحديثة، التي كانت قد تخلت، في تلك الحقبة، عن ملاحقة القصص الميثولوجية الغابرة من أجل دراسة العادات والتقاليد واللغة، وتاريخ الشعوب الأولى، من خلال بعثات ورحلات. وها هو عالم فيينا، الذي لم يسافر إلّا في العالم الغربي، يزعم بأنه يستكشف من خلال معرفة الكتب، ولا شيء سواها، أرضًا لا يعرفها. مختصر القول، لقد أخذ على عاتقه أن يحرك من جديد القصص الميثولوجية والسلالات الملكية في وقت بدأت في العلوم الحديثة - من فرانزبوا إلى برونيسلاو مالينوفسكي - قطيعة جذرية مع جميع المقولات القديمة بخصوص التعارض بين البدائي والمتمدن، بين الحيوان والإنسان، وأكثر من ذلك أصبح هناك الموضوعة الاستعمارية القائلة بتفاوت الأعراق.

على أن فرويد لم يكن يريد التخلي عن تلك العقدة، عقدة أوديب - Odipuskomplex التي وضع لتوه تنظيرًا لها، وأصبح سعيه أن يجعل منها، حيال وفي وجه كل شيء، عقدة شاملة مميزة لجميع المجتمعات البشرية وأنها في أصول نشأة جميع الديانات، ذلك كان مسار قصته كما عرضها بصورة محمومة على جميع مريديه في الـWPV: ففي زمن بدائي غابر عاش البشر وسط جماعات صغيرة متنقلة، فكل جماعة تخضع لسلطةٍ طاغية يمسك بها ذكر كان يستأثر بالنساء. ذات يوم أبناء القبيلة، الثائرون على الأب وضعوا نهاية للجماعة البدائية، وفي حركة من العنف الجماعي، قتلوا الأب وأكلوا جثته، لكن من بعد جريمة القتل، شعروا بالندم، واستنكروا فعلتهم ومن ثم ابتكروا نظامًا اجتماعيًا جديدًا أقاموه على التوازي وفق الزواج من جماعة خارجية (أو التخلي عن امتلاك نساء قبيلة الطوطم) وعلى الطوطمية، القائمة على تحريم قتل بديل الأب (الطوطم).

طوطمية، زواج خارجي، تحريم السفاح: ذلك هو النمط المشترك لدى جميع الديانات، لا سيما ديانات التوحيد. ضمن هذا المنظور، لم تكن عقدة أوديب، حسب فرويد، سوى التعبير عن رغبتين مكبوتتين (رغبة السفاح، ورغبة قتل الأب) وهما موجودتان في التحريمين اللذين قامت عليهما الطوطمية: تحريم السفاح، وتحريم قتل الأب - الطوطم. وبالتالي أصبح علينا أن نرى في عقدة أوديب مصطلحًا شاملًا، لأنه يترجم أكبر تحريمين قامت عليهما جميع المجتمعات البشرية.

كي يرتب فرويد هذه الحكاية، جعل مستنده الأدب التطوري، فمن داروين أوّلًا، استعار القصة الشهيرة عن الجماعة البدائية، كما وردت في «أصول الإنسان»، ثم نظرية الاستدراك، التي مفادها أن الفرد يكرر مختلف مراحل التطور الرئيسية للجنس البشري (نشوء الجنين تكرار لتطور الكائن)، وأخيرًا نظرية وراثة الطبائع المكتسبة وهي النظرية التي روجٌ لها شعبيًا جان - باتيست لامارك وعاد إليها داروين وهايكل. ومن جيمس جورج فرازر - مؤلف الملحمة الشهيرة «الغصن الذهبي»، قصة ذلك الملك القاتل في غابر التاريخ اللاتيني، والذي قتله خَلَفُهُ، علمًا بأن القتيل كان هو أيضًا قد وصل إلى السلطة بقتل سابقه -، استعار فرويد تصورًا عن الطوطمية كنمط تفكير عتيق عند المجتمعات الموصوفة بأنها «بدائية». ومن ويليم روبرتنس سميث، أخذ مقولة الوجبة الطوطمية والانتقال من الفئة إلى الجماعة، وعند ياسبر أتكنسن، استمد الفكرة القائلة بأن النظام الأبوي انتهى مع ثورة الأبناء والتهام الأب، وأخيرًا، من مؤلفات إدوار وسترمارك، أخذ الاعتبارات التي أوجدت الرعب حيال السفاح والضرر من زيجات الأقارب[335].

إذا كان فرويد قد جعل من البدائي مساويًا لطفل، وإذا كان قد حافظ على مراحل التطور، فهو بالمقابل يرفض جميع نظريات «الدونية» والحالة البدائية، وعلى هذا، لم يجعل من الطوطمية نمط تفكير سحري أقل تطورًا من الروحانية أو الديانة التوحيدية: بل كان ينظر إليه كأثر داخلي باق من جميع الديانات، وللسبب نفسه، لم يكن يشبّه البدائي بالطفل إلّا كي يبرهن على صحة الانسجام بين العصاب الطفولي والشرط الإنساني عمومًا، وليرفع على هذه الشاكلة عقدة أوديب باعتبارها نمطًا شموليًا. وأخيرًا، بخصوص تحريم السفاح وأصول المجتمعات، قدم فرويد إضاءة جديدة من جانب، وتخلى حتى عن فكرة الأصول بالذات، مؤكدًا أن الجماعة الشهيرة لم يكن لها من وجود في أي مكان: فالحالة الأصلية كانت فعليًا شكلًا مستدخلًا عند كل فرد (تكوين جنيني) لتاريخ جماعي (تكوين تطوري) يتكرر جيلًا بعد جيل: ومن جانب آخر، فهو يشير إلى تحريم السفاح وأنه لم ينشأ، كما ظن وستر مارك، من شعور طبيعي بالنفور عند البشر حيال تلك الممارسة، وإنما كان هناك على العكس رغبة سفاحية وهذه الرغبة على ارتباط مع التحريم المؤسس بصيغة قانون ونهي قطعي، وإلّا، لماذا بالفعل يجب تحريم فعل يسبب تنفيرًا مرعبًا كبيرًا لجماعة؟ بتعبير آخر، قدم فرويد إلى الأنثروبولوجيا فكرتين مستمدتين من مذهبه: القانون الأخلاقي، والشعور بالذنب، وبدلًا من الأصول، ثمة فعل حقيقي:

القتل الضروري؛ وبدلًا من النفور المرعب من السفاح، ثمة فعل رمزي: استدخال المحرَّم، ضمن هذا المنظور، قام كل مجتمع على قتل الملك، لكنه لا يخرج من الفوضى القاتلة إلّا بمقدار ما يستتبع قتل الملك قصاصًا وتصالحًا مع صورة الأب، التي هي وحدها القادرة على أن تسمح بنشوء الوعي والوجدان.

وهكذا كان كتاب «الطوطم والتابو» في بداية الأمر كتابًا سياسيًا مستلهمًا من كانط مثلما أنه بيان يرفض بسيكولوجيا الشعوب، ذلك العلم الأثير عند يونغ. وسوف أقدم من طرفي فرضية تقول إنه أيضًا ثمرة للرحلة الأمريكية التي تطرق فيها الرجلان أغلب الأحيان إلى مسألة امتزاج الـ«الأعراق» والـ«إثنيات»، لا سيما في نيويورك. لم يكن فرويد يتقاسم مع يونغ أي رأي مشترك بخصوص ذلك الموضوع والبرهان على ذلك هو «الطوطم والتابو». وبدراسته حول ليوناردو، كان فرويد قد أعطى امتيازًا للعلاقة بالأم ردًا على يونغ، وها هو الآن يعود إلى التمرد على الأب كي يثبت قطيعة جذرية، على حد سواء مع النسبية اليونغية ومع كل شكل آخر من الاستعمار.

قدمت دراسته أخيرًا نظرية حول السلطة الديمقراطية المتمحورة على ثلاث ضرورات: ضرورة فعل تأسيسي، ضرورة القانون، ضرورة التخلي عن الطغيان، ومع هذا، إن كتاب «الطوطم والتابو» لم يستقبل بصفة كتاب سياسي وإنما بصفة إسهام جدي في التحليل النفسي والأنثروبولوجيا، لم يحرك الاستهجان المتخفي لكنه أثار انتقادات قاسية، غالبًا في محلها والحق يقال. فعليًا كان فرويد ما يزال على تعلقه بأطر التطورية التي كان علم الأقوام في مطلع القرن قد بدأ يتحرر منها، وفوق ذلك كان يزعم التحكم بميدان لا يعرف عنه شيئًا إلّا من خلال أعمال معاصريه. والانتقاد المستفيض في 1920، والذي قام به عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي ألفريد كروبير، المختص بهنود أمريكا الشمالية، سوف يأخذ هذا المنحى وسوف يعود إليه ويتابعه ممثلون عديدون لذلك الفرع العلمي.

وتحديدًا بسبب ما لاقاه من مقاومة، أثار «الطوطم والتابو» مادة غنية طوال ستين عامًا، لمجادلات ما تزال دائرة حتى يومنا هذا. وقد شارك جونز فيها مشاركةً فعالة، لا سيما مع مالينوفسكي، كما ثارت عقب ذلك منازعات عديدة مع جيزا روحيم وجورج ديفيرو[336]. كان «الطوطم والتابو» آخر كتاب رئيسي لفرويد من الزمن الجميل، ذلك التفكير الحالم على طريقة روسو حول الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة والتمدن وهو ما يستدعي الإشارة، على الصعيد الطبي، إلى قصة شريبر. فهي ما تزال

تحمل نبض المثل العليا المسيانية التي تشرب بها أوائل الفرويديين. إن من يقرأ هذا الكتاب، يتكون لديه حقًا الانطباع بأنه يرى فرويد يتجول في قلب طبيعة بدائية مسكونة بقصص مغامرات من التي كان قد أحبها في طفولته، وها هو يجتاز جغرافيا القصص الميثولوجية والمعتقدات عبر كتب صادرة عن حقبة مضى زمانها، وبالحيوية نفسها التي كان يأخذ بها إجازاته الصيفية ويقضيها في إيطاليا، مبهورًا بليوناردو، أو متوجهًا نحو الجنوب بحثًا عن غارديفا لا يمكن إيجادها.

بعد سنوات من الجولة الأميريكية، وبعد وقوع القطيعة، تعرض يونغ لهجمة هلوسات وشعر بالخوف من الضياع في مهاوٍ من الجهل حتى نسيان أنه يسكن كوزنخت وأن عنده امرأة وأطفال. كان قد خسر معلمًا، وصديقًا، ومتواطئًا. من الطرفين، كانت القطيعة عنيفة إلى أقصى حد، على الرغم من جهود إيما، التي حاولت مثل سابينا سبيلرين، أن تساعد على عدم قطع الرجلين لجميع الجسور، لقد استمر يونغ يمارس عمله كطبيب نفساني، وتعرض لحالات كان يعرفها جيدًا حيث قام بوصفها عند مرضاه. وها هو ينبثق من جديد ويحيط نفسه بعشيقات وتلامذة. ومع إيما، التي كادت تطلب الطلاق، شكّل مدرسة علاج نفسي - علم النفس التحليلي - وانخرط في اكتشاف التمثل اللاشعوري، ثم التمثل في اللاشعور الجماعي، ولم يرى فرويد من جديد أبدًا، لكنه، كما فرويد أيضًا، لم يتوقف عن تقليب أفكاره، طيلة حياته، حول ما كان قد جمع بينهما ومن ثم فرقهما.

مجددًا، في سبتمبر/أيلول 1913، بعد أن هاجمه شعور بالحزن، توجه فرويد إلى روما، مقتنعًا بأن جمال المدينة الذي لامثيل له أصبح ضروريًا له أكثر فأكثر، وقام بالتفافة إلى مدينة بولوني كي ينضم إلى مينا، التي رافقته في جولته. وكتب إلى ولديه، صوفي وماكس، هذه الكلمات: «بالتأكيد، سوف يكون عليكما في يوم من الأيام المجيء إلى هنا. لكن الأمر ليس مستعجلًا في الحقيقة؛ فمع مرور السنين، تبدو الإقامة جوهرية أكثر فأكثر وربما أنكما ما زلتما نافعين للقيام بذلك. حاليًا، بيتكما يجب أن يشغفكما ويثير اهتمامكما أكثر بكثير من أجمل المدن وأكثرها خلودًا». وكتب فرويد أيضًا إلى آنا: «من بابا إلى مرافقته في المستقبل»[337]. كانت مينا مرهقة بالزيارات بخطوات سريعة مع صهرها. وأما هذا الأخير، فكان يحلم منذ ذلك الوقت بأن ابنته الأخيرة احتلت مكانه. وبالانتظار، جالسًا في مقهى، ها هو يوزع قطع الشوكولاه على أطفال مسافرة، شعر بشيء من الدهشة وهو يلاحظ مدى تشابه ذلك الشقيق مع شقيقته - مينا

وسيغموند[338].

كان يتردد كل يوم، كما سبق له أن في السنة الفائتة، على كنيسة سان - بيير - أو - ليان كي يتأمل تمثال موسى المهيب من نحت مايكل أنجلو وذلك لتزيين قبر يوليوس الثاني، وهناك لمح أن النبي يمسك بالمقلوب ألواح الشريعة، وأنه، في غضبه الشديد على شعبه كان على وشك أن يتركها تنزلق قبل أن يتماسك ويضبط نفسه، فالهدوء يأتي من بعد العاصفة. وحيث إنه كان يقيم مع ذلك العمل بنَفَسه الطويل «العلاقة التي نشعر بها مع طفل نحبه»، فقد توحد مع مايكل أنجلو الذي جعل من موسى الأنموذج الأمثل لقدرة الإنسان على التحكم بنفسه[339]، من بعد تراجيديا الإغريق، وأمريكا، وعذابات القطيعة مع يونغ، ها هو الزمن يصفو ويعود إليه، من خلال تعلقه بالنهضة الإيطالية، واهتمامه بقصة جديدة عن قتل الأب سوف تعيده إلى الاستغراق متأملًا قضية انتمائه اليهودي، كان في جميع الأحوال قد شرع بذلك حين استرسل مع حلمه الداروويني الرائع بصدد أصول المجتمعات، وفي مارس /آذار 1914، نشر في «Imago » تلك الدراسة عن موسى مايكل أنجلو من دون أن يذكر اسمه. والسبب أنه كان على شك بفرضياته[340].

في هذه الأثناء، احتل جونز مكان يونغ وأسس الـ Ring (أو اللجنة السرية) وذلك من أجل إعادة تجميع المريدين الأكثر وفاءً وإخلاصًا: كارل أبراهام، هانس ساش، أوتو رانك، ساندور فيرينتزي، وأنطون فون فروند، الصناعي الهنغاري، الذي ضموه إلى المشروع حتى وفاته بتاريخ 1920 وماكس إيتينغون التحق بالزمرة بتاريخ 1919. بالنسبة لفرويد، بعد أن أصبح محاطًا بالسنة المصطفين وبذاك الذي سوف يمول الـ Verlag - دار نشر للحركة -، كان الأمر يعني لديه إقامة مشروع عقلاني كفيل بالحفاظ على المذهب وتجنيبه كل شكل من أشكال الانحراف: استبعاد الميثولوجيات الغيبية، والروحانيات، والتفكير السحري، التركيز بحزم على القضية الجنسية، تشكيل أطباء ممارسين لن يكونوا بعد اليوم مصابين باضطرابات مرضية، التصدي لجميع المشعوذين، إلخ، كان جونز يريد أن يجمع من حول فرويد مقاتلين قادرين على مجابهة الأعداء في الخارج وذلك كي يتمكن من الانصراف حصريًا إلى بلورة عمله، ويواسي نفسه بالتخلص على هذه الصوة من كل تحزب.

وهكذا جرى تصميم الـ Ring، بوحي من نمط الجمعيات السرية في القرن التاسع عشر، كما لو أنه مجلس لفرسان الطاولة المستديرة: مساواة بين الأعضاء، تقاسم السيادة مع المعلم الذي لم يكن بإمكانه اتخاذ أي قرار

من دون الرجوع إليهم.

غير أن هذه المبادهة كانت أيضًا طريقة لإعادة توثيق الصلة مع مبادئ الطب عند هيبوقراط: تطوير مدارس قائمة على العلاقة بين معلم ومريد. وهكذا محور أفقي من جهة، ومحور شاقولي من جهة أخرى، وسوف يستمر فرويد في ذلك التنظير حول السلطة بتاريخ 1921 في «سيكولوجيا الجماعات وتحليل الأنا». ومن أجل ترسيخ هذا الرباط المقدس مع فرسانه الجدد، وزع عليهم نقشًا إغريقيًا محفورًا من مجموعته الشخصية، وجعلوه محفورًا على خاتم ذهبي، ولأنه يظل عامر النفس بالمثل الأعلى الأوليمبي، فقد حمل شخصيًا النقش الذي يمثل زيوس[341].

مع نهاية الحرب، وبينما لم يعد الاتحاد المقدس تصديًا ليونغ موضوع الساعة، انفجرت خصومات جديدة بين الفرسان أنفسهم، بحيث انتهى أمرهم إلى إنهاء المغامرة الجميلة بعد أن تبادلوا عددًا لا يستهان به من الرسائل بصيغة منشورات: Rundpriefe[342].

في يوليو / تموز 1914، حين كان يصطاف في كارلسباد، لم يكن فرويد ليتصور للحظة واحدة أن الحرب سوف تكون طويلة الأمد، ولا أنها سوف تسبب موت الملايين، ولا أن أوربا التي كان يعرفها، مهد التحليل النفسي، سوف تختفي إلى أبد الآبدين، وقد كاشف شقيقته ماريا (ميتزي)، كم كان يشعر بالشيخوخة والتعب: «مارتا وأنا نعاني من مشاكل قلبية [...] لقد أصبحنا جيلًا قديما"»[343]، وفي رسالة إلى فيرينتزي أشار إلى «اغتيال سراييفو» المذهل، دون أن يفكر بالعواقب التي تجرها تلك الحادثة على حركته التي كانت في أوج توسعها.

وفي برلين، لم يكن أبراهام، من جانبه، يفكر إلّا بالتخلص من انصار يونغ، مع صب جهوده على تنظيم المؤتمر الخامس لـ Verein والذي من المقرر انعقاده في دريسدن، وفي لندن، كان جونز، الأبعد نظرًا، يستشرف بأن ألمانيا والنمسا سوف تنهزمان في هذه الحرب ذات النوعية الجديدة. وحيث أن آنا فرويد كانت تقيم في بيته، شعر بأنها قد تكون أكثر أمانًا في إنجلترا مما هي عليه في فيينا. رغم هذا، نظّم عملية إيابها، ولم يخطر في بال أحد من الأعضاء في اللجنة لحظة واحدة أن ينظر إليه كعدو، وفرويد شخصيًا وجّه إليه رسائله بالإنجليزية، لعلمه بأن البريد سوف يُفتح.

في 9 نوفمبر 1914، أعلن فرويد لفيرينتزي بأن صوت التحليل النفسي لم يعد مسموعًا في العالم منذ أن بدأ هدير المدافع، وكما في رواية تولستوي، يأتي زمن السلم متبوعًا بزمن الحرب، والكلام متبوعًا بالأجساد المصابة، والتحاور متبوعًا بالكراهية. في كل مكان، ها هم

أساتذة الجامعة يعيدون دبلوماتاهم الفخرية إلى أصدقائهم الذين أصبحوا أعداء[344].

حين نشر فرويد مقالة حول النرجسية[345]، كان منهمكًا، بتاريخ 1914، بتعديل مذهبه وبإيجاد مقابل لـ«الليبيدو اللاجنسي» عند يونغ، مستفيدًا مما جاء به كارل أبراهام، الطبيب المختص بأمراض الذهان. لم يعد يكتفي بالكلام عن الليبيدو بصفته كتمظهر للنزوة الجنسية، وإنما البرهان على أنه يمكن العودة به إلى الأنا، ويستخلص من ذلك الوجود المتزامن، في النفس، للتعارض بين ليبيدو الأنا وليبيدو الموضوع، بين النرجسية البدئية، الحالة الأولى للحياة، والنرجسية الثانية المتطورة نحو انسحاب باتجاه توظيفات الموضوع. وهكذا شقّ الطريق أمام تفكير بخصوص اضطرابات الذاتية، وهو تفكير يمضي إلى ما هو أبعد بكثير من الطريقة التي فكر بها حتى تلك اللحظة بشأن ولادة التأزم العصابي، منذ ذلك التاريخ، لم يعد الشخص هو أوديب المتحول ببساطة إلى هاملت، وإنما نرسيس الذي ذنْبه تأمُلُ صورتِه إلى أن يموت بسبب ذلك: وهي طريقة يشير بها إلى أي مدى كان إنسان القرن الجديد مسكونًا برغبة عميقة ومتواصلة، رغبة تدمير نفسه بتدمير الآخر.

ألا وكأن الحرب جاءت لتصادق على صحة رأي فرويد.

---

298 أفضل كتاب عن دخول التحليل النفسي إلى الولايات المتحدة هو كتاب ناتان هال «فرويد والأمريكيون» (1971، 1995)، باريس ليزومبيشور دو بانسيه أون رون، 2001. انظر أيضًا ايلي زاريتسكي، «قرن فرويد» (2004)، باريس، ألبان ميشيل، 2008.

299 ناتان هال، «فرويد والامريكيون»، المصدر السابق، ص43.

300 سيغموند فرويد، «الأخلاق الجنسية المتمدنة والمرض العصبي في الأزمنة الحديثة» (1908)، في «الحياة الجنسية» باريس، PUF، 1973، ص 28 - 46، وOCF. P، الجزء الثامن المصدر السابق، ص 196 - 219.

301 توجد روايات عديدة عن سفر الرجال الثلاثة إلى الولايات المتحدة. سوف نقرأ ما جاء عند إرنست جونس، وبيتر غاي، وليندا دون، وديردر بير، وناتان هال، وأخيرًا فانسان بروم: «المريدون الأوائل لفرويد» (1967)، باريس، PUF، 1978؛ و«يونغ: الرجل والأسطورة»، نيويورك، اتينوم، 1981. يضاف إلى ذلك شهادات الخصمين نفسيهما: فيونغ يذكر الجولة في «حياته»، المصدر السابق، وكذلك في حديثه في مكتبة الكونغرس مع كورت إيسلر. وفرويد يتحدث عن هذا الأمر في يوميات

السفر، في «قلبنا يميل نحو الجنوب»، المصدر السابق. يجب أيضًا قراءة المراسلات المختلفة بين فيرينتزي، ويونغ، وفرويد، وبوتنام، وستانلي هال، كما أنني رجعتُ، بشأن هذه النقطة، إلى كتاب شاؤل روزنسفايغ، «freud، jung، and hall the king mark the historic expedition to America» (1909)، سيتيل، تورنتو وبرن، هوغ ريف وهوبير، 1992؛ وأنطوني باليناتو «فرويد والحداثة الأمريكية. دخول التحليل النفسي إلى نيويورك» (1909 - 1917)، الأستاذ في جامعة باريس السابعة، 2007 - 2008، بإدارة إليزابيث رودينِسكو. لقد استثمر أنطوني باليناتو ملفات غير مطبوعة.

302 لم يورد فرويد أبدًا هذه الحادثة في يوميات السفر واكتفى بالإشارة إلى أنه تعرض لضعف زائد بسبب التعب.

303 كارل غوستاف يونغ، «حياتي»، المصدر السابق، ص 187 - 198. مقولة الأثر القديم مقولة سبق ورودها في تاريخ التحليل النفسي وسوف تعود تحت أشكال أخرى في المجادلات اللاحقة بين فرويد ورانك، ثم بين أتباع فرويد وأتباع كلين، وأخيرًا مع أتباع لاكان. وهذا ما تطرقتُ إليه في JL - HPF، المصدر السابق. انظر أيضًا مواقف نيكولا أبراهام وماريا توروك حول مسألة قبو المدافن. وهينري راي - فلود «لا أعلم عمَّ تتحدث»، المصدر السابق.

304 وهذا ما أتاح مرة جديدة للمعادين لفرويد التأكيد بأنه كان معاديًا للسامية، وأتاح لأتباع يونغ القول بأنه لم يكن كذلك، حيث تعاطف مع يهودي وحيث أن عددًا لا يستهان به من مريديه كانوا يهودًا. كان وليم ستيرن (1871 - 1938) مدعوًا إلى وورشستر بالصفة نفسها كما كان العديدون من علماء النفس الاخرين.

305 تلك هي الكلمات الدقيقة التي تفوه بها فرويد، ونقلها يونغ في حديثه في مكتبة الكونغرس مع كورت إيسلر. انظر أيضًا فانسان بروم «يونغ: الرجل والأسطورة»، المصدر السابق، ص117. حول قصة ولادة العبارة التي ابتكرها لاكان بتاريخ 1955 ونسبها إلى فرويد، عقب مقابلته الخاصة مع يونغ، انظر إليزابيث رودينِسكو، HPF - JL المصدر السابق. وكذلك «لاكان، النكتة»، «التحليل النفسي والتاريخ»، تيدنغتون، ارتزيان بوكس، 2008. ويزعم لاكان بأن فرويد إنما قال: «لا يعلمون ما هو الطاعون الذي نحمله إليهم»، ونعلم الآن بأن فرويد لم يتفوه أبدًا بتلك العبارة. غير أن هذه الأسطورة بقيت راسخة.

306 سيغموند فرويد وساندور فيرينتزي «المراسلات»، الجزء الأول:

1908 - 1914، المصدر السابق، رسالة تاريخها 10 يناير /ك2 1909 ص 40.

307 بعد نشرها وتعميمها لاحقًا من طرف يونغ، أصبحت الإشاعة القائلة بأن فرويد سِفاحي، مع مرور السنوات، إحدى أكبر الموضوعات التأريخية في مجال التحليل النفسي، ضمن نطاق العالم الناطق باللغة الإنجليزية، لا سيما اعتبارًا من صدور كتاب هيلين ولكربونر في 1947 «سيغموند فرويد: حياته وتفكيره»، وهو كتاب أعيدت طباعته في 1992 مع تقديم لبول روازن وتصدير لإيريك فروم، نيوجرسي، ترانسكش بوبليشر. لكن أي مؤرخ جادٍ لم يتمكن أبدًا من قديم أدنى برهان على وجود تلك «العلاقة» التي أفسحت المجال لعدد كبير من المقالات ولكتبٍ عديدة. انظر إليزابيث روديِنسكو «ولكن لماذا كل هذه الكراهية»، باريس، سوي، 2010.

308 توجد روايات عديدة لتلك القصة، انظر حديث ك. غ. يونغ مع كورت إيسلر LoC، صندوق 114، بطاقة 4، 29 أغسطس /آب 1953، وهو ما عاد إليه ديردربير. وك. غ. يونغ «حياتي»، المصدر السابق، ص 185.

309 انظر ديردر بير، »يونغ»، المصدر السابق، ص 254.

310 أفضل رواية هي رواية وليم و. كولخ «حلم لا يصدق» فرويد ويونغ في جامعة كلارك، 1909 البيان الخامس السنوي بول س. كلاركسون «أصدقاء دار كتب غودار»، وورشستر، جامعة كلارك، 1984. والاحتفال بالذكرى الخامسة والسبعين لمجيء فرويد ويونغ. الترجمة إلى اللغة الفرنيسة على موقع «من ديوان لآخر». نبش كولخ أرشيف الجامعة وقدّم جميع التفاصيل حول المحاضرين الذين دُعوا بتاريخ 1909 وكانوا حاضرين أثناء دروس قدمها فرويد ما بين 6 و10 سبتمبر / أيلول، يجب استكمال هذا المصدر بتعليقات ديردربير الذي قدم تفاصيل حول ردّات الفعل عند يونغ، نشير إلى أن فرويد كان على اقتناع بأن السود سوف يصبحون ذات يوم أكثرية في الولايات المتحدة.

311 في إحدى محاضراته، استعرض يونغ حالة فتاة صغيرة: وكان الموضوع يخص ابنته بالذات.

312 كتب فرويد في ما بعد تلك المحاضرات وتُرجمت سريعًا جدًا إلى لغات عديدة، انظر «حول التحليل النفسي. خمس محاضرات» (1910)، باريس، غاليمار، 1991. وبخصوص ما جاء عند بيل، ص 92 - 93.

313 سيغموند فرويد «سيغموند فرويد يقدم نفسه بنفسه»، المصدر السابق، ص 88.

314 إيما غولدمان «Living My Life»، الجزء الأول، نيويورك، كنوف، ص 173. وأنطوني باليناتو، المذكور سابقًا، ص 30.

315 ليندا دون «فرويد ويونغ»، المصدر السابق، ص138.

316 شهادة جوديث برناي هيلر، LoC، المذكورة سابقًا. وماريون روث «دفاتر، ومتفرقات»، 1914 - 1475، LoC، صندوق 121، بطاقة 7.

317 يعود فرويد إلى هذه الفكرة في «علم نفس الجماعات وتحليل الأنا» (1921)، فيOCF. P، الجزء السادس عشر، المصدر السابق، ص. 1 - 85.

318 شهادة بربارة لو (1877 - 1955)، انظر أيضًا LoC، صندوق 120، بطاقة 5.

319 وسوف يُشفى منه.

320 رسالة فرويد إلى يونغ بتاريخ 17 أكتوبر / ت 1 1909 «المراسلات» الجزء الأول، المصدر السابق، ص. 336. سيغموند فرويد «ذكرى طفولية عن ليوناردو دافنشي» (1910)، باريس، غاليمار، 1987. مع مقدمة رائعة لجان - برتران بونتاليس وثبت مراجع بالمصادر التي استند عليها فرويد. وOCF. P، الجزء العاشر، باريس، 1993 ،PUF ص. 79 - 164. كتبت الدراسة ما بين يناير/ ك 2 ومارس/ آذار 1910 ونشرت في مايو/ أيار.

321 يمكننا الرجوع إليها في مكتبة فرويد، مع التعليقات بخط يده. في كتابه، يذكر أحيانًا الرواية الأصلية للنصوص الإيطالية، بينما كانت الترجمة الألمانية في مكتبته بين يديه، وبالفرنسية: أوجين مونتز «ليوناردو دافنشي، الفنان، المفكر، العالم» باريس، هاشيت، 1899. جيورجيو فازاري «حياة أفضل المصورين، والنحاتين، ومهندسي العمارة»، بإشراف اندريه شاستل، باريس، بيرجيه - لفرو، 1983. ديميتري س. ميريكوفسكي «انبعاث الآلهة. رواية ليوناردو دافنشي» (1902)، باريس، غاليمار، 1934: الموضوع يتعلق بمفصل مركزي من ثلاثية عنوانها «المسيح والدجال». سيمراغليا سكونياميغليو Ricerche e documenti suiia giovinezza di Leonardo da Vinci، نابولي 1900.

322 ماري بونابرت هوجمت من قبل عصبة حين نُشرت ترجمة الكتاب الفرنسية.

323 سيغموند فرويد «ذكرى طفولية عند ليوناردو دافنشي»، المصدر السابق، ص 89.

324 Codice Atlantico: مجموعة من رسوم وكتابات بقلم ليوناردو دافنشي محفوظة في مكتبة ميلانو. انظر Eine Kindheitserinnerung des Leonardo Da Vinci Studienausgabe، الجزء العاشر، ص 109، الحاشية 1.

325 استخدم فرويد هذا المصطلح لأول مرة.

326 اللوحة الأولى ضورت ما بين 1503 و1506، والثانية ما بين 1508 و1516.

327 بتاريخ 1956، سوف يوبخ مايرسكابيرو فرويد ليس على خلطه بين العقاب والحدأة لا غير، وإنما تحديدًا على إنكاره للتاريخ الفني. وبمقدار ما تبدو الغلطة الأولى قليلة الأهمية، لا بد أن نأخذ الغلطة الثانية بعين الاعتبار. فهي تشهد على المخاطر المرتبطة بالتأويل، حتى لو فرضنا بأن فرويد كان على علم برسوم الخطوط الأولى. فهو يعلق عليها في ملاحظات أضافها بتاريخ 1919 و1923. انظر مايرسكابيرو «ليوناردو وفرويد»، في ستيل «الفنان والمجتمع»، باريس، غاليمار، 1982. لقد رد كورت إيسلر على سكابيرو في «ليوناردو دافنشي. دراسة في التحليل النفسي» (1961)، باريس، غاليمار، 1982. وكذلك جاك لاكان «حلقة البحث»، الكتاب الرابع: العلاقة بالموضوع والهيكليات الفرويدية (1956 - 1957)، باريس، سوي، 1994، نص جمعه جاك - آلان ميلر، ص 411 - 435. لقد وصف معادو الفرويدية فرويد بأنه محتال ومزوّر، انظر هان إسرائيل «رجل العُقاب: فرويد وليوناردو دافنشي» في «الكتاب الأسود للتحليل النفسي»، باريس، ليزارين، 2005.

328 سيغموند فرويد «ذكرى طفولية عند ليوناردو دافنشي»، المصدر السابق، ص 152.

329 لا سيما، كما رأينا، بجعله البارانويا كمظهر دفاعي في وجه المثلية الجنسية.

330 تلك اللعبة، في الاستمرار إلى ما لا نهاية في فك الشيفرة، سوف يوظفها لصالحه دان براون كي يكتب كتابه « شيفرة دافنشي»، ناهيك بأن رسام كاريكاتير مجهول الاسم سوف يرسم ذات يوم وجه فرويد مظهرًا فيه، محل الأنف والجبين الجسم العاري لامرأة في حالة نشوة، مع ذلك التعليق: ماذا في عقل الرجل. وبيع من هذا الرسم آلاف النسخ،

كما أن الكاريكاتير طبع في ما بعد على ملابس وألعاب، تقريبًا بعدد نسخ الجيوكوندا.

331 ظهر المصطلح لأول مرة بتاريخ 1910 في «حول نمط فريد لاختيار الموضوع عند الانسان»، المصدر السابق، ص 197. نعود لنقول بأن فرويد يخطئ شخصيًا بصدد ظهور العقدة في مؤلفاته. لأنه يعيدها إلى «تأويل الحلم».

332 المصدر السابق، ص 197.

333 سيغموند فرويد، «الطوطم والتابو. بعض التوافقات بين الحياة النفسية عند البدائيين وحياة العصابيين» (1913)، باريس، غاليمار، 1993، وOCF. P، الجزء الحادي عشر، المصدر السابق، ص 189 - 385.

334 جعلتُ حلقة البحث الخاصة بي بتاريخ 1955 لدراسة العلاقات بين التحليل النفسي والأنثروبولوجيا، وأنا هنا أعود إلى عناصر متعددة من تلك المعلومات. انظر أيضًا المقدمة التي كتبتُها عند إعادة طبع كتاب جورج ديفيرو: العلاج النفسي لهندي من السهول، باريس فايار، 1998. و«قاموس التحليل النفسي»، المصدر السابق انظر أيضًا كلود ليفي ستراوس، طوطمية هذه الأيام، باريس، 1962، PUF. يستشهد فرويد كثيرًا بكتاب المؤرخ الفرنسي سالومون ريناخ، «عبادات، وقصص ميثولوجية، وديانات»، باريس، إرنست لورو، 1905.

335 إدواربورنت تايلور، «الحضارة البدائية» (1871)، من جزأين، باريس، رينوالد، 1876 - 1878. وليم روبرتنس سميث: قراءات في ديانة الساميين: المؤسسات الجوهرية، (1889)، نيويورك، مكملان، 1927. إدوار وستر مارك، «تاريخ الزواج البشري» (1891)، باريس، ميركير دوفرانس، 1934 - 1938. جيمس ياسبر أكنسون، «التشريع الأول» عند أ. لانغ «الأصول الاجتماعية»، لندن، 1903. جيمس جورج فريزر، «حلقة الغصن الذهبي» (1911 - 1915)، باريس، لافون، مجموعة «بوكان»، 1981 - 1984. الطبعة الإنجليزية من كتاب فريزرموجودة في مكتبة فرويد.

336 أحيل القارىء هنا إلى مدخل «قاموس التحليل النفسي» المصدر السابق، وإلى ألفريد ل. كروبير، «الطوطم والتابو: إتنولوجيا تحليل نفسي» (1920)، أنثروبولوجيا أمريكية، 22، 1920، ص 48 - 55. بونيسلاو مالينوفسكي، «مغامرو غرب المحيط الهادي» (1922)، باريس، غاليمار، 1963: «الجنسانية وقمعها في المجتمعات البدائية» (1927)، باريس، بايو، 1932. إرنست جونز، «دراسات في التحليل

النفسي التطبيقي»، الجزء الثاني (1951)، باريس، بايو، 1973. أوجين أنريكيز، «من الجماعة البدائية إلى الدولة»، باريس، غاليمار، 1983.

337 سيغموند فرويد، «قلبنا يميل نحو الجنوب»، المصدر السابق، ص 331.

338 شهادة من جيرون ألكسندر، 21 أكتوبر / ت 1 1951، LoC، صندوق 120، بطاقة 2.

339 سيغموند فرويد، «موسى مايكل أنجلو» (1914)، في «الغرابة المحيرة ونصوص أخرى»، باريس، غاليمار1985. ص83 - 125.

340 انظر إرنست جونز، «حياة سيغموند فرويد وأعماله» المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 386 - 390. وإيلس غروبريخ _ سيميتيس، «فرويد: العودة إلى المخطوطات» (1993)، باريس، 1997 ،PUF، ص 217 - 218.

341 فيليس غروسكورث، «فرويد، الخاتم السري» (1991)، باريس، PUF، 1995.

342 Geheime Komitees Die Rundbriefe des، أربعة أجزاء، نشرها جيرهارد ويتينبرجر وكريستفريد توجل، توبنجن، ديسكورد، 1995 - 2003.

343 رسالة إلى ميتزي بتاريخ 13 يوليو /تموز 1914، الأوراق العائلية، LoC.

344 انظر بيتر غاي، «فرويد» المصدر السابق، ص 401. فيليس غروسكورث يعطي توصيفًا جيدًا لنشاطات اللجنة أثناء الحرب، ثم ما بين 1920 و1927. كي نفهم فهمًا جيدًا فترة ما قبل الحرب تلك، يجب علينا، بطبيعة الحال، إيجاد تقاطعات في المراسلات بين فرويد ومريديه.

345 سيغموند فرويد، «كي ندخل إلى النرجسية» (1914)، في «الحياة الجنسية»، باريس، 1969 ،PUF و OCF. P، الجزء الثاني عشر، المصدر السابق، ص 213 - 247.

الفصل الرابع
حرب الأمم

بينما كان يزعم بأنه يمقت فيينا والملكية المزدوجة، تمامًا كما يمقت من طرف آخر العقلية البروسية، فقد تفاجأ فرويد إلى درجة كبيرة بسبب الحرب حتى أنه بدأ يدعم بحزم التحالف الثلاثي، ويتمنى انتصار النمسا وتفجير أوربا، والصرب، وروسيا. لم يصدق ولو للحظة واحدة أن النصر قد يكون حليف فرنسا وإنجلترا، ولا أن الأميريكيين سوف يمدون يد الدعم، ولا بأن الإمبراطوريات الوسطى قد تختفي.

لم يكن قد رأى هبوب التيار القومي عند الشعوب في وجه أواخر الأسر الأمبراطورية، ولا تصاعد الكراهية التي، في بحر ستين سنة، كانت قد أخذت على مهل محل ربيع الشعوب. كما أنه لم يكن بعد قد تشكل لديه الوعي حول احتضار تلك البرجوازية النبيلة من أيام «العصر الجميل»، والتي من شدة انشغالها بنفسها، كانت قد تنكرت لبؤس المعدمين. حتى ذلك التاريخ، لم يكن يعرف الحرب إلّا من خلال مطالعاته - الإسكندر، قيصر، نابوليون، هوميروس - ومن خلال الذكرى الباقية لديه من أيام خدمته العسكرية، التي قام أثناءها بدور الطبيب العسكري مع ممرضاته كي يتغلب على حالة النوراستانيا لديه، في تلك الآونة تحديدًا، بمواجهة التدفق الواقعي للجيوش، لم يكن يريد بحال من الأحوال أن يهاجم إنجلترا مع أنه كان يأسف لعدم وقوفها إلى جانب الإمبراطوريات الثلاث: البروسية، النمساوية - الهنغارية، العثمانية.

وهكذا دخل في تناقض مع تطور الـ Verein حيث كان يتعايش أطباء قادمون من جميع بلدان أوربا، أو تقريبًا، ومن الولايات المتحدة، كجيل جديد يطمح إلى تحليل نفسي بعيد عن التمركز في فيينا وبالتالي عن المثل الأعلى الفرويدي للفرسان المجتمعين في الـ Ring. غير أن الحرب على وجه الخصوص كانت تحطم اندفاع الحركة وتقيم حدودًا مصطنعة بين المثقفين، والباحثين، والأطباء، والكتاب، وعلماء النفس.

هذه الحروب الأولى في القرن العشرين دارت معاركها في الأجواء وفي أعالي المحيطات، بحزًا، بزًا، في خنادق موحلة، مخربة بالغازات السامة وتتكدس فيها أجسام مبتوري الأعضاء، لم يعد لها أي شبه مع حروب القرون الغابرة، حين كانت الجيوش تتواجه في وضح النهار تحت الرايات

الكالحة، مع وجود الأبواق، والمعارك الدامية بالسلاح الأبيض وأناشيد الانتصار والموت.

بضربةٍ واحدة، نقلت تلك الحرب إلى مسرح آخر النزاعات الداخلية في قلب التحليل النفسي، ودفعة واحدة، أجبرت الفرويديين على التخلي عن مؤتمراتهم، والتوقف عن نشاطاتهم، وتعليق تبادلهم للرسائل والمقالات الافتتاحية. مختصر القول، كانت الحرب تجبرهم على توجيه اهتمامهم نحو أمر آخر بدلًا من الاهتمام بأعمالهم العلمية وكفاحهم المضحك في وجه «ذلك اليونغ البدائي المقدس[346]»، أو ضد «جماعة زيوريخ»، والذين من طرف آخر لم يكونوا مشتركين بهيجان الأمم الآخرى. وسويسرا وإسبانيا، والبلدان المنخفضة، والبلدان الإسكندنافية لم تكن داخلة في أي تحالف.

باستثناء هانس ساك، المسرّح بسبب ضعف نظره، تمت تعبئة جميع أعضاء «اللجنة» الواحد بعد الآخر، في 1915، كان إيتنغون أول من رحل كطبيب جراح يرتدي الزيّ العسكري النمساوي، إلى براغ ثم إلى شمال هنغاريا، بينما أبراهام كان قد جنّدَ، هو أيضًا كجراح، في مستشفى كبير شرقي بروسيا، ورانك أرسلوه إلى كراكوفي مع المدفعية الثقيلة، وفيرينتزي انضم إلى الخدمة كطبيب أول عند الخيالة الهنغاريين، ثم في بودابست كطبيب نفسي في مستشفى عسكري، وهذا ما أتاح له متابعة نشاطاته. هو لم يتخلّ لحظة واحدة عن إيمانه بالتحليل النفسي وقام بمعالجة ضابط من فوجه يعاني من جرح بعد أن أصيب بشظية من قذيفة، وكان علاجه للضابط وهو يمتطي حصانه، وكان يحاول في الوقت نفسه أن يحل مشاكله مع جيزيلا.

وإذ بقي وحيدًا في فيينا مع ساك، ومارتا، وآنا، ومينا، دخل فرويد في زمن الحرب وهو يحمل في نفسه الخشية لا تفارقه يومًا لأن أبناءه الثلاثة وصهره - مارتن، أوليفر، إرنست، ماكس هالبرشتات -، جميعًا شملتهم التعبئة أو تطوعوا في المدفعية، أو الهندسة، أو في جبهات متنوعة. نعم كانت خشيته أن يروح هؤلاء ضحايا لتلك المجزرة[347]. هيرمان غراف فقط، ابن أخيه، ابن روزا الوحيد، لم يرجع أبدًا. لقد قتل على الجبهة الإيطالية في يوليه/تموز1917. وكذلك رودولف هاربرشتات، شقيق ماكس.

في الحقيقة، منذ الأشهر الأولى للحرب، وعلى الرغم من مزاجه المقاتل

ومن يقينه بانتصار الألمان، فهم أن تلك الحرب سوف تكون طويلة الأمد وقاتلة وأنها سوف تغير العالم وتقلبه رأسًا على عقب، ذلك العالم الذي كان يعيش فيه: «لا أشك بأن البشرية سوف تنهض من هذه الحرب وتتعافى، هكذا كتب إلى لو أندرياس- سالومي في نوفمبر/ ت2 1914. لكنني أعلم بيقين أنني مع المعاصرين لن نرى بعد اليوم العالم كمكان سعيد. إنه عالم فائق القباحة، وأكثر ما بعث على الحزم في كل ما يجري، هو بالضبط ما كان يجب علينا أن نتمثله بخصوص البشر وسلوكهم من بعد تجاربنا المستنيرة في التحليل النفسي، وبسبب هذه الوضعية تحديدًا حيال البشر لم أستطع أبدًا أن أكون مع تفاؤلك السعيد. كنت قد استنتجت سرًا في أعماق نفسي بأننا ما دمنا نرى أسمى ثقافة في زماننا ملطخة تلطيخًا مرعبًا بالنفاق، فنحن عضويًا لم نكن مؤهلين لتلك الثقافة[348]».

مجددًا، ها هو فرويد يؤكد بأن مذهبه كان كاشفًا عن أشد الجوانب ظلامية في الجنس البشري، وراح يفتش في الأحداث - كما أيضًا في النصوص الأدبية، والقصص الميثولوجية، والأساطير، عما يثبت صحة فرضياته، كل هذه النماذج لم تجعل فرويد يرى بأن تأملاته وتحديدا دراسته المؤخرةعن النرجسية لم تكن مستثناة من التطور المدمر للعالم الذي عرفه والذي كان قد بدأ بافتقاده. كان فرويد يرى أنه مبدع مذهب من دون أن يتخيل بأن هذا المذهب يمكن أن يكون هو أيضًا من نتاج تاريخ لم يكن يتحكم به. كان التحليل النفسي «الشيء» الخاص به (die Sache)، وكان يراه في جميع أعماله.

كانت الحقبة الميمونة، حقبة السفر إلى أمريكا، والتعلق المشغوف بيونغ، والاقتناع بحسنات العلاج بالتحليل النفسي، قد أغلقت. منذ ذلك الوقت، بدأ تفكير فرويد يتجه إلى تنظيم آخر كليًا لمفهوم التحليل النفسي. وتحديدًا أثناء زمن الحرب ذاك بدأ بالقيام بإعادة صياغة لمنظومة أفكاره. وسواء أراد أم لم يرد، كانت الحرب تمسه من جميع الجوانب: كان سريع الغضب، كثير الهفوات بسبب النسيان الطارئ، ويروي حكايات يهودية كي يقاوم قلقه، والليبيدو لديه، كما كان يقول، دون أن يؤمن حقًا بذلك، مستنفرٌ بحزم من أجل النمسا - هنغاريا[349]. وأما نظريته، فلم يكن واثقًا أنه سوف يتمكن حينذاك من تلخيصها.

كما أن نشاط فرويد في مجال الحلم والتهويم سرعان ما انعطف مجددًا. كان يرى في الأحلام موت أبنائه وتلامذته، وتشتت حركته،

وجراحًا فظيعة، وساحات حرب تتكدس فيها جثث مجهولة الهوية. بكلمة واحدة، كانت تغزوه ليل نهار فكرة أن القوة المميتة للنزوات اللاشعورية تهدد أرفع أشكال الحضارة البشرية[350].

وهو بتفكيره حول هذه المسألة، في أبريل/نيسان 1915، كتب دراسة عن الحرب والموت ناقض فيها جذريًا اندفاعاته الأولى القتالية، في ذلك النص المحبط، الذي كان إعلانًا عن جميع الفرضيات المقبلة، بدأ بالاسترسال مع تمجيد مؤثر للمجتمع الأوروبي المتولد من الثقافة الإغريقو - لاتينية والمتشرب بتنوير العلم، كي يبرهن إلى أي مدى تقود هذه الحرب الجديدة الجنس البشري الأكثر تنوزًا، ليس إلى انحطاط كل شعور أخلاقي وإلى زوال خطير للأوهام، وإنما أيضًا إلى إيقاظ جميع الأشكال الممكنة للقسوة، والخداع، والخيانة، تلك الأشكال التي كان الظن حولها بأنها زالت واندثرت بممارسة الديمقراطية وسيادة الحضارة، وهكذا، كما كان يقول، «المواطن في المجموعة البشرية يجد نفسه في خضم قلق شديد حيال عالم أصبح غريبًا عنه: فوطنه الكبير محطم، والخيرات العامة مخربة، والمواطنون منقسمون ومحتقرون[351]».

بتعبير مختلف، كان فرويد يتبنى الفكرة القائلة بأن تلك الحرب، المتولدة بسبب النزعة القومية وكراهية الشعوب بعضها لبعض، تترجم جوهر رغبة موت خاصة بالجنس البشري، وهي قد جاءت لتذكّر الشخص الحديث بأنه لا يعدو أن يكون وريث أسلاف من القتلة، وأن الحرب تعود به إلى أصول غابرة دفينة النزوات، كان هو نفسه قد وصف أطرها في «الطوطم والتابو»، والتي تسمح له باقتراف المحزم الذي يمنع إيقاع الموت بالآخرين. بل وأدهى من هذا، كان الهر - بروفسور يلاحظ بأن أحدًا، في ذلك النزاع، لم يعد يعلم كيف يعترف بحقوق الجراحة والأطباء بسبب تدمير التمييز بين المحاربين والسكان المدنيين.

وها هو بلهجة دراماتيكية يبرز حقيقة أن الحرب تلك تخرب بطريقة ليس لها مثيل علاقة الإنسان مع الموت، لأن الموت، تلك الظاهرة «الطبيعية»، كما كان يقول، هو المخرج الضروري لكل حياة، وكل إنسان يجب عليه أن يتحضر له. لكن لاشعورنا يستحيل كشف أسراره عند استحضاره، ولذلك يجب، كي يتم قبوله، إنكار وجوده، ووضعه خارج اللعبة، وحتى إعطاؤه شكلًا درميًا في تطابقٍ مع بطل مثالي. والحال، فالحرب الحديثة، بقوة التدمير الجماعية التي بين يديها، راحت تحطم

عند الكائن البشري اللجوء إلى مثل تلك التشكيلات الخيالية الكفيلة بالمحافظة عليه أمام حقيقة الموت الواقعية.

وإذ أشار فرويد إلى جواب آخيل لأوديسيوس[352]، فقد رجع إلى القدماء ليقتبس منهم الفكرة عن وجود تعارض بين «الموت الجميل»، الموت البطولي، موت المحاربين الذين يختارون حياة قصيرة، والموت الطبيعي المرتبط بحياة هادئة بعد عمر مديد، وأشار تلميحًا إلى أن الحرب الحديثة تطمس الحدود بين هاتين الميتتين حيث أنها تدفع الجندي - الفرد مجهول الهوية - إلى نهايته الفورية حتى قبل أن يكون قد توحد مع أي شيء مهما كان شأنه، وهكذا فإن تلك الحرب كانت بحق تعرّي، كما يقول، الأمر الأبعد غورًا في تاريخ الإنسان: متعة القتل المعمم بما يتجاوز الموت المكتسي بصفة البطولة والموت الطبيعي، نتيجة لهذا الأمر، إذا كانت القسوة الدموية تعود هكذا إلى قلب تلك الحقبة المضطربة، فما ذاك إلّا لأنها لم يمكن أبدًا اقتلاع الحضارة لها، فالإنسان، رغم اكتسابه لإنسانيته وتحصيله للثقافة والتمدن، سوف يظل دائمًا غير ما يظن أنه قد وصل إليه، لأن في الطبقات العميقة من حياته النفسية يتخفى همجي مستعدّ دائما ليستيقظ.

ها هو فرويد يصل في دراسته إلى مغزى تمثل بإعلان عن إيمان لا رجعة عنه: «نحن نتذكر الحكمة الغابرة القائلة: Si vis bicem، bara bellum. إذا كنت تريد الحفاظ على السلام، حضِّر نفسك للحرب، ولعل من المناسب في زمننا الحالي تعديل تلك الحكمة لتصبح: Sic vis vitam، bara mortem إذا كنت تريد أن تتحمل الحياة، حضر نفسك للموت»[353].

وهكذا إذن، حين بلغ فرويد تسعةً وخمسين عامًا، ها هو يتوجه لملاقاة مملكة الأموات، كان يفكر بموته شخصيًا وبموت أقاربه كما بموت المحاربين الضائعين في «الليل القطبي» لحرب لا يرى مخرجًا لها وصار يشبهها بـ«حرفة يدوية مقرفة»، بدأت مينا ومارتا تناديانه «العجوز الغالي». وقبل أربعة أشهر من نشوب الحرب، في ليلة 10 إلى 11 مارس / آذار 1914، كان قد أصبح جدًا، لأول مرة، لطفل اسمه إرنست (ولقبوه «إرنستل») هالبرشتات، ابن صوفي ومستقبلًا سوف يكون «الطفل اللاعب بالبكرة» الذي سوف يقدم وصفًا عن لعبه بعد سنوات قليلة من ذلك التاريخ: «أمر فريد جدًا، شعور بالشيخوخة، ووقفة احترام أمام معجزات الجنسانية»[354].

في خريف 1914، علم بموت إيمانويل، أخيه الغالي غير الشقيق، والذي عمره واحد وثمانون عامًا، وهو، كما يقول عنه، لم يستطع تحمل الحرب. وفي عيد ميلاده، عند بلوغه الستين عامًا، في مايو/أيار 1916، سوف يكتب بأنه هو شخصيًا أيضًا قد اجتاز عتبة الشيخوخة، وأنه لم يعد من الجائز تأجيل أي أمر إلى وقت لاحق، وأن قلبه وشرايينه قد هرمت، وأنه لم يكن كما كان والده عندما بلغ عمره[355].

وقد غادر فيينا لمرات عديدة كي يزور ابنته، ثم زوجة أبراهام وأخيرًا فيرينتزي، الصديق القريب إلى قلبه، زبائنه قلّ عددهم، والادخارات بدأت تذوب، وأعضاء العائلة باتوا يعانون من الفقر، فطعام غير موجود، وأماكن السكن غير مدفّأة، والسل أصبح يهدد الأكثر عوزًا والأكثر هشاشة. و«كونراد» المفعم بالمرارة أصبح محطمًا: آلام في الحنجرة، تضخم البروستات، اضطرابات جسدية متنوعة، بتاريخ 1917، وعمره واحد وستون عامًا، جرّب فرويد مرة جديدة التوقف عن التدخين. لكنه ضد كل منطق عقلاني، نجح بإقناع نفسه بأن الوذمة المؤلمة التي يشعر بها في سقف الحنك كانت ناتجة عن العناية الزائدة، وها هو يعود من جديد مطمئن البال إلى إشعال السيجار كي يشحذ ملكاته الثقافية[356].

إن معاينة فظائع الحرب والحضور المحسوس للموت في حياته وفي جسمه جعلا فرويد ينطلق مع تلك العزلة الإبداعية التي كان يحبها كثيرًا والتي كانت تمضي على التوازي مع إدمانه على التبغ، ومع شيء من المازوشية أيضًا، بالإضافة إلى تقيده بالتعفف الجنسي. فالإنسان المتألم هو وحده القادر على إتمام شيءٍ ما، هكذا كان تفكيره، مع تأكيده من دون توقف بأن شغفه بالسيجار لم يكن من مستلزمات التحليل النفسي، إن فرويد على الرغم من سنوات طويلة وجّه فيها اهتمامه حول نفسه لفهمها، كان ما يزال بالعصبية ذاتها التي لم تتغير.

في عام 1896، في رسالة إلى فليس، كان قد بدأ باستخدام كلمة «ما وراء التحليل النفسي - ميتا سيكولوجيا» لتوصيف مجمل تصوره لنفسه وذلك تمييزًا لها عن السيكولوجيا الكلاسيكية. لقد أعطته هذه الكلمة قوة، ولهذا توجه تفكيره إلى أنه سوف يحقق حلمه القديم بالانصراف إلى الفلسفة أو بالأحرى إلى تحدّيها، من بعد ذلك في «دراسة الأمراض العقلية للحياة اليومية»، كان قد أكد بطريقة أوضح أن معرفة العوامل النفسية في اللاشعور تنعكس في بناء حقيقة واقعية متجاوزة للأحاسيس، يقوم

العلم بتحويلها إلى علم نفس اللاشعور، وكان بالتالي ثمة واجب يقضي بتفكيك القصص الميثولوجية المتعلقة بالشر والخير، بالخلود، وبأصول البشرية، وذلك بترجمة الميتافيزيقا إلى الميتاسيكولوجيا.

بتعبير آخر، إذا كانت الميتافيزيقا تمثل دراسة فلسفية للأسباب الأولى حول الموجود والوجود - وبالتالي فنحن حيال حقيقتين منفصلتين عن المادة وما هو مُعاش، فإن الميتاسيكولوجيا يتوجب عليها، على التوازي، دراسة الحقيقة النفسية، أي كل ما يتملص هاربًا أمام الوعي وأمام الحقيقة المادية، بهذه الخطوة التأمّلية، كان فرويد يريد تأسيس التحليل النفسي كفرع جديد من فروع العلم، منفصل عن السيكولوجيا. فحتى ذلك التاريخ، فعليًا، كان على الدوام قد رسّخ مذهبه في السيكولوجيا دون أن ينظّر أبدًا حول الفكرة القائلة بأنها يمكن أن تفسد التحليل النفسي.

وهكذا، بمنافسته للمعرفة الفلسفية، علمًا بأنه كان يعتبرها منظومة بارانويا، كان فرويد يتحدى السيكولوجيا، الفرع العلمي الذي خرج عن طريقه في السابق من ميدان علم الأعصاب، وهذا مشروع غير محسوب النتائج إذ أنه يزعم أن يصبح التحليل النفسي «علمًا» كامل الأوصاف، ما بين السيكولوجيا، والفلسفة، والبيولوجيا، إلى درجة تجعله يرفض اعتباره «علمًا إنسانيًا» كما الحال مع الأنتروبولوجيا أو السوسيولوجيا - علم أصول الإنسان، علم الاجتماع.

اعتبارًا من عام 1915، كان إذن قد طور، تحت مسمّى «الميتاسيكولوجيا»، مجموعة من الأنماط المعرفية من خلال المراعاة المتزامنة لوجهات النظر الدينامية، والنفسية، والاقتصادية، وبالمقاربة الدينامية، أعاد العمليات النفسية إلى مصدرها اللاشعوري، وبالتالي إلى النزوات، ووفق المحور النفسي، ها هو يعزفُ أفكارًا: الشعور، ما قبل الشعور، اللاشعور[357]. وأخيرًا بفضل المنظور الاقتصادي، كان يميز مختلف ميادين الطاقة النفسية.

وضمن هذا المنظور، تحديدًا ما بين 1915 و1917، أعاد بوضوح، تحت تسمية «ميتا سيكولوجيا»، تجميع خمس دراسات جادة ومعقدة قطعت العلاقة مع كتاباته السابقة: «النزوات ومصيرها»، «الكبت»، «اللاشعور»، «تتمة ميتاسيكولوجيا لمذهب الحلم»، «الحداد والكآبة»[358]. وكان يقترح التمييز ما بين زمرتين من النزوات، زمرة نزوات حفظ البقاء الذاتي وزمرة النزوات الجنسية. وقد سلّط الضوء على انقلابات مختلفة

للنزوات في علاقتها مع المواضيع، والأهداف، والأشخاص، والثنائيات المتناقضة: سادية ومازوخية، بصبصة واستعراضية بالتعزي، سلبية وإيجابية، . كما أنه وضع جدولًا قاتمًا عن الوجوه المتعددة التي يستمتع الكائن البشري من خلالها بممارسة الغواية، والاستعراض، وبتعذيب نفسه من خلال تعذيب الآخرين، وبكراهية كل شيء مع ادعاء المحبة.

بما يتعلق بالكبت، المفهوم الأكبر، ابتكر فرويد نوعًا من الرسوم المشابهة للخرائط عن تحايلاته، والتفافاته، وتشنجاته، وانسحاباته، وتعذيباته للشخص، مع التمييز في الوقت نفسه بين الكبت الأولي، التثبيت، الكبت ببساطة وأخيرًا رجوع المكبوت، ومعه ممثلو التصور والمتمثلون، وما فيه من «مقادير عاطفية» وآليات تبديل قيد العمل في أهم الحالات العصابية: الرهاب، القلق، الهستيريا، العصاب الهجاسي.

ضمن هذا المنظور الجديد، فاللاشعور، حسب فرويد، لم يعد له كبير شأن يربطه مع «تأويل الحلم». بالتأكيد، لم يكن بالإمكان الوصول إليه دائمًا إلّا بإسقاطه أو ترجمته في الأحلام، والنسيانات الآنية، والهفوات أو الإقلابات الجسدية. لكنه كان أيضًا شيئًا آخر مختلفًا تمامًا: فرضية سيرورة «بذاتها»، صيغة مشتقة من الحيوانية القديمة عند الإنسان بعد مراجعتها وتصحيحها وفق مبدأ من إنتاج فلسفة كانط، وكان فرويد يشير إلى أنه لا يجوز أبدًا الاستعاضة عن إدراك الوعي بالعالم النفسي اللاشعوري، حتى لو كان ذلك اللاشعور أصعب فهمًا من العالم الخارجي. وبهذا الصدد، كان يجعل من التحليل النفسي علم نفس الأعماق المتمحور حول أولوية اللاشعور - الضرورة المفروضة من مضامين مكبوتة- على الشعور وما قبل اللاشعور، والذي هو في صيرورة دائمة.

وحين انتقل إلى القارة الهائلة، قارة الكآبة، الموصوفة أروع وصف في كل حقبة من تاريخ البشرية على يد الشعراء، والفلاسفة ثم المختلين عقليًا، فلم يحاول فرويد أن يتنافس مع مثل تلك الكتابات، لا سيما وأنه هو شخصيًا كان قد جعل من هاملت سابقًا، النمط الأمثل للأمير الكئيب في بداية القرن السابع عشر، بل وجعله هستيريًا. لقد اكتفى بدمج الكآبة مع الميتاسيكولوجيا التي جاء بها، وهكذا فقد اقتلعها على حد سواء من ميدان التوصيف للأمراض النفسية، ومن العرف الفلسفي، كي يعيد تعريفها كنوع من الهذيان النرجسي[359]. كانت الأزمنة ملائمة لمثل هذا التفكير. فالنساء في ثيابهن السوداء أخذن محل الرجال الذين سقطوا في المعركة،

وذلك باستلام أمور النشاطات الاقتصادية في مختلف البلدان الداخلة في الحرب. وبدلًا من أن يعتبر الكآبة كأحد المكونات الكبرى في حياة البشر، ها هو فرويد يعزفها باعتبارها الشكل المرضي للحداد: مرض معاقبة الذات، وقبل النشر، أرسل مخطوطه إلى أبراهام، الذي كان قد شبّه الحداد بالكآبة وهو قد وجه إليه ملاحظات عديدة. وقد شكره على تلك الملاحظات واستشهد به. وهكذا أدخل عذابات الكآبة في سيرورة نكوص في الليبيدو، وهجر التوظيف اللاشعوري[360].

لقد أشار فرويد، عند تناوله للحداد، إلى أن الشخص يتوصل تدريجيًا إلى الانفصال عن الموضوع المفقود بينما، في الكآبة، يظن أنه مذنب حيال الموت الحاصل، وينكره أو يظن أنه مسكون بالمتوفى أو أنه مصاب بالمرض الذي أدى إلى موته، وبمجابهته لذلك الفقد الذي لا علاج له، يشعر بعاطفة مذلة ويظن بأن وجدانه الأخلاقي يحكم عليه ويعذبه، ولهذا الوجدان الأخلاقي، سوف يعطي فرويد لاحقًا اسم «الأنا العليا».

كان الهر - بروفسور يخطط لكتابة اثنتي عشر دراسة وأن يعيد تجميعها في مجموعة عنوانها «عناصر الميتاسيكولوجيا»، لكنه تشكّك بنفسه وأسقط في النهاية سبعة نصوص، من بينها نص واحد عُثر عليه فيما بعد: «رؤية إجمالية لعُصابات التحويل»[361]. هذه المجموعة، المتشكلة كتبادل مع فيرينتزي[362]، إنما أيضًا كأنما هي «فانتازيا تطورية»، قد تم تصميمها لتكون تكملة لـ«الطوطم والتابو»، وهي ناجمة عن تأمل بيو - تحليلي استرسل أثناءه فرويد إلى التوسع في نظرية الأمراض العصابية وقتل الأب في أصول نشأة الإنسان، بتعبير آخر، إنه يزعم القيام بمراجعة لتطور النشوء من خلال النشوء الجنيني[363]. وهكذا راح يؤكد وجود تماثل بين مراحل تطور الجنس البشري ومراحل تطور العُصابات. وإذا كان التسلسل الكرونولوجي يبرهن على أن التطور الفردي في هستيريا القلق باعتبارها الأبكر، ومن بعدها تأتي هستيريا الإقلاب لنصل لاحقًا إلى العصاب الهجاسي، فهذا يدل على أن تلك الأنماط الثلاثة للعصاب، هناك معادل لها في تاريخ تطور البشر، وموقع هذا المعادل هو ما بين بدء ونهاية العصر الجليدي[364]، وهكذا سوف نجد، عند كل كائن بشري، أثر مكون عصابي متطابق مع مرحلة سبق أن وجدت في تطور النشوء، مع مطلع العصر الجليدي، لا بد أن البشرية قد أصابها القلق كي تدخل من بعد ذلك في نزاع بين حفظ البقاء الذاتي ورغبة التكاثر، ومن هنا كان نشوء

هستيريا قلق، في المرحلة اللاحقة يفترض حدوث تقدير أعلى للتفكير واللغة بما يتطابق مع عصاب هجاسي، أي مع تصور ديني للعالم.

وتأتي من بعد ذلك، تحت قلم فرويد، رواية جديدة لقصة «الصراع من أجل الوجود» وقد تحولت هذه القصة إلى خرافة نفسية - تطورية: الجماعة البدائية، قتل الأب، الأبناء المتحدون بمثليتهم الجنسية، النساء الغارقات في قارة مجهولة - dark continent -، عودة صورة الأب من خلال البارانويا التوحد مع الأب الميت ما بين الحداد والكآبة.

لمرة جديدة، يعيد فرويد ابتكار مكونات منظومته حول القرابة كي يجعل منها نمطًا لتفهم البناء النفسي، ونفهم كيف أنه تردد بإشهار تأملاته أمام الجمهور، وذلك بتدمير مخطوطات عديدة، إن الميتا سيكولوجيا الطموحة التي جاء بها كانت على أقل تقدير غامضة ومحبطة، وأما بشأن فكرة إعطاء التحليل النفسي قاعدة متناظرة ومتماهية مع قاعدة البيولوجيا، فهي فكرة تقول بأن نجعل من البيولوجيا «ميتابيولوجيا»، كما كان يتمنى فيرينتزي، وفعليًا، اعترف فرويد حينذاك بأنه يريد أن يضع إطار «بطاقة الزيارة» الخاصة بالتحليل النفسي في سلّة علماء البيولوجيا[365].

كان واعيًا لهشاشة فرضيته، ولذلك تخلى عنها من دون أن يتخلى بالمقابل عن فكرة تحويل آليات التطور وإسقاطها في حقل التحليل النفسي. من أجل ذلك، بدأ بقراءة «فلسفة عالم الحيوان» من تأليف لامارك[366]، ليس كي يجعل اللاماركية في موقف متعارض مع الداروينية[367] وإنما كي يبرهن أن الفكرة اللاماركية القائلة بأن «الحاجة تخلق الجهاز العضوي» لا تعدو أن تكون سوى إعطاء الاعتبار لـ«سلطة التمثل اللاشعوري على الجسم»، وهو ما تشاهد آثاره التخريبية في الهستيريا. مختصر القول، كما يؤكد، إن «القوة الكبرى للأفكار». وهكذا فالتكامل بالغائية يتم حينذاك، كما يضيف، «شرحه بالتحليل النفسي وهذا هو الاكتمال الأمثل للتحليل النفسي. وهنا ينتج مبدآن للتغيير (للتقدم)، التغيير بتكيف الجسم الخاص والتغيير اللاحق بتبدل العالم الخارجي (التطعيم الذاتي والتطعيم غير الذاتي)، إلخ[368]».

سوف يعود فرويد إلى هذه المقولة في 1920، في كتابات تزداد تأمليه أكثر فأكثر، من دون أن يقدم أبدًا مضمونًا أصلب للميتاسيكولوجيا التي جاء بها. ناهيك بأن هذه الميتاسيكولوجيا لن يكون لها أبدًا من فائدة سوى

أن تكون متراسًا لبعض المشاريع القائمة على العلمنة النفسية للتحليل النفسي، ويا له من عزاء هزيل.

في الوقت الذي بدأ فيه هذا التغير للمنظور، تابع فرويد تعليمه في المستشفى العام في فيينا حيث كان يتزاحم مئات من المستمعين، والطلاب، والأطباء، والأقارب، والأصدقاء والمريدون المتسقبليون: ماكس شور، إدواردو ويس، آنا فرويد إلخ. فها هو جيل جديد ينبثق، وها هو فرويد، كعادته، يتكلم من دون أوراق بين يديه، وفي آخر سنة أكاديمية له، قرر أن يعرض بثمانية وعشرين درسًا المكتسبات الأهم مما كان لا يزال يطلق عليه اسم «علم فتي»: وهو توفيق بين «تأويل الحلم»، و«حول دراسة الأمراض العقلية في الحياة اليومية»، و«ثلاث دراسات».

وأضيف إلى ذلك مجموعة من الشروح حول تقنية التحليل النفسي، والتحويل، تعريف الأمراض العصابية. في هذه الدراسة الجديدة كمدخل إلى التحليل النفسي، عاد فرويد ليؤكد بقوة أن الاختيار الأول للموضوع عند الكائن البشري هو دائمًا سفاحي، وأنه موجه عند الإنسان نحو الأم الأخت، وعند المرأة نحو الأم ثم نحو الأب والأخ، وأن التحريم القاسي دون سواه هو ما يتيح البقاء على مسافة من هذا الميل النزوي، الموجود أبد الدهر في الجنسانية عند البالغين.

غداة نشر هذا الكتاب، لاقى في جميع أرجاء العالم نجاحًا صاعقًا[369]. لكنه على الأقل أسهم بتغذية الإشاعات المتعلقة بالتنظيم المسمى «بالسفاحي» في الحياة العائلية في 19 برغاس، فأكثر من أي وقت مضى، استقبل التحليل النفسي حينذاك من المدافعين عنه بحماسة - كتابًا، أم فلاسفة، أم شعراء- باعتباره ثورة للحرية، كفيلة بتغيير مصير البشر، ومن طرف خصومه باعتباره علمًا مزورًا يصيب مقتلًا في النظام العائلي، وفضائل الدين، والمشاعر الوطنية عند الشعوب: تفكير فاسق، من إنتاج دماغ مختل وإمبراطورية في حالة احتضار[370].

في ذلك التاريخ، راح فرويد يفكر بجائزة نوبل، فصديقه الشاب وتلميذه القديم روبير باراني، الطبيب الهنغاري الحائز على الجائزة بتاريخ 1914 لأعماله في مجال الفيزيولوجيا حول الجهاز الدهليزي للأذن، كان قد رشحه لهذه الجائزة، إنما بأي لقب وباسم أيِّ علم؟ فرغم شهرته العالمية، لم يكن الهر - بروفسور معترفًا به لا كرجل علم ولا ككاتب، وإنما بشأن التحليل النفسي، فلا يدخل في أي حقل معرفي جامعي. وهكذا لن

يحصل فرويد أبدًا على الجائزة المرغوبة بكل قوة.

رغم أنه لم يكن من أتباع الماركسية، استقبل فرويد بحماس ثورة أكتوبر/ت1 التي أنهت اشتراك الروس في الحرب وكذلك، رغم أنه لم يكن على الإطلاق مؤيدًا للصهيونية، فقد استحسن صدور إعلان بلفور، الذي فتح الطريق لإنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين[371]، وفي نوفمبر/ت2 1917، كان متشائمًا جدًا وهو يوجه أفكاره حالمًا بأيام أفضل.

مع اقتراب نهاية المعارك، ها هم أعضاء اللجنة يدخلون في حرب بعضهم على بعض، لأن جونز، الذي عقد العزم على أن يمسك بزمام مصير الحركة ودفعها لتكون في معسكر الغالبين فقد هاجم أبراهام دفاعًا عن فيرينتزي، كان متصديًا للأول لأنه يتمنى تنظيم المؤتمر الخامس للـ Verein في برلين، وأشار بأن ذلك يعرض التحليل النفسي ليحمل صفة «علم ألماني قذر» وهو، بموافقة من الثاني، قد اختار بودابست كمكان للاجتماع. وأيد فرويد هذا الاختيار، فكل فرد من «الفرسان» كان يعلم بأن هنغاريا سوف تُفصل سريعًا عن النمسا: وبودابست، مهد نشوء ملامح فكرة فيرينتزية حول التحليل النفسي المتوافق مع «أوربا الوسطى»، كانت متألقة بآخر أضوائها.

وهكذا انعقد المؤتمر في يومي 28 و29 سبتمبر/ أيلول 1918 في أكاديمية العلوم الهنغارية بحضور ممثلين عن الحكومات الهنغارية، والألمانية، والنمساوية بالإضافة إلى اثنين وأربعين من المحللين النفسيين، من بينهم جيزا روحيم، عالمة الأنتروبولوجيا الأمريكية مستقبلًا، وعدد لا يستهان به من النساء، المعتمرات بقبعات غير ظاهرة بوضوح والمرتديات لثياب فضفاضة، باستثناء فرويد، كان جميع الرجال بثيابهم الرسمية الموحدة. وللمرة الأولى، ها هي ميلاني كلين، تلميذة فيرينتزي اللامعة تقابل المعلم وتحضر محاضرته حول «الطرق العلاجية الجديدة بالتحليل النفسي[372]».

وبدلًا من الارتجال كعادته، قدّم فرويد مداخلته مكتوبة وكانت مدهشة، هذا أقل ما يمكن أن يقال عنها. وها هو في مجابهة مع نفسه ومع ممارسته الخاصة - لكن في مواجهة أيضًا مع فيرينتزي - يعلن بأن العلاج النفسي لا بد له قدر المستطاع من أن يتم «في حالة من الحرمان والتعفف»، ولم يذهب به الأمر إلى حد القول بأن على المريض أن يحرم من كل نشاط جنسي، لكنه يوصي بفكرة مفادها منعه من أن يستفيد من

المزايا الناتجة عن النتائج الأولى للعلاج، إذ من دون هذا التشدد، كما يقول، يكون المريض معرضًا ليعود ويغرق من جديد في فشلٍ يستعصي بعد ذلك على العلاج.

لم يكن راضيًا بمعارضة التعاطف العلاجي، كما كان يستنكر كليًا التوجه البوريتاني المعتمد عند صديقه بوتنام، ولذلك أعلن فرويد بأن التحليل النفسي في طريقه إلى أن يصبح علاجًا جماعيًا لكل الناس - كما في الولايات المتحدة - وأن الواجب يقضي بإنشاء مؤسسات في كل مكان، قادرة على تقديم علاجات مجانية بكل طيب خاطر، وهكذا يصبح بالإمكان أخيرًا مساعدة أفقر الأهالي على الخروج من شرطهم. إن فرويد، بتبشيره بمثل هذا البرنامج حول الصحة الاجتماعية، وبدعوته للدول الديمقراطية الحديثة كي تعترف بقيمة العلاج الوقائي في التحليل النفسي، قام بقطيعة مع العالم القديم، فمن بعد ضياعه في متاهة الميتاسيكولوجيا، أصبح توجهه نحو الإيمان بأن العلاج لم يعد وقفًا على بورجوازيين بروستيين كبار، مرتبطين بصورة مميزة عن أنفسهم بالذات، وهي الصورة التي كانت قد تبخرت مع الحرب.

وها هو يطالب الأجيال الجديدة أن تجعل وجهتها نحو المستقبل: «سوف نكتشف على الأرجح بأن الفقراء هم أقل استعدادًا أيضًا من الأغنياء الجاهزين للتخلي عن حالاتهم العصابية، وذلك لأن الحياة القاسية التي تنتظرهم لا تمثل لهم كبير جاذبية ولأن المرض يعطيهم حقًا بالمساعدة الاجتماعية يتعاظم أكثر فأكثر. ومن يدري فقد لا نتدخل في أغلب الأحيان تدخلًا مفيدًا إلّا حين نربط النجدة النفسية بمساعدة مالية، على منوال الإمبراطور جوزيف الثاني. وتقودنا الأمور جميعها أيضًا، نظرًا للتطبيق الجماعي لعلاجنا، إلى الإيمان بأننا سوف نصبح مجبرين على أن نمزج بالذهب الصافي للتحليل مقدارًا لا بأس به من رصاص الإيحاء المباشر. بل أحيانًا، قد يتوجب علينا كما في علاج حالات العصاب أثناء الحرب، اللجوء إلى استخدام التأثير التنويمي. لكن مهما كان شكل هذا العلاج النفسي الشعبي ومهما كانت عناصره، فأهم الأجزاء، وأكثرها فعالية سوف تبقى الأجزاء المستعارة من التحليل النفسي حصريًا بعد تخليصه من كل موقف مسبق[373]».

لقد نوقشت قضية الحالات العصابية الناتجة عن الحرب طوال مؤتمر بودابست بدراسات قدمها أبراهام، وفرويد، وفيرينتزي، وإرنست سيميل،

وفيكتور توسك[374]. وكانت المشكلة جوهريًا كما يلي: كيف يمكن إدخال التحليل النفسي إلى صميم حياة المجتمعات، في زمن الحرب كما في زمن السلم؟ وما كان يثير اهتمام فرويد ومريديه إنما هو تحديدًا البرهان على الاختلاف ما بين، من جانب، الحالات العصابية الصدمية والحالات العصابية العادية، ومن جانب آخر، بين الأشخاص العصابيين والأشخاص «السليمين» الذين أصابهم على حدٍ سواء اضطراب الحرب.

بينما كان الفرويديون قد تخلّوا منذ فترة بعيدة عن السببية الصدمية في ترصين الحالات العصابية، ها هم يجدون أنفسهم مجددًا في مجابهة مع مستوى مختلف كليًا. من المستحيل في مثل تلك الظروف الإنكار بأن فظائع الحرب يمكن أن تكون ذات تأثير لا يستهان به في ظهور الاضطرابات مثل الارتعاشات الاضطرارية، والنسيانات، وحالات الهلع، والكوابيس، وحالات الأرق، إلخ، إن المحللين النفسيين، في مواجهتهم لسلطات البلدان التابعين لها، علمًا بأنهم هم أيضًا جرت تعبئتهم، قد جرّبوا أن يشرحوا بأن الجنود لا يستجيبون بالطريقة نفسها للمعركة وفق الحالة التي هم عليها كعصابيين أو غيرعصابيين في حياتهم المدنية. وهكذا، فهذا جندي يمكن أن تظهر عليه علامات خطيرة من الارتجافات بسبب قسوة المعارك من دون حتى أن يكون محبطًا أو قلقًا، بينما أن جنديًا آخر، علمًا بأنه لم يتعرض للنار، يمكن بالتمام والكمال أن يغرق في حالة صدمية لمجرد التفكير بأنه قد يصبح وجهًا لوجه مع العدو، فكيف يمكن معالجة الجنود المصابين بهذه الحالات العصبية؟ وهل العلاج بالكلام هو، في جميع الظروف، أفضل من العلاج الكهربائي الذي هو تعذيب حقيقي يفرض على المرضى، أو على التنويم المغناطيسي الذي يُقال عنه بأنه فعال؟

لقد نُشرت المداخلات ضمن إطار الـInternationally Psyshoanalyticsher Vearg[375]، وهي دار نشر يمولها أنطون فون فروند، فخر الحركة، وفيها سوف ينشر فرويد كتبه المقبلة.

أثناء المؤتمر، اقترح هيرمان نونبرغ لأول مرة بأن الشروط المطلوبة ليصبح الإنسان محللًا نفسيًا هو أن يكون هو نفسه قد جرى عليه تحليل. وقد صوّت رانك وفيرينتزي بالمعارضة على مثل ذلك الاقتراع، لكنه جهدٌ لم يثمر، فالفكرة القائلة بتحليل المحللين - كعلاج تعليمي وكتحليل للمراقبة - قد فرضت نفسها على مرّ السنين اعتبارًا من التجربة البرلينية الكبرى. وعند جلسة الختام، كان كل عضو واعيًا بأن حركة التحليل

النفسي استعادت متانتها. وارتأى فرويد أنه من المستحسن الإعلان عن أن المركز العصبي المحوري للتحليل النفسي موجود في هنغاريا: لكنه أخطأ التقدير.

فبعد شهرين من ذلك التاريخ، وقّع ممثلو الإمبراطورية النمساويون - الهنغاريون الهدنة فيVillea Giyste، والمفوضون الألمان مطلقو الصلاحية قابلوا الحلفاء في جرود ريثوند، وتنازل غيوم الثاني عن العرش، وأصبحت هنغاريا جمهورية، باسم حق الشعوب بتقرير أمورها ذاتيًا، وبفضل أربعة عشر بندًا وضعها الرئيس توماس وودرو ويلسون، فإن مختلف شعوب أوربا الوسطى والبلقانية القديمة توزعوا داخل حدود جديدة رسمت بعد شهور من معاهدات فيرساي، وسان - جيرمان، وتريانون، وهكذا لم تعد النمسا حينذاك سوى «ضوء خافت كضوء الغروب، ظلّ، غير معروف الملامح ودون حياة، من الأسرة الإمبراطورية القديمة[376]».

عند تأسيس الجمهورية الهنغارية الأولى، كان فيرينتزي مقربًا من الأوساط التقدمية ومن مجلة **Nyugat**، ولذلك استشير من أجل أن يشغل منصب أستاذ بكرسي لتعليم التحليل النفسي في الجامعة، ورغم وجود تقرير أول سلبي، وقّع المرسوم جورج لوكاش، مندوب الشعب في التعليم العام وفي الثقافة، ضمن الحكومة الجديدة برئاسة بيلا كون الذي، بتاريخ 20 مارس/ آذار 1920، كان قد أنشأ جمهورية «مجالس» على غرار الثورة البلشفية، وفي 10 يونيه/ حزيران، دشن فيرينتزي دروسه في مدرج مليء بطلاب متحمسين.

بهذه المناسبة، كتب فرويد مقالة نشرت مباشرة بالهنغارية: «هل يجب تعليم التحليل النفسي في الجامعة[377]»؟ وفيها يقدم بيانًا تفصيليًا بجميع المواد الضرورية لدراسة الطالب في فرع التحليل النفسي، كان يشير إلى ضرورة معرفة تاريخ العلاجات النفسية، كي يفهم الأسباب الموضوعية لتفوق المنهج القائم على التحليل النفسي، وفوق ذلك ها هو يقترح أيضًا برنامجًا يتناول الأدب، والفلسفة، والفن، والميثولوجيا، وتاريخ الأديان، والحضارات. كان يؤكد بقوة أن التحليل النفسي لا يجوز له بحال من الأحوال حصر حقله التطبيقي في مجال الإصابات المرضية لا غير، غير أن مثل ذلك البرنامج لم يوضع أبدًا قيد العمل: لا في بودابست، ولا في فيينا، ولا في أي جامعة في العالم، لقد أخطأ فرويد طريقه حين ظنّ أنه

سيفرض التحليل النفسي كفرع علمي كامل الأهلية. في حقيقة الأمر، لم يكن مدينًا ولا في أي يوم بوجوده إلّا إلى مؤسساته الخاصة. وفي الأوساط العليا للتعليم الجامعي، لم يستطع أن يجد له مكانًا إلّا ملحقًا بفروع علمية أخرى: الطب النفسي وعلم النفس من جانب، والدراسات الإنسانية من جانب آخر. ولهذا قُسّم إلى قسمين: أحدهما عيادي، مرتبط بالمثل الأعلى الطبي للمداواة، والقسم الآخر ثقافي، مرتبط بالفلسفة، والتاريخ، والأدب، والأنتروبولوجيا.

غير أن سقوط كومونة بودابست والقمع الدموي الذي نظمته فرق الأميرال ميكلوس هورثي، الذي أعلن نفسه «وصيًا على العرش»، كان من شأنه وضع حد لهذه التجربة، وكان أن خسر فيرينتزي منصبه: «كان الجانب الأكثر تنفيرًا في السنوات العشر الأولى من نظام هورثي، كما كتب ويليم جونستون، هو بالتأكيد الإرهاب الأبيض في 1920. وضمن عقلية ثأرية [...] استخدموا التعذيب كيفما اتفق، وكذلك الجلد أمام الجمهور بعد أن أعيد العمل به، بينما كانت الاغتيالات السياسية قد خُنقت، وأن اليهود المهاجرين منذ 1914 تم استبعادهم[378]».

لقد أدان فرويد على حد سواء الكومونة والإرهاب الأبيض في نظام هورثي، وبهذا كان على خطأ أيضًا، أما جونز، فقد اغتنمَ الموقف كي يستلم إدارة الـ IPV (Verein) ونقل المركز العصبي للحركة نحو الغرب، أي نحو العالم الناطق بالإنجليزية.

بتاريخ 1919، لم يعد عند فرويد سوى حفنة من المرضى النمساويين والهنغاريين، وفي ألمانيا، كانت الحرب قد دمرت أبناءه وبات عليه مؤقتًا تقديم المساعدة إليهم، وفي الوقت نفسه مساعدة بعض الأصدقاء، لا سيما لو أندرياس - سالومي، التي سوف يخصص لها مساعدةً شهريًا حتى وفاتها، بانتظار استقبال تلامذة جدد، من المهتمين بتأهيل أنفسهم على يديه، تعلّم كيف يحسّن تكلمه باللغة الإنجليزية. ومن جديد، بدأ تفكيره يتجه إلى الإقامة في مكان آخر غير فيينا، في برلين أو في لندن: «نحن جميعًا صرنا متسولين جائعين هاهنا، لكنك لا تسمع شكاوى، أنا ما أزال واقفًا ولا أعتبر نفسي بحال من الأحوال مسؤولا عن عبثية العالم»، ثم يضيف: «التحليل النفسي مزدهر، وأنا مأخوذ بتلقي هذا النبأ من جميع الأرجاء، وأرجو أن يصير العلم عندك أيضًا عزاء»[379]. لقد استقبل جونز استقبالًا حارًا في فيينا في سبتمبر/أيلول، وها هو يدعو فرويد وفيرينتزي

إلى الغداء: كانا جائعين.

نظرًا لأن فيرينتزي أصيب بالإحباط بعد سقوط الكومونة، بدأ بخطوات ليهاجر إلى الولايات المتحدة. لكن فرويد رفض بإصرار أن يسمح له بالرحيل، علمًا بأنه كان قد تخلى عنه وتوجّه أكثر فأكثر نحو جونز من أجل تنظيم الحركة العالمية، وهذا الأخير، لإدراكه بأنه ينتمي إلى معسكر المنتصرين ولانشغاله بانتزاع إدارة الأعمال من أوربا القارية المدمرة، فقد بدأ بتنفيذ سياسته البرغماتية حول إعطاء المهنة شكلها الاعتيادي، وعلى عكس فرويد، دافع حتى عن الفكرة القائلة بأن التحليل النفسي يجب أن يمارس حصرًا على أيدي أطباء كما هي الحال في الولايات المتحدة.

ضمن المنظور نفسه، فرض على «اللجنة» قرارًا كارثيًا في المستقبل، وذلك بفرضه اعتماد قاعدة مفادها أن المثليين لا يحق لهم أن يكونوا أعضاء في الجمعية ولا أن يصبحوا محللين نفسيين؛ لأنهم «في أغلب الحالات شاذون». وهذا التوجه المذهل كان يسير على نقيض المذهب الفرويدي. لأنه مزّغ اسم ليوناردو دافنشي، وهذا ما عارضه البرلينيون، وحذّر رانك أصدقاءه متهمًا جونز بأنه لم يأخذ بعين الاعتبار مختلف أشكال المثلية الجنسية[380].

وهكذا فإن المثليين بدأ التعامل معهم من جديد كشاذين من طرف أولئك الذين هم تحديدًا كانوا قد ابتعدوا عن المقولات العنصرية في نهاية القرن التاسع عشر، بطبيعة الحال، لم يمنع هذا التوجه المثليين إطلاقًا من أن يصبحوا محللين نفسيين، لكن توجب عليهم إخفاء سلوكهم الجنسي. وكان من تبعيات هذا الأمر حتى نهاية القرن العشرين تسهيل انتشار رهاب مرعب حول المثلية وسط الجماعة القائمة بالتحليل النفسي عالميًا[381]. وهذه الوضعية لـ«اللجنة» كانت عبثية وخارجة عن المعقول وذلك لأن فرويد كان قد دافع عن مبادرة ماغنوس هيرشفلت الهادفة إلى العمل على تحطيم المادة 175 من القانون الجنائي في ألمانيا والقاضية بالحبس أو بسحب الحقوق المدنية في حال وجود تعامل جنسي بين الأشخاص الذين ينتمون إلى جنس واحد، وبصورة أخص بين الرجال[382].

إن الأطباء النفسيين في البلدان الداخلة في حرب استنجدت بهم القيادات العسكرية كي يشتركوا في تعقب آثار «مدّعي المرض»، المعتبرين هاربين من الخدمة العسكرية، وكمواطنين سيئين، أو كجبناء أنذال[383]. وفي خضمّ هذا الجدل رجعت بقوة مسألة بنية الهستيريا: أهي مرض

نفساني أم تظاهر بالمرض؟

ضمن هذا السياق تحديدًا ها هو جوليوس فاغنير - جوريغ، الطبيب النفساني من فيينا، ومن القائلين بأن الأمراض عضوية، وهو من مصلحي المصح[384]، وقد اتهموه بالخيانة لأنه وصف حالة جنون مصابين بالعصاب الصدمي بأنهم متمارضون، وقد أخضعهم إلى علاجات بالكهرباء[385]. بدأت القضية في 1920 بمناسبة شكوى رفعها عليه وعلى مساعديه - لا سيما ميكائيل كوزلفسكي - الليوتنان والتر كودير[386]، الوطني اليهودي اللامع في الجيش النمساوي، حينذاك استُدعي فرويد كخبير أمام لجنة تحقيق يرأسها ألكسندرلوفلير وتضم، من بين آخرين، جوليوس تاندلير. وقد وضع تقريرًا واشترك بتبادل الكلام بين أعضاء التحكيم، والمتهم، والمشتكي.

في 1915، أصيب كودير بشق في جمجمته نتيجة انفجار قذيفة، ومن بعد إقامات متعددة في مستشفيات عسكرية، ظل نصف أبله، وكان يمشي بعكاز ويعاني من صداعات، ما بين نوفمبر/ت$_2$ 1917 ومارس/آذار 1918، اعتُبر مريضًا عقليًا، ووضع في غرفة منعزلة في مستوصف فاغنير - جوريغ، قبل أن يخضعوه «لكهربتين - تفريدتين» بالملاقط المعدنية المعمول بها بموافقة من كوزلفسكي والمخصصة للمتمارضين[387]: «أساليب التعذيب تلك كانت معدة إعدادًا خاصًا للأمور النفسية، فيقولون للمريض إنهم سوف يطبقون عليه طريقة معروفة بأنها قاسية [...] إن الآلام الناشئة عن الكهربة بالملقط المعدني لا يمكن وصفها. إنها كما لو أنها لوالب عديدة تنغرز في لب العظام بسرعة تسبب الدوار»[388].

لقد خطر على بال فرويد استخدام تلك المحكمة للدفاع عن مذهبه المهاجَم من كل جانب، ولذلك التف حول مسألة تحمل فاغنير - جوريغ للمسؤولية كي يقدم تمجيدًا لمنهج التحليل النفسي، وأشار في البداية إلى أن الأطباء يجب أن يضعوا أنفسهم بخدمة المريض، وليس تحت أوامر القيادة العسكرية، وقد أدان منفعة الصدمة الكهربائية أثناء العلاج، وبعد تقديم أدلته برأ فاغنير - جوريغ من كل مسؤولية في تلك القضية لكنه أبدى أسفه لعدم انتساب هذا الطبيب ليكون نصيرًا متحمسًا للتحليل النفسي، وأكد على وجه الخصوص بأنه لم يكن ممن يمارسون التعذيب، وأنه لم يرتكب أية خيانة حين اعتقد بأن مثل ذلك العلاج يمكن أن يكون دواءً للتمارض. في نظر فرويد، لم يكن للتمارض من وجود لسببٍ وجيه هو أن «جميع العصابيين هم متمارضون» والعكس بالعكس، حيث إنهم

«يتمارضون من دون أن يعلموا بذلك وهذا تحديدًا هو مرضهم». بتعبيرٍ آخر، لمرّةٍ جديدة، جعل فرويد تصوّر التمارض أمرًا لا يصدَق على شيء: فلا يتمارض المرء إلّا بما هو فيه.

لم يكن فاغنير - جوريغ، من جانبه، ليستطيع القبول بأن يدافع عنه مثل هذا الدفاع رجلٌ يحمل حياله التقدير، لكنه يرفض طريقته في المحاكمة العقلية، فهو لم يكن يقبل لا بفكرة أن التمارض هو عصاب، ولا بالمبدأ الذي مفاده أن الطبيب النفسي، في زمن الحرب، يجب أن يضع نفسه حصريًا في خدمة المريض، في جميع الأحوال لقد برّأت المحكمة ساحته.

لقد ارتكب فرويد خطأ وضعِ تشخيصٍ لعصاب من دون أن يهتم بحقيقة كودير. علمًا، بأن هذا الأخير كان يشبه عددًا لا بأس به من أقاربه. فكان والده متسلطًا، وكان عنده أخٌ بكر قد انتحر، وأخت غير شقيقة مصابة باضطرابات عقلية، كما أن طفولته طُبعت بالإذلال لأنه يهودي، كان من دون شك عصابيًا، لكنه على وجه الخصوص عانى من صدمة حرب حقيقية كما سوف يشير إيسلر بتاريخ 1979: «قد أقول بأن حالة كودير، رغم ما فيها من جانبٍ مأساوي، كانت تحمل في طياتها كوميديا النمساوية حقيقية، فها هو شاب يتوجه إلى الحرب بحماس. إنه ضابط، وقد جُرح، ولم يعد بإمكانه المتابعة مهما كانت الأسباب [...]. لا نعلم إن كان أحدٌ ما، في صالة المحاورات، قد لاحظ أن هناك بين فاغنير - جوريغ وفرويد مجابهة هي بين ممثلين لعالمين مختلفين: أحدهما، العالم القائل بوجهة النظر القائمة على الفعالية، والآخر، عالم الإنسانية التي ترى في الإنسان تشابك القدر والألم»[389].

إن عدد الضحايا البشرية لتلك الحرب العالمية الأولى ناهز أربعين مليون إنسان: أكثر من النصف بقليل قتلى - من مدنيين وعسكريين -، والباقي من المصابين بمختلف أنواع الإصابات. لقد خسر الحلفاء خمسة ملايين من الجنود، والإمبراطوريات الوسطى أربعة ملايين: من بينهم إرنست لانزير.

كان ذلك الرجل قد قابل فرويد في أكتوبر/ت1907/1 وعمره تسعة وعشرون عامًا، لقد عاش طفولةً شبيهة بطفولة أبناء عديدين من البرجوازية اليهودية في فيينا، وكان يمكنك بحق أن تصفه بأنه خارج من روايات شنيتزلر أو زفايغ الأب. كان هنريخ لانزير قد تزوج من ابنة خاله

روزا هرلنجر الأغنى منه، وهو ما أتاح له الدخول كموظف في مشروع عائلة سابورسكي[390]. كان إرنست، الابن الرابع بين مجموعة من الأبناء عددهم سبعة، وقد رأى أمه منهكة بالحمل المتواصل، وقدّر بأن والده قد أصبح عنيفًا، عقب إشكالات مالية. في طفولته، تلقى الضرب من أبيه الذي كان يصفه بأنه «مجرم المستقبل»، لأنه تجاسر على الرد على الإهانات بإهانات أخرى[391].

عندما كان عمره خمسة أعوام، كان قد اختبأ تحت تنورة مربيته ولمس أعضاءها الجنسية. ومن هنا كانت جنسيته المبكرة وحالات انتصاب قوية غالبًا جدًا ما تتحرك بسبب كلمات يتفوه بها الخدم. إنه، كما شقيقه، قد اعتمد على «عادات جنسية» وعلى أساليب كلام غير مهذبة، إذ لم يكن يتردد أن يطلب من والدته أن «تغسل له شرجه». بتاريخ 1897، بعد أن توددت إليه خياطة استخدمها والداه، أحس بالذنب حين انتحرت بعد أن رفض ما عرضته عليه، من بعد ذلك، وقع في غرام جيزيلا أدلر، وهي ابنة خال فقيرة، عقيم، وهزيلة البنيان، وكانت لا تروق لوالده، وهكذا خطر له أن موت هنريخ هو السبيل الوحيد لرفع العقبة الواقفة في طريق زواجه المرغوب.

حين جاء ذلك الموت، ظلّ لانزير ضحية طقوس جنسية، وحتى حينما التحق بالجيش النمساوي برتبة عريف أول، كان مسكونًا بشبح والده الذي يطلّ عليه وهو نائم ليزعجه، ولذلك جعل عادته تأمل قضيبه المنتصب بمساعدة مرآة يضعها بين فخذيه، كانت تهاجمه دون توقف أفكار انتحارية وإرادة حزّ عنقه، لذلك أدرك، عند بلوغه ستة وعشرين عامًا، أثناء أول مجامعة له، أنه مصاب بمرض نفسي. حينذاك توجه إلى ميونيخ كي يتابع علاجًا بالماء، وبهذه المناسبة، أقام علاقة جنسية مع عاملة في مطعم وهو يفكر بأنه، في سبيل الوصول إلى مثل تلك المتعة، كان الأجدر به قتل والده، بصورة منتظمة، كان يمارس العادة السرية أو يستسلم لطقوس دينية. وقد تردد على أطباء متعددين، من بينهم فاغنر - جوريغ الذي لم يقدم له أي عون.

بتاريخ 1907، بعد أن أصبح ضابط احتياط، توجه إلى غاليسيا للقيام بتدريبات عسكرية، وهناك تعرف على نيميتزيك، وهو نقيب شديد القسوة بشكل استثنائي، ومن المؤمنين بالعقوبات الجسدية، وهذا الأخير أسمعه حكاية تعذيب على الطريقة الشرقية قوامه إجبار السجين على خلع ثيابه

ومن ثم الركوع على الأرض، وظهره محني. على مؤخرة الرجل يثبتون حينذاك، عن طريق سير جلدي، إناءً كبيرًا من الصفيح، مثقوبًا وفيه جرذٌ محبوس يروح ويجيء. ونظرًا لحرمانه من الطعام ولتهيّجه بالصفيح المحمّر بنارٍ يتم إدخالها عن طريق ثقب في الإناء، ها هو الحيوان يفتش عن الفرار من الاحتراق ويدخل في المعي المستقيم لمن يمارَس عليه التعذيب، مسببًا له جروحًا دامية، بعد نصف ساعة، يموت الجرذ مختنقًا ويموت معه الرجل في الوقت نفسه[392]. في ذلك اليوم، أثناء التدريب، أضاع لانزير مثبّت النظارة وأرسل برقية إلى بائع النظارات الذي يتعامل معه في فيينا طالبًا منه أن يرسل إليه مثبتًا آخر بالبريد الراجع. بعد يومين، استعاد ذلك الشيء عن طريق النقيب نفسه الذي أعلمه بأن النفقات البريدية يجب تسديدها إلى الليوتنان دافيد، المسؤول عن البريد.

أمام هذا الإجبار، كانت ردة فعل لانزير بسلوك هذياني، فقصة التعذيب وقد اندمجت بقصة الدَين، والتي أيقظت ذكرى قضية نقود أخرى: فوالده كان ذات يوم قد وقع تحت دَين بالقمار، ولم ينقذ شرفه إلّا بمساعدة صديق أقرضه المبلغ الذي يتوجب دفعه، وقد حاول هنريخ، بعد انتهاء خدمته العسكرية، العثور على ذلك الرجل، لكنه لم يتمكن من ذلك، ولهذا لم يستطع أبدًا تبرئة ذمته وتشريف اسمه.

هذا هو الرجل الذي حضر إلى برغاس في اليوم الأول من أكتوبر/ ت 1 1907. وقد سارع على الفور إلى استعراض ذكرياته من الطفولة، وفي كل مساء راح فرويد يدون يوميات هذا العلاج كي يعيد بناء المحاورات الدقيقة. فهذه إحدى المرات التي يقابل فيها مريضًا مثاليًا، مصابًا فعليًا بأعراض عصاب هجاسي كما كان قد وصفه: عصاب يعود في أصوله إلى اضطراب نفسي مطبوع بتثبيت الليبيدو عند المرحلة الشرجية. كراهية الأب، طقوس طرد الشياطين، اجترارات، شكوك، عذابات وجدانية، حَجْر، زيجات من ذوي القربى، التصرفات العائلية المخجلة، حضور الأخوة، الأخوات، الأعمام والأخوال، العمات والخالات: حيال مثل هذه القصة «الفرويدية» بامتياز، لم يكن الهر - بروفسور بحاجة إلى بناءٍ متخيل لا يتعرف المريض فيه على نفسه، وحيث أن لانزير كان يفتش عن سلطة أبوية تتيح له فهم دلالة عصابه نشأ تحويل إيجابي بين الرجلين، حتى أن فرويد استطاع إجباره على سرد المشهد المريع للتعذيب، وهو يتخيل بأن مريضه سيشعر، عند هذا التذكر، «برعب متعة مجهولة لديه».

سمح فرويد بأن يُشتم ويُهان لكي يساعد لانزيرمن خلال الطريق المؤلم للتحويل كي يعترف بالكراهية اللاشعورية التي يكنها لوالده، وها هو فرويد يحل اللغز: إن حكاية القصاص بالجرذان على ما يقول بهذا الصدد، هي التي أيقظت غلمة لانزير الشرجية، والنقيب، الذي جعل من نفسه محاميًا عن عقوبة جسدية بالجرذان، كان قد اتخذ، بنظر المريض، موقع الأب وجعل نفسه محط عداوة مشابهة لتلك التي كانت فيما مضى الجواب على قسوة هنريخ الدامية، وفي رأي فرويد، كان الجرذ هنا يلبس معنى المال، وبالتالي الدَين، الذي ظهر أثناء العلاج عن طريق تداعي الكلمات: «فلوران / جرذ» أو «حصة (Rate) / جرذان (Ratte)»، يجب الإشارة إلى أن المريض، منذ بداية العلاج، كان قد اعتاد على تعداد قيمة الأتعاب كما يلي: «عدد من الفلوران - عدد من الجرذان».

بتاريخ 1908، على مدى خمس ساعات، في أول مؤتمر لـ Verein في سالزبورغ، عرض فرويد حالة رجل الجرذان - Ratteenmann أمام جمهور تفاجأ بالبناء المنطقي للحكاية، وفي سبيل النشر، بدّل أقوال المريض مقتطعًا منه تأويلات صادرة عنه هو شخصيًا، كما تعمّد عدم سرد أحداث عديدة، أضف إلى ذلك أنه قدم الأب كرجل نموذجي ولم يتطرق تقريبًا بشيء بخصوص الأم. مع ذلك، لم يكن الأمر ليتعلق بـ«بناء تأملي» بالخالص من أجل إبراز نظريته، كما زعم بعضهم[393]. في جميع الأحوال، حكم إرنست لانزير على ذلك العلاج الذي استمر أربعة شهور بأنه كان خيرًا عليه وأن التأويل الفرويدي شفاه من عذابه، لا سيما من هواجسه، وقد وافق على ظهور حالته ونشرها[394]. وفرويد، من جانبه، أكد أن الأمر انتهى بالشفاء التام.

وفي 1910، تزوج لانزير من حبيبته الغالية جيزيلا و، بتاريخ 1913، أصبح محاميًا. وحين تجند في الجيش الإمبراطوري في أغسطس/آب 1914، وقع في أيدي الروس أسيرًا في نوفمبر/ ت2 ثم أعدم، وماتت والدته بعد شهرين من إعدامه.

ترى، ماذا لو استمر على قيد الحياة، ماذا كان سيصبح؟

مع لانزير، اصطدم فرويد من جديد بمأساة عائلية وبزيجات من الأقارب، لكنه أيضًا بالتأكيد وجد نفسه أمام عقدة أوديبية، وضابط الجيش الأمبراطوري كان قد قرأ بعضًا من مؤلفاته، فتوجه إليه باعتباره مثل حلّال للألغاز، مثل أوديب الذي احتل مكان الوحش على باب طيبة، لكن الأمر لم

يكن في أي جانب، أثناء علاجه، نتيجة رغبة لا شعورية باشتهاء الأم[395]. كان لانزير قد حمل حقًا وصدقًا الرغبة الآثمة بقتل أب فاشل وشرس[396]، لكن من دون الرغبة بامتلاك الأم، حتى عندما كان يتذكر أنه فتش لديها عن الحماية من أب رهيب، كانت أمه قد استمرت في نظره شيئًا مقرفًا، برائحتها المثيرة للغثيان، نتيجة اضطرابات معوية لديها، وهذا ما كان يصيبه بالرعب، ولم يكن ينظر إليها إلّا كامرأة متصلبة ومحرومة حاولت منعه من أن يتزوج شريكة حياته، كي تزوجه لإحدى بنات آل سابورسكي.

بدلًا من إضافة تأويل لدحض أو لتأييد جميع التأويلات التي جاءت لدى المحللين النفسيين منذ نشر هذه الحالة، من المفيد دون شك الإشارة إلى مقدار ما كانت عليه حكاية لانزير من قدرة على عرض حقيقة العلاجات الفرويدية الأولى المتميزة بالتشبيك بين حالة معينة للعائلة الغربية، المطبوعة بانهيار السلطة الأبوية - والأولوية المعطاة للكلام الفردي القادر على أن يجمع الاعتراف منها. كان فرويد شخصيًا الممثل في تلك القصة، واستمد منها قوة كي يعطي مذهبه صفاء، إذ أنه دائمًا يجابه خطر الضياع في متاهة أغرب التأويلات، أو أنه يجرب محاصرة معنى مصير ما عن كثب.

إن لانزير، في مواجهة فرض زواج مدبر لا يعدو أن يكون تكرارًا لزواج والديه، عارض ذلك بفضائل زواج الحب، دون أن يندد بزواج الأقارب بين الخؤولة والعمومة، فهو لم يفكر أبدًا، مثل غيره من يهود فيينا، بالتفوق على الأب، ودخوله إلى الحياة العسكرية لم يسمح له بحلم النزاع الذي يضعه في مواجهة مع عائلته، ومقابلته مع فرويد جعلت منه سيد حياته، حتى وإن كانت العلاجات الجسدية الأخرى التي فُرضت عليه هي من بعض علاجات عدمية، وكما الحال مع عدد لا يستهان به من شباب ذلك العصر، لم يتح له معرفة تتمة حكايته حيث كان قدره الموت في المعركة: «إن المريض الذي أعاد التحليل إليه صحته النفسية، كما سوف يكتب فرويد في 1923، قتل أثناء الحرب العالمية مثله مثل العديد من الشباب ذوي الشأن والذين كان يمكن أن تبنى عليهم آمال كبيرة»[397].

بتاريخ 28 يونيه/1914، سرجيوس (أو سيرغيي) قسطنتينوفيتش بانكييف كان يتنزه في الـBaerater وهو يفكر بتحليل فرويد له عندما علم بالخبر الصاعق في نظره، خبر اغتيال الأرشيدوق فرانسوا/ فرديناند على يد أحد القوميين في البوسنة. كان علاجه قد بدأ في يناير/ك2

1910 بعد عامين من نهاية علاج لانزير، ومنذ ذلك الحين، دون أن يدري، كان في معسكر متعارض مع معسكر ذلك الضابط من الجيش النمساوي الذي، كما هي حالته، تردد على عيادة 19 برغاس. كان ابن عائلة غنية من الأرستقراطية الروسية، وهكذا نشأ بانكييف في أوديسا، مع شقيقته آنا، بإشراف ثلاث خادمات (غروشا، نانيا، الآنسة أوين) مع العديد من المعلمين، في قصر الإقامة ذاك، كان قسطنطين، الأب المنهار والكحولي، يعيش حياةً نشيطة كرجل سياسي ليبرالي ومثقف، بالإضافة إلى تنظيم عمليات صيد للذئاب، كان سيرغيي يستمتع بها استمتاعًا كبيرًا، في المساء، بعد انتهاء الصيد، كانت أمه المصابة على الدوام باضطرابات جسدية متنوعة، غالبًا ما ترقص مع طفليها أمام كوم الحيوانات المتحولة إلى وجبات غذائية[398].

من جهة الأب والأم، يجعلك أعضاء هذه العائلة المريضة تفكر بشخصيات «الإخوة كارامازوف»، فالجد من جهة الأب مات مدمنًا على الكحول وزوجته أصيبت بانهيار. وعمه بيير، الشقيق الأول للأب كان يعاني من جنون العظمة - الغُظام - وأشرف على علاجه الطبيب النفساني سيرغيي كورساكوف. ونظرًا لهربه من معاشرة بني البشر، عاش مثل بدائي وسط حيوانات وانتهت حياته في مصح، والعم نيقولا، الشقيق الثاني للأب، كان قد حاول اختطاف خطيبة أحد أبنائه ليتزوجها قسرًا. وأحد أبناء خالته كان قد حُجز في مصح في براغ، لإصابته هو أيضًا بنوع من هذيان الاضطهاد، وأمّا بما يخص قسطنطين، فأشرف على العناية به موشي وولف، أحد أوائل التلامذة الروس الذين تتلمذوا على يد فرويد، وكان يداوي أيضًا اثنين آخرين من أبناء خالته مصابين بفصام الشخصية - الشيزوفرينيا -، وعندما حضر قسطنطين إلى ميونيخ كي يستشير كاريبلين، شخّص هذا الأخير حالته على أنها ذهان هوس - انهياري من دون أن يجعله ذلك يقدم إليه أدنى مساعدة.

باكرًا جدًا، سيرغيي (سيرجيوس) اصطدم بذئاب وبذيول مضحكة، فذات يوم، الآنسة أوين، التي كان يمقتها، رفعت أمامه قطعة طويلة من الكراميل بحيث تبدو وكأنها أجزاء من أفعى، وفي يوم آخر، فكت ثوبها من الخلف وراحة تهز مؤخرتها في جميع الاتجاهات وهي تهتف: «انظر إلى ذيلي الصغير!» وأما آنا الشقيقة الغالية الذكورية والجريئة فكانت تسخر من شقيقها مقلدةً الآنسة أوين. وسعيًا منها ذات يوم لإلهاب فضوله،

عرضت أمام عينيه صورة جميلة لفتاة لكن وراء الورقة، كانت قد أخفت صورة ذئب رهيب منتصب على قائمتيه وعلى وشك أن يلتهم ذات القبعة الحمراء، كان عاشقًا لشقيقته تلك وهي المفضلة عند قسطنطين، وهكذا كان يرسم معها أشجارًا، وخيولًا، وذئابًا، وسكارى، وبخلاء، وعندما يشعر بالخوف الشديد، ها هو يلجأ ويرتمي بين ذراعي نانيا، المربية المعبودة، وكانت شديدة الورع فتروي له قصص قديسين، وشهداء، وأعمال اضطهاد.

بتاريخ 1896 عندما بلغ عمره عشرة أعوام، ظهرت على سيرغيي علامة رهاب من الحيوانات، وفي 1905، شقيقته آنا انتحرت وبعدها بعامين، جاء الدور على الوالد كي ينتحر. في تلك الحقبة، كان سيرغيي في المدرسة الداخلية، وهناك التقى بامرأة من عامة الناس، ماترونا، وقد أصيب في علاقته معها بمرض الزهري، وحينذاك غرق في نوبات عديدة من الانهيار، أدت به على السريع - من مستوصف إلى مصح، ومن بيت للراحة إلى مؤسسة للتداوي بالمياه المعدنية - ليصبح، كما حال جميع أعضاء عائلته مريضًا مثاليًا في نظر الممسكين بالمعرفة النفسية في نهاية القرن: إنه مصاب بكآبة مزمنة وهو ضحية لفورات من الحماس والانهيار، ودائمًا يفتش عن هوية لا يقدر على إيجادها، ولكل طبيب، كي يجعل نفسه محبوبًا من طرفه وكي يعطي نفسه تماسكًا على حد سواء، كان يروي حكاية مختلفة عن «حالته».

قام بمداواته في أول الأمر فلاديمير بختيريف، الذي استعمل التنويم المغناطيسي، ومن بعده تيودور زيهن في برلين، وأخيرًا فريدلاندر في فرانكفورت، كما قصد إيميل كرايبلن في ميونيخ والذي، بعد استرجاع الموروث الأبوي، وضع من جديد تشخيص الحالة باعتبارها حالة ذهان وسواس - انهياري. في مستوصف نيوويتل سباخ، حيث أجريت له علاجات بقدر ما هي متنوعة كانت من دون جدوى - تدليك، حمامات، إلخ - ونظرًا لأن سيرغيي، المنجذب دائمًا انجذابًا شديدًا إلى المرضعات والنساء من عامة الشعب، فقد تعلق بغرام ممرضة، تيريزا كيلر، الأعمر منه قليلًا والأم لطفلة صغيرة (إيلس). هنا انعقدت أواصر علاقة مشبوبهة عارضتها عائلته، ناهيك أيضًا عن طبيبه النفسي، المقتنع بأن مثل هذه المعاشرة مع امرأة «من طبقة دنيا» سوف يكون من شأنها مفاقمة جنونه.

لدى عودته إلى أوديسا، وضع بانكييف نفسه تحت عناية طبيب شاب، ليونيد دروسن، الذي قرر أن يأخذه إلى فيينا ليقوم باستشارة في برغاس،

وبكلمة جارحة، ندد فرويد بعدمية المعالجة عند زملائه من الأطباء النفسيين: حتى هذه اللحظة، قال لبانكييف، سعيتَ لكشف أصل مرضك بالتفتيش في دلو الخراء. كان التأويل يحمل دلالة مزدوجة، لقد ارتأى فرويد على حد سواء لا جدوى العلاجات السابقة. والمرض الخاص الذي كان يعاني منه سيرغي هو اضطرابات معوية مستمرة، لا سيما إمساك مزمن. كان الهر - بروفسور مقتنعًا، على خطأ، بأن تلك الاضطرابات مصدرها نفساني، ولذلك أمر مريضه بإيقاف الحقن التي وصفها له طالب، والسبب أنها ذات «طابع مثلي».

بناء على نصيحة من فرويد، أقام بانكييف في فيينا، بينما كان دروسن يتابع دوراته التعليمية في الـ WPV ويدخل إلى أسرار التحليل النفسي، راح سيرغي يتلقى دروسًا في المبارزة ويشتغل على دراساته في الحقوق. عند المساء، كان يذهب إلى المسرح أو يلعب بالورق، كان يحب فيينا، والـBrater، والمقاهي، وحياة المدينة التي تجعله ينسى طفولته في الأرض، تلك الطفولة العامرة بالذئاب وبالأجداد.

وبدلًا من أن يمنعه من رؤية تيريزا مجددًا، طلب فرويد منه ببساطة أن ينتظر حتى نهاية العلاج ليلتقي بها، ولم يعترض على الزواج: «تيريزا، كما قال، هي الاندفاع نحو المرأة» وفي رسالة إلى ساندور فيرينتزي بتاريخ فبراير/شباط 1910، أورد مقدار عنف المظاهر التحويلية عند مريضه: «الشاب الروسي الغني الذي هو مريضي بسبب عاطفة غرامية متفجرة اعترف لي، بعد أول جلسة بالتحويلات التالية: حيث إنني يهودي نصاب، سوف يطيب له أن يهاجمني من الخلف وأن يخرى على رأسي، وعندما كان عمره ستة أعوام، كان أولى الأعراض الظاهرة متمثلة بشتائم وتجديفات على الله: خنزير، كلب، إلخ. وعندما يرى ثلاث كتل من البراز في الشارع، كان يشعر بالانزعاج بسبب تذكره للثالوث المقدس، ويروح يبحث بقلق عن كتلة براز رابعة كي يزيل ذلك الإيحاء[399].

للمرة الأولى، تكوّن عند بانكييف الانطباع بأن هناك من يصغي إليه ولم يعد يعالَج كمريض، لقد أسهم العلاج في إعطائه هوية وإخراجه من ذلك العدم الوجودي الذي رسّخه فيه مختلف الأطباء الذين تعاقبوا على معالجته أثناء ضياعه من مستشفى لآخر. كما أنه، على وجه الخصوص أقام علاقات ودية مع فرويد وانتهى به الأمر إلى تبجيله. عند نهاية المعالجة، عبّر فرويد، من جانبه، عن تعاطف كبير حياله، وسوف ينتهي به

الأمر إلى مقابلة تيريزا والموافقة على الزواج الذي جرى الاحتفال به في أوديسا بتاريخ 1914، شعر بانكييف حينذاك بأنه قد شفي وأكّد أن التحليل النفسي أتاح له الزواج من المرأة التي يحب.

مع هذا المريض، جابه فرويد، مرة جديدة، قصة توضح تمامًا تصوره عن الحالات العصابية العائلية: الجنسانية المبكرة، العلاقات الملتبسة بين الأخوة والأخوات، دور المربيات والمرضعات السيئات، مناظر الغواية، مرض الآباء، والأعمام والأخوال، وأولاد العمومة والخؤولة، عبودية النساء، إلخ، وهكذا فقد نسي بأن مريضه كان يعاني من كآبة مزمنة لا علاج لها، فجعل منه حالة هستيريا قلق مع رهاب من الحيوانات، تحول لاحقًا إلى عصاب هجاسي أو إلى عصاب طفولي.

ضمن تلك الحالة الفكرية تحديدًا، وفي خضمّ آلام الحرب، كتب في شهرين، من أكتوبر تشرين/ت 1 إلى نوفمبر/ت2 1914، قصة ذلك الروسي المصاب بانهيار والمتقلب، دون اللجوء إلى التسمية السابقة «رجل الذئاب». وبطلب من سيرغي شخصيًا، نشرت القصة في 1918 تحت عنوان «جانب من قصة عصاب طفولي»[400]. ولم يرجع فرويد في ذلك إلى أي شيء مما كان قد كتبه حول الكآبة. علمًا بأنه توجب عليه أكثر من مرة، وضع إضافات أدخلها على النص الأصلي.

على نقيض حالة رجل الجرذان، حيث جرى عرض منطق العلاج بطريقة في منتهى التماسك، استرسل فرويد، حين كتابة قصة بانكييف، مع اشتغال حقيقي بإعادة تكوين لسيرة المريض، إلى درجة جعلته «يخترع»، بمقولات تأويلية، أحداثًا لم تكن من دون شك قد حدثت أبدًا[401]، حيث تمحورت الحكاية بأكملها حول طفولة المريض وجنسانيته.

وها هي اللوحة العائلية الفرويدية مؤلفة من الأم، والأب، والشقيقة، والمستخدمات الثلاث: مربية الأطفال (نانيا)، المشرفة الإنجليزية (الآنسة أوين)، الخادمة (غروشا). في رأي فرويد، استنادًا إلى ذكريات استرجعها سيرغي أثناء علاجه، كان هذا الأخير موضوع محاولة غواية وعمره ثلاثة أعوام ونصف من طرف شقيقته آنا، التي كانت قد كشفت له عن «البوبو» عندها، بينما هو من بعد ذلك تعرّى أمام نانيا، التي وبّخته. ويروي فرويد أن المريض الروسي عندما كان عمره عشرة أعوام أراد، بدوره، غواية شقيقته، لكنها أبعدته عنها.

بنتيجة ذلك، فضل لاحقًا اختيار نساء من وضع اجتماعي أدنى من

وضعه، وتحديدًا بتأويل حلم رآه سيرغي عندما كان عمره أربعة أعوام، ثم رواه ورسمه أثناء العلاج، أعاد فرويد بناء أصل العصاب الطفولي: «رأيت في الحلم، قال، إن الليل مخيم وأنني نائم في سريري [...]. أعلم بأننا كنا في الشتاء. فجأة انفتحت النافذة تلقائيًا ورأيت برعب كبير أن على شجرة اللوز الكبيرة أمام النافذة ذئاب قليلة بيضاء جالسة، كان هناك ستة أو سبعة، كانت الذئاب بيضاء بالكامل وكان منظرها بالأحرى شبيهًا بثعالب أو بكلاب الرعيان، لأنها كانت بذيول بكبيرة مثل الثعالب وبآذان منتصبة كما عند الكلاب عندما تتنبه لشيء ما. وبخوف شديد، من أن تأكلني الذئاب، صرخت واستيقظت»[402].

بتقريب هذا الحلم عن الذئاب البيضاء من ذكريات عديدة للمريض تتعلق بجنسانيته الطفولية، اخترع فرويد، بإعطاء تفاصيل ذات دقة لا مثيل لها، «مشهدًا بدائيًا» خارقًا (Urszene)[403]، وسوف يصبح هذا المشهد شهيرًا في حوليات التحليل النفسي وسوف يتم التعليق عليه مرات ومرات: «في نهار صيفي شديد الحرارة، كان الصغير سيرغي، وعمره حينذاك ثمانية عشر شهرًا وكان مصابًا بالملاريا، وهو نائم في حجرة النوم مع والديه، حيث هذآن الأخيران انسحبا إلى هناك، شبه عراة، من أجل القيلولة: في الساعة الخامسة عصرًا، بالتأكيد مع ذروة الحمى، استيقظ سيرغي و، بتركيز شديد، بدأ يراقب والديه شبه العراة بملابس داخلية بيضاء، جاثين على أغطية السرير البيضاء، وهما منصرفان ثلاث مرات على التوالي في جماع: وإذ لاحظ الأعضاء الجنسية لوالديه، واللذة المرتسمة على وجه والدته، فإن الرضيع السلبي عادة، شعر بحركة معوية مفاجأة وبدأ بالصراخ، قاطعًا هكذا عمل الزوجين»[404]، في رأي فرويد كان الحلم حول الذئاب بالتالي تشخيصًا معكوسًا لمشهد غرامي قديم. ولم يقبل سيرغي بانكييف أبدًا بوجود مثل ذلك المشهد لكنه لم يكف عن اعتباره مشهدًا ساحرًا مشيرًا إلى أنه قد أعطى معنى لحياته. فأحيانًا كان يؤكد بأن فرويد قد أصاب بإعادة تركيب حياته النفسية اللاواعية على تلك الصورة، وأحيانًا أخرى كان يشك بمصداقية ذلك التأويل.

هناك روايتان عن حياة سيرغي شغلتا المحللين بسلسلة من التأويلات، إحداهما تتعلق بغروشا، التي ردفاها، المشبهتان بجناحي فراشة، ثم برقم خمسة الروماني «V»، تذكرانه بذئاب الحلم الخمسة وبالساعة التي جرى فيها الجماع الشهير؛ والرواية الثانية تكاد تكون هلوسة بصرية، ففي

طفولته كان سيرغي قد رأى أصبعه الصغير مقطوعًا بسكين جيب، ثم من بعد ذلك انتبه إلى عدم وجود الجرح. واستخلص فرويد من هذا الأمر أن مريضه أظهر، في هذه القضية موقف رفض (Verwerefung) وقوامه عدم رؤية الجنسانية إلّا من زاوية نظرية طفولية: الاتصال بالشرج.

بعد هذا الغوص العميق في طفولة سيرغي، أصبح فرويد على يقين بأنه قد شفاه، وحتى ربيع 1918، عاش هذا الأخير في أوديسا ما بين أمه وتيريزه، وكانتا على تفاهمٍ سيء بينهما، كما أنه رجع إلى دراساته ونجح سريعًا في الحصول على شهاداته الحقوقية. أما تيريزه فأجبرت على الخروج من روسيا كي تلحق بابنتها التي توفيت في فيينا، وهناك لحق بها سيرغي. كانت ثورة أكتوبر قد دمرته ماديًا وها هو الأرستقراطي القديم، صاحب الثروة، وقد أصبح رجلًا آخر مهاجرًا فقيرًا ولا مورد للعيش بين يديه، وهو مجبر على القبول بوظيفة في شركة تأمين، حيث استمر يعمل إلى حين تقاعده.

إن التغيرات الطارئة في حياته أغرقته في انهيار جديد، جعله يعود إلى فرويد، وهذا الأخير استقبله بطيب خاطر، وقدم إليه دون تأخير هدية، هي قصة حالته التي كان قد نشرها لتوه، ثم وضعه مجددًا تحت التحليل من نوفمبر/ت2 1919 إلى فبراير/1920، وإذا كان لنا أن نصدقه، فهذا الـ«العلاج اللاحق» سمح بإلغاء أثر باقٍ من تحويل لم يحلل سابقًا وهكذا تم شفاء المريض أخيرًا.

في واقع الأمر استمر سيرغي يعيش الأعراض ذاتها، وقد تفاقمت بتأثير وضعه المالي الهزيل. وكان أن ساعده فرويد بجمع المال من أجله ضمن حلقة تلامذته من أبناء فيينا، حينذاك تحديدًا بدأ سيرغي بانكييف يتوحد مع قصة حالته وينظر إلى نفسه فعليًا بأنه رجل الذئاب ملقبًا نفسه باسم Wolfs man - رجل الذئاب -.

بتاريخ 1926، نظرًا لإصابته المستمرة بالأعراض نفسها، استشار فرويد مجددًا، فرفض معالجته مرة ثالثة، وأرسله إلى روثماك - برونزفيك، المدمنة على المورفين والتي تكاد أن تكون مريضةً مثله. هنا وجد نفسه أسير تشويش لا يصدق، قائم على التحويل. إذ لم يكن فرويد وحسب يحلل روث في الوقت نفسه وزوجها وشقيق زوجها، بل هو فوق هذا وذاك قد أرسل إلى ديوان روث التحليلي، أمريكية، موريل غاردنر، وهي سوف تصبح صديقة بانكييف ونجية أسراره، مع سير التحليل لكل منهما الواحد

إثر الآخر.

كانت روث ماك - برونزفيك من أتباع نظريات ميلاني كلين، ولذلك رأت عند المريض، بعد علاج ستة أشهر، ليس عُصابًا وإنما حالة عُظام - بارانويا -. وفي 1928، نشرت رواية ثانية عن الحالة[405]. لقد نسبت إلى المريض، لأول مرة، الاسم الذي يريد أن يحمله والذي سوف يكون منذ ذلك الحين اسمه: «رجل الذئاب»، وقدمت توصيفًا له بأنه رجل مضطهد، نافر من البشر، بخيل، شحيح، سوداوي المزاج، موسوس بسبب صورته لا سيما بسبب دملة تنخر أنفه، من خلال هذا التشخيص الجديد، انقسمت حركة التحليل النفسي إلى معسكرين: أنصار الذهان من جانب، وأنصار العصاب من الجانب الآخر. ورأى بانكييف بأن من عالجته للمرة الثانية كانت مجنونة، وأنها كانت ذات قسوة لا تصدق حيال تيريزا، لكنها قد ساعدته.

ما زلنا في عام 1926، حين تجسد الخصام الرهيب ما بين فرويد ورانك، حيث انتقد هذا الأخير التأويل الفرويدي لحلم الذئاب. كان من المستحيل في نظره لطفل عمره أربعة أعوام أن يرى مثل ذلك الحلم وأكد أن القضية في حقيقتها تعود إلى رغبة تحويلية عند المريض، إن سرير الطفل، كما كان يقول بهذا الشأن يمثل ديوان التحليل، والأشجار هي ما يشاهد في عيادة الاستشارة، أما الذئاب فليسوا سوى صورة أعضاء اللجنة الذين زيّن فرويد بصورتهم الفوتوغرافية مكتبه، وربما أبناء فرويد. وها هو رانك يضيف بأن ذلك الحلم يبرهن على وجود نظرياته الخاصة حول التحويل الأمومي وصدم الولادة. إن المريض في نظره، كان قد حلم بـ«شجرة نسب»، وهو ما كان قد أيقظ غيرته الطفولية التي احتل فيها فرويد عنده موضع أم ذات عضو ذكري[406].

وإذ أصاب فرويد غضب شديد، ألغى كليًا فرضيات تلميذه العزيز حين بيّن، بالبراهين الداعمة، بأن المريض عند روايته للحلم لم يتمكن من رؤية صور أعضاء اللجنة، وذاك لأنه لم تكن هناك سوى صورتين أو ثلاث على الحائط، من فوق «الدرس العيادي للبروفسور شاركو في سالبيتريير». وفوق هذا، زيادة في التأكيد، طلب من بانكييف أن يوجه إليه شهادة مكتوبة: «ليس عندي أي موجب للتشكيك بصحة تلك الذكرى [...]. زيادة على ذلك، على حد علمي، ذكرى ذلك الحلم الطفولي لم تتعرض أبدًا للتغيير[...]. إن حلم الذئاب يبدو لي دائمًا أنه كان محور أحلامي وأنا طفل[...]، أنا رويتُ لك حلم الذئاب في بداية العلاج»[407]. بعد هذه الحادثة،

كلّف فرويد فيرينتزي بمهاجمة طروحات رانك. وتلك معركة بائسة، انتهت عند فرويد بخسارته لاثنين من أفضل تلامذته[408].

عند أجيال من المحللين النفسيين والمؤرخين والفلاسفة، بقي اسم بانكييف مجهولًا في حوليات التحليل النفسي، إنما بقيت بمفردها، طوال عقود، قصة الـ«Wolfs mann» كما كان قد رواها فرويد وأعاد تأويلها إلى ما لانهاية، بفضل نظريات أكثر تهويمًا وغرابةً بعضها من بعض، على أيدي شارحين لامعين[409].

إلى اليوم الذي انكشفت فيه أخيرًا، في كتابين متناقضين[410]، بفاصل عشرة أعوام بينهما، حياة سيرغي بانكييف الحقيقية، من المستحيل أن نلتقطه بصورة واضحة ما دام يجعل نفسه دائمًا باسم «رجل الذئاب». وعلى مَرّ السنوات، كان المريض القديم قد تحوّل إلى ما يشبه الأرشيف، إلى ما يشبه شخصية روائية منبثقة من قرن آخر، دمرته حربان، ولجأ إلى فيينا ليرسم إلى ما لا نهاية شجرته ذات الذئاب، مكثرًا من الإهداءات المقدمة إلى المحللين النفسيين في العالم قاطبةً والراغبين بأن يعلّقوا في عياداتهم ذكرى عصاب أصبح في ذمة التاريخ. لقد تكفلّت به جمعية فيينا للتحليل النفسي، في الوقت نفسه كمرض وكأسطورة، ولذلك لم يتوقف بانكييف حتى وفاته، في 1979، عن رواية قصته بأشكال مختلفة لكل من يتحاور معه.

وحيث أنه اكتسب كفاءة عالية بخصوص حقيقة كآبته، فقد تعلم كيف يتنافس مع جميع الشارحين لـ«حالته»، ألم تتوافر له ميزة، كما كان يقول، أن يكون قطعة لا يمكن تشويهها في مؤلفات فرويد والـ«صديق» لـ«مفكر عبقري»؟ حينذاك أكّد من يعادون الفرويدية بأن الروسي التعيس كان ضحية مشروع إجرامي، وأن فرويد كان محتالًا يتلاعب بمرضاه كي يقنع الناس، ويجعلهم يصدقون بأن التحليل النفسي هو الذي يشفيهم[411].

قبل عامين من الحرب العالمية، التي لقي فيها لانزير حتفه، والتي استمر من بعدها بانكييف على قيد الحياة، وضع فرويد في مركز الصدارة الفكرة بأن الجريمة، بصيغة قتل الأب، هي في أصول جميع المجتمعات. غير أن النوع الوحيد من الجرائم الذي تعلق به حقًا كان الجريمة المرتبطة بالسفاح، وجعل منها محور جميع الأفعال الجرمية، وإذ استمد قوة من مثل تلك الفرضية، فقد أوحى فرويد بأن كل مجتمع، بمقدار تقدمه، يكرر ذلك الفعل، الحاضر كـ«أثر» أو كـ«إرث مقدس»، سواء أكان الأمر يخص

الجماعات أم يخص الحياة الفردية. ولم يكن من الجائز إنكار ذلك الأثر الباقي وإنما يجب إعادة تأويله على أساس أنه مرتبط بتحريم. ولهذا السبب تحديدًا كان فرويد يعارض حكم الإعدام، ليس بصفته مواطنًا بسيطًا، وإنما، كما سوف يقول، لأن هذا الحكم لا يتطابق مع تعاليم التحليل النفسي: «إذا كانت البشرية ما تزال مستمرة بإنكار كون حكم الإعدام يحمل صفة جريمة صادرة عن القانون، فما ذاك إلّا لأنها رفضت على الدوام حتى هذا الوقت أن تنظر إلى الواقع وجهًا لوجه، وأن تعترف بوجود الحياة العاطفية اللاشعورية. موقفي حيال حكم الإعدام لا تمليه علي أسباب إنسانية، وإنما الاعتراف بالضرورة السيكولوجية للتحريم الشامل: لا تقتل [...]. أعلن بقوة أنني خصمٌ لا يلين للقتل، أتمثلَ بصيغة جرم فردي أم بعقوبات تمارسها الدولة»[412].

كان فرويد يتصور نظريته كعلمٍ غايته ترجمة الملحمة النفسية للجنس البشري ولأصوله بلغة الخيالات المجنحة. وهكذا فهو مقتنع بأن كل شيء في عالمه بالذات، يتم كما في الخيالات التي بناها. في ممارسته الطبية، وفي حياته اليومية - مع لانزير، وبانكييف، وكثيرين غيرهما- كان متشبثًا بإيجاد تكويناته العلمية. بالتأكيد كانت الحرب قد وضعت نهاية لاندفاعاته القديمة نحو التفاؤل، وبتاريخ 1920، كان يرى الموت من حوله قيد العمل. لكن مذهبه، في اللحظة نفسها، كان يُستقبل في جميع الأرجاء استقبالًا ظافرًا باعتباره صحة للحياة، وكأخلاق متمدنة جديدة، ليس على أيدي القائلين بطب نفسي دينامي جديد وحسب، وإنّما أيضًا وعلى وجه الخصوص على أيدي الكتاب الذين يرون في ذلك المذهب طريقة رائعة لاستقصاء أعماق اللاشعور.

من بعد «العصر الجميل» وسنوات الموت والقتل، جاء طوال عشرة أعوام، على الأقل بالنسبة للطبقات المسيطرة في المجتمع، عصر السنوات المجنونة، المتصفة بالازدهار الاقتصادي مجددًا، والطموح لتحقيق جميع أشكال الثورة، أدبيًا، فنيًا، سياسيًا، جنسيًا، موسيقيًا، وها هو الفن السينمائي القادم من هوليوود، يسعى إلى تقديم عرض للواقع لم يسبق له مثيل. ومن خلال انطلاق الاشتراكية، والحركة النسائية، والتحليل النفسي، صار كل إنسان يريد أن يصدق بأن التفاوت بين الطبقات الاجتماعية وبين الجنسين سوف يزول في مستقبل قريب. وبدأت العائلة تتغير، كما تزايدت حالات الطلاق وتناقصت معدلات الولادة. وراحت تتفتح في أوساط

المدينة ثقافة الثنائية الجنسية والتجارب الخارجة عن الأعراف: في باريس، وفي برلين، وفي لندن، وفي نيويورك. وأما بشأن النساء، فقد تحرزن من النير العائلي، وأصبحن يطالبن بحق الاشتراك في الحياة السياسية. مختصر القول، كن يرفضن أن ينحصر دورهن، كما في الزمن الماضي، في وضعية الخطيبة المتبلدة، والأم المرهقة بالولادات الكثيرة غير المرغوب بها، والزوجة الموقوفة على واجباتها المنزلية.

في فرنسا، بلد التناقضات جميعها، أصبح التحليل النفسي يحرك الحماسة عند الكتاب بمقدار ما كان مرفوضًا، بصفته كـ«علم ألماني قذر» أو كـ«بذاءة علمية»، من جانب قسم لا يستهان به من المؤسسات الطبية، وحين رفع السورياليون راية «الثورة الفرويدية» عاليًا، رفض فرويد الاستماع إلى أصواتهم، ولم يفهم لماذا كل هذا الإعجاب الذي يخصه به أندريه بريتون وأصدقاؤه، كان ما يزال آناتول فرانس محط إعجابه، واستمر بإنكارٍ معاند لأهمية الطليعيين في مجال الأدب علمًا بأنه استمر يتراسل مع رومان رولان، الكاتب المسهب، والصديق الحميم لستيفان زفايغ، المعادي لجميع القوميات، والذي نال جائزة نوبل للأدب في 1915[413]. باختصار، بقي فرويد على تعلقه بـ«عالم الأمس»، وأبعد من ذلك حتى بالطريقة التي فكر بها بهذا العالم الذي قدّم إليه ثورة، لم يكن من دون شك ليدرك مدى ما سوف تصل إليه. وإنه تناقض فرويدي بامتياز.

بينما لفظت الحرب أنفاسها لتنبثق أنماط حياتية جديدة، انقضّت على العالم جائحة إنفلونزا قاتلة. كان الفيروس قادمًا من الصين، ووصل إلى الولايات المتحدة، ومن بعد عبور إسبانيا وحدوث طفرة في الفيروس، انتشر في جميع أرجاء أوربا خلال شهور قليلة، أحدث مجزرة أكبر حتى من مجزرة المعارك.

في يناير/ك2 1920، لم يكن فرويد يعبر عن كبير مودة حيال تطلعات الأجيال الشابة، كان قليل التحسس للميول المتوجهة نحو الحداثة، ولذلك توجه تفكيره إلى موته الشخصي، وإلى موت أقاربه، وإلى شيخوخة الأجسام والوجوه، وإلى أمراضه القديمة: اضطرابات المثانة والأمعاء، وتقيح الأنف. كان يخشى أن يموت قبل والدته، أكثر من ذلك، أن يصبح من الإلزام، في حال حدوث ذلك الموت، إخفاء الخبر عن أمه، وحين أعلمه جونز بموت والده، قام بمواساته، معتبرًا أن ذلك الرجل العجوز واتاه الحظ

حين لم يتوجب عليه تحمل آلام سرطان نخره بنار هادئة.

لكن لم تكن تلك حالة أنطون فون فروند، صديقه والمحسن إليه. كان فرويد يعتقد على خطأ بأنه حفظه من حدوث نكسة حين عالج عصابه، لكن كان لا بد أن تزول الغشاوة عن عينيه، وها هو الصديق طوني يموت في عشرين يناير/ك2 وعمره أربعون عامًا: «طوني فروند توفي بالأمس، وهكذا تخلص بهدوء من مرضه الذي لا شفاء له. إنه خسارة كبيرة لقضيتنا، وألم قاس لي شخصيًا، لكنه ألم أمكنني الاستعداد له خلال الأشهر الماضية. لقد تحمل غياب الأمل بنظرة بطولية ثاقبة ولم يسبب خجلًا للتحليل النفسي»[414].

بعد خمسة أيام من ذلك التاريخ، ها هي صوفي هالبيرشتات، التي أصابها الضعف بتأثير حمل غير مرغوب به، تتهاوى بفعل التهاب رئوي بسبب الكريب. ونظرًا لإغلاق السكك الحديدية، لم يتمكن أحد من أبناء فيينا من الذهاب إلى هامبورغ لحضور الدفن: «إن وحشية عصرنا غير المستترة تثقل بوطأتها علينا، سوف يجري ترميدها غدًا، طفلتنا المسكينة محبوبة الآلهة [...]. تركت صوفي طفلين بعمر ستة أعوام وثلاثة عشر شهرًا وزوجًا لا يجد طريقًا ليواسي نفسه، وهو سوف يدفع الآن غاليًا ثمن تلك السعادة التي دامت سبعة أعوام لا غير. وتلك السعادة لم يكن لها من وجود إلّا بينهما، وليس في الخارج. حرب، احتلال، جرح، تبخر ثروتهما؛ غير أنهما بقيا على شجاعتهما ومرحهما»[415]. وأيضًا: «ما هي غايتي إذن من الكتابة؟ أعتقد ببساطة أننا لسنا سويًا، وأننا في هذا الزمن البائس من الاحتجاج، لا يستطيع أحدنا أن يذهب لزيارة الآخر [...]». إنها ضربة من قدرٍ عبثي وعنيف اختطفت منا صوفي. فهذا شيء في مواجهته لا نستطيع توجيه اتهام ولا الغمغمة، بل علينا أن نحني رأسنا تحت الضربة، يا له من مخلوق بشري مسكين دون عون وتتلاعب به القوى العليا»[416].

ومثلما كان الموت يمسه، كان الانتحار، الذي ارتفعت نسبته جدًا في فيينا في أوساط المثقفين والمحللين النفسيين، يجّمد الدم في عروقه. فهو متعلق بتصور بطولي للموت، ومطبوع حتى أعماق نفسه بالثقافة الإغريقية - اللاتينية والرومانتيكية السوداء، ولذلك كان يرفض وضع ذلك الفعل في مجال الطب النفسي، لأنه يعتبر ذلك الفعل مُصيبًا، وأنه حقٌ للإنسان. لكنه لم يكن ينشغل به إلا ليجعله في علاقة، حينًا مع تصوره لاختلاف الجنسين، وحينًا آخر ليبرهن بأن رغبة قتل النفس مستمدة من

إقلاب لرغبة القتل. وكان يرى بأن النساء لا ينتحرن بالطريقة التي ينتحر بها الرجال. فالرجال، كما كان يقول، يفضلون الأسلحة، أي ما هو بديل للعضو الذكري، أما النساء فخيارهن بالأحرى متجه نحو الغرق، أو القفز من النافذة، أو تناول السم: ثلاث وسائل، في رأيه، لحمل الوليد، أو لإنجاب، أو الرغبة بالحمل[417].

وهذا يعني أن فرويد، لأنه كان مسكونًا بهاجس الموت الأصلي، في الحرب، أو عن طريق الموت الجميل، ومن خلال فكرة فناء الحياة بيولوجيًا، لم يكن يفهم الكثير عن جوهر الموت الإرادي: ذلك الجرم بحق النفس، إنما بوجوه متعددة، والماثل في قلب جميع المجتمعات البشرية، والتحدي الذي لا يتغير لجميع أشكال السلطة، وكان يشعر بسرور عندما يخبرونه عن انتحاره الشخصي ويستشهد مازحًا ببرقية مارك توين[418]، بالتأكيد، لم يكن رأيه أن الأمر يتعلق بفعلٍ مجنون، وكان يقول بوجود علاقة بين الانتحار والكآبة، بل ويتحدث أحيانًا عن «الخلاص» بنتيجة تفاقم ألم نفسي، غير أنه لم يكن يستوعب كم يمكن للموت الإرادي أن يكون تعبيرًا عن أسمى أشكال الحرية. مختصر القول، كان ميالًا إلى إدخال الانتحار في ميدان «السيكولوجيا».

ولهذا السبب تحديدًا كان في غاية الشراسة حيال فيكتور توسك، أحد أبرز تلامذته من الجيل الأول، وكان قد نشأ في كرواتيا عند أبٍ طاغية وأم مضطهدة. ومثل لو أندرياس - سالومي، عشيقته، التي تطلق عليه ألقاب «حيوان، أخي، يا أنت»، كان قد أحس في أعماقه بوجود قوة بدائية. وحيث أنه مسكون بكراهية الأب، فقد تبنى توسك حيال فرويد موقفًا متناقضًا، قائمًا على التمرد، وعلى العبادة، وعلى الخضوع. عند احتدام المعارك، وجد نفسه من جديد على الجبهة الصربية قبل أن يعود إلى فيينا، محطمًا بسبب سقوط الإمبراطورية، ولم يجد فرويد ما هو أفضل من إغراقه في ذلك التثليث التحويلي الذي كان ممسكًا بسره. لقد أرسله إلى التحليل على يد هيلين دويتش، والتي كانت آنذاك هي نفسها تحت التحليل على ديوانه الخاص، وكان رأيه أنه سوف يتمكن من التحكم، عن طريقها، بسير العلاج، والحال، في يوليه/تموز 1919، وضع توسك نهاية لحياته شانقًا نفسه بحبل الستارة، وبإطلاق رصاصة مسدس في صدغه.

كتب فرويد حول توسك كلمة تأبينيه تقريظية، لكنه، في رسالة خاصة وجّهها إلى لو أندرياس - سالومي، كتب هذه الكلمات: «توسك المسكين،

الذي رفعته صداقتك لفترة بسيطة من الزمن، انتحر بطريقة جذرية جدًا. كان قد رجع محطمًا، ملغومًا بفظائع الحرب، ورأى أن عليه أن يحاول الوقوف على قدميه في ڤيينا في أكثر الظروف تنغيصًا لحياة مدمرة نتيجة دخول القوات العسكرية؛ كان قد حاول إدخال امرأة جديدة في حياته، وكان المخطط له أن يتزوج بعد ثمانية أيام - لكنه غير قراره. إن رسائله الوداعية إلى خطيبته، وإلى زوجته الأولى، وإلي شخصيًا، هي جميعًا رسائل رقيقة، وتدل على بصيرته التي لا غبار عليها. فهو لا يتهم أحدًا إلّا النقص الكامن فيه وحياته الفاشلة، ولهذا السبب لم يقدم أي توضيح لفعلته الكبرى»، وها هو يضيف: «اعترف بأنني حقًا وصدقًا لا أفتقده. ومنذ فترة طويلة أصبحت أعتبره غير ذي فائدة بل وأنه تهديد في المستقبل[419]».

فور رجوع السلام، نشبت بين أعضاء «اللجنة» معارك داخلية ضارية. فجمعية التحليل النفسي في لندن وبرلين اكتسبتا أهمية أكبر من الـWPV والـNew Yorq Psuchoanalytic Society (NYS) توسعت توسعًا كبيرًا. وبدأ فيرينتزي ورانك يهتمان أكثر فأكثر، كما يونغ فيما مضى، بالأصل «الأنثوي» والـ«الأمومي» لحالات العصاب والذهان وليس فقط قضية قتل الأب: كان فرويد قد استمر يؤكد أن الأم هي الموضوع الأول للحب عند الكائن البشري، لكنه، بتحويل تراجيديا أوديب إلى الميدان النفسي، كان قد حوّل تلك التراجيديا إلى «عقدة» لا يمكنها تفسير جميع جوانب النفس، ولذلك فإن المحللين النفسيين من الجيل الجديد كانوا يسعون للانفصال عن الصورة المهيمنة للأب الذي رُفع كطوطم، وهكذا كانوا يتخلون عن الجريمة الأصلية كي يطرحوا الأسئلة حول التعلق الباكر بالأم، وضمن هذا السياق، شرع فيرينتزي، من خلال تطبيق «التقنية الفعالة»، بإجراء تغيير جذري لتطبيق العلاج. وفي مؤتمر بودابست، كان قد بدأ بمعارضة فرويد حول مسألة «الطرق الجديدة»، والآن، مضى بالشوط إلى ما هو أبعد من ذلك[420].

إن المحلل الحديث يجب عليه، ألّا يتوقف عند تأويلات تهدف إلى إخراج القصص والمشاهد البدئية من اللاشعور بل يتطلب الأمر، في رأيه التدخل في الجلسة بأوامر وبنواهي، فكما وحش طيبة القابض على الأسرار والأحاجي، وضع صورة معارضة تمثل المعالج البشوش، المتعاطف، الأنثوي، الشهواني والأمومي، والمنشغل بتخفيف ألم المريض، على ضوء

مثل تلك الثورة، كان فرويد يظهر كما لو أنه عاهل ملكي موضع التوقير ويسيطر على مملكة عفا عليها الزمن. أما جونز ، الداعم لأبراهام، فكان يسعى من جانبه إلى توظيف ذلك الاختصاص، وراح يقاتل رانك وفيرينتزي كي يميل بإدارة الحركة ويجعلها ضمن العالم الناطق باللغة الإنجليزية. وبدا وكأن انتصار الحلفاء قد جعله على صواب، لقد وقف في وجه أبراهام، ورغم الصعوبات المالية للمهزومين، فرض اختيار لاهاي لانعقاد المؤتمر السادس لـ IBV. ومنذ ذلك الحين، سوف يكون رئيسًا لها حتى 1925. وكان فرويد في صفه وقدم له دعمه[421].

في سبتمبر/1920 أمام اثنين وستين من المشاركين، وكان بينهم نساء عديدات، ألقى أبراهام كلمة الافتتاح باللاتينية وذلك كي لا يصدم حساسيات المنتصرين في الحرب، علمًا بأن اللغة الألمانية سيطرت أثناء المجادلات. وبرلين، بفضل إنشاء معهدها المتألق سوف تظل، لعشرة سنين إضافية، المركز العصبي لانتشار التحليل النفسي نحو العالم الغربي والشرقي. وألقى فرويد لمرةٍ جديدة محاضرة حول الحلم، فكانت مناسبة لديه كي يستمر في تعديل تأويل الحلم الغالي عنده، بينما تحدث فيرينتزي شارحًا التقنية الفعالة، وتناول بينسوانجر بالبحث عيادة الطب النفسي، في حين تكلمت جيزا روحي، بالإنجليزية عن الطوطمية في أستراليا، وكان النيرلانديون يختلطون بكل طيب خاطر مع الإنجليز والبولونيين لتبادل الانطباعات حول السفر، والأفكار، أثناء مشاوير طويلة بالسيارة، أو في المركب، أو على الأحصنة. في ختام تلك الأيام من البهجة واللقيات، أتاحت وليمة كبيرة، نظمها المنتصرون، للمنهزمين في الإمبراطوريات الوسطى القديمة، أن يتوقفوا عن النظر إلى أنفسهم وكأنهم منبوذون من أوربا الجديدة.

منذ ذلك التاريخ وصاعدًا في العالم قاطبةً، شاهد فرويد على هذه الصورة الانتصار العالمي لحركته. لكنه كان يشعر بالضجر، ويتحسر خاصةً على الزمن الذي كانوا ينظرون إليه أثناءها كمكتشف منعزل، وذاك، فعليًا، لأنه لم يكن يقبل الطريقة التي راح العديد من أتباعه والمعجبين به يأوّلون مذهبه بحيث يتناغم مع إيقاع السنوات المجنونة، وبدأ يشر بأن ثغرةً لا علاج لها حُفرت بينه وبين الآخرين: «في نشرتك الأخيرة، سوف يكتب إلى فيرينتزي، أعجبت بالمقطع الذي تقول فيه إن الأمور سيئة لنا جميعًا، لكنها جيدة جدًا لقضيتنا، وهكذا حقًا هو الحال: فقضيتنا تلتهمنا ونحن، بشكلٍ

ما، تذوّبنا فيها. وربما أن الأمر هكذا جيد؛ لكن تمنيتُ لو أن الجيل الثاني في التحليل النفسي، الجيل الأكثر شبابًا، يستطيع أن يستمر لفترةٍ ما بمقاومة التذويب»[422].

في لاهاي، شعر فرويد مع ذلك بسعادة حقيقة وهو يرى طبيبًا غير عادي قادمًا من ضفة بادن لنهر الراين، ترافقه عشيقته: إنه جورغ غروديك. وسط هذا المجلس من العلماء المنعقد لإقامة الحداد على سنوات الحرب ولإعادة الشكل الطبيعي لتأهيل الأطباء، أكّد ذلك الطبيب فعليًا، بنبرة فيها من الحماس ما يكفي وبصوت هادر، أنه «محلل بدائي» وأنه يقول بشفاء الأمراض العضوية بعلاج نفساني مناسب، في عام 1900، كان قد أسس مستوصفًا في باد، ليطبق فيه نظرياته: تطبيب «المريض» بعلاج يقوم على الحمامات، والتدليك، والريجيم الغذائي، والأحاديث مابين المرضى والمعالجين. كان فيرينتزي يعشقه كما أن فرويد سبق أن عبر له عن حماسته: «أنت محلل نخب أول، فالطبيب الذي يقبل بأن الممانعة والتحويل هما لولب العلاج، مثل هذا الطبيب، من دون أي جدال، هو من جماعتنا، وأنا بالتالي جاهز لاستقبالك بالأحضان». ثم أضاف: «لماذا ترمي نفسك في التصوف، لماذا تطلب المساندة من نظريات فلسفية؟ فتجربتك لا يمضي مداها كثيرًا إلى ما هو أبعد من الإقرار بأن العامل النفسي له تأثير لا شك فيه على أصل المرض الجسدي»[423].

على عكس عدد لا بأس به من أتباع فرويد ومرضاه، لم يتعرض غروديك لمعاناة من استبداد أبوي، وإنما من برودة أمّ كانت، في نظره، قد اساءت لصورة الأب المعبود. كانت قد نشأت وفق نظام الأب المتسلّط، ولذلك لم تتمكن من أن تنقل إلى أبنائها المودة الضرورية لتطورهم. كانوا مصابين بأمراض عضوية مختلفة، وهكذا توفي أربعة منهم بموت مبكر، وجورغ كان الوحيد الباقي على قيد الحياة، وأبوه، كارل تيودور، الطبيب المشهور، كان يدير مؤسسة للحمامات وهو معروف بالتزاماته المبالغ في طابعها المحافظ. كان قد نشر، بعد ربيع الشعوب، كتابًا جعل فيه من الديمقراطية مساويًا لجائحة، لوباء قادر على أن «يصيب بالعدوى» أوربا وعلى أن يخفي لدى الأفراد كل شكل من أشكال الوجدان الذاتي، هذه المقولة، التي نجدها عند علماء الاجتماع الدارسين للجماهير، لا سيما عند غوستاف لوبون، جعل من كارل تيودور غروديك نصيرًا للمستشار بسمارك[424].

بدفع من والده، دخل جورغ إلى الميدان الطبي وأصبح مساعد إرنست شويننجر، وهو طبيب هامشي اكتسب الشهرة بمداواة مختلف «أمراض» المستشار بسمارك - إدمان التدخين، إدمان المخدرات، البدانة - وقد ألزمه بنظام مرعب، هو الآخر كان من غلاة المحافظين، وهكذا فقد نقل إلى الطب مبادئ السلطة البروسية المستبدة، وذلك بإنشائه مع مرضاه علاقة إيحاء وخضوع مطلق هما أساس علاجه، مثلما أنهما يمثلان طبيعية الشفاء. شعاره - Natura sanat medicus curat[425] - عاد إليه غروديك بتاريخ 1913 أثناء نشر أول كتاب له[426].

كما كان معلمه ووالده، ها هو غروديك يطالب بفكرة «نقاء العرق»، ويقترح بأن كل مواطن ألماني متزوج من أجنبية يجب حرمانه من حقوقه المدنية. بتاريخ 1929، في كتابه «Lebenserinnerungen[427]»، سوف يعلن عن ندمه على موقفه السابق ويصححه من دون أن يتخلى عن يوتيوبيا الصحة التي يستند إليها، والتي في جميع الأحوال كانت مشتركة بين أطباء عديدين من الألمان المتعلقين بفكرة «تحسين الجنس البشري[428]». في ذلك الكتاب نفسه، هاجم بقوة التحليل النفسي محذرًا القارىء من أخطار تقنية غالبًا ما لا يمكن التحكم بها، ويستعملها أطباء لا كفاءة لديهم.

لكن غروديك قام سريعًا جدًا بانقلاب كامل. وكان فرويد مأخوذًا بهذا الطبيب الذي يذكره بفليس وبالهذيانات اللذيذة في ماضي الأيام، وعند الاتصال به، أصبح بإمكانه من جديد تحدي طب زمانه، وأن يحلم بسيطرة على ميدان الجسد، وأن يتخيل قيام صداقة مع أنثوي نسخة عن يونغ، وأن يتحدى براغماتية جونز المضجرة، وأن يسترسل باستمتاع مع تأملات حول الطبيعة ثنائية الجنس عند بني البشر، بكلمة واحدة، وجد عند غروديك حماسة سنوات الشباب عنده، فهو لا يبالي إن كانت بعض مقولاته تسير على نقيض العلوم الطبية، ما دامت تأخذ بعين الاعتبار الألم الذاتي، الذي لا يقيم له العلم وزنًا.

في مستوصف بادن - بادن، كان غروديك يستقبل مرضى مصابين بجميع أنواع الأمراض العضوية التي كان الطب آنذاك يقف عاجزًا أمامها، وكي يجعل المرضى يشاركون في معالجة أنفسهم، جاءته فكرة اعتبارًا من 1916، بإعطاء محاضرات لهم، ثم إنشاء مجلة، Satanarium، بحيث يمكنهم التعبير عن أنفسهم فيها تمامًا مثل الطبيب المعالج. كان غروديك

يداوي أمراض السرطان، والقرحات، والروماتيزم، والسكّري، زاعمًا بأنه يجد في مؤشر المرض التعبير عن رغبة عضوية. وهكذا كان يرى في التهاب الدرقية الرغبة بطفل، وفي السكّري رغبة العضوية بأن تتحلّى بالسكر، ضمن هذا المنظور ذاته، كان يعطي صفة جنسية لأعضاء الجسم، إذ يصنف العصب البصري من جهة الذكورية، والتجاويف القلبية من جهة الأنوثة[429].

هذه الرغبة العضوية ناتجة عما يسميه الهو (Es). وهذا الضمير المحايد مأخوذ من نيتشه، وبه يشير غروديك إلى عنصر قديم، سابق للّغة، هو نوع من طبيعة بدائية ومقاومة تُغرق الضرورات الذاتية: هو شيء مشابه لـ«مغاور» عند يونغ، والشفاء يقوم على جعل الهو ينبثق عند المريض، لأن الهو نبع الحقيقة.

بعد عام من لقائه مع فرويد، أصدر «رواية تحليل نفسي» بعنوان «الباحث عن النفس[430]»، وفيها يروي ملحمة رجل تحول من خلال تجلي لا شعوره، وراح يطارد عبر العالم البق و«صور النفس»، لقد أعجب فرويد بالأسلوب البيكاردي عند الكاتب لأنه يذكّره برابليه و«دون كيشوت» سيرفانتس. وفي 1923، نشر غروديك كتابه المشهور « كتاب الهو»[431]، وفيه يعرض علاقته بالمراسلات مع فرويد من خلال مجموعة من رسائل خيالية يوجهها عن طريق الراوي، باتريك ترول، إلى صديقته. كان بذلك يريد تعميم مفاهيم التحليل النفسي ومذهبه الخاص في الأوساط الشعبية. وقد انقضّ فرويد على الهو مبدِّلًا تعريفه تبديلًا جذريًا، وحينذاك تحديدًا بدأت تزول عنه أوهامه وأصبح حانقًا على ذلك الطبيب صاحب التهاويم الذي كان قد أحبه كثيرًا وهو قد اتهمه بزرع الشقاق في مجموع أتباعه: «من المضني أن تسعى لرفع جدار بينك وبين أسود الحظيرة. إن مزاولة التحليل النفسي ليست مشروعًا منعزلًا وإنما هي خطوة جماعية. قد يكون من المسلّي أكثر أن نزأر في كورس، وبمقدار مضبوط وموزون، بدلًا من إصدار أصوات الخنزير كلٌّ منا في زاويته»[432]. لقد رفض فرويد التوجه إلى بادن - بادن، بينما ذهب فيرينتزي إليها كي يتداوى، أمّا جونز وأبراهام فارتفعت أصواتهما تنادي بأنها فضيحة، في النهاية، أكد فرويد بأن غروديك كانت لديه أفكار جيدة لكنها غير قابلة لاستخدامها في البحث العلمي.

وإنما يعود الفضل إلى توماس مان بإعطاءأجمل صورة عن غروديك، وذاك أنه في «الجبل السحري»، وتحت اسم الدكتور إيدهين كروكوفسكي،

الطبيب الأول في برغوف، يقدم لنا غروديك بصفة منوّم مغناطيسي على الطريقة القديمة، مسكون بهاجس الجنسانية، لكنه لم يدخلْ بعدُ إلى أنوار العقل: «ها هو يمر، وهو الذي يعرف جميع أسرار سيداتنا. الرجاء الانتباه إلى رمزية ملابسه، فهو يرتدي الأسود كي يشير إلى أن ميدانه الفريد لدراساته هو الليل». ويعتبر كروكفسكي عن تشاؤم جذري حيال الصحة البشرية بحيث لا يرى في الإنسان سوى شخص مسكون بالمرض. وهو بتطوره بين المادية والغيبية، يسترسل مع تجاربه في التخاطر الذي يجعله يغرق في العالم الفاوستي لما قبل شعورٍ مشوّش[433]. ذلك كان المداوي الرائع الذي كان فرويد قد شغف به من دون أن ينتسب فعلًا إلى تهويماته الخيالية.

بينما كارل كروس وأوتو وينِنجر يدمجان اليهودية بجوهر أنثوي مسؤول عن انحطاط الحضارة الأبوية، كان غروديك يبشر على العكس بضرورة أن نجد في كل كائن بشري ثنائية جنسية أصلية مكبوتة في الديانة اليهودية من خلال تطبيق الختان، وفي نظره، فإن هذه الممارسة أفسحت المجال للتأكيد على أحادية جنسية عند الرجل وعلى نبذ جوهره الأنثوي في مواجهة إله ثنائي الجنسية وكلي القدرة، عن طريق تلك الكراهية لديانة والده، وباسم بحث ميسياني عن الأنوثة، التي هي الوحيدة القادرة على إنقاذ البشر، رفض غروديك اليهودية لأسباب متعارضة مع أسباب وينِنجر[434]. علمًا أنهما يتقاسمان الإشكالية نفسها: فمن جانب كان اليهودي ممثَّلًا بامرأة حين كان الشر كله في الحضارة ناجمًا عن الأنوثة، ومن الجانب الآخر فهو يجسد الشر بكبته لحسنات الأنوثة[435].

بتاريخ 1920 كان فرويد يفكر بقيمة اكتشافاته أكثر بكثير من تفكيره بصداقاته. كان قد عقد العزم على أن يخص مؤلفاته بكل الزمن المتبقي له على قيد الحياة، ولذلك قبل بأن تنتقل نشاطات حركة التحليل النفسي نحو العالم الناطق بالإنجليزية. ولهذا السبب سلّمَ الأمر أكثر فأكثر إلى جونز كي يدير الأعمال، أمّا بالنسبة له، فهو منذ ذلك الحين وصاعدًا في طريقه إلى تناول ثلاثة أنواع من البحث: دراسة تأملية حول الحياة والموت، وهي تواكب إعادة تكوين انطلاقته الأولى؛ وتحليل الآليات الجماعية لسلطة الاجتماعية؛ وتأويل ظاهرة التخاطر: وهي طريقة بالنسبة إليه كي يعود من جديد إلى ذلك العالم اللاعقلاني الذي لم يكفّ عن أن يشغل هواجسه بمقدار ما كان يقدم نفسه كمفكر من عصر التنوير، ومن

القائلين بأولوية العقل.

---

346 سيغموند فرويد وكارل أبراهام، «المراسلات» المصدر السابق، ص 234.

347 ماتيلد، بكر بنات فرويد، متزوجة من روبير هوليتشر، وصوفي التي كانت قد تزوجت ماكس هالبرشتات، كانتا تقيمان كلاهما في هامبورغ.

348 لوأندرياس - سالومي، «مراسلات مع سيغموند فرويد»، ومعه ملحق «يوميات سنة، 1912 - 1913» (1966)، باريس، غاليمار، 1970، ص 29. رسالة تاريخها 25 نوفمبر / ت 2 1914.

349 سيغموند فرويد وساندور فيرينتزي، «المراسلات»، الجزء الأول: 1908 - 1914، المصدر السابق، رسالة فرويد بتاريخ 23 أغسطس / آب 1914.

350 بيتر غاي خصص صفحات جميلة لتلك الآونة الفرويدية أثناء الحرب. انظر «فرويد» المصدر السابق، ص 395 - 411. انظر أيضًا فيليس غروسكورث، «فرويد، الخاتم السري»، المصدر السابق، ص 56 - 86.

351 سيغموند فرويد، «تقديرات راهنة حول الحرب والموت» (1915)، في OCF. P، الجزء الثالث عشر، المصدر السابق، ص 125 - 157، تحت عنوان «أمور راهنة حول الحرب والموت». لقد اخترت الترجمة الرائعة لمارك كريبون ومارك ب. دولوناي، في سيغموند فرويد، «أنثروبولوجيا الحرب»، باريس، فايار، 2010، طبعة ثنائية اللغة، ص 267. مع تعليق آلان باديو.

352 هوميروس، «الأوديسة»، ترجمة فكتور بيرار، باريس، لي بيل لتر، 1925، الجزء الثاني، ص178 - 179.

353 سيغموند فرويد، «تقديرات راهنة حول الحرب والموت»، المصدر السابق، ص 313.

354 سيغموند فرويد وساندور فيرينتزي، «المراسلات»، الجزء الأول: 1908 - 1914، المصدر السابق، ص 583.

355 أندريه بولزنجر، «لوحة عن سيغموند فرويد»، المصدر السابق، ص 80.

356 سيغموند فرويد وساندور فيرينتزي، «المراسلات»، الجزء الثاني: 1914 - 1919، المصدر السابق، رسالة تاريخها 6 نوفمبر/ ت 2 1917.

357 واعتبارًا من 1920: الأنا، والهو، والأنا العليا.

358 جُمعت هذه الدراسات في الجزء الثاني عشر من OCF. P، المصدر السابق. انظر أيضًا «الميتاسيكولوجيا»، باريس، غاليمار، 1986. ساندور فيرينتزي، «ميتاسيكولوجيا فرويد»، في «التحليل النفسي»، الجزء الرابع، المصدر السابق، ص 253 - 265. وتعتبر نصوص الميتاسيكولوجيا عند فرويد أكثر ما كُتبت عنه تعليقات من جمعية التحليل النفسي العالمية، لكن كانت الكتابات قليلة عنها من طرف الباحثين. انظر «قاموس التحليل النفسي»، المصدر السابق.

359 في 30 ديسمبر / ك1 1914، كان فيكتور توسك قد عرض مداخلة حول هذا الموضوع في الـWPV، ومن بعد ذلك قام فرويد بكتابة مخطط أولي لنصه في 1915.

360 سيغموند فرويد وكارل أبراهام، «مراسلات كاملة »، المصدر السابق، ص 376 - 383.

361 فرويد، «نظرة إجمالية على عصابات التحويل» (1985)، باريس، غاليمار، 1986. وعُثر على النص في عام 1983 ضمن أرشيف فيرينتزي وجرى التعليق عليه بقلم إيلس غروبريخ ـ سيميتيس.

362 ساندور فيرينتزي، «تطور حسّ الواقع ومراحله» (1913)، في «التحليل النفسي»، الجزء الثاني، المصدر السابق، ص 51 - 65.

363 نظرية المراجعة تؤكد بأن التطور الفردي لعضوية ما تعيد إنتاج مراحل تطور الأسلاف.

364 انظر لوسيل ب. ريتفو، «تأثير داروين على فرويد» (1990)، باريس، غاليمار، 1992. في ذلك الكتاب، نجد أفضل تحليل للنظرية الفرويدية حول المراجعة المستعارة من داروين ومن جان باتيست لامارك على حد سواء. وهي تُناقض، بحق، مقولة فرانك ج. سولوواي التي تقول بأن فرويد هو كاشف خفايا البيولوجيا. بل هو بالأحرى عالم بيولوجيا في مجال النفس، ووريث الرومانتيكية، ومتابع لسيرة فلاسفة الذات.

365 سيغموند فرويد، «رؤية إجمالية لعصابات التحويل»، المصدر السابق، ص 132. سيغموند فرويد وساندور فيرينتزي، «المراسلات» الجزء الثاني: 1914 - 1919، المصدر السابق، رسالة إلى فيرينتزي تاريخها 26 كتوبر / ت 1 1915، ص97.

366 جان - باتيست لامارك، « فلسفة عالم الحيوان» (1809)، باريس، مطبوعات كلتير وسيفيليزاسيون، 1969.

367 على نقيض فكرة رائجة، من المعلوم أن التصورين حول تطور البشرية غير متعارضين فكما لامارك، كان داروين يأخذ بعين الاعتبار فكرة وراثة الطبائع المكتسبة، وهذه المقولة، التي يدافع عنها فرويد وفيرينتزي في مواجهة جونز، جرى تكذيبها على يد أوغست ويزمان.

368 سيغموند فرويد وكارل أبراهام، «المراسلات»، المصدر السابق، رسالة تاريخها 11 نوفمبر / ت2 1917، ص 449.

369 سيغموند فرويد، «محاضرات كمدخل إلى التحليل النفسي» (1916 - 1917)، باريس، غاليمار، 1999، وOCF. P، الجزء الرابع عشر، المصدر السابق، تحت عنوان «دروس المدخل إلى التحليل النفسي».

370 انظر HPF - JL، المصدر السابق.

371 سيغموند فرويد وكارل أبراهام، «المراسلات»، المصدر السابق، ص. 452 - 453.

372 فيليس غروسكورث، «ميلاني كلين، عالمها ومؤلفاتها» (1986)، باريس، PUF، 1990، ص 101. سيغموند فرويد، «الطرق العلاجية الجديدة على أساس التحليل النفسي» (1918)، في «تقنية التحليل النفسي»، باريس، PUF، 1975، ص 131 - 141، وOCF. P، الجزء الخامس عشر، المصدر السابق، ص 97 - 109، تحت عنوان: «طرق العلاج بالتحليل النفسي».

373 المصدر السابق، ص. 141.كما نعلم، سوف يبدأ هذا البرنامج بالتحقق مع إنشاء أول معهد للتحليل النفسي في برلين، والذي سوف يتكرر نمطه في العالم قاطبة.

374 سيغموند فرويد، وساندور فيرينتزي، وكارل أبراهام، «حول عصابات الحرب»، باريس، بايو، 2010، مع مقدمة جميلة بقلم غيوم بيكيتي. - إرنست سيميل (1882 - 1947): طبيب نفسي ومحلل نفسي ألماني، هو من أسس في Schloss - Tejil 1925. على غرار العيادات الكبرى بيل فيو وبرغولزلي. لقد أوقفه الجستابو في 1933، لكنه تمكن من الهجرة إلى الولايات المتحدة بفضل روث ماك - برونزفيك التي دفعت فدية للنازيين. وقد جعل إقامته في لوس أنجلوس وحمل طيلة حياته الحنين إلى العالم الأوربي القديم. بخصوص مسيرة ف. توسك، انظر ما سوف يأتي.

375 تأسست في يناير/ ك2 1919.

376 ستيفان زفايغ، «عالم الأمس»، المصدر السابق.

377 سيغموند فرويد، «هل يجب تعليم التحليل النفسي في الجامعة»؟ (1920)، في OCF. P الجزء الخامس عشر، ص109 - 115.

378 وليم جونستن، «عقلية فيينا»، المصدر السابق، ص 398.

379 سيغموند فرويد وإرنست جونز، «مراسلات الكاملة»، 1908 - 1939، المصدر السابق، رسالة تاريخها 18 أبريل /نيسان 1919، ص 409.

380 فيليس غروسكروث، «فرويد، الخاتم السري»، المصدر السابق، ص 101 و«Rundbriefe» في 1 و11 ديسمبر / ك1 1921، و11 يناير/ك2 1922. كان جونز قد رفض قبول عدد من المحللين النيرلانديين، في الـ IPV، لأنهم سجنوا بسبب المثلية الجنسية. وجعل الحجة من حالته كي يدافع عن ذلك الموقف.

381 نُشرت مؤلفات كثيرة حول هذه المسألة، وأنا قد أشرتُ إلى ذلك مرات عديدة. انظر «التحليل النفسي والمثلية الجنسية» تأملات حول الرغبة الشاذة والإهانة، والوظيفة الأبوية»، حديث مع فرنسوا بوميه، «Cliniques mediterraneennes»، 65، ربيع 2002.

382 العريضة التي أطلقها ماغنوس هيرشفلت نالت على مرّ السنين، ستة آلاف توقيع من بينها توقيع ألبيرت أينشتاين وستيفان زفايغ، والمادة المرفوضة كانت تنص: «الجماع على عكس الطبيعة، كما يمارسه أشخاص من الجنس المذكر فيما بينهم أو بين البشر والحيوانات، يعاقب بالسجن».

383 حول تعقّب هذه الآثار في فرنسا، وحول دور جوزيف بابينسكي، تلميذ شاركو، انظر HPF - JL، المصدر السابق.

384 بتاريخ 1927، سوف يُمنح جائزة نوبل لأنه أوضح علاج الملاريا. ولأنه معجب بالقومية الألمانية، شعر، في نهاية حياته، بميول نحو النازية. انظر كلير شامبان، «- Austrians Stunned by Nobel Prize Winners Nazi Ideology»، سكوتلاند أون ساندي، 25 يناير/ك2 2004.

385 كانت تلك العلاجات تسمى «الصدم الكهربائي» أو «الكهربة - التفريد -».

386 ملف تلك القضية الذي يحتوي على وثائق، وشهادات، والتحقيق، نبشه واكتشفه كورت إيسلر، ونُشر بالألمانية في 1979 ثم تُرجم إلى

الفرنسية تحت عنوان «فرويد على جبهة أمراض العُصاب في الحرب»، باريس، PUF، 1992، مع مقدمة رائعة للنسخة الفرنسية بقلم إيريك بورج. نجد هنا على وجه الخصوص «رأي الخبرة حول المعالجة الكهربائية لعصابيي الحرب»، وأقوال الشهود وشهادة فرويد (OCF.P، الجزء الخامس عشر. المصدر السابق، ص. 217 - 225)، وكذلك مستندات عديدة. انظر أيضًا قصة هنري ف. إلينبرجر حول هذا الموضوع «تاريخ اكتشاف اللاشعور»، المصدر السابق، ص. 860 - 862. وحيث أنه لم يصل إلى جميع الملفات، قدم رواية مختلفة عن رواية إيسلر التي يعود الفضل لها بتصحيح أخطاء جونز . الوثائق التي استخدمها إيسلر موجودة في مكتبة الكونغرس.

387 المصدر السابق، ص29.

388 شهادة قدمها كورت إيسلر المصدر ذاته، ص 143.

389 المصدر السابق، ص.169.

390 وهي عائلة صناعية غنية كانت قد تبنت روزا.

391 الاسم الحقيقي لإرنست لانزير كشف لأول مرة على يد باتريك ماهوني في 1986، في كتاب قيّم: «فرويد ورجل الجرذان»، باريس، PUF، 1991. بالإضافة إلى تحقيق تاريخي مكثف، شبه ماهوني رواية فرويد للحالة المدعوة «رجل الجرذان» بالكتابات الأولية بقلم فرويد نفسه والتي لم تُدمج عند الحديث عن تلك الحالات. سوف تضاف لاحقًا في «رجل الجرذان. يوميات تحليل» (كتابات فرويد نسختها إلسا ريبيرو هاويلكا)، باريس، PUF، 1974، انظر سيغموند فرويد، «ملاحظات حول حالة عصاب هجاسي: رجل الجرذان» (1909)، في «خمسة تحاليل نفسية»، باريس، PUF، 1954، ص. 199 - 261، OCF. P، الجزء التاسع، المصدر السابق، ص131 - 215، تحت عنوان «ملاحظات حول حالة عصاب قسرية».

392 ليونارد شنغولد هو أول من بيّن، في 1965، بأن تلك الحكاية مأخوذة من الكتاب الشهير لأوكتاف ميربو، «حديقة التعذيب» (1899)، باريس، غاليمار، 1988.

393 بهذا الصدد، أنا لا أشاطر مايكل بورخ - جاكوبسن رأيه: «مرضى فرويد»، المصدر السابق، ص111، والفجوات الموجودة بين المذكرات وسرد الحالة، والتي تم جلاؤها على يد باتريك ماهوني، تبين على

العكس بأن فرويد وجد أمامه مريضًا نموذجيًا شعر حياله بتعاطف حقيقي.

394 ونشرت بصيغة «اقتباس».

395 باتريك ماهوني في رأيه، على العكس، أننا هنا أمام مأساة أوديبية أخذ فيها لانزير دور «الوحش الرابض على باب فيينا». وأعطى عن الحالة تفسيرًا على طريقة كلين: فلانزير قد توحد مع أمه لاجتياف قضيب والده. وقد كُتبت تعليقات بالعشرات حول هذه القصة بحيث إن حالة «رجل الجرذان» قد تغلبت على قصة المريض.

396 حتى وإن كان أحيانًا يشك بذلك، كما يروي فرويد في «يوميات تحليل»، المصدر السابق، ص 77 و85.

397 سيغموند فرويد، «خمسة تحليلات نفسية»، المصدر السابق، ص 261.

398 نجد في مكتبة الكونغرس صور فوتوغرافية عديدة نرى فيها بانكييف، وشقيقته، وأمه، أمام كوم من الحيوانات. وهذه الصور لم تؤخذ بعين الاعتبار لدى مختلف المعلقين، علمًا بأن بانكييف يتكلم عنها في سرده لقصة حياته، الشخصية الحقيقية لهذا المريض الملقب «رجل الذئاب»، جرى كشفها بتاريخ 1973. إذا أردنا إعادة تشكيل قصته، يجب علينا إيجاد تقاطع بين مصادر عديدة متناقضة، موريل غاردنر، «رجل الذئاب، بشهادة محلليه النفسيين وشهادته شخصيًا» (1971)، باريس، غاليمار، 1981. كارين اوبولزر، «أحاديث مع رجل الذئاب» (1980)، باريس، غاليمار، 1981. في هذين الكتابين، اللذين أنجزا في نهاية حياته، غالبًا ما يقع بانكييف في الخطأ ويعطي روايات متعارضة مع تحليل فرويد له: إحداها، موجهة إلى المحللين النفسيين، كان قد كاشف بها موريل غاردنر، والرواية الثانية، موجهة إلى «الجمهور العريض»، وهي الرواية التي قدمها إلى كارين أوبولزر، وهي صحافية النمساوية. انظر من طرف آخر باتريك ماهوني، «عواء رجل الذئاب» (1984)، باريس، PUF، 1995. وروايتها مرجّحة جدًا وقابلة للتصديق. انظر أيضًا مايكل بورخ - جاكوبسن -، «مرضى فرويد» المصدر السابق؛ ومايكل بورخ جاكوبسن وسونو شاندزاني، «ملف فرويد، تحقيق حول تاريخ التحليل النفسي»، باريس، 2006. هذان النصان فيهما الكثير من التجني على فرويد، حتى وإن كانت

الوثائق المذكورة لا غبار عليها. يضاف إلى ذلك الأحاديث الواردة عند كورت إيسلر والمودعة في مكتبة الكونغرس، خمسة ملفات، 1954 - 1955.

399 سيغموند فرويد وساندور فيرينتزي، «المراسلات»، الجزء الأول: 1908 - 1914، المصدر السابق، رسالة تاريخها 13 فبراير/شباط 1910، ص 149 لكن بانكييف لا يشير إلى ذلك المشهد.

400 سيغموند فرويد، «اقتباس من قصة عصاب طفولي» (1918)، في «رجل الذئاب بشهادة محلليه النفسيين وبشهادته الشخصية»، المصدر السابق، ص 172 - 268، وكذلك OCF. P، الجزء الثالث عشر، المصدر السابق، ص 1 - 119، تحت عنوان «انطلاقًا من قصة عصاب طفولي»؛ «خمسة تحليلات نفسية» المصدر السابق، «اقتباس من قصة عصاب طفولي: رجل الذئاب»، ص 371 - 477.

401 ومن هنا الاختلاف بين شهادات بانكييف والمكاشفات التي تلقاها فرويد أو أعاد بناءها في سياق العلاج.

402 «رجل الذئاب بشهادة محلليه النفسيين وبشهادته شخصيًا»، المصدر السابق، ص 190.

403 كان قد استخدم ذلك التعبير في رسالة إلى فليس بتاريخ 2 مايو/آيار 1897، بخصوص أفعال الإغواء.

404 «رجل الذئاب بشهادة محلليه النفسيين وبشهادته شخصيًا»، ص 197.

405 «ملحق لاقتباس من عُصاب طفولي»، في «رجل الذئاب بشهادة محلليه النفسيين وبشهادته شخصيًا»، المصدر السابق، ص.268 - 317.

406 أوتو رانك، «صذم الولادة» (1924)، باريس، بايو، 1928؛ والمصدر السابق، «Technik Der Psyshoanalyse»، الجزء الأول، فيينا، دوتيك، 1926. فيليس غروسكورث، «فرويد، الخاتم السري»، المصدر السابق، ص 173 - 174.

407 سيغموند فرويد وساندور فيرينتزي «المراسلات»، الجزء الثالث: 1920 - 1933، المصدر السابق، ص 289 - 293.

408 ارجع إلى القسم الثالث من كتابنا هذا.

409 حول شروح جاك لاكان، سيرج لوكلير، نيقولا أبراهام، ماريا توروك،

جاك ديريدا، جيل دولوز، انظر JL - HPF، المصدر السابق. أشار كارولو جينزبورغ إلى أن الحلم يمكن أن يكون من وحي الأساطير المتعلقة بالرجال - الذئاب: فبدلًا من أن يصبح من هؤلاء الذئاب - الرجال، كما كان يمكن أن يقع له قبل ثلاثة قرون، تحول بانكييف إلى عُصابي على حافة الذهان. كارلور جينزبورغ، «فرويد، ورجل الذئاب، والرجال - الذئاب»، في «خرافات، وعلامات، وآثار. تحوّل وقصة»، باريس، فلاماريون، 1989.

410 موربيل غاردنر، «رجل الذئاب بشهادة محلليه النفسيين وبشهادته شخصيًا»، المصدر السابق، وكارين أوبولزر، «أحاديث مع رجل الذئاب»، المصدر السابق.

411 وتلك هي، على وجه الخصوص، حالة مايكل بورخ - جاكوبسن وآخرين عديدين.

412 شهادة دوّنها تيودور ريك في 1926، «الحاجة إلى الاعتراف»، باريس، بايو، 1973، ص 400 - 401.

413 أنا لا أتناول هنا تاريخ التحليل النفسي في فرنسا.

414 سيغموند فرويد وماكس إيتنغون، «المراسلات»، المصدر السابق، ص 208.

415 «مراسلات سيغموند فرويد مع الكاهن بفيستر»، 1909 - 1939 (1963)، باريس، غاليمار، 1966، ص. 119. حول ظروف ذلك الموت، ارجع إلى كتابنا هذا في الفصول اللاحقة.

416 سيغموند فرويد، «رسائل إلى أبنائه» (2010)، باريس، أوبييه، 2012، ص 492.

417 سيغموند فرويد، «مداخلة في مناقشة الانتحار» (1910، في OCF.P، الجزء العاشر، المصدر السابق، ص 75 - 79).

418 سيغموند فرويد وساندور فيرينتزي، «المراسلات»، الجزء الثالث: 1920 - 1933، المصدر السابق، ص 22. وذاك أن مارك توين وجّه البرقية التالية إلى الصحيفة التي نشرت خبر وفاته: «خبر وفاتي فيه مبالغة كبيرة».

419 سيغموند فرويد، «فيكتور توسك»، في OCF.P، الجزء الخامس عشر، المصدر السابق، ص203 - 209. ولو أندرياس - سالومي، «مراسلات مع سيغموند فرويد»، المصدر السابق. أثارت هذه القضية جدلًا تاريخيًا

ملحوظًا. انظر فيكتور توسك، «مؤلفات التحليل النفسي»، باريس، بايو، 1975. بول روزيين، «حيوان، أخي، يا أنت. قصة توسك وفرويد» (1969)، باريس، بايو، 1971. كورت إيسلر، «انتحار فيكتور توسك، مع تعليقات البروفسور ماريوس توسك» (1983)، باريس 1988 ،PUF.

420 ساندور فيرينتزي، «تقنية التحليل النفسي»(1919)، في «التحليل النفسي»، الجزء الثاني، المصدر السابق، ص 327 - 338.

421 يقدم جونز روايته عن الخلافات الداخلية في اللجنة في آخر كتاب حول السيرة، «حياة سيغموند فرويد وأعماله»، الجزء الثالث:1919 - 1939(1957)، باريس، PUF 1969، ص 48 - 87. يجب مقاطعة هذه الرواية مع روايات الأعضاء الآخرين في اللجنة، من خلال قراءة Rundbriefe. انظر أيضًا فيلس غوسكورث، «فرويد، الخاتم السحري»، المصدر السابق.

422 سيغموند فرويد وساندور فيرينتزي، «المراسلات» الجزء الثالث: 1920 - 1933، المصدر السابق، رسالة تاريخها 25ديسيمبر1920، ص44.

423 رسالة من فرويد تاريخها 5 يونيه /حزيران 1917، واردة ومترجمة عند أندريه بولزنجر، في « لوحة عن سيغموند فرويد»، المصدر السابق، ص. 202 - 203. و«الهو والأنا. مراسلات غروديك - فرويد ورسائل أخرى»، باريس، غاليمار، 1977. ونحن تحديدًا بفضل روجيه ليوانتر عرفنا كتاب غروديك في فرنسا، وكذلك بفضل كاترين كليمون، «القوس»، 78، 1980.

424 جاك شيموني، «علم نفس الديمقراطية»، فيرينتزي، 10، ربيع 1992، ص 265 - 282.

425 الطبيعة تشفي، والطبيب يداوي.

426 «Nasamecu: الطبيعة تشفي»، مقدمة بقلم كاترين كليمون، باريس، أوبييه - مونتيني، 1992.

427 جورغ غروديك، «1929» «(Lebenserinnerungen)، في «Der Mensch und Sein Es Wiesbaden «ليم فيرلاغ، 1970.

428 يجب أن نذكّر بأن فرويد في 1911 كان قد وقّع مع إيليس، هيرشلد، إدوار برنشتاين، نداءً موجهًا إلى الرجال والنساء في جميع البلدان

المتحضرة كي يرفعوا لواء سياسة صحية غايتها تحسين الصحة الجسدية والنفسية لـ«العرق» الإنساني. انظر بول ويندلنغ، «صحة العرق»، الجزء الأول: «الصحة العرقية والتحسين الطبي للجنس البشري في ألمانيا»، 1870 - 1933 (1989)، باريس، لاديكوفيرت، 1998، ص 53. حول تطور فكرة تحسين العرق البشري، انظر HPF - JL، المصدر السابق.

429 جورغ غروديك، «محاضرات في التحليل النفسي لاستخدام المرضى» (1915ـ 1916)، ثلاثة مجلدات، باريس، شان ليبر - روجيه ليونتر، 1982.

430 جورغ غروديك، «الباحث عن النفس، رواية تحليل نفسي» (1921)، باريس، غاليمار، 1982.

431 جورغ غروديك، «كتاب الهو» (1923)، باريس، غاليمار، 1973.

432 رسالة فرويد إلى غروديك بتاريخ 21 ديسمبر ك1 1924، وقد ترجمها أندريه بولزنجر، في «لوحة عن سيغموند فرويد» المصدر السابق، ص 203. و«الهو والأنا»، المصدر السابق.

433 انظر «قاموس التحليل النفسي»، المصدر السابق.

434 جورغ غروديك، «مشكلة امرأة» (1903)، باريس، مازارين، 1979؛ «الجنس المزدوج عند الكائن البشري» (1931، مجلة التحليل النفسي الجديدة، 7، ربيع 1973، ص 195 - 199. وجاك لوريدر، «الحداثة في فيينا»، المصدر السابق.

435 بتاريخ 1965، تخيل كاتبان لسيرة غروديك بأنه كان قد تراسل مع هيتلر، لكن الإشاعة أبطل مفعولها روجيه ليوانتر في مقالة في صحيفة اللوموند بتاريخ 7 سبتمبر - أيلول 1980.

القسم الثالث

فرويد في مسكنه

الفصل الأول
التنوير المظلم

كان فرويد من مفكّري عصر التنوير، فهو وريث كانط والفكرة القائلة بأن على الإنسان أن يتخلص من كل استلاب كي يدخل إلى رحاب العقل والإدراك. ولذلك يستقبل بترحيب كبير المبدأ الشهير حول الشجاعة وضرورة المعرفة «تجرَأ على التفكير»، كما يؤمن بإمكانية إخضاع الغرائز لتكون تحت سيطرة الذات. وهذا ما جعله على اقتناع بأن من واجب النُخب قيادة الجماهير لا أن تكتفي بدورها كممثلة للشعب. وبهذا فهو مستمر على تعلّقه بصيغة السلطة الأبوية، حتى وإن كانت منقوصة. لكنه كان يريد في الوقت نفسه أن يكون محرِّك المثل العليا للتقدم بما هو لا يكفّ عن الانتساب إلى الـ Sturn und Drang، إلى غوته، إلى فاوست، إلى «التحالف» مع مفيستو، وكذلك إلى التفوّق الخطير للأهواء على العقل. وهكذا فهو ينتمي إلى عرف «التنوير المعتم[436]»، بقدرته على الوقوف تحت مظلّة ما هو شيطاني، غيبي، الـ Pharmakon أو «الغرابة المقلقة» (Unheimliche)[437]، ليجعل من ثمّ بينه وبينها مسافة فاصلة عن طريق الاستنجاد بالمثل الأعلى للعلم، وضمن هذه اللعبة الجدلية تحديدًا بين العتمة والنور، يمكننا أن نضع فرويد كوريث لنيتشه، حيث إن مشروعه يفترض وجود إرادة لتحويل الرومانتيكية كي تكون عِلمًا.

هذا، وإن فرويد بتمسكه بخط ديدرو تحديدًا، جعل من نفسه مبتكر رؤية عن الجنسانية هي رغم سعيها لتكون عقلانية، ما تزال مغمورة بذكرى صنوف الجنون الكبرى عند ساد، وكما كان يقول هو شخصيًا، فهو يرى بقوة «أن يكون محامي الشيطان دون أن يسلّم نفسه للشيطان»[438]، علمًا بأنه يرفض كل إرث فلسفي. كان يريد حتى أن يكون بريء الذمّة من أيّ دَيْنٍ حيال الفلسفة إلى درجة جعلته يعتبرها «غير جديرة بالاحترام أبدًا»[439]: «قرأتُ شوبنهور في فترة جدّ متأخرة، هكذا سوف يقول في 1925. أمّا نيتشه، الفيلسوف الآخر الذي تتطابق استشعاراته وإطلالاته في أغلب الأحيان تطابقًا شديد الإدهاش مع النتائج الدؤوبة للتحليل النفسي، فقد تجنّبته لفترة طويلة، تحديدًا لهذا السبب؛ فأولوية الاكتشاف لم تكن تعنيني بمقدار ما يعنيني ألّا أكون عرضةً للإشكالات»[440].

كان فرويد مأخوذًا بالموت والحب، بالجنس والرغبة، مع انشغاله بتقديم تفسير مفهوم لأكثر الجوانب دموية وتضاربًا في النفس البشرية، ولذلك وضع الإنسان المعاصر وجهًا لوجه أمام قدره: قدر لا شعورٍ، من دون

أن يحرمه من حريته، يتحكّم به من دون أن يعلم. وكان يريد بكل قوة أن يكون التحليل النفسي ثورة رمزية، رسالتها الأولى تغيير الإنسان بتبيان أن «الأنا ليست سيدة مقرّها». وبهذه اللفتة، كما سبق أن أشرت، فقد انفصل عن علماء النفس والجنس في زمانه، حين وفّر قراءة الحياة الليلية للبشر بالانحرافات والأحلام، بعيدًا عن العلوم السلوكية المزعومة. وهكذا راح يعطي مضمونًا من الحياة لذلك الميدان، بدلًا من ادّعاء توصيفه بأدوات تعود إلى العلم الوضعي، فلم يكن ما يستمده من داروين سوى ما كان يأخذه عن سوفوكلس: الرواية الفاجعة لإنسان يكتشف، من بعد أن اعتبر نفسه إلهًا، أنه غير ما كان يعتقد: فهو قاتل، أو هو ينحدر من عالم الحيوان.

أضف إلى أن فرويد كان يقبل، ليس بالطابع اليهودي في التحليل النفسي، وإنما بالفكرة القائلة إن اليهود، منذ أن قادهم موسى إلى الصحراء، لم يتجنبوا أبدًا أي شيء وأنهم راحوا يبتكرون لأنفسهم دون توقف بديلًا في مواجهة ما كانوا قد فقدوه[441]: بديلًا عن أرض، عن أم، عن أب، عن جدّ، عن موضوع. بتعبير آخر، كان يستمد العون ليفكر بالمسألة العامة حول الإرث، حول شجرة النسب، حول الانتقال، حول الإخلاص، حول المنفى، كان يدافع عن ربّ كل فقدٍ عند الإنسان يجعله يتفوّق على نفسه بالذات، وبالتالي يصل إلى نوعٍ من الخلود - خلود نزوات الحياة -، حتى وإن بقي في أعماقه تعلّقٌ بالعدم، والموت، وتدمير الذات. إن القدر الإنساني، حسبما يرى، يختلط مع سعي إلى «ما وراء» الذات، إلى ما وراء الموت والحب، وحينذاك، فالحصرية السببية الجنسية التي رفعها حتى ذلك التاريخ في وجه يونغ، وفي وجه جميع المنشقين، لم تعد كافية لتفسير الأمراض والعُصابات الأخرى، أكانت أم لم تكن من مصدر صذمي.

ضمن هذا المنظور، يمكننا أن ننسب إلى فرويد تعريف الإنسان الذي جاء به لافونتين، المتهتك الملحد، المتمسك بمفهوم طبيعي للعالم: «بما يخصنا، نحن بني البشر، سوف أجعل نصيبنا هو الأقوى بلا حدود: وذلك لأن كنزنا مضاعف: الكنز الأول، هذه النفس المتشابهة عند الجميع كيفما كنا، حكماء، مجانين، أطفالًا، بلهاء، ضيوفًا في الكون، تحت اسم حيوانات، والكنز الثاني، نفس ثانية أخرى، مشتركة بيننا وبين الملائكة[442]».

لقد ابتكر فرويد «فرغا علميًا» من المستحيل دمجه، ليس مع ميدان العلم وحسب، وإنما حتى في ميدان العلوم الإنسانية التي كانت حينذاك في أوج ازدهارها مع نهاية القرن التاسع عشر، إنه فرع علمي هو في نظر علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الاجتماع يشير إلى انبثاقٍ جديد

للميثولوجيات القديمة، وهو في نظر الفلاسفة يشبه سيكولوجيا غريبة خارجة في الوقت نفسه من الرومانتيكية والداروينية، وهو في نظر علماء النفس يعرّض للخطر مبدأ كل علم نفس. وهكذا كان التحليل النفسي مرفوضًا من طرف جميع الفروع العلمية الأكاديمية، فكأنه ملكية عائدة لمالكٍ مشروعُه إحياء المأدبة السقراطية بدلًا من تشجيع انطلاقة المعرفة الحديثة. وللحقيقة، فإن الـRing، بمفاتيحه المقدسة، وبروتوكولاته (Rundbriefe)، والتزاماته، بدا وكأنه يضفي شرعية على تلك الرؤية للأمور. وأمّا التوجه العلاجي للتحليل النفسي، فلم يكن يدخل في حقل الطب، ولا في حقل علم النفس، حتى وإن كان بصفته كطب للنفس، ثمّة نفر ينظرون إليه بأنه يمكن له «التأثير» على الطب النفسي بما هو ضمن نطاق التأثير المغناطيسي. كانت العيادة الفرويدية تقوم، في واقع الأمر، على فن التأويل، الكفيل بأن يستخلص من المريض التأكيد على بناءٍ، يتم الحصول عليه بالتحويل وبالاشتغال على الشفاء. وهي بهذا المعنى تقضي قضاءً مبرمًا على العدمية العلاجية، والتي تقوم على تصنيف الأمراض النفسية من دون الاستماع أبدًا إلى ما يقول المريض.

إن فرويد، بصفته كمجدّد لعملية انتقادية للأنساب العائلية هو مفكر في مجال اللاعقلاني بمقدار ما هو منظّر لديمقراطية نخبوية، وكان يجزم بأن المدنية من دون سواها - أيْ الضغط بقانون قسري على القوة العظمى للنزوات القاتلة - هي وحدها التي تتيح للمجتمع التخلّص من تلك الهمجية التي ترغب بها البشرية بالذات، وإذا لم يكن فرويد في يوم من الأيام قارئًا مولعًا بساد[443]، فهو يشاطره فكرته بأن الوجود البشري يميل إلى الخير والفضيلة أقلّ من سعيه إلى الاستمتاع الدائم بالشر: نزوة الموت، الرغبة بالقسوة الدموية، حبّ الكراهية، والتطلّع إلى الفكرة الجميلة القائلة بأن الشذوذ ضروري للمدنية بما هو جانبٌ ملعون في المجتمعات. لكنه، بدلًا من ترسيخ الشر في النظام الطبيعي للعالم، عوضًا عن جَعْل حيوانية الإنسان علامة تدل على دونية نوعية، يفضّل الدفاع عن أن الفنون والثقافة لا غير هي الكفيلة باقتلاع البشر من إرادة التدمير الكامنة فيهم.

وها هو جيل - غرانتون غانجييه، في كتابٍ مشوّق له[444]، يبيّن بوضوح ثلاثة أنماط من اللاعقلانية المرتبطة بتاريخ العلوم، أمّا النمط الأول فيظهر عندما يكون لزامًا على مطلق عالم الاصطدام بالعقبة الماثلة في مجموع المذاهب المتحكّمة في حقبة من الحقب والمتحولة إلى أفكار متعصّبة، وقسرية، وعقيمة. يصبح المطلوب من الألم آنذاك التشكيك بالنمط السائد من خلال الإشارة إلى المواضيع الخرقاء، أو من خلال توجيه نظر العلم

إلى مواضيع يتم جلاؤها بطريقة مختلفة، على سبيل المثال، اللاشعور، الجنون، الاختلال العقلي، النساء، المقدّس. باختصار، كل ما يسقيه جورج باتاي «المتنافر». إن اللجوء إلى ذلك العنصر اللاعقلاني يتيح حينئذٍ إحياء وجه جديد للعقل والانطلاق نحو اكتشاف عقلانية «أخرى».

ويظهر النمط الثاني من اللاعقلانية عندما يبدأ التفكير بالتجمد متحوّلًا إلى عقائدية، أو إلى عقلنة مفرطة القسر، حينذاك يصبح واجب العالم، في سعيه للوصول إلى نتائج مقنعة، وكي ينفخ في التفكير قوة جديدة، أن يضع ذلك التفكير في تناقض مع نفسه بالذات لإعادة الفعل الخلاق الذي كان من وراء ولادته.

وأخيرًا يتعلّق النمط الثالث بقبول العلماء أو المبدعين لصيغة تفكير لاعقلانية بالكامل قائمة على هجر العقل والالتحاق بعلوم باطلة أو بمواقف قائمة على رفض منهجي للمعرفة السائدة، ومن هنا تُعطى القيمة للسحر والدين، وهي قيمة مرتبطة مع الإيمان بالماورائيات أو بقدرة ذاتٍ خارجة عن السيطرة. يترافق هذا النمط الثالث عمومًا مع إنكار عنيف للمنظومة المتبنّاة سابقًا، ويمكننا أن نصنّف ضمن هذه الزمرة انحرافات إعادة النظر، المندفعة نحو الحدّ الأقصى، حين تعلن عن كراهية الموضوع الحائز على التقدير الكبير في ما مضى.

يمكن تمامًا كشف هذه الأنماط الثلاثة للّاعقلاني، وهذا ما سبق أن نوّهتُ إليه مرات عديدة، بخصوص تاريخ التحليل النفسي، غير أن فرويد توقّف دائمًا عند النمطين الأول والثاني، اللذين هما في صميم سيرورة التجديد النظري بالذات، في الفترة الأولى، من خلال علاقته مع فليس، كان اصطدامه مع لا عقلاني بيولوجي، ما أتاح له في ما بعد إجراء انقلاب جدلي، والاشتغال حتى 1915 على إيجاد مبادئ عقلانية جديدة. ثم كانت سنوات الحرب، حيث بدأت تختمر ثورة رمزية جديدة.

أمّا في الفترة الثانية، من 1920 إلى 1935، بعد بناء مذهبه، فقد أدخل فرويد الشك إلى صميم عقلانية التحليل النفسي. وكان يريد بذلك محاربة الوضعية، التي كانت تهدّده من الداخل، بالتحوّل إلى لا عقلانية تأملية. حينذاك وضع فرضية نزوة موت طبّقها على تحليل «الجماهير»، ودشّن من بعدها جدالًا طويلًا حول مسألة التخاطر مع انطلاقه في معركة على الدين لصالح التحليل النفسي المدني.

«الموت صاحبٌ ملازمٌ للحبّ. إنهما، سويًا، يديران شؤون العالم. هذا تحديدًا ما جاء في كتابي: ما وراء مبدأ اللذة[445]». هذا هو الرأي الصادر عن فرويد، في 1926، بشأن ذلك الكتاب الذي لا مثيل له، والذي ارتسمت

معالمه بين مارس/آذار ومايو/أيار 1919، بعد المرور بتجربة الـUnheimliche (الغرابة المقلقة) والذي يبدو كما لو أنه يتنكّر تحديدًا لمبادئ مذهب التحليل النفسي ما قبل 1915. في حقيقة الأمر، كان فرويد يجابه أكثر فأكثر احتمال موته شخصيًا[446]. لكنه كان مهتمًا أيضًا بإعطاء تماسك للميتابسيكولوجيا عنده، من خلال ابتكار ثنائية نزوية جديدة، ومن أجل هذه الغاية، استعان ببعض الأسماء الكبيرة في العلم، والأدب، والفلسفة - فيخنر، أوغست وايزمان، لوتاس (توركاتو تاسو)، شوبنهور، غوته، غومبيرز، أفلاطون -، بالإضافة إلى أسماء أقاربه: سابينا سبيلن، ساندور فيرينتزي، وإرنست وولفانغ هالبرشتات، حفيده. ناهيك عن مرجعية الأوبانيشاد والنيرفانا.

منذ 1911، بات يؤكّد بوجود مبدأين يتحكّمان بالحياة النفسية، أحدهما يهدف إلى تحقيق اللذّة، والثاني مهمّته تعديل الأول بفرض تحفّظات عليه، وهي تحفّظات ضرورية للتكيّف مع ضغوط الواقع، وها هو الآن، كما لو كان يريد استكمال تصوّر للنرجسية، يحاول أن يبذل هذين المبدأين بثنائية جديدة: الحياة والموت، بما هو أبعد من الجانب التأملي في تفكيره، كان فرويد يستند إلى الواقع العيادي، إذ، من بعد سنوات من التطبيق العلاجي ومن المداواة دون تحقيق النتيجة المرجوّة، تبيّن له بأن نظريته عن العُصابات لم تكن تسمح بتقديم بيان عن ظاهرة معروفة لدى جميع المختصّين بأمراض النفس: فبعض المرضى يبقون مستعصين على المعالجة مهما كانت، والأدهى أنهم، حين يقبلون التداوي، تتراجع حالتهم، وتنتقل من سيئ إلى أسوأ. كما لو كانوا، لا شعوريًا، بالغًا ما بلغت موهبة المعالج، يرتّبون أمورهم كي يستجيبوا لتكرار اضطراري كفيل بإيصالهم نحو تدمير أنفسهم.

«بعض الأشخاص، هكذا أشار فرويد، يعطون فعليًا الانطباع بأنّ القدر يطاردهم، حتى كأنّما هناك شيءٌ يسبب جميع ما يقع معهم [...]. ولا يختلف الهجاس الظاهر في تلك المناسبة اختلافًا كبيرًا عن الهاجس الذي يدفع العُصابي لإعادة إنتاج أحداث طفولته والوضع العاطفي، [...]. وهكذا تحديدًا نعرف أشخاصًا تنتهي جميع علاقاتهم مع أقاربهم بالطريقة نفسها: فحينًا هم فاعلو خير ثم يجدون أنفسهم، بعد وقتٍ قصير، وقد هجرهم أولئك الذين غمروهم بأعمال الخير، وبدلًا من العرفان بالجميل، ها هم ونفوسهم مفعمة بالضغينة، مغمورة بنكرانٍ أسود للجميل، كما لو أنهم يريدون أن يسقوا من أحسن إليهم كأس المرارة حتى الثمالة؛ فحينًا هم أناسٌ تنتهي كل الصداقات معهم إلى خيانة الأصدقاء، ومنهم أيضًا من

يُمضون حياتهم بتمجيد هذا الشخص أو ذاك، حيالهم، أو حيال العالم قاطبةً، ليتحوّلوا سريعًا إلى إنكار سلطته، والإلقاء به من فوق صخرة تاربيين - صخرة الإعدام في روما قديمًا -، ومن ثمّ تبديله بصنمٍ جديد».[447]

بتعابير قليلة، وضع فرويد جدولًا من دون أي استثناء بجميع المواقف اللاشعورية التي يسعى بها المريض إلى تدمير ذاته بذاته، حيث المازوشية، في هذا المجال، أقوى من السادية[448]، وقد أطلق تسمية «الرجوع الخالد للشيء نفسه» على هذا التكرار المميت.

كان فرويد أبعد ما يكون عن الاكتفاء بهذا التوصيف الموضوعي. وها هو يستنتج منه بأن غاية كل حياة هي الموت، وأن نزوات الحياة، في هذه المعركة، لا عمل لها سوى إطالة المسار المؤدي إلى الموت. ولهذا توجد، حسب رأيه، قوى نفسية تتحرّك نحو «ما وراء مبدأ اللذة». وقدم مثالًا عن ثبات هذا «الما وراء» لعبة الـ Fort - Da -، التي راقب سيرها عند حفيده، إرنست هامرشتات، حين كان عمره خمسة أعوام.

عندما كانت أمه تغيب، ها هو الصغير يتسلّى برمي أشياء صغيرة بعيدًا عن سريره مع مرافقة هذه الحركة بتعبير عن الارتياح يتخذّ صيغة صوتية «أووووو» ممطوطة، وفيها يمكن التعرف على الكلمة الألمانية Fort، ومعناها «رحَلَ». وذات يوم شرع الطفل يقوم بهذه اللعبة بمساعدة بكرة خشبية مربوطة بخيط: ها هو يرمي بالبكرة صارخًا «أووووو» ثم، بالشدّ على الخيط، يسترجع البكرة مرحبًا بها بـ da فرحة (ومعناها «ها هي»).

وهكذا كان إرنست يبدّل حالة من السلبية أو الاستياء عند رحيل أمه، لتصبح موقفًا تحت السيطرة. من خلال هذه اللعبة، يوجد بالتالي، حسب رأي فرويد، الوسيلة للتعبير عن عواطف عدائية، لا يمكن الإعلان عنها في حضور أمه، وللانتقام من رحيلها. بتعبير آخر، هو يتحمّل إزعاجًا بتكرار انفصال يحقق له مكسبًا لذيذًا. وهذا هو «اضطرار التكرار» المعاين على حدٍّ سواء في العلاجات، والذي لا يمتّ بكبير صلة مع حقيقة وجود فقدٍ حقيقي[449].

ومن دون الادّعاء بتعميم هذه الحالة، كان فرويد متمسكًا مع ذلك بمثال آخر. إنه منشغل بإرجاع شرط الإنسان الحديث إلى خرافات سلفية أو إلى ملاحم أدبية، ولهذا يشبّه قدر العصابيين المضطربين بقدر بطل تاسّ في «أورشليم المحرّرة»[450]. فضمن العرف العظيم المتوارث عن هوميروس وفرجيل، كانت تلك القصيدة الملحمية، الموزعة في عشرين نشيدًا، تروي الحملة الصليبية الأولى والاستيلاء على أورشليم، وها هو

تانكريد، مثال الفارس المقدام، الإنسان الذي تشبه كآبته لوتاس، يواجه الكفّار ويعاني من غرامٍ معذِّب، من طرفٍ واحد، حيال مقاتلة إسماعلية شقراء الشعر، واسمها كلورند، والتي سوف يتبين في سياق القصّة أنها وُلدت مسيحية[451]. كان تانكريد يجهل هويتها، وتحدّاها للمبارزة ظنًّا منه بأنه يقاتل فارسًا من الأعداء. سوف تكون، هكذا قال لها «المعركة والموت»، وكان ردّها: «سوف تحصل عليهما لأنك تبحث عنهما». وطوال ليلٍ بأكمله استمرت منازلتهما بقدمٍ ثابتة، بما يشبه التحامًا دمويًا جسدًا بجسد، حيث يحاول كلٌّ منهما أن يورد غريمه الردى. ومع الفجر، في نهاية ذلك الصراع الطويل حتى الموت، سقطت كلورند، والجراح في جميع أنحاء جسمها. لقد رفضت أن تقول له اسمها، لكنها مدت يدها إليه لتشير بأنها تسامحه، وطلبت منه تعميدها: «في خضمّ الآلام وعذاب الضمير [...]، أجابها، سوف أعيش مشردًا على غير هدى، سوف يطاردني الذعر في الظلمات [...]. وسوف يرعبني ويلعنني وجه هذه الشمس التي كشفت لي جريمتي. سوف أخاف من نفسي دون سواها، وأسعى دائمًا للفرار، ودائمًا سوف أجد نفسي أمام نفسي[452]».

بعد جنازة محبوبته الغالية، تغلغل تانكريد في الغابة المظلمة التي يتخوف منها الصليبيون كثيرًا. إنها غابة ذات «غرابة مقلقة»، تسكنها الأشباح وأرواح الموتى: «inde unheimlichen Zauberwald»[453] وهناك شقّ شجرة أرز إلى نصفين، وها هو يسمع صوت كلورند، التي كانت روحها قد احتمت في تلك الأرزة. إنها تشتكي من الأذى الذي أوقعه بها، ونُقل تانكريد من بعدها إلى أورشليم التي حرّرها المسيحيون، وكانت قد أنقذته هيرميني، وهي إسماعيلية أخرى تُيمت بحبّه.

لقد استعار فرويد من هذه القصيدة موضوعة البطل الذي حكم عليه القدر بأن يولّد من دون انقطاع شقاءه الشخصي.[454] وهكذا فقد تقبّل فكرة أنّ نزوة الموت من الرسوخ في اللاشعور، بحيث تحكم على الإنسان ألّا يتحرّز منها أبدًا. لكنه، وهذا أمرٌ غريب ويثير الفضول، لم يأخذ بعين الاعتبار جانب المعركة الليلية بين تانكريد وكلورند، والتي كان من المفترض تمامًا أن تذكّره بمعركة الملاك مع يعقوب، كما لا يشير بكلمة واحدة إلى كآبة البطل الواضحة. حقيقة الأمر، أنه في هذه الدراسة، كان في صراع مع نفسه بالذات. فهو يؤكّد الشيء ونقيضه: فنزوة الموت مسيطرة على الحياة البشرية، كما يقول من جانب، ولكن لا يمكن القبول بألّا تكون الحياة سوى تحضّر بسيط للموت، كما يؤكّد من جانب آخر. ليصل بالنتيجة إلى أن نزوات الموت، كائنًا ما كانت قوتها، تتوقف عند

الحدود التي تفترض بأن الحياة تعيد إنتاج نفسها، بما هو أبعد من الموت. وهكذا فالنفس ساحة قتال، مشهدٌ ليلي، تتواجه فيه القوّتان الأوّليتان - إيروس وتاناتوس «الحياة والموت» -، والمحكوم عليهما بتبادل الحب والبغض إلى أبد الآبدين.[455]

نفهم حينذاك كيف استطاع فرويد أن يجد تأكيدًا على تأمّلاته في الأعمال الخيرة للبيولوجي الألماني أوغست وايزمان[456] علمًا بأن هذا الأخير يدحض طروح اللاماركية الجديدة حول وراثة الطباع المكتسبة، مع تقديمه لنمطٍ وراثي. لقد أوجد وايزمان تمييزًا في المادة الحيّة بين قسمٍ فانٍ (الـ«soma» - الجسم -) وآخر باقٍ، الـ«بلاسما الجذعية»، مهمته المحافظة على النوع وتأمين انتشاره. إن هذا التشابه غير المتوقّع بين نظريات وايزمان وطروحاته الشخصية أتاح له مذ جذور تأملاته في العلم، وليس في قوامٍ ميثولوجي أو أدبي لا غير.

لكن، ها هو بانقلاب جديد، يشرع في الاستناد على هذا التشابه كي يترجم النمط الوراثي محوّلًا إياه إلى نمطٍ ميتاسيكولوجي، وهكذا يجزم بأن الخلايا الجذعية تبرهن على «نرجسية مطلقة» إلى حدٍّ يجعلها حاملة، هي أيضًا، لنزوة الموت، بل مضى إلى ما هو أبعد حين قال بأن خلايا الأورام الخبيثة، مهما كان تدميرها للعضوية الحيّة، يمكنها أن تكون «نرجسية بالمعنى نفسه للكلمة[457]»، وهكذا حوّل النزوات إلى كينونات ميثولوجية، بل وإلى ربّات أو أنصاف ربّات.

وضوحًا، كان فرويد يستخدم نمطًا وراثيًا مستعارًا من وايزمان ليصيغ تصوره الإجمالي عن النفس. لقد استعاض عن الثنائية النزوية القديمة بثنائية جديدة، وإلى الإلزامات الماثلة في المبادئ الأولى - الشعور، ما قبل الشعور، اللاشعور - أضاف مبادئ ثانية: الأنا، الأنا العليا، الهو[458]. ولم يكن فرويد بالتأكيد هو من اكتشف آليات عمل الحياة النفسية، غير أنه، بإعادة الصياغة تلك، أتاح المجال للتفكير حول هذا الأمر بطريقة مختلفة، فالهو الذي صُوّر كخزان سديمي، أصبح المقرّ بامتياز لنزوات الموت، إنه كيانٌ «لا أخلاقي»، ربٌّ في عالم الظلمات، بينما الأنا، الأكثر «أخلاقية»، تحضُرُ فيه جزئيًا، وجزئيًا لا غير، ملتحقةً به، مثل بطل كئيب، شبيهٍ إلى حدٍّ ما بتانكريد، وريث أوديب، وأمّا بشأن مفهوم الأنا العليا، فقد جعل منها فرويد الرقيب، الذي لا يرحم ولا يلين، على التجاوزات النفسية، أيَ على الهو والأنا، وسوف يقول لاحقًا «حيثما كان الهو، لا بدَ من حدوث الأنا» (Wo Es war,soll Ich Werden) وسوف يجعل من هذا الإلزام مهمة جديدة للثقافة أهميتها كأهمية تجفيف الـZuiderzee[459] الزويدرزي: - الخليج

القديم في البلدان المنخفضة -.

بعد رفضه لكل إرث فلسفي، ها هو فرويد يرتّب أموره الآن لإدخال اسمين من أعظم ما عرفت الفلسفة الألمانية: كانط ونيتشه، إلى إعادة صياغته للنفس البشرية. مستمدًا من الأول الإلزام القطعي بعد تحويله إلى أنا عليا، ومن الثاني «اللاشخصي، الخاضع لضرورات الوجود» بصيغة الهو[460].

كان فرويد أبعد ما يكون عن أن يجعل الكلمة الأخيرة للنمط البيو - وراثي، ولذلك راح يستكمل كتابه «ما وراء مبدأ اللذة» مشيرًا إلى حادثة مقتطعة من «مأدبة» أفلاطون حين روى أرستوفان خرافة البشر المزدوجين أو الكاملين. وها هو بهذا الصدد يحكي بأن البشر، من البدايات، كانوا من ثلاثة أجناس: الرجل، المرأة، والخنثى، وكان كل مخلوق يشبه كرة مؤلفة من أربع أيد، وأربعة سيقان، ووجهين من فوق رأس واحد، مع أربع آذان وجهازين للتناسل. وهذه المخلوقات البشرية البدئية كان تنقلها إلى الأمام أو إلى الخلف. أمّا الذكر فمشتق من الشمس، بينما الأنثى من الأرض، وأخيرًا الخنثي من القمر. وذات يوم صعدوا إلى السماء كي يحلّوا محلّ الآلهة. حينذاك أراد زيوس معاقبتهم من دون أن يقضي عليهم، وقرر شقّ كلٍ منهم إلى نصفين. وهنا بدأ كل نصف يحنّ إلى نصفه الاخر، ويحاول الاتحاد معه حتى ولو كانت النتيجة الموت جوعًا وتعطّلًا عن الحركة. وكي يضع حدًا لهذا التدمير الذاتي، نقل زيوس الأعضاء الجنسية إلى مقدمة الجسم، ما يسمح بمجامعة الرجال للنساء واستمرار النوع البشري. أمّا الرجال الذين كانوا يحبّون الرجال، فيكون الجماع بينهم بالفكر. وهكذا يكون أكمل الكائنات، حسب رأي أرستوفان، من الذكور بالخالص. بالرجوع إلى هذه الخرافة، يكون الحب (إيروس) ناجمًا عن تمزّق. ولهذا فهو في الوقت نفسه الداء والدواء عند بني البشر، الذين لا يتوقف تفكيرهم عن الحلم بحالة بدئية من الاتحاد، رغم أنهم لا يتوقفون عن الانفصال.

لم يستند فرويد سوى إلى جانب صغير من خطاب أرستوفان[461]، مؤكدًا أنه يريد إعادة ترجمة تاريخ العلاقات بين إيروس وتانتوس بلغة فيزيولوجية وكيميائية. إنه بالتالي يقوم مجددًا باستدارة، منتقلًا من الميثولوجيا إلى البيولوجيا، لكنه في المقام الأخير أعطى الكلمة العليا للشعر في مواجهة غطرسةِ علمٍ يريد أن يكون «تعاليم دينية». إنه، تصديًا للعلموية، وأيضًا تصديًا لنفسه، وتصديًا لقدسية العالم الذي تنادي به: ها هو يطالب بالشك، والتأمل، وانعدام اليقين، مستشهدًا بفريدريك روكيرت

المستشرق الألماني ومترجم «مقامات الحريري»، النحوي العربي من القرن الحادي عشر: «ما لا نقدر على بلوغه بالطيران، علينا التوصل إليه ونحن نعرج. فالعرج، كما يقول الكتاب المقدس، ليس خطيئة[462]».

عند كتابة السطر الأخير من هذه الدراسة «الباروكية»، المبنية بطريقة Work in progress - عمل قيد الإنشاء -، وجد فرويد نفسه مجدذا كما كان حال أوديب: أميزا أعرج، يسأله وحش خنثى، يجسد في الوقت نفسه المعرفة المطلقة والتشكيك بالمعارف جمعاء. مما لا شك فيه أن بالإمكان تأويل هذه النص كنبوءة رجلٍ يشعر بحنين حقيقيٍ إلى عالم أيام زمان - عالم الخرافات والأحلام وشبابه في فيينا - مع أنه يرفض التحسر على العظمة المفقودة للأزمنة الغابرة، أو أن يتبنى خطابًا عن انحطاطٍ يبشر بكوارث مستقبلية مزعومة. كان الهرب إلى الأمام مع التأمل يسمح له أن يشك بكل شيء وأن يشق طريقًا جديدة لمعرفة النفس البشرية، المشدودة على حدٍ سواء إلى الحياة كما إلى دمارها الخاص. بتعبير آخر، رغم أن هذا الكتاب يحمل التأثير الجلي لحقبة الحرب التي وُضع أثناءها، فهذا لا يقلّل من كونه النتيجة المتولّدة عن إعمالٍ للتفكير.

وما دام فرويد قد جعل من نزوة الموت قوةً خرساء تمسك بين فكّي كماشة النفس والجسد معًا، فهو لم يكن يستطيع جلاء وجوده إلّا بالرجوع إلى تأويلات مأخوذة من الأدب، من الواقع الاجتماعي، من السلوكيات الفردية. وتعريف نزوة الموت على هذه الصورة يجعل منها كيانًا لا يمكن العثور عليه من وجهة نظر بيولوجية: إنه وهمٌ غامض. حينذاك وجدت الانتقادات فرصتها لتؤكد بأن أسباب التأمل الفرويدي لا تعود إلى خطوة فكرية وإنما هي حصريًا من نتاج جبرية خارجية.

كان استقبال الكتاب سيئًا، لسنواتٍ عديدة، في العالم الناطق بالإنجليزية. وقد وصفه وليام ماكدوغال في 1936 بأنه «وحش من أغرب وحوش الصالون الفرويدي[463]». غير أن الاعتراضات الأقوى حدثت، على وجه الخصوص، في قلب «اللجنة»، ووسط باقي الأتباع، تقبل فيرينتزي وإيتنغون الفرضية ولكن جونز أبدى تحفظًا، وأشار إلى أن فرويد كان دائمًا على قلق من الموت، موته شخصيًا أم موت أقاربه، ولذلك فهو ينجرف ضمن هذا السياق إلى حسابات لا تنتهي، ويخشى من الشيخوخة، ويتألم لحقيقةِ تدهور الأجساد[464]. وأما فيتلز، فلم يتردد في إضفاء سمةٍ نفسانية على الابتكار الفرويدي، زاعمًا بأن التنظير حول نزوة الموت جاء نتيجة للشعور المرير بالألم حيال موت صوفي[465].

وقبل أن يجابه فرويد مثل هذه الانتقادات، كان قد اهتم بالكتابة إلى

إيتنغون «أخيرًا اكتمل الماوراء، يمكنك التأكيد بأنه كان نصف مكتمل حين كانت صوفي حيةً وبصحةٍ وعافية[466].»

«نصف مكتمل»! مثل هذه العبارة تسمح بجميع التأويلات، بما فيها اتّهام فرويد بإنكار ما جاء به. وقد بيّن جاك ديريدا في 1980 بأن فرويد كان قد تمنى موت شقيقه الأصغر يوليوس، وأنه، بعد وقوع الموت تملّكه شعور بالذنب لم يفارقه أبدًا، واستنبط من هذا الأمر بأن فرويد تعامل مع دراسته كلعبة «Fort - da» وذلك «كي يرسل إلى نفسه بالذات رسالة عن موته شخصيًا»[467].

لم تتوقف المناقشات أبدًا حول «الماوراء». أمّا المتمسكون بالمدرسة الأميركية فلم يكونوا يقبلون الجانب التأمّلي في هذه المسألة لأن فرويد يجعل نفسه في هذا الجانب التأملي، حسب رأيهم، «عالم نفس الهو» بدلًا من أن يكون معالجًا للأنا. واستثمرت ميلاني كلين لحسابها الثنائية النزوية الثانية، بطريقة محض عياديّة، مشيرةً إلى أن نزوة الموت تساعد على وضع الشخص في موقف انهيار، قوامه قلقٌ وتدمير، وفي فرنسا تحديدًا حظي هذا النصّ، والذي هو نتاجٌ خالص لـ«Aufklarung»[468] - التنوير بالألمانية - بالتعليق الأفضل، أكان من الجانب العياديّ، أم من جانب أنه لحظة حاسمة في تاريخ الفكر الفلسفي[469].

في 6 مايو/أيار 1921، استلم فرويد بمناسبة بلوغه خمسًا وستين عامًا النسخة الأصلية من التمثال النصفي له، من تنفيذ دافيد بول كونيغسبرجر: «نسخةٌ عنّي من نحاسٍ وقصدير شبحيّة المظهر وفيها تهديد [...]. لقد خطوتُ فجأةً خطوةً باتّجاه الشيخوخة بحق، ومذ ذاك لم تعد فكرة الموت تفارقني، وعندي انطباع بأن سبعة أعضاء من جسدي ما تزال تختصم فيما بينها أيُها يكون له شرف وضع خاتمة لحياتي[...]. غير أنني لم تهدّني هذه السوداوية، وها أنا أتعامل معها ببرودة طاغية، تمامًا كحالي إلى حدٍّ ما مع تأملات من الماوراء[470]». وهكذا فإن فرويد المشتت بين ما هو عليه، وما كان يقوم به، كان قد بعث إلى نفسه من خلال «الماوراء»، رسالةً لا يزعم بأنه مسيطرٌ على مصيرها اللاحق، وها هو من جديد أيضًا يحرّك الصخب والضوضاء حياله.

كان يتمنى منذ فترةٍ مديدة التوسع بتحليل المجتمعات الإنسانية، ليس كما فعل في «الطوطم والتابو»، وإنما ضمن مخطط سياسي أكثر بروزًا لوصف الدرب المؤدي من الجماعة إلى الفرد، وفي وجه المتمسكين بعلم النفس الاجتماعي في خضمّ انطلاقته، كان يريد بناء بسيكولوجيا العلاقات بين الأنا والجماهير. لمرّةٍ جديدة، هو يُضمر الردّ على يونغ - أو

بالأحرى على شبح يونغ -، مع اتخاذ موضعه ضمن المنظور نفسه الخاص بهوغو فون هوفمانشتال وآرثرسنيتزلر، اللذين اعتمدا مشروعًا واحدًا. وفي سبيل تحقيق هذا الأمر، لم يتردد بالرجوع إلى التصور الأرسطوي عن الإنسان كحيوان سياسي، غير أنه استعان بغوستاف لوبون، الطبيب ذي الاهتمامات والمؤلفات المتعددة، ليستعير منه، في 1921، جوهر بحثه الجديد، الأقلّ تأمّلًا بكثير مما كان في «الماوراء[471]».

كان لوبون من أيديولوجيّي الثورة المضادّة، وتؤرّقه ذكرى كومونة باريس، كما كان مبعدًا عن الأوساط الأكاديمية، وهذا ما جعله يتمنى أن يكون مؤسّس علم اجتماع لشعب يوضع في خدمة الطغاة الراغبين في التخلص من الخوف الناشئ عن وجود الشعب تحديدًا. كان الجمهور في نظر لوبون، مجموعة همجية وهستيرية، نوعًا من تكوين عضوي أنثوي، حيث يدمّر الفرد نفسه لينصهر داخل كتلةِ جسمٍ مهدَّد. وهذا الجمهور يتحرّك مثل «مدُوسةً بحرية رخوية، على حدّ قوله، وتخترقه غرائز خارجة عن المعقول وخاضعة لجميع أنواع العدوى، ولهذا فهي قادرة على تقديم الطاعة لطغاة دمويين بمقدار ما هي تجسد أكثر القوى ظلامية في النفس البشرية: المرض العقلي، مجانبة الصواب، الموت، الانحطاط». بعد تقديم هذا الوصف عن الجماهير، راح لوبون يطالب بتأسيس علم يتيح مساعدة رجل السياسة ليصبح عالمًا نفسيًا قادرًا على السيطرة على الجمهور عن طريق الإيحاء[472].

فها هو الكتاب الذي استحوذ على إعجاب فرويد وكان في بعض جوانبه، ينسجم مع نفوره من المثل العليا للثورة الفرنسية: فالشعب خطير حالما يعطى سلطة أكبر بكثير من اللازم ويتحول إلى «جمهور»، وباستناده إلى كتابات وليم ماكدوغال، الذي سوف يتعامل مع «الماوراء» على أنه «وحش» أيضًا، وبهذا لم يقل سوى ما قال فرويد: ألا فإن فرويد يخلط بين الشعب والجمهور...

كان ماكدوغال عالم نفس من أصول اسكتلندية هاجر إلى الولايات المتحدة، وكان من أتباع تحسين النوع البشري ومقولات اللاماركية الجديدة المتعلقة بوراثة الطبائع المكتسبة، ولهذا كان يتصدّى للمدرسة السلوكية مدافعًا عن المبدأ القائل بأن الإنسان تسكنه «غريزة» جماعية خطيرة تدفعه إلى «الالتصاق» بنظرائه. بعد قيام يونغ، المشغوف بالتخاطر والباراسيكولوجيا، بتحليل ماكدوغال في 1920، كان هذا الأخير قد نشر لتوّه كتاب «The Group Mind»[473]، حيث أعلن عن أقوالٍ حول لا مساواة الأعراق، وهذه أقول كلاسيكية في تلك الحقبة: «النفر القليلون

من زنوج أمريكا الذين يُقال عنهم أنهم رفيعو الشأن - أمثال دوغلاس، بوكر واشنطن، دوبوا - كانوا، على ما أعتقد، في جميع الحالات من الخلاسيين أو من الحاملين لنسبة معينة من الدم الأبيض، ويمكننا بالأحرى أن ننسب عجز العرق الزنجي عن تكوين أمة إلى عدم توافر رجالٍ يحملون خصال القادة العظام، حتى وإنْ كانوا أعلى من أدنى مستوى لمتوسط المؤهّلات[474]».

كان فرويد يشاطر الأيديولوجيين، المتخوفين من الجماهير، الفكرة القائلة بأن مجيء مجتمع التكتل الجماعي مع انطلاقة التصنيع، يعرّض للخطر علاقة النُخب مع الشعب، ما يمكن أن يساعد على نشوء الطغيان، لكنه، في موقفٍ معاكسٍ لهم، يدافع عن أنّ هذا الموقف الجماعي للجماهير، على خطورته، يشكّل الجانب القديم من الذاتية الفردية، وأن الانتقال من إحداهما إلى الأخرى - من الجماعة القديمة إلى طبقة أعلى منها - يجعل النفس البشرية تمضي نحو التقدّم. وهو على هذه الصورة يستند إلى لو بون وماكدوغال من دون أن ينقض مفاهيمهما عن الجمهور، أو عن دونية «السود» بالمقارنة «البيض». كما أنه بهذه العملية يلتفّ حول المسألة التي كان يطرحها مؤسسو العلوم الاجتماعية في تلك الفترة، فمنهم الحداثيون المتوجّهون نحو تفسير متناسق لظواهر الجمهور، ومنهم آخرون من أتباع تصور غريزيّ أو عرقي لروح الشعوب.

كان فرويد يميز بين الجماهير مع مسيّر لها والجماهير دون وجود مسيّر. وهو يضرب مثلًا عن الجماهير المنظمة والمستقرة في ذلك العصر - الكنيسة والجيش - فهما قائمان على هيكليةٍ مستندُها، في رأيه، محوران: أحدهما شاقولي ينظّم علاقة الجمهور مع الزعيم، والآخر أفقي، المرتّب للعلاقات بين أفراد الجمهور الواحد. في الحالة الأولى، يتوحّد الأعضاء مع موضوع يحتل موقع مثلهم الأعلى للأنا (الزعيم)؛ وفي الحالة الثانية، يتوحّد الأفراد بعضهم مع بعض، بطبيعة الحال، كان فرويد قد فكّر بإمكان أن يشغل موقع المسيّر تجريدٌ أو فكرة، وليس شخصًا حقيقيًا: الله، على سبيل المثال. وها هو يرجع إلى التجربة الشيوعية ليبرهن بأن «الرباط الاشتراكي»، بحلوله محل الرباط الديني، يهدّد بأن يطلق اللاتسامح نفسه حيال من هم «خارج الجماعة» تمامًا كما كان الحال إبّان الحروب الدينية.

وكان فرويد، استنادًا إلى نظريته حول التوحّد، يولي المحور الأفقي وظيفةً لها الأولوية، وبهذا يكون المحور الشاقولي مرتبطًا به. وهكذا فإن التوحّد مع الأب، أو مع الزعيم، أو مع فكرة، له المقام الأول، حسب رأيه، بما يخص العلاقة التي تربط بين أعضاء زمرة محدّدة من البشر، وعن هذا

الطريق يضع مسافة بينه وبين مقولات علم نفس التكتلات الجماعية، القائمة على أن الإيحاء أو التنويم - وليس التوحّد - هما مصدر علاقة الانبهار المسحور الرابط بين التكتلات الجماعية والزعماء.

سوف تعيش هذه المقولة الجديدة الفرويدية، لسنواتٍ عديدة، لتقوم بتفسير النمط الوظيفي السياسي في الفاشية[475]. وللحقيقة، عندما أصدر هذه الدراسة، كان فرويد يفكر بالتجربة الشيوعية التي يناصبها العداء بعمق منذ 1917، حتى وإن كان قد رحّب بها في البداية، كعلامة على أن الحرب في طريقها إلى النهاية: «كان فرويد يقترح إطارًا مفهوميًا، كما أشار ميشيل بلون، يتيح البدء بالتفكير حول القضايا التي كان علم الاجتماع والفلسفة السياسية في ذلك القرن ما يزالان غير قادرين على صياغتها، على حدٍّ سواء، في تجاهلهما لمكيا فيلي ولا بو يسي[476]».

لقد انفصل فرويد هكذا عن كل تفكير قائم على كراهية الشعوب، ورفض الديمقراطية، وإعادة الاعتبار إلى أيديولوجية الزعامة. علمًا بأن عدم معرفته بالتجربة الثورية في القرن العشرين، جعلته يرتكب أخطاء عديدة، لا سيّما بما يخصّ التحليل النفسي في روسيا وأتباعه الفرويدو - ماركسيين، مثل: ويليهيلم رايخ وأوتو فينخل. يمكن القول، بهذا الصدد، بأن جانبًا من خطوته - الأكثر لا شعوريةً وكبتًا - بقيت جذوره راسخة في ما كان يزعم بأنه يندد به، فلم يكن اختياره بريئًا لنمط لو بون وما كدوغال اللذين، من خلالهما، كان يستذكر، لاستحضاره بصورة أفضل، التاريخ اليونغي الكبير عن المغاور، أو الكهوف، أو السراديب، العالم السلفي لسديم التيتان.

ولم يكن فرويد بالتأكيد ينتظر الاستخدام غير المسبوق الذي سوف يقوم به ابن أخته الأمريكي، إدوارد برناي، ليس لعلم نفس الجماهير وحسب، وإنما أيضًا لإدمان التدخين. فهذا الأخير، بابتكاره لفنٍّ جديد بإدارة الرأي العام للتكتلات الجماعية، استند فعليًا في سنوات 1920، على المفهوم الفرويدي لتطوير حملة دعائية ضخمة لصالح صناعة التبغ، لا سيما لفافات اللوكي سترايك، من أجل النساء، لقد جعل شفته الخط السياسي لحركة التحرّر النسائية، وأنتج أفلامًا دعائية مخصصة للبرهان على أن من حقّ النساء، تمامًا كما حال الرجال، التدخين، وأن السيجارة التي يدخّنها في الأماكن العامة تساوي، تمامًا مثل «مشعل للحرية»، عضوًا ذكريًا بهيجًا يمكنهن إشهاره دون أدنى حظر وذلك كي يحققن الانعتاق من الهيمنة الذكورية.[477]

رغم تمسك فرويد بتقديم شرح عقلاني لظواهر لا عقلانية، بدأ ينصرف

باستمتاع إلى الغوص في أغوار الخرافات الدانوبية، وها هو بتاريخ 1921، في رسالة موجّهة إلى هيروالد كارينغتون، الاختصاصي الأمريكي بالروحانيات،[478] وكان قد طلب منه رأيه عن الظواهر الباطنية، يعطي رأيه بالكلمات التالية: «لو كنت في بداية عملي العلمي، وليس في أواخره، ما كنت لأختار على الأرجح ميادين أخرى للبحث غير هذا الميدان»، ثم إنه طلب مقن يتراسل معه ألّا يُذكر اسمه، لأنه لا يؤمن «ببقاء الشخص بعد الموت»، لا سيّما أنه يريد بإصرار إيجاد خطٍّ فاصل، شديد الوضوح، بين التحليل النفسي كعلم، وبين «ذلك الحقل المعرفي الذي لم يتمّ بعدُ استقصاؤه»، وذلك كي لا يخلق أدنى سوء تفاهم بهذا الصدد.

ونتذكّر بأن تلك القضيّة حول «الأمور الغيبية» كانت بدايتها في فيينا أثناء أول زيارة ليونغ إلى برغاس، ثمّ عادت من بعد ذلك إلى الانبثاق مجدّدًا في 1910، حين زعم فيرينتزي أنه يطارد العرّافات والمتنبئات في ضواحي بودابست، كي يبرهن لمعلّمه المعبود، وجود تناقلٍ للتفكير، لكن فرويد حسم الجدال بعدها مدينًا إدانة لا هوادة فيها، باسم العلم، تجارب التخاطر التي كان البروفسور روث يقوم بها، وكان فيرينتزي قد أحضره إلى الـWPV

غير أن قضية الروحانيات عادت لتحتل مقدمة المنصة، اعتبارًا من 1920 حتى 1933، مع نشوء واستقرار القواعد الكبرى النموذجية - ما بين لندن، وبرلين، ونيويورك - للتحليل التعليمي والتي سوف تجعل من الـVerein حركةً منظّمة وفق مبادئ العقلانية الوضعية، ضمن هذا السياق، حيث المثل الأعلى لإمكانية مواكبة الطابع العلمي في التحليل النفسي للتحول التدريجي نحو «مأسسة» المبادئ العلاجية، عاد فرويد من جديد ليقف مدافعًا عن التخاطر، ثمّ إنه، بصحبة ابنته آنّا وفيرينتزي، «غيّر وجهته» وتحوّل إلى تجارب تبادل الأفكار، مؤدّيًا دور الوسيط بتحليل تداعياته الكلامية.

حينذاك بذل جونز وإيتنغتون جهودهما للجم اندفاعه، على أساس أن التحوّل من التحليل النفسي إلى التخاطر سوف يفاقم مقاومة العالم الأنغلو - ساكوني للمذهب الفرويدي وسوف يجعل منه عملًا من أعمال التحايل، وقد اقترح جونز ، من أجل إدخال التحليل النفسي إلى العصر العلمي ووضع نهاية حاسمة لتمركزه في العالم القديم النمسو - هنغاري، الحافل بالغجر والسحرة، استبعاد البحوث الغيبية عن المؤتمرات الدولية، فوافق فرويد.

وقد وضع في 1921 مقالة (دون عنوان) حول تلك المسائل بنية

عرضها في 1922 على مؤتمر برلين غير أن إيتنغتون وجونز أقنعاه بصرف النظر عن هذا الأمر. وكان أن سحب نصّه الذي سوف يجد أخيرًا طريقه إلى النشر في 1941، من بعد وفاته، من بعد هذا الرفض، عاد إلى الهجوم، في السنة نفسها، بمقالة أخرى، «الحلم والتخاطر»، ونشرها في مجلة إيماغو - Imago -. وسوف يلقي محاضرة، بعد عشرة أعوام من هذا التاريخ، حول «الحلم وعلوم السحر والتنجيم»، رجع فيها إلى الشواهد الواردة في 1921، لا سيّما حالة دافيد فورسيث[479]، وقُدر لتلك المحاضرة أن تظهر في «التحليل النفسي والتخاطر»[480].

في رأيه، أن السحر والتنجيم من جانب، والتحليل النفسي من جانبٍ آخر، تعرّضا كلاهما من طرف العلم «الرسمي» على ما يقال، لمعاملة قائمة على الاحتقار، علمًا بأن تقدم العلوم يمكن أن يكون له تأثيرٌ مضاعف حين يجعل مادةً للتفكير ما كان يُرفض في السابق ويصنّف تحت بند السحر والتنجيم. ومن المؤكّد، كما يضيف فرويد، ثمة مجازفة، إذا شرعنا بإعادة تنشيط هذا النوع من الاستقصاء، أن نعيد الحياة إلى قوى جديدة غيبية، ومن هنا الخطر الذي وضّح الهربروفسور ملامحه في مجال علم نفس الجماهير عنده: إذْ يمكن لمن لا يتحلّى بروح المسؤولية أن يفكّر بالتلاعب ببعض التقنيات المرتبطة بالسحر والتنجيم كي يستثمر قابلية التصديق عند البشر لصالحه.

لقد غمر الفرح فرويد حين أعاد ارتباطه بشغفه بالأرقام، والأحاجي، والحسابات. وها هو ينقل باستمتاع، قصة ذلك الشاب الذي استشار متنبئة فأعطاها تاريخ ولادة صهره. وكان أن أكّدت المتنبئة سريعًا بأن الصهر المعني سوف يموت متسممًا بالمحار والقريدس، وانبهر الشاب، لأنه يعلم بأن التنبؤ كان قد تحقّق فعليًا: وذاك أن صهره كان من هواة ثمار البحر، وهو فعلًا كاد يلاقي حتفه بسبب تسمّم أصابه بعد تناول المحار في السنة السابقة، وكان استنتاج فرويد أن ظاهرة تخاطرٍ بين الشاب والبصّارة هي في أصل هذه النبوءة: «لقد انتقلت تلك المعرفة إليها عَبر طرقٍ مجهولة، بعيدًا عن أنماط التواصل المعروفة لدينا، وها هو يطرح وجود تحويل للتفكير». هو إذن قد ابتعد عن ميدان السحر والتخاطر، منتقلًا إلى ميدان تأويل التحليل النفسي، من جديد إذن، كان يلعب مع الشيطان ويجعل من نفسه في الوقت ذاته محامي الشيطان.

أمّا في نظر جونز ، فكانت كلّ حكايات التبصير تلك محض أعمالٍ مضنية تعرّض للخطر سياسة الـVerein: «يمكنك أن تكون بلشفيًا، هكذا قال لفرويد في 1926، ولكنك لن تكون مساعدًا على تقبل التحليل النفسي

بمجرد الإعلان عنه والتبشير به»، وجاء ردّ فرويد: «من الصعب حقًا عدم إثارة الحساسيّات الإنجليزية. ولا يوجد أي منظور أمامي لتهدئة الرأي العام في إنجلترا، لكن يطيب لي على الأقل أن أشرح لك، ولك وحدك، التناقض الظاهر الذي أقع فيه بما يخصّ التخاطر[...]. وإذا جاءك من يبرهن على أنني غرقت في الخطيئة، جاوبه بهدوء أن اعتناقي للتخاطر قضيّة شخصيّة تخصّني، كما الحال مع هويتي اليهودية، وأنني أدخّن بنهم، وغير ذلك من أمورٍ كثيرة، وأن فكرة التخاطر هي موضوعة غريبة جوهريًا عن التحليل النفسي[481]».

تلك اللعبة التي انصرف إليها فرويد أثناء سنوات وسنوات تؤكّد تمامًا بأن الأمر لديه يعني المطالبة، على نقيض الأولوية العلمية العقلانية المبالغ بها، بمعرفةٍ سحرية بعيدة كل البعد عن ضغوط النظام القائم[482]. هذا وإن إصرار فرويد على تحمّل أعباء القيام بدور متنبئة للإمبراطورية العجوز، الإمبراطورية النمسو - هنغارية، من خلال التظاهر بأنه يؤمن بالتخاطر، بينما هو يعيده إلى تمظهرٍ للّاشعور والتحويل، يدّل بقوة على ما يمكن أن يشكّل التنظيم العضوي النوعي للتحليل النفسي، في علاقته الملتبسة مع العلم، وكذلك مع التساؤل عن أصوله البعيدة. وكما سوف يشير جاك دريدا في 1981: «التحليل النفسي حينذاك [...] يشبه مغامرة للعقلانية الحديثة كي تبتلع وتلفظ معًا الجسم الغريب المسمّى /تخاطر/، كي تهضم وتتقيأ التخاطر من دون أن يكون بالإمكان اختيار هذا أو ذاك [...]، ألا والتحول إلى عقيدة ثانية لا يمثل قرارًا ولا حلًا، فما هو سوى الندبة الباقية التي تتكلّم عن الجسم الغريب[483]».

---

436 كلمة استخدمها تيودور أدورنو.

437 يشير فرويد من خلال عبارة Unheimliche («المألوف الغريب») إلى انطباع مرعب يصدر من أشياء معروفة منذ فترة طويلة وهي في كل زمان أشياء مألوفة: الخوف من الخصاء، وخيال الظل، والإنسان الآلي. انظر «الغرابة المقلقة» (1919)، في «الغرابة المقلقة ودراسات أخرى»، باريس، غاليمار، 1985، ص. 209 - 263. انظر أيضًا جان كلير، «Malinconi»، باريس، غاليمار، 1996، لا سيما فصل «من الميتافايزيقا إلى الغرابة المقلقة»، ص. 59 - 85.

438 «ما وراء مبدأ اللّذة» (1920)، في «دراسات في التحليل النفسي»، باريس، بايو المكتبة الصغيرة، باريس، 1981، ص. 117 - 205. انظر أيضًا OCF. P، الجزء الخامس عشر، المصدر السابق، ص. 273 - 339.

حول نشوء النص وتنويعاته، انظر إيلس غروبريخ - سيميتي، «فرويد: الرجوع إلى المخطوطات»، المصدر السابق، ص. 228 - 239. ثار جدل هام أوجد معارضة بين إيلس غروبريخ - سيمتي وميكائيل شروتر وأولريك ماي بخصوص نشأة «ما وراء مبدأ اللذة»، نجد صدى هذا التعارض في مجلة Luzifer - Amor، 51، 2013، وهذا العدد مخصص بأكمله لمناقشة «ما وراء مبدأ اللذة»، و«النفس»، 67، 2013، ص. 679 - 688 و794 - 798.

439 حسب ملاحظة جاك ديريدا، الذي وضع أبهر التعليقات حول «ما وراء مبدأ اللذة»، في «البطاقة البريدية من سقراط إلى فرويد وإلى ما هو أبعد»، باريس أوبييه - فلاماريون، 1980.

440 سيغموند فرويد، «سيغموند فرويد يعرّف عن نفسه بنفسه»، المصدر السابق، ص. 100.

441 سيغموند فرويد، «رسائل إلى أبنائه»، المصدر السابق، رسالة إلى إرنست فرويد تاريخها 17 يناير/ك2 1938، ص. 389.

442 جان دولافونتين، «أشعار الحيوانات»، قصيدة الجرذان، والثعلب، والبيضة.

443 انظر «مكتبة فرويد»، المصدر السابق. كان فرويد مهتمًا بحياة ساد وليس بمؤلفاته. انظر إليزابيث رودينِسكو، «الجانب المعتم عندنا. قصة الشواذ»، باريس، ألبان ميشيل، 2007.

444 جيل - غاستون غرانجر، «اللاعقلاني»، باريس أوليد جاكوب، 1998. سبق أن استندتُ على هذا الكتاب في «لماذا التحليل النفسي؟»، باريس فايار، 1999.

445 سيغموند فرويد، «حديث مع جورج سيلفستر فيرك» (1926)، ترجمه وقدّم له كلود - نويل بيكمان، مجلة جمعية التحليل الفرويدي، 13، خريف 1996، ص. 115 - 127. انظر أيضًا إيميليو رودريغيه، «قرن التحليل النفسي» (1996)، مجلدان، باريس، بايو، 2002.

446 في نص يعود تاريخه إلى 31 يناير/ك2 1919، يعبّر عن أمنيته بأن يُحوّل جسمه عند وفاته إلى رماد، حديث مع إيريك ويليس، المسؤول عن حرق الجثامين في Golders Green، في 24 أبريل/ نيسان 2014. انظر أيضًا هيلين فراي، «حرب فرويد»، غلوسيسترشاير، ذا هيستوري برس، 2009.

447 «ما وراء مبدأ اللذة»، المصدر السابق، ص. 26.

448 سيغموند فرويد، «نزوة وقدر النزوات» (1915)، في OCF.P، الجزء

الثالث عشر، المصدر السابق، ص. 161 - 185. حول نشوء فكرة السادومازوشية، انظر «قاموس التحليل النفسي»، المصدر السابق.

449 في مذكّرة لاحقة، سوف يضيف فرويد: «فقد الطفل أمه حين كان عمره خمسة أعوام وتسعة شهور. في هذه المرة، حيث إن الأم كانت فعلًا قد رحلت بعيدًا، لم يعبر الطفل عن أدنى شعور بالأسى. في هذه الأثناء، كان طفل أخر قد ولد وهذا ما جعله شديد الغيرة» (ما وراء مبدأ اللذة، المصدر السابق، ص 18)، والموضوع يتعلق بهينز (هينيرل) هالبيرشتات (1918. 1923)، الابن الثاني لصوفي، والذي توفي بعمر أربعة أعوام.

450 يستشهد فرويد بالرواية الإيطالية القديمة: توركاتو تاسو، «La Gerusalemme Liperata»، 1581، النشيد الثالث عشر، باللغة الفرنسية، استخدمتُ رواية عام 1845 (باريس، شاربونتييه)، ترجمة أوغست ديبلاس ومسبوقة بدراسة عن حياة وأعمال تاس: النشيد الثالث عشر، ص 292.

451 الخصيِ آرسيت أعلمه بهذا الأمر في النشيد الثاني عشر، لخشيته أن يُظن بها عند تبديل السلاح أنها المحارب الذي قتل آريمون، صاحب تانكريد.

452 النشيد الثاني عشر، ص 198 - 199.

453 هذه هي الكلمات التي استخدمها فرويد.

454 «ما وراء مبدأ اللذّة»، المصدر السابق، ص. 27.

455 لم تكن تلك الموضوعة جديدة، لا سيّما عند الرومانتيكيين. انظر هنري ف. إيلينبرجر، «تاريخ اكتشاف اللاشعور»، المصدر السابق، ص 549 - 552.

456 أوغست وايزمان، «دراسات حول الوراثة والانتخاب الطبيعي»، باريس، رينوالد، 1892. يشير فرويد بصورة جوهرية إلى ثلاثة مقالات مستخرجة من هذا الكتاب. انظر شارل لوناي، «الحدود الطبيعية لديمومة الحياة ومسألة وراثة المكتسب»، دراسات حول الموت، لو بوسكا، روح العصر، 2003.

457 «ما وراء مبدأ اللّذة»، المصدر السابق، ص 64. فرانك ج. سولوواي يطلق اسم «خرافة بيو وراثية» على التصور الفرويدي لنزوة الموت: «فرويد، بيولوجي الفكر»، المصدر السابق ص 390.

458 سوف يضع نظرية لهذا المحور بعد عامين، انظر سيغموند فرويد، «الأنا والهو» (1923)، في OCF.P، الجزء السادس عشر، المصدر

السابق، ص 255 - 303.

459 سيغموند فرويد، «تفكيك الشخصية النفسية»، في «محاضرات جديدة كمدخل إلى التحليل النفسي» (1933)، باريس، غاليمار، 1984، ص 110، وOCF.P، الجزء التاسع عشر، المصدر السابق، تحت عنوان «تكملة جديدة لدروس المدخل إلى التحليل النفسي»، باريس، PUF، 1995. حول مختلف الترجمات لهذه القطعة لا سيما ترجمة لاكان، انظر جاك لاكان، «الشأن الفرويدي، أو معنى الرجوع إلى فرويد في التحليل النفسي»، في «كتابات»، باريس، سوي، 1966. وإليزابيث رودينِسكو، HPF - JL، المصدر السابق.

460 فرانسوا روكيه، «نيتشه وفرويد. الرابط بين القسوة الدموية، والشعور بالذنب، والمدنية»، أستاذ في جامعة فرانش/ كونتي، قسم الفلسفة، 2005 - 2006.

461 ناهيك بأنه يشير إلى عرفانه بالجميل حيال هنريخ غومبيرز، ابن تيودور وإليز (مريضته القديمة)، من أجل الإشارات التي يقوم باستخدامها. وهو يُحيل قولة أرستوفان إلى خرافة مماثلة، خارجة من الـ«أوبانيشاد». الترجمة الألمانية لـ«المأدبة» والموجودة في مكتبة فرويد يعود تاريخها إلى 1932.

462 «ما وراء مبدأ اللذة»، المصدر السابق، ص81.

463 وليام ماكدوغال، «التحليل النفسي وعلم النفس الاجتماعي»، لندن، ميتوين، 1936، ص 96.

464 إرنست جونز ، «حياة سيغموند فرويد وأعماله» الجزء الثالث: 1919 - 1939، المصدر السابق، ص. 304 - 326. انظر أيضًا فرانك ج. سولوواي، «فرويد، بيولوجي الفكر»، المصدر السابق ص 377.

465 رسالة سيغموند فرويد إلى فريتز ويتيلس بتاريخ 18 ديسيمبر/ك1 1923، ويستشهد به إرنست جونز ، «حياة سيغموند فرويد وأعماله»، الجزء الثالث، المصدر السابق ص 45.

466 سيغموند فرويد وماكس إيتنغون، «المراسلات»، المصدر السابق، رسالة فرويد بتاريخ 18 يوليه/تموز 1920، 230.

467 جاك ديريدا، «البطاقة البريدية»، المصدر السابق ص 378.

468 انظر إيرمياهو يوئيل، «سبينوزا وهراطقة آخرون»، باريس سوي، مجموعة الفحص الحر - ليبر إكزامان، 1991.

469 لا سيما جاك لا كان، « حلقة البحث»، الكتاب الحادي عشر: أربعة مفاهيم جوهرية في التحليل النفسي (1963 - 1964)، باريس، سوي،

1993. انظر أيضًا جان لابلانش، «الحياة والموت في التحليل النفسي»، باريس، فلاماريون، 1970. و«قاموس التحليل النفسي»، المصدر السابق. قُبل مفهوم نزوة الموت سريعًا جدًا في اليابان في 1928، عند إنشاء أول معهد للتحليل النفسي في طوكيو. وقد روى عالم النفس إيكيشي ياب، لدى مروره في فيينا في 1930، لفرويد بأن اليابانيين كانت فكرةُ توجُّه الحياة نحو الموت تشكل جزءً لا يتجزأ من تعاليم البوذية الكلاسيكية. انظر «قاموس التحليل النفسي»، المصدر السابق.

470 سيغموند فرويد وساندور فيرينتزي، «المراسلات» الجزء الثالث: 1920 - 1933، المصدر السابق، رسالة بتاريخ 8 مايو/ أيار 1921، ص61.

471 سيغموند فرويد، «علم نفس الجماهير وتحليل الأنا» (1921)، في «دراسات حول التحليل النفسي»، في باريس، مكتبة بايو الصغيرة، 1981، ص 117 - 205. لقد اخترتُ هنا ترجمة جان لابلانش وجان - بيرتران بونتالي، كما الحال بما يتعلق مع «ما وراء مبدأ اللذة». لكن يجب علينا أيضًا الرجوع إلى ترجمة OCF.P، الجزء السادس عشر، المصدر السابق، ص 1 - 85، تحت هذا العنوان: «علم نفس الجماعات وتحليل الأنا». يعلق فرويد على نص لوبون في الترجمة الألمانية التي قام بها رودولف إيسلر، حيث الجمهور تُرجمت بكلمة جماعة - تكتل جماعي -. في النص في OCF.P، يورد المترجمون في الحاشية المقاطع الفرنسية للنص الأصلي عند لو بون ويترجمون من الألمانية نحو الفرنسية النص المستخدم من طرف فرويد، غوستاف لوبون، «علم نفس الجماهير» (1895)، باريس، ألكان، 1905. استمر هذا الكتاب، على مدى عقود، وبعد وفاة مؤلفه بكثير، في 1931، عن عمر تسعين عامًا، يلاقي نجاحًا كبيرًا في مكتبات جميع الأزمنة، ونال الإعجاب على حدٍ سواء عند أعداء التنوير، المبغضين للثورة في 1789، وعند الديكتاتورين: موسوليني وهتلر.

472 حول دور غوستاف لو بون في تاريخ التحليل النفسي في فرنسا، انظر HPF - JL، المصدر السابق، ص 277 - 278. ماري بونابرت خصّته بإعجاب شديد حتى أنها قارنته مع فرويد.

473 وليم ماكد وغال، «The Group Mind» (1920)، لندن، آيير للدعاية المشتركة، 1973. يستشهد فرويد بالطبعة الأصلية باللغة الإنجليزية. وتعبير «Group Mind» تعني عقلية الجماعة.

474 ماكدوغال يرجع هنا إلى ثلاثة كتاب أمريكيين، من المناضلين في سبيل حقوق السود: فريدريك دوغلاس (1818 - 1895)، بوكر ت. واشنطن (1856 - 1915) و. أ. ب. دو بوا (1868 - 1963).

475 في فرنسا خاصة، استخدمه جورج باتاي استخدامًا كبيرًا حين أسّس، مع رينيه ألليندي، وأدريان بوريل، وبول شيف وآخرون «جمعية التحليل النفسي الجماعي». انظر JL - HPF، المصدر السابق، ص. 615 - 647و1653 - 1677. حول إعادة الصياغة على يد لا كان انظر JL - HPF، المصدر السابق، ص. 1718 - 1719. ونشير إلى أن الياس كانيتي، الذي كان قد درس، هو أيضًا، مسألة انبثاق اللاعقلاني في ظواهر التكتلات الجماعية، لم ينوّه أبدًا إلى كتاب فرويد علمًا بأنه على اطلاعٍ تامٍ بوجوده، انظر «التكتل الجماعي والقدرة»، المصدر السابق.

476 ميشيل بلون « ضمن الإيحاء وأبعد منه» Frenesie، العدد 8، 1989، ص96.

477 نجد على الأنترنت مقتطفات من هذه الأفلام وكذلك حديثًا لإدوار برناي حول هذا الموضوع قبل وفاته في 1922و1931، وسوف يكتب فرويد أكثر من مرّة إلى ابن أخته ذاك، لأنه كان مشرفًا على حقوق فرويد كمؤلف في الولايات المتحدة.LoC، الصندوق1، البطاقة 1 - 5.

478 سيغموند فرويد، «المراسلات»، المصدر السابق، ص 364.

479 فلاديمير غرانوف وجان - ميشيل راي، «الغيبيّ، موضوع التفكير الفرويدي»، باريس، 1983 ،PUF.

480 سيغموند فرويد، «التحليل النفسي والتخاطر» (1921)، في OCF.P، الجزء السادس عشر، المصدر السابق، 99 - 119؛ «الحلم والتخاطر»، (1992، في OCF.P، الجزء السادس عشر، المصدر السابق، ص. 119 - 145؛ «الحلم والسحر»، محاضرات جديدة كمدخل إلى التحليل النفسي، المصدر السابق OCF.P، الجزء التاسع عشر، ص. 83 - 269، تحت عنوان «تتمة جديدة لدروس المدخل إلى التحليل النفسي».

481 إرنست جونز ، «حياة فرويد وأعماله»، الجزء الثالث، المصدر السابق، ص 447.

482 وضّحتُ أيضًا في JL - HPF، أن الأمر يتعلّق بأحد العوارض القديمة في تاريخ التحليل النفسي.

483 جاك دريدا، «التخاطر» (1981)، في «النفس، ابتكار الآخر»، باريس، غاليليو، 1987، ص 237 -

الفصل الثاني
العائلات، الكلاب، المواد

العائلة، كما كان يقول فرويد، سعادة عظيمة، لكنها أيضًا بداية هموم لا نهاية لها. وفي حقيقة الأمر، كان الهربروفسور يعبّر عن تعلّق كبير بالروح العائلية، وبالعائلات عمومًا والمشاكل العائلية، وهذا ما جعله يرسّخ جذور مذهبه في الفكرة القائلة بأن البوتقة العائلية إسنادٌ أنطولوجي يدعم مفهوم التحليل النفسي. إن عالمه الاجتماعي ومحيطه النفسي عامرٌ بالآباء، والأمهات، والأخوات، والأخوة، وأبناءُ الأخ والأخت، وأبناء الخال والعمّ، المصابين بالأمراض، وكلٌّ منهم يحتلُّ مكان الآخر، فجميعهم يمكن أن يكون بحاجة لطلب التداوي بالتحليل النفسي، ونظرًا لأن قضيّة الجنس والأمور الحميمة كانت الأكثر رسوخًا في العالم الغربي، في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. كانت العائلة، في نظر فرويد، النمط الأمثل بامتياز لمطلق تنظيم اجتماعي. إذ تكمن فيها قدرة الحياة والتناقل.

كان فرويد في الوقت ذاته ليبراليًا ومحافظًا، ولهذا كان قد بنى تفكيره وحركته انطلاقًا من نمط الجماعة التي لا تدين بأيّ شيء لا للدولة ولا لمؤسساتها. وهنا يكمن التناقض الأكبر: فكلّما ازدادت الحركة الفرويدية انتشارًا على المستوى العالمي، من دون وطنٍ أو حدود، كان النمط العائلي الجماعي الذي تقوم عليه يتهاوى كصيغة بالية، كان جونز واعيًا لهذا الأمر، مثلما كان فرويد يعاني منه ويتألّم، وها هو ينطوي مع ألمه على قيم ذلك «التضامن العائلي» الذي جعله قيد الحركة في مذهبه، دون أن يتردّد بتشويشها من خلال تحويلها إلى نظرية، مع المحافظة عليها ضمن طابعها الحميم، وبهذا كان يحيط نفسه بكل ما يتيح له حماية نفسه على أفضل وجه من ضروب العنف الماثلة في الزمن الحاضر: أفراد العائلة، والحيوانات، المواد التي تمثّل مجموعات منتقاة، والاستقصاء الأركيولوجي للنفس البشرية من خلال تجربة الديوان.

وإذا كان أقارب فرويد قد تجمّعوا وفق مبدأ الزيجات المرتّبة، وإذا كانت آماليا قد أنجبت ثمانية أطفال في عشرة أعوام، فإن فرويد، على العكس، كان قد تزوّج عن حبّ، المرأة التي وقع اختياره عليها، وقد أنجبت له مارتا ستة أطفال في ثمانية أعوام. من بعدها توقّف الزوجان باختيارهما عن الإنجاب، ومن بين أخوات فرويد الخمس، أربع بينهن لا غير رُزقن بأطفال. خمسة لآنّا برناي - جوديث، لوسيا، إدوار، هيلا، مارتا - ثلاثة منهم وُلدوا في فيينا واثنان في نيويورك؛ اثنان لروزا غراف -

هيرمان وكاسيلي -، وقد وُلدا في فيينا؛ خمس لماريا فرويد - مارغريت، ليلي، مارتا، تيودور، جورغ - بينهم واحد وُلد في روزنو، واثنان في فيينا، واثنان في برلين؛ ابنة وحيدة لبولا وينترنيتز - روز بياتريس -، وُلدت في نيويورك، وتزوجت الشاعر إرنست والدنجر[484]. وأمّا ألكساندر، الذي تزوج متأخرًا من صوفي شريبر، فرُزق بابنٍ وحيد - هاري - وُلد في فيينا[485].

وهكذا لم يكن هناك كبير اختلاف بين وضعية والديّ فرويد - آماليا وجاكوب - ووضعية أبنائهما، فمع وجود الفترة الفاصلة بينهما بعمر جيلٍ، ومع كثرة النساء العازبات أو الأرامل، لم تلجأ أية امرأة إلى منع الحمل أو الإجهاض. كما لم تتمكّن أية منهنّ من متابعة دراستها، باستثناء واحدة - آنّا برناي - التي نجحت بالإقامة في بلدٍ أجنبي بزواجها من إيلي برناي، شقيق مارتا. ومن بين أبناء خؤولة وعمومة سيغموند فرويد، فقدَ واحدٌ لا غير - هيرمان غراف - حياته أثناء الحرب العالمية[486]؛ وانتحر آخران - كاسيلي غراف وتوم (مارتا) سيدمان - فرويد؛ ثمّة آخر - تيودور فرويد - لقي حتفه غرقًا. وقد تزوّج جميع أفراد هذه الجماعة الفييناوية الفقيرة من يهود أو يهوديات، علمًا بأنهم لم يكونوا من المتمسّكين باليهودية ذات السطوة الأرثوذكسية، حتى وإن كان نفرٌ بينهم يهتمّون باحترام الشعائر الدينية.

كان فرويد، على نقيض مارتا، يحبّذ الزيجات المختلطة، غير أن الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه لم يكن جاهزًا لمثل هذا الأمر، وحين لاحظ أن جميع أبنائه اختاروا، عفويًا، شريك أو شريكة العمر من اليهود، علمًا أنهم لم يكونوا مجبرين على ذلك، فقد استنتج بأن الحياة العائلية بين اليهود أكثر حميمية، وأشدّ دفئًا، وأن التضامن أقوى وأمتن[487]. وهو شخصيًا كان قد نشأ في وسط جماعة تنبذ الزيجات المختلطة.

من بين أبناء فرويد الستّة، الذين عرفوا حربين دمويتين، أربعة لا غير رُزقوا بأطفال، بينما واحدة ظلّت على عزوبيتها (آنّا) وأخرى تُوفيت بالمرض (صوفي)، وعلى عكس الأجداد إنمّا مثل الوالدَين، اختار أبناء فرويد شريك العمر بحريّة: ومن اليهود جميعهم. لكنّ إنجابهم للأطفال كان أقلّ، بفضل وسائل منع الحمل، وأصبحوا جميعًا مواطنين إنجليز بعد فرارهم من النازية. رُزق مارتن طفلان - أنطون والتر وصوفي -، وأوليفر، ابنة وحيدة - إيفا -، وإرنست، ثلاثة - ستيفان، لوسيان، كليمنس -، وصوفي هالبرشتات اثنان - إرنستل وهينز[488]. على عكس أمهنّ وخالاتهنّ، درست بنات فرويد الثلاث قليلًا، حتى مع عدم وجود تعليم ابتدائي إلزامي للفتيات، في فيينا، كما لا يوجد أي أفق للتعيين في وظائف[489]. كان همّ

فرويد تأمين زيجات جيدة لهن وأن يزرع فيهنّ الفكرة بأنهنّ وُلدنّ ليكنّ أمهات، وللقيام بالأعمال المنزلية. غير أنه لم يكن يلتزم بالمبدأ اليهودي حول الزيجات المرتَّبة، حيث الأب لا يحافظ على ابنته إلّا كي يسلّمها لرجل. وبما أن فرويد كان على علاقة طيّبة مع بناته، فقد فهم بأنهن يتحرّزن من صورة النساء اللواتي أصبحن من مريداته، ناهيك بأنهن لم يكنّ يطلبن سوى القدر الذي يناسبهنّ.

كان فرويد يحبّ بعمق، ليس زوجته، وشقيقه، وأخت زوجته وحسب، وإنّما أيضًا أبناءه وأحفاده. وكان على الدوام كبير الأريحيّة مع أبنائه؛ وكذلك مع أبناء الأخوة والأخوات، كلّما تيسّرت الأحوال. كما كان موضع إعجاب لا حدود له من جميع أفراد عائلته، فكلُّهم يدركون ما هو عليه من عبقرية.

عاش أبناء فرويد حربين عالميتين وحافظوا على وحدتهم في ذلك الجوّ من التقاتل، على الرغم من النزاعات التي لا نهاية لها، وكانوا جميعًا يعرفون مذهبه معرفةً جيّدة، كما حال شقيقه ألكسندر، ناهيك بأن أبناء فرويد الثلاثة كان لهم دورهم في حركة التحليل النفسي، كما أصبحت ابنته الصغيرة من مريداته.

في البيت المؤلَّف من طابقين، والمستأجر في برغاس، كان فرويد يعيش حياة بطرك على الطريقة القديمة، فهو قد أراد «تشكيل» مارتا كي تصبح منسجمة انسجامًا مطلقًا مع صورة الزوجة كما كان يحلم بها. كانت تقاومه، لكن دون أن تخرج أبدًا عن الموقف المسالم، وحين يسعى إلى التشاجر معها، تكتفي بالانطواء على نفسها. وهذا ما جعله يلومها، لأنها تكبت عدوانيتها رغم تفانيها حياله بما هو أشبه ما يكون بالعبادة.

كانت مارتا مسؤولة عن تربية الأطفال، وهي المسيطرة على أفراد العائلة وعلى اثنين وأحيانًا ثلاثة من الخدم، لكنها لا تتدخل في الأمور الثقافية لزوجها علمًا أنه كان يجمع تلامذته في مقرّ سكنه، وهكذا، عندما يريد أحد القاطنين في برغاس تغيير غرفته أو القيام بأي أمرٍ آخر يخصّ تنظيم الحجرات، كان ملزمًا بالتوجّه إليها.

أمّا فرويد فكان مهتمًا بتعليم أطفاله، وهو متألم لأنه منفصل عنهم، لا سيّما حين يغادرون المنزل عند الزواج، وباكرًا جدًا، ألزمهم بالاطلاع، عن طريق المطالعات، وليس عن طريقه، على حقيقة الحياة الجنسية.

ومينا، التي كان لقبها «الزوجة الثانية» - حتى قبل أن يروّج يونغ الإشاعة عن وجود علاقة جسدية لها مع فرويد[490] -، تشغل غرفة نوم ملاصقة لغرفة نوم شقيقتها وصهرها، كانت ترافق بكل طيب خاطر عزيزها

الغالي «سيجي» في أسفاره في شهر سبتمبر/أيلول، ولاكثر من مرّة شعر هذا الأخير بـ«الحرج»؛ لأنه يُشاهَد وإلى جانبه امرأة ليست زوجته، وأثناء إحدى تلك الأسفار، في 1900، باع كتبًا قديمة عديدة من مجموعة كتبه المختارة كي يُتاح لمينا التوجّه إلى ميرانو من أجل معالجة التهاب قصبات[491]. وكان في هذا ما يكفي ليتخيّل بعضهم قصة مشبوهة عن إجهاض سرّي، وحيث إنّ مينا، من بعد ذلك عانت من آلام في أسفل البطن، أصبح بإمكان الجميع فعليًا التفكير بأن مشاكل الالتهاب الرئوي كانت ملفّقة. وهذا ما جعل الإشاعة تتفاقم، لا سيّما بعد نشر «دراسات ثلاث». وبعد وفاة فرويد بأربعين عامًا، تحوّلت الإشاعة الكبرى إلى موضوع بحث عند المؤرّخين والدارسين[492].

كانت مينا، كما مارتا المتواطئة معها في جميع الأمور، قد احتلت موقعًا بارزًا، و، مع مرور السنين، وتخلت عن اهتمامها بأنوثتها، وحين ترد على التليفون تقول دون حرج «Frau Professor Freud» - امرأة البروفسور فرويد -، متهكمةً بقوة على الإشاعات، كانت أبعد ما يكون عن صفة «الزوجة الثانية» فعليًا، ولهذا كانت تتصرف بالأحرى كما لو كانت زميلة للأطفال ولشقيقتها ولصهرها: وهو موقف مفهوم تمامًا بالنظر إلى عدم اهتمامها الكبير باحتلال موقع الأم أو الزوجة مع كائنٍ من كان.

غداة الحرب العالمية الكبرى كان فرويد، الذي أصبح مشهورًا، مكروهًا في الوقت نفسه في جميع أرجاء العالم باسم الانتقاص من مختلف أشكاله لمفهوم «الجنسانية العامة». كانوا في فيينا يتهمونه بجميع المخازي: فهو شهواني، سفاحي، مخرب للأخلاق العائلية[493]. وفي فرنسا، يعامَل على أنه «عالم ألماني قذر»، أي أنه متهتك تحرقه غريزة ألمانية - توتونية[494]. وها هو شارل بلونديل يصف مذهبه بأنه «إفحاش رُفع إلى مصاف العلم». كانت تلك الصورة المقدمة عن فرويد، من خلال تلك الهجمات، تتعارض تعارضًا جذريًا مع عاداته وآرائه، كانوا يتناسون بأن الهربروفسور هو مع نفسه من أتباع التعفف الجنسي، مثلما هو عُصابي بالتسامي، وحيث أنهم لم يكونوا يعرفون عنه أي علاقة خارج بيت الزوجية، كان من الضروري أن يلفقوا عنه حياة جنسية «حقيقية»، ذات توجه نحو خرق الأعراف، وذلك من أجل تعليل الطابع المنفر لتصوره عن الجنسانية.

بهذا الصدد، إن نمط الزواج الداخلي الذي تبناه، والاستخدام المضلّل الذي قام به حول عقدة أوديب الشهيرة، المعممة في جميع ما كتب، أتاحت المجال لجميع أنواع الرسوم الكاريكاتورية، وهذا كارل كروس يتلذذ بالتأكيد بأعلى صوت وأقوى نبرة بأن التحليل النفسي هو مرض

للفكر في الوقت الذي يعتبر نفسه علاجًا له. المجادل اللامع بحق، وقع ضحية التعصب الأعمى للحلقة الفرويدية الأولى حين صرَّح ويتيلز عنه بأنه مصاب بإحباط أوديبي[495].

في سيرته الرائعة عن نفسه، يروي إلياس كانيتي كيف أن تقديس الأوديبية، في فيينا، على امتداد سنوات 1920، أصبح مؤذيًا بحيث أساء إلى أفضل جانب تجديدي في المذهب الفرويدي. وبمقدار دفاع كانيتي عن فكرة تأويل ألعاب الكلمات والهفوات، كان يندد بتقليص تراجيديا سوفوكلس إلى ما كان ينظر إليه على أنه سيكولوجيا «الثرثرة العامة»: «كل فرد، حتى الأبناء الموتى، هكذا كتب في عام 1980، يلتقي بأوديبه، وفي النهاية، وجد المجتمع بأكمله نفسه مذنبًا هو الآخر، فنحن نحمل بذرة عشق الأم، وقتل الأب، وتحيط بنا غيوم الاسم الأسطوري، للملوك السريين في طيبة [...]. أنا أعلم من هو أوديب، وقد قرأت سوفوكلس، وأنا لا أقبل تجريدي من ذلك القدر الوحشي. لحظة وصولي إلى فيينا، كان الأمر قد أصبح موضوع ثرثرة عامة للجميع لا معنى لها، من دون استثناء أي شخص لنفسه في هذه الثرثرة، فحتى أكثر العامة تهكمًا راح يعتبر أن أوديب هو ما يليق به[496]».

في تلك الحقبة، كان فرويد يرعى شؤون عائلة موسعة: آماليا، آنا، مينا، أبنائه وعائلاتهم، وغالبًا بجيوب فارغة، وأربع شقيقات من فترة لأخرى، مع الخدم وبعض تلامذته ممن لم يكن لديهم الكثير من المرضى. ومرات عديدة توهم بأنه يزوج هذه أو تلك من بناته إلى أحد تلامذته. وفي الحقيقة، إنما كان يريد الإمساك بهم داخل البوتقة العائلية، وهكذا كان ينظر إلى أصهاره وزوجات أبنائه وكأنهم أبناؤه بالذات.

كانت ماتيلد، الابنة البكر بين أخوتها، ذات صحة ضعيفة، وأوشكت على الموت أكثر من مرة، وتبعيات عملية الزائدة الدودية التي أجراها الطبيب الجراح الذي أجرى عملية إيما إكستين، عطلت عليها أن تكون أمًا، وكان فرويد قد خطر له تزويجها إلى فيرينتزي، لكن ها هي في عام 2009 تتزوج من رجل الكنيس روبير هوليتشر، وهو تاجر أقمشة قليل الموهبة في مجال الأعمال مثل أنه دائم التشاؤم، وكان فرويد يصفه بأنه «رقيق وشهم». كان الزوجان يعيشان في شقة قريبة من برغاس، وهو ما يتيح لماتيلد زيارة والديها يوميًا. هي دائمًا أنيقة جدًا وترسم هيئة فيها شيء من البرودة، وهي متفانية مع أبناء عائلتها وتشاطر أمها وخالتها حبّ نسج الصوف. إنها ذات موهبة بالكتابة، وهذا ما جعلها تربح القليل من المال، وأتاح لها ألّا تكون تابعة كليًا لعائلتها.

أمّا صوفي أجمل بنات العائلة، حتى أنها تحرّك الغيرة عند آنا، فكانت أقل اهتمامًا بكثير من شقيقتيها بالأمور الثقافية. هي تحب الرقص، والسهرات في الأوبرا، والحياة في المجتمعات الراقية ومع الشباب، ولذلك لم تكن تشعر بالراحة وسط تلك العائلة المتزمتة أكثر من اللازم. كانت عاشقة ومعشوقة بالمقابل لزميل أحد أشقائها في المدرسة والذي سوف يكون مستقبلًا من تلامذة أبيها، لكنها اضطرت للتخلي عنه أمام معارضة والديها، اللذين اعتبراه صغير السن جدًا ودون موردٍ للعيش. وها هي في هامبورغ، بعيدًا عن البيت العائلي، تتعرف على ماكس هالبرشتات، المصوّر الذي ينتسب من طرف بعيد بعائلة برناي، فتزوجته في فيينا، وكان الحفل في الكنيس. كان متدينًا. وقد تبناه فرويد كابنٍ ومنحه حصرية المتاجرة ببورتريهاته الرسمية نيابة عنه. على عكس شقيقه رودولف، بقي ماكس على قيد الحياة بعد الحرب العالمية، لكن كانت لديه إعاقة ناتجة عن عصاب صدمة مع وجود صداع شديد وهبوط في الهمة. بعد تسريحه من الجيش بفترة طويلة، وقع ضحية أزمة مالية أجبرته، رغم وجود موهبة حقيقية عنده، على التداوي في عيادة والد زوجته الذي كان يدغدغ مشاعره ويرجوه أن يكون واثقًا بالمستقبل.

رفضت صوفي أن يكون مصيرها كمصير أمها وجدتها. ولتخوفها من أن تكون حُبلى للمرة الثالثة، بعد ولادة ابنيها، طلبت النصح من فرويد الذي أشار عليها باللجوء إلى وسائل منع الحمل وذلك بوضع «لولب»[497]. وبمقدار ما كان قد رفض استخدام الواقي الذكري شخصيًا، أصبح الآن مؤيدًا، إن لم يكن للإجهاض، فعلى الأقل لتنظيم الولادات كما هو مطلوب في تلك الحقبة من طرف الحركات النسائية، علمًا بأن الأمم الأوروبية كانت تتبنى القوانين الصارمة ضد تعطيل الحمل[498]. وحين حملت صوفي مجددًا، عن طريق الخطأ، شجعها فرويد على تقبل هذه الولادة. كان يظن، وهو مخطئ بظنه ذاك، بأن رفضها للأمومة ناتج عن الصعوبات المالية التي يعاني منها ماكس.

في 1920، كانت صوفي قد أصيبت بضعف نتيجةً للحمل، وتعرضت إلى هجمة كريب فماتت خلال أيام قليلة، رغم جهود آرثر ليبمان، الطبيب الداخلي في مستشفى هامبورغ العام، حيث أنه لم يتمكن من إنقاذها. وقد اعترف له فرويد، في رسالة، بعد أن أنهكه الألم والشعور بالذنب، بأنه لم يحسن تقدير مدى ما سبب ذلك الحمل غير المرغوب به من تغيير في الحالة النفسية والصحية لابنته: «يبدو لي وكأن قدر ابنتي الشقي يحمل إنذارًا لا نأخذه أغلب الأحيان على محمل الجد في وسطنا, إذ في مواجهة

قانون لا إنساني ومجرد من كل تعاطف، قانون يفرض حتى على الأم التي لا تريد متابعة الحمل، يجب على الطبيب دون مواربة أن يقوم بواجب تعليم الطرق الصحيحة وغير المؤذية الكفيلة بمنع الحمل عندما يكون غير مرغوب به - داخل إطار الحياة الزوجية»[499].

وها هي ماتيلد كي تخفف عن ماكس حزنه، تأخذ على عاتقها هينز (هينرل) كما اهتمت آنا بإرنستل الذي أصبح طفلها الأول «بالتبني» ومن بعد ذلك الذي يقوم بتحليلها. فهما معًا أصبحا على هذه الصورة والدَيْ ابنَي شقيقتهما. وحين توفي هينز، في 19 يونيه/حزيران 1923، بسبب بثور متدرنة انتشرت في جميع أنحاء جسمه، أصبحت ماتيلد من جديد محرومة ممّا كانت ترغب به أشد رغبة. وهكذا لم تتوقف بعد ذلك عن الاهتمام بشؤون أبناء وبنات أخواتها وإخوتها. أما ما كان بشأن فرويد، الذي أصابه هذا الفقد باليأس، لا سيما أنه حدث بعد ثلاثة أشهر من اكتشاف السرطان في جسمه[500]، فقد استمر على محبته لماكس وعلى مساعدته ماليًا، حتى عندما اتخذ هذا الأخير زوجة ثانية: «من كان سعيدًا في الزواج لمرة واحدة يمكنه بسهولة أن يكون سعيدًا من جديد»[501].

كان فرويد على الدوام مقتنعًا بأن السعادة العائلية صورة عن الحلقة الكبرى للحياة والموت، ولاستبدال موضوع مرغوب بموضوعٍ آخر، شرط ألا يكون النزوع إلى التكرار من طبيعة مميتة. وهكذا كان تفكيره لا يحيد عن أن فقدان شخص ما يُستعاض عنه بآخر، لا يعني بأن هذا الآخر سوف لا يكون محبوبًا إلّا لأنه حل محل الذي كان محبوبًا قبله. وتلك هي الفلسفة الفرويدية حول السعادة.

لم يكن أحد من أبناء فرويد الثلاثة يشبهه كما لم يكونوا متشابهين فيما بينهم. غير أنهم شاركوا جميعهم بانطلاقة حركة التحليل النفسي وبحياة أتباع أبيهم. كان مارتن يحمل تقديرًا كبيرًا لشخصه بالذات. فهو يبارز بالسيف ويقاتل قتالًا ثنائيًا، ويكتب قصائد شعرية، لكنه لم يكن تلميذًا جيدًا، كما أنه كثير العلاقات مع النساء. لقد تطوع في 1914 في الجيش، بعد دراسة للحقوق، وهكذا فقد اجتاز فترة الحرب باعتبارها أسعد فترات حياته. وفي المعارك، برهن عن وقاحة وروح تهكمية، كما عرف كيف يجابه الخطر: فهو لا يتوافر عنده أنا عليا ولا يوجد لديه لا شعور، كما كانوا يقولون عنه في العائلة. وحين تزوج من إيرنستين (إيستي) دروكر، الجميلة والأنيقة، بنت الوسط الميسور، وجدها فرويد «جميلة جدًا أكثر من اللازم» بحيث أنها قد لا تستطيع أن تكون جزءًا من أفراد العائلة. وحقيقة الأمر، كان حكمه عليها أنها «جارحة بلؤم» ولا يمكن

لها أن تكون قادرة إلّا قليلًا على تحمل شطحات ابنه. وحسب القاعدة التي كان قد فرضها على نفسه شخصيًا، فقد أجبرها على أن تعطي مولودها الأول اسم أنطون، كذكرى عن فون فروند، ولابنتها اسم صوفي[502]. كانت إيستي تعمل، وترفض الحمل المتكرر مع معاناتها الكبيرة من وضعها كامرأة تحت الرعاية وأنها وقعت ضحية الغش. على الرغم من دعم والده ووالد زوجته، سرعان ما تعرّض مارتن لمشاكل مالية. وفوق هذا، كان على شجار مع زوجته إلى ان انتهى به الأمر إلى الانفصال عنها. خلال سنوات عديدة، إلى حين وقوع النفي في عام 1938، اهتم بإدارة شؤون الـVerlag.

أما أوليفر، الطفل المفضل عند أمه، فلم يتمكن أبدًا من القيام بمهنة حقيقية، علمًا بأن الأزمة الاقتصادية كانت قد جاءت إثر الحرب. حين استقر به المقام في برلين، بعد قطيعة وطلاق، طلب من إيتنغون أن يقوم بتحليله. ولشعور هذا الأخير بأنه جد قريب من العائلة، فقد رفض، وهكذا فإن فرانز ألكسندر، الهنغاري والمواطن الأمريكي لاحقًا، هو من قبل تلك المهمة الثقيلة. وأصرّ فرويد على دفع تكاليف العلاج. ثم إن أوليفر تزوج هيني فوش، الفنانة الرسامة التي رُزق منها بابنة، إيفا. كان فرويد يحب ذلك الابن العصابي، الهش، الغريب، والذي كان يعاني من تنافس رهيب مع شقيقه الأصغر، إرنست، الأكثر تألقًا منه. وهذا الأخير، بعد حصوله على دبلوم في هندسة العمارة من ميونخ، وقع في غرام لوسي براش، وهي امرأة فاتنة وكئيبة، بعينين زرقاوين وشعر أشقر، وهي من عائلة مصرفيين أغنياء. جرى الاحتفال بالزواج في برلين بتاريخ 18 مايو/أيار 1920 بحضور أبراهام وإيتنغون اللذين، كما إرنست، يؤكدان على تعاطفهما مع الحركة الصهيونية. عرفت لوسي كيف تسحر فرويد، وأجبر الاثنان إرنست على الإقامة لمدة ثلاثة أشهر في مصح أروزا كي يداوي الدمامل التي أصيب بها أثناء الحرب.

كان إرنست يحب زوجته حتى العبادة وها هو يسمي نفسه إرنست ل. فرويد مضيفًا إلى اسمه الأول حرف «ل» (لوسي) كي يعبر عن مدى الارتباط الكبير بينه وبينها. «قلبي الملتهب لا يعرف الراحة»، هكذا كتبت، وأيضًا: «لا أستطيع أن أعيش كي أحب نفسي لا غير». وما بين 1921و1924، أنجبت ثلاثة أبناء - ستيفان غابرييل، لوسيان ميكائيل، كليمون رافاييل - الذين أطلق عليهم لقب «كبار الملائكة»، ثم إنها تفانت في سبيل العائلة، بينما تألق إرنست تألقًا استثنائيًا في عمله بفضل حركة التحليل النفسي. لقد عمل كمهندس عمارة لصالح إيتنغون، وأبراهام، وكارين هورني، ورينيه سبيتز، وساندور رادوا، وهانز لامبل، وفي فترة

متأخرة، ميلاني كلين. بالإضافة إلى أنه أخذ على عاتقه ترتيب المستوصف الحكومي الشهير ثم مصح تيجل، الذي أسسه إرنست سيميل. لقد لجأ إلى اختيارات حديثة، منقطعًا بذلك عن الجماليات الخانقة في داخل بيوت فيينا، والتي كانت موضع تقدير كبير عند والده: سجادات مكدّسة، بُسُط ثقيلة، واجهات مليئة، جدران مثقلة بلوحات، موبيليا مغطاة بأشياء عديدة. لم يكن فرويد يهتم كثيرًا بذلك الجانب من موهبة ابنه، الذي، بعد المنفى في لندن رتب رغم ذلك البيت العائلي الأخير بالأسلوب الخالص لفيينا أيام زمان، علمًا بأنه لم يحمل أبدًا أي حنين إليها، إنه ألماني أكثر ممّا هو النمساوي، وإنجليزي أكثر مما هو ألماني، ولذلك كان على وشك أن يهاجر إلى فلسطين بناءً على طلب حاييم وايزمان الذي كان يريد أن يعهد إليه ببناء منزله[503].

كان فرويد يقول دائمًا أن ابنته الأخيرة ولدت مع ولادة التحليل النفسي. وحيث أنه جعل من ابتكاره شبيهًا لرواية عائلية عامرة بأمراء كئيبين وبأميرات لا عمل لهن، لن نشعر بالدهشة إذا ما روت هذه الأخيرة لوالدها في 1915 حلمًا عاد به إلى تاريخهما المشترك: «رأيت مؤخرًا حلمًا، هكذا قالت له، بأنك ملك وأنا أميرة، وأن هناك من يريد تحريض كلٌ منّا على الآخر بدسائس سياسية».

إن فرويد، حبًا بابنته آنا تحديدًا، أنشأ في العائلة حلقة جديدة، حلقة الكلاب: «كلبانا، كما سوف يقول ذات يوم، وولف والكلبة الصينية اللطيفة لون - يو، يمثلان النمو الأخير في تزايد أفراد عائلتنا[504]». وفي 1914، كان قد أرسل إلى ابنته بطاقة بريدية من بريوني، يظهر فيها شمبانزي يلبس ثيابًا وفي طريقه إلى ارتداء قبعة أمام مرآة: «الآنسة، قرد ذكي جدًا يتزين أمام المرآة[505]». وبينما كانت آنا تحب الذكور، كان فرويد يميل ميلًا خاصًا إلى صحبة الكلبات الصينية ذات الفراء من نوع الشوشو، وهي حيوانات ذات وبر طويل تشبه أسودًا بأحجام صغيرة. وهو اعتبارًا من 1920 بدأ بالتعبير عن تعلّقٍ كبير بها، كما تشهد على ذلك المبادلات بينه وبين امرأتين تعشقان هذا النوع مثله: هيلدا دوليتل، وأكثر منها ماري بونابرت[506]. كان يفضل الشقراوات على السوداوات ويعتبرها مخلوقات استثنائية ليس للمدنية (Kultur) عليها أي تأثير. ونتيجةً لهذا الأمر، كما يقول، يمكننا أن نحبها حبًا كاملًا حيث أنها تجسد «وجودًا كاملًا بحدّ ذاته»، مجردًا من أي تناقض، حياةً لا إنسانية إذن، لكنها تذكّر الإنسان بشيءٍ من حالة سابقة له. ألم تكن الكلاب جاهزة، في كلّ لحظة، لتقيم عيدًا لسادتها ولتعضّ أعداءهم؟ ولم يكن فرويد ليتردد بأن يساوي حبه لذلك النوع من الكلاب

بحبه للحنِ من ألحان «دون جيوفاني» من تلحين موتسارت[507].

علمًا بأن فرويد لم يكن في لحظة من اللحظات ليتشكك بإسناد الوظيفة الرمزية إلى البشر لا غير، على العكس من هذا الأمر تمامًا فهو بكونه داروينيًا ولأنه عزف اكتشافه بأنه الجرح النرجسي الثالث الذي أصاب الإنسان، كان فرويد يؤمن بوجود حدّ فاصل ما بين الصفة الإنسانية والصفة الحيوانية: حدّ اللغة والثقافة. ولهذا السبب كان يشير إلى أن المدنية ليس لها أي تأثير على الحيوانية، على تلك «الحياة اللاإنسانية»، اللذيذة، الخالية من الكراهية، ويمكننا أن نضيف، استنادًا إلى هذا السبب بالذات، بأن الشذوذ والاستمتاع بالشر لا وجود لهما في مملكة الحيوان[508].

للحق والحقيقة، حين كان فرويد يشير إلى أفراد العائلة، كان يضع على الصعيد نفسه الـ«قاطنين البشر» و«دولة الكلاب»، حيث الإناث، وكان يطلق عليهنّ «السيدات»، يشكلن الأكثرية: «يوفي جالسة، كما هي رمز، وشعار... ويوليها البروفسور اهتمامًا أكبر من اهتمامه بقصتي... قال لي فرويد بأن يوفي أنجبت جروًا أسود، مات أثناء الولادة، وكان سواده كسواد الشيطان، لأن زوجها كان أسود اللون... الآن، إذا جاءها جروان من لونٍ آخر، فإن أصحاب الأب سوف يحصلون على أحدهما، لكن إن لم تنجب سوى جرو واحد، سوف يظل من عائلة /فرويد[509]».

حين توفيت يوفي، ها هو أرنولد زفايغ، الذي كان يعرف شغف فرويد بالكلاب، كتب إليه هذه الكلمات: «كانت يوفي طفلة قادمة من بعيد، وأخلصت نحوك كما لو أنها ابنة حقيقية، بقلب أكثر حكمة من متوسط أبنائنا[510]».

إن فرويد، الذي عشق أثناء شبابه «حديث كلبين» لسرفانتس، كان يحب الطبيعة والحيوانات، لا سيّما التي يلتقي بها في حديقة فيلا بورخيز وسط التماثيل القديمة والأعمدة: الطواويس، الغزلان، طيور الثدرج. والطابع الحيواني كان حاضرًا من دون توقف في العلاقة التي يقيمها مع الحالات المرضية في عيادته، وفي أحلامه، وفي أحلام مرضاه، في إشارته إلى المجتمعات الأولى، في دراسته عن ليوناردو، وفي «الطوطم والتابو»: الجرذان الذئاب، الطيور، الخيول، العقبان، الوحوش الخرافية، العفاريت، آلهة مصر. كان تعلّقه بالكلاب، وخصوصًا بالكلبات، بالتالي - يجعله يستبعد القطط، التي يرى بأنها زائدة الأنوثة، زائدة النرجسية، زائدة البعد عن الروح الغيرية. وها هو بلؤم لا حدود له ينقضّ ذات يوم، دون وجه حق، على ميرا إيتنغون، زوجة تلميذه المتفاني: «أنا لا أقدرها، طبيعتها كطبيعة القط، وأنا لا أقدر القطط أيضًا. عندها إلى حدٍ كبير جانب من فتنة القطط

ولطافتها، لكنها لم تعد قطًا صغيرًا معشوقًا[511]».

غير أن فرويد في 1913، سحرته «قطة نرجسية» دخلت إلى مكتبه من النافذة المفتوحة قليلًا، ومن دون حتى أن تشغل نفسها بحضوره، استقر بها المقام على ديوانه، وسرعان ما طاب لها التطفل على الأغراض في مجموعته، كان فرويد مجبرًا على الاعتراف بأن هذه القطة لم تسبب أي ضرر للأشياء المكدسة في مكتبه، وبدأ يراقبها، يحبها، يطعمها، كان يراقب بسرور عينيها الخضراوين بنظرتهما المستقيمة والباردة، ولاحظ بأن خريرها هو تعبير عن نرجسية حقيقية. واضطر فعليًا لبذل جهد بإلحاح كي تعيره انتباهًا. ودامت العلاقات بينهما لفترة من الزمن، إلى اليوم الذي وجد فيه القطة ملتهبة بحرارة مرتفعة وممددة على ديوانه. لقد تهاوت أمام التهاب رئوي، مخلّفةً وراءها ذكرى تلك «الفتنة الأنانية والأنثوية» الخاصة بالقطط، والتي سوف يقدم وصفًا وافيًا عنها في مقاله المخصص للنرجسية[512].

لم تكن آنا مرغوبة لا من أمها ولا من أبيها، وأمضت شبابها تكافح كي تفرض وجودها، ثم للتنافس مع خالتها مينا، كي تصل إلى معرفة مؤلفات والدها. في يناير/ك2 1913، أفسحت المجال لانطلاق غيرتها حيال شقيقتها: «لم أعد أطرز غطاء صوفي، وهذا الأمر كان دائمًا غير مستلطف، حتى عندما أقول لنفسي بأنني ربما كنت أود أن أنهي هذا العمل. أنا أفكر، بالطبع، في أغلب الأحيان بزواج صوفي، غير أن ماكس لا أبالي به في حقيقة الأمر»[513].

حينذاك ترسخت جذور عدم فهم فرويد للميول الجنسية الحقيقية عند ابنته، والتي كانت قد ألمحت، في إحدى رسائلها إلى «عاداتها السيئة»، (العادة السرية): «لا أريد أن أعود إلى هذا الأمر»، هكذا كتبت بتاريخ 17 يناير/ ك2. ولاقتناعه بأن آنا، التي كان يطلق عليها اسم «ابنتي الوحيدة»، كانت قد حوّلت تنافسها القديم مع صوفي إلى غيرة حيال زوج هذه الأخيرة، وحضّها على ألّا تحمل خوفًا من رغبة الرجال بها. لم يكن ليشتبه بعدُ بأنها غيورة من أختها وليس من ماكس. كانت النساء تجتذبها تحديدًا.

في يوليه/تموز 1914 حين قامت بزيارة إلى جونز ، خطر لفرويد بأنها تقوم بمجازفة: «أعلم من أفضل المصادر بأن الدكتور جونز لديه نوايا جدية بأن يغازلك [...] وأنا أعلم بأنه ليس الرجل المناسب لأنثى ذات طبيعة مرهفة، كما أنه شرح لجونز ، بأن آنا لا تطلب أن تعالج كامرأة، حيث أنها ما تزال جد بعيدة عن الرغبات الجنسية، بل وهي ترفض الرجل[514]».

وفي اللحظة التي كان يمنع عن ابنته أن تستسلم لمغازلة تلميذه، لم يتنبأ أنها منجذبة أكثر بكثير نحو لو، وهي تحلم بها فعليًا، وليس بجونز . غير أن هذا الأخير أدرك هذا الأمر: «لها شخصية جميلة، هكذا سوف يكتب إلى فرويد، وسوف تكون بالتأكيد فيما بعد امرأة مرموقة، شرط ألّا يسبب لها كبتها الجنسي الأذى. إنها بكل تأكيد متعلقة تعلقًا رهيبًا بك، وهي من الحالات النادرة التي يتطابق فيها الأب الحقيقي مع صورة الأب».

كان التعلق متبادلًا، ولم يكن فرويد ليتردد أبدًا في إبعاد تلامذته من أبناء فيينا المفتونين بآنا: أوغست إيشهورم، سيغفريد بيرنفيلد، هانس لامبل، ومن جانبها، لم تكن تتوقف عن الاقتراب منه، لا سيما طيلة فترة الحرب، حين شرعت بمتابعة دراستها كي تصبح معلمة في المدارس الابتدائية.

ولقلقه من فكرة بقاء آنا دون زواج، تبين له بأن ابنته من كثرة النواهي والكبت تنبذ الرجال مع رغبتها بأن تكون أمًا. ومن أجل «إيقاظ الليبيدو عندها» اقترح عليها، في أكتوبر/ت1 1918، أن يتولى بنفسه تحليلها.

جرى العلاج على مرحلتين: بين 1918 و1920، ثم بين 1922 و1924. ومع ترسخ تعلق كل منهما بالآخر، بدعم من التحليل الذي حصل، والذي، على امتداد رسائل متقاطعة، أصبحت لو أندرياس - سالومي الشاهد الرئيسي عليه، وجد فرويد نفسه مضطرًا للقبول بأنه، إذا ما نجح بإيقاظ الليبيدو عند آنا، فإن «اختيارها للموضوع» لن يوجهها أبدًا نحو الرجال.

وفي تلك الحقبة، تولى فرويد معالجة شابة، مارغريت سونكا، وهي تنتمي إلى عائلة من البرجوازية النمساوية الكبيرة، من أصول يهودية، وتحولت إلى الكاثوليكية. كانت الفتاة خالية البال من أي همّ وكانت تحب حياة المجتمعات الراقية، وتعشق الأبهة والحرية اللتين توفرهما لها ثروتها وأناقتها، وكانت دائمًا تجتذبها النساء، من دون أن تكون لديها رغبة بإقامة علاقة جسدية معهن. ولهذا السبب فقد رفضت عروض صديقتها كريستيل مونك، من أتباع السحاق المعلن. وفي 1917، تعلقت إلى حد الهذيان بالبارونة المتألقة ليوني فون بوتكامر، من أنصاف المجتمع الراقي المنتمي إلى طبقة النبلاء البروسية، وهي موضع رعاية من طرف الرجال علمًا بأنها تجاهر بتعلقها بالنساء. كانت ترتدي ثيابًا فخمة وتعتمر قبعات خرافية، وهي تتنزه من دون أي حرج في أجمل جادات فيينا بصحبة كلب كبير مشدود برباط. كانت تجد متعةً بالتسكع في المقاهي، وبالتجوّل في أسواق الخضار كي تجد الفواكه التي تتلذذ بها، من دون أن تعير أدنى

اهتمام للحاجة التي يعاني منها أبناء فيينا، في اللحظة التي كانت ما تزال تشع فيها أواخر أضواء إمبراطورية بدأت بالتفكك تمامًا.

كانت تستمع برؤية مارغريت تتبعها في كل مكان، وكانت تلاطفها، وتخدمها وتشعر بالرضى لأنها نوع من طزاب الدور - شعراء الغزل الجوالين - الخارجين مباشرةً من أدب العشق والهيام، وذات يوم، بعد أن فاجأها والدها وهي في أحضان البارونة، هربت خجلًا من نظراته. وكان أن صرفتها ليوني لفترة، حاولت مارغريت حينذاك الانتحار، ووالدها أرباد سونكا، أجبرها على مراجعة فرويد كي يوقف فضيحة هذه العلاقة المثلية المحكوم عليها بأنها لا تُغتفر، وكان يريد تزويجها بأسرع ما يمكن[515].

وإذ لم تكن مارغريت لترغب على الإطلاق بالتداوي، قررت مع ذلك إطاعة الأمر من طرف والدها، وقبل فرويد، مع علمه بكل دقة بأنه لن يتوصل أبدًا معها إلى تغيير وجهتها الجنسية. علمًا أنه لم ينظر إليها أبدًا، في جميع الأحوال، على أنها «مريضة». لكنه طلب إليها أن تحترم مبدأ التعفف وأن تتوقف عن الاختلاط بالبارونة أثناء العلاج.

عاشت مارغريت حينذاك حياة مزدوجة. لأنها في كل جلسة، تخترع أحلامًا وقصصًا عائلية متناسبة مع المذهب الفرويدي، بينما تشتكي عند البارونة من تأويلات معالجها: «هل تصدقين أنه يسألني منذ بعض الوقت عن والدي وإخوتي، وأنه يريد أن يعرف كل شيء عنهم. وقد صبّ اهتمامه الشرس على أصغر إخوتي في آخر مرة. تخيلي أنه قال لي اليوم: أنني كنت أتمنى لو رُزقت بطفل من أبي، وحيث أن أمي هي التي أنجبت الطفل، فأنا أكرهها بسبب هذا الأمر وأكره والدي أيضًا، وأنني لهذا السبب أدير ظهري كليًا للرجال. هذا أمر يثير الغضب[516]».

وتنبه فرويد إلى اللعبة المزدوجة عند مارغريت فوضع حدًا للعلاج. وهكذا شعر الأب بالرضى لعلمه بأن ابنته خضعت للتداوي، وهذه الأخيرة كانت مفتونة بأنها أصبح بإمكانها متابعة الحياة كما تفهمها. وكانت كلمات فرويد الوداعية لها: « عندك عينان خبيثتان جدًا وهما من الخبث بحيث أنني لن أرغب بالالتقاء بكِ في الشارع لو كنت عدوًا[517]».

في حقيقة الأمر، لقد استفاد من هذه التجربة كي يُجري تعديلًا إضافيًا على تعريفه للمثلية الجنسية. فإذا كان فرويد يؤكد أن المثلية هي بالضبط نتيجة الثنائية الجنسية، أصبح على اقتناع، بأن المرء حين يكون أمامه اختيارٌ حصري، تصبح القضية تثبيت حالة طفولية للعلاقة مع الأم، عند الذكور يستبعد هذا الاختيار المرأة كما يقول، وعند الفتيات يسبب إحباطًا حيال الأب. في حالة مارغريت، هذا الرفض الجذري للأب تُرجم في حياتها

باختيار بديل للأم، وأثناء العلاج جرى التعبير عنه بتحويل سلبي حيال القائم بالتحليل ثم يضيف فرويد: ليس المطلوب من التحليل النفسي أن يحل مشكلة المثلية الجنسية. بل عليه الاكتفاء بكشف الآليات النفسية التي أدت إلى قرار اختيار الموضوع، وملاحقة الطرق التي تؤدي من هذه الآليات إلى التركيبات النزوية. موقف التحليل النفسي يتوقف هنا تاركًا ما تبقى للبحث البيولوجي: والحال، في الوقت الحالي، إن النتائج الهامة لبحوث استيناخ تبين بوضوح الطريقة التي تتأثر بها مجموعاتنا الثانية والثالثة بالمجموعة الأولى[518]. إن التحليل النفسي يقف في ميدان البيولوجيا على حد سواء من خلال أنه يتبنى فرضية الثنائية الجنسية البدئية عند الفرد الإنساني (والحيواني)[519].

وهكذا فإن فرويد أرجع التفسير النهائي للمثلية الجنسية إلى سببية بيولوجية، هذا مع تأكيده بمنشئها النفسي. وهذا تأويل جديد وجريء، يبدو وكأنه ينقض به مواقفه السابقة. وفوق هذا، صار يميّز منذ ذلك الوقت بين المثلية الفطرية والمثلية المكتسبة.

بكل وضوح، كانت مارغريت تعاني من شيء آخر غير مثليتها الجنسية. وذلك لأنها عادت إلى حياتها السحاقية، مغرمةً من دون توقف بنساء لم تكن تشعر بمقاربتها لهن بأي إشباع جسدي. وقامت بمحاولات عديدة للانتحار قبل أن تتزوج (من دون حب) من البارون إدوار فون تروتنيغ، المهتم بالدرجة الأولى بثروة عائلتها أكثر من الاهتمام بزوجته. وقد وجد الاثنان نفسيهما مرغمين على التحول إلى البروتستانتية ليكون بإمكانهما الزواج، وذاك لأن إدوار كان قد طلّق زوجته الأولى ولا يستطيع أن يتخذ زوجةً ثانية إذا بقي كاثوليكيًا.

وعندما تقرّب هذا الأخير من الديمقراطيين القوميين بعد Anschluss - الدمج -، استفاد من هذا الأمر كي يلغي زواجه ذاك مع امرأة من أصل يهودي، وللاستيلاء على ثروتها، وهكذا وجدت مارغريت نفسها وقد خسرت كل شيء، إذ لم تعد كاثوليكية ولا بروتستانتية. بل عادت يهودية، علمًا أنها لم تكن كذلك أبدًا، وأنها لم تكن تحب اليهود كثيرًا. ومن دون زوج، أصبحت معرّضة فوق هذا لينظر إليها كمثلية بارزة. وما كان لها إلّا أن تغادر النمسا. وبعد جولةٍ كبيرة قادتها إلى السفر من دون توقف حول العالم بحثًا عن نفسها، عاشقةً لا تلين للنساء ووفيةً لكلبها، ودائمًا مضطرة إلى عدم الاستقرار أبدًا. فعادت إلى فيينا وماتت بعد بلوغها مائة عام من العمر، وبعد روايتها لقصص مختلفة عن علاجها عند محلّلين نفسيين، أو لباحثين مبهورين بتلك المغامرة العائدة إلى حقبةٍ

اندثرت إلى غير رجعة.

إن الطريقة التي تصور بها فرويد المثلية النسائية، انطلاقًا من ذلك اللقاء مع مارغريت، لم تكن لتساعده على سماع ما كان يجري في علاج آنا. فكيف يمكن له أن يتخيل، في هذه الحالة، تثبيتًا طفوليًا لا شعوريًا على الأم ورفضًا لأب سبّب لها الخيبة؟ وفرويد هو نفسه من كان قد منع ابنته من أن تستسلم لإغراء الرجال، وأكثر من ذلك من طرف تلامذته. ومن جانبها، كانت تحلم بأن تكون تلميذةً لأبٍ معبود وترفض أن تعيش قدر أمها. بتعبير آخر، وجد فرويد نفسه في مجابهة مع واقع يناقض نظريته.

إذا كان ذلك العلاج، علمًا بأنه لم يكن علاجًا، قد تحول إلى فشل، فإن علاج آنا غوجينبول، الطبيبة السويسرية الشابة التي جرى تأهيلها في برغولزلي، كان بالأحرى علاجًا ناجحًا، بالرجوع إلى شهادة المريضة. هذه الأخيرة ترددت على ديوان فرويد للتحليل وعمرها سبعة وعشرون عامًا، بملء إرادتها وبوجود تحويل إيجابي[520]، بينما كانت ابنتها في تلك الفترة قد أوقفت تحليلها. كانت مخطوبة منذ سنوات لزميل في الدراسة، وحيث أنهُ عاش مغامرات غرامية عديدة، كانت آنا ج. تشك بأنها راغبة بالزواج منه.

وها هي رغبتها تتبخّر، بينما كانت أسرتها قد رتّبت برنامج الزواج. قررت حينذاك أن تفهم الأسباب اللاشعورية لترددها، فغادرت عملها ووالديها بحريّةٍ ازدادت قوتها مع تمنّيها لقاء ذاك الذي كانت تعتبرهُ أفضل وأعظم من يُصغي في عصره. وبما هو فنان مبدع في التأويل الصاعق، ها هو فرويد، بعد أن أصغى لما تقول، يشرح لها بأن «الطابق الفوقاني» في حياتها تجري فيه خصومتها مع خطيبها. وكي نفهم دلالة هذا الأمر، أضاف شارحًا لها، يجب تقصّي الحالة في «الطابق الوسطاني»، وهو ما يعيدها إلى علاقتها العصابية مع شقيقها، ثم «الطابق التحتاني» - اللاشعوري كليًا - والذي هو طابق علاقتها مع والديها.

بتعابير أخرى، أكدت لآنا ج. بأنها كانت عاشقةً لأبيها، وأنها تتمنى موت أمها، وأن تعلقها بشقيقها، بديل أبيها، هو ما يفسر رقصة التردد الدائمة: «إن عشاقك هم بدائل عن أشقائك، ولهذا السبب جميعهم من العمر نفسه، علمًا بأنهم أقل نضجًا من أشقائك». واكتمل العلاج في اللحظة التي صارح فيها فرويد مريضته آنا ج. بأنها واقعة تحت سيطرة تحدٍ ترفعه في وجه والديها. ويمكن لنا الافتراض بأن التخلص من الرغبة المكبوتة، رغبة السيطرة على تحديها الشخصي، هو الذي قادها إلى فسخ خطوبتها،

والخروج عن طاعة أبيها والتوجه إلى أن تختار بنفسها قدرها[521].

في عام 1922، وبينما كانت تحضّر موضوعها الأول أمام الـ WPV، شعرت آنا فرويد، وكانت من جديد خاضعة لتحليل أبيها لها، كم كانت ميالةً إلى النساء، وصارحت لو باضطرابها: «لأول مرة رأيت حلمًا نهاريًا حيث ظهر فيه مناصر للحركة النسائية. وتلك قصة حب لم أتوقف عن التفكير بها. أردت على الفور تقضي هذا الأمر وكتابته، غير أن بابا كان رأيه أن من الأفضل التخلي عن هذا القضية وأن أوجه تفكيري إلى موضوعي. تخليت إذن عن هذه القضية، ولكنني احتفظت منها بالذكرى حتى شهر يوليه /تموز، وسوف أكتبها رغم كل شيء. لسوء الحظ، لا يظهر فيها سوى أشخاص معروفين»[522].

لم يكن موضوع آنا غريبًا عن تلك القضية. كانت فكرتهُ، فعليًا، هوامات الجَلْد عند صغار الأطفال. ثم إنها في عرضها لموضوعها تكمل مقالةً كان أبوها قد كتبها بعنوان: «الطفل الذي يُضرب»، وفيها يصف فرويد حالة فتاة صغيرة العمر تشبه هواماتها الطفولية كثيرًا الهوامات التي كانت ابنتهُ قد روتها له، آنا بدورها، قامت بتحليلها على أساس أنها لا تخصها شخصيًا، شارحةً بأن الفتاة الحالمة كانت قد نجحت بإيجاد بدائل من «قصص جميلة» تحلُّ محل ذكرى تلك المشاهد المتخيلة[523].

في 1923 قررت آنا فرويد رسميًا العزوف عن الزواج، وسرعان ما أطلق عليها والدها لقب «أنتيغونا»، ثم قدم إليها كلبًا من نوع بيرجيه ألماني، اسمه وولف (أو ولفي)، والذي أصبح على الفور من أفراد العائلة. لكنه صارح لو بقلقه الممزِّق. فهو يخشى من أن تلعب «غريزة الإنجاب» عند آنا دورًا سيئًا في حياتها، واعترف بأنه لا يستطيع إبعادها عنه، ولا الانفصال عنها[524].

إذا كان تداوي آنا على يد والدها قد أتاح لها ترسيخ أقدامها كزعيمة مدرسة، محاطة بأفضل تلامذة هذا الأخير وسط الـ Kindersemina - حلقات الأطفال -، فهي قد حصدت نتيجة مشؤومة ألا وهي شعورها بكراهية مثليتها الجنسية. وعلى امتداد حياتها، سوف تبرهن آنا عن عداوتها لفكرة تمكين المثليين من ممارسة التحليل النفسي، وعلى نقيض رأي والدها، سوف تكون مقتنعة، مثل جونز في جميع الأحوال، بأن المثلية الجنسية مرض. بعد فترة قصيرة من نهاية المرحلة الثانية من جلوسها على ديوان التحليل عند أبيها، التقت آنا بالمرأة التي سوف تصبح صاحبتها على طول الحياة: دوروتي تيفاني بورلنغام. كانت قد ولدت في نيويورك، وهي حفيدة مؤسس مخازن تيفاني وشركاه، وكانت قد تزوجت

من طبيب جراح، روبير بورلنغام، المصاب بذهان هوس - منهار. وكي تتخلص من فورات جنونه، حضرت إلى فيينا، وقد عقدت العزم على أن تداوي رهابها وأن تعهد بمصير أبنائها الأربعة إلى عائلة فرويد وهم: بوب، ماري («مابي»)، كاترينا («تانكي»)، ميكائيل («ميكي»). بعد حديث تمهيدي، أخذت آنا على عاتقها مداواة الطفلين الأولين، مع اقتراحها على دوروتي مراجعة تيودور ريلك للقيام بتحليلها.

بسرعة كبيرة، اعتبرت المرأتان نفسيهما أنهما توأمان وأمضيتا الوقت الحر لديهما بالمشاوير في المناطق المجاورة في فيينا، في سيارة الفورد من طراز T العائدة لدوروتي. كان فرويد يهوى كثيرًا مصاحبتهما. وقد اعتادتا على ارتداء ثياب متشابهة، مع عقد علاقات حميمة تشبه إلى حد بعيد العلاقات بين سحاقيتين.

غير أن آنا أنكرت بصورة قطعية وجود علاقة جسدية مع صديقتها الجديدة، وهي طريقة لتبقى وفية للرجل الوحيد الذي أحبته إلى الأبد: والدها. وبعد انتهاء تداويها عند والدها، اختارت آنا ماكس إيتينغون لتكاشفها بأسرارها، ثم تبنت صديقة جديدة، إيفا روزنفيلد، وهي يهودية من برلين، وتنتمي إلى وسط ميسور الحال، مثلما أنها ابنة أخت إيفيت غيلبرت، المغنية الفرنسية التي يُكنّ لها فرويد الإعجاب. لقد ساعدتها على تجاوز محنة وفاة اثنين من أطفالها، بسبب مرض الزحار. وها هي معها ومع دوروتي، تؤسس، في 1927، مدرسة خاصة لاستقبال الأطفال المتداوين عندها أو عند تلامذة آخرين في المحيط العائلي، ممّن كان آباؤهم وأمهاتهم أيضًا موضع علاج بالتحليل النفسي في فيينا. من بينهم، بيتر هيلر، الذي سوف يتزوج فيما بعد من تانكي، ابنة دوروتي: «مدرسة بورلنغام - روزنفيلد، كما سوف يكتب، كانت بالنسبة لي تجربة متميزة، حافلة بالوعود. وكانت تستمد الإلهام والنشاط من مثلٍ أعلى إنساني أصفى، وأصدق من جميع المؤسسات الأخرى التي تردّدتُ عليها. كان يسود فيها إحساس صادق وأصيل بروح الجماعة في مكانٍ مضيء، مشمس، مليء بالدفء»[525].

وفي عام 1927 أيضًا، دفعت آنا صديقتها دوروتي لتكون موضوع تحليل عند فرويد، وهذا ما أتاح له أن يفهم فهمًا أفضل طبيعة العلاقات بينهما، علمًا بأنه استقبل زائرًا جديدًا: كلبة من نوع شوشو واسمها لون - يو، وكانت تتفاهم بصورة رائعة مع وولف.

كانت آنا ودروتي سعيدتين وحزتين، وها هما تحصلان سريعًا على مزرعة صغيرة فيها بستان وحيوانات: هناك كانت العائلتان تمضيان العطلة

الصيفية. وفي خريف 1929، حين راح يخيم على العالم تهديد أزمة البورصة الأمريكية، جعلت دوروتي مقر إقامتها مع أطفالها الأربعة في شقة من 19 برغاس. وبذاك لم يعد عليها سوى اجتياز طابق واحد لتذهب وتتمدّد على ديوان فرويد، الذي كانت تنظر إليه كما لو أنه الأب الزب، وبفضل مدّ خط هاتفي، أصبح بإمكانها التكلم مع آنا في الليل من دون إزعاج أفراد العائلة: وهذه لفتة مدهشة من يوتوبيا التخاطر التي كانت تؤرق في تلك الفترة من الاضطراب خيال فرويد وفيرينتزي.

وهكذا حققت آنا أمنيتها بأن تصبح أمًا إذ صارت، من خلال التحليل النفسي، «الأم الثانية» والمعالجة لأطفال دوروتي مع كونها قد أصبحت أمًا بالتبني ومحللةً لابن أختها إرنستل.

أما بشأن فرويد، فقد اعتبر نفسه أكثر من أي وقت مضى البطرك السعيد لأسرة أعيد تكوينها، خاضعة لتآكل السلطة الأبوية القديمة، التي كان التحليل النفسي ثمرةً لها: «كانت روابطنا موحّدة مع عائلة أمريكية (من دون زوج)، كما سوف يكتب في 1929، وأطفال تلك العائلة يعالجون بالتحليل على يد ابنتي بصورة حازمة، ولذلك ازدادت العلاقة بيننا متانةً، حتى أن اختياراتنا لقضاء الصيف أصبحت مشتركة. وكلبانا، وولف والصينية الناعمة لون - يو يمثلان أحدث تزايد في العائلة»[526].

منذ بداية القرن، توجه اهتمام فرويد بشغف إلى التحف القديمة[527]، اللازمة لحياته اليومية كلزوم السجائر أو الشخصيات التراجيدية الإغريقية، وهي ضرورية لأفقه كضرورة روما، وأثينا، ومصر. نظرًا لأنه قرأ من كتب البحوث الأسرية أكثر مما قرأ من كتب علم النفس، فقد حول بيته في برغاس إلى متحف حقيقي: «لا يمكننا فهم البعد الكامل للثورة الفرويدية، هكذا كتب بيتر غاي، إلّا إذا تذكّرنا ما كانت عليه الأفكار والفرضيات العلمية في نهاية القرن التاسع عشر. والحال، فإن تلك الثورة وُلدت في مكان هو النقيض لها، حيث أعلامها وشعاراتها بقيت غير مرئية»[528].

إنها مجموعة من وجوه لا حياة فيها - إغريقية، صينية، مصرية، ما قبل كولومبية -، تتزاحم في مختلف حجرات البيت الفرويدي. وكما لو في فيلم صامت، ها هي الأشياء القادمة من حضارات غابرة تترك ظلالها وضياءها محوّمةً على حياة الكلاب والآدميين. وهي تنتشر كلّ سنة وقد ازداد عددها وسط ديكور فوّار، حيث تتكوم سجادات وبسط ملوّنة، بعضها يغطي الأرض، والمقاعد المنجّدة والكنبات، وبعضها الآخر يغطي الجدران، وثمة تقريبًا عشرون وجهًا، من بين الأكثر تأثيرًا وتبعثرًا، تنتصبُ واقفةً

على مكتب الهر بروفسور، وجهًا لوجه حيال مخطوطاته. وكلٌ منها ينتسب إلى شخصية خاصة، وكلٌ منها يسهم في تنشيط ورعاية الفكر الخلاق لسيّد تلك الأمكنة. فحالما يدخل إلى هذه الحجرة التي يستقبل فيها مرضاه بحضور كلبته الشوشو، كان فرويد يلقي التحيّة على حكيمه الصيني المستقر عند حافة مكتبه، يحيط به من جهة اليسار تمثال أمحوتب - إله المعرفة والطب - وفي الجانب الأيمن ربّة مصرية من مستوى أدنى. وهكذا فإن حزاس الجسد والفكر يرعون حسن استمرار الجلسات العيادية أو تمارين الكتابة.

في جميع الأرجاء، واجهات، موبيليا، مكتبات، وأدوات من البورسلين الشرقي تملأ كل مساحة البيت كأنما هي متاهة، حيث لا يُسمح بوجود أي فراغ، كما لو أن كل شيء - لوحة باستيل عن معبد أبو سمبل، وتمثال حجري عن جانوس، وحورس، وأنوبيس، ونيفتي، وإيزيس وأوزيريس، وتمثال عن غارديفا، ونقش عن «موت باتروكل»، وجَمَل يعود تاريخه إلى تاريخ سلالة تانغ الصينية، وتماثيل متنوعة لبوذا - يجّسدُ في الوقت نفسه الأقاليم الثلاثة للحياة النفسية وانبثاق نزوة سلفية سرعان ما يتم كبتها. وسط هذا الحشد الهائل من الصور، والهيروغليفيات، والعلامات الجنائزية، والتماثيل الصغيرة المقدسة - حيث يختلط البشر والحيوانات - ترتفع، في جوٍ معتم، آثار ذاكرة يهودية: لوحة بألوان ساطعة لرامبراندت - اليهود في الكنيس -، ونقشٌ لكروجير يمثلُ موسى رافعًا ألواح الشريعة، وشمعدان (menorah) من أجل عيد هانوكا وفي الختام، كوبان من أجل عيد الـKiddush[529] مصفوفان أمام تماثيل مصرية صغيرة.

كان فرويد ينظّم أيضًا مجموعات من الصور الفوتوغرافية واللوحات: نسخة عن الصورة الشهيرة «الدرس العيادي للبروفسور شاركو» في سالبترييير بريشة بروييه، «أوديب والوحش الأسطوري» بريشة إنغر، «كابوس فوسلي»، «قبلة يهوذا» بريشة دورير، إلخ. يضاف إلى هذه اللوحات صور فوتوغرافية بالعشرات: ميداليات الأمهات، والأخوات، والأطفال، بورتريهات لتلامذة أو لنساء موضع إعجاب: لو أندرياس - سالومي، ماري بونابرت إيفيت غلبير[530].

في أغسطس/ آب 1922، قامت كاسيلي فرويد، ابنة روزا غراف، بالانتحار عن طريق تناول مقدار كبير من المنوّم. كانت حبلى من دون زواج، فأرادت تبرئة عشيقها. ومهما يكن الأمر، ها هي في رسالة إلى والدتها، التي أصبحت هكذا من دون ذريّة، تشرح بأن الموت أمرٌ في غاية البساطة بل وهذا ما يبعث حتى على شيء من الفرح. لم يتردد فرويد،

الذي هزّه هذا العمل بعمق، عن الإشارة إلى المستقبل المضطرب الذي ينتظر النمسا. كان يدرك إدراكًا تامًا النزاعات السياسية التي تهزّ أركان الجمهورية الجديدة التي عاصمتها، المعقدة حينذاك باسم «فيينا الحمراء»، يدير شؤونها تحالف من الاشتراكيين الديمقراطيين ومن الديمقراطيين المسيحيين المتأثرين بمبادئ الماركسية النمساوية. وكان يشعر بصعود المدّ الشعبي المعادي للسامية والقائل بالتفوق الجرماني، وهي المبادئ التي تفضح البرامج الطموحة لليسار الاشتراكي. وكان يعلم بأن تلك البرامج تبحث عن كبش فداء عن طريق التنديد بالأجانب، وبصورة أشد باليهود القادمين من بولونيا، ورومانيا، وأوكرانيا.

لكن فرويد في ذلك الوقت، كان مستمرًا في مهاجمته للرئيس توماس وودرو ويلسن، حيث أنه لم يغفر له أبدا «المبادئ الأربعة عشر» التي جاء بها. لم يكن يؤمن ولو للحظة بالتصور الذي جاء به ويلسن عن حق شعوب الإمبراطوريات القديمة في التمتع بحريتها، ولم يكن يرى في ذلك المشروع إلّا محاولة لبلقنة الـ Mitteleuropa. مختصر القول، كان يعتبر ذلك الرئيس المستنير المسؤول عن شقاء أولئك الذين يزعم بأنه يحررهم من نير سادتهم. كان فرويد أبعد ما يكون عن احترام المهزومين، وقد تعامل معهم، كما يقول، بطريقة تحمل كل الاحتقار. غير أن فرويد منذ فترة بسيطة ترسخ لديه هذا الرأي بقراءة كتاب للصحفي الأمريكي وليم بايار هال[531]، الذي ندد بالأسلوب المطنطن عند ويلسن مستعينًا بمنهج التحليل النفسي. وقد تبادل فرويد معه رسائل قليلة، وهذا ما جعله يتمسك، رغم نصائح جونز ، بثقافة فيها شيء من معاداة الأمريكيين. غير أن فرويد أو أي شخص آخر من المحيطين به لم يكن ليخطر لهم على بال في ذلك التاريخ الدور الذي يوشك أدولف هتلر على لعبه في تاريخ التحليل النفسي.

كان فرويد دائم الانشغال بصحته. ولفترات متكررة، كان قد لاحظ وجود تخرّش مشبوه في القسم العلوي من سقف الفم، لكنه اختار ألّا يشعر بقلق أكثر مما يجب بسبب هذا الأمر. وبدلًا من أن يتخلى عن التبغ، فضّل اعتبار نفسه مصابًا بتقرّن مخاطي بسيط[532]. غير أنه في 20 أبريل/نيسان 1923 تبيّن له وجود ورم قيل عنه بأنه «حميد - غير خبيث - » وصفه هو نفسه بأنه سرطان ظهاري. وها هو يحزم أمره ويستشير صديقه القديم، ماكس ستينر، المشارك بإنشاء «جمعية الأربعاء»، وهذا نصحه مرة جديدة بأن يكفّ عن التدخين، لكنه أخفى عنه الطابع السرطاني للورم.

حينذاك ها هو فيليكس دويتش، تلميذه وطبيبه الشخصي، في 7

أبريل/نيسان، يلاحظ وجود ذلك التخرّش. ويرفض قول الحقيقة لمعلمه المبجّل خوفًا من أن يسبب له الرّعب ونصحه بإجراء عملية جديدة. نظرًا لأن فرويد أصبح معروفًا لكبار أساتذة الطب في فيينا، كان بإمكانه اختيار الأفضل بينهم. لكنه بدلًا من القيام بهذا الأمر توجّه إلى ماركوس هاجيك، طبيب أنف - أذن - حنجرة، كان واثقًا بأنه سوف يطمئنه تمامًا، ولم يخطئ في تقديره. فهذا الطبيب الذي يعتبر مثل نسخة مكررة عن فليس قام باستئصال جديد للورم أدى إلى كارثة وإلى نزيف مخيف[533]. إثر هذا الأمر كان على فرويد أن يعاني من علاج بالأشعة لا فائدة منه ولم يكن له من نتيجة سوى زيادة آلامه. كان مستمرًا في تجاهل معرفة الحقيقة، لانشغاله الكامل حينذاك بوفاة هينز (هينيرل) الصغير، وهو ما كان يسميه «طفله الغالي». مع نهاية شهر يونيو/حزيران، رحل إلى غاستين مع مينا، ثم توجه إلى التيرول، وأخيرًا إلى لافارون حيث لحقت به عائلته.

في نهاية شهر أغسطس/ آب 1923، اجتمع أعضاء «اللجنة» في سان كريستوفورو عند سفوح الجبل الذي يقيم فيه فرويد. في ذلك الوقت كان بينهم نزاع عنيف بخصوص «التقنية الفعّالة»، بالإضافة إلى أن رانك وفيرينتزي يشعران بأنهما مهمّشان من طرف جماعة برلين - أبراهام وإيتنغون -، بينما جونز ما يزال يسعى من دون ملل لتطوير التحليل النفسي خارج إطار العالم الناطق باللغة الألمانية. رفض فرويد أن يقف في صف أي منهم، ولذلك مكث في فندقه. فلحق فيليكس دويتش وآنا بالمجموعة كي يشاركا في عشاء أقيم في سان كريستوفورو. وفي ذلك المساء تحديدًا أصبح أهم تلامذة فرويد يدركون خطورة السرطان الذي حلّ به[534]. وحيث أنه كان لا غنى عن عملية جديدة، فقد ثار بينهم نقاش صاخب من دون أن يقرروا مع ذلك مصارحته بالحقيقة[535]، ولذلك تركوه يرحل في سفرته الأخيرة نحو الجنوب. كان فرويد في 1913 قد عاهد نفسه أن يأخذ بيد آنا لتشاركه أسرار عشقه لروما، وما كان لشيء ولا لشخص أن يمنعه من تحقيق هذا المشروع. وها هما سويًا، الأب وابنته، يتجولان سيرًا على الأقدام في المدينة ساعات طويلة. ووفق خط سير منظم بدقة، قاما بزيارة الكابيتول، والبانتيون، وتيفولي، وكنيسة سيكستين: «إنها أيامنا الأخيرة، هكذا كتب فرويد لأبنائه الآخرين. وتسهيلًا لانطلاقنا، بدأت ريح السموم تعصف كما أن ردود الفعل للفك عندي سببت لي أوجاعًا أكثر من أي وقت آخر. كانت آنا مرحةً مثل طير البرقش. حتى أنها لقد جربت اليوم حضور أوبريت[536]».

من بعد ذلك، تخاصم فرويد مع دويتش، وقد وصفه بأنه «وغد مثير

للشفقة». ثم عاد وتصالح معه. غير أنه، في عام 1927، اختار لنفسه طبيبًا جديدًا ليعالجه - ماكس شور - الذي كان قد حضر محاضراته في 1916، والذي توجب عليه أن يتولى أموره الصحية حتى وفاته. إنه من عائلة من المهاجرين اليهود القادمين من بولونيا، وقد اهتم شور بمريضه اللامع بعد أن كان قد خضع لتحليل نفسي مع روث ماك - برونزفيك. كان أصغر عمرًا من تلامذة الحلقة الأولى، وهو معجب بفرويد من دون أن يكون هذا الإعجاب على مستوى من التبجيل الكبير بحيث لم يكن ليكذب عليه بخصوص مرضه.

قبل هذا اللقاء بفترة طويلة، لدى عودته من سفرته الأخيرة إلى روما، كان فرويد قد حزم أمره وقرر التوجه إلى الطبيب هانز بيشلر، وهو طبيب النمساوي حينذاك من أكبر الاختصاصين في أوربا بما يتصل بجراحة الفك والوجه، كان قد درس في جامعة نورث ويسترن في شيكاغو، وقد اكتسب، طوال فترة الحرب، مهارة استثنائية بترميم وجود المرضى من ذوي الإصابات البليغة.

استقبل بيشلر فرويد في 26 سبتمبر/أيلول 1923، وفي 4 أكتوبر/ت1، أخضعه لمحنة قاسية وذلك باستئصال قسم كبير من فكه العلوي ومن سقف الفم. في 13 نوفمبر/ت2، أجرى تدخلًا جراحيًا جديدًا. واعتبارًا من ذلك اليوم، أجرى عمليات جراحية لمريضه خمسًا وعشرين مرة، وفي 1931، طلب المساعدة من زميله الأمريكي فارزتاد كازانجيان، وهو برتبة ماجور شرف سابق في الجيش البريطاني، وكان قد اكتسب شهرة من التجديدات التي جاء بها في مجال تصنيع وتركيب أفضل الوصلات الفكية المخصصة «لأصحاب الوجوه المهشمة». وهكذا حالف التوفيق فرويد واستفاد من التقدم في جراحة الوجه بنتيجة حرب الأمم[537]. علمًا بأنه سوف يترتب عليه معاناة الأمرين طوال الستة عشر عامًا الباقية له من عمره.

وها هي «قطعة الفك الصناعي» تدخل لتأخذ موقعها بين مجموعات الزينة، والكتب، والسيجار، والكلاب، والمرضى، في الحياة اليومية للهر بروفسور وللمحيطين به. ويا له من فك لعين، وحش مرعب، أداة تعذيب، شيء يتم وضعه بصورة غير صحيحة: هكذا وصف فرويد ذلك الشيء الذي لا اسم له والذي ينغص على جسمه المريض. ولكل من يتراسل معهم، سوف يصف فرويد هذا الجسم الغريب، من دون أن يتخلى أبدًا عن التبغ: « Lieber Max - عزيزي ماكس -، أنا واقع تحت سيطرة حالة التوتر الناتجة عندي بسبب الفك. الأكل، والشرب، والكلام هي الآن أوقات أشعر

تجاهها بالرهبة [...]. «Liebe Lou - عزيزتي لو -، هل هناك من تنغيص أشد من وجود قطعة غيار جسدية متمردة، وهي ليست سوى احتيال شبيه بالنظارات، أو بفك، أو بشعر مستعار - باروكة - [...]. ثمة ترتيبات صغيرة بخصوص هذا الجسم الطفيلي والمنقذ توهم بشيء يمكن أن يتحقق، أي وجود الأمل بأن أتمكن من المناقشة من دون التفكير بفمي [...]. جميع المداخلات الأخيرة التي اقترحوها على أنها لا يمكن الاستغناء عنها ظلت من دون جدوى». وفي 1931، بخصوص قازانجيان: «له ابتسامة شارلي شابلن [...]. هذا الساحر أعطى تعليمات لتصنيع وصلة فكية مؤقتة بنصف حجم الأصلية وأقل وزنًا من الوصلة الحالية. إنها تساعدني على المضغ، والكلام، والتدخين، على الأقل كما كان الحال فيما مضى[538]».

توجب على فرويد الخضوع لأنواع متعددة من العمليات الجراحية: بعضها باستخدام التخدير الموضعي مع الدعم بالمسكنات، وبعضها الاخر بالتخدير الكامل. وبعد كل عمل جراحي، كان يجد صعوبة في الكلام، وعلى مرّ السنوات، بات من الصعوبة عليه أكثر فأكثر تناول الطعام، مع معاناته الدائمة لصمم في الأذن اليمنى؛ وهذا ما يجبره على تغيير مكان ديوان التحليل كي يسمع مرضاه بصورة صحيحة. ومن دون توقّف كان من الضروري تنظيف الوصلة الفكية، وإعادة وضعها وتعديلها، وتبديلها، وهذا ما كان يسبب له أوجاعًا لا نهاية لها. وحين لم يكن فرويد يتمكن من وضع الوصلة في مكانها، كان يستنجد بمساعدة آنا، التي تكافح أحيانًا ساعةً كاملة مع ذلك «الوحش»: «ومن دون الشعور بالتأفف أو القرف، هكذا كتب بيتر غاي، كانت تلك الوصلة الفكية وراء تدعيم العلاقات بين الأب والابنة. أصبح بالنسبة إليها غير قابل للاستبدال مثلما أصبحت بالنسبة له لا غنى عنها»[539].

---

484 في نص من أربعين صفحة موجه إلى كورت إيسلر، في 28 أكتوبر 1952، يشير إرنست والدنجر إلى حياة آل فرويد في فيينا في فترة ما بين الحربين، LoC، صندوق 121، بطاقة 33.

485 حول مصير مختلف أبناء خؤولة وعمومة فرويد، انظر لاحقًا. مع «شجرة نسب» في نهاية الكتاب.

486 وكذلك رودولف هالبرشتات، شقيق ماكس.

487 انظر جوزيف وورتيس، «التحليل النفسي في فيينا»، 1934. «مذكرات حول تحليلي مع فرويد» (1954)، باريس، دونويل، 1974،

ص 159.

488 إرنست هالبرشتات، الطفل اللاعب بالبكرة، هو الحفيد الوحيد لفرويد من إحدى بناته والذي عاد ليعيش في ألمانيا، كما أنه الوحيد الذي أصبح محلّلًا نفسيًا. آنّا وماتيلد لم يُرزقن بأطفال. أمّا إيفا فرويد (1944 - 1924) فتوفيت من دون أن تترك وراءها ذرّية. من أحفاد فرويد استمرّ خمسة على قيد الحياة: خمسة ذكور - أنطون والتر، ستيفان، لوسيان، كليمان، إرنستل - وحفيدة وحيدة - صوفي. انظر لاحقًا ما يتعلّق بقدر أحفاد فرويد وأبناء أخوته وأخواته.

489 حول حياة أبناء فرويد، انظر «رسائل إلى أبنائه». إليزابيث يونغ - برويل، «آنّا فرويد» (1988)، باريس، بايو، 1991. غونتر غود، « «Mathilde Freud. DI alteste Tochter Sigmund Freud في Briefen und Selbstzeugnissen,Psychosozial Verlag، دار نشر كور، برلين، 2002. انظر أيضًا، رغم تأويلاته المثيرة للجدل، الكتاب الموثّق جيدًا بقلم إيفا ويسويلر، «آل فرويد، أسرة من فيينا» (2006)، باريس، بلون، 2006. بول فيريس، «الدكتور فرويد، حياته»، في كورنيليا وميكائل بيشي بوك، واشنطن، كونتربنت، 1998. انظر أيضًا هانز لامبل، حديث مع كورت إيسلر، 1953، LoC، صندوق 114، بطاقة 13.

490 هذه هي أقوال يونغ بكل دقة كما وردت في حديث بالألمانية مع كورت إيسلر في 29 أغسطس/آب 1953: «Die jungere Schwester hatte eine grosse Ubertragung, und Freud, und Freud was not insensible» وحين وجّه إيسلر سؤالًا جديدًا عن «العلاقة»، جاءه الجواب: «Och, Bindung?Ich Weiss nicht wieviel!?ja! aber, Gott, man Weiss ja,wie die Sachen sindm nicht war?!» وترجمة هذه الأقوال: «الشقيقة الأصغر حصل لديها تحويل ضخم على فرويد ولم يكن من جانبه غير متأثّر بذلك»، وإذ سأله إيسلر حينذاك إنْ كان هناك علاقة أم لا، كان جواب يونغ: «أوه، علاقة؟ لا أعلم إلى أي حدّ، لكن واللهِ، من المعلوم كيف تكون الأمور، أليس كذلك!؟»، LoC، صندوق 114، بطاقة 4. ويبدو أنه قدّم شهادة ثانية من هذا الصنف إلى صديقه جون بيلنسكي، وهذا بدوره نشرها في وسط الجمهور في 1969، بعد موت يونغ. غير أن ديردر بير يؤكّد بأن بيلنسكي نسب إلى يونغ ما لم يقله، انظر «يونغ»، المصدر السابق، ص. 1057. ونتذكّر بأن يونغ جزب دفع فرويد إلى الكلام عن حياته الجنسية أثناء الرحلة

الأمريكية.

491 كريستفريد توجل، Freud Diarium، ويمكن الرجوع إليه عن طريق الأنترنت.

492 عشرات الروايات، والمقالات، والدراسات اهتمت بهذه «العلاقة» التي لم يكن لها بالتأكيد من وجود أبدًا، لكنها أصبحت، في جميع الأحوال، ورقة بيد المعادين للفرويدية في نهاية القرن العشرين، لا سيّما بأقلام بيتر سواليس، وفرانز مسيجيفسكي، وميشيل أونفراي. وهذا الأخير ذهب به الأمر إلى حدّ التأكيد بأن فرويد أجبر مينا على الإجهاض لطفل منه في 1923، متناسيًا بأنها في ذلك التاريخ كان عمرها... ثمانية وخمسين عامًا. انظر «غروب شمس صنم. الصورة الخرافية عن فرويد»، باريس، غراسّيه، 2010. حول الحياة الخاصة لفرويد، انظر رونالدو. كلارك، «فرويد، الرجل والقضية. سيرة»، نيويورك، راندوم هاوس، 1980. وبما يخصّ أسفار فرويد، انظر، «قلبنا يميل نحو الجنوب» المصدر السابق. وفي مقدمتي لهذا الكتاب، أوردتُ جميع المصادر بخصوص تلك الإشاعة. انظر أيضًا إيفا ويسويلر «آل فرويد، عائلة من فيينّا»، المصدر السابق، ص 124 - 125. في هذا الكتاب، يتبنى المؤلف فرضية «العلاقة» و«الإجهاض» مع الإشارة إلى أن الأمور محض تأويل وليس واقعة ثابتة، من بعد بيترغراي وجون فورستر، وضعتُ، من جانبي، دراسة مطوّلة حول تلك الإشاعة الخارجة عن المألوف، «ولكن لماذا كل هذه الكراهية؟»، المصدر السابق.

493 سوف يكون لجميع هذه التخرّصات صداها في دراسات عديدة، أو روايات، أو سير شخصية خيالية بعد وفاة فرويد، إنما على وجه التخصيص بعد نشر سيرته بقلم جونز ثم الأعمال التأريخية الجدية أو الناقدة (من إلينبيرجير إلى سولوواي).

494 هذه الحملة المطعمة بالرُهاب الجرماني جاءت عقب الحملة التي شُنت على ألبيرت أينشتاين. انظر HPF - JL، المصدر السابق، شارل بلونديل، «التحليل النفسي»، باريس، ألكان، 1924، في عام 1910، ها هو الطبيب النفسي الألماني ألفريد هوش (1865 - 1943)، من المتأثرين بالبحث عن السعادة، يصف التحليل النفسي بأنه «وباء» ويقول عن أنصاره بأنهم أعضاء في «جماعة دينية»، انظر Eine psychipische Epidemie uter atrenzn مجلة الطب العيادي، 6، 26، 1910.

495 كارل كروس، «دفاتر بلدة الهرن»، 1975. كارل كروس، «حِكم. أقوال

وأقوال مضادة»، باريس، بايو، 2011. وفريتز ويتلس، «عُصاب فاكل»، أوائل المحللين النفسيين، الجزء الثاني، المصدر السابق، ص.373 - 378. أثناء تلك الجلسة في يناير/ك2 1910، بيّن فرويد خطأ ويتلز.

496 الياس كانيتي، «المشعل في الأذن. قصة حياة» (1980)، باريس، ألبان ميشيل، 1982، ص. 134.

497 حلقة مانعة للحمل.

498 منذ نهاية القرن التاسع عشر، كان الإجهاض يُعتبر جريمة بحق الفرد، والنوع، والأمة. جان - إيف لونور وكاترين فالنتي، «تاريخ الإجهاض، في القرنين 19 و 20»، باريس، سوي، 2003.

499 سيغموند فرويد، رسالة بتاريخ 15 فبراير/شباط 1920، في «رسائل إلى أبنائه»، المصدر السابق، ص. 569. لم يقل فرويد أي شيء حول منع الحمل خارج الزواج ولا عن الإجهاض. نشير إلى أن استخدام النابض كان واردًا مع بداية القرن العشرين في كتب الصحة الجنسية، لا سيما عند المشهورة آنا فيشر - دوكيلمان - (1856 - 1917)، وهي من فيينا وهاجرت إلى سويسرا، وألّفت كتابًا حقق رواجًا كبيرًا حوا هذا الموضوع. فرويد هو من أخبر شخصيًا والدته بموت صوفي، رسالة بتاريخ 26يناير/ك2 1920، LoC، صندوق 3 بطاقة1.

500 في نهاية شهر فبراير/شباط تحديدًا من عام 1923 اكتشف فرويد لأول مرة، في الجانب الأيمن من فكه ما أطلق عليه لوكوبلاسي leuacplasi وهو في حقيقة الأمر سرطانٌ ظهاريّ، وهو ما تأكد في 7أبريل/ نيسان 1923. انظر ماكس شور، «الموت في حياة فرويد» المصدر السابق، ص.415 - 436.

501 في 20 نوفمبر/ت2 1923، تزوج ماكس من بيرتا كاتزنستين (1897- 1982)، ورُزق منها ابنة: إيفا سبانجينتال، الأخت غير الشقيقة إرنستيل. انظر «رسائل إلى أبنائه»، مصدر سابق، ص 533 - 534.

502 أنطون والتر فروند (1921 - 2004) وصوفي فرويد - لوينستن (المولودة بتاريخ 1924). ارجع إلى صوفي فرويد، «في ظل عائلة فرويد. كيف عاشت أمي القرن العشرين» (2006)، باريس، مطبوعات دي فام، 2008.

503 أرشيف مكتبة العمارة البريطانية (RIBA). يمكن الرجوع إلى هذا الكتالوغ على الأنترنت، لكن المشروع لم يتحول إلى واقع.

504 سيغموند فرويد ولودفيغ بنسوانجر، «المراسلات»، 1908 - 1938، المصدر السابق، ص 278ـ 279.

505 سيغموند فرويد، «المراسلات مع آنا فرويد» (2006)، باريس، فايار، 2012، ص 111.

506 تخيل أحد المحللين النفسيين، جان - بيير كامينياك، بأن الكلاب كانت تمثل عند فرويد بدائل يستخدمها للحداد على ابنته وحفيده، وهذا تأويل غير دقيق، حتى وإن كان فرويد يشير إلى أن حضور الكلاب يواسيه وينسيه ذلك الفقد، أو أن موت كلب يذكره بموت الكائنات البشرية. في حقيقة الأمر، كان فرويد يجد تداعيًا لذلك الحضور الذي لا غنى عنه من حوله لجنس الكلاب مع حضور النساء، غير أنه لم ينظر إليه أبدًا كبديل عن أي أمر على الإطلاق. انظر جان - بيير كامينياك «Citizen Canis، فرويد والكلاب»، لو كوك - هيرون، 215، 2013، ص. 96 - 108. مواقف فرويد حيال هذا الموضوع نجدها في تبادل الرسائل غير المنشورة مع ماري بونابرت.

507 ماري بونابرت، فهارس غير مطبوعة.

508 وهذا أشرتُ إليه في «الجانب الغامض من أنفسنا. قصة الشواذ»، باريس، ألبان ميشيل، 2007. أنا لا أشاطر إليزابيث فونتناي رأيها والتي، لعدم تمكنها من الوصول إلى فهارس ماري بونابرت غير المطبوعة، تخيلت خطأ بأن فرويد نسب إلى الحيوانات قدرة رمزية تكاد تكون مشابهة لقدرة البشر. وتنسب إليه الأبوة البدائية لما تزعم بأنه «جرح نرجسي رابع» لم يكن له من وجود في أقواله. انظر، «الإنسان وباقي الحيوانات. المقدمة»، لوكوك - هيرون، 215، المصدر السابق، ص 12.

509 هيلدا دوليتل، «حبًا بفرويد» (1956)، باريس، مطبوعات دي فام - أنطوانيت فوك، 2010، ص 113.

510 سيغموند فرويد وأرنولد زفايغ، «المراسلات»، 1927 - 1939، المصدر السابق، ص 176.

511 سيغموند فرويد وماكس إيتنغون، «المراسلات»، المصدر السابق، رسالة فرويد إلى أرنولد زفايغ بتاريخ 10 فبراير/شباط 1937، ص909.

512 لو أندرياس - سالومي، «يوميات سنة»، في «مراسلات مع فرويد» المصدر السابق، ص 324.

513 سيغموند فرويد، «مراسلات مع آنا فرويد»، المصدر السابق، ص 89.

514 المصدر السابق، ص 114.

515 سيغموند فرويد، «حول ولادة ذهان حالة مثلية نسائية» (1920)،

في «عصاب، وذهان، وشذوذ» المصدر السابق، ص 245 - 270، وOCF.P، الجزء الخامس عشر، المصدر السابق، ص233 - 263. كانت حياة مارغريت سونكا (1900 - 1999) من وراء ولادة أدب هام، لا سيما مع قصة إينيس ريدر وديانا فويت، المؤرختين للسحاق اللتين قابلتا مارغريت قبل وفاتها. انظر:Die Geschichte der Sidonie C.، مترجم إلى الفرنسية تحت عنوان يحتمل جدلًا كبيرًا، ألا وهو «سيدوني سياغ، مثلية عند فرويد، سحاقية في عصرها» (2000)، باريس، EBEL، 2003. في هذا الكتاب، الذي هو مجموعة من شهادات، تظهر مارغريت تحت الاسم المستعار سيدوني سياغ، وفي الترجمة الفرنسية، «حالتها» يُعاد تأويلها على طريقة لاكان من طرف جان ألوش. ويعطي مايكل بورخ - جاكوبسن تأويلًا أقل خياليةً عن تلك القصة حين يؤكد، علمًا أنه على خطأ، بأن فرويد كان قد جعل من نفسه أضحوكةً عند مارغريت. انظر «مرضى فرويد»، المصدر السابق، ص180 - 186. يجب أن نشير إلى أن كورت إيسلر حصل على شهادة مارغريت سونكا فون تروتينيغ والتي تؤكد بأنها لم تكن تحمل تقديرًا كبيرًا حيال فرويد، ولم يكن عندها الشيء الكثير لتقوله له، LoC، صندوق 2.

516 أقوال جمعتها إينيس ريدير وديانا فويت، «سيدوني سياغ»، المصدر السابق ص 66.

517 المصدر السابق، ص 77.

518 المقصود ثلاث مجموعات للطبائع: 1 (جنسانيون جسديون) 2 (جنسانيون نفسيون) 3 (نمط اختيار الموضوع).

519 سيغموند فرويد، «حول نشأة ذهان حالة مثلية نسائية»، المصدر السابق، ص 270. - أوجين استيناخ (1861 - 1944): وهو طبيب النمساوي، رائد علم دراسة الغدد الصماء ومبادئ التمايز الجنسي. وقد نال شهرةً حين ابتكر الربط السهل للقنوات والذي كان يعتقد بأنه قادر على إعادة توليد الخلايا الهرمونية وبالتالي المساعدة على إعادة الشباب، وقد لجأ فرويد إلى تلك العملية الجراحية في 1923. حيث أن السرطان مرض شيخوخة، فكانوا يعتبرون بأن تحريض الخلايا الهرمونية يمكنه تأخير حصول نكسة.

520 تحليل آنا ج. جرى ما بين أول أبريل /نيسان و14يوليه/ تموز 1921، بمعدل ساعة يوميًا.

521 آنا ج.، «تحليلي على يد البروفسور فرويد»، وطبع بإشراف آنا

كويلروتر، باريس، أوبييه، 2010. إن الطبعة الألمانية موثوقة أكثر بكثير من الطبعة الفرنسية، وهي بعنوان: Wie benimmt sich der prof. Freud eigentlich. Giessen. Psychosozaial - Verlag .2009

522 لو أندرياس - سالومي وآنا فرويد، «مراسلات»، 1919 - 1937، باريس، هاشيت، 2006، ص 43.

523 سيغموند فرويد، «الطفل الذي يُضرب. مداخلة لمعرفة نشوء الشذوذات الجنسية» (1919)، في العصاب، والذهان، والشذوذ، المصدر السابق. وآنا فرويد، «هوام الخوف من / الضرب / و/ حلم اليقظة /» (1922)، في الأنوثة المضحكة. دراسات في التحليلي النفسي، وقامت بجمعها ماري - كريستين هامون، باريس، سوي، 2004، ص 57 - 75.

524 لو أندرياس - سالومي، «مراسلات مع سيغموند فرويد»، المصدر السابق. هذه المراسلات حذفت منها بعض الأشياء فلا نجد فيها أدنى تلميح إلى ذلك التحليل.

525 بيتر هيلر، « تحليل طفل على يد آنا فرويد»، باريس، 1996، PUF، ص 31.

526 سيغموند فرويد ولودفيغ بنسوانجر، «مراسلات»، 1908 - 1938، المصدر السابق، ص 278 - 279. المراسلات بين آنا فرويد ودوروتي بورلنغام موجودة في متحف فرويد في لندن. لكنها لم تفتح بعدُ أمام الباحثين.

527 تقريبًا ثلاثة آلاف مادة، ألفان منها سوف تنقل إلى إنجلترا. انظر على حدٍّ سواء ريتشارد هـ. أرمسترونغ، A Compulision for .Antiquity , Ithaca , Cornell University Press , 2005

528 بيتر غاي: مذكرة حول سيرة، بيت فرويد، برغاس 19، فيينا، صور فوتوغرافية من تصوير إيدمون أنجيلمان (1976)، باريس، سوي، 1979، ص 124.

529 Hannukah: عيد يهودي. Kiddush: احتفال بأول شباط - Shabbat. حول هذه الأغراض والنقاشات بخصوصها، انظر يوسف حاييم يروشالمي، «موسى فرويد»، المصدر السابق، ص 201 - 203. وأيضًا إيريكا دافي، «Eine Wellt Wie Im Traum , Freuds Antikensammlung »، في كاتالوغ معرض: «Meine alten und dreckigen Gotter». Aus Sigmund Freuds Sammlung، وقامت بنشره ليديا مارينيلي، فرانكفورت، سترومفيلد، 1989. بما يخص

الأدوات المكسيكية عند فرويد انظر روبين غالو، «فرويد في المكسيك» (2010)، باريس، كامباني بروميير، 2013.

530 عشرات من الكتب المصوّرة تشهد على التنظيم المذهل الذي كان مسيطرًا في الحياة اليومية لبيت برغاس: «سيغموند فرويد، أماكن، وجوه، أدوات»، بإشراف إرنست فرويد، ولوسي فرويد، وإيلس غروبريخ - سيميتي، مع قسم يتحدث عن السيرة الشخصية بقلم كورت إيسلر (1976)، بروكسل، كومبلكس، 1979. سيغموند فرويد، «تأريخ مختصر جدًا. دفاتر حميمة»، 1929 - 1939، مع هوامش وتقديم بقلم ميكائيل مولنار، باريس ألبان ميشيل، 1992.

531 وليم بايار هال، «قصة أسلوب»، نيويورك ب. و. هوبش، 1920.

532 آفة تصيب الأغشية المخاطية وتتميز بوجود تقرّنات بيضاء اللون.

533 كتب عديدة تحدثت عن سرطان فرويد. انظر على وجه الخصوص ماكس شور، «الموت في حياة فرويد»، المصدر السابق. إرنست جونز وبيتر غاي قدّما روايتين منسجمتين تمامًا مع الحقيقة.

534 كان المقصود إصابة بسرطان غدّي متعدد الثآليل، وهو ما سوف يقوم بوصفه لأول مرة في 1948 الطبيب الأمريكي لوران ف. أكيرمان (1905 - 1993). في 1923، كانوا يتحدثون عن «سرطان الفك العلوي المتطور ببطء». انظر ماكس شور، «الموت في حياة فرويد»، المصدر السابق.

535 بعد سنوات، في لندن، نقل جونز هذا النقاش إلى فرويد. وشعر فرويد بغضب شديد، وفجّرَ هذا الغضب: بأي حق (mitwelshem Recht؟) قرروا إخفاء الحقيقة عنه؟ لم يكن فرويد يتحمل أن يكون «تحت الوصاية» (Bevormundung). انظر فيليس غروث كورث، «فرويد، الخاتم السري»، المصدر السابق، ص 124. إرنست جونز وبيتر غاي يقدمان الرواية ذاتها.

536 سيغموند فرويد، «قلبنا يميل نحو الجنوب»، المصدر السابق، ص 338.

537 شارون روم وإدوار لوسي، «هانز بيشلر: معالج فم سيغموند فرويد»، Oral Surgiry,Oral Medicine and Oral Pathology، يناير/كـ$_2$ 1984، ص. 31 - 32. اكزافييه رويود، «رواد الجراحة الفكية الوجهية» (1914 - 1918)، باريس آرمتان، 2010. أكّد بعض الدارسين بأن السرطان الفكي - الوجهي عند فرويد - كما وصفه نفرٌ من المؤرخين للطب وكما يشهد الأرشيف المحفوظ - كان من دون خطورة أو هو أمرٌ مّتخيل،

وأن السبب الرئيسي لتفاقمه يعود إلى العمل الجراحي الفاشل على يد هاجيك، بالأشعة وإلى المعالجات غير الموفقة التي أمر بها شور، وأن الكوكايين كان مسؤولًا عن ظهور أول تخرّش. انظر جاك بينستو، «أكاذيب فرويدية»، المصدر السابق، ص. 162ـ 163. في هذا الكتاب، القائم بأكمله على الإشاعات، لا يرد اسم بيشلر قازانجيان في أي مكان. وفوق هذا، فإن المؤلف يخلط «الورم الحُليمي» مع «سرطان الفم والفك»، ويروّج بأن سرطان فرويد لفـّقه الذين يعبدونه كصنم وذلك كي يجعلوا منه شهيدًا. إن «عدم وجود سرطان عند فرويد» كما هو مزعوم، مثله سواء بسواء كمثل العلاقة السفاحية الافتراضية مع مينا، هو من أكبر مقولات التنديد التي تبنتها مدرسة المنشقين.

538 أندريه بولزينجر، «بورتريه عن سيغموند فرويد»، المصدر السابق، ص 71_72. جميع هذه الاستشهادات مقتبسة من مراسلات فرويد وقامت الكاتبة بترجمتها.

539 بيتر غاي «حياة»، المصدر السابق، ص 508.

الفصل الثالث
فن الديوان

كتبت العشرات من المقالات أو من الكتب حول مرضى فرويد[540] وثروته منذ أن استقر وضعه كاختصاصي بأمراض الأعصاب، ومن بعدها كمحلّل نفسي، وأخيرًا كمدرب لمحلّلين نفسيين، وبالرجوع إلى الملفات الموجودة في مكتبة الكونجرس (LoC)، وكذلك إلى العدد الكبير من الشهادات حول الحالات المرضية التي يعاد تركيبها أو نشرها، يمكننا القول بأن فرويد قد عالج، أثناء حياته المهنية، ما يقرب من مائة وستين شخصًا بينهم اختلافات كبيرة، لكن أغلبيتهم العظمى من البرجوازية العليا أو الوسطى الميسورة، ومن المرجح في جميع الأحوال، أن نكتشف أيضًا في المستقبل روايات أخرى عن حالات تمّ علاجها، وهذا ما لن يُحدث تغيرًا كبيرًا في نظر المؤرخين في تناولهم للممارسة العيادية المعقدة عند فرويد.

ما بين 1895و1914، كان المرضى يأتون من الأمبراطوريات الوسطى ومن أوربا الغربية، من الشمال والجنوب، بينما وصل إليه بعد 1920 المرضى القادمون من أمريكا الشمالية، أو فرنسا، أو المملكة المتحدة، أي من البلدان «المنتصرة». في تلك الحقبة من حياته أصبح فرويد بصورة جوهرية محلّل المحلّلين، مع استمراره باعتبار العلاج قضية عائلية. فلم يحلّل ابنته لا غير بل أيضًا أصدقاء مرضاه الآخرين، وكذلك العديد من تلامذته، أو زوجاتهم، أو أقاربهم، والمعلوم أنه لم يكن يتقيد بأي قاعدة تقنية من وضع جمعيات التحليل النفسي. كما أن علينا أن نعلم بأن تلك «القواعد» نشأت تدريجيًا اعتبارًا من 1918 ولم يكن واردًا لدى حركة التحليل النفسي إجبار فرويد على التقيّد بها. وكيف يمكن قسر فرويد على الخضوع لعلاج ـ ثم لإشرافٍ كي يصبح محللًا نفسيًا؟ وكيف يمكن منعه من تحليل أقاربه أو زوجات الأقارب علمًا بأنه، حتى 1920، لم يكن الأعضاء في حلقته الأولى قد بلوروا بعدُ تلك القواعد، ناهيك بأنها فعليًا لم تطبّق في الـIPV (Verein) إلّا مع تحوّل التحليل النفسي تدريجيًا إلى مهنة[541]؟ في حقيقة الأمر، كانت القواعد من وضع وبلورة الحلقة الأولى من أجل الأجيال القادمة.

اعتبارًا من 1920، حدث تغيرٌ جوهري في تاريخ معرفة «الحالات». فبدلًا من أن يعاد تركيبها على يد فرويد بما هي قصص عيادية، ها هي معالجات فترة ما بين الحربين يرويها المحللون أنفسهم بصيغة شهادات، أو تخيلات ذاتية، أو دراسات بتصرف الأجيال اللاحقة، وينشرها مؤرخون

أو أصحاب الحق بالنشر، بتعبير آخر، بما يخص تلك الحقبة، فمن خلال نظرة أحد المحللين الراوي للعلاج تحديدًا يكون بإمكاننا تقدير وفهم عمل فرويد العيادي السابق، وليس استنادًا إلى قصص منشورة من طرفه شخصيًا. والاختلاف كبير في الحالين. كما نعلم في جميع الأحوال بأن المرضى الذين استقبلهم فرويد بهذه الصفة «كمرضى» - قبل وبعد 1914 - كانوا إلى هذا الحد أو ذاك مجبرين من طرف المحيطين بهم كي يتعالجوا: تلك هي حالة جميع النساء في «دراسات حول الهستريا»، من تأليف إيدا بوير، ومارغريت سونكا، وكثيرات غيرهن. في مثل هذه الشروط، كان الحظ قليلًا لتلك العلاجات كي تُعاش باعتبارها «نجاحات»، لا سيما عندما يتعلق الأمر بنساء صغيرات العمر متمردات على أسرهن، واللواتي يتبدى فرويد في أعينهن كطبيب شهواني أو كمتآمر مع الأهل. وعلى العكس فإن المرضى الذين كانوا يأتون بملء إرادتهم إلى التحليل في برغاس كانوا يشعرون عمومًا بالرضى. ومن هنا هذه المفارقة: فالعلاجات كانت أكثر «نجاحًا» كلما كانت ناتجة عن اختيار حر بموافقة من الشخص المعني. وقد وضع فرويد فعليًا نظريته القائلة بأن أي تجربة للتحليل النفسي لا يمكن لها أن تتم من دون الموافقة الكاملة من المريض، يجب علينا أن نوضح أيضًا، كلما كان المحلل متشوقًا ليمارس التحليل، يكون العلاج موجهًا إلى التداوي قبل أن يصبح إرشادات وتعليمات، حيث يلتزم المريض بقضية. نتيجةً لهذا الأمر - بغض النظر عن الاستثناءات -، كانت العلاجات الأكمل - أي الأكثر إرضاءً من وجهة نظر المرضى - هي العلاجات الناتجة من طرف، عن إرادة واعية، ومن طرف آخر، عن التزام نضالي[542].

كان مرضى فرويد، في غالبيتهم العظمى من اليهود ومن المصابين بحالات عُصابية بالمعنى العريض لذلك المصطلح أثناء النصف الأول من القرن: حالات عُصابية خفيفة أحيانًا لكنها في أغلب الأحيان خطيرة جدًا، وسوف توصف لاحقًا بأنها حالات انتقالية - borderline -، بل وحتى حالات ذُهانية. كان من بين هؤلاء مثقفون، غالبًا من المشهورين - موسيقيين، كتاب، مبدعين، أطباء، إلخ[543]، وهم من الراغبين، ليس بمجرد التداوي إنما أيضًا بتجريب الشفاء عن طريق الكلام من طرف الأب المؤسس. بصورة عامة كانوا يحضرون إلى عيادة برغاس بعد جولةٍ طافوا بها للتداوي عند أقطاب العالم الطبي الأوروبي: أطباء نفسيين أو اختصاصيين من كل صنف بما يتعلق بالأمراض العصبية، ومهما قيل عن هذا الأمر، لاسيما قبل 1914، كانوا جميعهم في مواجهة مع ذلك «العدم

العلاجي» الشهير والذي كان من السمات البارزة في حالة الطب العقلي خلال تلك الحقبة.

بهذا الصدد، إن النجاح الهائل الذي حظي به التحليل النفسي كان نتيجة لابتكار فرويد لنظام تأويل العلل النفسية. وهو نظام قائم على الملاحم السردية التي كانت تسهم أكثر فأكثر في فك شيفرة أحجيات توصيف الأمراض النفسية. فعلى «ديوان» ذلك العالم المتميز بأصالته الكبيرة، الذي كان يعاني من الآلام في جسده، والمحاط بمجموعاته الشهيرة من المقتنيات وكلاب ذات جمال مذهل، كان كل مريض يستطيع أن يعتبر نفسه بطلًا في مشهد مسرحي مؤلف بألمعية من أمراء، وأميرات، وأنبياء، وملوك معزولين وملكات في حالة من البؤس، كان فرويد يسرد حكايات، يلخص روايات، يقرأ أشعارًا، يسترجع ذكرى خرافات. فالقصص اليهودية الـ Witz، وقصص الرغبات الجنسية المكبوتة في أعماق النفس، كل هذه الأمور صالحة في نظره لإعطاء الشخص الحديث ميثولوجيا تعود به إلى روعة أصول الجنس البشري. على المستوى التقني، كان فرويد يعلّل تلك الوضعية بالتأكيد على أن التحليل الصحيح - أي الناجح - هدفه إقناع المريض بتقبل حقيقة التركيب البارع، بكل بساطة لأن هذا التركيب يعطي منفعة أعلى من منفعة مجرد استعادة ذكرى من جديد. بتعبير آخر كان العلاج الناجح هو العلاج الذي يسمح للشخص المعني بفهم السبب العميق لعذاباته ولإخفاقاته، وبالتغلب عليها كي يحقق رغباته تحقيقًا أفضل.

كان فرويد يستقبل يوميًا ثمانية مرضى لجلسات تستغرق الجلسة خمسين دقيقة ست مرات أسبوعيًا، على امتداد أسابيع عديدة وأحيانًا لأشهر. ويحصل أحيانًا أن من العلاجات ما لا نهاية لها، حيث هناك رجعات وانتكاسات. فوق ذلك، كان فرويد يستقبل أيضًا مرضى آخرين يطلبون استشارات بكل بساطة، أو توصية بمعالجات بالأدوية، أو من أجل بعض الجلسات القليلة للعلاج النفسي. بصورة عامة لم يكن يدوّن أي شيء أثناء الجلسات. وكان فن الديوان لديه يشبه الدليل في السفر: كما حال فيرجيل الذي يقوده دانتي في «الكوميديا الإلهية». وإذا كان يطلب التعفف، فلم يكن يخضع أبدًا إلى أي مبدأ «محايد»، مفضلًا «الانتباه المتموّج» الذي يتيح تفعيل النشاط اللاشعوري. كان يتكلم، يتدخل، يشرح، يأوّل، يخطئ، ويدخن السيجار تلو السيجار دون أن يقدم سيجارًا للمرضى، وهذا ما كان يثير عندهم ردود فعل متنوعة. في الختام، كان يستعرض بهذا الصدد بعض تفاصيل حياته الشخصية ويشير إلى الأمور التي يتذوقها، وإلى

اختياراته السياسية، وقناعاته. مختصر القول، كان يجعل نفسه من ضمن العلاج، لاقتناعه بأنه سوف يتغلب على أكثر المقاومات صلابة. وحين لا يتم له هذا الأمر، يحاول أن يفهم لماذا، إلى اللحظة التي لا يعود لديه فيها أدنى أمل بالنجاح. من طرف آخر كان أحيانًا يرتكب بعض ما يمكن وصفه بإفشاء أسرار، حين ينقل إلى من يتراسل معهم مضمون جلسات يقوم بها، أو حين يقرأ لبعض المرضى الرسائل الواردة إليه بخصوصهم والتي كان يُفترض أن تظل سرًا بينه وبين مرسليها. كان فرويد يمسك حساباته يومًا بيوم في أجندة خاصة (Kassa - Protokoll)[544] ويتكلم باستمرار عن المال في رسائله. ما بين 1900 و1914، كان قد اكتسب موقعًا اجتماعيًا مساويًا لموقع كبار أساتذة الطب الذين كانوا هم أيضًا يستقبلون مرضى في عيادة خاصة[545]. كان بالتالي يماثل في الغنى أشهر المعالجين في جيله، وكان نمط حياته مساويًا لهم.

أثناء الحرب، انهارت مدخولاته مع انهيار الاقتصاد النمساوي. لكنه بدأ، اعتبارًا من 1920، بإعادة ثروته عن طريق استقبال، ليس مرضى الأمبراطوريات القديمة وحسب، التي دمرتها الأزمة المالية وإعادة تسعير العملة، وإنما أيضًا أطباء نفسيين أو مثقفين أجانب ميسورين من الولايات المتحدة أو من الراغبين بالتأهيل ليكونوا في مدرسة التحليل النفسي. وهكذا أصبح فرويد تدريجيًا محلّل المحلّلين.

كان فرويد يستوفي أتعابه بالعملة الصعبة، حين يكون هذا الأمر ممكنًا. ومع مرور السنوات، أمكنه إيداع أموال في الخارج، أضيفت إلى حقوقه كمؤلف وهي حقوق لا يستهان بقيمتها. كان يربح أقل من المحلل النفسي الذي يقيم في نيويورك أو في لندن، لكنه بوضوح كان أيسر حالًا من تلامذته الألمان، والهنغاريين، والنمساويين الذين، من جانبهم، كانوا يعانون من تأمين ما يكفيهم وسط نظام اقتصادي كارثي. في أكتوبر/ ت1 1921، بعد أن تمنى أن تحضر لو أندرياس - سالومي إلى فيينا كما كانت قد عبرت عن هذه الرغبة، كتب إليها ما يلي: «إذا كان انقطاع علاقاتك مع بلدك يعيق حرّية انتقالك، أودّ أن تسمحي لي بأن أرسل إليكِ من هامبورغ المال اللازم لسفرك. إن صهري يُشرف هناك على إيداعاتي بالمارك، ومن بعد أرباحي بالعملة الأجنبية الطيبة (الأمريكية، والإنجليزية، والسويسرية)، أصبحتُ غنيًا نسبيًا. غير أنني أود أن أستمدّ بعض المسرّات من هذه الثروات الجديدة»[546].

على سبيل المقارنة، نشير إلى أن فرويد في 1896 كان يتقاضى عشرة فلوران عن الساعة؛ وفي 1910، ما بين 10 إلى 20 كورونا عن الجلسة؛

في 1919، 200 كورونا، أو خمس دولارات للمريض الأمريكي (ما يعادل 750 كورونا)، أو جنيه، أيّ أكثر بقليل من ليرة استرلينية (600 كورونا) على المريض الإنجليزي غير الميسور جدًا، أخيرًا، في 1921، خطر له أن يطلب 500 أو 1000 كورونا، لكنه حذد سعر الساعة بـ 25 دولار[547]، من دون أن يمنعه ذلك من تقاضي مبالغ أقلّ من بعض المرضى.

في بعض الأحيان، لم يكن يستطيع قمع معاداته للأمريكان، تلك المعاداة غير المحقّة والشرسة، إلى حد تأكيده، على سبيل المثال، بأن تلامذته ما وراء الأطلسي لا خير فيهم إلّا بما يوفرونه له من دولارات. وذات يوم، صرّح أمام شخص يتحادث معه وأصابه بالذعر، أن بالإمكان وضع «تمثال قرد يرفعُ كتابًا مقدسًا» مكان تمثال الحرّية. وفي يوم ٍ آخر، أكّد أمام أحد تلامذته في التحليل بأن الأمريكيين من الغباء بحيث يمكن تقليص نمط تفكيرهم إلى قياس منطقي مثير للسخرية: «أنتم، الأمريكيين، أنتم تقريبًا كما يلي: الثوم، هذا طيب، الشوكولا، هذه طيبة، إذن تعالوا نضع قليلًا من الثوم على الشوكولا ولْنأكل هنيئًا»[548]. كان فرويد يشعر بإهانة عميقة لهزيمة الإمبراطوريات الوسطى، وللمركز المرتفع أكثر فأكثر للمحلّلين النفسيين الأمريكيين في الحركة العالمية للتحليل النفسي. كان يتألم لأنه لا يستطيع إلّا أن يجعل جميع مرضاه يدفعون أتعابه، ويُعبّر عن استحسانه لفكرة نشوء مؤسسات قادرة ذات يوم على أن تقدم إلى الأشد عوزًا علاجات مجانية. بصورة عامة، كان يشعر برعب أمام التصور الديمقراطي عند الأمريكيين، وحيال الحرّية الفردية وحقوق الشعوب بأن تكون سيدة مصيرها: «إن الأمريكيين، هكذا سوف يقول ذات يوم لساندور رادو، ينقلون المبدأ الديمقراطي من الميدان السياسي إلى ميدان العلم. فكلّ الناس يجب أن يكونوا رؤساء كلٌ بدوره. ولذلك فهم عاجزون عن إنجاز أي شيء مهما كان شأنه[549]».

كان فرويد دائمًا يعتبر أن العلاج بالتحليل النفسي لا يتناسب مع الأشخاص الأغبياء، غير المثقفين، المتقدمين جدًا في العمر، الكئيبين، المهووسين، والذين يرفضون الطعام أو من المصابين بحالة عرضية من التشوش الهستيري. كما كان يستبعد على حد سواء تجربة التحليل النفسي عن المصابين باضطراب ذهاني والشواذ «الذين لا يتمنون التصالح مع أنفسهم». واعتبارًا من 1915، أضاف إلى زمرة غير القابلين للتحليل الأشخاص المصابين بحالات عصابية نرجسية متفاقمة، والذين تسيطر عليهم نزوات الموت والتدمير المزمنة والتي يستحيل إعلاؤها. وفي فترة لاحقة، حين اقترح عليه فيرينتزي أن يقوم بتحليله، أجابه متهكمًا، بأن

الأمر عندما يكون متعلقًا برجلٍ في السبعين من عمره، مصاب بإدمان التبغ وبتخرّش سرطاني: لا يمكن تقديم أي علاج له. وكان فرويد بالمقابل يؤكد بأن العلاج يُنصح به لمداواة الهستيريا، والعصاب الهجاسي، والرهابات، وكل أنواع القلق، والمكبوتات، والاضطرابات الجنسانية، ويضيف بأن العلاج لا يمكن أن ينجح إلّا عند الأشخاص الأذكياء الذين يحملون حسًا أخلاقيًا والقادرين على القيام بهذا الحس الأخلاقي.

في 1928، اعترف بطريقة شديدة الوضوح لتلميذه الهنغاري استفان هولو، الفنان الذي كان من وراء إصلاح المضح، بأنه لا يحب المرضى بالذهان: «اعترفتُ أخيرًا لنفسي بأنني لا أحب هؤلاء المرضى، وأنني ناقمٌ عليهم لاختلافهم الشديد عني وعن كل ما هو إنساني. هذه طريقة محيرة من عدم التسامح تجعلني بالتأكيد غير صالح للطب النفسي [...]. فهل أنا أنصرف في هذا المجال كما كان يفعل الأطباء الذين سبقونا حيال الهستيريين، وهل يكون هذا الأمر موقفًا ثابتًا للذهن الراسخ دائمًا بصورة أوضح، والتعبير عن عداوة للهو»؟[550]

إذا أخذنا هذه التصريحات بحرفيتها، قد نفكر، إذا صدّقنا قائلها، بأن التحليل النفسي لا يناسب سوى الأشخاص المثقفين، القادرين على الحلم أو على التخيّل الوهمي، الواعين لحالتهم، المشغولين بتحسين رفاهيتهم، الذين يتحلّون بأخلاقيات فوق كل شبهة وأن بالإمكان شفاءهم بأسابيع قليلة، أو بأشهر قليلة، بفضل تحويل أو تحويل مضاد من النوع الإيجابي؛ والحال أننا نعلم جيدًا بأن معظم المرضى الذين يأتون إلى عيادة بِرغاس لم تكن لتتحقق فيهم هذه المواصفات.

بتعبير آخر، منذ بداية القرن، كان هناك تناقض كبير بين تعليمات العلاج الموصوفة من طرف فرويد في كتابته وواقع ممارسته وتعامله مع مرضاه. وهذا الأخير كان على وعي أكبر بأنه كان قد عدّل مذهبه حين قدّم وصفًا في «من أجل تقديم النرجسية» وفي « ما وراء مبدأ اللذة»، عن الحالات التي كان لديه شك حيالها بعدم إمكانية وجود أي شكل لشفائها. ومع ذلك، على سبيل معارضة العدمية - إنما تحت ضغط الضرورات المالية، ورغبته الدائمة بالوقوف موقف التحدي -، فقد قبل القيام بتحليل أشخاص يقال عنهم «غير قابلين للتحليل» على أمل، إن لم يكن تحقيق شفائهم، على الأقل تخفيف آلامهم أو تعديل شروط حياتهم. سبق أن قيل إن هؤلاء المرضى، المهووسين، الذهانيين، الكئيبين، الحاملين للرغبة بالانتحار، الشواذ، المازوشيين، الساديين، المدمرين لأنفسهم، النرجسيين، كانوا يستشيرون أخصائيين آخرين وهؤلاء لا يحققون نجاحًا أكثر منه[551]. غير

أن فرويد هو الوحيد المتهم بين الجميع بالمساوئ، أثناء حياته وأكثر أيضًا بعد مماته: فهو مشعوذ، محتال، قضاب، إلخ. لهذا السبب من المهم جدًا إجراء دراسة تفصيلية لبعض العلاجات، من بين الأكثر كارثية رغم تحقيقها لأفضل الشروط، نشير بداية، من بين المائة وعشرين مريضًا الذين استقبلهم فرويد - بجميع الميول المختلطة -، ثمة عشرون لم يحققوا أي نفع من العلاج، كما أن هناك عشرة رفضوا العلاج إلى حد الشعور بكراهية المعالج. ومعظمهم لجأ إلى علاجات أخرى، في ظروف مالية متماثلة ومن دون الحصول على نتائج أفضل، ولا يوجد أي باحث حتى يومنا هذا يقدر على أن يقول ماذا كان يمكن أن يصير إليه هؤلاء المرضى لو لم يفعلوا أبدًا أي شيء لمعالجة آلامهم.

في بداية القرن، تحديدًا في تريست، المرفأ الساحلي بنمطها الباروكي، وهي حينذاك تحت السيطرة النمساوية، مثلما هي طريق عبور بين أوربا الوسطى وشبه الجزيرة الإيطالية، تجذرت إحدى أكثر المغامرات العيادية تفردًا مما واجهه فرويد. وذلك أنه في أكتوبر/ت1 1908، حضر إليه في برغاس طالب في الطب، إدواردو ويس، كان يحمل حياله إعجابًا كبيرًا منذ أن قد قرأ «تأويل الحلم». كان ابن أحد الصناعيين اليهود من الذين تعود جذورهم إلى بوهيميا وقد جمع ثروةً من تجارة زيوت الطعام: «حين تحضرت للرحيل، هكذا سوف يقول لكورت إيسلر، سألني فرويد لماذا أنا مستعجل إلى هذه الدرجة. فقلت لنفسي حينذاك إنه سعيد بمقابلة شخص قادم من تريست. في الماضي، كان هو نفسه، كما نعلم، قد أقام لفترة في مدينة جوليان. كان يحب إيطاليا وقد شعر بغبطة لأنه وجد شخصًا من أهالي تريست يهتم بأعماله. كان عمري حينذاك تسعة عشر عامًا. بعد انتهاء الزيارة، سألته كم يجب أن أدفع له مقابل الاستشارة[552]، وبطريقة ساحرة، أجابني أنه لا يقبل أي شيء من زميل له».

لم يقبل فرويد القيام بتحليل ذاك الذي سوف يُدخل مذهبه إلى إيطاليا والذي هو من خيرة تلامذته، وهكذا فقد أرسله ليكمل تأهيله على ديوان بول فيدرن، الذي سوف يصبح معلمه وصديقه وصولًا إلى النفي في أمريكا.

كان مثقفو تريست، المشابهون إلى حد بعيد لأهالي فيينا في «العصر الجميل»، يريدون أن يكونوا «من المطالبين بالحقوق الوطنية». وبطريقة معقدة، كانوا يطالبون ليس بهويتهم الإيطالية لا غير، وإنما كانوا على تعلّق عميق بتلك الثقافة الأوربية التي تجعلهم يتحسسون حيال جميع الحركات الكبرى للطليعة الأدبية والفنية. وأما بخصوص المثقفين اليهود المتخلصين

من يهوديتهم والخارجين من البرجوازية التجارية - الميسورة أو غير الميسورة -، فهم يتطلعون إلى انعتاق يماثل انعتاق أبناء فيينا، هذا مع توجيههم لانتقادات شرسة وكئيبة حيال أسرة هابسبورغ الملكية. باختصار، كانوا يشعرون بأنهم إيطاليون أكثر مما هم النمساويون، وأنهم يهود أكثر مما هم إيطاليون وهم يعانون من حالات العُصاب العائلية إلى الدرجة التي يجدون أنفسهم معها مندفعين وراء فكرة تقصي حقيقتهم الذاتية.

عندما التزم ويس بقضية التحليل النفسي، كان إيتالو سفيفو - اسمه الحقيقي إيتور شميتز - مهتمًا، هو الآخر، بكتابات فرويد التي كانت في تلك الحقبة موضع تعليق مشغوف من طرف الأنتلجنسيا في تريست: إنها «إعصار» حقيقي حسب قول جيورجيو فوغيرا[553]، وهو الآخر من عائلة تجار يهود، وكان قد تزوج من ابنة خاله ليفيا فينيزياني، وكان والداها من أصحاب الثروة الذين تحولوا إلى الكاثوليكية، وشقيقها برونو فينيزياني، من المثليين، والمدمنين على التبغ والمخدرات، وكانت تربطه صداقة شباب مع ويس. ورغم ارتباطه بصداقة مع أمبيرتو سابا، أحد شعراء تريست، الذي سرعان ما قام ويس بتحليله، ومع جيمس جويس، الذي كان يعلّم اللغة الإنجليزية في مدرسة برليتز في تريست، فإن سفيفو، المدمن على التبغ مثل فرويد تمامًا، نشر روايتين من دون أن يلاقي نجاحًا. وحين تقابل مع إيزيدور سادجر في 1911، أثناء الاصطياف في باد إيخل، كاشفه بارتباطه الكامل بالنيكوتين[554].

إن سفيفو، بمظاهر طبيعية جدًا في حياته المهنية كرجل أعمال يدير مشروع أهل زوجته[555]، لم يكن ذلك ليمنعه، في حياته الخاصة، من أن يكون تحت وطأة هوامات جنسية وإجرامية، كان يحلم بالتهام زوجته قطعةً قطعةً بادئًا من جزمتها، كما كان يعبر عن غيرة وغرابة ولا يكفّ عن تخيل أنه يعضها في وجهها. وهكذا فهو يشبه إلى حدّ بعيد إحدى الشخصيات الروائية التي استوحاها جويس منه كي يرسم شخصية ليوبولد بلوم في «عوليس». كما سوف يتذكر أيضًا ليفيا و«شعرها الأشقر الطويل» عندما شرع بكتابة «Finnegans Wake».

وأما أولغا فينيزياني، أم ليفيا وبرونو، فكانت كما لو أنها خارجة بخط مستقيم من إحدى روايات فرويد عن الحالات المرضية التي عالجها. فهي شديدة الانفعال، وتكره صهرها، وتعاني من مشاكل زوج يخدعها و«تغطي كل شيء بأبخرة ساخنة[556]»، وكانت قد أحبّت ابنها الوحيد وتعلقت به إلى الحدّ الذي جعلها تريد أن تجعل منه عبقريًا: كموسيقي لا يُشق له غبار

وكرجل أعمال كبير الشأن. وهكذا فإن برونو منذ طفولته كان عرضةً لتشنجات خطيرة، ويعالَج على يد أوغيستو موري من دون فائدة، علمًا أنه كان أحد أعلام الطب الوضعي في عصره[557]. في مواجهة سطوة تلك الأم ذات الغنى الفاحش والمصابة باختلال التصرفات، كان يشعر بالرعب ويعيش حياة مضطربة معلنًا على المكشوف عن مثليته الجنسية.

استنادًا إلى نصيحة ويس وأمه، استشار برونو فينيزياني أكثر من محلل نفسي: ويلهيلم ستكيل، إيزيدور سادجر، رودولف ريتلر، كارل أبراهام. ثم، مابين 1912 و1914، تمدد بصورة متقطعة على ديوان فرويد، الذي قضى وقتًا طويلًا ليتنبه بأن أي علاج لن يؤدي إلى نتيجة في مثل تلك الحالات المرضية التي يرغب بها المريض رغبةً شديدة. في 31أكتوبر/ت1 1914، بعد وصوله إلى مرحلة القنوط، أكد بأنه لا مجال للقيام بأي شيء من أجل ذلك «المريض السيء»، وأشار أبراهام، بصدد حالته، إلى أن نرجسية ذلك المريض الرهيب تستعصي على كل شكل من أشكال التأويل[558]. ونظرًا لصدمته حيال الفشل الجذري لمعالجة صهره، وحيال المبالغ التي أنفقت في هذا العلاج، فقد شعر سفيفو بمرارة حادة وأصبح على قناعة بأن العلاج بالتحليل النفسي خطير: من غير المجدي، هكذا سوف يقول، محاولة تفسير حقيقة أي إنسان، والحياة التي تعاش كرواية لتحليلٍ ذاتي هي وحدها التي تسمح، حسب رأيه، بعدم «مداواة الحياة»، لعلمه بأن الحياة هي في حد ذاتها مرضٌ مميت. عاد فينيزياني إلى تريست بينما شرع سفيفو في خضم الحرب، بترجمة نصوص لفرويد وهو يفكر أثناء ذلك بكتابة رواية جديدة، يكون موضوعها تاريخ علاج خاطئ من علاجات التحليل النفسي، وتكون قائمة على محور إدمان التدخين لدى شخص مصاب بأعراض مرض مجهول، مرض «السيجارة الأخيرة»، فكيف توضع نهاية لهذا الإدمان، إن لم يكن بعدم اتخاذ القرار أبدًا بالتخلص منه؟ وهذا سؤال فرويدي بامتياز.

في 1919، ها هو برونو فينيزياني، الذي لا يزال مدمنًا على المخدرات، يعود بطلب من أمه إلى طوافه الذي لا ينتهي للتداوي في اللحظة التي كان سفيفو قد بدأ بكتابة قصة النسخة الثانية عنه - زينو كوزيني -، والتي هي أيضًا قصة إيتور شميتز وإدواردو ويس. حينذاك تحديدًا اقترح ويس على برونو أن يعود إلى ديوان التحليل عند الهر بروفسور، وأن يشترك باجتماعات الـWPV، لكن كان رد فرويد على هذا المشروع سلبيًا: «أظن أنه لا يمثل حالة صالحة. هو يفتقر إلى أمرين: من طرف، نزاع بين أناه وحاجاته النزوية، وهذا ما يجعله راضيًا عن نفسه ومتألمًا من عدم تجاوب

الظروف الخارجية، ومن طرف آخر، يفتقر إلى أنا نصف طبيعية وقادرة على التعاون مع المحلل، بسبب هذا النقص، هو يحاول دائمًا خداع المحلل والتخلي عنه بالتظاهر. ومن هنا لديه وجود أنا نرجسية إلى أقصى حد، مستعصية على كل تأثير، وبخدمتها، لسوء الحظ، موهبة وإمكانات شخصية[559]».

أشار فرويد إلى أن أولغا لم تكن تريد فك قبضتها عن ابنها، فنصح بإرسال المريض إلى مصح بادن - بادن، وسرعان ما توجه برونو فينيزياني إلى غروديك لثلاث إقامات متعاقبة، قابل أثناءها عشيقًا جديدًا من دون أن يتخلى عن إدمانه للمخدرات، وهاجر بعد ذلك إلى مستوصف بيلفيو، عند بنسوانجر، حيث توافرت لديه أوقات الفراغ ليجابه الآلام الكئيبة لقسم كبير من نخبة الأنتليجنسيا الأوربية. أخيرًا، وقد أصبح أشد شقاء من أي وقت مضى، رجع إلى تريست وقد دخل إلى المستشفى النفسي بصورة متقطعة، وحمل على كاهله القيام بدور شخصية روائية، عاجزة ومنهارة، شبيهة بالبطل الذي قدم وصفًا عنه في 1923 صهره في رواية «وعي زينو». ومن أعماق شقائه، أصبح حين ذاك المتفرج على الكوارث الكبرى في أوربا، باحثًا باستمرار عن غيرية مستحيلة.

بعد موت أولغا، التي تركت له في 1936 القسم الأكبر من الميراث العائلي، استقر المقام بالمريض القديم لفرويد في روما، كي ينطلق للانخراط بمشروع أن يصبح موسيقيًا باروكيًا. بعد عامين من ذلك التاريخ، تمامًا قبل أن يهاجر، أرسله ويس إلى زميل من أتباع يونغ، وأخذه هذا على عاتقه واقترح عليه ترجمة مؤلفاتٍ لمعلم زيوريخ. في نهاية المطاف، وصل فينيزياني إلى الطمأنينة حين وجد عشيقًا ساعده على الهرب من الاضطهادات الفاشية، توفي 1952، «وقد نخرت كبده الأوجاع والسموم»، بعد أن ترك نصف أسهم المصنع العائلي كي يشتري لنفسه آلة كلافسان[560] - البيانو القديم -.

بالاستنادًا إلى قصة التشزد، الذي جنّبه تجربة الديوان بينما كان فرويد يحلم بتحليله، ابتكر سفيفو إحدى أكثر الشخصيات فتنةً في أدب القرن العشرين: البطل - المضاد الحديث، زينو، الذي يتألم من عدم استقراره، وكآبته، وإدمانه على التبغ، ومن عبثيات حياةٍ رهن الفشل، باختصار، كان سفيفو الكاتب الأول من أبناء جيله الذي خلق من أجزاء متفرقة متنوعة مريضًا فرويديًا من الربع الأول من القرن العشرين، هو مريض مزمن، في مجابهة مع محلّل نفسي عاجز ومنتقم - الدكتور س. - الذي يسيطر عليه هاجس موت الأب وقدرة النساء، المتنافس مع أنا آخرى تفكر بالانتحار،

وتحلم أخيرًا بفاجعة عظيمة تؤدي إلى تفجير كوكب الأرض: «هناك رجل عاديٌ سيخترع مفجرًا فريدا من نوعه... ثم إن رجلًا، كما يكتب، عاديٌ أيضاً، لكنه أشد مرضًا بقليل من الآخرين، سوف يسرق ذلك المفجر ويغوص في وسط الأرض ليضعه حيث يكون تأثيره أقوى ما يمكن. سوف يحدث انفجار هائل لا أحد يسمعه، والأرض، بعد رجوعها إلى الحالة السديمية، سوف تعود إلى دورانها في السماوات، بعد أن تخلصت من الطفيليات والأمراض[561]».

إن فرويد، الواقف عن قصد بعيدًا عن الحداثة الأدبية، خصوصًا عندما تستلهم كتبه، لم يهتم أبدًا برواية «وعي زينو». وأما ويس فرفض أن يقدم تقريزا عن الكتاب، رغم طلب الكاتب. وأدهى من هذا، فبعد ثلاثين عامًا من وفاة الأخير، سوف يؤكد باستمرار بأن الرواية لا تعكس بتاتًا منهج التحليل النفسي، وأنه شخصيًا لا يشبه الدكتور س.[562] ومن جديد، كما الحال مع معظم المحللين النفسيين، راح يبحث في المؤلفات الأدبية عن انعكاس المذهب الفرويدي، دون أن يعطي أدنى أهمية للطريقة التي أسهم بها ذلك المذهب في تجديد الأدب.

بعد سنوات من وفاته، ها هو إيدواردو ويس بدوره ضحية للتكفير بسبب منهجه الخاص، حين شرح نفرٌ من الباحثين، مسلّحين بالمذهب الفرويدي، بأن رفضه للرواية يكمن في تحويل مضاد سلبي حيال سفيفو، الذي كانت جريمته الكبرى عدم احترام ما يمثل من «سلطة أبوية[563]».

يشبه قدر فينيزياني في نهاية المطاف أقدار أوتوغروس، والبارون فون ديرستاي، وفيكتور توسك، وهوراس فرانك، وكثيرين غيرهم، مثل كارل ليبمان[564]. إنهم بصورة من الصور أبطال مضادون لتاريخ الخرافة الفرويدية، لقد تناستهم، أو نبذتهم، أو أساءت معاملتهم، الكتب التأريخية الرسمية، ثم أعيد الاعتبار إليهم من طرف المعادين للفرويدية، فهم يؤلفون ما يشبه جماعة ملعونة ليس بإمكان أي مؤرخ بعد اليوم تجاهلها، إلّا إذا كان لا يفهم شيئًا من تعقيد المغامرة الفرويدية.

بعد 1920، كان بإمكان فرويد الشعور بسعادة غامرة وهو يتأمل النجاح الهائل الذي يحصده التحليل النفسي من أقصى الكوكب الأرضي إلى أقصاه. في تلك الحقبة، كان من الواضح تمامًا بأن قضيته بدأت تتقدم، علمًا بأنه لم يكن راضيًا كثيرًا عن هذا الأمر. كل الأمور كانت تنحو وكأنه يخشى من بعد نبذ أفكاره، أن يُصار إلى قبولها لا لشيء إلّا لتشويهها. فماذا يكون تصرف «الأوباش» حين لن يعود على قيد الحياة؟ هكذا كان يسأل نفسه وهو يفكر بجميع «الانحرافات» التي أوقعها معاصروه بمذهبه. ومثل

الكثير من المؤسسين، كان فرويد يريد أن يظل الحارس الشرس لمفاهيمه وابتكاراته، مجازفًا هكذا بشزعنة عُباد الأصنام أو البُلهاء.

بهذه الحالة النفسية راح يستقبل في برغاس جميع المرضى من البلدان المنتصرة - لا سيما الأمريكيين بينهم -، الذين كانوا يجلبون له العملة الصعبة بالقدوم لتأهيلهم لممارسة مهنة التحليل النفسي، مع رغبتهم الشديدة بالتعرف على أنفسهم بالذات. وعبثًا كان فرويد يحتج، فهو مُجبر تمامًا على القبول بأن هذه العلاجات التي تجري باللغة الإنجليزية مع تلامذة متعاونين سوف تحقق له مستقبلًا ممكنًا، مفتوحًا أمام التحليل النفسي، وهو مالم يخطر له على بال، وهكذا وجد نفسه مُجبرًا على تلطيف معاداته للأمريكيين، وعلى القبول بأن أراضٍ موعودة جديدة في طريقها للانفتاح أمام مذهبه: فرنسا، المملكة المتحدة، الولايات المتحدة، أمريكا اللاتينية، اليابان، إلخ.

ولد أرام كاردينر في نيويورك، وكان من عائلة خياطين يهود قدموا من أوكرانيا، وهو طبيب عمره ثلاثون عامًا، وقدم حضر إلى فيينا في أكتوبر/ت19211ليباشر علاجًا عند فرويد كما سوف يفعل في تلك الفترة نفرٌ من أبناء وطنه: أدولف ستيرن، مونرو ماير، كلارنس أوبيرندورف، ألبير بلون، ليونارد بلومغرا[565]. كان مولعًا بالأنثروبولوجيا ويرفض الأفكار المتعصبة، وهو يمارس التحليل من بعد علاج أولي رأى بأنه غير كافٍ، على ديوان التحليل عند هوراس فرانك.

على مدى ستة أشهر، روى لفرويد حكاية والديه، المهاجرين الفقيرين الهاربين من اضطهادات معاداة السامية: وصولهم إلى إيليس إيسلاند، البحث عن وظيفة، موت أمه المصابة بالتدرن الرئوي، بينما كان ما يزال عمره ثلاثة أعوام، الصلوات التي كانت تقال بلغة لا يعرفها، الخوف من البطالة، والجوع، ثم ظهور أم جديدة، قادمة من رومانيا وهي قد حركت عنده رغبة جنسية قوية، تكلم كاردينر عن تذوقه للموسيقى، وعن اكتشافه ليهوديته، وعن لغة اليديش، ثم عن معاداة السامية وعن رغبته بأن يصبح «طبيبًا» عظيمًا، وعن اهتمامه بالأقليات - الهنود، الإيرلنديين، الإيطاليين -، ذلك الخليط الرائع الذي يشبه في بعض جوانبه خليط أوربا الوسطى.

أشار كاردينر إلى ذكريات المراهقة، كانت زوجة أبيه تعاني من تشوه في الرحم يحول بينها وبين الحصول على أطفال، وهو ما كان يبعث في نفسه السرور. أمَّا والده، فيتذكر أنه في الماضي كان قد شتم وضرب والدته التي كان قد تزوجها دون حب، وهكذا فقد احتفظ في ذاكرته بصورة المرأة الشقية التي ولدته دون أن يتوافر لها الوقت لتربيته.

وتحديدًا بتأثير أمه الثانية المعشوقة استطاع والد المريض أن يصبح زوجًا حقيقيًا متفانيًا حيال عائلته، ومن بعد غراميات صعبة مع فتاة صغيرة السن، وعقب حالة انهيارية، شرع كاردينر بدراسة الطب، منتقلًا على هذه الصورة من وضعية ابن الخياط اليهودي الذي أصبح أمريكيًا إلى وضعية المثقف اللامع المفتون بالتحليل النفسي وبالتثاقف، لكنه مع ذلك يعاني من قلق شديد، يسبب له الضعف في جميع تصرفات حياته.

روى لفرويد حلمين، في الحلم الأول رأى ثلاثة إيطاليين يتبولون عليه وقد رفعوا أعضاءهم الذكرية، وفي الحلم الثاني كان ينام مع زوجة أبيه. بكل وضوح كان كاردينر «مريضًا فرويديًا» مثاليًا، ذكيًا، قادرًا على الحلم، مصابًا بعُصاب زُهابي، وبتثبيت غرامي على زوجة أب بديلة عن أم ضحية لأبٍ مضطهَد، كان قد رتب زواجًا اتفاقيًا قبل الهجرة. أما هو من جانبه فكان راغبًا ببساطة أن يقوم بتلك التجربة مع معلم فيينا، من دون أن يُظهر حياله أدنى نظرة صنمية. ورغم إعجابه به، كان يناقشه مع ذلك بأريحية حول تأويلاته. لم تكن تلك هي حالة كلارنس أوبيرندورف، تحت العلاج في الوقت نفسه الذي كان يتداوى فيه كاردينر، وهو من أسس مع بريل جمعية نيويورك للتحليل النفسي (NYPS). كان فرويد يحتقره ويرى بأنه غبي ومتعجرف[566]. غير أن أوبيرندورف كان وفيًا له أكثر من كاردينر، رغم أنه لم يكن أكثر تحفظًا - وهو على حق بذلك - حول هوس المحللين النفسيين والذي يدفعهم للبحث في كل شيء عن «مشاهد بدائية». كان يعتبر منذ ذلك الوقت بأن العلاجات بالطريقة القديمة لم تعد صالحة للأزمنة الحديثة[567].

منذ اليوم الأول لتحليله، روى حلمًا اقتيد فيه نحو وجهة مجهولة في عربة يجرها حصانان، أسود وأبيض. كان فرويد يعلم بأن مريضه، المولود في أتلنتا وسط عائلة جنوبية، كانت تشرف عليه في طفولته مربية سوداء كان شديد التعلق بها. وها هو دفعة واحدة يعطي هذا الحلم تأويلًا صاعقًا إذ أعلم أوبيرندورف أنه لن يوفَّق بالزواج؛ لأنه لم يحسم أمره، هل يريد امرأة بيضاء أم امرأة سوداء، غير أن أوبيرندورف، الذي خرج عن طوره، تناقش مع فرويد حول هذا الحلم ومع كاردينر طيلة أشهر[568]. كان يشعر بأنه قد أُهين خاصةً وأنه قد أصبح محللًا متفوقًا، وكان تأهيله على ديوان فيديرن، وهو نفسه ضليع بتأويل الأحلام. في رأي كاردينر، بقي عازبًا واستمر فرويد باحتقاره. أما مع كاردينر، فكان فرويد لديه ما يشعره بالسعادة أكثر من تعامله مع أوبيرندورف. وكما لو أنه متنبئة دانوبية، شرح له أنه قد توحد مع شقاء أمه - وهذا ما يشهد على «مثلية جنسية

لاشعورية» -، وأن الإيطاليين الثلاثة في حلمه يمثلون أباه الذي شعر بأنه قد أهين من طرفه وبأن قطيعته مع خطيبته تكرّر الهجر الأول الذي لن يحدث مرةً ثانية أبدًا لأنه نهض إثره وحيدًا بالكامل، وبخصوص حلم آخر، شرح فرويد لكاردينر بأنه يتمنى أن يبقى خاضعًا لأبيه كي لا «يوقظ التنين النائم». وحول هاتين النقطتين - المثلية اللاشعورية والخضوع للأب -، كان فرويد على خطأ، وقد لاحظ المريض هذا الأمر.

بعد ما يقرب من ستة أشهر، قدّر فرويد أن كاردينر جرى تحليله بصورة جيدة تمامًا وتنبأ له بمستقبل رائع، وبنجاح مالي استثنائي، وتوفيقًا في حياته الغرامية، وقد كان قد تنبؤه صحيحا. في 1976، حين ابتعد عن التعصب الأعمى في مجال التحليل النفسي مندّدًا على حد سواء بالمبالغة في تعميم عقدة أوديب وبالتأويلات القطعية في ما يخص المثلية الجنسية المكبوتة أو شريعة الأب، تذكّر كاردينر باستمتاع إقامته في برغاس: «يمكنني أن أقول اليوم، بعد أن أصبحت أمتلك منظورًا إجماليًا، أن فرويد أكمل تحليلي بصورة رائعة. وإذا كان فرويد محللًا كبيرًا، فلا يعود هذا سوى إلى أنه لا يستخدم أبدًا تعبيرًا نظريًا - على الأقل في تلك الحقبة - وأنه يصيغ تأويلاته بلغة عادية، فباستثناء رجوعه إلى عقدة أوديب وإلى مفهوم المثلية اللاشعورية، كان يعالج مادته من دون فصلها عن الحياة اليومية. وأما بشأن تأويله للأحلام، فهو تأويل ثاقب وحدسي بصورة فريدة.» وها هو يضيف في ما يخص خطأ فرويد حول «التنين النائم»: «الرجل الذي ابتكر مفهوم التحويل لم يكن يُحسن التعرف عليه حين يحضر أمامه، لقد فاته أمرٌ واحد لا غير، نعم، بكل تأكيد، كنت أخاف من والدي حين كنت صغيرًا، لكن، في 1921، الرجل الذي كنت أخشاه، هو فرويد شخصيًا. كان بإمكانه أن يهبني الحياة أو يحطمها، وهذا ما لم يكن الوضع مع والدي حينذاك[569]».

تزداد أهمية هذه الشهادة إذا علمنا بأن كاردينر كان قد جاء إلى فيينا لحكمه على تحليله عند فرانك بأنه لم يكن كافيًا، وكان يجهل مع ذلك بأن شفاء هذا الأخير على يد فرويد كان شديد الصعوبة. بالتأكيد، لاحظ كاردينر عدوانية فرانك غير أنه لم يتبين عنده علامات حالة الذهان، كان فرانك فرويديًا متعصبًا أكثر من فرويد نفسه، وقد أوّل علاقة كاردينر مع والده بأنه يتمنى موته حسب التفسير الأوديبي: «كنت تغار منه وتغار من أن لديه زوجته الجديدة»، هكذا قال له، وهذا التأويل المغلوط سبّب لكاردينر نكسة رجع معها إلى القلق وإلى الرغبة المشروعة بوضع نهاية للعلاج، ومن دون أن يسعى إلى إيذاء فرانك، رفض فرويد ما جاء به من

تأويل، غير أنه في نهاية التحليل، صارح كاردينر بمخاوفه. فالمشاكل العلاجية لم تعد ذات أهمية عنده، كما قال: «أنا في الوقت الحاضر أكثر تلهفًا بكثير. فأنا أعاني من بعض حالات التعويق ما يمنعني من أن أكون محللًا كبيرًا. ومن بين أمور أخرى فأنا أبالغ كثيرًا بصفتي أب، كما أنني أبالغ بالاهتمام بالنظريات[570]».

في أبريل/نيسان 1922، عندما أكّد كاردينر أمامه بأن التحليل النفسي لا يمكن أن يسبب الأذى لأي شخص، عرض فرويد أمامه صورتين شمسيتين لفرانك، إحداهما ملتقطة قبل تحليله (أكتوبر/ت$_1$ 1920) والأخرى بعد التحليل بعام كامل[571]، كان فرانك في الصورة الأولى يشبه الرجل الذي تعرّف عليه، أما في الصورة الثانية فكان يبدو زائغ النظر ومشتتًا، فهل كانت فعلًا تجربة الديوان هي التي أحدثت عنده هذا التغير؟ كان كاردينر يشك بذلك أكثر بكثير من فرويد[572] الذي لم يتوصل أبدًا إلى الخلاص من كابوس ذلك العلاج الفاجع حيث اختلطت أوراق العلاقات الزوجية، والدعارة، والزواج الداخلي في ميدان التحليل النفسي، وخطأ التشخيص. لقد وُلد هوراس ويستلاك فرانك في عام 1883، ولم يكن يهوديًا، ولا ابن مهاجرين أوروبيين، ولا غنيًا، ولا عصابيًا. كان يتمتع بذكاء فريد، وقد انخرط في وقتٍ مبكر جدًا بدراسات الطب النفسي كي يصبح محللًا. كان يعاني منذ شبابه، من ذُهان هوس - انهياري، وقام بريل بتحليله، ثم استقبلوه وسط الـNYPS قبل أن ينشر، بعد سنوات من ذلك التاريخ، كتابًا شديد الرواج أسهم بتوسيع شعبية الفرويدية أكثر فأكثر ما وراء الأطلسي[573]. في 1918، كان قد أصبح أشهر محلل نفسي في الشاطئ الشرقي، مع أنه يعاني بصورة دائمة من نوبات هوس وكآبة مع هذيانات وهواجس انتحارية. كان يشاطر زوجته الشرعية أمور الحياة، واسمها دوريس بيست، وقد رُزق منها بطفلين كما كان يشارك حياته مع عشيقته، أنجليكا بيور، مريضته القديمة، وهي تملك ثروة كبيرة بالوراثة، ومتزوجة من أبراهام بيور، أحد القضاة الأمريكيين اللامعين، وقام هو شخصيًا بتحليله، ومن بعده حلله تادوس إيمز.

تحت ضغط من عشيقته كي يطلق زوجته، حضر فرانك إلى فيينا ليباشر التداوي على يد فرويد حتى يقرر من ستكون شريكة حياته، وبدورها هاهي أنجليكا (أنجي) تستشير فرويد، الذي نصحها بالطلاق من زوجها وبأن تتزوج فرانك، وإذا لم تفعل قد يصبح فرانك مثليًا بصورة متخفية بدرجة أو أخرى، كما أنه قد شخّص عند مريضه مثلية جنسية مكبوتة، في حقيقة الأمر، كان مفتونًا بذلك الرجل اللامع الذي يصفه بأنه

«شاب في منتهى اللطف وأنه سوف يستقر عند تغيير حياته». وقد شجعه ليقتنص موقع بريل[574].

كان من المستحيل على فرانك القبول بمثل ذلك التشخيص، غير أنه، وقد أعمته سطوته على الهر بروفسور، حزم أمره وقرر الابتعاد عن دوريس والزواج من أنجي. وإذ شعر أبراهام بيور بالفضيحة حيال هذا السلوك، الذي يعتبره مناقضًا لكل مفهوم أخلاقي، فقد شرع بكتابة رسالة مفتوحة إلى النيويورك تايمز، وفيها يتعامل مع فرويد على أنه «دكتور كبير في الشعوذة». وقد عهد بنسخة الرسالة إلى تادوس إيمز، وهذا أرسلها إلى فرويد مشيرًا إلى الخطر الذي سوف توقعه هذه القضية بالـNYPS إذا ما كُشفت على صفحات الجرائد، وقد أكّد لجونز الذي راح يحاول إطفاء الحريق بأن أنجي فهمت أقواله فهمًا سيئًا. مشيرًا مع ذلك - وتلك كانت فكرته العميقة - إلى أن الجمعية تصبر على الدعارة وتتحملها أكثر من صبرها وتحملها للطلاق بين شخصين غير متفاهمين في البيت لكنهما يرغبان بالزواج من جديد[575]، وهذه طريقة من فرويد ليعترف بأنه حقًا وصدقًا دفع هوراس وأنجي إلى الطلاق، نظرًا لتفكيره بأن أيًا منهما لم يكن متفاهما مع شريك حياته.

في ظروفٍ أخرى كان يمكن لفرويد اتخاذ قرارات مختلفة لا سيّما وأنه على اقتناع بأن الدعارة ليست سوى مشكلة لم يتم ترتيبها مع شريك ما يزال موضع حب. مختصر القول، بمقدار إدانته للدعارة كان يحبّذ «الانفصال الطيب»، شرط أن ينتهي الانفصال بزواج جديد، وفي ما يخص تلك القضية، كان على خطأ فادح حول موضوع فرانك، وقد استمر على خطئه موجهًا إليه رسالة لا معنى لها: «لقد طالبتُ أنجي ألّا تكرر أمام غرباء ما نصحتُها به حول زواجها منك لأنك قد تتعرض لاضطراب عصبي لا تعويض له [...]. هل يحق لي أن أقترح عليك بأن فكرتك عنها أنها قد خسرت جانبًا من جمالها يمكن تحويلها إلى فكرة حول الحصول على جانب من ثروتها؟ أنت تشتكي من عدم فهمك لمثليتك الجنسية، وهذا ما ينجم عنه أنك غير واعٍ للهوام المسيطر عليك لتجعل مني رجلًا غنيًا. إذا تيسرت الأمور وسارت نحو الأفضل، دعنا نغير هذه الهدية الخيالية بإسهام حقيقي يرفد خزينة التحليل النفسي[576]».

مثله مثل جميع تلامذته، كان فرويد يُسهم في تمويل حركة التحليل النفسي، وبهذا الصدد، ليس هناك ما يدهش إذا كان قد خطر له أن فرانك يمكنه هو أيضًا المشاركة بالتمويل عن طريق الهبة من أجل الشفاء من هواماته. أما التأويل القائل بأن امرأةً فقدت جمالها في نظر عشيقها يمكن

أن تكون مرغوبة لثروتها، فهو تأويل يعود إلى تصور متوارث في العائلة البرجوازية، كان فرويد يتصرف بالتالي مع مريضه كما لو كان خاطبًا أبويًا على الطريقة القديمة، خالطًا بين الديوان ونصيحة الزواج. وفي هذا البرهانُ على أنه لم يكن قد فهم شيئًا من جنون فرانك، الذي كان ينظر إليه كعصابي ذكي يكبت مثليته الجنسية حيال الأب. وعندما أصبح هذا الأخير حرًا ويقدر على الزواج من عشيقته القديمة، شعر شعورًا مرعبًا بالذنب وعاد إلى فيينا في نوفمبر/ت2 1922. وخلال مرحلة من الهذيان، تخيل أنه غرق في جوف قبر وأثناء الجلسات، كان يدور كالمسعور حتى أن فرويد وظف طبيبًا، جو آش، كي يسهر عليه ويعتني به في بيته، وساء الوضع كثيرًا حين توفيت دوريس عقب إصابتها بالتهاب رئوي بعد زواج زوجها القديم من آنجي. حينذاك أكّد فرانك أنه كان يُحب زوجته الأولى وبدأ يتعامل بقسوة مع الثانية.

في مايو/أيار 1924 وجد فرويد نفسه مجبرًا على استنكار حالة مريضه، بحيث أعلن أنه مريضٌ عقليًا وغير مؤهل لإدارة شؤون الـ NYPS: «كنت قد وضعت جميع آمالي في شخصه، علمًا بأن ردات الفعل عنده أثناء التحليل كانت من طبيعة ذهانية [...]، وحين رأى أنه لم يكن مسموحًا له أن يشبع بحرّية رغباته الطفولية، أصابه الانهيار. وهكذا كان حاله في علاقته مع زوجته الجديدة، فتحت ذريعة أنها لا يمكن التعامل معها بشؤون المال، لم يحصل منها على علامات المودّة التي لم يتوقف عن المطالبة بها[577]». وبعد قبوله بناءً على طلبٍ منه في عيادة الطب النفسي في مستشفى جون هوبكين في بالتيمور، وقيام أدولف ماير بمداواته، علم فرانك بأن آنجي تتمنى الانفصال عنه، وبعد حياة تناوبت حالته فيها بين الاندفاع الجامح والكآبة، توفي منسيًا في 1936.

بعد أربعين عامًا من وفاته، وجدت ابنته، هيلين كرافت، في أوراق أدولف ماير مراسلات أبيها مع فرويد، بالإضافة إلى وثائق عديدة نشرت أمام الجمهور محتواها متهمةً معلم فيينا بأنه كان مشعوذًا[578]، وهذا ما اغتنمه أعداء الفرويدية لاتهام فرويد بأنه قد تلاعب بجميع مرضاه، الذين أصبحوا ضحايا تحايلات مذهبه الماكرة، وأما في ما يخص المحللين النفسيين، فقد استمروا بهدوء محافظين على تجاهلهم للأخطاء العيادية التي وقع فيها معلمهم المعبود.

بعد هذه القصة، ضاعف فرويد كراهيته حيال أمريكا والأمريكيين، وهذا ما جلب عليه ردًا جارحًا وبعيد النظر من طرف جونز : « أتذكر كلمة «بيت» التالية: لا يمكن وضع أمة في قفص الاتهام، إنهم مخلوقات بشرية،

ويحملون ما يحمل الآخرون من إمكانيات [...]. في بحر خمسين عامًا، سوف يصبحون الحَكَم في العالم قاطبة ً، وهذا ما يعني بوضوح أن من المستحيل لأحد أن يتجاهلهم. ومهما كان الأمر، سوف أواظب على بذل جهودي لتدعيم غرس التحليل النفسي الذي ما يزال مجهولًا هناك»[579].

طيلة تلك السنوات، تجمعت في حي بلومزبيري في لندن النخبة غير المحافظة في الأدب، والعلوم، والاقتصاد، والفنون، من حول فيرجينيا وليونارد وولف وليتون، وجيمس ستراشي ودورا كارنغتون، وجون مينار كينيزي، وروجيه فراي. كانت تعمر نفوسهم إرادةٌ متحفزّة للقضاء على العقلية الفيكتورية، والتنديد بالحروب الإمبراطورية، وكانوا قد وضعوا، على سبيل الاعتراض الواعي، نُصبَ أعينهم رفض كل انخراط في المجزرة الكبرى، مجزرة حرب الخنادق، وقد رفعوا عاليًا رغبتهم بتغيير عادات وتقاليد المجتمع البريطاني، وتأسيس المساواة بين الرجال والنساء، ومكافحة الأمبريالية، وتعديل الجشع المركنتيلي للرأسمالية.

وهكذا راحوا يدافعون، بممارساتهم الجنسية وبكتاباتهم على حد سواء، عن تصوّر جديد للحب يسمح بأن تتفتح، دونما كبت، جميع الميول التي توصف بأنها «طبيعية عند الكائن البشري، ولا سيما المثلية والثنائية الجنسية ». كانوا من أوساط البرجوازية الثقافية الإنجليزية وقد حصلوا على تأهيلهم في خيرة الجامعات البريطانية - كامبردج أو ترينيتي كوليج -، وكانت جماعة بلومبسوري معجبة بكتابات فرويد، ويعتبرون الطهرية تهديدًا للمدنية، ويزعمون بأنهم يعارضونها من خلال مثل أعلى أخلاقي وجمالي، قائم على الليبرالية وعلى الاشتراكية معًا. في صميم هذه الحداثة النقدية الجميلة انبثقت بدعم من جونز ، مدرسة التحليل النفسي الإنجليزية، المعاصرة لولادة ما بعد الانطباعية.

في1917، كان ليونارد وفيرجينيا وولف قد أسسا دارًا للنشر - هولغارت برس - مهمتها التعريف بالكتاب الذين يقدّرانهم، بعد عامٍ من ذلك التاريخ، نشر ليتون ستراشي فيها سيرة أربعة من الفيكتوريين البارزين، من الذين يُنظر إليهم على أنهم أبطال كلٌ في ميدانه: فلورانس نايتنغال، توماس أرنولد، شارل غوردون، إدوار مانغ، غير أنه قدّم عنهم وصفًا قاتمًا كي يتاح له بصورة أفضل أن ينتقد، من خلال ما قاموا به، الجوانب السلبية في السياسة الفيكتورية: الإنجيلية الضيقة، الاستعمار، نظام التعليم القمعي، النزعة الإنسانية الأنانية، كما أنه راح يطالب من طرف آخر، بحق الكاتب، إذا أراد، أن يقوم بتأويل حر للوقائع وأن يُدخل إلى السرد كتابة ذاتية، بهذا المعنى، قام بتجديد كتابة السير ضمن منظور

حميم لم يكن بعيدًا عن منظور التحليل النفسي.

ناهيك بأن ليتون ستراشي كان يحمل اهتمام فرويد سواءً بسواء بالحياة المعذَّبة لأبطال الأسرة المالكة الإنجليزية. ولهذا السبب، بعد أن كتب هجاءً لكبار رجالات العصر الفيكتوري، كرّس كتابين للحياة الغرامية لملكتين عظيمتين: إليزابيث وفيكتوريا، فكلتاهما استسلمتا، في أواخر عمرهما لسيطرة عشاق كان وجودهم بحد ذاته يمضي بالاتجاه المعاكس للمثل الأعلى الذي قام عليه حكمهما.

نعلم بأن إليزابيث، خلال أكثر من عشرة أعوام، من 1587 إلى 1601، خضت ابن عمها، روبير ديفرو، بعاطفة مشبوبة، وكان يحمل لقب كونت إيسكس، ولم يتوقف عن فرض فكرته عليها بأن أعلى مناصب الدولة يجب أن تُسند إليه. وكي يُرسي قواعد سيطرته على تلك الملكة التي دخلت مرحلة الشيخوخة، وأصبحت بين براثن عذابات جنسية قاتمة، كان يستفزّها، يهددها، ينسحب انسحابًا عنيفًا إلى قلعته، ويعبّر عن الضغينة والمرارة، كي يفوز بغفرانها ويعود إلى الأنغام ذاتها. ومن أجل الانتهاء من كل تلك الحالات المجنونة، التي كانت تهدد بأن تُغرق المملكة في الفوضى، ها هي إليزابيث، ونفسها عامرة بالأسى والآلام، تأمر بإعدامه دون أن تقبل أبدًا أن تقيم معه علاقة جسدية. يرسم ليتون ستراشي، في كتابه، لوحة عن الأسرار الغامضة في العصر الباروكي والرغبة الإليزابيثية التي لا تلين، رغبة تجسيد صورة كاملة، منسجمة مع الأسطورة حولها، بدلًا من أن تنزل إلى مستوى امرأة من عامة الناس.

كما أنه أيضًا اهتم بوصف التعلّق المشغوف للملكة فيكتوريا، بعد وفاة الأمير ألبرت، بسائس الخيل القديم للأمير، جيمس براون. إن الملكة قد خرقت قوانينها الخاصة، وجعلت من هذا المحظي العنيف والسوقي، أداة انتقامها من عهدٍ كانت قد أرادت له أن يحافظ على المظاهر الخارجية الأكثر كمالًا[580].

أما بالنسبة لكينيزي، الذي سوف يصبح أحد أكبر الاقتصاديين في القرن العشرين، فكان يشترك مع فرويد، ليس بالذكرى المعكوسة للسلالات الملكية البطولية، وإنما بمقتٍ صريح لمعاهدة فرساي. كان من بين أعضاء الوفد الإنجليزي أثناء مفاوضات باريس، وقد ثار على السياسة الفرنسية القائمة على إذلال ألمانيا. وفي 1919، كان قد كتب مقالة يندد فيها بذلك «الصلح القرطاجي» وليتنبأ بأن عواقبه سوف تكون كارثية على أوربا، وأنه سوف يحزك شعورًا شعبيًا لا يمكن السيطرة عليه في العالم الناطق باللغة الألمانية، وفي صميم الإمبراطوريات القديمة التي قُطعت

أوصالها[581]. ولم يكن مخطئاً.

منذ فترة طويلة كان جيمس ستراشي، شقيق ليتون، يتمنى الحضور إلى فيينا كي يتأهل على ديوان الهر بروفسور من أجل أن يصبح محللًا نفسيًا، لكنه، بسبب ضعف إمكانياته المادية، لم يكن يستطيع دفع أجور علاجه بالتعرفة نفسها التي يتقاضاها أطباء النفس الأمريكيون، ولهذا طلب من جونز التوسط لصالحه، وهو ما قام به هذا الأخير على الفور. كان مهتمًا بتطوير سياسة ظافرة ما وراء الأطلسي، ولذلك كان مدركًا، من طرف، بأن فرويد لن يتفاهم أبدًا مع تلامذته الأمريكيين، ومن طرف آخر، بأن الحركة الإنجليزية كفيلة بإيجاد توازن مفيد في مواجهة القوة الأمريكية المستقبلية.

وهكذا كان ستراشي في نظره يمثل الرجل المناسب للقيام بهذا الدور، فهو ذكي، ومثقف، ومرهف الإحساس، وأنيق، ولاذع، ومتسامح، وبعيد عن كل عقلية تجارية، ومجرد من كل براغماتية وقد انخرط ليخدم قضية فكرية يشكل التحليل النفسي أحد جوانبها، وهو لم يكن يبحث، بعد بلوغه الثلاثين عامًا، عن أب بديل يمكنه التنافس معه، ولا عن شقيق يمكن أن يسيطر عليه، ولا عن أم تشبه شقيقته، ولا عن بديل لمربية فاحشة. كما أنه فوق هذا لم يكن واقعًا تحت تأثير مثلية جنسية مكبوتة. وأخيرًا لم يكن يهوديًا، ولا مهاجرًا، ولا حاملًا لإرادة الانتقام اجتماعيًا أو نفسيًا. باختصار، لم يكن لديه من رغبة سوى أن يضع موهبته بالكتابة تحت تصرف مغامرة روحية يرى بأنها مغامرة استثنائية. إنه ثنائي الجنس على سنٍّ ورمح، فيعشق الصبيان الذين يشبهون النساء والنساء ذوات الملامح الصبيانية، ولم يكن يعاني من أيّ حالة مرضية خاصة، وقد تلقى تربية رفيعة المستوى في وسط عائلة مدهشة بلا نمطيتها، حيث كان التوجه إلى تنمية حب الكتب وممارسة الحرية. في أسوأ الحالات يمكن القول بأنه كان يعاني من عَرَض دائم، عَرَض التردد، ومن لفظٍ صعب عندما يتكلم بسبب «شيء» من الشعور بالإرهاق في الحياة.

في 1920، تزوج أليكس ساغران - فلورنس، التي أصبحت شريكته مدى الحياة. وهي أيضًا كانت ابنة عائلة غير محافظة. فأمها، المناضلة النسائية والأرملة بعد ولادة ابنتها، كانت قد دفعتها لتدرس، وتحديدًا في نيونهام كوليج في كامبريدج، حيث اكتشفت مؤلفات فرويد. منذ طفولتها، كانت ترفض ارتداء ملابس نسائية، وعند بلوغها سن العشرين عامًا، بعد تجاوزها لفترة من العزوف المرضي عن الطعام، أصابتها أول نوبة كآبة.

حين قابلت جيمس، أحبته حبًا جنونيًا وهو وجدها لذيذة: «صبي

حقيقي»، هكذا كتب عنها، كانت ذات ذكاء حيوي، ولذلك تحاول دائمًا إخفاء حالاتها وراء ستار من الضحك، وهذا ما لم تنخدع به فيرجينيا وولف: وها هي تشبهها عن طيب خاطر بأنها «يأس مأتمي»، كانت أليكس تعاني مثل جيمس من بعض العجز باختيار النشاط الذي يناسبها، لكنها أيضًا تعاني من حالات انهيار ومن نوبات ارتعاشية[582]. وكانت تريد الانخراط بقضية التحليل النفسي.

في أغسطس/آب 1920، استقر المقام بجيمس وأليكس في فيينا، وفي أكتوبر/ت1 بدأ جيمس تحليله عند فرويد: «في كل يوم، باستثناء يوم الأحد، أقضي ساعة على ديوان فرويد [...]، وهو رجل لطيف المعشر جدًا، وفنان مذهل. عمليًا، كل جلسة مبنية باعتبارها تكامل عضوي وجمالي. في بعض الأحيان، تكون الآثار الدراماتيكية مخيبة، بل وصادمة [...]. تشعر بأمور رهيبة تجري في داخل نفسك، ولا تتمكن من معرفة ماهيتها؛ ثم ها هو فرويد يقدم إشارة صغيرة جدًا، فيشرق شيء ما مضيئًا في داخلك، ثم إنك تمسك بشيء آخر صغير الشأن، وفي النهاية ها هي سلسلة كاملة من الظواهر تصبح أكثر وضوحًا؛ ويستمر في طرح سؤال عليك، فتعطيه جوابًا أخيرًا - وبينما تنكشف الحقيقة بأكملها أمامك على هذه الصورة، ها هو ينهض، يجتاز الحُجرة متوجهًا نحو الجرس فيأخذ بيدك نحو الباب [...]، ثمة أوقات أخرى تظل فيها ممددًا طيلة الجلسة وعلى بطنك ثقل كبير[583]».

بكل وضوح، لم يكن فرويد يتصرف بالطريقة نفسها مع ستراشي ومع باقي المرضى الأمريكيين. وفي جميع الأحوال، فقد انتبه أبرام كاردينر لهذا الأمر حين تكلم عن علاجه مع فرويد ومع جون ريكمان، الذي كان أيضًا تحت التحليل عند البروفسور. كان فرويد يتكلم كثيرًا مع الأمريكيين وقليلًا جدًا مع الإنجليز. واستنتج كاردينر من ذلك، بروح ساخرة، أن هذا الموقف هو الذي كان من وراء ولادة مدرسة التحليل النفسي الإنجليزية: «فالمحلل لا يفتح فمه، إلّا ليقول /نهار سعيد/ و/ إلى اللقاء/. وهذا الأمر يمكن أن يدوم أربعة، أو خمسة، أو ستة أعوام[584]». أما ريكمان، من جانبه فتكوّن لديه انطباع بأن صمت فرويد و«سهواته» كانت بسبب مرضه. ونظرًا لتمكّنه في مجال البحوث الأثرية، فقد لاحظ علاوة على ذلك بأن فرويد كان قد اشترى عددًا من التماثيل الصغيرة المزيفة وأنه لم يكن يحسن تمييز الآثار الإغريقية عن المصرية[585].

إن شهادة كاردينر حول العلاجات الصامتة والتي لا نهاية لها، المميزة لسنوات 1950، لا تتطابق مع تجربة فيينا في سنوات 1920. ويجب

علينا بالأحرى التفكير بأن فرويد لم يكن بحاجة لأن يفرض على ستراشي هذا التأويل أو ذاك، وأنه قد شعر بكل بساطة بنفور من ريكمان.

لم يتحرك فضول الهر بروفسور كي يهتم بمؤلفات فيرجينيا وولف، غير أنه كان معجبًا بكتابات ليتون ستراشي كما أنه متأثر جدًا بجيمس، أما بشأن أليكس، التي كانت لا تنوي أن تضع نفسها تحت التحليل، بمناسبة إحدى «نوباتها»، فقد طلبت من جيمس تنظيم علاج مشترك بثلاثة أشخاص، وهو ما كان منافيًا تحديدًا لأخلاقية التحليل النفسي. وإذ اهتم فرويد بردود الفعل والردود المضادة الناجمة عن هذه التجربة، فقد حزم أمره وقبل مع ذلك بإجراء تحليل مشترك على التوازي مع أليكس وجيمس. وفي شتاء 1922، قرر أنهما أصبحا صالحين لممارسة التحليل، غير أنه أشار على أليكس بحرارة أن تستشير أبراهام. وهذا قرارٌ حكيم؛ لأن أبراهام كان حينذاك أفضل المعالجين لحالة الكآبة.

بعد أسابيع قليلة من هذا التحليل، الذي قُدّر له أن يدوم، مع وجود انقطاعات، إلى شتاء 1922، اقترح فرويد على ستراشي ترجمة بعض مؤلفاته: «عند عائلة ستراشي، كما كتب ميزيل، وجد التجسيد التام لما كانت إنجلترا، بلده المفضل، تعني في نظره. كان يرى فيهم الحساسية المناسبة القادرة على ترجمة كتابه في اللغة الوحيدة غير الألمانية التي كان يشعر أنه في حالة انسجام كامل معها، إنها لغة شاعره المفضل، ملتون، اللغة المزينة بروح المدنية الساطعة في الجمالية المعاصرة[586]».

بمساعدة أليكس، وجد جيمس أخيرًا طريقه حين حقق أكبر عمل في حياته: الترجمة الكاملة لأعمال فرويد باللغة الإنجليزية، وهي التي ستكون الطبعة الأمثل لاحقًا. هكذا كان إذن نجاح ذلك التحليل، القائم على تحويلٍ إلى لغة فرويد أكثر مما هو قائم على شخصه، علمًا بأن غاية ستراشي، وثقافته، وتأهيله، والتصاقه بفكر البلومزبري، كانت جميعها على ارتباط وثيق تمامًا مع المثل الأعلى لدى فرويد الذي أراد لنفسه في وقت واحد أن يكون كاتبًا ورجل علم.

الترجمات الأولى التي أنجزها بيل كانت ضئيلة القيمة. وقبل التقائه مع ستراشي، لم يشغل فرويد باله سوى بنشر أفكاره في البلاد الأجنبية، من دون كبير اهتمام بمدى قدرة المترجم على استثمار أسلوبه، أو على نقل مفاهيمه، أو على وضع أداة نقدية حقيقية مدعمة بالحواشي، والمرجعيات العلمية، والمصادر، والإحالات. بدأ جيمس أول الأمر بنشر ثلاثة كتب تحت عنوان «أوراق مختارة» في دار هوغارت برس، ثم إن جونز هو الذي خطر له بعد ذلك إنجاز الطبعة الكاملة، وتمويل العمل عن طريق جمعيات

التحليل النفسي الأمريكية، مع وضع المشروع تحت إشراف وإدارة بريطانيا العظمى.

كان جونز يدرك أن حركة التحليل النفسي الأمريكية مدعوة للتوسع والانتشار، كما سبق وقلنا، ولذلك كان همه تدعيم القوة الإنجليزية. وفي 1919، أسّس جمعية التحليل البريطانية (BPS) لتحل محل الجمعية القديمة، جمعية لندن للتحليل النفسي (LPS) التي نشأت في 1913 وها هو، من بعد ذلك يجمع من حوله لفيفًا من المنتسبين بأعداد كبيرة، من بينهم بربارة لو، جون ريكمان، سيلفيا باين، جونا ريفير، إيلا شارب، سوزان إسحاق، وفي 1920، أصدر العدد الأول من مجلة التحليل النفسي العالمية (IGP)، وهي أول مجلة للتحليل النفسي باللغة الإنجليزية وسوف تصبح الجهاز الرسمي للـVerein، ثم اتحاد التحليل النفسي العالمي (IPA).

لقد أراد ستراشي تكريم مؤلفات فرويد، لكنه لم يكن أبدًا تابعًا ذليلًا. كان عمله يعكس توجهاته الخاصة. ولهذا السبب توجّه ميله نحو إهمال كل ما يربط النص الفرويدي بالرومانتيكية الألمانية وبالفلسفة الطبيعية، للحفاظ على مظهره الطبي، والعلمي، والتقني. وهذا الموقف تم التعبير عنه باختيار بعض الكلمات اللاتينية والإغريقية، من جانب، وببعض «الطابع الإنجليزي»، من طرف أخر. وهكذا، من أجل ترجمة الهو (Es)، والأنا (Ich) والأنا العليا (Uberich)، استخدم الضمائر اللاتينية،id، Ego، superego، ولترجمة توظيف (Besetzung) وهفوة (Fehlleistung)، لجأ إلى كلمات يونانية: catherxis، parapraxis. وأخيرًا وقع في خطأ حين ترجم نزوة (Trieb) بـ instinct - غريزة -، بحجة أن مصطلح drive (مسار، سلوك) - التي تم اعتمادها لاحقًا - ليست مناسبة، وليست في محلها. وهكذا أسهم ستراشي بإبراز السيرورة التي لا رجوع عنها، سيرورة تحويل المذهب الفرويدي إلى اللغة الإنجليزية. ولم تكفّ الانتقادات عن تناول ترجمته أبدًا، علمًا بأنها ظالمة، وكان برونو بيتلهيم، الذي أصبح هو نفسه ناطقًا باللغة الإنجليزية، بتأثير هجرته إلى أمريكا، هو الذي أظهر أشد الانتقادات قسوة، وفي 1982، في كتابٍ له أحدث ضجة كبرى، «فرويد والروح الإنسانية»، وبّخ ستراشي لأنه جزّد النص الفرويدي من «روحه الألمانية» ومن «فكر فيينا[587]».

بينما عاد جيمس إلى لندن للتداوي من جديد عند جيمس غلوفر واستقر به المقام هو نفسه كمحللٍ نفسي، ها هي أليكس، التي شُفيت من التهاب رئوي التقطت عدواه في فيينا، وقد استقر بها المقام في برلين، وعلى امتداد سنة كاملة، تيسّر أمامها الفراغ الكافي لتكتشف، وهي

مبهورة، طريقةً جديدة لممارسة التحليل النفسي. فالجمعية التي أسّسها أبراهام كانت حينذاك في «أوج تدهورها الرائع[588]»، والمدينة الإمبراطورية كانت ما تزال مشرقة بجميع أنوارها قبل كارثة 1933. هناك التقت بنخبة حركة التحليل النفسي الناطقة باللغة الألمانية، والتي كان أعضاؤها على وشك الهجرة سريعًا إلى الولايات المتحدة أو إلى أماكن أخرى: هانزساش، ساندور رادو، فرانز أليكساندر، أوتو فينيخل، فليكس وهيبلين داويتش، هانز لامبل، كارين هورني، إرنست فرويد وتعلمت كيف تعرف ثنائيات تلك المدينة التي تتجاور فيها أكثر الأفكار تجديدًا مع أكثر صنوف اللاتسامح وحشية، بين الخفة، وفورات تذابح الأخوة، والمستنقع الذي يتطاير منه الشرر، في المقاهي والكباريهات كان المرء يلتقي بالمسرحي برتولت بريخت، وجورج غروز وجميع أصناف الفنانين الجريئين الباحثين عن طرق جديدة للحياة والتفكير.

تعلمت أليكس كيف تتكلم الألمانية بطلاقة، واكتشفت كم كان عدد اليهود كبيرًا في وسط التحليل النفسي، واستمتعت بالأعياد وبالمسرح، وذات يوم، التقت بفليس، الشهير الفاتن، والذي ولّى عهده، بمشيته كقزم وبطنه الكبير، لم يكن قد تغير كثيرًا، وسألها إن كان أحد أفراد عائلتها قد توفي في تلك الفترة من السنة، فتلك هي طريقته الوحيدة كي يفسر، حسب فهمه، لماذا تعاني من حمّى مع تضخم اللوزتين.

لكن أليكس بلقائها مع ميلاني كلين، المقيمة في برلين 1921، والتي يقوم أبراهام بتحليلها، بعد أن مرّت على ديوان فيرينتزي، انكشف أمامها مدى ما يمكن أن يكون عليه العمق العيادي للتحليل النفسي. فهي، التي لم تكن تريد الإنجاب، فهمت سريعًا جدًا بأن محاضرات وكتابات كلين حول تحليل الأطفال في أعمار صغيرة، والعلاقة العتيقة مع الأم أو الهجمة المبكرة للعقدة الأوديبية، كانت تثير الاضطراب في المنظور الفرويدي الكلاسيكي، إذ تسمح بفهم أسرع لنشأة حالات العُصاب والذهان، وبينما كان فرويد يجزم بأن الصبي الذي عمره ثلاثة أعوام لم يكن لديه أي وعي بوجود المهبل، كانت ميلاني كلين تدافع على العكس، انطلاقًا من معايناتها، بأن كل طفل ذكر يرغب بإدخال ذكره في مهبل أمه. بتعبير آخر، إذا كان الطفل، في نظر فرويد، مخلوقًا نرجسيًا وبدائيًا، يمرُّ في «مراحل» ويجب تعليمه، فإن كلين كانت أقرب إلى النزعة السادية لدى الطفل الذي يسعى إلى مضاجعة أمه، وهو مسكون بعالم داخلي نسيجه هوامات، وكراهية، وجنون، وقلق شديد.

في سالزبورغ، بتاريخ أبريل/نيسان 1924، في المؤتمر الثامن للـ IPV،

قدّمت مداخلة حول تحليل الأطفال صغار السن، وفي هذه المداخلة، تؤكد بأن التفضيل البارز للقريب من الجنس الآخر يظهر منذ السنة الثانية من عمر الطفل، وأن الأم منذ ذلك الوقت يتم الإحساس بها، من طرف ابنها، على أنها مرعبة وتهدده بالخصاء. وإنما بتحليل أطفالها بالذات وصلت ميلاني إلى هذه «الاكتشافات[589]». لقد انفصلت عن زوجها، وهكذا في سنٍّ جد مبكرة، جلبت ابنتها ميليتا لتشاركها شغفها بقضية التحليل النفسي. وهذه الأخيرة كانت تتابع حينذاك دراسات في الطب كي تصبح محللةً نفسية.

في برلين، كانت تتردد على ديوان أساطين الحركة - هانز ساش، ماكس إيتنغون، كارين هورني -، مع إحساسها بأن أمها تكرهها، وأمها بالفعل بدأت تنظر إليها على أنها منافسة لها، وحينذاك التقت، ثم تزوجت، والتر شميدبرغ، المحلل النفسي من أبناء فيينا المثقفين، وكان مدمنًا على الكحول ومثليًا، وقد تأهل في صفوف الـ WPV. إن العلاقات اللاحقة بين ميلاني وابنتها تُسجَّل بين أكثر العلاقات إيلامًا في تاريخ التحليل النفسي.

أمّا في تلك اللحظة، فكانت أليكس ستراشي معجبة بسحر ميلاني، وبغلميتها، وقوة بيانها، وبذلك الحزم الذي كان يخفي مع ذلك معاناة كئيبة قوية، باحتكاكها معها، ودون أن تعرف جيدًا قصتها، اكتشفت بأن النساء يمكن لهن احتلال موقع يوازي موقع الرجال في بلورة نظريات التحليل النفسي. ومن برلين، وضعت بالتالي حدودها الفاصلة مع فيينا، وراودها حلم أن تساعد ميلاني كي تصبح إنجليزية، مثلما أن جيمس، في تلك الحقبة، كان مصرًا على أن يجعل من فرويد عالمًا بريطانيًا. فيما بعد سوف تصبح أليكس مترجمة ميلاني بعد إدخالها إلى الـ BPS[590].

في هذه الأثناء، في برلين، كانت تعطيها دروسًا باللغة الإنجليزية. وفي 31 يناير/ك2 1925، ها هي ميلاني، متنكرة بصورة كليوباترا، تصحبها إلى حفل تنكري نظّمه بعض الاشتراكيين. ورقصت المرأتان الليل بأكمله. بعد خمسة عشر يومًا من ذلك الحفل التنكري، كانت «العيادة الشاملة» تحتفل بعيد ميلادها الخامس بإدارة ماكس إيتنغون، وتكوّن عند كل شخص حينها انطباع بأن حركة التحليل النفسي قد ضربت جذورها عميقةً وراسخة، وعلى مدى سنوات، وسط مدينة برلين. رغم ذلك، في 25 ديسمبر/ك1، توفي أبراهام، عن عمر ثمانية وأربعين عامًا، نتيجةً لتعفّن متتابع في الدم ودملة متقيّحة سببها دون شك سرطاني، كانت ميلاني قد رحلت آنذاك مع أليكس إلى إنجلترا. وها هو فرويد، منهارًا، يخسر أحد أقرب تلامذته إليه[591]. وفي ذلك التاريخ، كان جون ريكمان قد أسس، في

لندن، معهدًا للتحليل النفسي على غرار معهد برلين. وهكذا أصبحت حركة التحليل النفسي الإنجليزية على طريق التوسع الملحوظ، في اللحظة التي كان فيها أبناء برلين يعتبرون أنفسهم ما يزالون، في مواجهة أبناء فيينا، كطليعة للفرويدية الأوروبية.

مثلما أن فرويد لم يكن يفهم شيئًا حول الحداثة الأدبية التي جعلت اكتشافه مصدر إلهامها، كذلك كان على جهل بالفن الجديد في القرن، ألا وهو فن السينما، الذي ولد تقريبًا في الوقت نفسه مع ولادة التحليل النفسي، مع ذلك، كان هناك تقارب كبير بين هذين النمطين في تناول اللاشعور حيث كلّ نمط يحركه مثل النمط الآخر. كان على اقتناع بأن مذهبه لا يجوز بحال من الأحوال أن يُصار إلى تعميمه شعبيًا بهذه الوسيلة، وذاك لأن فرويد يعتقد بأن الكلام دون سواه هو الذي يفتح الطريق للوصول إلى اللاشعور. وهذا تناقض جديد: ألم يؤكد هو نفسه بأن الحلم رحلة إلى ما وراء العقل؟ إنها رحلة بصرية نسيجها كلمات وأقوال. في واقع الأمر، كان يتنكر على حد سواء للفن السينمائي وللحركة الانطباعية الكبيرة، التي راحت تؤكد على إرادتها بالتعبير، من خلال الألوان العنيفة أو الخطوط المنكسرة، عن رؤية للذاتية المعذّبة، النزوية، العنيفة، السديمية، والتي يخترقها تخيلٌ مذهل.

يقينًا، يمكننا تفهم رفض فرويد تقديم مساعدته، بمبلغ مائة ألف دولار، لمشروع صمويل غولدوين حول إنتاج فيلم يتناول غراميات مشهورة، غير أن هانز ساش حين استنجد به من طرف هانز نيومان، عند منعطف سنوات 1920، كي يشترك بكتابة سيناريو «غوامض نفس»، وهو فيلم كان مقدرًا أن يشتغل عليه ويلهيلم بابست، كاتب السيناريو النمساوي، فقد تبنى الموقف نفسه، علمًا بأن الموضوع كان يتعلق بمشروع آخر كليًا. وقد صرّح بأن تجريدات تفكيره لا يمكن تمثيلها عن طريق فن تشكيلي. لم يكن ليرى إلى أي مدى راحت السينما الصامتة غير الملوّنة تغزو ميدان الحلم بانطباعاتها العليا، وتقنيتها للصور المتسلسلة، وعناوينها الفرعية، وحركات الكاميرا القادرة على تحطيم الماضي والحاضر، والانزلاق من ديكور إلى آخر، من وجه إلى آخر، أو حتى تمثيل مشاهد بدائية، واستذكارات، وأمور غريبة مع ربط الهلوسة بواقع يعاد بناؤه بناءً بارعًا.

وهكذا فإن الرائعة السينمائية التعبيرية، «غوامض نفس» جرى إنجازها من دون موافقته، بل وحتى من دون أن تحرّك عنده أدنى اهتمام. لقد مثل وارنر كروس، الممثل الذي كان قد أصبح ذا شهرة، دور البروفسور ماتياس، الرجل الذي تسكنه هواجس رغبات القتل بالسيف وبالسكين، والذي شُفي

عن طريق التحليل النفسي. وكان هذا أول فيلم مستوحى من المقولات الفرويدية[592]. وكان هانز ساش قد وضع منشورًا، «لغز اللاشعور»، وقد استُخدم في الفيلم، وكتب اسمه برفقة اسم كارل أبراهام، فالاثنان كانا قد تصرّفا غير مبالين بعدم موافقة فرويد، الذي تحوّل بسبب ذلك إلى مصارحة فيرينتزي بكراهيته حيال العالم الحديث: فهو لم يكن يحب، كما قال له حينذاك، لا السينما ولا النساء المعتمرات قبعات مثل الشباب.

في 25 مارس/آذار 1925، عند أول عرض في برلين، في الصالة الكبرى، صالة غلوريا بالاست، استقبلت الصحافة الفيلم بحماس: «من صورة لصورة، يكتشف المرء تفكير فرويد. وكل منعطف في حبكة الفيلم يمكن أن تكون إحدى المقولات التي أصبحت منذ ذلك الحين شهيرةً كتحليل للأحلام [...]. يمكن لتلامذة فرويد أن يبتهجوا. فلا شيء في العالم يمكن أن يروّج لهم بأوسع شهرة مثل ذلك التفنن. غير أن رجالات السينما الألمان يمكنهم هم أيضًا أن يشعروا بالاعتزاز[593]».

وحين حضر جونز عرضًا للفيلم في برلين، وجده ضارًا بالتحليل النفسي، إنما من دون أن يتفوّه بأي حكم حول قيمته الفنية. وكان آسفًا لأنهم في نيويورك يتصورون بأن فرويد أعطى موافقته على المشروع، وهذا كان مصدر نزاع جديد بين جماعة فيينا وجماعة برلين[594]، بل إن جونز لا يشير حتى إلى اسم بابست في ثبت المراجع عن فرويد. لاحقًا، كانت العلاقات بين ورثة فرويد وجماعة السينما علاقات مقيتة دائمًا[595].

إذا كان فرويد غير مهتم بالحداثة الفنية، فهو لم يتوقف أبدًا عن إمعان النظر ببعض الألغاز التي تحيط بكتّابه المفضلين. وهكذا فمنذ سنوات قليلة، في تحدٍّ منه لتلامذته من 1920، تبنى نظرية تآمرية بما يخص حقيقة شخصية شكسبير، وذاك أن جميع الفرويديين من جماعة الحلقة الأولى كانوا يتشاطرون حينذاك رفع شكسبير إلى أرفع المراتب باعتباره أعظم مسرحي إنجليزي، وجميعهم انطلقوا، كما بخصوص ليوناردو، في تأملات لا نهاية لها حول كل شخصية من شخصيات مسرحه لا سيما هاملت، النموذج الأمثل لأول عصابي من العصر الحديث.

في أواسط القرن التاسع عشر، مع انطلاقة العلوم التاريخية والفن الرومانتيكي المرتبط بها، تبرعمت الفكرة القائلة بوجوب أن تُسنَد إلى شخص آخر غير شكسبير أبوّة أعماله المسرحية. كان أتباع هذه المقولة يزعمون أنهم يعارضون التاريخ الذي يوصف بأنه «رسمي»، مؤكدين بأن شكسبير لم يكن قد ولد في ستراتفورد وأنه كان يحمل اسمًا مستعارًا من الفيلسوف التجريبي السير فرنسيس باكون[596]. وهكذا كان «المعارضون

لفكرة الولادة في ستراتفورد» يتخيلون أنه كان هناك، مع

نهاية القرن السادس عشر، تآمر من أجل حماية المؤلف الحقيقي للأعمال المسرحية، والذي، في نظرهم، لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون ابن صانع قفازات، متاجر بالجلود والصوف، ومن منبت قروي. لكن لماذا وقع الاختيار على باكون؟ لأن ديليا سالتر باكون، المسرحية الأمريكية الملهمة، التي ألّفت في 1857 كتابًا لاقى رواجًا كبيرًا حول هذه المسألة كانت من القائلين بتلك الفرضية، وقد حضرت لزيارة قبر شكسبير وتزعم بأنها انتزعت منه أسراره، وجاء من بعدها، حشدٌ من متعقبي الأحاجي المستعصية فتخيلوا بأن باكون، الصديق القديم لكونت إيسكس، لم يكن بمقدوره المجازفة بأن يضع نفسه في موقع المشعوذ. لقد تشبّث الرافضون للولادة في ستراتفورد «تعصبًا أعمى وتبنّوا نظريات تآمرية تكاد تلامس البارانويا، هكذا كتب بيتر غاي [...]. في حدود نهاية سنوات 1880، ها هو السياسي الرفيع المستوى إنياتيوس دونيلي، وهو من الشعبيين الذين يتحلّون بميل خاص إلى القضايا الغريبة، يطلق بالتالي نمطًا لقراءة أعمال شكسبير على أنها كتابة هائلة من أنماط الكتابة المرمّزة[597]».

عادت المجادلات إلى الانطلاق من جديد في 1920 على يد معلم مدرسة، توماس لوني، أحد أتباع الفلسفة الوضعية لأوغست كونت، والذي عاد إلى الحجج نفسها حين نسب أبوة شكسبير، ليس إلى باكون هذه المرة، وإنما إلى إدوار دو فيري، كونت أوكسفورد[598]. على خلاف الآخرين الرافضين لفكرة الولادة في ستراتفورد، زعم لوني بأنه يستند على طروح علمية، كما برهن على سعة اطلاع بحيث أن حججه بدت وكأنها الطرح المعارض لهذيانِ هوسٍ أحادي. كان كل شيء يشير إلى أننا حيال عالِمٍ كبير متوحّد ينقل إلى العالم اكتشافه العبقري. وهكذا فقد تمكن من إقناع عدد من الكتاب والنقاد بمصداقية مراجعته الكبرى للحقائق الرسمية. من بين هؤلاء الكتاب مارك توين وتشارلز ديكنز[599].

ما كان لشيء أن ينال الإعجاب الشديد من فرويد مثل هذا الأمر، وهو الذي كان في الحقبة نفسها يعبر عن اهتمام شديد بالظواهر الخفية، وبالروايات البوليسية، والحكايات الأخّاذة. هو الآخر كان يعيش حياته كخبير بتفكيك الطلاسم، إنه بمفرده وبعظمته، مبتكر لمذهب مرفوض من العلم الرسمي، ألم يكن معجبًا بمقولات فليس؟ ألم يفكك بواطن الحياة الغامضة عند ليوناردو دافنشي حين جاءته فكرة وجود صقر في لوحة شهيرة؟ ورغم تحذيرات ستراشي وجونز ، اللذين حاولا عبثًا صرف نظره عن أن يأخذ بجدية النظرية «الأوكسفوردية»

الجديدة، ها هو قد بدأ يؤمن بمصداقية استقصاءات لوني، لقد اقتنع، بعد «فحص» شديد التدقيق للوقائع، بأن مؤلف أعمال شكسبير لا يمكن أن يكون سوى رجل آداب شديد الولع بالمسرح، ورحّالة كبير، ومن وسط اجتماعي رفيع المستوى. وكان لوني قد بحث لسنوات قليلة عمّن يمكن أن يكون وضعه الاجتماعي والبسيكولوجي مطابقًا لهذه الصفات، وحينذاك تحديدًا تبين له عند دو فيري جميع المؤشرات القادرة على تدعيم مقولته، إن قدر كونت أوكسفورد متلاصق تمامًا مع فرضيته، وقد أضاف لوني إلى هذه القناعة اليقينية، الفكرة القائلة بأن هاملت كان «نسخة ثانية» عن الكاتب، الذي خصّ والده بما يشبه العبادة، مقابل كراهيته لوالدته، بتعابير أخرى، من دون أن يعلم ذلك، كان قد جعل من هاملت، بديل دو فيري، شخصية فرويدية يسكنها هاجس عقدتها الأوديبية.

لم يستنكف فرويد أبدًا حيال هذه المراجعة، التي سرعان ما سوف يقع هو نفسه ضحيةً لها. وذاك لأنه كان يعشق الإشاعات. في ديسمبر/ك1 1928، في رسالة طويلة موجهة إلى ليتون ستراشي، ردًا على إرسال سيرة إليزابيث وإيسكس، سأله عن رأيه حول إحدى فرضياته: فهو يعتقد بأن شخصية الليدي ماكبث تخفي وجه الملكة إليزابيث، فالاثنتان وقع عليهما التعذيب على حد سواء بسبب جريمة قتل، وها هو يضيف بأن ماكبث وزوجته لم يكونا يؤلفان فعليًا سوى شخصية واحدة مندمجة، حيث الاثنان يجسدان كلاهما قدر تلك الملكة العذراء، القاتلة، المنهارة، الهستيرية، لكنه كان على وجه الخصوص قد عاد إلى تأكيد إيمانه بمقولة لوني، إنما مع شيء من الحذر، جعله يقول بأنه «يشعر بأنه جاهل»، وأنه ليس متأكدًا بصورة قطعية من الفرضية الأوكسفوردية، لكنه يضيف مع ذلك بأن دو فيري يشبه بصورة مريعة إيسكس، قبل أن يُغرق نفسه في دورانٍ حلزوني خارج عن المعقول لتقديم التأويلات: «إنه من منبت يماثل بمرتبته النبيلة مرتبة إيسكس، كما أنه يماثله بالاعتزاز بهذا المنبت. فهو [دو فيري] يجسد أيضًا نمط النبيل الطاغية. وفوق هذا وذاك، فهو يظهر يقينًا في هاملت على أنه العصابي الحديث الأول. كما أن الملكة، أثناء شبابها قد تبادلت الغزل معه، ولولا أن حماته[600] لم تشنّ حملة مسعورة دفاعًا عن ابنتها، لكان قد أصبح قدره أقرب بكثير إلى قدر إيسكس. كان بكل تأكيد صديقًا مقربًا جدًا من سوثامتون. ولا يمكن لقدر إيسكس إلّا أن يكون قد أثار انتباهه. لكن في هذا الكفاية، إذ في جميع الحالات، لدي شعور بأن الواجب يقضي علي أن أقدم إليك أكثر الاعتذارات تواضعًا للكتابة السيئة في النصف الثاني من رسالتي هذه»[601].

لم يرد ستراشي أبدًا على رسالة فرويد. مع أنه كان بإمكانه في ذلك التاريخ، أن يشير عليه، لمصلحته، ألّا يثق بالفرضية الأوكسفوردية، بعد عام، لم يعد لدى فرويد من شكوك، ولذلك أشار بقراءة كتاب لوني، كما طلب من سميلي بلانتون، المختص الكبير بالمسألة الشكسبيرية، وهذا الأخير، ذُهلَ من هذا الزعم، وكاد أن يوقف علاجه لتخيله بأن الهر بروفسور، العالم والعاقل، قد ضلَّ طريقه وغرق في سخافات مجنونة.

لتفسير هذا الضلال، تخيّل جونز بأن فرويد قد تماهى مع مقولة لوني، لأنه هو شخصيًا قام بعملية إسقاط نفسه لا شعوريًا في رواية عائلية مفادها أنه قد يكون ابنَ أخيه غير الشقيق إيمانويل، الذي كان أكثر ازدهارًا في الأعمال من يعقوب، وهكذا فإن هوامه الأوكسفوردي ليس سوى ترجمة لرغبةٍ لديه في تغيير جانب من حقيقته العائلية الشخصية، لكن الأحرى بنا، بدلًا من إضافة تأويل أوديبي لضياع فرويد في محاولة فهمه للهويّات المتعددة لشكسبير ولشخصياته المسرحية، يمكننا تقديم فرضية مفادها أن فرويد ظلَّ على الدوام، جزئيًا، وريث نوع من نمط التفكير الذي انبثق مع نهاية القرن التاسع عشر، والذي يقول بفكرة أن المجتمع الإنساني موزّع بين بحث عقلاني وانجذاب إلى ما هو غيبي، بين فكر منطقي وهذيان بارانويا. من وجهة النظر هذه، كان يشبه جيوفاني موريلي، مبتكر طريقة تستطيع تمييز أعمال التصوير الحقيقية من التقليدية، أكثر مما هو يشبه شرلوك هولمز[602]، التحزي الشهير والشخصية الروائية، الذي يُعتبر معلّمًا في فن حل أية أحجية عن طريق معاينة بسيطة لبعض الآثار: بقايا رماد، وبر متساقط، خيوط من نسيج، نتف من جلد بشري. بطبيعة الحال، كان بإمكان جميع تلك الطرائق في إيجاد تفسير للأسرار الخفية، كما الحال في التحليل النفسي، أن تنقلب إلى ضدها، وذلك بفبركة أحجيات مزيفة، يُطلب من وجودها الافتراضي أن يقدم البرهان على مصداقية المقاربة المخصصة لتأويلها، وهكذا تمامًا فإن التشكيك بتاريخية حادثة أو شخصية يؤدي إلى جعل الخرافات وقائعَ صحيحة ومن ثم تقديمها بقوة لا تقبل الجدال بصفتها أيضًا كأحجيات يجب فك ألغازها كي يُصار إلى البرهان على أنها تخفي مؤامرات: فنابليون لم يلاقِ حتفه في جزيرة سانت - هيلين، ويسوع قد تزوج ورزق بأبناء، وهذا الملك أو ذاك ليس في حقيقة الأمر سوى شقيقه التوأم، إلخ.

وإذا كان فرويد، رغم استمرار شكوكه، يلتهب حماسةً إلى أعلى درجة، حين يتعلق الأمر بإبراز أحجيات مزيّفة، فما ذاك إلّا لأنه كانت تسيطر عليه منذ طفولته هواجس الفكرة القائلة بأن جميع من يعاينهم من المحيطين

به - الأب، الأم، الخالات والعقات، الأخوات، الأخوة، وجميع القرابات على تنوعها - لم تكن أبدًا في حقيقتها كما تبدو عليه وإنما هي بدائل لغيرية مستمرة: أب متولّد من سلف بعيد، أمّ في موضع مربية والعكس بالعكس، شقيق يمكن أن يكون هو الأب، والقديسة آنا مختلطة مع مريم، إلخ، ومن وراء الأب الافتراضي أو غير المعترف به، وبما هو أبعد من الأم البديلة، ترتسم ملامح «رواية عائلية» من خلالها يكون الشخص المنتمي إليها غير ما يظنه عن نفسه: فهو ابن ملك أو بطل، وهو قاتل أب، وطاغية، وسوقي، وطفل يُضبط وهو يضاجع أمه، ومحتال، إلخ، من هذه المقولة تنجم الضرورة العيادية لكشف المعميات الغارقة في اللاشعور، حيث توجد عناصر ليس لها أي معنى، وهي قادرة على أن تكون من مصدر أثرٍ خرافي[603].

لا يمكننا أبدًا أن نفيَ فرويد أبدًا حقه، كرجل ينتمي إلى التنوير وكمفسر للألغاز الحقيقية في النفس البشرية، وأنه في هذا المجال لم يتوقف، مقابل تعلقه بالعلم، عن تحدي القوى الغامضة الخاصة بالبشر، كي يضيء القدرة التحتية المطمورة، إلى حد المجازفة بالضياع في تلك المتاهة.

وهنا كان رصيد تعلّقه المشغوف بفك لغز إشاعة ابتكرها من هنا وهناك، كما لو أنها أحجية حقيقة، وهذه الأحجيات كانت على ما يبدو على انسجام مع نظريته بخصوص البدائل اللانهائية، وهذا ما جعله تحت سيطرة هاجسٍ رافقه حتى نهاية حياته، متمثلٍ بالسؤال التالي: من إذن ذاك الذي يخفي نفسه دائمًا تحت اسم «رجل عظيم»؟

---

540 سوف يجد القارئ في نهاية هذا الكتاب جدولًا غير حصري بمرضى فرويد كما وضعه ريتشارد ج. كلين وأرنيست فالزيدر، وقد أضفتُ شخصيًا أسماء أخرى، انظر أيضًا أولريك ماي، «Neynzehn Patienten In Analyse Bei Freud (1910 - 1920). - Teil I:Zur Dayer von Freuds Analysen. - Teil II:Zur Freqyenz von Freuds Analysen», Psyche, Zeitschrift fur Psychoqnqlyse ynd ihre Anwendun gen,6 - 7,Stuttgart, Klett - Cotta, يونيه/حزيران ويوليه/تموز 2007، ص.590 - 625. دافيد ج. لين وجورج ا. فايان حلّلا وقدّرا ثلاثًا وأربعين حالة من مرضى سيغموند فرويد، Anonymity, Neutrallity and Confidentiality in the Actyl Methods of Sigmund Frid: A Review of 43 Cases, 1907 - of

psychiatry فبراير/شباط 1998، ص 163 - 170. مايكل بورخ - جاكوبسن قدم لوحة بالغة الأهمية، لكنها شديدة التحامل على فرويد، عن أحد وثلاثين مريضًا، انظر، «مرضى فرويد»، المصدر السابق. انظر أيضًا الكتاب الذي أصبح قديمًا من تأليف بول روزين، «الخرافة الفرويدية» (1971)، باريس، PUF، 1986. ومان فريد بوهلين، «التحليل عند فرويد» (2006)، باريس، تالانديه 2010. و«قاموس التحليل النفسي»، المصدر السابق. بعض الملفات حول المرضى في مكتبة الكونجرس لم يتم شطبها بعد، علمًا بأنه بالإمكان الوصول إليها. وأنا شخصيًا تعرفت على هوية أكثر من مائة وعشرين مريضًا قدّمت أسماءهم في الجدول الملحق بهذا الكتاب.

541 بحثتُ هذه المسألة في JL - HPF، المصدر السابق. انظر أيضًا «قاموس التحليل النفسي»، المصدر السابق. ونجد فيه المراجع المتعلقة بهذه القضية.

542 وذاك تحديدًا لأن المحللين النفسيين لم يريدوا مجابهة تلك العلاجات التي لا يرويها فرويد ولهذا لم يمكنهم أبدًا تقديم تقدير حقيقي لممارسته. ومع تشابك الميول - أنصار كلين، لاكان، ما بعد لاكان، فيرينتزي، إلخ. -، فقد اكتفوا بالتعليق على هذه المجموعات كمستندات نهائية، مثل حالة آنا و. و«حالات» مروية في «دراسات حول الهستريا»، وكذلك «خمسة تحليلات نفسية»، الشهير ومن بينها ثلاثة لا غير يمكن تصنيفها كعلاجات. وهذا ما أفسح المجال أمام أعداء الفرويدية الذين استفادوا منها لتحويل فرويد إلى مشعوذ غير قادر على شفاء أبسط مريض. وواقع الحال بكل وضوح أكثر تعقيدًا بكثير كما رأينا.

543 إرنست بلوم، ماري بونابرت، ماريز شوازي، جاكوب يوليوس دافيد، فيكتور فونديلستاي، هيلدا دوليتل، هنري فلورنوا، هوراس و. فرانك، برونو غوتز، أبرام كاردينر، كارل ليبمان، غوستاف ماهلير، ريمون دو سوسير، جيمس وأليكس ستراشي، برونو والتر، مارغريت فيجينستين، جوزيف وورتيس، إلخ.

544 يمكن استشارتها في مكتبة الكونجرس.

545 هنري روديه، عالم الرياضيات، قدّر لي ثروة فرويد في مختلف مراحل حياته. بالفلوران وبالكورونا قبل الحرب العالمية الأولى، ثم اعتبارًا من 1924 بالشيلنغ وبالدولار. ونشير هنا إلى أن جميع «التحويلات» المقترحة لتقدير سعر جلسات فرويد لتحويلها إلى

اليورو أو الدولار في القرن الحادي والعشرين لا تقوم على أي أساس علمي، ناهيك بأن القائمين بها يناقض بعضهم بعضًا: أربعمائة وخمسون يورو عند البعض، ألف عند البعض الآخر، ألف وثلاثمائة عند آخرين أيضًا. ولا يمكننا بحال من الأحوال أن نأخذ مثل هذه التحويلات على محمل الجد، فهي مخصصة وضوحًا ليفهم منها من يتابعها بأن فرويد كان محتالًا أو قضابًا، ولا يمكننا تقدير قيمة ثروته إلّا بمقارنتها مع ثروات معاصريه الممارسين للمهنة نفسها والذين ينتمون للطبقة الاجتماعية ذاتها. بطبيعة الحال، أصبح فرويد غنيًا بالقياس مع الفقر النسبي الذي عاشه والده عندما كان في مثل عمره. هنري روديه، «فرويد والمال»، وهو غير منشور. انظر أيضًا كريستوفريد توجل، «ممارسة سيغموند فرويد كطبيب: الزيارات والاستشارات. التحليلات النفسية، والأجر»، مجلة «The Psuchoanalutic Quarterly»، 78 4، 2009، ص 1033ـ 1058. انظر تقدير توماس بيكيتي لاحقًا في هذا الكتاب. سأساس

546 لو أندرياس - سالومي، «مراسلات مع سيغموند فرويد»، المصدر السابق، ص 138. يلمّح فرويد إلى أن عائلة لو أفلست جزئيًا بسبب الثورة البلشفية.

547 في تلك الفترة، في نيويورك، كانت تسعيرة الجلسة خمسين دولارًا.

بناءً على طلب مني قدّر توماس بيكيتي دخل فرويد كما يلي:

« كان فرويد ميسورًا وهذا لا يشكل فضحية، نظرًا للفارق الكبير جدًا في مستويات العيش مما كان يميّز تلك الحقبة. كان متوسط الدخل حينذاك من 1200 إلى 1300 فرنك ذهبي سنويًا للفرد الواحد. اليوم، في 2013 - 2014، متوسط الدخل (قبل اقتطاع أي ضريبة) هو في حدود 25000 يورو سنويًا للفرد البالغ. وكي نجري مقارنة من الأفضل بالتالي ضرب القيمة بالفرنك الذهبي في 1900 - 1910 بعشرين ضعفًا. وينسب كريستفريد توجل إلى فرويد دخلًا يقترب من 25000 فلوران، ما يساوي 500000 يورو كدخل سنوي في الوقت الحاضر. إنه دخل مرتفع جدًا، بالتأكيد، لكنه يمثل إلى حد ما متوسط أعلى مستوى في تلك الحقبة. ومع تفاوت المقارنة، فقد يكون هذا الرقم متناسبًا بالأحرى مع 250000 يورو تقريبًا كدخل سنوي في أيامنا هذه».

548 سيغموند فرويد وساندور فيرينتزي «المراسلات»، الجزء الثالث: 1920 - 1933، المصدر السابق، ص 252. سميلي بلانتون، «يوميات تحليلي عند فرويد»، باريس، PUF، 1973، ص 72. أنا لا أشاطر باتريك

ماهوني رأيه حين فسر على طريقة كلين معاداة فرويد للأمريكان بوضع فرضية مفادها أنه هكذا يحمي بصورة دفاعية الصورة المثالية عن أمه بحيث تصبح أمريكا ممثلةً في نظره لـ«أم قديمة» هو قد قام بكبت سلطتها الشيطانية. انظر لويز غرونييه وإيزابيل لافيرنيا، «التفكير بفرويد مع باتريك ماهوني»، كويبيك، ليبر، 2004، ص 39.

549 رسالة فرويد إلى رادو، في 30 سبتمبر/ أيلول 1925، LoC.

550 رسالة سيغموند فرويد إلى استفان هولو بتاريخ 4 أكتوبر/ت1 1928، في استفان هولو، «وداعي للبيت الأصفر»، باريس مطبوعات كوك - هيرون، 1986.

551 على سبيل المثال سوف نشير إلى أن المهندس المعماري من فيينا كارل مايريدر (1856 - 1935)، وكان فرويد قد عالجه خلال عشرة أسابيع في 1915 لحالات الكآبة المزمنة لديه، قد حقق رقمًا قياسيًا إذ استشار تسعة وخمسين طبيبًا قدموا إليه وصفات وعلاجات أخرى، وكلّها غير ذات نفع، لكن فرويد هو من اتهموه فيما بعد بأنه لم يحقق له الشفاء، هذه المقولة حول المسؤولية الوحيدة لفرويد تناولها مايكل بورخ - جاكوبسن، «مرضى فرويد»، المصدر السابق. وفرانك سيوفي، «فرويد وقضية العلم المزيّف»، شيكاغو، أوبن كورت، 1999. وجاك بنستو، «أكاذيب فرويدية»، المصدر السابق.

552 حديث إدواردو ويس مع كورت إيسلر، 13 ديسمبر/ك1 1953، LoC، صندوق 121، بطاقة 34، مع تعليقات متنوعة وذكريات. انظر أيضًا آنا ماريا أكسربوني، «سيغموند فرويد في ذكريات إدواردو ويس، رائد التحليل النفسي الإيطالي»، المجلة العالمية لتاريخ التحليل النفسي، 5، 1992، ص 619ـ 633.

553 جيورجيو فوغيرا، Gli anni della psicoanalisi, Pordenone, Edizioni Studio Tesi,1980.

554 انظر موريزيو سيرا، «إيتالو سفيفو أو الحياة المضادة» باريس غراسيه، 2013، ص 258ـ 259. إيتالو سفيفو، «روايات»، مطبوعات وتقديم ماريو فوسكو، باريس، غاليمار، سلسلة «كوارتو»، 2010.

555 مشروع دهان هياكل المراكب.

556 هذه هي الكلمات التي قالها سفيفو.

557 موريزيو سيرا، «إيتالو سفيفو أو الحياة المضادة»، المصدر السابق، ص 261.

558 سيغموند فرويد وكارل أبراهام، «المراسلات»، المصدر السابق، ص

352 - 354.

559 آن-ا ماريا أكسربوني بافانيلو، «LA sfida di Svevo alla psicoanalisi » في guarire dalla cura Italo Svevo e i medise, متحف سفيفو، بلدة تريست 2008، ص. 110 - 112. انظر أيضًا موريزيانو سيرا، «إيتالو سفيفو»، المصدر السابق، ص249.

560 موريزيو سيرا، «إيتالو سفيفو»، المصدر السابق ص264.

561 إيتالو سفيفو، «روايات»، المصدر السابق، ص. 908.

562 ماريو لافاجيتو، .L impiegato Schmitz e altri saggi su Svevo Turin, Einaudi, 1975.. وهذا ما عاد إليه أيضًا موريزيو سيرا.

563 آن-ا ماريا أكسيربوني بافانيلو، «La Sfida di Svevo alla psicoanalisi»، المصدر السابق.

564 انظر لاحقًا، العلاقات بين فرويد وأوسكار بفيستر.

565 من بين مرضى فرويد، هناك ما يقرب من عشرين أمريكيًا، قدموا جميعهم تقريبًا من نيويورك. وكان تادوس أيمس (1885 - 1963) قد التقى بفرويد في فيينا في 1911 - 1912. ومونرو ماير (1892 - 1939)، الطبيب النفسي الكئيب، سوف ينتحر وعمره سبعة وأربعون عامًا بقطعة زجاج. سوف يتهم أعداء الفرويدية فرويد بأنه من وراء هذه الوفاة الإرادية الحادثة بعد ثمانية عشر عامًا من إقامة مونرو في فيينا. وليونارد بلوم غارت (1881 - 1959)، ظل وفيًا للأرثوذكسية الفرويدية.

566 مثلما صارح جونز . انظر بيتر غاي «فرويد، حياة»، المصدر السابق، ص 651.

567 تلك هي شهادة كلارنس أوبيرندورف في 12 ديسمبر/ك1 1952 LoC.

568 كلارنس أوبيرندورف (1882_1954) كان أرثوذكسيًا في المدرسة الفرويدية، معاديًا للتحليل النفسي الخارج عن إطار التقديس. وكتب الكتاب الأول الرسمي حول تاريخ التحليل النفسي في الولايات المتحدة.

569 أبرام كاردينر، «تحليلي عند فرويد» (1977)، باريس، بيلفون، 1978، ص 141و89.

570 المصدر نفسه، ص 103 - 104.

571 كان فرويد قد استلمهما في أكتوبر/ت1 1921، عند بداية كاردينر لتحليله عند فرويد.

572 أبرام كاردينر، «تحليلي عند فرويد»، المصدرالسابق، ص 111.

573 هوراس و. فرانك، «Morbid Fears and Compulsions»، بوسطن، موفات، يارد وشركاه، 1918.

574 استمر تداوي فرانك في المرة الأولى خمسة أشهر، ما بين مارس/أذار ويوليه/تموز 1921. ثم عاد إلى التحليل ما بين أبريل/نيسان ويوليه/تموز 1922. ما بين نوفمبر/ت2 وديسمبر/ك1، أجرى علاجًا للمرة الثالثة. انظر بولروزن، «الخرافة الفرويدية»، المصدر السابق. وكذلك ل. إدمون «تراجيديا فرويد الأمريكية»، جونز هوكن ماغازين، 30، 1988، ص. 40 - 49. انظر أيضًا «التفكير بفرويد مع باتريك ماهوني»، المصدر السابق، ص. 40 - 45. ومايكل بورخ - جاكوبسن، «مرضى فرويد» المصدر السابق، ص. 198 - 202. جرى التكتم على تحليل فرانك من طرف جماعة التحليل النفسي ومن عدد من كتاب سيرة فرويد، باستثناء بيتر غاي الذي روى بصورة صحيحة كيف جرى التحليل «فرويد حياة»، المصدر السابق، ص. 652، مع إشارته إلى معاداة فرويد للأمريكيين، في جميع الأحوال، فالقضية واردة في «المراسلات الكاملة» بين فرويد وجونز ، المصدر السابق. انظر أيضًا «قاموس التحليل النفسي» المصدر السابق.

575 رسالة إلى جونز بتاريخ 6 نوفمبر/ت2 1921. وتوفي أبراهام بيور في مايو/أيار 1922 دون أن يكون قد نشر رسالته المفتوحة.

576 رسالة فرويد إلى هوراس فرانك في 17 نوفمبر/ت2 1922، LoC. وهي مذكورة جزئيًا في «التفكير بفرويد مع باتريك ماهوني»، المصدر السابق، ص 43.

577 سيغموند فرويد وإرنست جونز ، «المراسلات الكاملة»، 1908 - 1939، المصدر السابق، رسالة فرويد تاريخها 25 سبتمبر/أيلول 1924، ص 639.

578 الأرشيف الطبي لجون هوبكين في المعاهد الطبية. مجموعة عائلة فرانك. وميكائيل سبيكتر، Sigmund Freud Urged His Disciple to Divorce Wanted Him to Marry Another Woman, Daughter Finds ، لوس أنجلوس تايمز، 12 نوفمبر/ت2 1987.

579 ـ سيغموند فرويد وإرنست جونز ، «المراسلات الكاملة»، 1908 - 1939 المصدر السابق، رسالة جونز بتاريخ 20 سبتمبر/أيلول 1924، ص 641.

580 جانين هايات، «ليتون ستراشي»: مؤرخ الأسرار الحميمة لملكتين، LISA e - journal، يناير/ك2 2007. ليتون ستراشي، «كبار

الفيكتوريين» (1918)، باريس، غاليمار، 1933؛ «الملكة فيكتوريا» (1921)، باريس، بايو، 1923؛ «إليزابيث وكونت إيسكس. قصة فاجعة» (1928)، باريس، غاليمار، 1929. انظر فلوريان ريفيرون، «من ليتون ستراشي إلى فيرجينيا وولف» في السيرة الأدبية في إنجلترا، في القرون السابع عشر - التاسع عشر. التشكيل، وإعادة تشكيل الذات الفنية، مطبوعات جامعة سانت - إيتين، 1999، ص 117 - 139.

581 جون مينار كينيزي «النتائج الاقتصادية للصلح» (1919)، ومن بعده جاك بانفيل، «النتائج السياسية للصلح»، باريس، غاليمار، سلسلة «تيل»، 2002. كان بانفيل أحد كبار المنتقدين بصورة لاذعة لكينزي. انظر جيل دوستالر وبرنار ماريس، «الرأسمالية ونزوة الموت»، باريس، ألبان ميشيل، 2009 هذان الكاتبان يشبهان انتقاد كينزي لقدرات الرأسمالية على تدمير نفسها بتنظير فرويد حول نزوة الموت.

582 انظر الكتاب الرائع بقلم بيري ميزيل ووالتر كيندريك، «بلوزبري/ فرويد، وجيمس، وأليكس ستراشي. مراسلات»، 1924 - 1925 (1985)، باريس، 1990، PUF.

583 المصدر نفسه، ص 43.

584 أبرام كاردينر، «تحليلي»، المصدر السابق، ص 117.

585 شهادة ليونيل س. بنروز في 28 يوليه/تموز 1953، LoC، صندوق 117. حول مسيرة جون ريكمان، الذي قام فيما بعد ساندور فيرينتزي وميلاني كلين بتحليله، انظر «قاموس التحليل النفسي»، المصدر السابق.

586 بيري ميزيل ووالتر كندريك، «بلومزبري/فرويد، جيمس، أليكس ستراشي»، المصدر السابق، ص 8.

587 جيمس ستراشي، «ثبت مراجع. قائمة بالترجمات الإنجليزية لأعمال فرويد»، المجلة العالمية للتحليل النفسي، 26، 1 - 2، 1945، ص. 67 - 76؛ و«هوامش الناشر»، في الطبعة الأمثل للمجموعة الكاملة لأعمال سيغموند فرويد في التحليل النفسي، 24مجلدًا، لندن، دار نشر هوغارت برس، 1953 - 1974، الجزء الثالث، 1962، ص 71 - 73؛ «مقدمة عامة»، المصدر السابق الجزء الأول، 1966ص. 13 - 22، وأ.تيزون، «قائمة تسلسلية حول أعمال فرويد»، المجلة العالمية للتحليل النفسي، 37، 1، 1956، ص 19 - 33. برونو بيتلهيم، «فرويد والروح الإنسانية» (1982)، باريس، لافون، 1984.

588 حسب كلمة بيري ميزيل، «بلومزبري/فرويد، وجيمس، وأليكس

ستراشي»، المصدر السابق، ص 13.

589 ميلاني كلين، «التحليل النفسي للأطفال» (1932)، باريس، PUF، 1969. رزقت ميلاني بثلاثة أطفال: هانز كلين، إيريك كلين، وميليتا، التي سوف تصبح ألدّ عدوةٍ لها.

590 حول مسيرة ميلاني كلين، التي سوف تُدرس في الفصل التالي، انظر فيليس غروس كورث، «ميلاني كلين، عالمها ومؤلفاتها» (1986)، باريس، PUF، 2000.

591 استقرت ميلاني كلين بصورة نهائية في لندن بتاريخ سبتمبر/ أيلول 1926.

592 انظر رونالد و. كلارك، «فرويد، الرجل والقضية»، المصدر السابق.

593 باتريك لاكوست، «الحالة الغريبة للبروفسور م. «، باريس، غاليمار، 1990، ص 93 - 94.

594 إرنست جونز ، «حياة فرويد وأعماله»، الجزء الثالث، المصدر السابق، ص 132.

595 لا سيما حين أراد جون هوستن إنتاج فلم عن حياة فرويد استنادًا إلى سيناريو وضعه جان - بول سارتر. انظر إليزابيث رودينيسكو، « فلاسفة يتألمون»، باريس، فايار، 2005.

596 فرنسيس باكون (1561 - 1626): فيلسوف، ورجل علم ولورد مستشار.

597 بيتر غاي، «فرويد ورجل ستراتفورد» في «قراءة فرويد. اكتشافات وتسليات»، باريس، PUF، 1995، ص17.

598 ج. توماس لوني «Shakespeare» Identified in Edward de Vere, the Seventeenth Earl of Oxford , Londres , Cecil Palmer, 1920. وقد عاد إلى مقولة لوني في 2012 رولان إيميريخ في فلمه «أسماء مجهولة».

599 من بين الاثنين وثمانين مرشحًا على التناوب لأبوة أعمال شكسبير لدينا، من بين آخرين، كريستوفر مارلو، سرفانتس، جون دون، روبرت ديفرو (إيسكس)، دانييل دو فو. كما أن تلميذين من تلامذة لوني تخيّلوا أيضًا بأن الملكة إليزابيث أنجبت طفلًا من دو فيري.

600 إدوار دو فيري (1550 - 1604)، الكونت السابع عشر لأوكسفورد، المستشار الكبير، الشاعر، الممثل، والعريق المواكب للحقبة الإليزابيثية، كان قد تزوج من آنا سيسيل، كونتيسة أوكسفورد (1556 - 1588)، ابنة ويليم سيسيل (1520 - 1598)، مستشار الدولة عند الملكة

إليزابيث، وملدريد كوك (1526 - 1589). وقد حلّ عليه غضب الملكة وأرسل إلى برج لندن، لأنه أغوى آنا فافازور (1560 - 1650)، وصيفة الشرف عند الملكة إليزابيث (1558 - 1603). وهنري واريوثيذلي (1573 - 1624)، الكونت الثالث لسوثامتون، والصديق للكونت الثاني لإيسكس (1565 - 1601)، والذي يزعمون بأن قصائد شكسبير الغزلية موجّهة إليه، وأنه العشيق الافتراضي لهذا الأخير. لقد حاول كتاب عديدون البرهان على أن شكسبير كان مثليًا. حول لامعقولية نسبة أبوة أعمال شكسبير إلى دو فيري، انظر آلان هـ. نيلسون، «Monstrous Adversary » ليفربول، مطبعة جامعة ليفربول، 2003.

601 رسالة فرويد إلى ليتون ستراشي بتاريخ 25 ديسمبر/ ك1 1928، في «بلومزبري/ فرويد»، المصدر السابق ص 373 - 375.

602 وُضعت كتب عديدة مختصة بإظهار التشابه بين فرويد والتحرّي الذي ابتكره آرثر كونام دويل، وهو نفسه من المشغوفين بتحضير الأرواح.

603 لقد أشار المؤرخ كارلو جينزبورغ إلى هذه الظاهرة، إلى انبثاق شيء مضطرب ومشوّش، يتملّص دائمًا من كل تفسير علمي، عند المقاربة العقلانية للإشارات.

الفصل الرابع

وسط النساء

اعتبارًا من سنوات 1920، أصبحت النساء أكثر حضورًا داخل حركة التحليل النفسي، التي في صميمها كانت تثور مجادلات عديدة بشأنهن في ما يخص وجودهن ضمن الحركة وممارستهن للتحليل: الحركة النسائية، الأمومة، تحليل الأطفال، الجنسانية الأنثوية. إن النساء، مثلما رحن يطالبن بحقهن بالوجود كمواطنات بحقوق كاملة، كذلك بدأن باتخاذ موقعهن في صفوف المحللين النفسيين، وليس بصفة زوجات فقط. وضمن هذا السياق، جلبن معهن نظرة جديدة حول طريقة التفكير بمسألة المعالجات. أضف إلى ذلك أنهن، هن بالذات، من وقع عليهن في البداية دور تحليل الأطفال. هذه الوظيفة التي وُصفت بأنها «تربوية» لم تكن تفرض عليهن القيام بدراسات طبية وكانت ما تزال وقفًا على الرجال، من وجهة النظر هذه، يمكن القول إن تحليل الأطفال يسّر انعتاق النساء، وإذا كانت النساء المحللات في أغلب الأحيان خاضعات لتحليل أزواجهن أو زملاء أزواجهن، فهن بدورهن قمن بتحليل أطفالهن أو كلّفن آخرين بهذه المهمة.

في 1924 ها هما رانك وفيرينتزي، اللذان سبق لهما اقتراح تجديدات تقنية في تسيير المعالجات، يبحثان عن تغيير الرؤية الفرويدية للعائلة كي يجعلانها أكثر توافقًا مع الحداثة الوافدة ما بعد الحرب. في بداية تلك السنة، افتتح رانك العداوات حين نشر كتابه المعادي للصنمية، «صدمة الولادة»، وهو الكتاب الذي أثار حربًا صاخبة من طرف جونز وأبراهام، لقد وجه انتقاده إلى التصور الذي رأى أنه شديد التعنت بخصوص التنظيم الأوديبي لعالم النفس، هذا التنظيم القائم على إعطاء مركز الصدارة للسلطة الأبوية، ودافع عن الفكرة القائلة بأن كل مخلوق بشري عند الولادة يعاني من صدمة حقيقية. فهذا الانفصال الأول عن الأم يصبح هكذا، حسب رأيه، الأنموذج الأعلى لقلق أكثر حدّة وجبرية على الذاتية البشرية من التثليث الأوديبي، وبعمله ذاك، عاد رانك إلى إطلاق الجدال حول المنشأ الصدمي لحالات العصاب.

غير أن فرويد، بدلًا من دحض تلك المقولة التي لم يكن موافقًا عليها، طالب بتقديم «البراهين»، ويبدو أنه نسي إدانته هو شخصيًا، عند خصومه المعادين له، اللجوء المخادع إلى النمط التجريبي الشهير: «يقضي

الواجب أولًا، هكذا قال لفيرينتزي، وقبل أي تطبيقٍ بتوسع، البرهان الإحصائي على أن المولودين الأبكار أو في حالات عسر الولادة، والذين يتعرضون لحالة من الاختناق، تظهر عليهم وسطيًا في طفولتهم استعدادات أكبر للعصاب أو على أقل تقدير لحدوث القلق[604]»، ويضيف بأنه لا بد أيضًا من دراسة حالة الأطفال المولودين بعملية قيصرية. وإذ كان رانك عاجزًا عن تقديم مثل تلك «البراهين»، فقد اتهمه حينذاك جونز وأبرهام أنه ليس طبيبًا ولم يتم تحليله، علمًا أن هناك قواعد دخلت بقوة، أثناء مؤتمر الـ IPV في باد - هامبورغ[605]، والتي تُلزم بإجراء التحليل التربوي. وسرعان ما كانت الغلبة لهوس التأويلات: إذ قالوا عن رانك إنه لم يحسم نزاعه مع الأب. وهكذا فرضوا عليه أن يخضع للتحليل، على مدى جلسات قليلة، عند معلمه المبجّل. ولكنه جهدٌ لم يقدم أي ثمرة!

حقيقة الأمر، لم يكن رانك يريد بعد ذلك اليوم أن يظل على تبعيته لفرويد، لقد أغرته اقتحامات تقنية جديدة، وكان راغبًا بمغادرة فيينا مع زوجته[606]، فتوجّه إلى الولايات المتحدة، وهو ما كان يمثل في نظر فرويد خيانة حقيقية، هنالك قدّم محاضرات وحلقات بحث، واستقبلوه استقبالًا رائعًا وقد أكّد، دون أن يخون مذهب المعلم، أن الواجب يقضي منذ ذلك التاريخ وصاعدًا الاعتماد على الأم وتطوير مبدأ المعالجات القصيرة. غير أن رانك، الذي تأثر تأثرًا كبيرًا بنصره الأمريكي، لم يكن يفكر سوى بالرحيل من جديد، وها هو في ديسيمبر/ك$_1$ 1925، يغادر فيينا مجددًا ليعود أدراجه من جديد وفي غمرة هجمة كبيرة من المازوشية، قام بنقدٍ ذاتي لنفسه، وأذلّ نفسه، وأقرّ بأنه مصاب بعقدة التمرد على الأب.

ومن جانبه، كان فيرينتزي يدافع حينذاك في «Thalassa»، بأن كل مخلوق بشري لديه حنين لثدي الأم وهو، كي لا ينفصل عنه، يفتش دون توقف عن تحقيق نكوص إلى الأعماق البحرية للحالة الجنينية[607]. هذه المقاربة للتحليل النفسي من خلال استعارات المغارة ترافق مع تجديدات تقنية، فإذا كانت جلسة التحليل النفسي، كما يقول فيرينتزي، تمثل تكرارًا لمقطع من التاريخ الفردي ناهيك بأن الرجوع إلى النشأة الأولى تعيد بلورة التطور، يجب التساؤل، ضمن الجلسة نفسها، ما هي الحالة الصدمية التي تكررها حكاية النشوء الأول رمزيًا.

في المرحلة الأولى ورغم عدم قبوله بنظرية صدمة الولادة، دافع فيرينتزي عن موقف رانك لأنه يشاطره ضرورة استقصاء الرابطة التي

تشد نحو الأم بما هو أبعد من التصور الفرويدي لعقدة أوديب، ولم يُجدِ ذلك نفعًا. فقد ابتعد رانك، في أبريل/نيسان 1926، بصورة نهائية عن فرويد كي يحقق قدره الخاص. وكهدية قطيعة، قدم إليه أعمال نيتشه الكاملة: ثلاث وعشرون كتابًا مجلدًا تجليدًا فنيًا بجلد أبيض اللون، لم يكن فرويد قد رغب في يوم من الأيام بقراءة أعمال ذلك الفيلسوف الذي هو مدينٌ له بالكثير، كما سبق أن قال له تلميذه ذلك مرات عديدة، كان مثقلًا بالألم لكنه دائمًا على شراسته بطريقته الخاصة في إبعاد أفضل أصدقائه، فكتب هذه الكلمات إلى فيرينتزي: «لقد أعطيَ الكثير وهو بالمقابل فعل الكثير من أجلنا. نحن إذن حساباتنا لا غبار عليها! أثناء زيارته الأخيرة، لم تتيسر أمامي الفرصة لأعبّر له عن المودة الفريدة التي أخصه بها. لقد كنتُ نزيهًا وقاسيًا، وهكذا يمكننا وضع إشارة ضرب عليه، ولقد كان أبراهام مصيبًا[608]». كان فرويد ما يزال يلوم رانك على تأويله لحلم بانكييف بخصوص الذئاب.

غير أنه مع ذلك اهتم بالرد من خلال كتاب وُضع على عجل: «صدٌّ، وعارِضٌ، وقلق»[609]، إن فرويد، مع أخذ وضعية رانك بعين الاعتبار، تجنب العقبة التي تفرض لفعل الولادة بالذات واقعًا صدميًا. وهو بذلك يعلن عن قبوله بأن قيمةً زائدة، وحتى هوامية، قد نُسبت إلى الانفصال عن الأم غير أنه التفّ على قضية الخيبة التي يمكن أن تحدث، في الولايات المتحدة على وجه الخصوص، حيال القول بأن كل عملية إنجاب - طبيعية أم بالكلابات - يمكن أن تكون سببًا لقلق وجودي أو لحالة عُصابية.

من دون أن يقطع علاقته مع فرويد، ابتعد فيرينتزي عنه بتجديداته التقنية وأيضًا بإطلاقه لمسألة الصدم والممارسات الجنسية المكبوتة والتي تفعل فعلها كـ«دمغة» نفسية، كجرح يتعذر اندماله، وهو جرحٌ قادر على إلحاق التخريب بالأنا[610]. واغتنم جونز هذا الأمر كي يقاتله من دون هوادة، لا سيما أنه لا يتحمل، لا ميله إلى التخاطر، ولا الصداقة المتينة التي كان فرويد يخصّه بها. في هذه المعركة بين القدماء والحديثين، لم يكن فرويد محقًّا أكثر مما كان رانك، وذاك لأن مقولة صدمة الولادة إذا كانت خاطئة من وجهة نظر تجريبية، فهي قد فتحت الطريق أمام تصوّر جديد لقلق الانفصال. وهذا ما كان يقبل به فرويد. وسوف تتوافر لديه النزاهة لاحقًا ليعيد النظر في وضعيته وليعترف بمزايا رانك الغالي[611]، لكن فات الأوان.

في هذه الأثناء، كان جونز منشغلًا بكسب معركته لصالح تفوق العالم الناطق بالإنجليزية على أوربا الغربية: وهذه طريقة منه ليبرهن على عدم وفاء حيال فرويد مع بقائه وفيًا لما يظن بأنه في صالح مستقبل التحليل النفسي، لقد فهم دفعةً واحدة، كما الحال مع أليكس ستراشي، بأن الطريقة الجدية الوحيدة لوضع مذهب فيينا الأصلي - المتمحور على أولوية قانون الأب - تمرُّ عبر تجديد المسألة المزدوجة بخصوص التحليل النفسي للأطفال والجنسانية النسائية.

فإذا كان فرويد، حتى ذلك التاريخ، قد جعل عقدة أوديب متمركزة وفق نمط النواة العائلية - أب، أم، طفل -، فهو في الوقت نفسه قد أسند لكل طرف موقعًا لا يسمح سوى بإضاءة نشأة حالات العصاب والنزاعات المتولدة في الطفولة، لقد طوّر تصورًا نقديًا للعائلة البرجوازية التي راح يستقصي شؤونها انطلاقًا من هيكليته الأوديبية المشهورة من دون أن يدرك مخاطر هذا التفسير النفساني للحياة النفسية، والذي سوف ينتهي بالغرق في أعماق المضحك المثير للسخرية بعد أن مثل تجديدًا حقيقيًا.

كان من رأيه هكذا أن الطفل هو دائمًا وبالضرورة طفل لرجل أو للبديل عنه، الذي يُجسد السلطة الأبوية، ولامرأة أو البديلة عنها، التي غيّرت موقع التوظيف الليبيدي حيال الأمومة، بنتيجة ذلك، إن الطفل، حسب فهم فرويد، يكرّر لا شعوريًا قصة والديه وبالتالي أسلافه الغابرين، ضمن هذا المنظور، لم يكن يمكن بحال من الأحوال مقاربته بالتحليل كمخلوق منفصل كليًا عن الوالدين. فالطفلُ، حسب فهم فرويد، يُنظر إليه يقينًا كموضوع كامل، إنما إذا ما تطور الأمر وأصبح المطلوب التعامل معه في حالات مرضية، فلا بدل تناوله «في العائلة» ولا يجوز أن يكون ذلك أبدًا قبل عمر أربعة أو خمسة أعوام. ناهيك بأن فرويد قام بتسيير تحليل هربيرت غراف من خلال خطاب والده، والطلب من أمه أن تتمدد على ديوان التحليل، وحين فهم بأن ابنته تريد أن تكون أمًا من دون أن تنجب بالضرورة، تقبل الفكرة القائلة بأنها استطاعت تشكيل عائلة مع امرأة كانت قد هجرت زوجها: لكن بشرط أن تكون كلتاهما، بفضل حسنات التحليل النفسي، قادرات في الوقت نفسه على أن يكنّ الأهل والمربيات. في رأي فرويد، تستند سعادة الوجود على ثالوث: مثل أعلى تربوي، أمومة سعيدة، أبوة قامت بدورها، ومدرسة فيينا، تأثرًا منها بهذا النمط، كانت في البداية قد نالت مباركة فيرينتزي. وفي 1913، قام هذا الأخير بتوصيف حالة

طفل عمره خمسة أعوام، اسمه أرباد، وكان مهووسًا بطيور المزرعة ويطلق صرخات كصوت الديك[612].

ومن جانبها، ها هي آنا فرويد، محاطةً بأوغست إيخورن وسيغفريد بيرنفيلد، اللذين كانا يتوليان أمور أطفال جانحين، أو معوقين، أو مصابين بصدمات، أو فقراء، تُتابع عملها مكرسةً نفسها لتربية الأطفال بالتحليل النفسي[613]. ولم يكن فرويد يدعمها إلّا بمقدار اقتناعه، كما حال تلامذته في فيينا من جماعة الحلقة الأولى، بأن العلاج النفسي للأطفال لا بدّ له أن يتم بوساطة من سلطة الوالدين: «نحن نطرح كفكرة مسبقة، كما سوف يكتب إلى جوان ريفيير في أكتوبر/ت1 1927، أن الطفل مخلوق خاضع لنزوات، مع أنا هشة وأنا عليا ما تزال قيد التشكل، عند البالغ، نحن نعمل بمساعدة أنا قد ترسخت، وبالتالي لا نكون غير أوفياء للتحليل إذا أخذنا بعين الاعتبار في تقنيتنا خصوصية الطفل الذي يجب، في التحليل، دعم الأنا عنده لتواجه «الهو» النزوي دائم الحضور. وقدّم فيرينتزي الملاحظة اللماحة بأن مدام كلين إذا كانت على حق، فلن يعود هناك فعليًا من وجود لأطفال، بطبيعة الحال، فالتجربة هي التي تحتفظ بالكلمة الفاصلة. حتى هذا الوقت الحاضر، ما تبين لي، هو أن مطلق تحليل إذا لم يكن ذا وجهة تربوية لن يكون من شأنه سوى مفاقمة حالة الأطفال وسوف تكون نتائجه مؤذية بصورة استثنائية عند الأطفال المهجورين، والنافرين من المجتمع»[614].

كانت الحجج التي جاء بها فرويد موضع قبول بالكامل، ولكن كان لا بد من وجود الأهالي الذين يقبلون بتسليم أبنائهم إلى محللين نفسيين في عصرٍ كانت أمراض الطفولة تُعالَج فيه على أيدي أطباء نفسيين أو أطباء أطفال، ونظرًا لغياب المرضى من خارج حلقة التحليل النفسي، أجريت تجربة العلاج على أطفال من أبناء المحللين أو من أبناء أقاربهم، وهذا أمر لم يكن متيسرًا بسهولة بل ويمكن أن يكون مصدر عمليات غش وتحايل.

في 1919، ها هي هرمين فون هوغ - هلموث، العضوة في الـ WPV والتي قام بتحليلها سادجر أكثر تلامذة فرويد نفوزًا من النساء، تُفبرك على طريقة من كل بستان زهرة، وانطلاقًا من ذكريات طفولتها، كتابًا قدمته كيوميات أصلية لمراهقة حقيقية أطلقت عليها اسم غريتا لينر. في المقدمة، أكد فرويد بأن هذا الكتاب يُمثل «جوهرة تشهدُ على الصدق الذي تقدر عليه الروح الطفولية في الوضع الحاضر للمدنية». كان كل شخص

يبدي إعجابه بهذه الرائدة في مجال التحليل النفسي للأطفال، المتمتعة بموهبة أدبية حقيقية، لكن أحدًا لم يلحظ بأنها لم تكن مزوّرة وحسب بل وهي أيضًا من المتعصبين تعصبًا أعمى للتأويل البدائي، فهي على مدى سنوات، كانت قد أسكنت في بيتها ابن أختها اليافع رولف هوغ كي تُخضعه لديانتها الأوديبية، فما من تصرف يصدر عن ذلك الصبي المسكين يمكن أن يغيب عن يقظة خالته المتحفّزة لإيجاد التأويلات: ساديته الطفولية، رغبته المكبوتة حيال أمه، جنسانيته النزوية، تثبيته على أشياء أو بدائل للأهل، وفي سبتمبر/ أيلول 1924، في فورة من الغضب الزائد قام بخنقها.

إن جماعة التحليل النفسي من أبناء فيينا أصابتهم شظايا من هذه الفضيحة على يد رولف هوغ، الذي حكم عليه بالسجن لمدة اثني عشر عامًا، والذي كان يؤكد بأنه ضحية من ضحايا التحليل النفسي، في 1930، طالب بدفع تعويض له عمّا لحق به وكان هذا الطلب من فيديرن، الذي كان حينذاك رئيس الـ WPV، في هذه الأثناء، بطبيعة الحال، كانت «اليوميات»، التي عرفت نجاحًا ملحوظًا، قد سُحبت من البيع، وقد استسلم فرويد لخداع هذه المزايدة الصادرة مباشرةً من مذهبه[615].

لم تكن ميلاني كلين تحمل التصورات الفرويدية عن العائلة، وما سبق أن تعلمته من عائلتها بالذات أبعدها عن كل فكرة تسعى إلى المزج بين التربية والتحليل النفسي، كانت ابنة أب من غاليسيا وأم من أصول سلوفاكية - وكان الاثنان متمسكين باليهودية الأرثوذكسية -، وقد عاشت طفولةً شقية[616]. أما أمها، وهي امرأة جميلة ومثقفة، فكانت تزدري زوجها، الذي، من جانبه، كان يفضل ابنته البكر، الدميمة والقليلة الذكاء، وهكذا فقد وجدت ميلاني الحماية عند شقيقها. لقد نشأت من دون مبادئ ولا تعاليم أخلاقية، مع حضورها دائمًا المنازعات التي لا تتوقف بين والديها، وتزوّجت دون حب آرثر كلين، وهو أحد أقاربها من جهة الخؤولة، وسوف تنجب منه ثلاثة أطفال غير مرغوب بهم[617]، وقد انخرطت بحمية - تكاد أن تكون نوعًا من اعتناق الصوفية - في مغامرة التحليل النفسي: كانتقام من الشقاء، وكرغبة في التغلب على حياة كئيبة.

رغم ما كان لديها من عبقرية، لم تعلق ميلاني أي أهمية على الحياة الحقيقية للأطفال أو على تربيتهم. لم تكن تهتم سوى بالعمليات الشعورية التي يمكنها الإمساك بها عند الصغار جدًا. إن العائلة، ذلك المكان الحافل

بجميع أنواع الكراهية والتخبط، في نظر كلين، كانت عند فرويد تمامًا كما لوحات بيكاسو مقابل التصوير الكلاسيكي، فالأنف، والفم، والوجوه هي نفسها لا تتغير، لكن توضع بمسافات فاصلة ما بينها، وتغير مواضعها وتحتل الأماكن غير المنتظرة، وأما بشأن رؤية ميلاني للطفولة، فيمكن لنا القول بأنها تشبه لوحة من ماكس إرنست: كوابيس، طبيعة في حالتها الخام، إعادة تشكيل ليلية حيث تمتزج الحيوانية، والبشرية، ومواد سائلة.

كانت ميلاني كلين تطالب بعلم النفس الأوديبي لكنها تُبرز بصورة خطيرة معالمهُ كي ترتفع في العالم الذي يقال عنه: «ما قبل الأوديبي» عند الطفل: رحم الأم، استحواذ الطفل على أحشاء جسم الأم، الشراهة المفترسة، الاضطراب، الرعب من القصاص، القلق، الذهان، بهذا الصدد، كانت أكثر « حداثةً » من الفرويديين الكلاسيكيين، مثلما هي أقرب إلى النمط الأدبي في القرن العشرين منها إلى نمط القرن التاسع عشر، وهذا تحديدًا ما كان يسحر بشدة أليكس ستراشي، وفي وقت قصير جدًا، انتصرت على معظم المحللين النفسيين البريطانيين لا سيما على جونز ، الذي عهد إليها بتحليل أطفاله.

في نظرها، كان الواجب يقضي بتحطيم جميع الحواجز التي تمنع المعالج من الوصول إلى لا شعور الطفل. ونتيجة لذلك، كانت تضع في معارضة «الحماية» حسب مفهوم فرويد مذهبًا يقول بدراسة الـ enfans - الطفل بعمر عامين إلى ثلاثة أعوام -، أي الطفل الذي لم يتكلم بعد، لكنه أيضًا لم يعد رضيعًا لأنه كبت في أعماقه الرضيع.

إذا كان فرويد هو أول من اكتشف لدى البالغ الطفل المكبوت فإن ميلاني كلين هي أول من وجدت عند الطفل ما سبق أن كُبت، أي الرضيع، ومن هنا مباشرةً، اقترحت ليس مجرد مذهب وحسب وإنما أيضًا إطارًا ضروريًا لممارسة العلاجات الطفولية النوعية: ديكور مناسب، حجرة مجهزة تجهيزًا خاصًا، موبيليا بسيطة ومتينة، طاولة صغيرة وكرسي، ديوان صغير. وكان لا بد لكل طفل من أن يحصل على علبة ألعابه المخصصة للعلاج والمؤلفة من بيوت صغيرة، وأشخاص صغيرين، وحيوانات داجنة وحيوانات بريّة، ومكعبات، وكرات، وقطع رخامية مع أدوات صغيرة: مقص، خيط، أقلام رصاص، ورق، معجون للتشكيل.

هذا التصور للمقاربة العيادية للأطفال كان ملازمًا، عند ميلاني كلين وانصارها، لإعادة تشكيل مذهب الجنسانية الأنثوية. لقد استمدَّ نماذجهُ

من البيولوجيا الداروينية، ولذلك دافع فرويد عن مقولة الأحادية في الجوهر الجنسي وعن وجود جوهر «ذكريّ» بخصوص الليبيدو عند الإنسان وهذا الجوهر ناتج عن المعاينة العيادية من طرفه للنظريات الجنسية الطفولية، ولم تكن الغاية لا توصيف الاختلاف بين الجنسين انطلاقًا من التشريح، ولا حسم قضية الوضع النسائي في المجتمع الحديث.

ضمن منظور الليبيدو الأحادي، ها هو يؤكد أن الفتاة في مرحلة الطفولة تجهل وجود المهبل وتجعل البظر يقوم بدور مشابه للقضيب. وهكذا فهي تشعر حينذاك، حسب رأيه، بأنها مزوّدة تنكرًا بعضوٍ مبتور وفق عدم التناظر ذاك، المتطور من حول محور وحيد لتصور الأمور. فإن عقدة الخصاء، كما يقول لا تنتظم بالطريقة نفسها عند الجنسين. فقدر كل منهما مختلف، ليس تشريحيًا وحسب، وإنما بتأثير التشخيصات المختلفة المرتبطة بوجود هذا التشريح، عند البلوغ، يظهر المهبل أمام الجنسين: فالصبي يرى في الإيلاج هدفًا لجنسانيته، بينما الفتاة تكبث جنسانيتها البظريّة، لكن في البداية، عندما يلاحظ الصبي بأن الفتاة لا تشبهه، فهو يفسر غياب القضيب عندها كتهديد لإخصائه هو شخصيًا بالذات، وفي لحظة نشوء عقدة أوديب، ينفصل عن الأم ويختار موضوعًا من الجنس نفسه.

أما جنسانية الفتاة، ودائمًا حسب فرويد، فتنتظم من حول القضيبية: إنها تريد أن تكون صبيًا. وفي لحظة نشوء أوديب، تشتهي الحصول على طفل من الأب وهذا الموضوع الجديد يوظّف كقيمة قضيبية، على نقيض الصبي، يجب على الفتاة الانفصال عن موضوع من الجنس نفسه، الأم، من أجل موضوع من جنس مختلف، وعند الجنسين، فالتعلق بالأم هو العنصر الأول.

هذا التحليل المسمّى «الرغبة بالقضيب» يعود إلى معاينة تجريبية قام بها فرويد في حقبةٍ من الزمن، واستند إليها كي يؤسس نظريته بخصوص الجنسانية الطفولية، ضمن هذا المنظور - المتلائم مع ما كان يعبّر عنه الأطفال أنفسهم -، لاحظ فرويد بأن الفتيات يتوحدّن مع صبيان. ومن هنا عقيدة التحليل النفسي التي سوف نجدها عند كارل أبراهام على سبيل المثال: فالنساء يشتهين لا شعوريًا أن يكنّ رجالًا لأنهنّ، في طفولتهنّ، رغبن بالحصول على قضيب وتمنين الحصول على طفل من الأب. وإذا

كانت هذه المقولة دقيقة تجريبيًا فهذا لا يعني أن بالإمكان تعميمها على الجميع حيث أنها، حتى عندما تكون في مرحلة الذاتية الطفولية، فيمكن أن يجري عليها التعديل بحكم تغيرات المجتمع.

إن فرويد، رغم أنه من أنصار الجوهر الجنسي الواحد، كان يرى أن من الخطأ تقديم أي تفسير يؤكد على الطبيعة الغريزية في الجنسانية. فلا وجود في نظره لا لـ«غريزة أمومة»، ولا لـ«عرق» نسائي، سوى ما كان من عالم الهوامات والخرافات التي أسسها الرجال والنساء. وأما الاختلاف الجنسي، فإن فرويد يعيده، مستلهمًا الخرافات الإغريقية، إلى تعارض بين logos يقوم على الفصل - وهو مبدأ ذكري رمزي - وخصوبة قديمة، هي حالة من فوضى أمومية سابقة للعقل، ومن هنا قولته الشهيرة: «القدر هو التشريح»[618]، وعلى نقيض ما أمكن لبعضهم أن يقوله، فإن فرويد لم يدافع أبدًا عن أن التشريح هو القدر الوحيد الممكن في الشرط الإنساني، بل هو استعار تلك الصيغة من نابوليون، الذي أراد تدوين تاريخ الشعوب المقبلة في السياسة وليس بالرجوع إلى الخرافات القديمة[619].

بتعبير آخر، من خلال هذه الصيغة، فإن فرويد، مع تقديره الكبير للتراجيديات القديمة، لم يكن ليستهين، خلف سمات الصيغ المسرحية الحديثة وشبه السياسية، بالقضية الكبرى، قضية الاختلاف الجنسي، وهكذا فإن المشهد الذي يُقدم فرويد وصفًا عنه يستمد إلهامه من مشهد العالم، وحرب الشعوب، كما تمثلت في تفكير الإمبراطور.

تلخيصًا لكل ما سبق، سوف نقول بأن التشريح إذا كان، في نظر فرويد، جزءًا متكاملًا مع المصير الإنساني، فهذا المصير لا يمكن بحال من الأحوال أن يُمثل، عند كل إنسان، أفقًا لا يمكن تجاوزه، فهذه هي بحق نظرية الحرية المنبثقة من التحليل النفسي والخاصة به: الاعتراف بوجود مصير إنما من أجل الانعتاق من وطأته بصورة أفضل، ناهيك بأن فرويد سوف يقول في نهاية المطاف بأن التشريح لا يكفي أبدًا كي يُحدد ما هو أنثوي أو ذكري[620].

وعلى الصعيد العيادي، فإن وجود الليبيدو الفريد لا ينفي وجود الثنائية الجنسية. بل على العكس، هو تفسيرٌ لها: إذ وفق المنظور الفرويدي، لا يستطيع أي إنسان أن يكون مالكًا لخصوصية نوعية ذكريةً كانت أم أنثوية، بتعبيرٍ آخر، إذا كانت الأحادية الجنسية فرضية راسخة، فهذا يعني بأن الاختلاف بين الجنسين، بالمعنى البيولوجي، لا وجود له،

في التمثلات اللاشعورية عند الإنسان، والثنائية الجنسية، التي هي ملحقة بهذا التنظيم الأحادي، تقع بالتالي على الجنسين معًا، فانجذاب جنس نحو جنس آخر لا يعود بالضرورة إلى وجود تكامل. ليس هذا وحسب، وإنما الثنائية الجنسية تُفكك تحديدًا الفكرة لوجود مثل هذا التنظيم. ومن هنا نشأة الصيغتين المتمايزتين في المثلية الجنسية: فهي مثلية أنثوية حين تظل الفتاة «ملتحمةً» بأمها بحيث تريد شريكًا من جنسها نفسه، وهذه الثنائية تكون ذكورية حين يقوم الصبي باختيار مشابه بحيث ينكر الخصاء الأمومي.

إن المقولة الفرويدية للمدرسة التي أُطلق عليها اسم «مدرسة فيينا» دافعت عنها بعض النساء، لا سيما ماري بونابرت، هيلين دويتش، جانا بلامبل - دوغروت. ولكنها وُضعت موضع النقاش، منذ 1920، من طرف نساء أخريات من المدرسة التي أطلق عليها اسم «المدرسة الإنجليزية»: ميلاني كلين، جوزين مولار وغيرهما كثيرات. فكما كنّ يُشككن بأولوية شريعة الأب، بالـ«محورية القضيبية» عند فرويد وبالمثل الأعلى التربوي عند مقاربة الأطفال عن طريق التحليل النفسي، فهنّ أيضًا ينتقدن، ونقدهن في محله، الغلو في الفرضية الفرويدية القائلة بغياب الشعور بالمهبل عند الفتاة، ويضعن ثنائية في مواجهة تصوّر الليبيدو الفريد. وفي جميع الأحوال، عند معالجة الأطفال، لم يكنّ يلحظن ذلك الغياب المزعوم للشعور بالمهبل، ولا ذلك الموقع الممنوح للبظر كبديل عن القضيب. وهكذا فإن المدرسة الإنجليزية أعادت الاعتبار ضمن هذه الشروط لفكرة «الطبيعة الأنثوية»، أي لاختلاف قائم على التشريح، بالضبط من حيث كان فرويد قد جعله ذا قيمة نسبية ضئيلة لأنه جعل اللا - اختلاف اللاشعوري بين الجنسين في خانة مبدأ ذكري وحيد وتنظيم أوديبي بمصطلحات غياب التناظر[621]، بتعبير آخر كان أنصار المدرسة الإنجليزية أكثر «طبيعيةً» من فرويد: فهم يعتبرون بأن المرأة تُولد بهذه الصفة ولا تخرجُ منها، بينما فرويد يقول بالأحرى بأن الأنثوية تُبنى بمساعدة التمثلات، ومن هنا الفكرة القائلة بأن المرأة تعيش حياتها كـ«رجل غير مكتمل».

وها هي حرب لا هوادة فيها تنشب بين آنّا وميلاني، تحديدًا في مؤتمر آنسبروك، بتاريخ سبتمبر/ أيلول 1927، برئاسة ماكس إيتنغون، وذلك بأن ميلاني حضرت، مشرقةً وذات حضورٍ مهيمن، محاطة لأول مرة بأنصارها،

المنبهرين بأقوالها حول «المراحل الباكرة في النزاع الأوديبي»، والتي لم تعد بصفة مراحل وإنما بصفة «أطوار» أو بصفة «وضعيات متداخلة نفسيًا». إن فرويد، المتألم أكثر فأكثر بسبب السرطان المتحكم به، قرَرَ في ذلك التاريخ الانسحاب من الحركة. أما جونز ، الذي يدعم مقولات المدرسة الإنجليزية، أكان بخصوص تحليل الأطفال أم بخصوص مسألة الجنسانية النسائية، فلم يبذل جهده لإطفاء الحريق، وقد نجح بعزل فيرينتزي وبتأسيس توتر متزايد ما بين فرويد وتلميذه الهنغاري، الذي يُقال عنه بأنه: مُصاب بالبارانويا، علمًا بأن هذا الأخير كان لديه أسبابه الوجيهة ليشعر بأنه يتعرّض للاضطهاد، كان جونز يريد حلّ « اللجنة» ويحلم منذ ذلك الحين بأن ينعقد مؤتمر الـ Verein في إنجلترا. وهذه المرة أيضًا، كانت سياسته متناسقة.

لقد أخذ الجدال حول النساء والأطفال اتساعًا تاريخيًا ملحوظًا، ومن خلال هذا النزاع الجديد بين القدماء والحديثين بدأ تغيير مبدأ القياس وذلك استنادًا إلى تغيرات المجتمع الغربي، من وجهة النظر هذه، إن المجتمع الإنجليزي القائم على الليبرالية، والعلم التجريبي، والفردية - وأيضًا على التثاقف - كان أقدر من أوربا القاريّة على استقبال طروحات كلين التي اعتُبرت أكثر «أنثوية»، وأكثر ديمقراطية، وأكثر مساواة من طروحات فرويد حيث يتم التعبير عن التعلّق الذي ما يزال شديد القوة بالنمط الأبوي. علينا الإشارة إلى أن هذا النقاش كان معاصرًا لتطور الحركة النسائية عالميًا، وهي الحركة التي أدت، عن طريق الاحتكام إلى صناديق الاقتراع، إلى التحرر السياسي والقانوني للنساء. ونجد آثار هذا الأمر في دراسةٍ جميلة بقلم فرجينيا وولف، «ثلاثة جنيهات»، نُشرت بتاريخ 1938، وفيها تُشجع المؤلفة النساء على الاعتراف باختلافهن. بل وقارنت في هذا المجال التعصب الجنسي الذكري بالحركات الفاشية المنتصرة في ألمانيا وإيطاليا، نظرًا لأن غريزة القتال والحرب تبدو أنها في نظرها، إبّان تلك الحقبة، وقفًا على الرجال، علمًا بأنها لم تكن تستبعد أن تكون تلك الظاهرة من نسق ثقافي وليس من نسق جنسي[622].

اشتكى فرويد إلى جونز من تلك الحملة المنظّمة على أيدي أنصار كلين والموجهة على آنا، وكان أشد ما آثار الاضطراب لديه رؤيته للجميلة جوانا ريفيير، المنتمية إلى الأرستقراطية الإنجليزية والمرتبطة بجماعة بلومزبري، وهي تتأثر تأثرًا كبيرًا بالنظريات الكلينية. كانت مصابةً بالكآبة

والأرق، وخضعت خضوعًا تامًا للتحليل على يده، وكان يحملُ نحوها تقديرًا كبيرًا ومودةً عميقة، بينما كانت آنـا تمقتها. علمًا بأن جوانا ريفيير سوف تكون قادرة على ضبط المسافة الفاصلة بينها وبين كلين دون أن تخضع أبدًا لنظرة صنمية حيال النظريات الكلينية.

في سبتمبر/أيلول، كتب جونز إلى فرويد كي يؤكد له مخالفته لمواقف آنـا غير أنه كان ينسب ما لدى هذه الأخيرة من مقاومة إلى عدم كفاية تحليلها على يد والدها: وهذه مناسبة جديدة يتم فيها تحويل النزاعات العلمية إلى أمور سيكولوجية، علمًا بأن تلك النزاعات كانت على ارتباط لا جدال فيه بالمرحلة التاريخية، والسياسية، هكذا كان تصرّف فرويد حيال يونغ، ومن ثم يونغ حيال فرويد، ومن بعد ذلك جونز في وجه رانك، إلخ، من جديد، ها هو جدال واسع الطيف بين مقاربتين مختلفتين لواقعٍ واحد يتم تأويله من طرف المتنازعين أنفسهم، ليس كتبدل في مبدأ القياس، وإنما كقضية أوديبية.

وللعلم عاد جونز يؤكد على وفائه الذي لا يتزعزع للمعلم وابنته، ولم يشأ فرويد أن يُشارك في هذه المعركة رغم أنه استمر على رأيه بأن الطريق الكليني طريقٌ خاطئ، مع تقبله للفكرة القائلة بأن التجربة هي من ستكون لها الكلمة الحاسمة، غير أنه شعر بالامتعاض لأن مواقف المدرسة الإنجليزية تمّ تبنيها حتى قبل أن تدخل آنـا إلى منصّة الجدال:«في سلوك الإنجليز حيال آنـا، كما أشار، هناك نقطتان لا يمكن إيجاد عذر لهما: فمن طرف، يلومونها لومًا غير وارد عمومًا فيما بيننا، وهو مناقض لجميع التقاليد الحسنة، أعني لومها على أنها كما يقولون لم تنل ما يكفي من التحليل، وهذا لوم أمام الجمهور، وأنت بنفسك تقوله أمام الجمهور، ثم هناك ملاحظة السيدة كلين، التي تعتقد بأن آنـا تتجنب بصورة مبدئية موضوع أوديب. كان يمكن لسوء التفاهم هذا أن يُصار إلى تجنبه بشيء من حسن النية، ثم هناك ما هو أبعد من هذه الزوابع في فنجان ماء، وذاك أنني مرهق بتصريحات ريفيير النظرية، تحديدًا لأنني على الدوام حملتُ في نفسي تقديرًا عاليًا جدًا لذكائها، بخصوص هذه القضيّة يجب عليّ توجيه اللّوم إليك، لأنك بالغت كثيرًا بالتسامح. فحين يُعبّر عضو من جماعتنا عن وجهات نظر جوهرية مغلوطة وخادعة على حد سواء، يجب آنذاك على رئيس المجموعة أن يغتنم هذه الفرصة لتلقينه الدرس على حدة، لا أن تتحول الحادثة إلى نوع من الإشهار العلني بأوسع مدى دون أي

توافق مع ملاحظات انتقادية»[623].

وكان أن أثبتت التجربة، على نقيض فرويد، صخة نظريات كلين التي ترسخت في العالم قاطبةً، عند معالجي الطفولة الأولى، حيث أن لندن فرضت قيادتها للتنظيم العالمي للتحليل النفسي، لكنَ تلك النظريات، في جميع أرجاء العالم، جرى تصحيحها وتعديلها بطريقةٍ «آنا - فرويدية»، أي من خلال إدخال مفهوم النمط التربوي أثناء إجراء المعالجة للأطفال[624].

لقد تسلّح فرويد بعلم النفس الأوديبي، وبإيمانه بالبظر كبديل للقضيب واقتناعه بأن الفتيات يعينَ دونية «القضيب الصغير لديهن»، ولذلك بقي منغلقًا على تصورٍ للنساء، وللأنثوية، وللحياة العاطفية، نابع من الرومانتيكية الألمانية ومن الـ **Naturphilosophie** - الفلسفة الطبيعية - وبينما كان مذهبه حول الجوهر الجنسي الأحادي يمضي بعيدًا عن النظرة الطبيعية، فلم يكفّ عن الإشارة إليه في نظرته عن النساء و«طبيعة» الصفة الأنثوية، ومن جديد، كانت مواقفهُ معقدةً إلى أقصى حد وكان فرويد يُمضي وقته بمناقضة نفسه بنفسه وبشن الحرب على نفسه بالذات.

كان من رأيه أن النساء أكثر سلبيةً من الرجال، وأكثر ثنائية جنسية أيضًا، وأن المثلية النسائية بالتالي مختلفة عن المثلية الذكرية، وأن حاجة النساء ليكنَ موضع محبة أكبر من حاجة الرجال لذلك الأمر وأنهن، بسبب هذا الأمر، على المستوى المرضي، مازوشيات أكثر مما هنَ ساديات، حيث أن تلك الحاجة عندهن تنعكس بسهولة متحولةً إلى استمتاع بسوء المعاملة. وفي الوقت نفسه، كان يؤكد أن النساء ليس لديهن ميل إلى الشذوذات الجنسية إلّا بتوجيه من الرجال، كان يُصر على أن الفتيات، في الطفولة، يعشن «متقزمات» ومنبوذات، وأنهن بالتالي ناقمات على أمهاتهن لأنهن ولدنهن نساءً وليس رجالًا: إنهن «راغبات بالقضيب»، كان يتصوّر العلاقات بين الرجل والمرأة على أنها تكامل، وهذا يصب بعكس مذهبه حول الجوهرية الجنسية الأحادية، فيجب على المرأة أن تكون الرفيقة اللطيفة للرجل، كما كان يقول، وهي لا تكسب أي شيء إذا مارست نشاطًا وظيفيًا أو قامت بدراسات ما دام شرطها الطبيعي أن تقيم مع الرجل ثلاث علاقات «لا مهرب منها»: أن تكون والدته، وصاحبته، ومدمرته، وهي الأشكال الثلاثة التي تعبّر عن صورة الأم أثناء الحياة: فهي الأم بالذات وهي العشيقة التي يختارها حسب صورة الأم، وهي، في الختام، الأرض - الأم التي تستقبله من جديد في أحضانها.

كان فرويد داروينيًا بامتياز، ومن القائلين بنظرية «مراحل» التطور، مثلما كان من المحللين الكبار لألغاز القدر الإنساني، كما حال أوديب أمام وحش طيبة - أي للأعمار الثلاثة التي يمر بها الإنسان -، ولذلك استمر على الدوام يؤكد بأن المرأة تُجسد للرجل ثلاثة أشكال أنثوية: الشابة المشتهاة، الزوجة المحبوبة، الأم التي تحمل حيال الرضيع حبًا أشد من حبها للطفل عندما يصبح مراهقًا. بتعبير آخر، كانت المرأة في تفكير فرويد تضمُ في جوانبها، ليس مجرد ثلاثة أنماط من الأنوثة تُحيلنا إلى الأرض التي تُرضعنا وتطعمنا، وبالتالي إلى الولادة والموت، وإنما أيضًا، مثلها مثل الـ Moires الثلاث في الميثولوجيا الإغريقية (وهنّ الـ Parques الثلاث عند الرومان)، أي ثلاث صيغ للقدر، وفي كل امرأة، كما كان يُفكر يجد الرجل ثلاث ربّات قادمات من الأولمب: الـ«غازلة»، التي تُحرك المغزل الناظم للحياة في سيرورتها، والـ«القضاء المحتوم»، الممسك بالساعة الرملية، أي حساب الأجل الزمني، والـ«التي لا تلين»، وهي التي تقصّ خيط الحياة، ومن هنا في نظره أكبر مشاركة وأعظمها عند النساء بما قدّمنه إلى الحضارة حين اخترعن النسج والجدل[625].

ولتدعيم مبدأ هذا العرض الذي جاء به بخصوص النساء، استند فرويد إلى إحدى شخصياته المسرحية المفضلة: الملك لير، فهذا العاهل المجنون، في مسرحية شكسبير، خطر له أن يعلم أيًا من بناته الثلاث هي المحبة له أكثر، وكان أن حكم على أفضلهن بالنفي، وهي كورديليا، مسببًا دمار مملكته والقضاء على ذريته، وهكذا في نهاية المأساة، بعد اعترافه المتأخر جدًا بخطئه، ها هو يحتضن بين ذراعيه جسم كورديليا الهامد: «وعبثًا راح الرجل العجوز يحاول الإمساك من جديد بحب المرأة، مثلما كان قد حصل عليه في البداية لدى أمه؛ ألا فإن المرأة الثالثة من نساء القدر، ربّة الموت الصامتة، هي التي سوف تحتضنه بين ذراعيها»[626].

كان فرويد أبًا لثلاث فتيات وتحيط به في برغاس ثلاث نساء - مارتا، مينا، آنا -، وقد وجد في الحكايات الميثولوجية الإغريقية وفي مسرحيات شكسبير صدى لتصوّره عن الوظائف الثلاث للمرأة - المرأة الأم، المحبوبة الزوجة، الربة الأرض - كما يحضرن أمام الرجل أثناء حياته. وقد التقط على وجه الخصوص من هذا الأمر موضوعته في الحكم الصادر عن «باريس»، وفي حكاية بيرو (سندريلا)، وفي حكاية أبولي (النفس) بل وأيضًا في مشهد مشهور من مسرحية شكسبير «تاجر البندقية» وهو

الطرف المقابل الكوميدي لتراجيديا الملك لير، في تلك المسرحية، تجدُ الشابة بورتيا نفسها مجبرةً، بإرادة من الأب، أن تتزوج من بين خطابها، ذاك الذي سوف يُحسن اختيار الصندوق الأفضل من بين الصناديق الثلاثة المقدمة إليه: والصناديق هي صندوق ذهب، وآخر فضّة، وثالث رصاص، والـ«أفضل» هو من يضم صورة الشابة. لقد انسحب متسابقان من دون نجاح باختيارهما للذهب والفضة. أما الثالث، باسانيو، فحزم أمره واختار الرصاص ونال الخطيبة التي، حتى قبل الاختبار، كانت تميلُ إليه.

حسب فرويد، يمثل كل صندوق نوعًا من النساء، وبورتيا، التي جُعلت في جانب الرصاص (المعدن «الكتيم») هي أكثر النساء الثلاث بساطةً، وأقلهن صخبًا: إنها تحب وتلتزم الصمت، وبهذا فهي تشبه كورديليا الوفية، الـ«ميتة».

كان فرويد يُحب النساء الوفيات والذكيات، وليس فائقات الجمال وإنما الخبيرات بأمور الحياة، المتفانيات في سبيل ذريتهن، وكان من مؤيدي حصولهن على الحقوق المدنية، كان يشعر برعب حيال الدعارة، ولا يحبُ المحظيات، ولا البيوت المشبوهة، كان من الأعداء الذين لا يلينون في محاربتهم للنفور من النساء لدى بعض تلامذته من أبناء فيينا وبعض الأطباء من وسطه المهني، أولئك الذين ينظرون إلى المرأة باعتبارها مخلوقًا أدنى من الرجل فيزيولوجيًا. هذه اللامساواة، كما كان يقول، لا وجود لها في اللاشعور: إنها تشكيل هوامي. ناهيك أنه كان يرى في كراهية النساء وفي الانتقاص من قيمتهن أحد جذور معاداة السامية لا شعوريًا.

وكما كان قد وصف الجنسانية الطفولية انطلاقًا من نظريات ابتكرها الأطفال، ها هو يبني مذهبه بخصوص الجنسانية استنادًا إلى العرض الذكوري للأنثوية وكذلك للعرض الأنثوي للذكورية، وهكذا فإن نظريته حول الأنثوية ظلّت جزئيًا متصلةً بحالة المجتمع الذي يعيش فيه. وهذا من بعض الأسباب التي جعلته لا يكفّ عن مناقضة نفسه بنفسه على مدى السنين الطوال.

فإذا كانت المرأة، حسب فرويد، تشعر بأنها حُرمت من القضيب، فالرجل يحتاج، للوصول إلى امرأة أخرى غير أمه، إلى أن يتغلب على التبجيل الذي تفرضه الأم عليه. ويضيف أنه على الرجل أن يدمج في داخله فكرة السفاح مع الأم أو الشقيقة، ويشرح فرويد إن الانتقال من الأم إلى «المرأة

الأخرى» يتمثل في الحاجة التي يشعر بها الرجل لإقامة علاقات جنسية مع نساء أدنى منه اجتماعيًا: «كثيرًا ما نرى، عند الرجال الذين ينتمون إلى أعلى الطبقات الاجتماعية، ميلًا للمحافظة على عشيقة بل وحتى اختيار زوجة من وسط اجتماعي أدنى من مستواه[627]».

إن فرويد يُفضل الطلاق الجيد على الزواج السيء، وكان يعتقد بأن استخدام «الواقي الذكري» يحرم النساء من الأورجازم تمامًا مثل الجماع المقطوع قبل نهايته. مع ذلك، اعتبارًا من سنوات 1920، توجه تفكيره إلى أن منع الحمل عند النساء أفضل بكثير من باقي الوسائل المستخدمة للتحكم بالولادات. كان من المتطهرين ذوي الفتنة، ولذلك كان يُحبُ إغواء النساء بالكلام بصورة جنونية، وفن كتابة الرسائل عنده، الذي يلامس حدود العبقرية، كان غنيًا جدًا مثلما أن رغباته الجسدية محدودة جدًا، ومخيلته الغلمية تُماثل بالفحش فقر ممارسته الجنسية سواء بسواء، في أعماق نفسه، كان لا يتوقف عن التساؤل بخصوص أكثر التمايزات وضوحًا وأكثرها انتشارًا معروفًا في الحياة الغرامية: كيف السبيل لنحافظ عند الرجل على اجتماع الحب والرغبة؟ «حيثما يشعرون بالحب، لا تكون لديهم رغبة، هكذا كان يقول، وحيث تكون لديهم رغبة، لا يستطيعون أن يحبوا[628]». ومما يثير الاستغراب، أنه لم يكن يريد أن يرى بأن النساء يخضعن كما حال الرجال لهذا التمايز وأنهن من دون شك باستطاعتهن، هنّ أيضًا، اختيار عشيق أو زوج من وضع اجتماعي أدنى من وضعهن.

هذه التصورات المتنوعة بشأن المرأة كان فيها ما يبعث على الصدمة، وليس صدمة أجيال من النساء في ما بعد، وإنما أيضًا صدمة النساء الحاضرات في حركة التحليل النفسي، في تلك الحقبة، وفي جميع الأحوال، المرّة تلو الأخرى، كنّ يتنازعن ما بينهن ليس بصدد المذهب الفرويدي عن الجنسانية النسائية وحسب، وإنما حيال الموقف الذي يتبنّاه فرويد بحق النساء عمومًا. لأنه، بدلًا من أن يحضّهن على شغل الصوف وعلى النسج، كان يدفعهن إلى أن تكون لديهن نشاطات وظيفية وأن يحققنَ استقلالًا اجتماعيًا. كان يعلم بأن التنظيم العائلي الذي ينتسب إليه في حياته الخاصة لن يدوم به العهد طويلًا، وبأن النساء والرجال من الأجيال المستقبلية سوف يكونون جدّ مختلفين عما كان قد عرف هو شخصيًا: كان يرى آثار ذلك التطور في طريقة معيشة أطفاله، حتى وإن كان يمنعهم عنها لأنه يريدهم على صورته، وكان على اقتناع صائب بأن

مذهبه، رغم بعده الكبير عن حركات النضال النسائية، يُسهم إسهامًا كبيرًا في تحرير النساء، كان ينظر إلى نفسه على أنه رجلٌ من أيام زمان، وأنه لم يغتنم فرصة التطوّر الجنسي الذي جاء به إلى المجتمع الغربي. وهكذا فالقرن العشرون كان بشكلٍ من الأشكال أكثر فرويدية من فرويد نفسه.

ومن دون أن يُشير إلى آماليا، لم يكن فرويد ليتردد في التأكيد بأن العلاقة مع الابن هي وحدها التي تجلب للأم رضى لا حدود له، ويضيف قائلًا:«على الابن، تستطيع الأم تحويل الطموح الذي لا بد أنها قمعته في داخلها، وتتوقع منه إرضاء ما تبقى عندها من عقدتها الذكورية. بل إن الزواج لا يتحقق قبل أن تتوصل المرأة إلى أن تجعل من زوجها أيضًا طفلها وأن تتصرف معه كأم[629]». بتعبير آخر، إن كل امرأة، في رأي فرويد، هي في البداية أم افتراضية للرجل الذي يحتاج إلى أن ينتقص من قيمتها كي يجعل منها موضوعًا جنسيًا. ونتيجة لذلك، كما يقول، فنقطة انطلاق كل حياة جنسية تُستمد من الفموية: امتصاص الثدي أو بديله. وكل مخلوق يعيد في حياته هذا الاختيار الأولي: العثور على الأم تحت أشكال متعددة، من التعلق المشبوب إلى الكراهية، من السعادة إلى اليأس.

بينما راح فرويد يبني نظرية عقلانية عن الجنسانية، معارضًا رؤى الأيديولوجيين الذين يسكنهم هاجس الرعب مما هو نسائي، جيّر لصالحه الفكرة الغابرة القائلة بأن المرأة هي عند الرجل اللغز الأكبر في تاريخ الحضارة. فالرجال، كما يقول، كانوا دائمًا يرهبون السلطة الخفية والمرعبة لدى النساء وهم غير مستعدين للتحرر من هذه الرهبة، ونتذكّر هنا تيريزياس، الذي كان رجلًا وامرأة في الوقت نفسه، ويعرف السر الذي يتساءل عنه الآلهة والبشر الفانون: من الذي يجني فائدةً أكبر من الفعل الجنسي، الرجل أم المرأة؟ وإذ استشاره بهذا الصدد زيوس وهيرا، كانت لديه الجرأة ليؤكد بأن المرأة تستمد من الجماع لذةً أكثر من الرجل بتسعة أضعاف. ونظرًا لأنه فضح سر متعة كانت محفوظة بصورة بدائية جدًا، فقد أصيبَ بالعمى على يد هيرا لكنّ زيوس كافئه بأن وهبه هبة النبوءة والقدرة على أن يعيش عمر سبعة أجيال[630].

وهذه القصّة الميثولوجية تحديدًا هي التي أعاد فرويد تقديمها بتعابير مستمدة من الرومانتيكية السوداء - «ماذا تريد المرأة؟» - ومن الأدب الاستعماري: «الحياة الجنسية للمرأة البالغة، هكذا قال في 1926، ما تزال في نظر علم النفس dark continent[631]. - القارة المظلمة». في ذلك

التاريخ، كان يُلفح إلى كتاب لاقى رواجًا كبيرًا للصحافي البريطاني هنري موتون ستانلي[632]، وكان قد استكشف الكونغو مع نهاية القرن التاسع عشر ونقل عن تلك الحملة رؤية ساذجة paternalocentrist - المركزية الأبوية - في أفريقيا وهي تُعتبر رؤية غامضة وخلابة، أنثوية وبدائية، لم يستكشفها التمدن بعد، ونحو تلك «القارة السوداء»، التي جعلتها المدنية الغربية رسالةً لها، شبّه فرويد الحياة الجنسية عند المرأة. ومن خلال هذا الشعار الذي سوف ينجح نجاحًا كبيرًا عبّر على حد سواء عن خوف الرجل الأبيض في مواجهة قارة يُعاد ابتكارها بالخطاب الاستعماري وكذلك عن القلق الذي يشعر به «الإنسان» - بأل التعريف - (بالمعنى النوعي) أمام طوفانات الجنسانية النسائية: طبيعة جامحة، جانب مظلم، لغز لم ينجل بعد على يد العلم، إلخ. ومما لا شك فيه أن فرويد كان، في وقت مبكر جدًا من حياته، قد شعر بذلك الخوف الكبير؟ ألم يكن يُعبّر عن رهبة أمام قطط الشو - شو السوداء؟ وهو نفسه قد ولد «أسود».

وذاك لأن هذا المذهب الفرويدي كان في جانب كبير منه ثمرةَ تمثّل ذكوري للمرأة وللحالة النسائية المتوارثة من نهاية القرن التاسع عشر[633]. كان فرويد يعلم ذلك، ويؤكد بأن النساء الأكثر حداثةً دون سواهن، والمؤهلات بإشراف التحليل النفسي، هنّ من سوف يكنّ قادرات في المستقبل على فهم الجنسانية النسائية التي تُوصف بأنها «ما قبل الأوديبية». وقد أعطت الأجيال موافقتها على صحة المقاربتين - الكلينية والفرويدية -، ولمقاربات أخرى عديدة[634] أكثر اكتمالًا.

اعتبارًا من 1920، تمايزت أهم النساء من تلميذات أو مريضات فرويد تمايزًا واضحًا عن نساء عائلته، فالإنجليزيات، والأمريكيات، والألمانيات، والنمساويات، كنّ جميعهن تقريبًا من أعلى الطبقات الاجتماعية مرتبةً، وجميعهن قد حصلن على استقلالية وعلى نمط من الحياة في تناقض، ليس مع نمط حياة رائدات الجيل الأول من الـ WPV وحسب، وإنما أيضًا مع وضع نساء بيت برغاس، وكذلك مع وضع شقيقات فرويد، أو أمه أو بناته.

حتى سنوات 1920 - باستثناءات قليلة -، كانت النساء المحللات، داخل حركة التحليل النفسي، قد حافظن على موقعهن في ظلّ الرجال، إنما منذ ذلك التاريخ ولاحقًا أصبحن مرئيات أكثر، وتخلينا عن مشدّاتهن وعن الجيبونات الفضفاضة، وهكذا فقد حققن دخولهن الثاني في التاريخ

الكبير، إذ أصبحن ممثلات بأهلية وحقوق كاملة لحركة التحليل النفسي. وإذا كنّ معظمهن مصابات بالكآبة، أو الضجر، أو عُصابات مختلفة، غالبًا ما تكون بسبب وسط عائلي أو زوجي مشوّش، فقد وجدن في التحليل النفسي الوسائل التي توصلهن إلى مهنة، وتجعلهن يلتزمن بقضية، ويحوّلن حياتهن، أو ببساطة أكبر يُسهمن بمغامرة ثقافية. وتلك على وجه التحديد حالة هيلين دويتش، هيلدا دوليتل، إيديث جاكوبسن، روث ماك - برانزفيك، دوروتي برلنغهام، جوانا ريفيير، ماريانا كريس، مارغريت ستوبورو - ويتجنستن[635].

ثمة امرأتان مختلفتان جدًا، لو أندرياس - سالومي وماري بونابرت، وكلتاهما ليستا يهوديتين - إحداهما ألمانية والأخرى فرنسية -، وقد لعبتا دورًا كبيرًا في القسم الثاني من حياة فرويد، بانضمامهما على حد سواء إلى حلقة تلامذته وإلى حياته العائلية الحميمة، والاثنتان كلتاهما حصلتا على خاتم المقبولات في صف الـ Ring.

لقد وُلدت لو في سان - بطرسبورغ، بعد خمسة أعوام من ولادة فرويد، وهي من عائلة أرستقراطية ألمانية، منذ فترة الشباب، كانت قد اختارت أن تكرّس نفسها للحياة الثقافية وألّا تخضع أبدًا لقوانين الزواج البرجوازي. إنها وجهٌ من وجوه الأنثوية النرجسية المتوقّدة، ولذلك كانت تعتبر النساء أكثر حريّةً من الرجال، فالرجال، حسب قولها، يُضطرون، بسبب ثقافتهم، للخضوع لسيطرة لا يستطيعون سوى أن

يشعروا بأنهم مذنبون حيالها. بالمقابل، هكذا تضيف، فالنساء، القادرات على أن يهبن أنفسهن بالكامل للفعل الجنسي، لا يشعرن لا بالخجل ولا بالإحراج. وضمن هذا المنظور كانت تتصوّر الحب الجنسي كعاطفة جسدية مشبوبة تصير إلى زوال بمجرّد تحقيق إشباع الرغبة، بنتيجة ذلك، الحب الثقافي لا غير، القائم على الإخلاص المطلق، هو القادر على مقاومة مدّ الزمن. وفي دراسةٍ لها حول الغلمية ظهرت بتاريخ 1910، قامت لو بشرح أحد أكبر موضوعات الأدب - من إيما بوفاري إلى آنا كارنينا - حيث هناك توزّع ما بين الجنون الغرامي والاعتدال الزوجي، وهو توزعٌ يستحيل عادةً التغلّب عليه، وهو ما يجب أن يُعاش من دون أي انتقاص. كانت تعلم بأن حججها لصالح الزواج الذي يسمح لكل شريك بحريّة التناسل هي حجج فيها شيءٌ من الغرابة والمبالغة، ليس لأنها تمضي بعكس الوصايا الأخلاقية في الأديان، وإنما لأنها غير متطابقة مع غريزة التملّك القوية

بجذورها الراسخة في أعماق الرجل.

علمًا بأنها لم تكفّ طيلة حياتها، عن أن تجعل هذا التوزّع موضع التطبيق العملي مستهزئةً بالملاحظات اللاذعة، وبالإشاعات وبالفضائح، من بعد نيتشه، انبهر فرويد بتلك المرأة التي أثارت انقلابًا في حياته: الكبرياء نفسها، الجموح نفسه، الاندفاع نفسه، الشجاعة نفسها، الطريقة نفسها بالحب وبالحصول على المواضيع المنتخبة[636]. فأحدهما كان قد اختار التعفف الجنسي بالقوة نفسها وبالإرادة نفسها اللتين دفعتا الطرف الآخر لإرضاء رغباته. كانا يشتركان معًا بعدم التساهل وباليقين بأن الصداقة ليس لها أبدًا أن تُخفي الاختلافات، ولا أن تقيد حرية كل منهما.

في يونيه/ حزيران 1887، كانت لو قد تزوّجت من المستشرق الألماني فريديرك - كارل أندرياس، الذي كان يعلّم في جامعة غوتنجن. لكنّ الزواج لم يشكل قيدًا، وكان جورغ ليدبورغ، مؤسس الحزب الديمقراطي الاشتراكي الألماني، هو من أصبح أول عشيق لها، قبل فترة قصيرة من إطلالة فريدريك بينيلس، أحد أطباء فيينا، وهذه العلاقة الثانية انتهت بإجهاض وبرفض فاجع للأمومة. واستقر المقام حينذاك بلو في ميونيخ، حيث تعرّفت على الشاعر الشاب رينار ماريا ريلكه: « لقد كنتُ زوجتك طوال سنوات، هكذا سوف تكتب في مذكراتها، لأنك أنت الحقيقة الأولى في حياتي، جسدًا ورجلًا لا ينقسمان، هذه حقيقة لا جدال فيها للحياة بحد ذاتها [...]. كنا شقيقًا وشقيقته، إنما كما في ذلك الماضي البعيد، قبل أن يصبح الزواج ما بين شقيق وشقيقته خرقًا للمقدسات[637]».

إن لقاء لو مع التحليل النفسي إنما جاءها تحديدًا بانتسابها إلى التصوّر النيتشوي حول النرجسية، وبصفةٍ أعم إلى تكريس الأنا كقيمة عليا، السمة المميّزة للحياة الفلسفية في نهاية القرن، في جميع نصوصها، كما يُشير جاك لو ريدر، كانت تفتش عمليًا إلى إيجاد غلمةٍ كونية قادرة على أن تعوّض عن الخسارة التي لا تعويض لها، خسارة الشعور بالله[638]، وفي عام 1911، في فيمار، كان التقاؤها مع فرويد لأول مرة، كانت حينذاك عشيقة بول بيير وهو محللٌ نفسي سويدي صغير العمر، أصغر منها بخمسة عشر عامًا: «كان الزمن قد غيّر ملامحها، هكذا سوف يكتب هاينز فردريك بيتر، خير من قام بدراستها، وكانت تُضفي على تلك الملامح أنثويةً بارتداء فراء ناعم، وجلود أفاعي البوا، مع حمّالات على كتفيها [...]. كان جمالها الجسدي يُعادل، إن لم يكن يفوق، حيوية تفكيرها، وفرحها بالحياة،

وذكائها، وإنسانيتها الدافئة[639]».

كان فرويد يهرب من الجمال الأنثوي، وللوهلة الأولى، كان على حذر من الانجذاب الذي شعر به إلى هذه المرأة الاستثنائية، غير أنه، سريعًا جدًا، أحبَّ فيها ذكاءها، وتعلّقها المشغوف بالحياة، وتفاءلها الذي لا يتزعزع. كانت تُجسد جميع جوانب تلك الأنوثة القريبة جدًا منه والغريبة جدًا عنه في وقتٍ معًا. في واقع الحال، كانت كأنما تنقض نظريته عن الحالات الثلاث للحياة النسائية بما أنها ظلّت شابةً مرغوبة دون أن تصبح أمًا، وامرأةً ناضجة، ترفض القيام بدور الزوجة ربّة البيت، دون أن تتخلى أبدًا عن نشاطاتها الحسيّة، وبدلًا من أن ينظر إليها على أنها لغز، قدمَ إليها فرويد أعلى شكل من أشكال الحب القادر عليه: ألا وهو صداقة قوامها الأناقة، والإغواء، والملاطفة، والتبادل الثقافي الذي لم يشعر بمثله مع أيٍّ من تلامذته أو محاوريه. فلأول مرة، لم يحوّل الصديق الذي لا غنى عنه إلى عدوٍ لا غنى عنه.

وقد تبيّن لفرويد، منذ اللقاء الأول، أنه لو تصبو إلى أن تكون موضع إعجاب، بل وحتى للخلاص من أسر شخصيتها القوية، وأنها كانت قد عاشت مأساةً لرفضها للأمومة، وفهم منذ تلك اللحظة بأنها تريد بالفعل تكريس نفسها للتحليل النفسي، وأنهُ ما من شيء يُعيقها عن القيام بهذا الدور، ولهذا السبب قبلها على الفور بين أعضاء الـ WPV. كان حضورها الصامت يشهدُ في أعين الجميع عن الاستمرارية بين نيتشه وفرويد، بين فيينا والثقافة الألمانية، بين الأدب والتحليل النفسي. بكل وضوح، كان فرويد مغرمًا بها، ولهذا السبب سوف يُشير بقوة، كما لو كان يريد الدفاع عمّا يشعر به، إلى أن ذلك التعلّق لا علاقة له إطلاقًا بأي انجذاب جسدي.

بعد أن استقرت لو في فيينا في عام 1912، كانت تحضر على حد سواء اجتماعات الحلقة الفرويدية والاجتماعات التي ينظّمها ألفريد أدلر. شعر فرويد بالغيرة، لكنه تركها تتصرّف بحريّة من دون أن يمنع نفسه من وصف غريمه بأنه «شخص مقزّز»، وذات مساء، تألم لغيابها، فكتب إليها هذه الكلمات: «افتقدتك يوم أمس مساءً في الجلسة وأنا سعيد لأنني علمتُ بأن زيارتك إلى معسكر الاحتجاج الذكوري لا علاقة له بغيابك. لقد اكتسبتُ عادةً سيئة بتوجيه الخطاب في محاضرتي إلى شخص ما ضمن حلقة المستمعين وأنا لم أكفّ يوم أمس عن التحديق كالمسحور بالمكان الفارغ الذي كان قد حُفظ لكِ[640]».

سرعان ما اعتنقت بصورة حصرية قضيّة الفرويدية، وحينذاك تحديدًا وقعت في غرام فيكتور توسك، أجمل أفراد الحلقة الفرويدية وأشدهم كآبةً. كان يصغرها تقريبًا بعشرين عامًا. وإلى جانبه، اهتدت إلى عالم الممارسة التحليلية، فزارت مستشفيات، وعاينت حالات كانت تهمّها، وقابلت مثقفين من أبناء فيينا. وبعد كل اجتماع يوم الأربعاء، كان فرويد يُعيدها إلى قصرها، وبعد كل عشاء، كان يغمرها بالزهور، ذات يوم، ها هو أحد التلامذة المتعصب استثنائيًا تعصبًا أعمى ينطلق معها في إحدى الرياضات المفضّلة عند تلك الزمرة: هوس التأويل، فبينما كانت منشغلةً بشغل الصوف، كما تفعل العديد من النساء في تلك الحقبة، أشار بأصبعه إليها مبديًا ملاحظته بأنها تبدو كما لو كانت تستمتع بالاسترسال مع جِماع متواصل ورمزه حركة صنّارتَي نسج الصوف، لكنها لم ترد عليه.

كانت لو أندرياس - سالومي تنتمي إلى العالم الذي ينتمي إليه فرويد، وتشترك معه بالقيم ذاتها والتمثّل ذاته، التمثّل النخبوي لأوربا أيام « العصر الجميل» والذي كانت تجهلُ ما كان فيه من بؤس عميق وهذا ما جعلها تشعرُ بالمفاجأة حين وقعت الحرب العالمية، وإذا كان فرويد يشر إلى هذا الصراع على أنه يُشبه انبثاق نزوي مكبوت في لا شعور الشعوب، فهي كانت ترى في الحرب عمومًا نوعًا من مضاصٍ للدماء يمتصّ الدم كي يهدِّئ حاجة الإنسان لتدمير نفسه بنفسه: «سوف نكون على الدوام قتلة أنفسنا، وربما أن هذا الأمر لا مهرب منه، لكن، بسبب ذلك، إن مسؤوليتنا الجرمية شاملة ووسيلتنا الوحيدة للخلاص هي قبولها كما هي عليه [...]. حين فهمت هذا الأمر، تبين لي بدهشة، بأنني لهذا السبب لن أكون مهزومة أنا أيضًا لو كنتُ رجلًا، ولو كان

عندي أبناء، لكنتُ أرسلتُ أبنائي إلى الحرب[641]».

كان فرويد بوضوح في معسكر المهزومين، أما في رأي لو، فكانت الحرب تمثّل انهيارًا أكبر بكثير مما تبدو عليه. ففي أي معسكر سوف تكون مهزومة؟ مع الروس أم مع الألمان؟ لم تكن تشارك مواطنيها في العالم الجرماني مشاعرهم القومية، لكنّها مع ذلك، لم تكن قادرة على أن تنضم إلى المعركة المعادية للألمان بقيادة أشقائها الروس. ولهذا السبب كانت تنظر إلى انفلات تلك الكراهية من عُقالها كصراع دموي داخلي في أعماق ذاتيتها الخاصة، صراع بين أشقاء. وحين وقعت ثورة أكتوبر/ ت1، عبّرت بصورة قطعية عن عدائها للبلشفية. فيما مضى كانت قد نظرت بإعجاب

إلى الثوار الروس ومثلهم الأعلى الطوباوي، أما الآن، مثل الكونت بيير بيزوخوف[642] عندما تقدّمت القوات النابليونية نحو موسكو، لم تعد ترى سوى الفاجعة المنقضّة على بلدها. وردّ عليها فرويد باللهجة نفسها: «أعتقد بأن من غير الإمكان الشعور بالتعاطف مع الثورات نظرًا لأنها لا نهاية لها. ولهذا السبب يجب أن تكون قصيرة الأمد، فالحيوان الإنساني يحتاج رغم كلّ شيء إلى كبح جماحه، باختصار، يُصبح المرء رجعيًا كما سبق أن أصبح ذلك المتمرّد شيلر حيال الثورة الفرنسية[643]»، لكن لا فرويد ولا لو قد فهما البؤس العظيم عند الشعوب.

بعد الحرب، قضت لو ستة شهور مهتمةً خلالها بالصدمات العصبيّة في معسكر للعمل في كونيغسبرغ. وبينما راح يبدو على فرويد تشاؤم متزايد أكثر فأكثر حيال الميول القاتلة عند الجنس البشري، عادت لو إلى فرحها بالحياة، نظرًا لأنها في مدينتها غوتنجن، كرّست نفسها لممارسة التحليل النفسي. وطيلة سنوات، أصبحت حاضرةً على هذه الصورة في حركة التحليل النفسي مثلها مثل فرويد سواء بسواء: دائمًا في تراجع ودائمًا في تقارب مع تلك الحلقة العائلية التي سبق أن استقبلتها والتي بدأت تُخلي موقعها للجيل الجديد من الممارسين الشباب ومن الناطقين باللغة الإنجليزية، بعد خروجها من ذكريات عالم الأمس.

مع لو، وجد فرويد أخيرًا محاوِرةً يستطيع أن يتعامل معها تعامل الندّ، وأن يعاملها كغريبة وأيضا كامرأة من عائلته، ولهذا السبب شجّعها كي تصبح حامية ابنته التي كان يعاني معها صعوبات كثيرة. وبعد سماعها لأسرار هذه الأخيرة التي باحت بها حول تحليلها، وحياتها الجنسية، ومصاعبها، أصبحت معالجتها الثانية: لقد سيطرت على العلاج الذي قام به فرويد على «ابنته - آنا»، كما استقبلت برقّة وشهيّة الملذّات التي حصلت عليها في هذه العلاقة، كانت لو تتذكّر معها الأوشحة، والمعاطف المبطّنة، وثياب الفراء، والثياب الطويلة التي تُعيدها إلى شبابها الروسي المشبع بروايات تولستوي. وما بين نجوى ونجوى، كانت آنا تكلّمها عن رائحة الكعك وذلك الحب المشترك للحياة مع الكلاب وقطف الفطور.

مع مرور السنين، بدأ فرويد ولو يشيخان وهما يحضران تفكّك ألمانيا غوته ونيتشه التي كانا من ورثتها. في 1931، بمناسبة عيد الميلاد الخامس والسبعين لأستاذها الغالي، خصّصت له كتابًا عبّرت فيه عن امتنانها والخلافات التي كانت بينهما، لا سيما بشأن الأخطاء التي ارتكبتها

الحركة حيال الإبداع الفني وحيال الإيمان الذي جعل منه فرويد استلابًا: فكان الكتاب عبارة عن مرافعة تتصدى للدوغمائية التي كانت قد أصبحت راسخة الجذور، وردّ عليها فرويد بأنها تضع نسقًا نسائيًا في الفوضى الملتبسة في تفكيره الخاص[644]. ولم يكن هناك ما يمكن قوله أفضل من هذا التعبير.

لم تسنح الفرصة أمام لو أندرياس - سالومي أبدًا كي تلتقي بماري بونابرت، التي تصغرها بعشرين عامًا. كانتا في تعارض، من جهة الجنسية ومن جهة الثقافة، بطريقة الحياة أم بالانتساب إلى الفرويدية، غير أن هاتين المرأتين كانتا تشتركان مع ذلك بحبهما العميق لفرويد. كانت لو من عالمٍ في حالة احتضار، وماري منتصرة ترفع عاليًا جدًا الراية الرجولية لسلفها العم الكبير الذي تعتزُّ باسمه أكثر بكثير من الأبهة الإمبراطورية: «إذا كتب أحدهم في يوم من الأيام قصة حياتي، أتمنى أن يضع لها عنوانًا البونابرتية الأخيرة، لأنني حقًا كذلك. أما أبناء عمومتي من الفرع الإمبراطوري فليسوا سوى نابليون[645]». إذا كانت لو قد جسّدت في نظر فرويد الذكاء، والجمال، والحرّية - شيئًا ما يُمكن أن نسميه «المرأة» - مع أل التعريف -، فإن ماري قد أصبحت بالأحرى الابنة، والتلميذة، والمريضة، والمريدة، والمترجمة الاستثنائية، والسفيرة المتفانية، والعاشقة لقطط الشوشو، والمنظّمة لحركة التحليل النفسي الفرنسية التي سوف تسيطر عليها بطريقة أحيانًا كانت كارثية طيلة عقود من الزمن.

لقد صالحت فرويد مع فرنسا التي يُحب: فرنسا فولتير، وأناتول فرانس، وبلزاك، وسارة برنار، وفيليب بينيل، وشاركو، وزولا، غير أنها، مثله سواء بسواء، لم تكن تهتم بالممثلين الحقيقيين للحداثة الأدبية - لا سيما السرياليين - علمًا بأنهم لعبوا دورًا مركزيًا في إدخال التحليل النفسي إلى فرنسا، كان فرويد يُطلق عليها Prinzessin (أميرته)، وحين أرادت التنافس مع «المرأة الأخرى»، هتفَ متعجبًا: «لو أندرياس - سالومي هي مرآة، فليس لها لا فحولتكِ، ولا صدقكِ، ولا أسلوبكِ[646]».

إنها ابنة رولان بونابرت، حفيد لوسيان، وكانت قد فقدت أمها عند ولادتها فربّاها أب لم يكن يهتم سوى بأعماله في مجال الأنثروبولوجيا كما ربّتها جدتها لأبيها، وهي ربّة بيتٍ بصورة طاغيةٍ حقيقي، متعطّشة للنجاح والتألق الاجتماعي، وهكذا كانت تحمل في نفسها ذلك القلق الانتحاري الذي نجده عند ورثة السلالات الملكية الأوروبية في مطلع القرن العشرين،

أولئك الذين حكمَ عليهم التشرّد بين أشباح عظمتهم المفقودة. كانت قد ورثت من والدتها ثروة طائلة لم تكن تعلم ماذا تفعل بها، وهكذا كانت تشبه شخصية من المسرح الفرويدي في بدايته: أميرة حقيقية فريسة لغصاب أرستقراطي وتفتش عن سيّد يكون في الوقت نفسه أبًا، وأمًا، ومليكًا، وأحد أسلافها.

مع ذلك، حتى وإن كانت لا تنسى أبدًا أصولها الكورسيكية وانتماءها إلى شجرة النسب البونابرتية، التي جعلت منها من أنصار التيار الجمهوري العقلاني وجعلتها متمسكةً بالمثل العليا لأكثر العلوم تطورًا في زمانها، فهي لم تكن تُظهر أدنى حنين حيال عالم الأمس، حتى وإن كان زواجها المرتّب مع الأمير جورج، أمير اليونان، المثلي والعشيق لعقه فالديمار، أمير الدنمارك، قد رفعها إلى مصاف صاحبة الجلالة الملكية، وكبار النبلاء، وغُمرت بسبب ذلك بكلّ صنوف التكريم والتبجيل. في حقيقة الأمر، رغم التزامها بمواضعات وطقوس طبقتها الاجتماعية، كانت ماري تسخر من جميع المواضعات، وتكثر من العلاقات الغرامية وتعاني من برودةٍ جنسية لا سيطرة عليها، ما جعلها تتعلّق بجميع النظريات الجنسية في عصرها، فكيف يمكن لمثل هذه الأميرة، المسكونة بهاجس أنوثتها الفاشلة، والتي اسمها وعلاقات القرابة عندها تعود إلى مملكة هاملت كما تعود إلى تراجيديا أوديب، أو إلى جسر أركول، أن تفرّ من قدرها الفرويدي؟

حين قابلت فرويد في فيينا، بتاريخ 30 سبتمبر/أيلول 1925، بناءً على نصيحة من رينيه لافورغ[647]، كانت على حافة الانتحار، وقد استقرّت مع وصيفتها في جناح في فندق بريستول حيث استقبلت بكلّ التكريم المستحق للمركز الملكي الذي تحتلّه، كأميرة لليونان والدنمارك. وقد وجدت ذلك المكان كئيبًا ومأتمي المظهر.

تحت اسم مستعار أ. ي. ناريانى، كانت قد نشرت لتوّها في بلجيكا مقالةً امتدحت فيها مزايا التدخّل الجراحي، الرائج في تلك الحقبة، والذي يقوم على تقريب البظر من المهبل كي يتم تحويل الأورجازم البظري نحو المهبل[648]، وكانت تعتقد أنها بذلك تداوي البرودة الجنسية عند النساء وجرّبت العملية على نفسها في فيينا، لكن من دون أن تصل إلى أي نتيجة[649].

كان فرويد في بداية الأمر حذرًا حيال هذه المرأة الشهيرة وذات الوجاهة الاجتماعية، التي تنفق ثروات طائلة على شراء ملابس وتعتني

عناية فائقة بمستوى حياتها، وردًا منه على لافورغ الذي امتدح له المزايا الثقافية عند الأميرة، ورغبتها بالشروع بتحليل تعليمي وعلاجي، وضع شرطًا أن تكون قادرة على الكلام بالألمانية أو بالإنجليزية، ناسيًا أنها أوربية مثله تمامًا وأنها تتكلّم لغات عديدة مثل جميع مريديه. بصورة جوهرية، لم يكن كثير الرغبة بالاهتمام بشخص يحكم عليه بأنه من جماعة اللهو والخفّة. ومع ذلك، شرع معها، من 1925 إلى 1928، وعلى فترات متعاقبة، بأحد أهم العلاجات الناجحة في جميع تاريخ ممارسته التطبيقية: فقد جنّبها الانتحار والكثير من الأعمال الطائشة المدمّرة، وقد ضمّنت ماري سير تحليلها في «الموجز»، مضيفةً إليه تعليقات، وتأملات، ومكاشفات بشأن فرويد، وهي ذات أهمية كبرى لجميع المؤرّخين.

منذ بداية علاجها، كان لماري الحقّ بتأويل لا مثيل له في القوة، فعندما روت حلمًا، رأت نفسها فيه في مهد الطفولة وهي تحضر مشاهد جِماع، فأكد لها فرويد بلهجة باترة أنها لم تسمع فقط تلك المشاهد، كما حال جميع الأطفال الذين ينامون في غرفة نوم الأبوين، وإنما رأتها رأي العين نهارًا. أصيبت بالذهول وأرادت الحصول على براهين مادية، ولذلك رفضت هذا التأكيد واحتجت بأنها كانت قد فقدت أمها، فتشبّث فرويد بموقفه تشبثًا قويًا واعترض عليها بأن مربيتها موجودة. في نهاية الأمر، قرّرت استجواب الأخ غير الشقيق لأبيها والذي كان يهتم بالخيول في بيت طفولتها. ومن كثرة ما تحدّثت أمامه عن المدى

العلمي الكبير للتحليل النفسي، جعلته يعترف بعلاقة قديمة له مع المربية. وبشيء من الخجل، روى لها العجوز كيف كان قد مارس الجنس في وضح النهار أمام مهد ماري، إذن كانت قد رأت رأي العين، فعليًا مشاهد جماع، ومصّ، وتهييج للبظر باللسان.

يجب مقارنة هذا التأويل مع التأويل الذي أعطي إلى سيرجيه بانكييف، في الحالة الأولى، كان فرويد قد اخترع مشهدًا قديمًا لم يقع أبدًا، لكنّه أتاح للمريض أن يُعطي معنى لحلمه حول الذئاب، وفي الحلم الثاني، رفضت المريضة الاقتناع بوجود ذلك المشهد علمًا بأنه بعد التمحيص كان قد وقع بالفعل. وفي الحالتين، فإن فكرة «المشهد القديم» تكتسي قيمة خرافة، تحيلنا إلى أصولٍ لاشعورية.

مع هذه المرأة التي غمرته بالهدايا، برهن فرويد إذن عن عبقريته العيادية، أثناء التحليل، جنّبها العلاقة السفاحية مع ابنها، وفسر لها لماذا لا

يجوز التعزي أثناء جلسة التحليل، أضف إلى ذلك، فقد رفض الإجابة على أسئلتها له حول حياته الجنسية، وأفهمها بأنها لا يجوز لها أن تتعزى أمامه، أخيرًا، فرض بعض الحدود على تجاربها الجراحية من دون أن يتمكّن مع ذلك من منعها من الانتقال إلى الفعل، وحيث كان هو شخصيًا يتعرّض لمداخلات جراحية مؤلمة، لم يكن لديه وسائل كثيرة، في مثل ذلك الموقف التحويلي، لتأويل استمتاع ماري بالتلاعب بالمِشرط.

باندماجها مع حركة التحليل النفسي، اشتركت بالنقاش حول جنسانية المرأة بصورة شخصية، لقد حوّلت فعليًا المذهب الفرويدي إلى تواصل سيكولوجي بين الغرائز البيولوجية، وهو تواصل بعيد في الوقت نفسه عن مدرسة فيينا وعن المدرسة الإنجليزية على حد سواء، كانت تُميّز في واقع الأمر ثلاثة زُمر من النساء: المطالبات، اللواتي يسعين للحصول على ذكر الرجل، والراضيات، اللواتي يتكيّفن مع حقيقة وظائفهن البيولوجية أو مع دورهن الاجتماعي، والرافضات، المنفصلات عن الجنسانية[650].

كان فرويد مسحورًا بشكل واضح بتلك الحكايات عن البظر المقطوع ويجد في العناد التشريحي لماري صدى «تطبيع بيولوجي» لمقولاته الخاصة، ولهذا السبب قدم إليها الـ Neger - Eros - الإيروس الزنجي، الكتاب الشهير للأنتروبولوجي من أبناء فيينا فيليكس برايك، والمخصص لممارسة الختان عند قبيلة ناندي، وفيه يُبيّن المؤلّف كيف أن الرجال في تلك القبيلة يسعون، عن طريق هذه الوسيلة، إلى إعطاء

الصبغة الأنثوية مداها الأقصى الجسدي عند زوجاتهن وذلك باستئصال تلك البقية الباقية من عضو الذكورة. وجعلها تلاحظ بأن تلك العملية لم تكن تقضي على القدرة لبلوغ النشوة عند النساء، وإلا لما كان رجال القبيلة قد قبلوا بهذه العملية.

وهذه مرةً جديدة يلعب فيها فرويد لعبة الأضداد، فهو من جهة يقول لماري بأنه لا يمكن لأية جراحة أن تكون قادرة على حل مشكلة البرودة الجنسية عند النساء، ومن جانب آخر ها هو يُشجّعها على القيام ببحوث في هذا الميدان. ولم تكن تطلب أكثر من ذلك. وها هي سريعًا تُعجّل بالقيام بتحقيقات ميدانية حول موضوعها الصنمي، وسوف تكرّر تلك اللفتة طيلة حياتها.

وذلك هو الحد الأخير التأويلي لدى فرويد أثناء ذلك العلاج: فلم يتمكّن أبدًا أن يمنع أميرته الغالية من متابعة بحثها المحموم عن أنوثة مفقودة،

فهل من حقّنا أن نرى في ذلك الفشل إشارة إلى الوضع المستحيل الذي وجد فرويد نفسه فيه عاجزًا عن التملّص من الدوامة الجهنميّة للـ«البظر المبتور»، وهو القارة السوداء الحقيقية في تفكيره بشأن المرأة؟

---

604 سيغموند فرويد وساندور فيرينتزي، «المراسلات»، الجزء الثالث: 1920 - 1933، المصدر السابق، رسالة فرويد بتاريخ 26 مارس/آذار 1924، ص 155.

605 المؤتمر التاسع للـ IPV، 2 - 5 سبتمبر/أيلول 1925.

606 بيتا رانك (1896 - 1967) الملقبة تولا، سوف تصبح هي أيضًا محللة نفسية.

607 أوتو رانك، «صدمة الولادة»، باريس، بايو، 1983. ساندور فيرينتزي، «Thalassa.دراسة في نظرية الوراثة»، OC، الجزء الثالث، المصدر السابق.

608 سيغموند فرويد وساندور فيرينتزي، «المراسلات»، الجزء الثالث: 1920 - 1933، المصدر السابق، رسالة فرويد بتاريخ 23 أبريل/نيسان 1926، ص. 285. وكذلك «رسائل سيغموند فرويد وأوتو رانك»، من إصدار جيمس ليبرمان وروبير كرامر، بالتيمور مطبعة جامعة جون هوبكين، 2012، رسالة بتاريخ 4 أغسطس/آب 1922. سوف يصدر هذا الكتاب بالفرنسية عند دار كومباني الأولى.

609 سيغموند فرويد، «صدّ، وعارض، وقلق» (1926)، في OCF.P، الجزء السابع عشر، المصدر السابق، ص 203 - 287.

610 ساندور فيرينتزي، «تشوش اللغة بين البالغين والطفل» (1932)، في «التحليل النفسي»، الجزء الرابع، المصدر السابق.

611 حول إقامة رانك في باريس، وحول علاقاته مع آنابيس نين، انظر HPF - JL، المصدر السابق، ص. 451. وكذلك أ. جيمس ليبرمان، «الإرادة قيد العمل»، المصدر السابق. سوف يستقر رانك فيما بعد بصورة قطعية في الولايات المتحدة.

612 ساندور فيرينتزي، «رجلٌ صغير ديك»، في «التحليل النفسي»، الجزء الثاني، المصدر السابق، ص 72 - 79.

613 آنا فرويد، «علاج الأطفال بالتحليل النفسي» (1927)، باريس، PUF، 1951.

614 « رسائل سيغموند فرويد إلى جوان ريفيير» (1921 - 1939)، المجلة العالمية لتاريخ التحليل النفسي، 6، 1993، ص 470.

615 هرمين فون هوغ - هلموس، «يوميات تحليلية لفتاة صغيرة»، باريس، دونويل، 1998، وأعيدت طباعته بالفرنسية ككتاب حقيقي مع مقدمة بقلم فرويد؛ «دراسات تحليلية. قدر وكتابات رائدة من رواد التحليل النفسي للأطفال»، نصوص مجمعة، وقدّمت لها وترجمتها دومينيك سوبريني، مع مقدّمة بقلم جاك لو ريدر، وخاتمة بقلم إيفيت تورن، باريس، بايو، 1991. حين كتبتُ، لصحيفة ليبيراسيون، في 1991، ملخصًا ودراسة عن ذلك الكتاب الذي يكشف عن مزايدة، وصلتني رسائل من محللين نفسيين يتهمونني بأنني «أتآمر على فرويد»، كانوا ما يزالون يعتقدون بأن الجريمة والمغالطة لم تكن سوى تشنيعات ابتكرها المعادون للفرويدية.

616 كما كان حال العديدات من المحللات النفسيات في ذلك الجيل باستثناء كارين هورني، انظر إليزابيث رودينسكو، «أوائل النساء المشتغلات بالتحليل النفسي»، ألف وتسعمائة. مجلة التاريخ الثقافي، 16، 1998. وتمّ الرجوع إلى هذا البحث في « Topique » 71، 2000.

617 فيليس غروسكورث يقدّم وصفًا وافيًا جدًا عن طفولة ميلاني كلين وعلاقتها مع أبويها، وزوجها، وأطفالها، استنادًا إلى «سيرتها الذاتية» غير المنشورة وإلى الملفات المودعة رسميًا في تروست ميلاني كلين، وقد أتيحت لي الفرصة لأتباحث مع فيليس غروسكورث أثناء إحدى زياراته العابرة إلى باريس.

618 انظر سيغموند فرويد، «حول الأكثر انتشارًا في دونيات الحياة الغرامية» (1912)، في «الحياة الجنسية»، باريس، PUF، 1970، ص 65. و«الطابع النسائي»، في «محاضرات جديدة كمدخل إلى التحليل النفسي» (1933)، باريس، غاليمار، 1984.

619 أثناء التقائه مع غوته في إيرفورت، بتاريخ 2 أكتوبر/ت1، 1808، أشار الإمبراطور إلى فواجع القدر التي كان يستنكرها، والتي، في رأيه تنتسب إلى حقبةٍ أشد ظلامًا من حقبتهم: «بماذا يهمّنا القدر في يومنا هذا، هكذا قال، فالقدر هو السياسة»، وأنا قد علقتُ على هذه العبارة في «العائلة المشوشة»، المصدر السابق، الفصل المعنون «النساء لهنّ

جنس».

620 سيغموند فرويد، «الطابع النسائي»، المصدر السابق، ص 153.

621 تُرجمت المجادلة التاريخية بين فيينا ولندن إلى اللغة الفرنسية تحت عنوان «أنثوية مهزلة»، باريس، سوي، 1994. انظر أيضًا سيغموند فرويد، «الحياة الجنسية»، المصدر السابق، لا سيما «بعض النتائج النفسية للاختلاف التشريحي بين الجنسين» (1925)، ص 123 - 132. وكذلك هيلين دويتش، «التحليل النفسي للوظائف الجنسية عند المرأة»، باريس، PUF، 1994. وعنوان الكتاب المنشور في دار سوي مأخوذ من نص شهير عند جوانا ريفيير، «الأنثوية بصفتها كمهزلة»، وفيه تُبين هذه الأخيرة بأن النساء المثقفات اللواتي نجحن نجاحًا تامًا بعملية الاندماج الاجتماعي وفي حياتهن الزوجية حُكم عليهن بالتمسك بأنثويتهن كقناع وذلك من أجل إخفاء ما لديهن من قلق بصورة أفضل.

622 فرجينيا وولف، «ثلاثة جنيهات» (1938)، مسبوقة بـ«الجسد الآخر» بقلم فيفيان فورستر، باريس، مطبوعات دار دي فام، 1978.

623 سيغموند فرويد وإرنست جونز ، «المراسلات الكاملة»، 1908 - 1939، المصدر السابق، رسالة فرويد بتاريخ 9 أكتوبر/ت1 1927، ص 727.

624 خُصصت كتب كثيرة لتاريخ التحليل النفسي للأطفال بعد 1954، لا سيما في المدرسة الإنجليزية التي مثلها د. و. وينيكوت وجون بولبي. انظر «قاموس التحليل النفسي»، المصدر السابق. وفي ما يخص فرنسا، انظر JL - HPF، المصدر السابق.

625 سيغموند فرويد، «الطابع الأنثوي»، المصدر السابق، ص 177.

626 سيغموند فرويد، «موضوعة الصناديق الثلاثة» (1913)، في «الغرابة المقلقة ونصوص أخرى»، المصدر السابق، ص 81.

627 سيغموند فرويد، «حول أكثر حالات الدونية في الحياة الغرامية» (1912)، في «الحياة الجنسية»، المصدر السابق، ص 61.

628 المصدر السابق، ص 59.

629 سيغموند فرويد، «الأنثوية» المصدر السابق، ص 179.

630 نيكول لورو، «تجارب تيريزياس. المرأة والرجل عند اليونان»، باريس، غاليمار، 1989.

631 سيغموند فرويد، «قضية التحليل غير الاختصاصي» (1926)، باريس، غاليمار، 1985، ص75.

632 هنري م. ستانلي، « Through the dark continent» من جزئين (1887)، نيويورك، مطبوعات دوفر، 1988. وميشيل لوردو، «في أعماق القارة السوداء: هنري مورتون ستانلي»، عند جان سيفري، «إطلالات على آداب الاستعمار»، باريس، هارماتان، الجزء الثالث، 1999.

633 انظر جورج دوبي وميشيل بيرو، «تاريخ النساء»، الجزء الرابع: القرن التاسع عشر، باريس، بلون، 1991.

634 حول النقاشات اللاحقة بخصوص الجنسانية النسائية، لا سيما حول مواقف سيمون دو بوفوار، وجاك لاكان ومن جاء من بعدهما، انظر HPF - JL، المصدر السابق، وكذلك «قاموس التحليل النفسي»، المصدر السابق، وإليزابيث رودينسكو، «فجأةً، الجنس الثاني...»، الأزمنة الحديثة، يناير/ مارس / ك2 - آذار 2008، 647 - 648 ص 192 - 213. تكرّس أدب لا يستهان به لبحث هذه المسألة، لا سيما تمييز الجنس والنوع (gender) في داخل وخارج حركة التحليل النفسي على حد سواء. انظر أيضًا ليزا أبينيانيزي وجون فورستر، «نساء فرويد»، نيويورك، بازيك بوكس، 1992.

635 انظر سيليا بيرتان، «المرأة في فيينا أيام فرويد»، باريس، ستوك/ لورانس بيرنو، 1989. وأورسولا بروكوب، «مارغريت ستونبورو - ويتجنستن» (2005)، لوزان، مطبوعات أسود على أبيض، 2010. كان فرويد قريبًا من مارغريت، لكنّه لم يحتكّ لا مع حلقة فيينا، المؤسسة على يد موريس شليك، ولا مع لودفيغ ويتجنستن، شقيق هذه الأخيرة، صديق كارل كروس، والذي انتقد نظريته بشأن الحلم. انظر لودفيغ ويتجنستن، «أحاديث حول فرويد» (1943 - 1946)، في «فرويد: أحكام وشهادات»، المصدر السابق، ص 251 - 266.

636 انظر «قاموس التحليل النفسي»، المصدر السابق.

637 لو أندرياس - سالومي، «حياتي» (1901)، باريس، PUF، 2009.

638 جاك لو ريدر، «حداثة فيينا»، المصدر السابق ولو أندرياس - سالومي، «حب النرجسية» (1977)، باريس، غاليمار، 1980.

639 هـ. ف. بيتر، «شقيقتي، زوجتي» (1962)، باريس، غاليمار، مجموعة

«تل»، 1967، ص 257. كتبت أعمال كثيرة حول حياة ومؤلفات لو أندرياس - سالومي. من بين أفضلها: أنجيلا ليفنغستون، «لو أندرياس - سالومي، حياتها وكتاباتها» (1984)، باريس، 1990 ،PUF. وإيزابيل مونس «لو أندرياس - سالومي بكل حرية»، باريس، بيران، 2010.

640 لو أندرياس - سالومي، «مراسلات مع سيغموند فرويد»، المصدر السابق، ص 17.

641 هـ. ف. بيتر، «شقيقتي، زوجتي»، المصدر السابق، ص 283.

642 الشخصية المركزية في رواية تولستوي «الحرب والسلام».

643 لو أندرياس - سالومي، «مراسلات مع سيغموند فرويد»، المصدر السابق، ص 98.

644 لو أندرياس - سالومي، «رسالة مفتوحة إلى فرويد» (1931)، باريس، سوي، مجموعة بوان، 1994.

645 ماري بونابرت، «تأريخ سيرة في ثمانية دفاتر»، أكتوبر/ ت1 1951، غير مطبوع. وسيليا برتان، «ماري بونابرت»، باريس، بلون، 1999. كان العنوان الأول لهذا الكتاب عند طباعته (1982) «البونابرتية الأخيرة»، حول مسيرة ماري بونابرت ودورها في تاريخ التحليل النفسي في فرنسا، انظر JL - HPF، المصدر السابق. و«قاموس التحليل النفسي»، المصدر السابق.

646 ماري بونابرت، «موجز عن تحليلي وعن مراسلاتي مع فرويد، بالإضافة إلى أجندة (دفاتر سوداء)»، 14 ديسمبر/ك1 1925. إن ملفات ماري بونابرت، المودعة في مكتبة الكونجرس، مغلقة أمام الاستشارة حتى عام 2020. لكنني، بفضل سيليا بيرتان، حصلت على نسخة منها. بالإضافة إلى «الموجز» نجد فيه مائة وست وعشرين رسالة (1926 - 1938)، بينها خمس عشرة نُشرت على يد إرنست جونز وماكس شور، وحديث مطوّل حول مواضيع متنوّعة، انظر على حد سواء «خمسة دفاتر كتبتها فتاة صغيرة بين سبعة أعوام ونصف وعشرة أعوام مع التعليقات عليها»، 4 مجلدات، 1939 - 1951، وقام المؤلف بطباعتها. «مقتطفات من الدفتر الأول»، مجلة أنفيني، 2 ربيع 1983، ص 67 - 89. انظر، في العدد نفسه، الحديث بين إليزابيث رودينسكو وفيليب سولر، ص 62 - 75. مراسلات ماري بونابرت مع آنا برمان تمّ إيداعها ويمكن استشارتها في الـ BNF. وهي تتناول بصورة جوهرية وضع

التحليل النفسي في فرنسا.

647 رينيه لافورغ (1894 - 1962)، طبيب نفساني ومحلّل نفسي، مؤسس حركة التحليل النفسي الفرنسية وجمعية التحليل النفسي في باريس (SPP، 1926) ومعه إدوار بيكون، أوجيني سوكولنيكا، ماري بونابرت، رودولف لوينشتن، ريمون دو سوسير. انظر HPF - JL، المصدر السابق، لا سيما الفصل المعنون «تاريخ الاثني عشر».

648 أ. ي. نارياني، «مناقشات في الأسباب التشريحية للبرودة الجنسية عن المرأة»، بروكسل الطبيّة، 1924.

649 لا سيما مع البروفسور هالبان. أطلق اسم «عملية هالبان - نارياني» على ذلك البتر الذي لا يمثل سوى عملية استئصال حقيقية.

650 ماري بونابرت، «جنسانية المرأة»، باريس، 1957، PUF.

القسم الرابع

فرويد، الأزمنة الأخيرة

الفصل الأول

بين الطبّ الوثني والدين

مع تزايد تحوّل الطب تدريجيًا نحو الطابع العلمي، بدأت الدول تشعر بالحاجة إلى وضع مبادئ تنظّم النشاطات العلاجية. والطب النفسي، الذي يُشكّل جزءًا لا يتجزأ من الطب العام، كان يريد أن يكون أكثر عقلانيةً في تصنيفاته خصوصًا لأنه لا يستند إلى المعايير العيادية ذاتها في علم الطب، مع ذلك، فهو بتحويله للمجنون إلى «حالة»، أي إلى مجزد «مريض»، فقد اقترب منه بحيث لم يعد ينظر إلى الشخص إلّا كموضوع يُمكن أن يدخل في إطار علاجي، وعلى هذه الأرضية تحديدًا ها هو فرويد، القادم من طب الأعصاب ومن الفيزيولوجيا، كان قد أسس علمًا كفرع من السيكولوجيا، علمًا أنه من ورثة العرف الدينامي عند فرانز أنطون ميسمر: المغناطيسية، التنويم المغناطيسي، الإيحاء، التفريج، وأخيرًا التحويل[651]، لقد أعاد التحليل النفسي الكلام إلى الشخص المعني وأطلق الفكرة القديمة القائلة بأن المريض في حوزته، أكثر من الطبيب، القدرة للوصول هو بنفسه شخصيًا إلى وضع نهاية لآلامه النفسية.

علمًا بأن الهر بروفسور وتلامذته، بتأسيسهم في جميع أرجاء أوربا وما وراء الأطلسي معاهد مخصصة لتأهيل الأطباء الممارسين، لم يعد باستطاعتهم الفكاك، بعد الحرب العالمية الأولى، من التنظيمات الإدارية التي بدأت تتخذ مواقعها تدريجيًا بإشراف الدول وهي مخصصة لحماية المرضى من المعالجين المزيّفين، من المحتالين، من تُجّار العقاقير وغيرهم من المداوين البدائيين الذين كانوا يطلقون عليهم حينذاك اسم «مشعوذين».

كلُّ مجتمع، كما هو معلوم، يُضفي موقعًا ما لصورة المشعوذ، نظرًا لأنهُ لا يمكن أن ينتج إلّا بعد تعريفٍ واضح لمن يرفض ومن يقبل وفق مقاييس حدّدها لنفسه، وهكذا فالمشعوذ، أيًا كان الاسم الذي يطلق عليه، هو دائمًا صورة مخالفة. ونظرًا لتعريفه بأنه الجانب الملعون[652]، فهو ما يفرّ من العقل أو الـ logos: الشيطان، المطرود، المقدّس، النّجاسة، النزوة، ما لا يُمكن الاعتراف به. لكنّه في الوقت نفسه العقار المخدّر (pharmakon)، مقدّم العقارات (pharmakos)، المخدِّر، أو كبش الفداء، أو الأضحية التي يجب معاقبتها كي تستردّ المدينة عافيتها. المشعوذ إذن مخلوق مزدوج. فهو ينوء بالقصاص لكنّه الشرط اللازم لكلّ قصاص. إنه المسمِّم أو المداوي، المستبد أو البائس، وهكذا فالمشعوذ هو الـ«آخر» مقابل العلم

والعقل، الـ«الآخر» بالنسبة إلينا بالذات[653]. بخصوص هذه الفكرة، إن فرويد، رجل التنوير المظلم، الذي اعتاد على الكوكايين، وجد نفسه على أرضٍ يعرفها، موزّعًا بين الحنين وممارسة التهكّم اللاذع. في كلّ يوم، كان يتألّم أكثر من المتطفّل ذي الرأسين الذي يعيق كلامه: «الوصلة الفكية التي كان يسقيها لجامه» ومن السرطان الذي راح ينتشر بصورة حتمية.

وهكذا فقد نظر الممسكون بالسلطة الطبيّة إلى التحليل النفسي بأنه من بعض الغرائب: طفيلي، مشعوذ. وفي الختام، كان المذهب الفرويدي ينسب نفسه إلى أوديب، حكيم الحكماء لكنّه أيضًا مسخٌ نجس، علمًا بأن حركته كانت مؤلّفة من نخبةٍ برجوازية: أطباء، أدباء، قضاة، وجميعهم يحملون شهادات جامعية. لكنّ الاتهام بالشعوذة يمكن تفسيره جزئيًا من كون فرويد قد اعتبر التحليل النفسي علمًا كامل الأهلية لا يُسمح بمزاولته إلّا إلى «المترشدين»، الذين خضعوا للتحليل بصورة كافية، ومن هنا كان عداؤه لتعليم التحليل النفسي في الجامعة، بينما كان يعلّمه هو شخصيًا داخل إطار جامعي، بتعبير آخر، كان يصم هو نفسه سلفًا بصفة «مشعوذ» كلّ شخص يسمح لنفسه بتعليم مذهبه من دون أن يكون قد خضع للتحليل.

وفي جميع الأحوال، ألم يكن مثل جونز ، قد اهتمّ بأن يُبعد عن حركته المعالجين الذين يُوصفون بأنهم «خطرون»، ذهانيون، منحرفون، انتحاريون، مارقون أو حتى «محلّلون متوحّشون» إلخ، وقد انتهى الأمر مع رانك وفيرينتزي بدفع تكاليف هذا الإقصاء، علمًا بأنه في حقيقة الأمر قد ضاع هو نفسه حين أكد ارتقاء ذُهانين ومزوّرين - هوراس فرانك أو هيرمين فون هوغ - هيلموث - وباهتمامه اهتمامًا خطيرًا بجميع الظواهر الغيبية. وحيث إن المتمسكين بالطب العلمي كانوا حينذاك يلاحقون المشعوذين، فقد وجدوا في المحللين النفسيين أفضل طريدة لهم.

بدأت الإزعاجات في النمسا بتاريخ 1924، حين وجّه فرويد إلى تيودور ريك طبيبًا أمريكيًا، نيوتون مورفي، يرغب بأن يخضع لعلاج بالتحليل النفسي، ولم يتنبه إلى أن ذلك المريض، العصابي بصورة ظاهرة، كان يُمثّل علامات تدل على الذهان، ونظرًا لأن هذا الأخير كان مستاءً من المعالجة، فقد هاجم محلّله ورفع شكوى ضده بتهمة ممارسة غير شرعية للطب. قبل أن تحصل هذه الواقعة، كان عالم الفيزيولوجيا أرنولد ديورنغ، عضو المجلس الأعلى للصحة في مدينة فيينا، قد طلب إلى فرويد تقرير خبرة بصدد مسألة التحليل الذي يقوم به نفرٌ من غير الأطباء: Laienanalyse، أو التحليل المسمّى «غير اختصاصي[654]». وقد اقتنع

الخبراء برأي فرويد حينها، وهكذا تطوّرت القضية تطورًا كبيرًا حين وجد ريك نفسه، في فبراير/شباط 1925، وقد مُنع من مزاولة التحليل النفسي: وهو وضعٌ في غاية السوء لأنه لا يملكُ أي مصدر رزق آخر. وطوال عام وأكثر، التهبت قضية تعريف الشعوذة وأشعلت العقول، أكان في العالم الناطق بالألمانية أم في صحافة أمريكا الشمالية. ومثل هذا المنع كان يُهدد قبل كل شيء بإلحاق الأذى بالنساء المحلّلات، اللواتي شهادتهن الجامعية أقل من الرجال، ولكن أيضًا جميع الذين كانوا يؤكدون، بحق، أن العلم الذي ابتكره فرويد يتجاوز تجاوزًا كبيرًا إطار الطبّ النفسي. كانت ثروة حركة التحليل النفسي قائمة على تنوّع الذين التحقوا بها. إنهم من جنسيات تعود إلى جميع أرجاء أوربا وهم تقريبًا في مجموعهم متعدّدي اللغات، وكان الفرويديون قد اكتسبوا ثقافةً كبيرة في مجالات العلوم، والآداب، وعلم الاجتماع، والفلسفة، والأنثروبولوجيا. والقليلون بينهم من كانوا عُصاميين. إن إرادة صبّهم جميعهم في قالب واحد يُسهم بخفض حقيقي وانتقاص لقدرتهم على التدخّل الاجتماعي والإيديولوجي.

كان ويليام ستيكيل على استعداد دائم لمحاربة الـ WPV، وهو رئيس اتحاد الأطباء المحلّلين المستقلّين، وها هو ينطلق في معركته للقضاء على التحليل النفسي غير الاختصاصي، منددًا بقوة بالفضيحة المرتبطة بقضية هوغ - هيلموث وبالخروقات التي قام بها تلامذة فرويد. وإذ تناسى أنه هو شخصيًا كان يُعاني من حالات مرضية غامضة، عاد ليؤكّد الفكرة القائلة بأن التحليل الطويل أكثر مما يجب يؤدّي حكمًا إلى الانتحار[655]. لكنه لم يوضح ما الذي يجعل من الأطباء معالجين أفضل للنفس من غير الأطباء. وأمّا كارل كروس الرّهيب، فانفلت مرةً ثانية في Die Fackel - الشعلة - مؤكدًا بأن موجة الفرويدية قد خرّبت السياحة في فيينا: فالعالم قاطبةً راح يتزاحم هناك، كما يقول، في فنادق العاصمة القديمة لآل هابسبورغ كي ينال شرف الجلوس على ديوان فرويد في برغاس، ومن جانبه، ها هو يوليوس فاغنر - جوريغ، علمًا بأنه هو نفسه وقع ضحية اتهامه بالقيام بعلاج سيء، لا يتردّد بكتابة تقرير يُنادي فيه بأن الأطباء دون سواهم لهم الحق بمزاولة العلاج الفرويدي[656].

إن المحلّلين النفسيين غير الأطباء، بتعرّضهم للاتهام على أساس أنهم «يُخرّبون» العلاجات، أصبحوا على هذه الصورة أكباش فداء، وما من شك إطلاقًا بأن الأمر من جديد كان عبارة عن هجوم على التحليل النفسي بحد ذاته، وذاك لأن المهاجمين كانوا يعلمون حقّ العلم أن مزايا الطبيب، في مجال مُعالجة المريض نفسيًا، لم تكن لتمنع وقوع الأخطاء في التشخيص،

ولا ضياع وتشتت المرضى الذين هم فريسة للجنون أو الكآبة وغالبًا هم أنفسهم من الأطباء. ومنذ زمن طويل، ها هم أطباء النفس، رغم تأهيلهم الطّبي، يرون أنفسهم بصورة دورية محل اتهام من زملائهم بأنهم محض مشعوذين، بل حتى أنهم لا يقلّون جنونًا عن مرضاهم: وأحيانًا كانوا بالفعل كذلك. حقيقة الأمر، كما سبق أن قلت، توّجه الاهتمام في هذا الجدال ما بين 1920 و0193 إلى السلامة ليتغلّب بصورة لا لبس فيها على الانشغال بالمزايا العيادية للأطباء أو لمن هم غير أطباء.

في هذه الأثناء، طرحوا سؤالًا جديدًا: كيف لمحلّلٍ نفسي ليس بطبيب أن يكون قادرًا على التمييز بين أعراض هستيرية ومرض عضوي؟ وعبثًا ما قيل من دون طائل بأن المحلّل حتى عندما يكون مؤهلًا طبيًا يُمكن له أن يخطئ حتى أكثر من المحلّل غير المختص المهتم بتقديم براهين في مجال التشخيص، فالنهاية دائمًا كانت توصل إلى استخلاص الضرورة اللازمة لمن يُمارس المهنة أن يكون حاصلًا على شهادة طبّية لا أن يكون فيلسوفًا أو عالم نفس. ونجا من هذا الجدل التحليل النفسي للأطفال من دون سواه، إذ إنه دُمج مع التربية.

كان ريك ابن عائلةٍ من البرجوازية اليهودية الوسطى، وقد التقى مع فرويد بتاريخ 1911، ودفعةً واحدة، نظر إليه على أنه أب، وكان فرويد يُحبه كما أحب رانك، ونصحه بالعدول عن الدراسات الطبية التي كان يُفكّر أن يشرع بها، كي يُكرّس نفسه بصورة أفضل لبحوث تاريخية وأنثروبولوجية، لقد تعرّض ريك لحسد جونز وتلامذة آخرين عديدين، ولذلك فقد وُضع موضع السخرية بسبب صلفه وطريقته بالخضوع لمعلّمه، وبتعليله دائمًا لصوابية الانتقادات التي كان هذا الأخير يوجّهها إليه[657].

في فيينا، أطلقوا عليه اسم الطفل الرهيب للتحليل النفسي، «مهرّج الملك»، وحتى «نظير فرويد». كان ريك يستمتع بتقليد الهر بروفسور بنوع من الشغف الذي لا يعبر سوى عن ذلك الاندفاع نحو التحويل والتحويل المضاد الذي كان هو نفسه من ألمع منظّريه. كان يُشبه فرويد، ويُطلق لحيةً كلحية فرويد، ويدخّن السيجار المشابه لسيجار فرويد، ويتكلّم مثل فرويد، لكنّه لم يتجاسر أبدًا أن يقول عن نفسه إنه صديق فرويد: «كلا، أنا لست صديقه، هكذا اعترف ذات يوم، لأن المرء لا يستطيع أن يكون صديق عبقري». هذا التوّحد مع صورة «الرجل العظيم» لم يمنعه من أن يكون مؤلفًا أصيلًا ولهذا السبب تحديدًا كان فرويد وفيًا له بصورة استثنائية، كما كانت عادته عندما يتعرّف على موهبة حقيقة بين المقرّبين منه. لقد ساعده ماديًا، وأرسل إليه مرضى وعهد إليه بمهمّات ثقافية

ونضالية، من دون أن يتوقف أبدا عن انتقاده عندما يرى ضرورةً لذلك.

عند ريك كان حبّ غوته قد سبق حبّ فرويد، لكنّه لعدم تمكّنه من أن يصبح كاتبًا كبيرًا، فقد أخذ على نفسه أن يقرأ جميع أعمال الشاعر. وفي ما بعد، اكتشف في فرويد الصورة المتسامية لغوته الذي تغيّر وجهه بالتحليل النفسي. وها هو وقد أصبح النص الغوتي في نظره النبع الذي لا ينضب لجميع الصيغ الممكنة للتعبير عن السير الذاتية، فتلك طريقة ليروي الإنسان عن نفسه من دون أن يبدو عليه بأنه خاضع لطقوسية المذكّرات اليومية. وكما فرويد، كان هو أيضًا يرى أن الكتّاب والشعراء يتوصّلون إلى اللاشعور - لا سيما إلى لا شعورهم الشخصي - بصورة أعمق مما يتوافر عند الاختصاصيين بالنفس. وعلى هذا لا بد للمؤلّفات الأدبية من أن تستخدم كنماذج، ليس لمجزد كتابة الحالات العيادية، وإنما للمنهج التحليلي بحد ذاته باعتباره استقصاءً علميًا للذاتية.

وهكذا كان النّص الغوتي يحتلُّ موقعًا متميزًا في صميم هذا العالم. وبتحوّله إلى نمط من الاستبطان الفرويدي، فقد أتاح هذا الأمر لريك أن يُسقط قصّته الشخصية على قصة راوية «الشعر والحقيقة»، أي على سيرة ذاتية هي نفسها أعيد تأويلها على ضوء التحليل النفسي وكتابات فرويد، كان غوته، كما نعلم، يجد متعة خاصة في إخفاء ذاته، مصرحًا عن طيب خاطر بأنه ما من إنسان يستطيع أبدًا أن يعرف نفسه. دون أن يمنعه ذلك من الاعتراف ومن الكلام عن نفسه بغزارة، لهذا السبب، كان قد بدأ في تلك الحقبة يكتسب صفة أحد أهم المؤلّفين الذين تدرسهم جماعة التحليل النفسي الناطقين باللغة الألمانية[658]، وكان بطله فاوست موضوع عدد كبير جدًا من التأويلات، كما الحال مع هاملت أو أوديب.

حين وقع ضحية الاتهام بالشعوذة، بينما كان دكتوزا في علم النفس والفلسفة، كان ريك أكثر تزعزعًا من زملائه أبناء فيينا لأنهم تحديدًا لم يسعفوه بأي عون. ولما كان فرويد لا يستطيع البقاء غير مبالٍ بمصير هذا التلميذ، ها هو ينبري بتاريخ 8 مارس/آذار 1925 موجهًا رسالة إلى يوليوس تاندلر الذي كان يعرفه حقّ المعرفة منذ قضية عصابيي الحرب. إنه مستشار في المحافظة مكلّف بالأعمال الخيرية وبالصحة، وهكذا فإن هذا الأخير كان قد أسهم، قبل عامٍ من ذلك التاريخ بإعطاء فرويد لقب «مواطن شرف في مدينة فيينا»، ورغم أنه كان اشتراكيًا ديمقراطيًا، فإن تاندلر، الشخصية الرفيعة المقام في «فيينا الحمراء»، عُرفت عنه مواقفه المحافظة، فكان معاديًا لدخول النساء إلى الجامعة ولإطلاق السماح بالإجهاض، لكنّه مع ذلك كان يُدافع عن مصالح التحليل النفسي مع كارل

فريد يونغ، الاشتراكي الديمقراطي مثله، وطبيب الأطفال الصهيوني، العضو في الـWPV، والممثل الخالص لثقافة فيينا في نهاية القرن، تلك الثقافة التي ظلّ يحمل الحنين إليها[659].

أشار فرويد في رسالته إلى أن التحليل النفسي ليس علمًا، ولا تقنية لممارسة الطب، وأنه لا يدخل في مناهج التعليم، بهذه الصفة، في كلية الطب، «أنا أرى في قرار المحافظة تعدّيًا من دون مسوّغ لصالح السلك الطبي على حساب المرضى وكذلك البحث العلمي. إن أهمية المعالجة تتحقّق عندما يكون للطبيب الامتياز الحصري كي يقرّر إذا كان هذا المريض أو ذاك يمكن إخضاعه لتحليل نفسي أم لا. وهذه القرارات اتخذتُها أنا شخصيًا في جميع الحالات التي قام الدكتور ريك بمعالجتها. وأزعم بأن من حقي أن أوجّه إلى طبيب مختص بتقويم اعوجاج الأطراف مريضًا يشعر بالتعب عند المشي وتؤلمه قدماه، حين يمكنني تشخيص أن قدميه مسطحتان، بدلًا من أن أعطيه وصفة لعلاج أو أن أعالجه بالكهرباء. وإذا كانت السلطات الرسمية، التي لا يلاقي التحليل النفسي الرسمي منها سوى القليل من المباركة، تريد الآن اعتباره علاجًا فعالًا، وربّما خطيرًا في بعض الحالات، فيتوجّب عليها أن تفرض بعض الضمانات قبل الشروع بمثل هذا العلاج بكل استخفاف من غير المختصين، أكانوا من الأطباء أم من غير الأطباء[660]». وقد اقترح فرويد إلحاق الـ WPV بهيئة رقابة ذات أهلية.

هذه المداخلة وزيارة ريك لتاندلر لم يتحقق منهما التأثير المرجو، وهذا ما يفسّر عودة فرويد من جديد إلى محاولته، في سبتمبر/أيلول 1926، في كتاب مُضحك جدًا: «مسألة التحليل غير الاختصاصي»، مع عنوان فرعي «أقوال متبادلة مع مُحاور حيادي[661]». وكان يعني بكلمة «محايد» الشخص الذي يشبه يوليوس تاندلر تمامًا كما يشبه أرنولد ديوريغ. وأما المعني الرئيسي، الذي يفترض به أن يردّ، فإن فرويد قد نسب إليه دور المحلّل النفسي غير الاختصاصي، الممتلك للتأويل الحقيقي وللاستماع الأكثر إرهافًا. من جهة الشكل، كان ذلك الكتاب يستمد إيحاءه من عرف أدبي بيكاردي يعرفه فرويد حقّ المعرفة: عرف سرفانتس. غير أنه بالأحرى كان يستمد من التراث الأفلاطوني فكرة وضع اثنين يتحاوران وهما متعارضان كلّ التعارض مع احترام كلٍّ منهما لرأي الآخر. بهذه «الخواطر»، وضع بوضوح على المسرح وجهين عن نفسه بالذات إذ تذكّر، من جديد، كم كان متوحّدًا مع المعركة الفريدة التي لا نهاية لها، معركة الملاك ويعقوب، فاوست ومافيستو، هاملت والشبح، ليوناردو وعُقابه حيث كل طرف هو على الدوام بديل الطرف الآخر.

أكثر بكثير من المجادلات حول الجنسانية النسائية والتحليل النفسي للأطفال، إن المجادلات التي تناولت الـ Laienanalyse أحدثت هزّة متواصلة في حركة التحليل النفسي العالمية، وهنا حصلت مجابهة بين ثلاثة مواقف: المعارضون لكلّ شكل من أشكال التحليل النفسي غير المختص؛ أتباع التحليل غير المختص - من لا يحمل شهادة في الطب - المعادون لكل شكل من أشكال التحفّظ؛ أنصار التحليل غير المختص طبيًا المؤطرون حسب قواعد حصرية جدًا، مع إعطاء الأفضلية لاكتساب تأهيل طبي لا سيما في مجال الطب النفسي.

أما الأوائل فكانوا يلقون الدعم من مجموع الجمعيات في شمال أمريكا تقريبًا، فهم مشغولون بشنّ معركة لا هوادة فيها على أدعياء الشفاء، وأصحاب البدع، والشامانيين، وجماعات التجلّي، وهم بأعداد كبيرة في الولايات المتحدة؛ والصنف الثاني اصطف أنصاره وراء فرويد، وفيرينتزي وأوربا الناطقة باللغة الألمانية، مع رانك، إرنست كريس، آنا فرويد، شاس، بيرنفيلد، إلخ، بينما الصنف الثالث، بدعم من جونز والمدرسة الإنجليزية أرادوا أن يكونوا ليبراليين وبراغماتيين، وكان في صفوفهم عدد كبير من الممارسين من غير الأطباء من جماعة النسق الأول: جوانا ريفيير، ميلاني كلين، جيمس وأليكس ستراشي.

أثناء هذه المجادلات، حضرت جميع أصناف الحجج: لا سيّما معالجة حالات الذهان والعلاقة التي يجب أن يقيمها التحليل النفسي ويرعاها مع التقدم المستقبلي في علمَي الكيمياء والبيولوجيا، لكن حيث إن الأمريكيين، بدءًا من بريل، كانوا يضعون قاعدة إلزامية في معاهدهم للحصول على دبلوم طبي، ولذلك كان عليهم مجابهة الغضب المسعور لفرويد الذي راح يعتبر أكثر فأكثر بأن التحليل النفسي في الولايات المتحدة أصبح جوكر الطب النفسي - الخادمة التي تقوم بكل الأعمال - في واقع الحال، لقد توسع بالفعل التحليل في ذلك البلد بحيث احتلّ في المجال الطبي، المكان الذي كان يشغله تراث الطب النفسي في أوربا، مع اندماجه، في الجانب غير المختص، بالـ«التداوي ذاتيًا» في ميدان السعادة: «إن كلمة /تحليل نفسي/ معروفة هنا مثلما هي معروفة أيضًا في أعماق الشاطئ الشرقي، هكذا سوف يكتب بيرنفيلد بتاريخ 1937. واسم فرويد قليل الرواج بالقياس مع كلمة التحليل النفسي ويلفظونه / فرود / [...]، حتى الناس من ذوي الثقافة الضئيلة يعلمون بأن التحليل النفسي يشفي من الهموم، والمنغّصات الزوجية، وعدم النجاح وغير ذلك من الإزعاجات حتى وإن كانوا يبحثون عن شفاء أكثر طمأنينة في Liquour

bar[662] ـ حانة».

لقد نسي فرويد أنه كان في يوم من الأيام قد حلم مع يونغ باقتحام أرض الميعاد عن طريق العلم التحليلي، ولذلك بدأ فرويد يعتبر منذ ذلك التاريخ بأن التأهيل الطبي يهدّد حتى بأن يكون ضارًا بمزاولة التحليل النفسي من طرف غير الأطباء.

في نهاية المطاف، في مايو/ أيار 1927، استفاد ريك من ردّ الدعوى المقامة عليه لأن المدعي وُصف بأنه يفتقر إلى الأهلية بسبب ما يعانيه من اضطرابات، وها هي الصحافة الأمريكية تعلن بأن أمريكيًا قد ردّت دعواه «بحق فرويد». لفترة زمنية إضافية، بدا وكأن التحليل غير المختص حصريًا كما لو أنه قد حصل على طوق النجاة، ولكن الأذى الذي لحق بريك كان قد وقع ولا رادّ له. فقد اضطهدهُ أقاربه، وهزأ منه ستيكيل وكروس، ولذلك لم يتمكّن أبدًا من استعادة الهدوء والسكينة في فيينا، ولهذا السبب قرّر أن يجعل إقامته في برلين، وحيث إنه قد دُمج في الـ BPI، فقد شكّل مع تلامذة وأسهم لمدة خمسة أعوام في الانطلاقة المذهلة للتحليل النفسي في ألمانيا، وهي الانطلاقة التي وصلت إلى نهايتها مع مجيء النازية.

خسر فرويد إذن معركة التحليل من طرف غير الأطباء، والذي لم يكن له في الأعماق من رصيد سوى التأكيد بعدم توافق التحليل النفسي مع أيّ معرفة جاهزة، ولن يفرض نفسه هذا الفرع العلمي، بصفته كعلم، في حقل التعليم الجامعي، وأولئك الذين قاتلوا دفاعًا عن الـ Laineinlyse وجدوا أنفسهم مجبرين تدريجيًا على تحصيل دبلومات جامعية وعلى أن يخضعوا بصورة خاصة للتنظيمات الإدارية حسب كل دولة، وطوال النصف الثاني من القرن العشرين، أصبح غالبيتهم من علماء النفس[663].

من بعد إعلانه الحرب دفاعًا عن التحليل النفسي من طرف غير المختصّين في وجه الأطباء، قرّر فرويد أن يهاجم الدين، كان يريد حماية التحليل من رجال الدين الذين يريدون أن يكونوا من متلقّي الاعتراف أو من كهنة النفس، حسبما يكون انتماؤهم كاثوليكيًا أو بروتستانتيًا. وكان يخشى أن تكون لديهم إرادة، هم أيضًا، كما حال الأطباء، بإلحاق مذهبه بميدان ممارستهم. من جديد، توّجه تفكيره كي يسند إلى التحليل قوامًا لم يوجد بعد. علمًا، بأنه لن يوجد في يوم من الأيام. وحيث أنه كان يعتبر نفسه شخصيًا من الملحدين، فقد أعلن فرويد بأنه من ألد أعداء الدين، الذي ينظر إليه كوهم، دون أن يمنعه ذلك عن الاهتمام به[664] بطرق متعددة.

شأن فرويد كشأن شاركو وغيره كثيرين من العلماء في تلك الحقبة، من المختصين بأمراض النفس، عكف فرويد على ظواهر المسّ الجنوني، ساعيًا إلى أن ينتزع دلالته من أيدي ممثلي الكنيسة ومن المعزّمين. في 1897، شعر بمتعة قراءة Malleus Maleficarum، - مطرقة الساحرات - ذلك الكتاب التعليمي المنشور باللاتينية مع نهاية القرن الخامس عشر والذي استخدمته «محاكم التفتيش» كي تُرسل إلى المحرقة ساحرات مزعومات[665]. بعد ذلك بعشرة أعوام، أصدر دراسةً حول أفعال هجاسية وممارسات دينية، وفي هذه الدراسة يُشبه العصاب الهجاسي بـ«ديانة خاصة[666]». وأخيرًا، في 1923 بطلب من مستشار المحكمة العليا بايير تون، درس حالة كريستوف هيتزمان، الرسّام البافاري الواقع تحت تأثير تشنّجات في 1677، بعد ثمانية أعوام من توقيعه لميثاق مع الشيطان، ثمّ إنه شُفي بعد معالجة بطريقة طرد الأرواح الشريرة. هنا شرع فرويد بجعل الشيطان بديلًا للأب، وبيّن في حقيقة الأمر بأن الرسّام، بعد أن تآخى مع القدّيس كريزوستوم، لم يعرف أبدًا طريق الشفاء، فهو في صومعته في ماريازيل استمر «الروح الخبيث» يزوره حالما يشرع بالشراب بما يتجاوز حدود المعقول. وقد عارض فرويد في النهاية بحسنات التحليل النفسي الأعمال الفاشلة للتعزيم وطرد الأرواح الخبيثة وانتقد الممارسات الدينية في الأزمنة القديمة حيث حكم عليها بأنها لا يُمكن التوفيق بينها وبين الـ Aufklarung - التنوير في ألمانيا -.

«النساء الهستيريات اللواتي يُعتبرن ساحرات، الشيطان البديل عن الأب الشهواني، الدين كترجمة لعصاب قهري قادم من الطفولة أو من ليل الأزمنة الغابرة»: تلك هي الأفكار الثلاثة التي زعم فرويد بأنه سوف يجعل منها مدخلًا لمناقشة المسألة. من جديد، كانت هذه المحاكمة العقلية مصطدمة بخطأ جسيم قائم على تأويل رجعي الأثر لظواهر المسّ الجنوني باعتباره من الحالات المرضية التي لا يمكن أن يجلوها سوى علم التحليل النفسي. وبتأثير من هوسه التأويلي، كان فرويد يضرب عرض الحائط، كما حال تلامذته، بكل انتقاد لا يخدم مصالح مذهبه كثيرًا. علمًا بأنه، وهو يفبرك مثل تلك التخيلات، كان يُسهم أيضًا بأن يُدخل إلى عمل المؤرخ نمطًا من المفهوم الذاتي لا يقبل به العلم الوضعي: فهو يُعطي معنى لذلك الهذيان القديم الذي يبدو بأنه يعود ليتجسّد في الإنسان الحديث[667]. هنا كما في كل موضع آخر، بسبب حبّه للشيطان، راح يُعاين من زاوية جديدة حقلًا سرديًا، علمًا بأنه يُجزّب امتلاكه بطريقة مغلوطة، إن مأساة هيتزمان، المروية بلسانه، تشبه إلى حد ما شيئًا ماثلًا «في

الرسالة القرمزية» بقلم ناتانييل هاوثورن، لا سيّما عندما يدور الموضوع حول الظهورات المختلفة لـ«الزوج الخبيث» المتنكّر بصورة قضيب مسترخٍ على شكل ثعبان ومن فوقه نهدان كبيران فهذا إسقاط حقيقي لشعار جنسي أمومي من فوق جهاز الانتصاب الذي يحتل موقع بديل للأب، وكذلك عندما استرسل فرويد في توصيف الـ«عُصاب اللاحق» عند الرسّام البائس، الذي يشع بالرعب حيال أكثر من رؤية نسائية، ويصطدم بصوت المسيح ثم باستحالة تمييز القوى الإلهية عن روح الشر، وفي الجملة الأخيرة من قصته، حسم فرويد الأمر لصالح الشيطان، الموجود ما يزال رغم جميع الاعترافات بالشفاء. إن مفيستو، الصديق الدائم، العدو الذي لا غنى عنه، عاد على هذه الصورة بقلم الراوي المتناقض الواقع فريسةً لعذاباته الخاصة: فهل هو فرويد أم هيتزمان؟

مع «مستقبل وهم[668]»، كان فرويد يتولّى مهاجمة المؤسسة بحد ذاتها، الدين كمنظومة سيطرة، وقد أجاب بذلك، على رومان رولان الذي كان قد وجّه إليه نسخةً من مسرحيته «ليلولي»، مع هذا الإهداء: «إلى مدمّر الوهم». في تلك المسرحية الكوميدية «على طريقة أريستوفان»، كان الكاتبُ يقوم بهجاء الوهم المتجسّد في فتاة صغيرة العمر بريئة تزرعُ الخلافات بين محاوريها. أمّا فرويد، بعد أن قال لمرّةٍ جديدة بأن فكرة الحضارة قائمة على تأسيس سد منيع يُجبر البشر على التخلّي عن الدوافع النزوية، فقد أشار إلى أن الأفكار الدينية التي تسمحُ وضوحًا بإبقاء الجنس البشري تحت ذلك القسر تنهار بمقدار ما يقدّم العلم والعقلانية ما يكذّبها. غير أن الدين، نظرًا لما هو عليه كوهم ضروري، لم يكن مضطرًّا للخضوع لمعيار الحقيقة، ولا شيء يلزمه أن يُجابه امتحان الواقع. فهو، كما يقول فرويد، عُصاب طفولي، وسط عالم مطبوع بطابع كوبرنيكوس وداروِن، وهو العالم الذي أسقط فكرة القدرة الإلهية القاهرة، لا بد له من أن يتعرّض للهزيمة، غير أن صدور هذا الرأي من رجلٍ لم يكن يتوقف عن زيارة المدن الإيطالية وهو متشرّب تشربًا عميقًا بقيم الحضارة الغربية - تلك الحضارة التي ورثت في الوقت نفسه العصر القروسطي وعصر النهضة - فإن الحجّة التي يأتي بها كانت تبدو ضعيفةً بعض الشيء، لا سيما وأن تقنية التحليل النفسي للاعتراف تستخدم علاقات لا لبس فيها مع الاعتراف الديني.

لكن بالنظر إلى عمق الأمور، إذا كان الهر بروفسور يُقلّص الدين ويجعل منه وهمًا، فهو بذلك يرى استباقًا أن الدين لا يستطيع أن يفرض نفسه كثقافة. وفي تلك الحقبة، راحت الكنيسة الكاثوليكية تُكافح الفرويدية تمامًا كمكافحة فرويد للدين، لكنها تُريد أن تقوم بذلك بصورة عقلانية من

خلال إعطاء قيمة للبحوث العلمية ضد الغيبيات الظلامية، كما شهد على ذلك، في إيطاليا، الأب آغوستينو جيميلي، الرّاهب الفرنسيسكاني، وهو طبيب وتلميذ قديم لكرابلن، الذي كان يسعى لدمج أعمال علم النفس التطبيقي مع الـ neoscolastique - المدرسة الكلامية الجديدة - كان قد أنشأ في ميلانو مدرسة لعلم النفس وسط جامعة القلب الأقدس الكاثوليكية، وكان يستند على نظريات جانيه، رادًا بذلك على المذهب المغالي في «طابعه الجنسي» عند الفرويديين.

من دون أدنى شك كان فرويد يظنّ بأن التحليل النفسي بإمكانه شفاء الإنسان الحديث من خسارة الوهم الديني: مع وجود خطر أن يحتل التحليل مكان ذلك الوهم وأن يفشل، على غرار الاشتراكية التي لمَ توفَّق في استئصاله.

إن فرويد بكراهيته للاشتراكية الثورية، التي هي في نظره بديل لدين جديد، لم يكن يُسدّد سهامه على ثورة أكتوبر/ ت1 1917 وحسب، لكنه كان عدوًا لا يتزعزع أبدًا، واقفًا في وجه ألفريد أدلر، والذي يلومه، وهنا ذروة ما يُضحك، على هوسه في مجال التأويل: «أمامي الآن، كما كتب إلى فيرينتزي، حديث قذف به في وجه موسوليني، لعلّك لم تقرأه ولعلّك لا تعلم بعد كيف يمكن تفسير الفاشية. أنا سوف أخبرك بالأمر: إنه شعور الدونية الطفولي عند موسوليني، وكان يمكن أن يقدّم التفسير نفسه لو أن موسوليني أدخل إلى إيطاليا نظامًا اجتماعيًا مثليًا حيثُ يُصار إلى معاقبة المجامعة الطبيعية بالحبس أو نظام رهبنة شديد القسوة حيث يُمنع الكلام لأنه يتضمن عداء للوطن. والظاهرة الوحيدة التي لم يطبّق عليها نظريته هي تحديدًا ظاهرة الاشتراكية والسبب أنه من أبنائها[669]».

في القسم الأخير من «مستقبل وهم»، قام فرويد بمهاجمة تلميذه وصديقه أوسكار بفيستر، كاهن زيوريخ، كان هذا الأخير قد حضر لزيارته في فيينا بتاريخ 1909 وقد وقف إلى جانبه طوال النزاع الكبير مع يونغ. كان فرويد يُقدّر كرمه، وتفاؤله، ويعلم حقّ العلم كم كان «رجل الله الغالي» ذاك، كما كان يُطلق عليه، يُريد أن يكون وارث علاجات النفس (Seelsorge) وأنه لن يتخلّى أبدًا عن إيمانه. كان قد انخرط في القضية الفرويدية، لأنه عانى من الاضطراب منذ شبابه، برؤيته لمشهد الانحطاط الأخلاقي المرتبط بالتحول الصناعي، وبعجز اللاهوت القديم التجريدي عن تقديم إجابات على مكامن القلق عند الإنسان الحديث[670]، كان يريد أن يكون مربّيًا[671]. وفي 1919، أسس الجمعية السويسرية للتحليل النفسي (SSP)، وكان عليه مجابهة معارضي التحليل النفسي من طرف غير

المختصين، لا سيما ريمون دو سوسير[672]، الذي كان يلومه على علاجاته ذات المدى القصير.

بما هو غير محافظ وغير قادر على إعطاء صفة صنم معبود لكائن من كان فقد تجرّأ بفيستر على انتقاد فرويد، وإذا كان من رأيه أن التحليل النفسي هو بالأحرى وريث عرف «الرعوية الدينية الأصلية للنفس»، أكثر مما هو وريث الاعتراف الكاثوليكي، فقد كان على يقين بأن هاتين الصيغتين للعلاج تهدفان إلى تحرير المعني عن طريق هدايته إلى حقيقة النفس وإعادة تأسيس المحبة عنده. وهكذا فقد ردّ على «مستقبل وهم» بدراسة فذّة نشرها في مجلة إيماغو - Imago - تحت عنوان «وهم مستقبل[673]»، وفيها يؤكّد محقًّا بأن الإيمان الصحيح يحمي من العُصاب وأن موقف فرويد بالذات هو وهم. فهذا الموقف، كما يقول، ينكر دلالة التجارب الصوفية، التي لا تمت بأدنى صلة إلى الدين. ناهيك بأن فرويد كان على جهل بتلك المعرفة لأسرار الله والإيمان، كما تُمثل في قصص أدبية متوهجة، علمًا أنها كانت دائمًا على بساط الأخذ والردّ في جميع الكنائس: «كم هي غريبةٌ علي، هكذا سوف يقول لرومان رولان، العوالم التي تعيش فيها! والموسيقى أيضًا أكثر استعصاء على فهمي من التصوّف[674]»، لكنه، بما يتعلق بالموت، يعترف بأن كل إنسان ذكي «يعرف حدًّا من بعده يستطيع أن يصبح صوفيًا والولوج إلى كينونته الأكثر شخصانية[675]. لقد وضع الصديق بفيستر أصبعه على فجوة في التفكير الفرويدي»، وهي حاضرة في الثغرات الموزّعة في كتابات المعلم. نعم، «مستقبل وهم» كتابٌ رديء، وكان فرويد يعلم ذلك.

من وراء الحوار العلني مع بفيستر، كان هناك حوارٌ آخر يدور في الظل بين فرويد وكارل ليبمان، وهو أمريكي شاب مصاب بالتعلّق الصنمي المهووس بالأشياء، وهو ما يظهر أثره، بالكاد إيحاءً، بحيث يمكن التخمين مرات عديدة بوجود مراسلة للهر بروفسور من دون أن ينبثق هذا الأثر بصورة واضحة، فما بين عالمٍ شهير، ذي موقع رفيع جدًا، ومريض نكرة غارق في العذاب في سياق حياة ضئيلة القيمة، انعقدت اعتبارًا من 1925 علاقة هامة لتطور صياغة المفهوم في التحليل النفسي. وهنا مجددًا نجد بين السطور تجابهًا مع بفيستر، حيث يتعارض نسقان من الواقع: وعي نقدي للطبيب من جانب، ووعي مأساوي للمريض من الجانب الآخر، التشتت بين العقل والخروج عن العقل، بين التفكير الطبي والجنون.

إن كارل ليبمان، المولود عام 1900 وابن يوليوس ليبمان، عن طريق جده لأبيه، صامويل ليبمان مؤسس بيرة رينغولد الشهيرة، كان ينحدر من

عائلة تجار يهود ألمان اكتسبوا الجنسية الأمريكية في أواسط القرن التاسع عشر، وكان يحمل اسم جده المباشر وأمضى طفولته في قصر يوليوس ليبمان الرائع الذي كان والده قد أمر ببنائه في بروكلن، وهو مثل شخصية من شخصيات الأدب الرومنسي في الربع الأول من ذلك القرن، كان يشبه أيضًا العديد من باقي مرضى فرويد المصابين بأمراض متعددة وشبه مستعصية على العلاج. كان قد شعر دائمًا بأنه مختلف عن باقي المراهقين. وعندما كان عمره خمسة أعوام، بينما كانت مربيته تحممه مع شقيقته في الوقت نفسه، شعر بخوف مرعب. لأن هذه الأخيرة هددته أن «تقطع عضوه الصغير»، مثلما «فعلت مع شقيقته»، إذا استمر يشتكي من أنها تجفف جسمه بخشونة. من بعد ذلك، غالبًا ما عبر عن تهيج جنسي كبير كلما رأى الشباب الذين يلبسون سراويل الأبطال الرياضيين أو «نوعًا من الحقالات»[676]، وهذا الأمر، كان أشد لديه نظرًا لأنه يهرب من النشاطات الرياضية ويرفض تسلق الأشجار. وها هو كارل الفتي، وقد أصبح شابًا مثقفًا، نحيل الجسم ويتكلم لغات متعددة، يمتنع عن أي احتكاك مع الفتيات. كان الهاجس عنده الحفاظ على حياة المخلوقات الدقيقة في سائله المنوي، والتي كان يسميها «حيوانات منوية»، وعندما يقذف، كان يعتبر نفسه مجرمًا ارتكب جريمة قتل بأعداد غفيرة، بل خطر له ذات يوم أنه قتل جنينًا، في جامعة يال حيث كان يتابع دراساته التي سوف تجعل منه الوريث اللامع لإحدى أغنى العائلات في الولايات المتحدة، كانوا يتعاملون معه على أنه «طنطوز»[677]. وسرعان ما اكتسب ممارسة العادة السرية اضطرارًا مع ارتدائه بصورة دائمًا حمالة رياضية تحت ثيابه: وهذه تعويذته.

بعد حصوله على شهاداته الجامعية فتش الشاب على المساعدة لدى محلل نفسي أمريكي، لكنه لم يشعر بأي راحة، ولذا توجّه إلى أوربا كي يصبح «فنانًا». وفي زيوريخ، بتاريخ **1924**، قام باستشارة بفيستر، الذي أدرك الخطورة القصوى لحالته، فأرسله إلى بلولر. وبعد حديث دام خمسًا وأربعين دقيقة، وضع هذا الأخير تشخيصًا متأرجحًا بين العصاب الهجاسي والشيزوفرنيا. في النهاية رجّح وجود «شيزوفرنيا خفيفة»، مضيفًا أن كارل ذكر أمامه اضطراره لغسل يديه ويقينه بأن الناس يراقبونه دائمًا في الشارع. اثناء الحديث، راح يربت على جميع ما هو فوق المكتب، حتى على نفاضة السجائر دون مبالاة بقذارتها. وقد أوصى بلولر بضرورة استخدام علاج تحليلي ونصحه باختيار مهنة كفيلة بتخليصه من أعراض المرض لديه.

في 21 ديسمبر/ك1 1924، جاء رد فرويد إيجابيًا على طلب بفيستر، وفي 22فبراير/شباط 1925، قبل أن يستقبل الشاب للعلاج مقابل عشرين دولار. في مايو/أيار، حتى قبل أن يكون قد رآه قابل والديه، يوليوس وماري، اللذين أبديا له لهفةً زائدةً كي «يضحيا» في سبيل ابنهما. من بعد تردد ولفت نظر بفيستر إلى أن من الأفضل ترك كارل «يمضي إلى تدمير نفسه». بسبب انعدام التآلف الاجتماعي لديه، استقبله أخيرًا في شهر سبتمبر/أيلول. لكنه أدرك سريعًا جدًا حالة التحطيم التي يعيش فيها ذلك الشاب، فكتب إلى والديه بأن العلاج يمكن تمامًا ألا يؤدي أبدًا إلى أي تحسن. مع ذلك، بعد مقابلات عدة بدأ يشعر بتعلّق حقيقي بالشاب رغم اقتناعه بأنه ذُهاني (خَرَف بارانويا) وأنه مستعص على كل تطور، وأنه على وجه الخصوص لن يتردد بالإقدام على الانتحار متى سنحت له الفرصة. من جديد، ها هو فرويد يضع على ديوان التحليل مريضًا يبدو بأن أي علاج لن يجدي معه نفعًا، ومن المستحيل تقديم المداواة إليه، لكن، لو رفض، وهو الاختصاصي الكبير في أمراض النفس، استقبال مثل هذا المريض، فمن يقوم مقامه في هذا المجال؟ ولذلك قرر أن يكافح من أجله.

في ذلك التاريخ مع انطلاقته في مجال إعادة الصياغة نظريًا وعياديًا، وضمن إطار المجادلات الكبرى حول الجنسانية النسائية، كان تفكيره قد بدأ يتوجه نحو أفضل وسيلة لتبيان الفرق هيكليًا بين العصاب، والذهان، والشذوذ، ولهذا كان يميز الجوانب الأساسية للسلبية الكفيلة بجلاء ذلك الاختلاف، وبأن تكون نقطة دعم لإيجاد طابع آليات الدفاع قيد العمل في صميم تلك الميادين الثلاثة.

وكان أن وضع فرويد في 1923، تعريفًا لما أطلق عليه اسم الرفض أو التكذيب (Verleugnung)[678] لتوصيف آلية دفاعية عن طريقها يرفض المريض الاعتراف بحقيقة إدراك حسّي لا سيما غياب القضيب عند المرأة، إن فكرة الهلوسة السلبية، كما ابتكرها بيرنهايم، كانت مقبولة منذ فترة طويلة في الطب النفسي وهي عملة متداولة في الأدب: الاعتراف بحقيقة شيء لا وجود له كي يصار إلى إنكاره بصورة أفضل. بعد عامين من ذلك التاريخ، بمناسبة مراسلة مع رينه لافورغ بخصوص مسألة الإخفاء، عاد فرويد يؤكد بقوة اختياره لمصطلح «الرفض»[679] للحديث عن تلك الآلية الدفاعية، كما أنه قدم في الوقت نفسه مصطلحًا آخر، الإنكار (Verneinung)، لتوصيف آلية أخرى للدفاع، عن طريقها يعبّر المريض بصورة سلبية عن رغبة أو فكرة يكبت وجودها. على سبيل المثال، كما في عبارة «هذه ليست أمي» قالها أحد المرضى بصدد حلم، فالمكبوت تمّ

التعرف عليه بصورة سلبية من دون القبول به. كان فرويد يدمج الرفض مع عملية الذهان - إنكار حقيقة خارجية بالتوازي مع إعادة بناء حقيقة قائمة على هلوسة - كما أنه جعل من الإنكار خاصية مميزة للعملية العُصابية. لكن، كيف السبيل، ضمن هذا الإطار لتوصيف آلية الدفاع الخاصة بالشذوذ؟ وقد استخدم فرويد، لتقديم الجواب على هذا السؤال، فكرة الفصل (Spaltung)، الماثلة هي أيضًا في الأدبيات النفسانية، لا سيما عند بلولر، للإشارة إلى ظواهر تفكيك الوعي أو فقدان الترابط المؤدي إلى الجنون العقلي أو إلى اضطراب خطير في بناء الشخصية: الفصم، على سبيل المثال كما في الشيزوفرانيا - الفصام -.

في العيادة الفرويدية كان الرفض، بمعناه كإقصاء للواقع، سمة مميزة للذهان، بينما هو بمعناه كإنكار للواقع يُمثل صفة نوعية للعصاب، أما الرفض الخاص بالشذوذ فموقعه «بين الاثنين»، حيث إنه في الوقت نفسه يُعبّر عن فصل ينجم عنه التعايش، في صميم الأنا، بين موقفين متناقضين، أحدهما يُنكر الواقع والآخر يقبله، ضمن هذا المنظور، كان فرويد يُرجع التخالف إلى صميم الأنا (Ichspaltung)، بينما الطب النفسي الدينامي يجعله بين حالتين متضاربتين ويوصّفه كحالة عدم تناغم وليس كظاهرة بنيوية: وعلى ذلك، جعل من الشذوذ انتقالًا متواصلًا بين العُصاب والذهان، وذاك لأن العصاب يتضمن كبت متطلّبات الهو، وأن الذهان يتضفن رفض الواقع، أمّا الشذوذ فيتضمن فصلًا بين معرفة الشيء والاعتقاد به: «أعلم أن هذا الشيء موجود لكنني لا أريد أن أعلم عنه أي شيء»؛ أو «أعلم أن هذا الشيء لا وجود له لكنني لا أريد أن أعلم أي شيء عن عدم وجوده»، وفي رأي فرويد، المستعجل لإرجاع كل الأمور إلى سببية جنسية، فإن إنكار عدم الوجود لشيء يدل على أن المعني لا يريد أن يعلم أي شيء عن غياب القضيب عند المرأة وبالتالي فهو يوجد شيئًا آخر كبديل عنه، بما يتناسب وما يؤمن به.

لم يهتم فرويد أبدًا، كما حال الباحثين في المجال الجنسي، بوضع تصنيف للشذوذات الجنسية، لكنه لم يكن يستطيع ألّا يتناول هذا الموضوع، نظرًا لأنه تحديدًا كان يُعالج بالتحليل النفسي مرضى يصعب القول إن كانوا من المصابين بالذهان أم من الواقعين في الشذوذ. وعلى وجه الخصوص في مجال المتعلّقين بالأشياء تعلقًا وثنيًا، تلك الحالة المثيرة جدًا لشغف جميع المختصين بأمراض النفس. إذ، حسب مؤلف «الطوطم والتابو»، الذي كان يعشق الحيوانات والآلهة، والذي ينظر إلى البدائي على أنه طفل وإلى الطفولة على أنها مرحلة سابقة لسن البلوغ،

كان العشق الوثني بادئ ذي بدء شكلًا من أشكال الدين[680].

إن ما يتَّصف به هذا العشق تحويل حيوانات وجمادات إلى آلهة ينسب إليها قدرة سحرية، لكن، بما هو شذوذ جنسي، فهذا الدين الفردي ينقلب إلى مرض حين لا يستطيع المعني التعلّق إلّا بأشياء جامدة لا روح فيها وهي دائمًا موضع توقير باعتبارها أجزاء من جسم المرأة. بهذا المعنى، كان فرويد يعتبر التعويذة المعشوقة - حذاء، ثوب، أو حتى جزء من الجسم، كالقدم أو الأنف إلخ. - البديل عن قضيب، ويستخلص من ذلك بأنه لا وجود لوثنية نسائية، إذ عند النساء، على حد قوله الجسم بأكمله هو الذي يكتسب الصفة الوثنية وليس هذا الشيء أو هذا الجزء من الجسم، وبالتالي ليست الوثنية النسائية المزعومة غير تعبير عن إضفاء للنرجسية على الجسم. وهكذا كان فرويد على ما يبدو وكأنه يُنكر، إلّا في حالات نادرة، وجود نساء وثنيات بحق[681].

كان قد وصل به المطاف إلى هذه النقطة حين استقبل كارل ليبمان، كان يدرك أنه حيال حالة صعبة، وأنه على وجه الخصوص أمام شاب مُعذَّب يُريد والداه منه بكل قوة أن يتكيّف مع التطلعات الاجتماعية العالية جدًا التي رسموها له، ولذلك جرّب بكل الوسائل إعطاء معنى لما يُقاسيه من قلق، وهذيان، وممارسته الاضطرارية للعادة السرية، وتعلّقه الوثني بالأشياء. أثناء جلسات التحليل، بدلًا من البقاء خلف الديوان، ها هو يروح ويجيء في جميع الاتجاهات، ملتفًا من حول كلبته أو محزكًا سيجارةً متوجّسًا هو بالذات لأنه لا يجد مستندًا يُمسك من خلاله بالحالة المرضية عند ذلك المريض، وهذا الأخير أصبح حينذاك على اقتناع بأن الهر بروفسور يرفض النظر إليه كرجل حقيقي، كرجل ذكوري، حيث إنه لا يُقدم إليه أي سيجار.

في إحدى مراحل العلاج، انسجامًا مع فرضياته حول الفض الشاذ لغياب القضيب عند المرأة، شرح له فرويد بأن «تعويذته المقدّسة» هي محض بديل لقضيب أمه[682] وهذا تفسير ارتدائه لحفالة على أعضائه التناسلية، وأضاف بأن قطعة الثياب تلك تساعده على إخفاء أعضائه كليًا أي إنكاره لوجود اختلاف بين الجنسين. وبذلك فتلك «التعويذة المقدّسة» تُعبر حينئًا عن الفكرة بأن المرأة مخصيه وحين آخر بأنها ليست كذلك وأن الرجل مخصي. بتعبير آخر، إذا قبلنا فرضية فرويد، تكون وظيفة حفالة كارل التناسلية إخفاء جميع الأشكال الممكنة لغياب القضيب، وبالتالي إنكار وجود اختلاف بين الجنسين، وأضاف فرويد بأن ليبمان، في طفولته، لا بد أن قد شعر بصدمة حين اكتشف أن أمه ليس عندها قضيب، فهل

يكون تفكيره على الأرجح متوجهًا إلى ذكرى التهديد بقطع قضيبه؟

واستخلص من تلك القصة بأكملها أن كارل لا بد أن يكون قد رأى، في طفولته، تمثالًا قديمًا تختفي عنده المنطقة الجنسية خلف ورقة دوالي، وأن ذلك المشهد شكّل في أعماقه اللحظة الأولى لفكرة حفالته الحالية، وبعد تقديم هذا التأويل استنادًا إلى افتراض وجود «مشهد بدائي»، أعطى فرويد مريضه كارل أمرًا بالتوقف عن العادة السرية، فتلك في نظره الطريقة الوحيدة لفهم شيءٍ مما يجري معه: «أنا منهمك الآن بشدة، هكذا قال لبفيستر، بمطالبته بالامتناع قصدًا عن العادة السرية المقدّسة عنده كي أتأكد، بما يخصّه شخصيًا، من صخة كلّ ما خفنت بصدد طبيعة حفالته المقدّسة. غير أنه لا يريد أن يصدّق بأن هذا الامتناع سوف يُوصلنا إلى هذه النتيجة وأنه لازمٌ لتقدّم العلاج، ومن طرف آخر، نظرًا لارتباطي معه بمودة كبيرة، لا أستطيع حسم أمري وصرفه مجازفًا بأن تكون النتيجة مشؤومة. أنا إذن مستمرٌ معه، ولعلّه ينصرف حين أوقف بصورة قطعية عملي معه[683]».

مستندًا إلى قصة ليبمان أسرع فرويد بكتابة مقالة عن «الوثنية» - fetichisme - مقالة عن الوثنية يُعمم فيها الفكرة التي سبق له أن وضع خطوطها الأولية في كتابه عن ليوناردو دافنشي، والقائلة بأن وجهة «التعويذة الوثنية» - fetiche - ومعناها لا يتغيّر في جميع الحالات: «فالمقدّس البدائي الوثني بديلٌ للقضيب، وأسارع فأقول بأننا لسنا أمام أي قضيب لا على التعين وإنما نحن حيال قضيب محدد، استثنائي كليًا، وله دلالة كبرى في نظر بداية الطفولة وتختفي تلك الدلالة فيما بعد [...] بل سوف أقول بوضوح أكبر أن المقدّس البدائي الوثني هو البديل لقضيب المرأة (الأم) الذي آمن به الطفل الصغير ولا يريد التخلّي عنه لسبب نعرفه[684]».

كان فرويد قد سبق له إطلاق فرضية مشابهة في رسالة موجهة إلى يونغ، «بخصوص قَدَم أوديب المتوَرمة» حيث أشار إلى أن الأمر يتعلّق من دون شك بقضيب الأم المنتصب[685] وفي مقالته بتاريخ 1927، يُشير إلى تعويذة كارل المقدّسة بأنها مثل «غِمْد عفّة» (Schamgurtel) ويمكن استخدامها «سراويل سباحة».

لقد استمد فرويد قوةً من هذا التأويل، وظنّ أنه سوف يخفف عن مريضه، لكنّ هذا الأخير لم يستجب لهذا التخفيف واستمر يُمارس العادة السرية الاضطرارية. ولفترة من الزمن، اعتكف في حجرة فندقه منقطعًا عن العالم، بكلّ جلاء، كان فرويد مصيبًا حين فكّر بأن حفالة كارل هي حقًا

البديل عن عضو تناسلي، ولكنه أصرّ، عند الإشارة إليها، على استخدام الكلمة الألمانية القديمة Schamgurtel، والتي تعني حرفيًا: حزام الخجل، في تلك الحقبة، كانت هذه الكلمة تُحيلنا أيضًا إلى لباس مشتق من Sublicaculum اللاتينية، وهي الفوطة المطوية أو الملفوفة، التي تُغطي العضو الذكري والرديفين عند الرجال، وإذا علمنا بأن التحليل كان يدور باللغة الإنجليزية في جانبٍ منه يحق لنا التساؤل لماذا لم يترجم athletic support - الواقية الرياضية - بـ suspensorium - حمّاله -. وذاك لأن كارل، البعيد كل البعد عن ارتداء حزام خجل - لإخفاء الاختلاف بين الجنسين - كان على العكس يُعزي، بفضل تعويذته المقدسة، رمزًا لتلك العزّة الذكرية التي تُثير إعجابه الشديد عند الرياضيين الشبان في جامعته، وهو إنما كان يُخفي، تحت ثيابه، في واقع الأمر، ما يفتقر إليه أشد الافتقار: عضوًا يغطيه بغمد ويرفع بـ«قوقعة»[686]، فهل المقصود القضيب الناقص عند الأم؟ أصرّ فرويد على التمسك بهذا القول ولكن لا شيء يُبرهن على صحة قوله.

يمكننا في جميع الأحوال تخيل الصدمة الت شعر بها الشاب حين روى له فرويد بأن تعويذته المقدسة تعود به إلى مشهد بدائي اكتشف خلاله غياب القضيب عند الأم. يقينًا، لا بد أن يكون ذلك التأويل قد أعطى دلالةً لرعبه القديم حيال القضيب المقطوع، لكنه لم يكن يحمل أي صدى لما يُمثله ذلك الواقي المقدّس له، وهو الواقي المعروف تمامًا في المخيّمات الجامعية، لكنه استمع إلى قولة فرويد وهو منكِرٌ لها تمامًا. وأوّلَ فرويد رفضه كتعبير عن المقاومة. علمًا أنه تنبّه إلى وجود تحسّنٍ طفيف عند مريضه.

يمكن أن نتساءل ماذا ستكون ردة فعل ليبمان لو كان التأويل مختلفًا، ولو، بدلًا من اعتبار تعويذته المقدّسة حزام خجل، جعل منها فرويد رمز التباهي بالقضيب، حتى وإن لم يعد يعتبرها بديل القضيب الذي تفتقر إليه الأم، فهل أن الشاب، في تلك الحالة، كان سيرفض التأويل بكل ذلك العنف؟ لا أحد يمكنه الجواب على هذا، لكن في جميع الأحوال، يبدو تمامًا بأنه ما من نصيحة، ما من مساعدة، ما من علاج، ما من تأويل كان يمكنه التأثير على حالة ذلك الشاب، الغريب جدًا عن نفسه بالذات والمنطوي جدًا على التأمل الصوفي لدماره الشخصي.

لم يكن فرويد يريد أن يكذب، ولذلك توجّه إلى ماري ليبمان، وصارحها بأن ابنها مصاب بشيزوفرنيا بارانوية، وأن لديه مخاوف حياله، مستقبلًا، بمقدار ما لديه من أمل، واستمر التحليل لثلاثة أعوام من بعد ذلك. إن

فرويد من جديد، رغم تشاؤمه بشأن مآل العلاج والخشية التي تعتمل في نفسه من إمكانية قيام كارل بالانتحار، مذ ذلك العلاج، علمًا بأن الذهان بدأ يتفاقم، على الرغم من كلّ الجهد المبذول. وكان أن ازداد ليبمان تعلقًا بمحلله الشهير، وازداد غرقه في الجنون والهواجس على التوازي، وحين فهم فرويد بأنه، رغم كل الاهتمام بذلك المريض، لن يتمكّن من التخفيف عنه، أرسله إلى روث ماك - برونزفيك، لاقتناعه بأن المرأة قد تكون أصلح لإسماع صوتها، غير أنها لم تتوصل إلى نتيجة أفضل مما توصل إليه.

للمرة الأخيرة، في 1931، قام كارل بزيارة فرويد قبل إيابه إلى الولايات المتحدة. وتوقّف في باريس ليتعالج في جلسات قليلة عند رانك، الذي شخّص حالته بأنها صدمة ولادة. ونظّم والداه من يلاحقه ويرافقه لكنه سرعان ما اكتشف الأمر، وبعد تشرّدٍ وغرقٍ في البؤس المادي والنفسي، تحديدًا حين بدأت الأزمة الاقتصادية تتفاقم، رجع إلى أحضان العائلة كي يعمل عند أبيه كسوّاق.

بعد ذلك بفترة قصير، حاول الانتحار بطعن قفصه الصدري بسكّين صيد، وكان أبراهام بريل هو من اتخذ قرار إيداعه في العيادة الفخمة، عيادة ماكلين هارفارد، حيث يتم استقبال المرضى الأغنياء، كما في مستوصف بيلفيو، ولكنّ كارل ليبمان كان يريد متابعة علاجه التحليلي عند تلامذة فرويد من الأمريكيين، إذ أنه كان ما يزال يُجلّه، وعارضت أمه هذا الأمر، ولذلك راح يروي لكل من يريد أن يسمع بأن فرويد قد كشف له أصل مرضه: رؤية القضيب الناقص عند أمه، وقد تألّم كثيرًا بسبب غباء حياة الحبس تلك وراح يشتكي غالبًا من عبثية حياته المبرمجة على عجينةٍ يطلب منه تصنيع أشكال منها وعلى إلزامات قسرية بلعب البلياردو أو تصنيع أدوات فخارية. وبات يفضّل، على ذلك العذاب المرير، اضطراب سنواته في فيينا حيث سمع جميع ما يخطر على البال من قصص الأعضاء الذكرية الغائبة، أو الخجولة، أو المقطوعة.

مع مرور السنين وبعد أن حاول الهرب، تحوّل إلى حالة مشهورة، معانيًا من جميع المعالجات الممكنة المرتبطة بـ«التقدم» في الطب النفسي للمصحات: المعالجة بالكهرباء، مداواة التشنجات، جراحات في الفص الجبهي للقشرة الدماغية. من بعد كلّ ذلك ما كان له أن ينسى تعويذته المقدّسة، وحين يزورونه لسماع القصّة الأسطورية عن تداويه عند الهر بروفسور، وسط قطط الشوشو والسيجار، ها هو يكرّر ويعيد بأنه كان يقول كلّ يوم لأطبائه وممرضيه: «أنا قضيب أبي».

هكذا كان قدر ذلك المريض الفرويدي الذي لا يمكن نسيانه، ذلك الواقع

في الجنون والمستعصي على الشفاء، والذي لم تكن معالجته أبدًا مادةً لرواية حقيقية من طرف أيٍّ من معالجيه، لكنّ تلك المعالجة تظلّ حاضرةً بين السطور في كتاب، في رسالة، في أرشيف، كما هي الآثار الأركيولوجية للمضي قدمًا نحو الموت لحياتين متوازيتين، حياة فرويد وحياة ليبمان، فإحداهما مجيدة ظافرة، بينما الأخرى تقبع في الظلّ المعتم، نعم، لقد شعر فرويد، بدءًا من 1929، بالإرهاق في قيامه بعمله، لقد تزايدت أوجاعه بسبب السرطان والمعالجات التي تُفرض عليه، وقد بدأ جسمه يضمُر ولم يعد يتحمّل المعالجات الصعبة، في مجال التحليل النفسي، حتى عندما توفّر له البحبوحة المادية التي هو بحاجة إليها لرعاية أسرته، وأقاربه، وحركة التحليل النفسي، وسعيًا منه للترفيه عن نفسه، اشترك في مكتبة تديرها إيمي موبيوس وصديقته جيرتي فيرجيك، واسم المكتبة بالألمانية Fremdsprachige Leihbibliothek، ويتردّد عليها الدبلوماسيون والمختصون باستعارة الكتب باللغة الأجنبية، وهكذا فإن مينا، التي كان تزور المكتبة نيابةً عنه، بدأت توافيه بروايات بوليسية من تأليف دوروتي سايرز وأجاتا كريستي، وهي روايات سُحر بها وكان أن أصبحت إيمي حينذاك صديقة العائلة وظلّت كذلك حتى هجرتها إلى الولايات المتحدة[687].

كان المستقبل قاتمًا: أزمة اقتصادية في الولايات المتحدة، وصول نظام فاشي إلى الحكم في إيطاليا، صعود النازية في العالم الناطق بالألمانية. وها هي أوربا، مرةً جديدة، تبدو فريسةً لنزوة التدمير التي قام فرويد بتوصيفها على خير وجه، كان يُشير باحتقار إلى من يسميهم «رعاع الناس»: من مغفّلين، وحشود مسعورة، في حماقة الزمن الحاضر آنذاك. وفي يوليه/تموز 1930، كان ما يزال يحلم بجائزة نوبل حين منحته مدينة فرانكفورت جائزة غوته، ليس مكافأةً على أن «علم النفس الذي جاء به قد أغنى العلوم الطبية» وحسب، وإنما أيضًا لأن كُتبه أسهمت في مجال الآداب والفنون، وإذْ شعر بالفخر، صرّح بأن غوته لو كان حيًا لاهتمّ اهتمامًا مشغوفًا من دون أدنى شك باكتشاف التحليل النفسي.

كان هاجس الموت يزداد تسلطًا على تفكيره، وحين انطفأت شمعة أماليا، عن عمر خمسة وتسعين عامًا، بسبب غنغرينا رهيبة في الساق، عرف كيف يجد السلوان؛ لأنه كان يخشى أشد ما يخشى أن يأتيه النبأ بأن ابنه قد سبقه إلى القبر. ونظرًا لمعارضته للطقوس الدينية، فلم يحضر مراسيم الدفن والتعزية: لا حِداد ولا آلام. لكنّه على ذلك كان على يقين في أعماقه اللاشعورية، بأن ذلك الموت سوف يُزعزع حياته، ولكنّ ذلك لم

يحصل.

كان فرويد قد فقد أباه قبل أن يكون قد بلور أعماله، كما قُدر له أن يفقد أمه قبل تسعة أعوام من موته شخصيًا: فتحقق لها تأمل مجد ابنها « سيجي» المعبود. وقد دفنوها إلى جانب يعقوب حسب الشعائر اليهودية، وبعد ذلك بأيام قليلة، حضرت أدولفين لاجئةً إلى بيت برغاس. فكانت العون الرئيسي لأمها، وحمالة الأسى بالنيابة عنها أيضاً. ومنذ ذلك الوقت، تقلّصت أسرته إلى شقيقه، وشقيقاته، وأبناء الأشقاء. لقد استقبلها فرويد بحرارة وإن كان بصورة عامة، لا يعير شقيقاته الأربع أدنى اهتمام حين كنّ، في كل يوم أحد، يحضرن لزيارة مارتا ومينا.

في تلك الفترة، كان قد بدأ بكتابة Kurzeste Chronik - «التأريخ الاكثر إيجازًا»[688] وهو كتاب يُشبه يوميات حميمة غير مقيّدة بشكلٍ محدد وفيها يدوّن يومًا بيوم، مع وجود ثغرات ونواقص، الأحداث التي لها أهمية حسب رأيه: ما يحصل مع كلابه، مع مجموعة مقتنياته، التقلبات الجوية، الأمور العائلية، الوفيات، الزيارات، وأدق تفاصيل الحياة اليومية، الحالة السياسية الراهنة. وبذلك دشّن أسلوبًا سرديًا جديدًا، ما بين الكتابة الصحفية - الأخبار القصيرة - وكتالوغات الأسماء، والأشياء، واللوائح. إنه أدبٌ مصغّر، توصيفٌ دون زخارف للواقع الذي لا يروّج لأي تأويل.

على الرغم من المرض ما يزال محافظًا على جميع ملكاته الذهنية. إنه يزداد حبًا لأبنائه، وأحفاده، ونسائه: لو، وآنا، ومارتا، ومينا، ودوروتي، وماري، وخادمتيه آنا وماريا، وأضاف إليهن ثالثة عمرها سبعة وعشرون عامًا، وهي المربية القديمة لأبناء دوروتي، واسمها بولا فيختل. كانت مارتا ترتاح إليها. إنها ابنة طحّان سكّير من سالزبورغ، وقد وُضعت كخادمة منذ طفولتها ولم تُفكّر أبدًا بأن يكون لها بيت وأسرة. فهي تفرّ من الرجال كما لو أنهم طاعون بعد كل مغامرة جديدة تقع فيها. أمّا في بيت آل فرويد الطاعنين بالعمر، فقد شعرت بأنها وجدت أسرة حقيقية بديلة[689]. وهكذا كان الهر بروفسور يعيش في برغاس محاطًا بستّ نساءٍ، لكلٍّ منهن مهمة محدّدة تمامًا.

ناهيك أنه كان يلاحق بتيقظ الأمور الغرامية والزوجية عند باقي أعضاء أسرته: لا سيما قصص أبناء وبنات الأشقاء والشقيقات. وكان يبذل المال بسخاء لأحفاده كمصاريف يومية، وثمة محاوران جديدان، من اليهود كليهما، أصبح لهما آنذاك موقعٌ بالغ الأهمية في مراسلاته: ستيفان زفايغ، وهو كاتب من فيينا، ليبرالي ومحافظ ومطبوع بالعمق بطابع أوربي، وكان قد اكتسب شهرة في العالم قاطبة [690]، وأرنولد زفايغ، وهو

كاتب من برلين، صهيوني واشتراكي، وشيوعي، وقد جعل إقامته في فلسطين اعتبارًا من 1933. ولم يكن أيٌ منهما تلميذًا له، كما أن أيًا منهما لم ينتقل عند فرويد من صفة الصديق إلى صفة العدو.

كان ستيفان زفايغ يُرسل جميع كتبه مع إهداء إلى فرويد، ولا يكفّ عن تذكيره بمدى ما يدين له به الكتّاب المعاصرون - بروست وجويس وغيرهما -. لكنّ فرويد لم يكن يرد بشيء، وله أسبابه! فهو ما يزال غير معترفٍ بأعمالهم، ولهذا السبب كان أحيانًا يقسو على زفايغ، خاصةً حين كتب هذا الأخير دراسته المعنونة «الشفاء الروحي»، وفيها يستعرض على التوازي حياة ثلاث شخصيات: ميسمر، وفرويد بالذات، وماري باكر إيدي، المؤسّسة الأمريكية لجماعة «العِلم المسيحي»، والتي كانت تزعم شفاء الأمراض بالتأثير الروحاني والإيمان.

وإذا كان فرويد يتقبل الفكرة القائلة بأن ميسمر هو بالضبط المرشد، إلى ما هو أبعد من التأثير المغناطيسي، إلى طريقة الإيحاء، فهو لم يكن يعتبر نفسه وريثًا له. إنه، من جانبه، متمسكٌ إلى أبعد حد بتصوّر ميثولوجي وتطوّري للعلم التاريخي، ولهذا تحديدًا يصعب عليه التسليم بمقولة الديمومة الطويلة، التي أصبحت أثيرةً إلى نفوس المؤرخين. وأدهى الدواهي عنده، إبّان اشتعال المعركة المسعورة لصالح جماعة الـ Laienanalyse، هو أن يوضع في صفّ ماري باكر إيدي التي تجسّد كلّ ما تريد حركة التحليل النفسي، بحق، الوقوف على مبعدة منه، أحيانًا على عكس ما يرى فرويد بالذات. وها هو يردّ على الكاتب بأن ماري باكر إيدي قبل أي أمر آخر محض مريضة عقليًا: «نعلم بأن المجنون المسعور يُطوّر في أزمته قدرات غير متوافرة عنده في الزمن العادي. فالخروج عن العقل والجنوح الإجرامي في كلّ ما حدث مع ماري ب. إ. لم يبرز في تقديمك لها والتعريف بها، كما لم تتناول الخراب الذي لا يمكن وصفه في خلفية اللوحة الأمريكية[691]».

وأما اللوحة التي رسمها زفايغ عن فرويد، فلم يتعرّف هذا الأخير على نفسه فيها. وكان رأيه أن الكاتب يعتبره برجوازيًا صغيرًا، وعتب عليه لأنه نسي الإشارة إلى تفضيله علم الآثار على علم النفس، في حقيقة الأمر، كانت تلك اللوحة « المبنية وفق علم الطبائع» نوعًا من البناء الأدبي، في منتصف الطريق ما بين الخيال والواقع. فقد عمل زفايغ عل تحويل فرويد إلى مخلوق نوراني، مقدام، بصحة وعافية، شغّيل منعزل لا يعرف التعب، كما أنه يتحدّى الآلهة والبشر، وتتوقد فيه شجاعة لا تتزعزع. علمًا بأنه يصف التطور الحاصل على جسمه ووجهه بطريقة تُثير الاستغراب

بعفويتها البسيطة، مبيِّنًا التعارض بين سنوات الشباب وسنوات الشيخوخة، كما لو أنه أسقط عليه رفضه للمستقبل: « منذ أن بدأت عظام الوجه تبرز ولو بتشكيلٍ جميل، هكذا قال عن فرويد، بدأ ينكشف شيءٌ يُوحي بالقسوة، بالعدوانية التي لا جدال فيها: إنها الإرادة الصلبة، الثاقبة، شبه الغاضبة، والكامنة في طبيعته. أمّا النظرة الأعمق، والأشد تجهمًا، بعد أن كانت فيما مضى محض نظرة بسيطة متأملة، فقد أصبحت حادة وثاقبة[692]».

غالبًا ما كان زفايغ يلجأ إلى التقنية الفرويدية لفك طلاسم الأحلام وذلك باستخدامه للطريقة السردية التي يدمج بها القصة الرئيسية مع قصةٍ أخرى. أمّا قصته الرائعة الجديدة «أربع وعشرون ساعة من حياة امرأة»، المستوحاة من رواية بأسلوب الرسائل لكونستانس دو سالم، إحدى أميرات القرن التاسع عشر، وكانت تعقد في بيتها صالونًا أدبيًا، وهي الأخرى استوحت روايتها من «أميرة كليف»، فأرسلها إلى فرويد[693].

يدور محور تلك القصة حول العاطفة الغرامية المشبوبة لسيّدة إنجليزية متقدّمة بالعمر (مدام ك.) تبوح للراوي بإحدى ذكريات شبابها، بينما يُحاول هذا الأخير فهم سبب فرار امرأة أخرى مقيمة في فندق «الريفييرا». وقدّر فرويد عاليًا تلك القصة، لا سيما أنها تجعلك تُفكّر بعرضِ لحالةٍ يقوم الراوي فيها بدور المعالِج الذي يخلّص مريضةً من وطأة ماضيها. وتروي الإنجليزية بأنها سبق لها، قبل خمسة وعشرين عامًا، إنقاذ عازف بيانو شاب من تعلّقه بالقمار. لكنّه رفض حبّها، ثمّ لاذ بالفرار وتركها تعاني فيما بعد لسنوات طويلة من العلاقة الآثمة التي أقامتها معه وقلبت حياتها رأسًا على عقب، وقد علمت، بعد عشرة أعوام، بأنه قد انتحر.

في رأي فرويد، يدور محور القصة حول أمّ ترشد ابنها لتعلّم العلاقات الجنسية كي تنقذه من مخاطر الاستمناء، ولكنها تجهل بأنها هي بالذات مصابة بتثبيت ليبيدي متمركز على ابنها وسوف يُفاجئها القدر في هذا المكمن. وها هو فرويد يُضيف: «ما أقول هو محض شأنٍ تحليلي لا يحاول أبدًا إنصاف ما في القصة من جمالٍ أدبي[694]». حين كان فرويد يقبل بعدم إلصاق مذهبه على الكتابات الماثلة أمام نظره، فهو قادر على تقديم أفضل التأويلات، علمًا بأن دلالة القصة لها أهمية أكبر بكثير في نظره من الشكل، حتى وإن كان هذا الشكل مستلهمًا من كتاباته.

في هذه الأثناء، بدأ فرويد يعقد علاقة حميمة مع توماس مان، الرجل الذي يُجلّ بعمق ويعتبره روائيًا عظيمًا، من دون أن يكون له اطلاع حقيقي على أعماله. وفي 1929، كتب هذا الأخير أجمل نصّ خرج في يوم من

الأيام من تحت يده حول أعمال الهر بروفسور وشخصيته، وذلك في: «فرويد في تاريخ العصر الحديث وتفكيره[695]». ولم يتعرّف فرويد على نفسه في تلك اللوحة المتوهجة التي تجعل منه مبدّد الأوهام، وريث نيتشه وشوبنهاور، القادر على استكشاف جميع أشكال اللاعقلاني وعلى تحويل الرومانتيكية إلى علم. ولهذا فضّل القول بأن «مان» إنما يتكلّم عن نفسه وليس بالأحرى عن التحليل النفسي وعن مبتكره. «مقالة توماس مان فيها إطناب كبير، وتكوّن عندي انطباع لدى قراءتها بأنه كان يكتب دراسة عن الرومانتيكية حين طلبوا منه كتابة دراسة عني [...] وما همّ، فعندما يقول توماس مان شيئًا ما، ينتصب ما يقول واقفًا دون أي خلل[696]».

لم ينقطع فرويد أبدًا عن التفكير بأن يجعل من التحليل النفسي علمًا «خالصًا»، يمكن مقارنته بـ«حساب الصغائر»، ولهذا كان يخطئ خطأً جسيمًا بصدد الرومانتيكية الألمانية، التي يرفض أن يكون من ورثتها. وها هو توماس مان، بتاريخ مارس/أذار 1932 يقوم بزيارته الأولى إلى برغاس، حيث استقبلته مارتا ومينا استقبالًا حارًا، فهما من قارئاته المتحمسات، ويعتبرنه مواطنًا وُلد، مثلهن، في شمال ألمانيا.

وفي الحقبة نفسها، انبثق «عدوّ» جديد في محيط فرويد من أبناء فيينا، ويلهيلم رايخ، وهو ابن عائلة يهودية من غاليسيا، ماركسي وفرويدي على حد سواء، وهو أميل إلى أن يكون طبيبًا للجنس من أن يكون محللًا نفسيًا. لمدة عشرة أعوام، احتلّ الموقع المسند إلى تلك السلالة من الأطباء المجانين - فليس أو أوتوغروس - والتي يبدو وجودها كأنه يواكب تفتح حركة التحليل النفسي. من بينهم، كان رايخ الأكثر إثارةً للاهتمام، والأكثر غزارةً: «عندنا هنا الدكتور رايخ، هكذا كتب فرويد إلى لو في 1927، إنه رجلٌ سليم القلب، لكنه خير مهاجم يمتطي خيول القتال وهو الآن يمجّد في الأورجازم الجنسي الترياق الشافي من كل عُصاب»[697].

فرويد ذاك، فرويد سنوات 1930، فرويد بشمسه الغاربة، هو من كرّس له لوحة دموية عنيفة، غير مألوفة، وذات تعصب لاسع، يوليوس تاندلر، أستاذ التشريح الكبير، من اتباع البقاء لأصحاب الصحة والعافية، والقائلين بـ«إبرة الرحمة» وبالقضاء على «كل حياة غير جديرة بأن تعيش». إنه من مورافيا وكان، كما رأينا، من المشتركين بإطلاق التحليل النفسي في فيينا، لكنه يرى في فرويد الجانب القاتم منه بالذات، النسخة الثانية الإشكالية عنه إلى حد ما، لكنهما متساويان بانتمائهما إلى فيينا، وها هو في دفتر له،

حفظه بعيدًا عن الأعين، يصفه كعجوز بدائي قادر على تحطيم أوهام البشرية جميعها، كـ«سفّاح للقيم»، أوتوقراطي محلّق يمتلك تحكمًا لم يسبق له مثيل باللغة الألمانية. إنه زعيم، رجلٌ قاسٍ بحق، كان يمكن أن يكون بسمارك لو لم يكن يهوديًا. وهو في جميع الأحوال رجل استثنائي، متعته، كما لو كان تحرّيًا، نصب الأفخاخ لمن يحاورهم من خلال محاكمات عقلية عبقرية، مثلما أنه وُهب حياة نزوية مقموعة باستمرار، ويُفتّش عن «مطاردين للجنس» (sexus)، مواظب، مُعاند، مُحاجج لا يلين، ويقوم بتشريحٍ دموي قاسٍ للقسوة البشرية الدامية، متفحّص في عزلة، كما لو من وراء يهوذا، لعالمٍ ممقوت.

هذا «الفرويد» الذي قدّم تاندلر وصفًا عنه يبدو كما لو أنه خارج مباشرةً من إحدى روايات توماس مان أو تولوستوي، كنفسٍ معذبة، وطبيعة حيّة متوثّبة مشبعة بطاقة حيوية لا حدود لها وبروحانية فيّاضة: «عِرقٌ قدير، صلابة داخلية عظيمة، حيوية جدّ جيّاشة تُضفي على ذلك العجوز نظرة الشباب الثاقبة. هذا الرجل المتقدم بالعمر، المتقدم حقًا بالعمر، عنده دائمًا اندفاعات مشبوبة لكنه يُعاني من لجم عنان إرادته. [...] حين يُقيم بنيان منظومة، نجد فيها منطقًا طبيعيًا، وحين يبني هذا الرجل أي شيء، يشعر المرء بأن أحجية ً حياتيه قد تمّ حلّها، ودائمًا ينبع ذلك البناء من ذهنٍ متوقّد بوهجٍ لا مثيل له[698]».

لم يعرف فرويد أبدًا ما كتب صديقه عنه. ولكنه، في «التأريخ شديد الإيجاز»، في 7 نوفمبر ت2 1929، دوّن ما يلي تحت عنوان «حوادث معادية للسامية»: «في صبيحة هذا اليوم، هاجم نفرٌ من الطلّاب النازيين يوليوس تاندلر، أمام معهد التشريح بهتافات: الموت لليهود». وفي أكتوبر/ت1 1931، قدّم إليه فرويد دعمه المالي حين نظّم «معونة الشتاء» من أجل مساعدة ضحايا الأزمة الاقتصادية. توفّي تاندلر في موسكو بتاريخ 1936، بينما كان يؤدي هناك مهمة إنسانية، وعلى عكس فرويد حظي بالعرفان الجميل على أعماله المتنوعة، وأطلقت سلطات فيينا اسمه على إحدى أشهر ساحات العاصمة الإمبراطورية القديمة: Julius Tandler Platz - ساحة يوليوس تاندلر - ترى من هو المسافر من القرن الحادي والعشرين الذي سوف يتذكّر الدور الذي قام به ابن فيينا بامتياز في حياة فرويد؟

---

651 هنري إيلينبرجر، «تاريخ اكتشاف اللاشعور»، المصدر السابق. لا سيما الصفحات الجميلة جدًا المخصصة لتاريخ الطب النفسي الديناميكي من

ميسمر إلى فرويد.

652 انظر جورج باتاي، «الجانب الملعون»، في «الأعمال الكاملة»، الجزء السابع، باريس، غاليمار، 1976، عالجتُ هذه المسألة في «المريض، والمداوي، والدولة»، باريس، فايار، 2004.

653 نلفت الانتباه إلى أن أوديب في مسرحية سوفوكلس، بعد جريمته، انتقل من منزلة الحكيم والمستبد إلى منزلة النَجاسة وكبش الفداء.

654 Laienanalyse يجب أن نترجمها في الفرنسية بـ«التحليل غير الاختصاصي - Profane». علمًا بأن laien تعني بالألمانية في الوقت نفسه علماني، وهاوٍ ودنيوي - غير اختصاصي في تعارضٍ مع ما هو مقدّس. أما باللغة الفرنسية، فإن تعبير «Laïc- لاييك» تحيلنا إلى المثل الأعلى الجمهوري حول الحياة المدنية، وهذا ما لا يتناسب مع قضية المعارك التي شبّت حينذاك لصالح التحليل النفسي الذي يزاوله غير - الأطباء.

655 يجب أن نذكّر أن ويل هيلم ستيكيل بأنه سوف يقتل نفسه بلندن بتاريخ 1940.

656 بيتر غاي يُقدّم رواية جيدة عن هذه القضية. انظر أيضًا هارالد ليوبولد - لوفنثال، «دعوى تيودور ريك، وسوزان هينين - وولف، النقاش»حول التحليل غير الاختصاصي في مجلة Zeitschrift fur psychoanalyse de l’annee 1927، المجلّة العالمية لتاريخ التحليل النفسي، 3، 1990، ص 56 - 88. واليوميات العالمية للتحليل النفسي، 1927. حول الجدل الفرنسي، انظر JL - HPF، المصدر السابق.

657 انظر ريتشارك ستيربا، «ذكريات عن محلّل من فيينا» (1982)، تولوز، بريفا، 1986، ص 66 - 67. وتيودور ريك، «عالم النفس رهن المفاجأة» (1935)، باريس، دونويل، 2011. أنا هنا أعود إلى بعض عناصر مقدّمتي للطبعة الثانية لهذا الكتاب.

658 انظر باسكال هاشي، «المحلّلون النفسيون وغوته»، باريس، آرمتان، 1995. وكان كورت إيسلر هو من وضع أهم دراسة عن غوته، إذ خصّه بألفي صفحة لجلاء حقبة تمتد عشرة أعوام في حياة الشاعر والتي اعتُبرت تدشينًا لحقبة جديدة من الإبداع: «غوته: تحليل تأويلي لعقد في حياته» (1776 - 1786)، من مجلّدين، ديترويت، مطبوعات جامعة واين 1963.

659 سوف يُهاجر إلى فلسطين في 1938 كي يلحق بماكس إيتنغون.

660 سيغموند فرويد، رسالة بتاريخ 8 مارس آذار 1925، (المراسلات)،

المصدر السابق، ص 389 - 390.

661 سيغموند فرويد، «مسألة التحليل غير الاختصاصي»، المصدر السابق. مع مقدّمة ممتازة لجان - برتران بونتالي وخاتمة بقلم ميشيل شنايدر حول المجادلات الدائرة.

662 رسالة بيرنفيلد إلى آنـا فرويد بتاريخ 23 نوفمبر/ ت2 1937، المجلة العالمية لتاريخ التحليل النفسي، 3، 1990، ص 335.

663 حول المجادلات الكبرى الفرنسية، انظر HPF - JL، المصدر السابق.

664 يجب أن نُشير إلى أن الديانة التوحيدية الثالثة، الإسلام، تكاد تكون غائبة عن أعمال فرويد، حتى وإن كان يجعلها أحيانًا كمرجع. انظر فتحي بن سلامة، «التحليل النفسي رهن امتحان الإسلام»، باريس، أوبييه، 2002.

665 هنري أنستيتوريس وجاك سبرينجر، «مطرقة الساحرات» (1486)، باريس، جيروم ميون، 2005. كان فرويد قد رجع إلى هذا الكتاب باللاتينية لكنْ لديه ترجمة ألمانية له.

666 سيغموند فرويد، «أفعال هُجاسية وممارسات دينية» (1907)، في «الدين»، باريس، غاليمار، 2012، ص. 91 - 118. «عُصاب شيطاني في القرن السابع عشر» (1923)، في الغرابة المقلقة ودراسات أخرى، المصدر السابق، ص 265 - 320.

667 أفضل تعليق على هذه المقاربة هو ما جاء عند ميشيل دو سرتو، «كتابة التاريخ»، باريس، غاليمار، 1975، ص 291 - 312.

668 انظر «الدين»، المصدر السابق، ص 134 - 235.

669 سيغموند فرويد وساندور فيرينتزي، «المراسلات»، الجزء الثالث: 1920 - 1933، المصدر السابق، رسالة فرويد بتاريخ 26 يناير/ ك2 1927، ص 330.

670 مراسلات فرويد مع بفيستر، وهي منشورة باللغة الفرنسية في دار غاليمار بتاريخ 1966، لكنّها غير كاملة ولا يُمكن الوثوق بها إلّا قليلًا. وليس فيها فهرس، هناك طبعة جديدة قيد التحضير.

671 دانييل ميلود - كاب، «فرويد وحركة التربية على أساس التحليل النفسي»، 1908 - 1937: أ. إيخورن، هـ. زوليجر، و. بفيستر، باريس، فران، 2007.

672 انظر «قاموس التحليل النفسي» المصدر السابق.

673 أوسكار بفيستر، «وهم مستقبل» (1928)، «المجلة الفرنسية للتحليل النفسي»، 40، 3، 1977، ص 503 - 546.

674 «رسالة إلى رومان رولان»، 20 يوليه/تموز 1929، حول العاطفة المشبوبة، انظر HPF - JL، المصدر السابق علمًا بأن فرويد كان يحب موزار.

675 انظر ميشيل دو سرتو، «الخرافة الصوفية»، باريس، غاليمار، 213، الجزء الثاني، ص36.

676 وهو «لباس داخلي» مفتوح أو مغلق على الردفين، ومعه قوقعة مهمتها حماية أو دعم الأعضاء التناسلية للرجل أثناء المسابقات الرياضية. وهذا اللباس يمكن ارتداؤه كمايوه للسباحة ويرمز إلى الاعتزاز الذكوري وباللغة العامية في أمريكا، في المخيمات كانوا يطلقون على هذا اللباس اسم Jocqstrap.

677 قمت بإعادة تركيب قصة كارل ليبمان انطلاقًا من الحكايات التي أسز بها هو شخصيًا لأطبائه النفسيين بعد 1935، أثناء إيداعه في مستوصف ماكلين هارفارد للعلاج النفسي: وهي موجودة في ملفه الطبي. بالإضافة إلى بعض الرسائل المتبادلة بين يوليوس وماريا ليبمان مع فرويد وارشادات ليوبولد ستيغ ليتز، طبيب العائلة. كما استشرت رسائل فرويد إلى بفيستر وفيرينتزي وهذا الأخير قدم رأيه الخاص بتلك الحالة. انظر دافيد ج. لين، «تحليل فرويد لرجل ذهاني، 1925 - 1930» (1993)، والترجمة الفرنسية هي بقلم برادو دو أوليفيرا، «شبكة: الاستماع لحالات الذهان علاجية»، 16، الجزء الأول، 2007، ص. 109 - 122. وأيضًا أليكس بيم، Gracefully Insane: The Rise and Fall of America's Premier Mental Hospital، نيويورك، الشأن العام، 2003، الفصل 6، ص 93 - 117. انظر أيضًا حديث يوليوس ليبمان مع كورت إيسلر، 6 فبراير/شباط 1954، مكتبة الكونجرس، صندوق 114، بطاقة 16. غالبًا ما يُشار إلى كارل ليبمان بالأحرف الأولى «أ.ب.، الشاب الذُهاني». ونشير هنا إلى أن مايكل بورخ - جاكبسن يقدم الرواية يبالغ فيها بالانتقاص من بعد نظر فرويد حول الجانب المأساوي في هذا العلاج. انظر «مرضى فرويد»، المصدر السابق.

678 سيغموند فرويد، «التنظيم التناسلي للحياة الجنسية الطفولية» (1923)، في «الحياة الجنسانية»، المصدر السابق ص 113 - 116. استخدم هذا المصطلح للمرة الأولى في 1914 في «مدخل إلى النرجسية».

679 سيغموند فرويد «النفي» (1925)، في OCF.P، الجزء السابع عشر،

المصدر السابق، 165 - 171. لقد فضلتُ ترجمة جان هيبوليت في 1956، والتي عاد إليها أوليفيه مانوني: «الإنكار». حول هذا الجدل الذي دام طويلًا وانتهى عند لاكان بتأسيس مفهوم «الطمس»، انظر HPF - JL، المصدر السابق.

680 أولُ وصفٍ للعشق الوثني ورد عند القاضي الفرنسي شارل دو بروس (1709 - 1777)، وجرى تحويله إلى مفهوم ذهني على يد ألفريد بينيه (1857 - 1911).

681 لا سيما إليزابيث باثوري (1560 - 1614)، الكونتيسة الهنغارية الشهيرة المقتنعة بأنها إذا اغتسلت بدم نساء أخريات سوف تحتفظ بشبابها. انظر إليزابيث رودينسكو «الجانب المظلم في أنفسنا»، المصدر السابق، ومن النساء من تكون تميمتهن المقدسة جسم طفلهن أو أجزاء من جسمهن.

682 لا يميّز فرويد بين «peneis» و«phallus»، ويستخدم الكلمتين بمعنى قضيب، عند الطفل والبالغ.

683 رسالة فرويد بتاريخ 11 أبريل/نيسان 1927، «مراسلات فرويد مع رجل الدين بفيستر»، 1900 - 1939، المصدر السابق، ص 160.

684 سيغموند فرويد، الوثنية: «العبادة البدائية» (1927)، في «الحياة الجنسية»، المصدر السابق، ص 134 - 137؛ OCF.P، المصدر السابق، ص. 123 - 133، في «ثلاث آليات دفاعية»، ترجمة أوليفييه مانوني، باريس، سلسلة «مكتبة بايو الصغرى»، 2012، ص 69ـ 81.

685 سيغموند فرويد وكارل غوستاف يونغ «المراسلات»، الجزء الأول: 1906 - 1909، المصدر السابق، رسالة تاريخها 15 أكتوبر/ ت1 1909، ص 346.

686 تُرجمت schamgurtel بالفرنسية إلى «غمد عفّة» أو «ساتر - جنسي». لكنّ أوليفييه مانوني كان الوحيد الذي لاحظ أن تلك الكلمة تُحيلنا إلى الـ sublicaculum الذي كان الرومان يرتدونه، بينما هو، في يومنا هذا، يُشير إلى لباس سادو - مازوشي مؤلّف من أحزمة جلدية مع فتحة عند الأعضاء الجنسية، وفي «الطبعة الاكمل» ترجمة جيمس ستراشي وجوانا ريفيير الكلمة بما يُعادل تمامًا كلمة «حمّالة» وهو ما لا يمت بصلةٍ إلى «حزام خجل» أو «غمد غفّة».

687 رسالة إيمي موبيوس إلى كورث إيسلر بتاريخ 11 سبتمبر/أيلول 1952، مكتبة الكونجرس، الصندوق 21، البطاقة 8.

688 «التأريخ الاكثر إيجازًا، دفاتر حميمة»، 1929 - 1939، المصدر

السابق.

689 ديتيلف بيرتلسون، أسرة فرويد يومًا بيوم «ذكريات بولا فيختل» (1987)، باريس، PUF، 1991. وقبل الحرب العالمية الأولى، حين كان أبناؤه صغار السن ويعيشون معه، كان بخدمته أربعة أشخاص.

690 لقاؤهما الأول يعود إلى 1908. ستيفان زفايغ، «نداءات إلى الأوروبيين» (1932 - 1934)، وقد ترجمها وقدّم لها جاك لو ريدر، باريس، بارتيلا، سلسلة «أوبينا بوش»، 2014.

691 سيغموند فرويد وستيفان زفايغ، «المراسلات»، المصدر السابق، رسالة فرويد بتاريخ 17 فبراير/ شباط 1931، ص74. ستيفان زفايغ، «الشفاء الروحاني» (1931)، باريس، كتاب الجيب، سلسلة «بيبليو - إيسي»، 2012.

692 «الشفاء الروحاني»، المصدر السابق، ص 52.

693 نُشرت ملفات ستيفان زفايغ في مجلّدين في دار غاليمار، بتاريخ 2013، ضمن سلسلة «مكتبة لا بلياد»، بإشراف جان - بيير لوفيفر.

694 سيغموند فرويد وستيفان زفايغ، «المراسلات»، المصدر السابق، رسالة فرويد في 4 سبتمبر/أيلول 1926، ص. 48. وسوف يقدم فرويد شروحًا أخرى حول عدد من قصص زفايغ.

695 توماس مان، «فرويد في تاريخ العصر الحديث وتفكيره» (1929)، باريس، أوبييه - فلاماريون، 1970، طبعة بلغتين، ص 107 - 149.

696 لو أندرياس - سالومي، «مراسلات مع سيغموند فرويد»، المصدر السابق، رسالة فرويد بتاريخ 28 يوليه 1929، ص 225.

697 لو أندرياس - سالومي، «مراسلات مع سيغموند فرويد»، المصدر السابق، رسالة فرويد بتاريخ 9 مايو/أيار 1928، ص 216.

698 سوف يقوم كارل سابليك بنبش هذه المذكّرات في 1985: «فرويد ويوليوس تاندلر، علاقة غامضة»، «المجلّة العالمية للتحليل النفسي»، 3، 1990، ص 96.

الفصل الثاني
في مواجهة هتلر

في 2007 كرّس مارك إيدموندسن، وهو جامعي أمريكي، كتابًا جميلًا عن السنوات الأخيرة من حياة فرويد، وفيه يعود إلى فكرة أثيرة عند المؤرخين - وعند توماس مان - حيث أقام توازيًا بين حياتين من «العصر الجميل»: إحداهما، مشينة، وهي حياة الشاب أدولف هتلر، وكان عمره عشرين عامًا في 1909، والأخرى، مشرقة، وهي حياة شخص اسمه سيغموند فرويد، في عنفوان ارتقائه إلى سدّة المجد، فالأول سوف يصبح أكبر مجرم على مرّ الزمان، محطّم ألمانيا، قائد الإبادة الجماعية لليهود وللبشرية في جوهرها الأصيل، أما الثاني، فهو المفكر الأكثر شهرة في القرن العشرين والأكثر إثارةً للجدل: «تقريبًا في جميع الجوانب، كما كان يقول إدموندسن، كانا ما كان يمكن للشاعر وليام بلاك أن يسمّيه: العدوّان روحيًا[699]».

وُلد هتلر في وسط فلاحين انحطت معيشتهم، وأساء معاملته أبٌ غبيّ وعنيف كان قد تزوج من ابنة عمه الشقية في حياتها معه، ولذلك شعر الشاب هتلر بكراهية حيال العالم قاطبةً وخاصةً حيال النمسا التي كان يحلم أن تتمكن، في يوم من الأيام، من الهيمنة على ألمانيا بأكملها، في لينتز، حيث كان يتابع دراسته الفاشلة باستمرار، كان في المدرسة نفسها يهودي سوف يصبح فيلسوفًا مشهوزا، لودفيغ فيتنجنستين ويكرهه هتلر منذ ذلك الوقت، بعد أن انجرف في خضّم رموز وأناشيد القومية الألمانية الشمولية، والتي سوف يجعل منها لاحقًا رأس الحربة في معركته مع اليهود، وهكذا كان معارضًا لقومية أبيه، المتعلّق تعلقًا شديدًا بعظمة إمبرطورية الهابسبورغ.

بعد وفاة والديه حضر هتلر إلى فيينا على أمل كسب ثروة كرسام ومهندس عمارة، ولكن كان نصيبه أن رُفِض قبوله في أكاديمية الفنون الجميلة لمرتين على التوالي، وهذا ما عزّز كراهيته لعالم الثقافة، والفنون، والفكر. كان مقتنعًا بأنه عبقري، وغالبًا ما يتردد على دار الأوبرا، متنكرًا كشاب من الطبقة العليا، كي يستمع بحماسة إلى موسيقى فاغنر. غير أنه مع ذلك كان يحتقر تلك المدينة «الجامدة»، العامرة بشعورٍ يحدّثها عن موتها القريب، كما كان يبتعد عن «أوبئتها» المزعومة: الدعارة، الانفلات الجنسي، الهستيريا، الأدب اللاأخلاقي، المثلية الجنسية، التصوير والعمارة المنحطين.

باختصار، كان هتلر يرفض كل ما تقدم تلك المدينة من جدة، يجد نفسه مبعدًا عنها، كان خاملًا، مجردًا من المواهب، مفضلًا العواطف على التفكير، ولذلك كان يعشق الحيوانات كي يزيد من كراهيته للبشر. لم يكن يأكل اللحم أبدًا، ولا يشرب النبيذ أو الكحول، وهو على يقين بأن التبغ من أشد الأوبئة فتكًا بالشعوب. من أعماق بؤسه، كان يعتبر نفسه أنسنيًا لامعًا، وشاعرًا محلقًا، ويتوجه تفكيره إلى إعادة رسم فيينا كي يحولها إلى فردوس جدير بإنسانية ذات ملامح جديدة، كما كان أيضًا متعلقًا بذلك الطب الألماني الذي يسعى إلى تحقيق صحة الأجسام والذي سوف ينتهي أخيرًا إلى الفصل العنصري.

مختصر القول، كان هتلر يجمع كل الأمراض النفسية التي يمكن أن تجعل منه المريض الأمثل في فيينا، حالة خارجة بخط مستقيم من مصطلحات كرافت - إيبينغ، منقحة بعد مراجعة على ضوء «ما وراء مبدأ اللذة»: «لو تقاطع طريق هتلر وفرويد في الشارع، ذات عصر يوم من خريف 1909 البارد، هكذا يتابع إيدموندسن توصيفه، فما الذي سوف يريانه؟ بخصوص هتلر، لا بد أن فرويد سوف يرى أقل من نكرة، جرذ مجارير (لأنه ليس من الشعبيين)، لكن لا بدّ له بالتأكيد أيضًا من أن يشعر بشيء من الأسى أمام منظر ذلك البائس. وهتلر، من جانبه، كان سيرى في فرويد برجوازيًا من فيينا (وهو يحتقر الطبقة الوسطى العليا)، وكان سيتعامل معه بوصفه يهوديا. ولشعوره بالخجل، بسبب ارتدائه معطفًا باليًا وحذاءً مثقوبًا، لا بدّ أنه كان سينسحب منكفئًا، ولو كان وضعه أسوأ، إذن لمدّ يده متسولًا، وأما بشأن فرويد، في هذه الحالة، تبرّع أم لم يتبرّع بشيء - كان يمكن أن يتبرّع نظرًا لطيبة قلبه - فالأمر واحدٌ في الحالين: فذلك اللقاء لا بد أنه كان سيترك أدولف هتلر الشاب في حالة عظيمة من التهيج الحانق»[700].

في عام 1925، حين نشر هتلر «كفاحي»، أكّد على أهداف الكراهية عنده: اليهود، الماركسيين، معاهدة فرساي، التأثيرات الداخلية كما توصف، وقد أعلن بقوة ما يزعم أنه سوف يصير إليه: قائد رايخ جديد مطهّر من كل عفونة التفسخ المزعوم، وأن يكون قائدًا قادرًا على أن يثأر من المنتصرين في الحرب العالمية التي أذلت ألمانيا، في ذلك التاريخ كان يمتلك كل صفات القائد كما وصفه فرويد في «سيكولوجيا الجماهير وتحليل الأنا»: ذاك الذي ليس بحاجة إلى أن يحب أحدًا، وتلك هي الحالة القصوى من الجنون النرجسي، من إنكار وجود الغير ومن الانطواء على الذات. وكان في تدهور الوضع السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي لأوربا

- وفوق ذلك تدهور العالم الناطق بالألمانية، الكفاية المطلوبة لتوفير إمكانية مجيء مثل تلك الشخصية. كان فرويد قد فكر بالأمر تفكيرًا تجريديًا دون أن يتخيل ولو للحظة واحدة إمكانية وجود تلك الشخصية متخفّية في ملامح الرجل الذي سوف يستولي على مقاليد السلطة في ألمانيا، بعد اثني عشر عامًا من ذلك التاريخ.

في 1939، قبل ثمانية وستين عامًا من ذلك التوصيف الرائع من طرف إيدموندسن، كان توماس مان، المنفي في الشاطئ الغربي للولايات المتحدة، قد سبق له التفكير بتلك الحالة لحياتين متوازيتين، حياة الوحش وحياة الحكيم، حين نشر دراسة غريبة ذات إلهام فرويدي أثارت جدالات عديدة: «Bruder Hitler - (الأخ هتلر)[701]»، كان يعلم بأن فرويد مقيم حينذاك في لندن، تحيط به أسرته، وأنه لم يعد أمامه من العمر سوى أشهر قليلة.

على نقيض برتولت بريخت وغيره من المنفيين الألمان، رفض مان أن يضع في تعارضٍ جذري ألمانيا التنوير - Aufklarung - وألمانيا الهتلرية البربرية. يقينًا، كان يعلم حق العلم بأن ألمانيا غوته كانت على اختلاف كبير مع ألمانيا النازيين ولكنه يشعر حيال «الوحش» بفضول حقيقي كحالة مرضية ويسأل نفسه كيف أمكن حدوث مثل هذا الانقلاب في القيم في إحدى أكثر البلدان تحضرًا في أوربا. كيف كان بالإمكان أن يصل إلى السلطة - وضمن جميع ضوابط جمهورية فيمار والإمبراطورية البسماركية القديمة - ما يناقض ما كان العرف الثقافي الألماني يجله أكبر إجلال: المعرفة، الكفاءة، العلم، الفلسفة، التقدم؟ فهتلر «فاشل»، «مشرّد في مصحة عقلية»، «تائه» (Vernuzung)، «فرخ بظ خسيس»، يظن نفسه طائر البجع، «مُشعوَذ»، «الفارس لونغرين في كواليس مطبخ»، هكذا كان توصيف مان، باختصار، هو نقيض كل ما جاءت به البروتستانتية من أخلاقيات على مدى عقود طويلة من الزمن، وما أبدعته حقبة التنوير من أرفع أشكال التمدن، ولكنه نجح في السيطرة على شعب من حيث فشل الحزب الاشتراكي الديمقراطي: «اطردوا هتلر، هكذا كان مان قد كتب في 1933، هذا البائس، هذا المحتال الهستيري، هذا اللا- ألماني ذي المنبت الوضيع، هذا الفارس بالتلاعب بالسلطة، الذي يتمثل كل فنه في البحث عن الوتر الحساس عند شعب للاشتغال عليه بموهبةٍ مقرفة وإثارته إلى حدود النشوة الفاحشة بفضل موهبة خطابه دنيئة إلى حد لا يصدق»[702]. ولهذا السبب كان مان يرفض، مصيبًا، إجراء أي مقارنة بين هتلر ونابليون: «إنه لأمرٌ خارج عن المعقول ويجب منعه: التلفّظ باسم نابليون وهتلر في

وقتٍ واحد، مقارنة رجل الحرب الكبير والجبان الكبير، معلم المراوغة بالسلام، ذاك الذي كان يمكن لدوره أن ينتهي، منذ أول يوم لمعركة حقيقية، مع الذي أطلق عليه هيغل اسم /روح العالم/ على صهوة حصان، العقل الكبير الذي كان يسيطر على كل شيء أكبر طاقة في العمل، تجسيد الثورة، الحاكم بأمره وهو يرفع لواء الحرية، والذي يبقى اسمه منقوشًا في ذاكرة البشر، كتمثال من العاج عن الكلاسيكية المتوسطية، فأين منه ذلك الخامل التعيس، ذلك الفاشل، ذلك الحالم من أسفل سافلين، ذلك الأخوت الذي يكره الثورة الاجتماعية، ذلك السادي المشؤوم، ذلك الحقود المجرّد من الشرف[703]...».

كي يشرح ذلك الانقلاب الذي حوّل وحشًا قادمًا من العدم إلى ديكتاتور لنظام جرماني جديد، يشير توماس مان إلى وجوب النظر إليه كـ«أخ» معكوس، أي أنه الجانب اللاشعوري في الثقافة الألمانية، الجانب الظلامي، اللاعقلاني إلى الحد الذي وصف به فرويد ما يمكن أن تكون عليه كلمة «النزوة»: إسقاط شديد الفعالية للاشعور على الواقع، وبدلًا من إغماض العين عن هذا الأخ المسخ المشوه، يطالب مان معاصريه بالنظر إلى الداء مجابهةً كي يكون بالإمكان معارضته بعقلانية لا وهم فيها[704] ثم يضيف: «مثل هذا الرجل لا بدّ أن يكون على كراهية للتحليل النفسي! وأشتبه بيني وبين نفسي بأن الشراسة المسعورة التي هاجم بها إحدى العواصم إنما كانت موجهة بالعمق إلى المحلل النفسي العجوز الذي مزّق قناع العُصاب، إلى المبدد العظيم للأوهام، إلى ذلك الذي يعلم ماذا يُجابه والذي يعلم الكثير عن حقيقة العبقرية[705]».

هتلر: هكذا كان الرجل، كما وصفه مان بتعابير فرويدية، والذي سوف يكون ألدّ عدوّ لمبدِّد الأوهام العظيم ولمدينة فيينا، المهد الأول للتحليل النفسي.

ومرةً جديدة على نقيض توماس مان، استغرق فرويد وقتًا طويلًا قبل أن يفهم بأن الأمر يتعلق بحربٍ من نمطٍ جديد، فما هي حربٌ بين الأمم وإنما هي شيءٌ كأنه التعبير تمامًا عن مبدأ التدمير الهادف، إلى إبادة «عرقٍ» مزعوم («الساميين»)، وإلغاء الجنس البشري، كي يحل محله «عِرقٌ» آخر («الآريون»)، المسموح له من دون سواه بالوجود على سطح الكوكب، ألم يؤكد، في 1915، بأن الحرب العالمية، الناشئة عن القومية وتقدم تقنيات التدمير الجماعي تعبّر أفضل تعبير عن جوهر رغبة الموت الراسخة في الجنس البشري؟ لكنه اليوم، وهو يجابه صعود النازية في ألمانيا، لم يدرك بعدُ طبيعة آلة الموت التي وُضعت قيد العمل على يد

القومية الاشتراكية، ولم يكن الوحيد في هذا المجال.

في جميع الأحوال حين وضع في يوليه/تموز 1929 نقطة النهاية في كتابٍ جديد له جاء من بعد «مستقبل وهم»، لم يكن يساوره شك بأنه قد أنهى لتوه كتابًا سوف يكون الأكثر رواجًا عند القرّاء، وأنه سوف يترجَم أكثر من باقي كتبه، وأنه الأكثر وجدانية، والأكثر ارتباطًا بالسياسة: «وعكة الحضارة». كان قد كرّس له جهوده وهو يصطاف في بيرتشسغادن، في جبال الألب البافارية، مكان الإقامة المفضل عند الأميرة ماري - إليزابيث دو ساكس - مينينجن، التي لم تبق على قيد الحياة عند سقوط الملكيات الألمانية، وعلى مقربة كبيرة من هناك يقبع جاثمًا في ذروة أوبرسالزبرغ، البيت الذي كان هتلر يستقبل فيه منذ 1927، مسؤولي الحزب القومي - الاشتراكي (NSDAP)[706].

فكّر فرويد في البداية أن يكون عنوان هذه الدراسة «السعادة والثقافة» (Das gliick und die Kultur)، لكنه فضّل في مرحلة لاحقة «الشقاء في الثقافة»، ليستقر أخيرًا عند: الاستياء، الوعكة[707]، أيًا كان الأمر، بما يتجاوز القلق الذي يشعر به حيال الزمن الحاضر آنذاك، كان المقصود عنده إعلان بيان لصالح سعادة الشعوب: نشيدٍ للحب، للتقدم، للعلم، للجمهورية الأفلاطونية.

من بعد الإشارة إلى أن الدين لم يعد يقدم أي دواء للحرمان، راح فرويد يؤكد أن المنابع الرئيسية لشقاء الإنسان الحديث تكمن في غياب المثل الأعلى، الذي يحدده بثلاثة ضوابط: الجسم البيولوجي، العالم الخارجي، العلاقات مع الآخر، وهكذا فالإنسان الحديث في مجابهة هذه الصيغة النهائية، وبعد أن صار شبه «ربّ تعويضي» (Art Prothesengolt) لم تعود أمامه أي وسيلة ليتخلص من عذابه سوى أن يركب لنفسه أوهامًا جديدة إنطلاقًا من ثلاثة اختيارات لا شعورية: العُصاب (قلق، صراع)، تعاطي السموم (المخدرات، المشروبات الكحولية)، الذّهان (الجنون، النرجسية، التصرفات الخرقاء).

لكن فرويد يشير إلى إمكانية استخدام وسيلة أخرى: الوصول إلى الحضارة (إلى الثقافة والتمدن)، فهي الوحيدة القادرة على أن تتيح، بالتسامي والإعلاء[708]، السيطرة على نزوات التدمير، أي على الحالة الطبيعية، على الحالة الهمجية والبدائية التي هي من مركّبات النفس البشرية منذ أيام «القطيع البدائي» القديم، ويشير فرويد إلى أن البشر بعد انصرافهم عن الوهم الديني لا يتوقعون أي جدوى من الرجوع إلى طبيعة مزعومة، وفي رأيه، فإن الطريق الوحيد المؤدي إلى الحكمة أي إلى أسمى

أشكال الحرية، يقوم بالتالي على توظيف الليبيدو في أرفع درجات الإبداع: الحب (إيروس)، الفن، العلم، المعرفة، القدرة على التعايش الاجتماعي، الالتزام باسم مثل أعلى مشترك، بتحقيق رفاهية الجميع. ومن هنا ذلك التمجيد للسعادة - أو لـ«الحياة الصالحة» - عن طريق التقدم، وهو ما لم يكن بإمكان سان - جوست أن يتنكر له، وها هو فرويد ينطلق في دفاع لا هوادة فيه عن الإنجازات التقنية والعلمية في القرن العشرين: الهاتف، المواصلات البحرية والجوية، والمجهر، النظارات، التصوير الفوتوغرافي، الفنوغراف، النظافة البيتية، الصحة العامة، إلخ.

ثم يضيف، ما دام «الإنسان ذئب على أخيه الإنسان» فليس أمامه من وسيلة أخرى، كي يقطع العلاقة مع نزوته الميالة إلى التدمير الذاتي البدائي، سوى القبول بالعيش مع أقرانه، وهكذا أنشأ كل علاقة اجتماعية على وجود الأسرة (الخلية الرشيمية للمجتمع) من طرف، وعلى التفاهم مع الاخر، من طرف آخر «أول إنسان واجه عدوه بإهانة، وليس بضربة رمح، هذا الإنسان هو المؤسس الحقيقي للحضارة»، ثم يضيف بأن أول من تخلى عن متعة التبول على نار مشتعلة هو أيضًا بطل فتح عظيم من فتوحات الحضارة - التحكم بالنار - حيث إنه قدم بذلك إلى المرأة (نصفه الآخر الذي لا غنى عنه) وسائل رعاية شؤون البيت. هنا يقلّد فرويد تعابير جان جاك روسو عن قصد حين تكلم عن عدم المساواة: «أول من وضع سياجًا على قطعة أرض، وأعلن هذه أرضي، ووجد من بسطاء الناس من يصدقه، هو المؤسس الأول للمجتمع المدني، وكم من الجرائم، والحروب، وأعمال القتل، كم من مظاهر الشقاء والفظائع كان يمكن أن يوفرها على الجنس البشري ذاك الذي، باقتلاع السياج أو بطمر الخندق الفاصل، صرخ بأعلى صوته مهيبًا بأقرانه: إياكم والرضوخ لهذا المحتال[709]».

على نقيض روسو وورثة فلاسفة عصر التنوير الفرنسي، لم يكن فرويد يؤمن بإمكانية تحطيم التفاوت بين البشر. كان على اقتناع بأن القوى النزوية هي دائمًا أقوى من الحاجات العقلانية، وكان يدافع عن رأيه بأنه لا يمكن لأي مجتمع أن يبني نفسه من خلال التخلي عن العدوان، عن الصراع وتأكيد الذات، لكن ذلك لم يكن ليقلل من دفاعه عن أن اللغة، والكلام المحكي، والقانون هي الوسائل الثلاثة للانتقال من الحالة الطبيعية إلى الحالة الحضارية. وهذه المقولة، سبق له أن تقدم بها في كتابه «الطوطم والتابو». لكنه الآن، يغيرها لتصبح برنامجًا سياسيًا حقيقيًا مرتكزًا على فلسفة التحليل النفسي، على أيديولوجية، على التعبير عن العالم (Weltanschauung)[710].

مختصر القول، كان فرويد يؤكد في الوقت نفسه بأن الحضارة منبع لمشاعر الخيبة عند الإنسان، حيث أنها تفرض عليه التخلّي عن نزواته، غير أنها أيضًا في نظره ضرورة عقلانية، بشرط ألا تستخدم الإفراط في قمع الجنسانية والعدوان الضروريين لكل شكل من أشكال الحياة. ومن هنا تنبع الوعكة، فالحضارة ليست دواء للتعاسة، هكذا راح يشرح، إلّا بمقدار ما تخلق أيضًا تعاسة بديلة: ضياع الأوهام، القسر. إن نزوة الحياة (إيروس) لا يمكن فهمها إلّا بما هي في تعارض مع نزوة الموت وأنها تتمحور حول القسر والقدر، وضرورة العيش المشترك (Ananqe).

بعد تسلّحه بمثل هذا البيان، ها هو فرويد إذن يرفض في الوقت نفسه الـ American way of life - طريقة الحياة الأمريكية - التي، بتأكيدها على الفردية المفرطة، تؤدي إلى كوارث اقتصادية، والكاثوليكية التي، بقيامها على محبة القريب، تتنكر لافتتان البشر بتدمير أنفسهم، والثورة الشيوعية التي، باعتقادها الصارم بوهم المساواة بين البشر، تزعم أنها تحطم أحد المقومات العظمى للنشاط النزويّ عند البشر: ألا وهو الرغبة بامتلاك الثروات. بتعبيرٍ آخر كان فرويد يقوم بهجوم على جميع المعتقدات الحديثة المؤمنة بـ«إنسان جديد» يمكن له أن «يتحرر» من كل هيمنة الماضي. وهكذا راح أيضًا ينتقد على حدٍ سواء يوتوبيا الـ«يهودي الجديد»، والحلم الأمريكي بالانسلاخ عن الماضي، وكذلك المشروع الشيوعي الهادف إلى تحطيم الطبقات الاجتماعية، أخيرًا، بكل وضوح كان يرفض كل شكل من أشكال الديكتاتورية. في نهاية دراسته، في جملةٍ تمثّل الحالة القصوى، ها هو يشير، بالرجوع إلى جدلية فاوست ومفيستو، ومعركة الملاك مع يعقوب، شارحًا كم يمكن لمجيء التقدم العلمي أن ينقلب دائمًا إلى نقيضه: «توصّل البشر الآن إلى درجةٍ عالية من التحكّم بقوى الطبيعة بحيث أنه أصبح بمقدوره إبادة البشر كافةً دون أن يبقى منهم نافخ نار، هم يعلمون ذلك، وهذا جانبٌ هام من قلقهم الحالي، من تعاستهم، من تمزّقهم، وعلى هذا يجب أن نعقد آمالنا على أن الآخر من الـ/ القوتين السماويتين/، الإيروس الخالد، سوف يبذل كل جهده للتغلب في المعركة مع خصمه الذي لا يقل عنه خلودًا[711]».

في حقيقة الأمر، كان ذلك البيان يضع في مواجهةٍ لتلك التصورات الثلاثة عن المجتمع - الديني، الفردي، الشيوعي - تمثيلًا للإنسان يقوم على التحليل النفسي، كان فرويد يتشكك على حدٍ سواء بالديمقراطية، التي يكمن تهديدها بإعطاء سلطة زائدة للجماهير غير المتعلّمة، والديكتاتوريات، التي لا تقوم سوى بتقليد خطير للوجه النبيل في السلطة. مقابل هذا الأمر،

هو يفضل جمهورية من النخبة الخارجين من العرف الأفلاطوني ومن النظام الملكي الدستوري: شعبٌ مستنير يحكمه عاهل همُّهُ المصلحة العامة. ولهذا السبب، في جميع الأحوال، كان يدافع، مثل توماس مان، وآينشتاين وأرتيغا إي غاسي، عن مشروع ابن وطنه النمساوي نيكولوس فون كودن هوف - كالرجي والذي يسعى إلى إعادة بناء الوحدة الأوربية بتأسيسها على مرجعية مشتركة تعود إلى الحضارة الإغريقو - لاتينية والمسيحية[712].

لمرةٍ جديدة، يجعل فرويد من مدينة روما المؤشر الأكبر لمذهبه حول الحضارة، كان يعلم بأنه لن يعود أبدًا[713] إلى إيطاليا وأن العاصمة الإمبراطورية، موضع اجتماع الرغبات بأكملها، أصبحت منذ ذلك الوقت محظورةً عليه، فهو يعلم بأن وقع خبطات الجزمة العسكرية ترن هناك وأنه قد انتشرت ما بين الكوليزيه والبانثيون الشعارات المشؤومة للقمصان السود. وبدلًا من الإيمان بالإنسان الجديد، أيًا كان مشروعه، ها هو يشير إلى أن الحضارة لم تكن سوى التعبير عن توفيق متواصل بين الماضي والحاضر، بين زمن أركيولوجي - زمن اللاشعور - وزمن الوعي الذي يتم إسقاطه على المستقبل: «منذ أن تغلبنا على الغلطة القائمة على الافتراض بأن النسيان المألوف عندنا سوف يدل على تدمير أثر الذاكرة، أي القضاء التام عليها، بدأنا نميل إلى الفرضية المعاكسة، والقائلة بأن عالم النفس، لا يمكن أن يتلاشى فيه أي شيء سبق أن تشكل هناك، وأن كل شيء يظل محفوظًا بشكلٍ من الأشكال ويمكنه، إذا توافرت الظروف المناسبة، على سبيل المثال وجود تقهقر يمضي إلى حده الأقصى، أن ينبثق من جديد». تعالوا نتخيل، هكذا كان يقول، بأن روما «ليست مكانًا لاجتماع البشر وإنما هي كيانٌ نفسي لماضٍ، هو في ظاهره غني وطويل الأمد، حيث بالتالي لم يختفِ أي شيء مما ولد ذات يوم وحيث ما تزال موجودة حتى الآن، إلى جانب آخر مرحلة من التطور، جميع المراحل السابقة [...][714]».

بتعبير آخر، إن الـ **Kultur**، حسب رأي فرويد، ليست سوى البناء الذي قدمه منذ «تأويل الأحلام» حيث جمع كل مراحل الزمن البشري، ومع جعله لـ«الأنا أنها الآخر» «أرض الميعاد» الوحيدة المهداة إلى الإنسان الحديث، فهذه «هو» نزوية، مطمورة تحت حطام النسب السلفي، و«أنا عليا» تضع الموانع، فهي الرمز لسعادة يمكن الوصول إليها، و«أنا» منقسمة بين الذاكرة والتاريخ. ذلك كان بالضبط، في «عام الرحمة 1930»[715]، مرتكز الأمل المعقود على حياة أفضل يُمنّي فرويد بها معاصريه. ضمن هذه المنظومة، جرى الخلط بين روما وفيينا وبين فيينا وبيت برغاس،

المكان العامر بجميع التزيينات من الحضارات القديمة، الملجأ الأخير لأوربا الوسطى التي تعيش الاحتضار حيث يتقاطر زوار من العالم قاطبةً. وفي ذلك التاريخ، لم يكن اسم هتلر واردًا في أي موضع في كتابات المعلم.

كتاب «الوعكة» لاقى رواجًا كبيرًا ثم بمناسبة إعادة طباعته بتاريخ 1931، أضاف فرويد بعض الكلمات الناقصة إلى الجملة الختامية: «ألا فمن يستطيع التنبؤ بالنجاح وبالمخرج؟» كان تفكيره وهو يكتب هذه الإضافة متوجهًا نحو الفوز الانتخابي للنازيين بتاريخ 14 سبتمبر/أيلول 1930. في ذلك التاريخ أصبح الـ NSDAB الحزب الثاني في ألمانيا، وراء الحزب الاجتماعي الديمقراطي وأمام الحزب الشيوعي، وها هم هيرمان غورنغ، وجوزيف غوبلز، وهنريخ هيملر يدخلون إلى الرايخستاغ. غير أن البلد، المدمر بالأزمة الاقتصادية، كان تعداد العاطلين عن العمل فيه أربعين مليونًا.

في 1932، وقع الاختيار على ألبرت آينشتاين من طرف اللجنة الدائمة للآداب والفنون في عصبة الأمم كي يجمع شهادات المثقفين تأييدًا للسلام ونزع السلاح. وها هو يتوجه إلى فرويد الذي كان قد تقابل معه سابقًا: «تعيش في الإنسان حاجة للكراهية والإبادة وهذا الاستعداد في الأزمنة العادية، يكون حاضرًا في حالة كمون ولا يظهر إلّا عند الإنسان غير الطبيعي. لكنَّ هذا الاستعداد يمكن إيقاظه بسهولة نسبية ويمكنه التفاقم ليصبح ذُهانًا جماهيريًا». وقد طلب آينشتاين إلى «العارف العظيم بالنزوات البشرية» أن ينوّره بهذا الصدد[716].

وأسرع فرويد مقدمًا الجواب في بيان سياسي، «لماذا الحرب؟»، وهو استمرار لـ«وعكة الحضارة». في وجه السادة الذين يسعون كي يصبحوا ديكتاتوريات وفي وجه المضطهدين الذين يرغبون بالإطاحةِ بهم، قدم فرويد اقتراحًا برجوعٍ مظفّر إلى المأدبة الأفلاطونية مقترحًا على عصبة الأمم إنشاء جمهورية عالمية من الحكماء، جماعة أصفياء «نجحوا بإخضاع حياتهم النزوية لديكتاتورية العقل» وهم قادرون، بالسلطة المخولة لهم أن يفرضوا على الجماهير دولة قانون حقيقية تقوم على التخلي عن القتل، فكل ما يساعد على ارتقاء الحضارة، كما يقول، يسهم في إضعاف الغريزة الحربية[717]. مرةً جديدة، ها هو يقترح على الكبار في هذا العالم فن الحكم للأمم بما ينسجم مع مذهب التحليل النفسي.

بينما كان مذهبه باستمرار المعبّر عن عالم، عن أيديولوجية، عن مشروع سياسي، عن تفكير أنثروبولوجي، وهذه الأمور مجتمعة تقوم على التخلي عن القتل وعلى تأسيس دولة القانون، ها هو فرويد لا يكف عن

الوقوع في مناقضة نفسه بنفسه حين يؤكد بأن التحليل النفسي ليس Weltanschauung[718]. وكان يشير من خلال هذه الكلمة إلى «تصور نوعي ألمانيًا تثير ترجمتها بعض الصعوبات». في مجال الفلسفة، تعود بنا هذه الكلمة إلى فكرة ميتافيزيقية حول العالم، إلى تصور إجمالي للوضع الإنساني في العالم. ولكن بما يتعلق بفرويد، المهتم بأن يجعل من التحليل النفسي علمًا طبيعيًا - وهو ما لم يتحقق فيه أبدًا -، فالتعبير لم يكن مناسبًا، في نظره، يرتبط جزئيًا هذا التعبير بالخطاب الفلسفي، والدين، والالتزام السياسي، أي مع جميع صنوف الأوهام وغيرها من التركيبات الفكرية التي يجب على العقل العلمي - إذن على التحليل النفسي - القيام بتفكيكها، وفي جمع الأحوال، بتاريخ 1932، من جديد راح يتهكم بصورة مكشوفة على الفلسفة ناظرًا إليها على أنها نوع من دين صغير يُستخدم استخدامًا بسيطًا: «ليست الفلسفة مناقضةً للعلم، فهي تتصرف كما لو أنها علم، وتشتغل جزئيًا بالطرائق نفسها، لكنها تبتعد عنه بمقدار تعلقها بوهم أنها قادرة على إعطاء صورة متناغمة ومن دون نقص عن العالم، وهي صورة تجد نفسها في حالة انهيار مع كل تقدم جديد في معرفتنا [...]. ليس للفلسفة تأثيرَ مباشر على المجموع الكبير من البشر، وهي تنال اهتمام عدد صغير من الأفراد حتى في أوساط الشريحة العليا من المثقفين: وأما في نظر جميع الآخرين، فهي بالكاد تكون مفهومة. بالمقابل إن الدين قوة هائلة تحت تصرفها أقوى الانفعالات عند بني البشر، ثم يستشهد فرويد بالـ«الاستهزاء» الشهير لدى أحد الشعراء المفضلين لديه، هنريخ هاينه: بطاقيات النوم والروب دوشامبر المهترئ، يحاول الفيلسوف سدّ ثقوب صرح العالم[719]».

وكما كان الحال في كتابه «الوعكة»، ها هو ينطلق مع تمجيد مؤثر لتقدم العلم كي يلسع بسياطه خبط عشواء البلشفية، والماركسية، والجدلية الهيغلية القاتمة مع تأكيده بأنه يفهمها بصورة سيئة حيث أنه ينسب تشكيل الطبقات الاجتماعية إلى الصرعات الغابرة بين قطعان البشر البدائيين - أو «الأعراق» - التي لا يختلف بعضها عن بعض إلّا قليلًا.

وهكذا إذن استمر فرويد بتأويل وشرح الصراعات بين الشعوب من أجل التحرر على منوال ما جاء به في «الطوطم والتابو». وفي الوقت نفسه، كان يقول بأن الاستبداد الروسي أصبح محكومًا بالإدانة حتى قبل خسارة الحرب، «نظرًا لأن أي تزاوج بين قرابات دموية (Inzucht) داخل العائلات الحاكمة في أوربا لم يستطع أن ينجب جيلًا ((Geschlesht من القياصرة قادرين على مقاومة القوة التدميرية للديناميت[720]». بتعبيرٍ أخر

كان ينسب هزيمة الإمبراطورية الروسية على حدٍّ سواء إلى تقدم التقنيات العلمية وإلى عجز السلالات الملكية عن تجديد نفسها، من خلال التزاوج بين الأقارب فهي مثل سلالة لابداسيد الميثولوجية، حكم عليها بتدمير نفسها، يبدو بأن فرويد ينسى أن هذا الأمر لا يكفي لتفسير انهيار الإمبراطوريات القديمة.

لقد سعى بهذا الأمر إلى الانفصال عن الفلسفة وعن نظرية التاريخ، كي يجعل من التحليل النفسي علمًا، مع احتفاظه بالتحليل الخرافي للسلالات الإمبراطورية ولتصوره حول جمهورية الأصفياء وقد اقترف فرويد خطأً كبيرًا بقولته تلك، إذ باسم هذا الرفض لكل Weltancshuung، تبلورت، بموافقته، الفكرة القائلة بأن التحليل النفسي ما دام علمًا، فيجب عليه البقاء «على الحياد» في مواجهة جميع التغيرات في المجتمع، وبالتالي فهو «غير سياسي[721]»، بتعبيرٍ آخر، بينما كان قد وجّه الانتقاد إلى العلموية وإلى الوضعية، ها هو يزعم بأنه يتحدى العقلانية العلمية باهتمامه بالغيبية والروحانيات، وبينما كان قد ابتكر تصورًا أصيلًا عن التاريخ «الغابر» للبشرية، ها هو يرفض أن يرى بأن مذهبه يحمل سياسةً، وفلسفةً، وإيديولوجيةً، وأنثروبولوجيا، وحركة انعتاق وتحوّل.

ما من شيء يناقض روح التحليل النفسي كتحويله إلى علم وضعي مزعوم ووضعه في منأى عن كل التزام سياسي، وبعد انتقاد فرويد كثيرًا للدين باسم (حياد) مزعوم، ها هو يجازف بجعل مذهبه نوعًا من تعليمات دينية. وهذا الموقف أدى إلى نتائج مدمرة في حركة التحليل النفسي ما بين الحربين حين أصبح في مجابهة أكثر الهمجيات بربرية مما عرفته أوربا، وكان إرنست جونز هو الأكثر تيقظًا في تطبيق هذا الخط (المحايد) الذي فرضه فرويد.

إن إرنست جونز أصبح، خارج أوربا القارية، المنظم الرئيسي لحركة التحليل النفسي، وهو كتلميذ مجيد براغماتي، المناضل في سبيل تصور طبي لممارسة العلاج، كان على هذه الصورة في الوقت نفسه مدمّر الفرويدية الأصلية - فرويدية الرومانتيكية وأوربا الوسطى - ومخلّص فئة لم يعد أمامها من خيار آخر، في مواجهة صعود النازيّة إلّا أن تعيش المنفى في العالم الناطق بالإنجليزية، وباسم هذا الحياد وهذا النهج اللاسياسي، لم يقدّم جونز أي دعم للفرويديين من جماعة اليسار - الفرويدو - ماركسيين على وجه الخصوص - الذين، في ألمانيا كما في روسيا، كانوا يريدون جمع ثورتَي القرن: الأولى الهادفة إلى تغيير الإنسان عن طريق استكشاف اللاشعور، والثانية الساعية إلى تغيير المجتمع من خلال الصراع

الجماعي.

في عام 1921، كانت فيرا شميدت، بمساعدة حركة التحليل النفسي الروسية، قد أنشأت في موسكو دارًا تربوية: الدار التجريبية للأطفال، وقد استقبلت فيها ما يقرب من ثلاثين طفلًا من أبناء قادة وموظفي الحزب الشيوعي كي تربيهم حسب مناهج تجمع بين مبادئ الماركسية والتحليل النفسي. وهكذا تم تحطيم منظومة التعليم المتوارثة والقائمة على التوبيخات والعقوبات الجسدية. غير أن هذا المشروع يقوم على يوتوبيا إمكانية تحطيم الأسرة الأبوية لصالح طرائق تربوية تشجع على العمل الجماعي والتبادلات وفق مبدأ المساواة. كان المنهاج يخطط أيضًا إلى أن يقوم المربون بالدخول في تجربة التحليل وألا يقمعوا الألعاب الجنسية عند الأطفال، بتعبير آخر، كان المثل الأعلى التربوي عند فيرا شميدت يشهد على الفكر الجديد في سنوات 1920، والذي من خلاله أصبح يقال، غداة ثورة أكتوبر، الحلم بانصهار ممكن للحرية الفردية مع المساواة الاجتماعية.

ضمن هذا السياق توجَّهت فيرا إلى برلين وفيينا، برفقة زوجها، أوتو شميدت، وهو عالم رياضيات، وذلك للحصول على دعم فرويد وأبراهام لصالح (دارها). تناول النقاش جوهريًا طريقة تناول عقدة أوديب ضمن إطار تربية جماعية، بكل وضوح، لم تكن تلك التجربة متطابقة مع مبادئ علم النفس الأوديبي، ثمّ، للأسباب نفسها، جرى انتقاد هذه التجربة بقسوة من طرف الموظفين في وزارة الصحة السوفييتية.

كان فرويد يودّ لو يستطيع مساعدة عائلة شميدت، ولكن جونز فضّل، بدلًا من دعم جماعة موسكو، أن يكون الدعم لجماعة التحليل النفسي في كازان، وهي التي كانت تبشر بسياسة تشجيعية للأطباء، الأكثر حيادًا حيال الماركسية، ومن بعد أمور إجرائية طويلة ورغم الدعم المؤقت من ناديجدا كروبيسكايا، زوجة لينين، جرى وضع حد لهذه التجربة. لقد تعرضت للانتقاد على حدٍّ سواء من الفرويديين ومن النظام السوفييتي، الذي بدأ يتحول أكثر فأكثر تحت تأثير الفكر الستاليني، كما أن فيرا شميدت تعرضت هي أيضًا للنقد من صديقها ويلهلم رايخ، الذي قام بزيارتها في 1929. كان قد أصبح مشهورًا في ألمانيا، وكان يعتبر بأنّ التجربة ليست ثورية بما فيه الكفاية[722].

إذا أخذنا بعين الاعتبار الجدال حول الجنسانية، كما كان يتطور منذ نهاية القرن التاسع عشر، فإن وضعية رايخ كانت في واقع الحال متناظرة مع وضعية يونغ، فإذا كان هذا الأخير، فعليًا، ينزع الصفة الجنسانية عن

الجنس لصالح نوع من الاندفاع الحيوي، فإن رايخ يسير في عملية لنزع الجنسانية عن الليبيدو لصالح التناسل البيولوجي القائم على تفتح سعادة أورجازمية تُستبعد منها نزوة الموت. بعد أن كان عضوًا في الحزب الاجتماعي الديمقراطي النمساوي، انتسب إلى الحزب الشيوعي الألماني (KPO[723]) وراح يناضل بحماسة مع تأسيسه لميثولوجيا عمالية بموجبها سوف تكون التناسلية البروليتارية بعيدةً عن «الميكروب» البرجوازي. وهكذا لم يكن يتردد بأن يؤكّد أن حالات العصاب أكثر ندرة في الطبقة العمالية مما هي علية في الشرائح العليا للمجتمع. وهذه حجة جديدة في وجه فكرة نزوة الموت.

وها هو سريعًا، يؤسس «جمعية اشتراكية» للإعلام والبحوث الجنسية وكذلك عيادات للصحة الجنسية مخصصة لتقديم المعلومات إلى العمال المأجورين (Sexpol). كان رايخ يكنُّ لفرويد إعجابًا لا حدود له، بينما فرويد يعبّر تجاهه عن شراسة خارجة عن المعقول، كان يتهيب جنونه، وشهرته، والتزامه السياسي. أما تلامذته، فقاموا بكل شيء في سبيل التخلص من رجلٍ يهزُّ أركان روح المحافظة عندهم، ويثير الاضطراب في قناعاتهم، ويعيد العلاقات مع الأصول الفليسية للمذهب الفرويدي، وهو ما كانوا يسعون إلى التقليل من أهميتها. هذا الموقف أدى بهم، في 1934، إلى ارتكاب أخطاء سياسية عديدة.

وكما أشرتُ، لم يكفّ فرويد عن المطالبة بهويته اليهودية مع رفضه للتمسك الشديد بالشعائر في الديانة اليهودية، كما أنه لم يكن يُحس بأنه يهودي إلّا لأنه يُعارض المشروع الصهيوني الساعي إلى إيجاد أرض ميعاد جديدة. بكلمةٍ واحدة، كان فرويد يهوديًا من الدياسبورا - الشتات - لا يؤمن بأن الرد على معاداة السامية يكون بإرجاع اليهود إلى أي أرض. وحتى إذا كان أحيانًا يدعم إنشاء مستوطنات يهودية في فلسطين، فهو يصرّح بأنه على حذر شديد بخصوص مشروع تأسيس «دولة لليهود». والشاهد الذي يبرهن على هذا الأمر هو طريقته بالرد على حاييم كوفلر، العضو من أبناء فيينا في الـKeren Hayesod[724]، حين طلب إليه هذا الأخير، كما طلب من مثقفين آخرين في الدياسبورا، دعم القضية الصهيونية في فلسطين ومبدأ وصول اليهود إلى حائط المبكى. نشير هنا إلى أنه منذ 1925، بفضل تدخل حاييم وايزمان الذي كان يتمنى إنشاء تعليم رسمي للتحليل النفسي في إسرائيل، كان فرويد قد أصبح عضوًا في الهيئة الإدارية لجامعة القدس - أورشليم -، وكذلك أيضًا تلميذه الإنجليزي دافيد إيدر[725].

لم يمنعه ذلك من رفض اقتراح كوفلر: «لا أستطيع فعل ما تتمناه. إن تحفظي بإثارة اهتمام الجمهور بشخصي أمرٌ لا مجال للتخلص منه كما أن الظروف الدقيقة الحالية لا يبدو لي بأنها تساعد على هذا الأمر، فمن يريد التأثير في عدد كبير من الناس يجب أن يكون لديه شيءٌ من الضجيج الرنان ومن الحماسة لما يقول، وهذا، حسب حكمي المتحفظ على الصهيونية أمرٌ غير مسموح به. بالتأكيد أحمل أفضل المشاعر بالتعاطف مع جهود مبذولة بحرية، وأنا فخور بجامعتنا في القدس - أورشليم - وأشعر بالبهجة وأنا أرى ازدهار مؤسسات مستوطنينا. لكن، من طرف آخر، لا أصدق بأن فلسطين يمكن في يوم من الأيام أن تصبح دولة يهودية ولا أن العالم المسيحي، ومثله العالم الإسلامي، يمكن لهما في يوم من الأيام التعبير عن الاستعداد لوضع الأماكن المقدسة في عهدة اليهود، حسب ما يبدو لي كان من الأصوب تأسيس وطن يهودي على أرض ليست مثقلة بتاريخها؛ يقينًا، أعلم بأن مثل هذا المخطط العقلاني، ما كان له أن يحرك الحماس عند الجماهير ولا التعاون عند الأغنياء، كما أسلّم أيضًا، وكلي أسف، بأن التعصب غير الواقعي عند مواطنينا يتحمل جانبًا من المسؤولية في إيقاظ الحذر عند العرب. ولا أستطيع أن أشعر بأي تعاطف مع تقوى يتم تأويلها تأويلًا سيئًا بحيث تجعل من جزء من جدار بناه هيرودس خلعة وطنية مقدسة وأن يُصار، بسببها، إلى تحدي مشاعر سكان البلد، احكم بنفسك إذن إنْ كنتُ، بوجهة نظري الدقيقة هذه الشخص المطلوب كي يقوم بدور المواسي لشعبٍ يهزه الاضطراب بسبب أملٍ غير معلَّل»[726].

في اليوم نفسه - 26 فبراير/شباط 1930 -، بعث فرويد إلى ألبرت آينشتاين رسالة أخرى، عاد فيها إلى هذه الحجج تمامًا: كراهية الدين، التشكك بصدد إنشاء دولة يهودية في فلسطين، التضامن مع «إخوته» الصهاينة - وكان يسميهم أحيانًا «إخوة العرق» -، معرفة الذات الجماعية للصهيونية، مع أنه لا يشاطرها مثلها الأعلى نظرًا لما لديها من «مغالاة مقدسة». ومن جديد، عاد فرويد يصرّح بأنه فخور بجامعتنا وبالكيبوتزات، لكنه يكرر ويعيد بأنه لا يؤمن بإنشاء دولة يهودية لأن المسلمين والمسيحيين، كما يقول، لن يقبلوا أبدًا تسليم مقاماتهم المقدسة إلى يهود. وهكذا كان يلوم «التعصب غير الواقعي لإخوته اليهود» والذي يسهم في «إيقاظ عدم الثقة عند العرب»[727].

وهكذا كان لدى فرويد بوضوح الحدس بأن مسألة السيادة على الأماكن المقدسة سوف تكون ذات يوم مركز نزاع شبه غير قابل للحل، ليس بين الديانات التوحيدية الثلاث وإنما بين الشعبين الشقيقين المقيمين في

فلسطين[28]. كان متخوفًا، وهو على حق بذلك، أن ينتهي الاستيطان القائم على التجاوزات إلى إيجاد تعارض، حول جزء من حائط يُعطى صفةً صنمية، ما بين العرب المعادين للسامية واليهود العنصريين.

بمقدار ما أظهر فرويد من بعد نظر حول مسألة يهوديته وحول مستقبل اليهود في فلسطين، برهن أيضًا عن عمى حقيقي بما يخص طبيعة معاداة السامية عند النازيين والرد السياسي المناسب تقديمه من أجل قضية الحفاظ على بقاء التحليل النفسي حيًا في ألمانيا، وفي النمسا، وفي إيطاليا، طوال حقبة السنوات السوداء، مرةً ثانية، يتم الرجوع إلى الـ Weltanschauung كحجة لاعتماد الحياد الخطير.

منذ وصول أدولف هتلر إلى السلطة، فعّل المبدأ القومي - الاشتراكي، الذي يتمحور في جوهره على إبادة جميع اليهود في أوربا باعتبارهم من «عرق متدنٍ». وهذا البرنامج كان المطلوب تطبيقه على جميع البشر الذين يُنظر إليهم بأنهم «ناقصو الأهلية» أو يشكلون إزعاجًا للهيئة الاجتماعية، وهكذا فالمثلية الجنسية والمرض العقلي اعتُبرا من صنف اليهودية. وضمن هذا السياق، أضاف المشتغلون حول الطب الجديد عند «الرايخ» إلى برنامجهم تدمير التحليل النفسي، ومصطلحاته، ومفاهيمه، ومؤلفاته، وحركته، ومؤسساته، وممارسيه، ومن بين جميع مدارس الطب النفسي الدينامي والتداوي نفسيًا، كان التحليل النفسي هو الوحيد الذي وُصف بأنه «علم يهودي»، وهذا ما كان يخشى منه فرويد كل الخشية. وأما برنامج التطهير، فقام به رجل الشؤم ماتياس هنريخ غورنغ، ابن عم المارشال.

هذا اللوثري التقي، هذا الطبيب النفساني كان مساعدًا لإميل كرايب لين قبل أن يهتم بالتنويم المغناطيسي ثم باعتماد طروحات التحليل النفسي الفردي عند أدلر، ثم من بعد ذلك جعل قدوته التحليل النفسي على طريقة يونغ والذي كان يحلم بأن يجعل منه الأنموذج الأمثل للتداوي النفسي الجديد هتلريًا والمتمركز على تفوق الروح الألمانية. إنه براغماتي ودوغمائي، ومحافظ ضيق الأفق، ونازي مقتنع ورجلٌ مرهوب الجانب وإن كان يظهر بمظهر الـgentil papy - الجد اللطيف بلحية كبيرة، لكنه يعرض على الملأ، مثلما كان قدماء الرومان يعرضون جثامين المحكومين بالإعدام على سلم الكابيتول، قوة النظرية الفرويدية التي هي في نظره ثمرة أمقت ما في الكون لديه: الروح الشمولية «اليهودية»، والمرتبطة مع التنوير الألماني، ولم يتأخر به العهد فأطلقوا عليه اسم فوهرر العلاج النفسي[29].

في آذار 1933، مثل عددٍ كبير من النمساويين، لم يكن فرويد يلمح الخطر الذي بدأت النازية تشكله على بلده. كان يظن نفسه محميًا بقوانين

الجمهورية، ورغم نصائح أصدقائه الأجانب، استمر يرفض كل تخطيط لمغادرة فيينا، «ليس من المؤكد أن يجتاح النظام الهتلري النمسا أيضًا، هذا ممكن، طبعًا، لكن جميع الناس يرون بأن الأمور لن تصل إلى هذا الحد كما هو مستوى العنف في ألمانيا. ليس هناك بالتأكيد أي خطر شخصي علي، وإذا افترضت بأن الحياة تحت الاضطهاد سوف تكون مزعجةً لنا بما فيه الكفاية، نحن اليهود، فيجب ألا تنسى، بهذا الصدد، الراحة القليلة التي تتوافر للمهاجرين وهم يعيشون حياتهم في الغربة، حتى لو في سويسرا أو في إنجلترا. في رأيي الهرب ليس له أي موجب إلّا في حال وجود خطر مباشر حيوي، وفي جميع الأحوال، حين تتعرض للضرب، فهذه طريقة مثل باقي الطرق للموت[730]».

حين رفض فرويد أن يرى بأن النازية في طريقها إلى الانتشار في جميع أرجاء أوربا، كان يظن بأن المستشار إنجيلبيرت دولفوس، المحافظ والقومي، الحليف لموسوليني، كان في أحسن موقف لمقاومة الحزب النازي النمساوي، الذي كان يسعى لتحقيق ضم النمسا إلى ألمانيا بأسرع ما يمكن (الشعلة)، يقينًا، لم يكن يشعر بأي تعاطف مع ذلك الديكتاتور الفاشي، الكاثوليكي والرجعي، لكنه يرى بأن نشوء نظام استبدادي قد يكون أهون الشرّين فيما يخص اليهود، ولذلك قبل حلّ دولفوس للحريات الأساسية[731]: إلغاء حق الإضراب، الرقابة على الصحافة، اضطهاد الاشتراكيين والماركسيين. وحين سحق المستشار سحقًا دمويًا، في 12 فبراير/شباط 1934، الإضراب العام الذي أعلنه المناضلون الاشتراكيون بقي فرويد «محايدًا»: لقد اجتزنا أسبوعًا من حرب أهلية [...]. ليس هناك أدنى شك بأن المتمردين كانوا ينتمون إلى أفضل جانب في الشعب، غير أن نجاحهم ما كان ليدوم سوى لفترةٍ قصيرة وأنه كان سيسبب الغزو العسكري للبلاد، وفوق هذا، هم كانوا من البلشفيين، وأنا لا أتوقع أي خلاص على يد الشيوعية. وهكذا لم يكن بإمكاننا تقديم تعاطفنا إلى أي طرف من الطرفين المتقاتلين[732].

لم يكن فرويد يخلط بين الشيوعية والنازية، فهو يعترف للثورة البلشفية بمثل أعلى ثوري، بينما يتعامل مع الهمجية الهتلرية كتراجع كبير نحو أكثر الغرائز إجرامًا عند البشر، لكنه في مواجهة الفاشية والنازية، استغرق وقتًا ليفهم بأنه لم يكن هناك من إمكانية تفاوض معهما على الإطلاق. لم يكن ينظر إلى هتلر وجهًا لوجه، ولم يلفظ اسمه كما أنه لم يكن قد قرأ «كفاحي». وذلك على نقيض توماس مان[733].

ضمن هذا السياق، بتاريخ 25 أبريل/نيسان 1933، ها هو إدواردو

ويس، المقيم في روما منذ عامين، يقوم بزيارة فرويد، كان قد فكر لمرات عديدة بالهرب من الفاشية، لكنَّ المعلم نصحه بشدة بالبقاء في بلده لاقتناعه بأنه لا أفق آخر أمامه، رغم الهجمات المتواصلة للكنيسة الكاثوليكية، ولا سيما من طرف الأب ويلهيلم شميدت مدير المتحف البابوي لـ الإثنولوجيا - علم الأقوام - في لاتران والذي كان يندد بالفرويدية كنظرية «مشؤومة»، ومسؤولة تمامًا مثل الماركسية، عن «تدمير العائلة المسيحية». لقد رفض فرويد كل تصور نحو الهجرة إلى القارة الأمريكية؛ لأن معركة الحفاظ على التحليل النفسي وإنقاذه، يجب أن تدور، في نظره، في أوربا.

علمًا بأن ويس جاء هذه المرة إلى فيينا برفقة جوفاكشينو فورزانو وكونسيتا، ابنة هذا الأخير، وكان يعالجها من زهاب مرضي ومن هستيريا خطيرة. ونظرًا لأنه لم يتمكن من القيام بذلك العلاج بصورة صحيحة، طلب من فرويد التدخل كمشرف بحضور الشابة. ونجحت التجربة، وكان أن تمكن ويس فيما بعد من متابعة تحليل كونسيتا طالبًا النصائح من فرويد عن طريق المراسلة[734].

كان فورزانو مسرحيًا متأثرًا بأعمال دانومزيو، وهكذا أصبح صديقًا مقربًا جدًا من موسوليني وقد كتب معه مسرحية من ثلاثة فصول «الأيام المائة» لنابليون[735]. لقد تبنى الكاتبان بطريقة مضحكة صورة الإمبراطور ليجعلا منها التمهيد لظهور الدوتشي. وكي يبهر فرويد، الذي عهد إليه بالإشراف على مصير ابنته، حمل فورزانو إلى عيادة برغاس الطبعة الألمانية من الكتاب، في صفحة الإهداء وضع كلمة باسم الكاتبين: «إلى س. ف. الذي سوف يجعل العالم أفضل، مع الإعجاب والاعتراف بالجميل[736]». ولهذا السبب طلب من الهربروفسور أن يعطيه بدوره صورة وكتابًا منه مصحوبًا بتنويه إلى موسوليني ورغبةً منه في حماية ويس، الذي كان ينظم حركة التحليل النفسي، وكان قد أصدر لتوّه الطبعة الأولى من Rivista italiana di psicoanalisi؛ فتش فرويد في مكتبته عن نسخة من كتابه « لماذا الحرب؟» وكتب نصًا قُدر له إثارة جدالات عنيفة: «إلى بينيتو موسوليني مع التحيات بكل تواضع من طرف عجوز يتعرف في رجل السلطة على بطل للحضارة[737]».

إذا كان فرويد معجبًا بالمنتصرين، فهو يشعر برعب أمام الديكتاتوريين، كما تبرهن جميع كتاباته وأكثر من ذلك اختياره لمثل ذلك الكتاب، غير أنه لم يكن يستطيع بحال من الأحوال التملّص من اقتراح فورزانو. وهكذا إذن خلّص نفسه بروح ساخرة مقدمًا التمجيد لـ«رجل سلطة»، يعتبر نفسه

نابليون وقيصر في الوقت نفسه، وكان قد وضع قيد العمل ورشات تنقيب أثري أثارت جنون الحكيم المتواضع في فيينا[738].

كان فرويد يعتقد على خطأ بأن ويس يقيم علاقات جيدة مع موسوليني، كما سوف يكتب لاحقًا إلى أرنولد زويغ. غير أن واقع الحال تبيّن بأنه أعقد من ذلك بكثير. كان فورزانو حاميًا للتحليل النفسي، وكان على ارتباط مع ويس، ولذلك لم يتلقَ أدنى مساعدة من طرف موسوليني، الذي لم يكن لديه أدنى نية بأن يقف في وجه الكنيسة الكاثوليكية، وفي جميع الأحوال، بتاريخ 30 يونيه/حزيران 1933، ندد الديكتاتور بالتحليل النفسي على أساس أنه «تحايل منسّق من طرف حبر أعظم». حتى أن ويس، رغم تدخله عند غاليانو سيانو، لم يمكنه إيقاف خدمات «الدعاية - البروباغاندا - » من تعليق ظهور الـRivista - المجلة».[739] وأدهى من ذلك أيضًا، أن الدبلوماسية الفاشية طالبت بإجراء تحقيق مضحك حول نشاطات الـWPV حيث المطلوب البرهان على أن سيجيسموند (كذا) فرويد يقيم علاقات مشبوهة مع المفكر التخريبي كاميلو بيرنيري[740] وأن تلامذته ينطلقون في عمليات تجارية مدعومة من الاشتراكيين والشيوعيين، وبالنتيجة، لم يتمكن أي محلل نفسي إيطالي من تسجيل اسمه والانتساب إلى الـWPV[741].

بعد ثلاثة أشهر استولى هتلر على السلطة واجتاح النازيون دار الطب الجنسي والمعهد، فبعثروا الملفات، والمستندات، والكتب والأغراض، وكل الأيقونات التي جمعها مانيوس هيرشفيلد حول مختلف أشكال الجنسانية عند الأقليات، فدمّروا بذلك عقودًا من العمل والبحوث، بينما كان إرنست روم، رئيس شعبة الاقتحام وهو مثلي على سنٍ ورمح، قد دخل إلى الحكومة قبل عام من اغتياله شخصيًا بقرار من هتلر.

كان هيرشفيلد غائبًا عن برلين في ذلك اليوم، وذلك للتداوي في سويسرا، فقرر أن يعيش منفيًا في باريس ثم في نيس، حيث وافته المنية، وقد أصابه الإحباط لرؤية انهيار ما قام به على امتداد حياته. في وقتٍ جد قصير، ها هي المقاهي، والملاهي، والمنتديات وغير ذلك من المؤسسات التي جعلت من برلين عاصمة شرق أوربا الأكثر ازدهارًا في سنوات 1920، والأكثر انفتاحًا على المثليين، تقلصت وتلاشت لتصبح هباءً منثورًا: احتلالات، إغلاقات، أعمال سلب ونهب، أعمال تخريب[742].

بتاريخ 11 مايو/أيار 1933 أعطى غوبلز أمرًا بإحراق 20 ألف كتاب «يهودي». وكان المشهد استعراضيًا طيلة ليلٍ بأكمله، في ساحة الأوبرا؛ وقد ضم ذلك المشهد الاستعراضي أساتذة وطلابًا وجماعات من الـSS

ومن الـSA. وقد طاف الجميع بابتهاج رافعين المشاعل، ومنشدين الأناشيد الوطنية ومستشهدين بهتافات: «ضد صراع الطبقات والمادية، أرمي في النار كتب ماركس وكوتسكي، ضد تهيج الغرائز ومن أجل إعطاء الوجه النبيل للروح الإنسانية، أرمي إلى النار كتابات سيغموند فرويد». ومن فيينا، جاء رد فرويد: «يا للتقدم الذي قمنا به. ففي العصور الوسطى، كانوا سوف يحرقونني شخصيًا؛ أما في وقتنا الحاضر، فيكتفون بإحراق كتبي[743]».

يا لها من عبارة! كان يمكن لفرويد أن يكون أشد إلهامًا لو قال بأن إحراق الكتب «اليهودية» سوف يؤدي إلى إحراق، ليس مؤلفي الكتب وحسب، وإنما اليهود أنفسهم، وغيرهم من ممثلي «الأعراق» الموصوفة بأنها «متدنية». كان ما يزال يظن بأن النازية لم تكن سوى التعبير عن معاداة للسامية من تاريخ سابق. وكيف كان بإمكانه أن يتخيل، في ذلك التاريخ، أن ما كان قد كتبه بتاريخ 1930 حول إمكانيات الإنسان على تدمير نفسه يمكن أن تتحقق بمثل هذه السرعة؟ كان قد خطر له حينذاك التفكير بـ الطريقة الامريكية في الحياة - American way of life -، من دون أن يفكر أبدًا بأوربا.

في مقالة بتاريخ سبتمبر/ أيلول 1933، مدعمًا برسوم كاريكاتورية مشوهة، ها هو صحافي نازي يؤكد بأن «اليهودي سيغموند فرويد قد ابتكر منهجًا «آسيويًا» بغرض تدمير العرق الألماني وذلك عن طريق إجبار الكائن البشري على إطاعة نزواته التخريبية، أي على الاستمتاع خشيةً من الموت»، وقد اتهم معلم فيينا بأنه يريد أن ينشر في أوساط الشباب جميع أشكال الممارسات الجنسية الخارجة عن التقاليد: العادة السرية، الشذوذ، الدعارة[744]. وهكذا فمن الضروري، في نظره، التخلص من ذلك الوباء. هكذا إذن كان برنامج تدمير ذلك «المذهب اليهودي»، وهو البرنامج الذي التزم به غورنغ.

بعد إعلانه بأن كتاب «كفاحي» سوف يكون مرشدًا عند تفعيل سياسته في مجال الصحة العقلية، ها هو حينذاك يبذل جهدًا استثنائيًا كي يجتذب حسنات الفرويديين الراغبين بالتعاون مع النظام: فيليكس بويم وكارل مولر برونزفيغ كانا أول الملتحقين به، ثم اقتفى آثارهما هارالد شولتز - هينكي وفيرنر كيمبر. إنهم أعضاء في الجمعية الألمانية للتحليل النفسي (DP) وفي معهد برلين للتحليل النفسي (PBI)، وكان هؤلاء الرجال الأربع شخصيات لا قيمة لها، وهم يغارون من زملائهم اليهود. فكان مجيء الحزب القومي الاشتراكي بالنسبة لهم فرصةً سانحة، أتاحت لهم تحقيق

مجال عمل مزدهر، كانوا يشعرون بأنهم أدنى من الذين ينظرون إليهم كأسياد، ولذلك جعلوا من أنفسهم خُدامًا للجلادين.

في 1930، كانت الجمعية الألمانية للتحليل النفسي (DPG) تضم تسعين عضوًا غالبيتهم من اليهود. ومنذ 1933، توجهوا في طريقهم إلى المنفى، في ذلك التاريخ أصبحت المراسلات بين ماكس إيتنغون وسيغموند فرويد أكثر توترًا بسبب استخدامها للغة مشفّرة، حيث أن رسائلهما خاضعة للرقابة. كان إيتنغون معزولًا وسط معهد برلين للتحليل النفسي، ولذلك سرعان ما دُفع إلى الاستقالة، بينما جونز ، المعادي لليسار الفرويدي الألماني - أوتو فينخل، إرنست سيميل، إلخ، والمهتم بتدعيم القوة الانجلو - أمريكية، استند إلى بويم كي يشجع سياسة التعامل مع النظام الجديد. وكانت تلك السياسة قائمة على المحافظة، في ظل النازية، على ممارسة توصف بأنها «محايدة» من طرف التحليل النفسي وذلك لتجنيب التحليل كل عدوى من طرف المدارس الأخرى في العلاج النفسي، تلك المدارس التي ضُمت هي بالذات إلى معهد برلين للتحليل النفسي الجديد «المطهّر آريًا».

كان ماكس إيتنغون معاديًا لهذا التيار، ولذلك طالب، قبل أن يتخذ قرارًا، أن يوجه إليه فرويد كتابيًا تعليماته الخاصة. وفي رسالة تاريخها 21 مارس/آذار 1933، نفذ هذا الأخير الطلب، مشيرًا بأن على تلميذه اختيار أحد الحلول الثلاثة: 1 - العمل على وقف نشاطات معهد برلين للتحليل النفسي؛ 2 - التعاون على صيانة المعهد تحت مظلة بويم «للبقاء على قيد الحياة في تلك الظروف غير المناسبة»؛ 3 - مغادرة السفينة، مع ما في هذا الأمر من مجازفة بترك أنصار يونغ وأدلر ليقتنصوا الجوهرة، وهذا ما سوف يجبر الـ IPVعلى الانتقاص من مواصفات المعهد[745]. وهكذا فإن فرويد، في ذلك التاريخ، كان قد اختار الحل الثاني، الحل «المحايد» الذي نصح به جونز ، وهو ما سوف ينتهي، بعد عامين لاحقًا، حول إضفاء الطابع النازي بالكامل على الـBPI، بعد أن وضع غورنغ يده عليه في هذه الأثناء، لم يكن يتمنى فرض الأمر على إيتنغون، لاقتناعه، في جميع الأحوال على خطأ، بأن النمسا لم تكن واقعة تحت تهديد هتلر، كان يظن بأنها محمية بالفاشية النمساوية.

في 17 أبريل/نيسان، هنأ نفسه لأن بويم خلّصه من رايخ، الذي كان يشعر حياله بالكراهية، والذي سوف يُستبعد فيما بعد من الـIPV قبل أن يهاجر إلى النروج ثم إلى ما وراء الأطلسي، ومن هارالد شولتز - هنكي، الأدلري النازي، الذي لن يطول به العهد كي يُعاد دمجه مع الـBPI. أما مثل

هذا العمى، القائم على الاعتقاد بأن التحليل النفسي بإمكانه الاستمرار على قيد الحياة في ظل النازية، قرر إيتنغون مع ذلك البقاء على وفائه نحو الفرويدية والصهيونية في وقت واحد. ومن دون أن يوجه إلى فرويد أدنى لوم، غادر ألمانيا كي يستقر في القدس أورشليم - في أبريل/نيسان 1934، وهناك التقى من جديد مع أرنولد زفايغ، وأسس جمعية للتحليل النفسي ومعهدًا على غرار معهد برلين، مرسيًا على هذه الصورة دعائم حركة مستقبلية للتحليل النفسي الإسرائيلي.أ نفسه

حين توفي فيرينتزي، بتاريخ 22 مايو/أيار 1933، نتيجة فقر دم مميت وبينما كانت المملكة القديمة للتحليل النفسي قد تطايرت رمادًا، شعر فرويد بالحاجة، كما حاله دائمًا في مثل تلك الظروف، أن يكون رد فعله مباشرًا من دون انتظار. وبما يتعلق بـ«خونة» القضية، أو الأعداء، أو أولئك الذين في نظره أصبحوا «لا فائدة منهم»، كان فرويد يُحسن التقاط الموقف بلمحة، حيث يضع يده على جوهر لحظة حياتية كفيلة بأن تدوّن في حوليات حركته. كان يمتلك حسّ الذاكرة أكثر من حسّ التاريخ. أما فيما يخص فيرينتزي، الصاحب الدائم، الذي رفض باستمرار أن يقطع العلاقة معه، فقد أراد فرويد إخفاء حزنه وراء وضع بيان عيادي تفصيلي. وها هو يقدم لجونز تأويلًا تحليليًا أقل ما يوصف به أنه موضع أخذ ورد حول الصراعات التي رافقت احتضار صديقه: «كانت حالته تعبر عن إنهيار نفسي اتخذ شكل بارانويا متطورة على تواز مع منطقٍ مخيف. حيث تمحور اقتناعه على أنني لم أكن أحبه بما فيه الكفاية، وأنني لا أريد الاعتراف بأعماله، وأنني أيضًا قمتُ بتحليله تحليلًا سيئًا. كانت تجديداته التقنية [...] نكوصات نحو عقد من طفولته، التي كان الجرح الأكبر فيها أنه لم يحصل على الحب. إنه الطفل في وسط أحد عشر إلى ثلاثة عشر، فلم ينل الدفء بما يكفي عند والدته بصورة حصرية، وهذا ما جعله هو نفسه أمًا مثالية، ودفعه إلى أن يجد أيضًا الأبناء اللازمين له ومن بينهم أمريكية. وحين رحلت، آمن بأنها تمارس تأثيرًا عليه عن طريق موجات من وراء المحيط [...] وكان يؤمن بأغرب صدماته الطفولية وهي الصدمات التي يدافع عنها فيما بعد أمامنا. في مثل هذه التهويمات انطفأ ذكاؤه، ولكننا نريد أن نبقي تعاسة نهايته سرًا ما بيننا[746]».

لكن ما من شيء يسمح لنا أن نقول بأن فيرينتزي أصبح مصابًا بالبارانويا. وهذا ما تشهد عليه، إذا كانت الشهادة ضرورية، يومياته العيادية[747]، حيث يأخذ على فرويد عدم اهتمامه المتزايد بالجانب العلاجي في التحليل النفسي، وعداوته حيال المرضى الذُهانيين، وغياب

التعاطف مع الحالة العلاجية، ومعاداته للأمريكان، بالتأكيد، نعلم بأن هذه المآخذ كانت تستند على وقائع في جانبٍ منها. لكن علينا الإقرار بأن فرويد وفيرينتزي كانا كلاهما على صواب، الأول بانتقاده للرجوع إلى التفسير الصدمي حصرًا للإضطرابات النفسية، والثاني في تبنّيه للتهويمات في تقنية العلاج المتحمورة بصورة مبالغ فيها حول الحرمان، والتفتيش عن تفسيرٍ أحادي، وذاك لأن فيرينتزي تعرّض فعلًا للاضطهاد على يد جونز وللانتقاد من دون وجه حق من طرف الفرويدين الخزفيين. وهو من جانبه اختار البقاء على وفائه لفرويد، الذي لم يكاشفه أبدًا برأيه المستتر حول حالته العقلية. وفي رسائله الأخيرة، برهن فيرينتزي عن بصيرةٍ بعيدة الأفق بما يخصه وبما يخص تطور الكارثة الأوربية. وفي 9أبريل/ نيسان 1933، كان قد أرسل إلى فرويد هذه الكلمات: «هنا، في بودابيست، كل شيءٍ هادئ: من كان يخطر له، منذ 10 - 14 عامًا - بأن وطني سوف يصبح مكانًا هادئًا نسبيًا في القارة الأوربية[748]؟»

إذا كان فرويد قد خسر أفضل تلميذٍ عنده، فإن جونز خسر محلله وخصمه، وأصبح لزامًا عليه منذ ذلك التاريخ أن يحتل موقعًا كبيرًا في محيط المعلّم. وسرعان ما سوف يصبح الممثل المركزي لحركة التحليل النفسي، قبل أن يجعل من نفسه أول كاتب سيرة لذاك الذي كان مطلوبًا منه تسيير سياسته. وهكذا في قلب المعاناة أنيط به، وهو في لندن، متابعة تفعيل «الإنقاذ» المزعوم للتحليل النفسي.

في المؤتمر الثالث عشر للـIPV، الذي تم في لوسيرن بتاريخ أغسطس/ آب 1934 في اللحظة التي كان فيها المحللون اليهود يغادرون ألمانيا النازية، أقصي رايخ من الجماعة الفرويدية بسبب «بلشفيته»، وبعد أن نُظر إليه على أنه خطير على التحليل النفسي. كان يعارض مع ذلك، على نقيض جونز ، وهو محق، وقف كل شكل من أشكال التعاون مع النازية، مطالبًا بحل الـDPG. وبعد إقصائه من الحركة الشيوعية الألمانية بسبب يساريته، كان قد نشر منذ فترةٍ قصيرة أهم كتاب لديه، «علم نفس الجمهور عند الفاشية»[749]، وفيه الرد المباشر على كتاب فرويد حول علم نفس الجماهير. كان بعيدًا جدًا عن أن يعتبر الفاشية نتاجًا لسياسة أو لوضع اقتصادي لا غير، ولهذا كان يرى فيها التعبير عن هيكلية لا شعورية ويتوسع بهذا التعريف وصولًا إلى الجماعة كي يشير إلى أن الفاشية عدم إشباع جنسي عند الجماهير.

إن خطأ التقدير عند فرويد، وهو ما اعترض عليه إيتنغون، نجد شهادةً عنه في التقرير الذي وضعه بويم، بتاريخ أغسطس/آب 1934، بعد زيارة

لفرويد: «قبل أن نفترق، هكذا كتب، عبّر فرويد عن أمنيتين: أولًا، لا يجوز أبدًا انتخاب شولتز - هينكي في لجنة إدارة جمعيتنا. وعاهدته بكلمة شرف ألا أكون أبدًا في علاقة معه، والثانية: خلّصوني من و. رايخ[750]».

بعد أن وجد نفسه مجبرًا على العيش في المنفى في النرويج، وبعد التعامل معه من طرف الفرويديين على أنه مريضٌ ذهاني، بدأ رايخ يشعر بأنه أصبح مضطهدًا أكثر فأكثر وكان أن تفاقمت حالة البارانويا عنده، اعتبارًا من 1936، ابتعد نهائيًا عن التحليل النفسي وأسس في أوسلو معهدًا للبحوث البيولوجية حول الشأن الجنساني، وفيه تجمّع أطباء، وعلماء نفس، ومربون، وعلماء اجتماع، ومشرفون على رياض الأطفال. وعلى التوازي، ابتكر منهجًا جديدًا، علاج الأنسجة، والذي سيتحول مستقبلًا إلى العلاج العضوي. والمقصود هو دمج العلاج بالكلام مع التدخل الجسدي. ضمن هذا المنظور، قدّم العصاب على أنه تصلب أو انكماش في العضوية، وأن الواجب يقضي مداواته بتمارين تزيل التشنج العضلي لإطلاق «ردة الفعل الأورجازمية» بحرية، من بعد ذلك، اجتذبته نظرية البيونات - bions - (جزيئات الطاقة الحيوية)، فأطلق العنان لانبهاره بالنظريات الفيزيقو - بيولوجية، التي تحاول التوفيق بين موضوعات التكوين الكلي الأثيرة عند الرومانتيكية مع التقنية الكمية المميزة للطب الجنسي[751].

كان جونز قد أخطأ بمعاداة الفرويدو - ماركسيين وكفاحه ضدهم، وها هو الآن يقبل بالتعاون مع النازيين، في الوقت الذي ساعد فيه اليهود لمغادرة ألمانيا والهجرة نحو العالم الناطق باللغة الإنجليزية. وقد أجبر الأعضاء اليهود التسعة على الاستقالة، وهناك واحدٌ لا غير ليس يهوديًا اعترض على هذه المسخرة: كان اسمه برنار كام، وقد غادر الـDPG تضامنًا مع المبعدين. وسرعان ما توجه إلى المنفى، واستقر به المقام في توبيكا في كنساس، في العيادة الشهيرة لكارل مييننجر، حيث كانت تلك العيادة ملتقى جميع المحللين المنفيين من أوربا. وقد وصف فرويد ذلك الجدال بأنه «جدالٌ محزن». ومنذ ذلك الوقت، أصبح الفرويديون المتحالفون مع غورنغ يختمون رسائلهم بهتاف «هايل هتلر» - يعيش هتلر -..

بينما راح النازيون يدمرون التحليل النفسي في برلين، استمر فرويد باستقبال مرضاه في فيينا. من بينهم الشاعرة الأمريكية هيلدا دوليتل، عشيقة إزرا باوند وآني وينيفريد إليرمان (الملقبة بريير)، وسبق لها أن أجري لها تحليل في لندن على طريقة كلين عند إحدى المحللات وذلك بسب وجود انهيار مزمن عندها. سوف تتحدث عن علاجها في مرحلتين

يفصل بينهما أحد عشر عامًا (1945و1956): فمن جهة تقدم توصيفًا كلاميًا، ومن جهةٍ أخرى تعيد التأويل بصيغة قصة. في هذين النصين، استعرضت بصورة مشرقة مداخلات فرويد المتمركزة على أحلامها، لكنها أيضًا قدمت شهادةً عن الحياة اليومية في برغاس وعن مقابلاتها مع المرضى الآخرين، ومعظمهم من المحللين. بعد هذه التجربة، لن تتوقف أبدًا عن الاستمرار عند معالجين آخرين لاستكمال العمل التحليلي. وفي العالم الناطق باللغة الإنجليزية، كانت كتابات، وحياة، ويوميات التحليل بقلم هيلدا دوليتل (هـ.د.) هي الأصل في نشوء أعمال عديدة كُرّست للسحاق ولدراسات الفارق الجنسي[752].

وهذا جوزيف وورتيس، الطبيب النفسي الأمريكي الخارج من وسط المثقفين اليهود والاشتراكيين، يحضر هو أيضًا إلى فيينا بتاريخ 1934 كي يقابل فرويد، بتشجيع من أدولف مايير حاملًا معه أيضًا رسالة توصية من هافلوك إليس. كان بصدد إجراء بحوث حول المثلية الجنسية، إنه متمرد على كل شكل من أشكال الخضوع التحويلي، ولذلك رفض الشروع بأي علاج، لكن فرويد أجبره على هذا الأمر، على الأقل لمدة أربعة أشهر، إذ كان رأيه بأن القيام بمثل هذه الأبحاث يستوجب اجتياز التجربة العيادية للتحليل النفسي، وها هو وورتيس يتصرف كرجلٍ تحرّ، وهذا ما بعث البهجة عند إليس، الذي كان مستمرًا بالتراسل معه دائمًا.

بصورة قطعية، لم يتم التحليل غير أن الرجلين تشابكا تشابكًا عنيفًا في المجال الثقافي بحيث كانت النتيجة تحول وورتيس إلى أحد المعادين جذريًا لفرويد، ومطاردًا طيلة حياته معلم فيينا. في هذه الأثناء، نجح قسرًا بالحصول على مكاشفات من فرويد بخصوص حياته الخاصة، وتلامذته، وأصدقائه، وتصوره للعالم، وهكذا قدم وثائق ذات أهمية كبرى للمؤرخين. ورغم المرض والصعوبة التي كان يعاني منها في الكلام، كان فرويد يعلم، في تلك الحقبة، كيف يُبرهن عن شراسةٍ لا تلين حيال أصدقائه، كما لو أنه، مع شعوره باقتراب نهايته، لم يكن يتردد، حتى أمام خصم، أن يطلق العنان لأحكامه التي كان يمكن له في ظروفٍ أخرى عدم البوح بها[753].

من زيوريخ، كان يونغ، كما حال الفرويديين، يتعامل مع غورنغ، بعد أن خلَف إرنست كرتشمار في إدارة Allgemeine Arztliche Gesellschaft fur Psychotherapie (AAGP).[754] لقد تأسست في 1926، ووضعت هذه الجمعية هدفًا لها توحيد مختلف مدارس العلاج النفسي الأوروبية بإشراف المعرفة الطبية، كما أن مجلة Zentralblatt

fur Psychotherapie، نشأت في 1930، وأصبحت الجهاز الناطق باسم AAGP.

كان إرنست كريتشمر، طبيبًا نفسيًا ذائع السيط، وهو المشرف الأكبر على طب الأعصاب في ماربورغ، وقد جعل رسالةً له على الدوام إيجاد تعايش في وسط الـAAGP بين جميع توجهات الطب النفسي والعلاج النفسي، ضمنًا التحليل النفسي، بشرط أن يكون جميع الممارسين من الأطباء. وفي مؤتمر دريسدن بتاريخ 1932، كان قد رفع آيات الشكر والتمجيد لأعمال فرويد[755]، وهكذا، مع وصول هتلر إلى السلطة لم يعد بإمكانه القيام بتحقيق هذا الهدف. ولهذا السبب فضّل الاستقالة من رئاسة الـ AAGP. كما أن الفرع الألماني للجمعية والـ Zentralblatt، المنشورة في ليبزغ، أصبحا، في اللحظة نفسها، مجبرين على حمل الصفة النازية. وتحديدًا في تلك الحقبة، ها هم المعالجون الألمان، المهتمون في الوقت نفسه بإرضاء النظام وبالمحافظة على نشاطاتهم الوطنية والأوروبية، يطلبون من يونغ استلام إدارة الـ AAGP، وكان حينها نائبًا للرئيس فيها. كان كريتشمر يتمتع بسمعة كبيرة في ألمانيا، ولذلك لم يشعر بالقلق حيال النازيين أثناء فترة الحرب.

كان يونغ يرغب بتأمين سيطرة علم النفس التحليلي على مجموع مدارس العلاج النفسي، ولذلك قبل رئاسة الـ AAGP وبالتالي رضي بالتعامل مع غورنغ، وبعمله ذاك كان يظن أنه يحمي في الوقت نفسه المعالجين غير الأطباء، المهمشين سابقًا من طرف كريتشمر، والزملاء اليهود الذين لم يعد لهم حق بممارسة العمل في ألمانيا. في واقع الأمر، كان قد اختاره المعالجون الألمان بسبب الثقة التي يوحي بها للقائمين على العلاج النفسي «الآري»، وهم من المتعصبين المعارضين بشراسة للتفكير الفرويدي.

إن يونغ، بدفع من والتر سيمبال وغوستاف ريتشرهير، انخرط على هذه الصورة في مغامرةٍ كان بإمكانه التملص منها بسهولة، وكما تبرهن عليه رسالة بتاريخ 23 نوفمبر/ت2 1933 موجهة إلى تلميذه رودولف آلير، الذي توجّب عليه الهجرة إلى الولايات المتحدة، قبل بجميع الشروط التي أملاها غورنغ بصدد Zentralblatt: «يجب بالمطلق، هكذا كتب، إيجاد رئيس تحرير/مقولب/ يكون أفضل من أي شخص أخر وقادرًا على التخطيط دون الوقوع في أخطاء، لما يمكن وما لا يمكن أن يقال، أكثر مما أنا قادر عليه، سوف يقتضي الواجب في جميع الأحوال أن نمشي على البيض [...]. يجب على العلاج النفسي السعي للمحافظة على نفسه في

داخل الرايخ الألماني بدلًا من إيجاد مقر خارج الرايخ، مهما كانت صعوبات الحياة التي سوف تقابله». وها هو يونغ يضيف بعد ذلك: «إن غورنغ شخص لطيف جدًا ومتفهم جدًا، وهذا ما يجعل تعاوننا تحت أفضل رعاية[756]».

بدأ يونغ منذ ذلك الحين ينشر نصوصًا مؤيدةً لألمانيا النازية. ظهر النص الأول بتاريخ 1933. تحت عنوان «افتتاحية»، ها هو يعلن عن تصور كلاسيكي للاختلاف بين الأعراق والعقليات، حيث كل منها موهوب، حسب رأيه بـ«نفسية» نوعية: «سوف يكون الواجب النبيل الملقى على الـ Zentrablatt هو بالتالي، مع احترام محايد ونزيه لجميع المشاركات المقدمة إليها، أن تشكّل تصوزا إجماليًا ينصف أكثر فأكثر الوقائع الجوهرية في النفس البشرية مما لم يتوافر حتى هذا التاريخ. إن الاختلافات الموجودة فعليًا، والمعترف بها منذ فترةٍ طويلة من أناسٍ بعيدي النظر، بين النفسية الألمانية والنفسية اليهودية لا يجوز بعد اليوم طمسها، فليس في ذلك أي مكسب للعلم. إن علم النفس أكثر من أي علم آخر يتضمن /معادلة شخصية/ وإنكار هذه المعادلة يأتي بنتائج مغلوطة على مستوى التطبيق والنظرية. ولسنا هنا، بطبيعة الحال، وأود أن يكون هذا مفهومًا تمامًا، بصدد أي انتقاص من علم النفس السامي، كما لسنا حيال الانتقاص من علم النفس الصيني، حين نتحدث عن النفسية الخاصة بسكان الشرق الأقصى[757]».

بتاريخ 26 يونيه /حزيران 1933، منح يونغ تلميذه أدولف فون وتزاكر، الطبيب في الأعصاب والنفس، وكان قد أصبح نازيًا، أثناء عبوره في برلين لإلقاء محاضرة، حديثًا إذاعيًا - وبهذه المناسبة، عزف هذا الأخير عن معلّم زيوريخ الكبير بأنه بروتستانتي بارز من بال وأنه «أعظم باحث في علم النفس الحديث». وببراعة، صرّح بأن نظريته عن النفس أكثر إبداعًا وأقرب إلى «الروح الألمانية» من نظريات فرويد وأدلر. ثم إنه جعل يونغ يقدّم توصيفًا مداحًا لهتلر وللشبيبة الألمانية الجميلة مع انتقاد الديمقراطيات الأوربية «الغارقة في النظام البرلماني». واختتم يونغ الحديث مقترحًا على الأمم «الاغتناء» بتطبيق برنامج تجديدي للنفس قائم على تمجيد القائد: «كما كان هتلر يقول مؤخرًا، هكذا صرّح، يجب على القائد أن يكون قادرًا على البقاء وحيدًا، مثلما يجب عليه أن يكون قادرًا على العيش بمفرده، وأن يتحلّى بشجاعة على الاستمرار بطريقةٍ خاصة [...]، فالقائد هو الناطق باسم الروح الوطنية. إنه رأس حربة لكتائب الشعب في مسيرته. إن الحاجة عند الجمهور تطالب دائمًا بوجود الزعيم،

مهما كان شكل الدولة[758]».

رفض يونغ أن يفهم بأن إضفاء الطابع النازي كان الهدف منه طرد جميع اليهود من مهنة العلاج النفسي، كي يُصار إلى إبادتهم، كما أنه لم يقبل أيضًا[759] بأن عددًا من أنصاره الألمان، الذين كان يتعاون معهم في Zentralblatt، يمكن أن يكونوا قد قبلوا بطروحات الحزب القومي الاشتراكي، ولم يكن تصرّفه، حيال ذلك أشرف من تصرّف صغار الفرويديين في برلين، فهؤلاء أيضًا كانوا يظنون بأنهم يحمون وحدة مبادئ التحليل النفسي في مواجهة الانحرافات؛ هم أيضًا كانوا يعتبرون «الجدّ - الفوهرر» بلحيته الطويلة رجلًا لطيفًا ومتعقلًا. في تلك الأثناء، إذا كان يونغ قد أمكنه، من دون أن يرفّ له جفن، القيام بذلك التعاون، فما ذلك إلّا لأن تصوّره للاشعور كان على تناسق في معظم جوانبه مع التصور الذي بشر به صنّاع العلاج النفسي «الآري». إن يونغ، الماشي على أعقاب نظرية اختلاف الأعراق، كان ينظر إلى النفس الفردية كانعكاس للروح الجماعية عند الشعوب. بتعبير آخر، كان يحاول، بعيدًا عن تلبّس صفة الأيديولوجي المروّج للتفاوت بين الأعراق، كما حال الفاشي دولابوج أو غوبينو، التأكيد على نفسه بصفته صاحب إشراقٍ يسعى لإيجاد «علم نفس الأمم» القادر في الوقت نفسه على تبيان قدر الفرد ونفسيته الجماعية. كان يقسم الأنموذج الأمثل إلى ثلاثة إملاءات الـ animus (صورة المذكّر) والـ anima (صورة المؤنث) والـ Selbst(الذات)، المركز الرئيسي للشخصية. وهذه النماذج الثلاثة تشكل، إذا أخذنا برأيه، أساس النفس، مكمن الإرث الأسطوري لبشرية منتظمة حول مقولة الاختلاف. وهكذا كان يونغ. المسلّح بعلم النفس القائم على نماذج، يصنّف اليهود ضمن زمرة الشعوب المقطوعة الجذور، والمحكوم عليها بالشتات، وهو الشتات الذي يزيد من خطورته أن اليهود، للتخلّص من فقدانهم للقومية السيكولوجية، ما كانوا يترددون في غزو العالم العقلي، والاجتماعي، والثقافي عند غير اليهود.

وها هو يتطوّر، ضمن هذا السياق تحديدًا، إلى تصوّرٍ قوامه عدم المساواة في نفسية النماذج. حتى ذلك التاريخ، كان قد اكتفى بمقاربة تقوم على مصطلحات كلاسيكية حول الاختلاف، لكنه، في أبريل/ نيسان 1934، نشر في الـ Zentralblatt مقالة طويلة: «Zugegebwartigen lage der Psychotherrapie» وفيها يمجّد الحزب القومي - الاشتراكي مع التأكيد على تفوّق اللاشعور الآري على اللاشعور اليهودي. وسوف يصبح هذا النص شهيرًا بصورة محزنة ويثقل بوطأته الكبيرة على القدر

اللاحق ليونغ والحركة اليونغية.

لقد اجتمعت كل العناصر لتحويل النظرية الفرويدية إلى نظرة جنسانية شمولية فاحشة على ارتباط بـ«العقلية» اليهودية. يبدو كما لو أن يونغ قد نسي أنه منذ ربع قرن من الزمان كان قد دافع عن التحليل النفسي في وجه حجج من النمط نفسه، وهي الحجج التي كانت تقارنه بجائحة وُلدت من انحطاط فيينا الإمبراطورية. وهاكم بعض المقتطفات: «يشترك اليهود مع النساء بهذه الخصوصية: نظرًا لأنهم أضعف جسديًا، لا بدّ لهم من التفتيش عن نواقص التسليح عند خصومهم، وبفضل هذه التقنية التي فُرضت عليهم على امتداد قرون، أصبحوا محميين أكثر، تحديدًا حيث أصبح الآخرون أصعب [...]. إن اليهودي، كما حال الصيني المثقف، ينتمي إلى عرق وإلى ثقافة عمرها ثلاثة آلاف عام ولهذا السبب يعي نفسه سيكولوجيًا أكثر مما نحن قادرون عليه. ولذلك لا يشعر بخشية عمومًا من عدم تقدير اللاشعور عنده. بالمقابل، أن اللاشعور الآري مثقل بقوى متفجرة وببذور مستقبل ما يزال ينتظر أن يرى النور. وهكذا لا يستطيع الانتقاص من قيمته أو توصيفه بأنه رومانتيكية طفولية لأنه بذلك يضع نفسه في موضع الخطر. إن الشعوب الألمانية، التي ما تزال فتية، يمكنها أن تُنتج أشكالًا جديدة من الثقافة. وهذا المستقبل ما يزال غافيًا في اللاشعور المعتم عند كل ألماني، حيث تنتظر بذور مفعمة بالطاقة وجاهزة للاشتعال. أما اليهودي، الذي يحمل بعضًا من البداوة الرحالة، لم يُنتج أبدًا ولن يُنتج أبدًا من دون شك ثقافة أصيلة؛ لأن غرائزه ومواهبه، كي تتفتح، هي بحاجة إلى شعبٍ حاضن متمدن قليلًا أو كثيرًا. ولهذا السبب، حسب خبرتي، يمتلك العرق اليهودي لا شعورًا لا يمكن مقارنته باللاشعور الآري إلّا ضمن بعض الشروط. وباستثناء بعض الأفراد المبدعين، إن اليهودي المتوسط أوعى وأكثر اختلافًا من أن يكون قادرًا على حمل توترات مستقبلٍ في طريقه إلى النهوض. إن اللاشعور الآري لديه طاقة متفوقة على اللاشعور اليهودي: [وتلك هي] الميزة والعلة عند شبيبةٍ ما تزال أقرب إلى البدائية. وتمثّل الخطأ الأكبر في علم النفس الطبي بتطبيق تصنيفات يهودية دون تمييز - علمًا بأنها حتى ليست صحيحة في نظر جميع اليهود - على سلافيين وألمان مسيحيين. نتيجةً لهذا الأمر، لم يلحظ علم النفس ذاك في كنوز الشعوب الجرمانية العميقة والأصيلة - روحهم الإبداعية والحدسية - إلّا مستنقعات طفولية وغير ذات قيمة، بينما كانت تحذيراتي تُقابَل بسوء الظن وأنها مطبوعة بمعاداة السامية، وسوء الظن هذا منبعه من فرويد الذي لم يكن يفهم النفس الجرمانية، وكذلك كان حال تلامذته

الألمان، فهل إن الظاهرة العظيمة التي تجلت في الحزب القومي الاشتراكي، التي يتأملها العالم قاطبةً بدهشة، يمكن أن تكون قد أضاءت أفهامهم[760]؟».

في رسائله التي تعود إلى سنة 1934، راح يونغ يشتكي أكثر من مرة بأنه بات من المستحيل عليه منذ ذلك الوقت الكلام عن اليهود دون أن يوصم بمعاداة السامية، وحين تضاعفت الهجمات عليه، نسبها إلى جدلٍ معادٍ للسامية: «مجرّد حديثي عن وجود اختلاف بين السيكولوجيا اليهودية والسيكولوجيا المسيحية، هكذا كتب إلى جيمس كيرش، يكفي لإثارة العالم جميعًا كي يرددوا الفكرة الثابتة بأنني معادٍ للسامية [...]. والأمر هنا بكل بساطة يتعلق بحساسية مرضية تجعل من المستحيل إقامة أي نقاش. وكما تعلم، فإن فرويد سبق له أن اتهمني بمعاداة السامية لأنني كنت أشعر بعجزي عن تأييد ماديته الخالية من كل روح، بمثل هذا الاندفاع كي نتحسس في جميع الأمور روحًا معادية للسامية، سوف ينتهي الأمر مع اليهود بإثارة معاداة السامية فعليًا[761]».

من خلال ما يأخذه يونغ على اليهود بأنهم يفبركون الشروط لإيقاع الاضطهاد عليهم، كان يزعم بأنه يساعدهم كي يصبحوا يهودًا أفضل مما هم علي، وفي رسالة موجهة إلى تلميذه جيرهار أدلر، بتاريخ 9 يونيه/حزيران 1934، وافق على الفكرة التي جاء بها هذا الأخير والقائلة بأن فرويد كان بشكل من الأشكال مذنبًا حين انفصل عن أنموذجه اليهودي الأمثل، عن «جذوره» اليهودية. فكأنه يقول، انسجامًا مع نظريته، بأن يونغ كان يندد بالنمط الفرويدي لليهودي الذي لا دين له، بيهودي التنوير. إنه يدين الوجه الحديث لليهودي المذنب بالتخلي عن يهوديته الذي، في رأيه، ذنبه إنكار «طبيعته» اليهودية: حين أنتقد الجانب اليهودي عند فرويد، أنا لا أنتقد اليهود، وإنما تلك الطاقة المدانة عند اليهود بإنكار طبيعتهم الخاصة وهو ما يتمثل في شخصية فرويد[762]. كان يونغ مهتمًا بإعادة اليهود إلى صعيد علم نفس الاختلاف، ولهذا وجّه انتباهه إلى متابعة تطور تلامذته اليهود الذين اختاروا النفي إلى فلسطين. فهم بعد رسوخهم في أرض الميعاد الجديدة، يجب أن يكون بإمكانهم التحول للوقوف مع يونغ وقوفًا حقيقيًا. وها هو يوجه رسالة بتاريخ 22 ديسمبر/ك1 1935، إلى إيريك نيمومان الذي أصبح مقامه المستقر في تل أبيب، وفيها يجلد المثقفين اليهود الأوربيين «المشغولين دائمًا بالبحث عن كل من هو غير يهودي». وفي الجهة المعاكسة، كان يبدي تقديره لليهود الفلسطينيين الذين وجدوا أخيرًا «أرضهم المثالية»: «اقتناعك الموضوعي جدًا، هكذا

كتب، بأن الأرض الفلسطينية لازمة لتحديد الشخصية الفردية اليهودية، هي فكرة أنا أنظر إليها بأنها ذات قيمة كبيرة، لكن كيف يمكن التوفيق بينها وبين واقع بقاء اليهود عمومًا يعيشون لفترة جد طويلة في أماكن أخرى غير فلسطين [...]؟ فهل يكون هذا مردّه إلى أن اليهود جدّ معتادين على أن يكونوا غير يهود بحيث يشعرون بالحاجة المحسوسة للوصول إلى أرض فلسطين كي تذكرهم بيهوديتهم[763]؟»

بتعبيرٍ آخر، كان يونغ صهيونيًا من خلال معاداة السامية، بينما يرفض فرويد الصهيونية لأنه لا يؤمن ولو للحظةٍ واحدة بالفكرة التي تزعم بأن اليهود سوف يجدون حلًا لمعاداة السامية بالاستيلاء على أرض الميعاد، وحتى النهاية، بقي فرويد يهوديًا في الشتات، يهوديًا منتسبًا إلى العالم قاطبةً، بينما تلميذه القديم راح يتعلق بالفكرة القائلة إن اليهود لا يمكن لهم البقاء إلّا بتأكيد مدَ جذورهم في أرض حقيقة: وهذا تعارض بين أرض الميعاد في اللاشعور، الكامنة في الشخصية الذاتية، والأرض النموذجية.

إذا ما نظرنا إلى هذا الأمر عن قرب، سوف نتبين بأن يونغ يستخدم أحيانًا، في كتاباته، تلك اللغة الشهيرة عن الرايخ الثالث -(Lingua Tertii Imperii LTI) - التي وصفها بأدق الصفات الفقيه اللغوي فكتوركلمبيرر، حين قال بأنها من قاموس هتلر الشعبي المستخدم للكلمات الألمانية الأكثر تبسيطًا كي يسهل عليه الترويج لأفكاره - البروباغندا -. وهو مشروع يهدف إلى تدمير غنى اللغة الألمانية، عن طريق الـ (LTI) التي سوف ينتهي بها الأمر كي تصيب بالعدوى جميع الأحاديث والكتابات عند أولئك المتعاونين مع النظام. وغالبًا ما كانت النصوص المكتوبة بهذه «اللغة الجديدة»، تكثر من إيجاد مرجعيات للخصوصيات المزعومة عند اليهودي، الذي يُشار إليه دائمًا على أنه « شيء» خامل أو رحّال، محتقر، عدمي، خارج الإنسانية، في مقابل «الآري» العظيم، صاحب المقام الرفيع، جوهر جميع أشكال التفوق «العرقي»[764].

بهذا الصدد، يمكننا بشكلٍ مفيد إجراء مقارنة بين مواقف كارل غوستاف يونغ ومارتن هايدغر، العدو الشرس للتحليل النفسي. فالفيلسوف، الذي كان يعتبر بأن اليهود «ليس لديهم عالم» وأن التحليل النفسي قريب جدًا من العدمية، دوّن في دفتره الرابع عشر لسنة 1940 - 1941، بأنه من غير اللازم «إبداء الاستنكار بصخب زائد حيال التحليل النفسي» عند «اليهودي فرويد»، كما يفعل أنصار البيولوجية العرقية، لكن علينا أن نضيف سريعًا بأن التحليل النفسي نمط من التفكير لا يغفر أبدًا للكائن الحي ويعود بكل شيء إلى الغرائز وإلى المبدأ الغريزي. هو أيضًا

كان يستخدم اللغة الدعائية عند الرايخ الثالث ((LTI[765].

بمقدار إقصاء يونغ ليهوديي الشتات عن إمكانية الوصول إلى «الهوية اليهودية الفردية»، كان هايدغر يقصي اليهودي عن الإنسانية المفكرة كي يعود به إلى مستنقعات الغرائز، فمن ذاك الطرف ومن هذا الطرف، كانت معاداة السامية التي لا تريد أن تجاهر باسمها تزعم بأنها تبعد الفكر اليهودي عن منصة العالم. كما لو أنها كان يمكن أن تكون من وراء ولادة مذهب يهودي نوعي. كان يونغ يرى بأن التحليل النفسي يفتقر إلى «أرض الأنموذج»، بينما كان في نظر هايدغر عدمية تحمل اسم اليهودي فرويد. وهكذا فإن يونغ وهايدغر مشتركان بانتمائهما إلى ما يشبه لاهوت معادٍ لليهودية والمسيحية ومؤمن بتعدد الآلهة[766].

في 1936، حقق غورنغ أخيرًا حلمه. فقد أنشأ المعهد الألماني للبحث السيكولوجي والعلاج النفسي، والذي سرعان ما أطلق عليه اسم معهد غورنغ. وكي يُشار بوضح إلى انتصار النازية على التحليل النفسي، جُعل مقر المعهد في أماكن الـ BPI المشهورة، رمز القوة الفرويدية التي أراد القضاء عليها من دون هوادة. هنا أُعيدَ تجميع «فرويديين» و«يونغيين»، و«مستقلين»، و«أدلريين» يتبادلون الكراهية فيما بينهم.

وهكذا، طوال فترة الحرب، تابع ما يقرب من عشرين من الفرويديين نشاطاتهم العلاجية ومنازعاتهم المدرسية بالدفاع عن «تحليل نفسي جيد» بإشراف معهد غورنغ وتحت الجزمة النازية، وباسم عملية إنقاذ مزعومة أساء هؤلاء الرجال إلى شرفهم بالتعاون على تدميرٍ كان يمكن أن يقوم في جميع الأحوال دونهم، وهذا هو الأفضل، لقد اندمجوا مع لغة الرايخ الثالث، وتقبلوا الاستئصال المنهجي لكل القاموس الفرويدي، ورغم كل ما أكدوه في دفاعهم اللاحق، فقد رفضوا مداواة مرضى يهود، وهؤلاء كانوا في جميع الأحوال من الذين يُرفض إعطاؤهم أي علاج ويتم إرسالهم إلى معسكرات الاعتقال.

في مايو/أيار 1936، جرى الاحتفال بعيد مولد فرويد بصورة فائقة الأهمية. فقد أغرقته التكريمات، فهو العالم ذائع الصيت، المرتبط منذ ذلك الوقت في فيينا، وقد وصلته هدايا ورسائل، كما لو أن جميع الذين يكرمونه هـ.ج.ويلز، رومان رولان، ألبرت شفايتزر، وكثيرون غيرهم - كانوا يدركون بأن وضعه ميؤوس منه: «حتى وقت قريب جدًا، كما أشار ألبرت آينشتاين، لم يكن بإمكاني إدراك القدرة التأملية لسياق تفكيرك وكذلك مداه الهائل في التأثير على الـ Weltanschauung في عصرنا، من دون أن يكون بإمكاني مع ذلك تكوين رأي قطعي عن حقيقة هذا السياق

الفكري. منذ فترة غير طويلة سنحت لي الفرصة لسماع الحديث عن بعض الحالات، غير ذات أهمية كبرى بحد ذاتها لكنها، في رأي كانت بعيدة عن أي تأويل أخر ما عدا التأويل الذي تقدمه نظرية الكبت[767]». في ذلك اليوم، كانت ابنة أخ فرويد، ليلي فرويد - مارليه، أرسلت إليه ثلاث دراسات كانت قد كتبتها من أجله وقد لامست شغاف قلبه لشدة وعيه بالتشتت الذي لم يكن منه مفر لجميع أعضاء عائلته الذين أصبحوا في بلاد المنفى[768].

في اليوم التالي، زاره بينسوانجر وتوماس مان، وهذا الأخير رجع بتاريخ 14 مايو/أيار إلى فيلا غرانزينغ[769] حيث كان يقيم أغلب الوقت، وذلك كي يسمعه الخطاب حول «الحياة المعاشة سابقًا» وهو الخطاب الذي ألقاه على شرفه في الـAkademische Verein fur Medizinische Psychologie. وفي هذه المرة، شعر فرويد بتأثر حقيقي، حيث أنه قبل أن يصنف الكاتب مؤلفاته ضمن التراث الفلسفي وأن يوصف هو نفسه أنه ابن نيتشه وشوبنهاور ثم بأنه «رائد إنسانية مستقبلية»: إن العلم كما يقول توماس مان، لم يقم بأدنى اكتشاف إلّا من بعد السماح له بذلك، ونحو هذا العلم لم توجهه أي فلسفة[770]. وقد اختتم مان مديحه بنداء جيّاش من أجل حرية الشعوب، مع إشارته بقوة كم كان فرويد يشبه فاوست. وقد عقد الرجلان من بعد ذلك حديثًا طويلًا بصدد اسم يوسف، البطل التوراتي، ابن يعقوب، حفيد إسحاق، مثلما هو أيضًا شخصية تاريخية، شقيق نابليون بونابرت، الموجود دائمًا في كتابات فرويد. في يناير/ك2، كان فرويد قد كتب في جميع الأحوال نصًا حول هذا الموضوع من أجل كتاب تكريم على شرف رومان رولان[771].

كان مان وفرويد شغوفَين بالبحوث المصرية القديمة، كما أن توماس مان كان قد بدأ بكتابة رواية ضخمة توراتية مخصصة ليوسف، آخر الآباء القدامى. في الإصحاح الأخير من سفر التكوين، طاب ليوسف، الابن المفضل عند يعقوب أن يكون موضع حسد من طرف أشقائه الأحد عشر الذين قصّ عليهم حلمين فيهما نبوءة: في الحلم الأول، إحدى عشرة حزمة من الأعشاب الحقلية مالت رؤوسها أمام حزمته، وفي الحلم الثاني، أحد عشر كوكبًا سجدوا له. ولأنه سبّب الضرر لأشقائه، فقد رُمي أولًا في بئر ثم بيع بعشرين درهمًا إلى الإسماعيليين الذين أخذوه معهم إلى مصر حيث اشتراه فوطفار، رئيس الشُرطة عند فرعون فوكله على بيته وقاوم مراودة امرأة سيده. وكان الرب مع يوسف فكان رجلًا ناجحًا، وقد كان مباركًا بتأويل الأحلام، سوف يصبح نائب ملك مصر. وبعد انتهاء فترة من النفي، أصبح قويًا، وصفح عن أشقائه، وجاء بوالده الذي بارك أبناءه من نسل

زوجته أسنات بنت فوطي فارع*، وسوف يسميه وريثًا متميزًا للحلف الإلهي المقدس مع نسل إبراهيم. وعند موته، سوف يتنبأ يوسف بالخروج من مصر، ومن بعده، سوف يراعي موسى، عند قيادته للعبرانيين نحو أرض الميعاد، حمل رُفات ابن يعقوب معه.

بتعبير آخر، في اللحظة التي بدأ فرويد يتهم فيها بموسى، بعد أن كان مسكونًا طيلة حياته بهاجس معركة يعقوب مع الملاك، بدأ توماس مان يؤلف روايةً جعل فيها من يوسف بطلًا حديثًا، ما يشبه نرسيس المفعم بالامتيازات من طرف أب خاضع طيلة حياته لمعركة متواصلة، ولاقتناعه بأن جماله وتفوقه الفكري سوف يحملان إليه القدرة والمجد، فقد جعل يوسف غطاءه وشاح عرس والدته راحيل، وهذا ما حزك غيرة أشقائه. وها هو، يحكم عليه قدره بأن ينزل إلى مرتبة العبودية، لكنه من بعد أن أصبح عبدًا، استعرض جميع مواهبه في الإدارة والتنظيم لدى الفرعون أمنحوتب الرابع، وهو بذلك يشجع على تحويل الميثولوجيات القديمة إلى ديانة توحيدية ويصبح تجسيدًا لإنسانيةٍ تقدمية. إن يوسف توماس مان، اليهودي والمصري، البراغماتي والإداري، كان بطل حالة روحانية لا يمكن أن تكتمل إلّا في المنفى وفي التأكيد على ذاتية لا سابق لها في مواجهة أبٍ ما يزال متعلقًا بعالمِ غابر التقاليد. من خلال تلك القصة الأسطورية، كان الكاتب يريد أن يضيء، في مواجهة النازية، مقولة أولوية آباء إسرائيل بعد مراجعتها وتصحيحها من خلال الإنسانية التي توحي بها.

كان فرويد قد قرأ الأجزاء الثلاثة الأولى من تلك الرباعية، التي ظهرت ما بين 1933و1936[772]، واستلهمها كي يقدم إلى مان تأويلًا مذهلًا للموقع الذي شغله جوزيف (يوسف) في مصير نابليون بونابرت، في نظر الأمبراطور، كان شقيقه جوزيف يقوم بدور الأنموذج الأمثل والشيطاني على التوالي، وانطلق فرويد من الفكرة التي تقول إن بونابرت الشاب شعر في طفولته بعداوة شديدة حيال شقيقه البكر جوزيف وأنه، في سبيل احتلال موقعه، حوّل كراهيته البدائية إلى محبة، مع احتفاظه في أعماق نفسه بشيء من العدوانية القديمة التي تحولت بعد ذلك لتتناول بصورة ثابتة مواضيع أخرى. وبالدلال الذي حظي به من طرف والدته، سوف يصبح نابليون فيما بعد بديلًا للأب عند أشقائه وقد شعر بتعلق لا حدود له بجوزفين، التجسيد الأنثوي لجوزيف. إن حبه لتلك الأرملة الشابة، التي كانت مع ذلك تعامله معاملة سيئة وتخونه، ليست إذن، في رأي فرويد، سوى نتيجة لتوحيدها مع جوزيف. لكنه، كي يقوم بدوره كاملًا كبديل عن شقيقه البكر، ثبّت نابليون اختياره على مصر، مرتبطًا من جديد على هذه

الصورة مع حياة ابن يعقوب ولهذا السبب شكّلت حملة مصر لحظةً أسمى في الملحمة النابليونية حيث أنها أتاحت لأوربا، وبالتالي لفرويد نفسه، اكتشاف آثار حضارة مذهلة، وفَتح حقل دراسات جديد أمام التنقيبات الأثرية، وحين لفظ نابليون جوزفين فيما بعد، سوف يصبح غير وفي لأسطورته وهو بيده قد نظّم انهياره إذ تحول إلى طاغية شيطاني، وإنه بصفته كحالمٍ مستعصٍ على العلاج، أمكنه أن يقوم في مصر بدور يوسف ابن يعقوب بالذات، كي يسهم لاحقًا في تدمير نفسه وتدمير أوربا.

كما حال معظم الروائيين في القرن التاسع عشر من بلزاك إلى تولستوي مرورًا بهوغو -، اهتم فرويد على الدوام بالمصير البطولي لذلك الفاتح الحديث، المعجب بالعلوم، المعادي للغيبيات الدينية، والذي حوّل العالم الأوربي وأعطى لليهود حقوقًا مدنية بتشجيعه على دمجهم بالمجتمع. علمًا بأنه كان قد رفع إليه آيات تكريم حين ذكر أن إسحاق برناي، جد مارتا، كان قد استفاد من القانون المدني الذي أدخله المحتل الفرنسي فأصبح باستطاعته الدخول إلى الجامعة ليصبح فيما بعد الحبر الأعظم في هامبورغ. ثم إن الدوق ريخستاد[773] كان ينتمي من جهة أمه إلى بيت الهابسبورغ. إن هذه الأنساب مجتمعةً كانت حاضرة في ذاكرة فرويد. لكنه، على عكس توماس مان، كان ينظر أيضًا إلى الإمبراطور كنَكِرة وكـ«حثالة رائعة»، وهو قد اجتاز العالم كالسائر في نومه كي يغرق في جنون العظمة[774]. كان يبدو وكأن فرويد قد نسي أنه في طفولته كان قد أعجب بماسينا، الماسوني والمارشال في الإمبراطورية، المولود في 6مايو/أيار مثله والذي كان يعتبره يهوديًا.

نظرًا لأنه كان من محبي الثقافة الإنجليزية، فقد نظر إلى الإمبراطور على أنه نتاجٌ خالص للبعاقبة الفرنسيين، مع إعلانه بأن قصته العائلية ذات أهمية قصوى لمذهب التحليل النفسي وأن الرجل كان يتمتع بعبقرية وأنه من «صنف رائع»، وفي جميع الأحوال، إن القدر الرومانتيكي لهذا الرجل، الذي قابل غوته وجسّد إرادة عصرٍ بأكمله للقطيعة مع الميثولوجيات العائدة إلى الأصول كي يؤكد على نهوض وعي تاريخي جديد، ولّد اهتمامًا عظيمًا لدى الجماعة الفرويدية، وكان جونز أول من تكلم مع فرويد عن تاريخ جوزيف وعن العقدة الشرقية عند بونابرت، وعلى آثاره، ها هما لودفيغ جيكل وإدمون بيرغل يخصصان كلٌ منهما دراسة عن حياة نابليون وعن عقدته حيال الأخ أو حيال الأب[775].

وحقيقة الأمر أن التعامل مع توماس مان، جعل فرويد يستذكر زيارته للأكروبول والاضطراب الذي شعر به حين تبين له بأن قدره شديد

الاختلاف عن قدر والده.

وكانت أهمية التعاون مع مان كامنة في تماثل المسيرتين. لأن فرويد، كما الحال مع الكاتب الروائي، يحرّك الدراسة المصرية كي يحوّل التاريخ التوراتي لليهودية إلى رواية عن اليهودية الحديثة، وهي يهودية فيها بطلٌ مُجبَر على أن يعيش النفي وهو ثمرة هويتين: إحداهما يهودية، والأخرى مصرية. كان مان قد اختار يوسف بينما اختار فرويد موسى، كما لو كان كلٌ منهما يريد، على طريقته، إظهار عظمة تلك اليهودية في الشتات والمقدّر عليها أن تتعرض للإبادة الجماعية، سوف ينهي مان كتابه على الشاطئ الغربي من الولايات المتحدة، برفقة بريخت، وأدورنو، وفريتز لانغ، أما فرويد فأنهى كتابه في بيته في لندن، محاطًا بعائلته، وهكذا أمكن لكلٍ منهما الحفاظ، في أعماق المنفى، على جمال اللغة الألمانية، ذلك الخير الوحيد الذي لم يتمكن هتلر أبدًا من انتزاعه منهما.

في أغسطس/آب 1936، ترأس جونز في مارينباد المؤتمر الرابع عشر للـIPV. وقد اقترح التخلي عن الشعار الألماني ذاك ليضع محله الـ IPA - International Psychoanalytical Association وكان ذلك الاختيار معللًا لأن اللغة الإنجليزية، منذ ذلك الوقت، أصبحت هي الغالبة في التبادلات الدولية ولأن المنفيين من أوربا الوسطى القديمة يتكلمونها بإتقان، وبينما بدأت المجابهة من جديد بين أنصار ميلاني كلين وأنصار آنّا فرويد، وفي الوقت نفسه الذي بدأت فيه ميليتا شميدبيرغ، بدعم من إدوار غلوفر، تشن حملتها على أمها، ها هو جاك لاكان، طبيب النفس الفرنسي الذي أصبح معروفًا في بلاده، يدخل إلى حركة التحليل النفسي العالمية مقدمًا دراسته المعنونة «مرحلة المرآة». بعد أقل من عشر دقائق، قاطعه جونز . وحينذاك توجّه لاكان إلى مظاهرات الأولمبياد الحادي عشر في برلين، بذكراه المشؤومة. هو الآخر كان يريد أن يرى هتلر وجهًا لوجه. وأمام ذلك المشهد، الذي بثّ في نفسه الرعب، وبعد الإذلال الذي وقع عليه من طرف جونز، أحس بأن الوقت قد حان للقيام بـ«ثورة فرويدية» جديدة. وها هو يكتب بيانًا، «ما وراء مبدأ الحقيقة الواقعية[776]»، وهو يشكّل تكملة لـ«ما وراء مبدأ اللذة». في تلك الآونة، لم يكن أحد ليشتبه في ميدان الـIPA بالتأثير الذي سوف يُحدثه ذات يوم لاكان بإعادة صياغة أعمال فرويد.

في نوفمبر/ت2، أثناء اجتماع للـWPV، قدم بويم، ومثله آنّا فرويد، تقريرًا يشرح بأن طلابًا عديدين يحضرون محاضرات حول التحليل النفسي ضمن إطار «معهد غورنغ»، في ذلك التاريخ، بدأ فرويد يتنبه إلى

أن سياسة «إنقاذ» التحليل النفسي لم تكن من دون شك الاختيار الأفضل، وطلب إلى بويم أن يقدم له شرحًا تفصيليًا عن الموقف، بالضبط قبل أن يعود إلى هجماته على أدلر مقدمًا التوصية بعدم تقديم أي تنازل لأنصار «سيكولوجيا الاحتجاج المذكّر».

كان بويم قد نجح بأن يعرض نفسه كمدافع عن الفرويدية، مع تسليمه بأن ما كان يحصل في ذلك الوقت في ألمانيا ما كان بالإمكان السماح به من طرف الحركة قبل عامٍ مضى. فما لم يكن مقبولًا أصبح منذ ذلك الوقت أمرًا غير ذي بال. لكنه اقترح مع ذلك دعوة عضو من الـWPV إلى برلين: «ومن سوف تدعو؟» سأله فرويد، فقدم بويم اسم ريتشارد ستيربا، الوحيد غير اليهودي في الـWPV، والمعادي في جميع الأحوال لكل شكل من أشكال التعامل مع النازية: «سوف أقبل بكل طيب خاطر الدعوة، هكذا كان جواب ستيربا، بعد دعوة أحد زملائي اليهود في فيينا كي يتحدّث في معهد برلين». كان ستيربا يتخيل بأن فرويد غير موافق بالكامل على سياسة جونز، لكن لم تكن الأمور قد أصبحت بعدُ كذلك. ويالَه من اجتماعٍ مشؤوم[777].

في معهد غورنغ، كان كل فردٍ يكرّس نفسه لبحوثه وتجاربه الخاصة، وفي صفوف المأسوف عليها الـDPG، كان جون ريتميستر، وأغوست واترمان، وكارل لاندوير، وسالوميا كامبنير أول أهم ضحايا تلك السياسة - فقد تم القضاء عليهم أو تم اغتيالهم -، ومثلهم عديدون آخرون من المعالجين الهنغاريين أو النمساويين الذين لم يتمكنوا أبدًا من الذهاب إلى المنفى.

لقد شارك نفرٌ من مناصري ألفريد أدلر من الألمان، هم أيضًا، في سياسة التعامل تلك. علمًا بأن مقولات أدلر لم تُعتبر أبدًا من طرف النازيين بأنها «علمٌ يهودي» رغم أن الأب المؤسس لعلم النفس الفردي كان يهوديًا مثل فرويد تمامًا. لكن علم النفس الأدلري، بخلاف التحليل النفسي، كان يجابه التعميم الفرويدي الشامل بخصوصيةٍ فريدة. مختصر القول، إن التحليل النفسي دون سواه هو ما اعتُبر بأنه «علمٌ يهودي»، لأنه يزعم التطبيق على الذات الإنسانية بصفته تلك. على هذا الصعيد، وقع تحت ضربات الإدانة الجذرية أكثر من كل ما عداه. إذ أصبح الواجب ليس القضاء على أنصاره وحسب، وإنما أيضًا تدمير لغته والمفاهيم القائم عليها. إن أنصار فرويد، وأدلر، ويونغ، المجتمعين في معهد غورنغ، والمتقاتلين بشراسة بعضهم في مواجهة بعض، تعاملوا بالتالي على استئصال أنفسهم، وأدلر، حتى موته، تعامل مع فرويد على أنه محتال ومتآمر[778]، بينما لم يتوقف هذا الأخير

عن استخدام ألفاظ من العيار نفسه في وجه غريمه القديم: «بارانوي، فليس قميء»، إلخ. وحين توفي أدلر في اسكتلندة استخدم فرويد هذه الكلمات الثأرية: «بالنسبة لشاب يهودي غز خارج من الأحياء المحيطة بفيينا، الموت في مرفأ أبيردين نهاية لم يكن يرجوها وفيها البرهان على الطريق الذي سار عليه، لقد كافأه الناس حقيقةً مكافأة جيدة؛ لأنه أخذ على عاتقه أن يزرع التناقض وسط التحليل النفسي[779]».

منذ صيف 1934، بدأ فرويد يعمل بكتابه عن موسى، وهو الكتاب المستوحى من كتاب توماس مان، ومن ردة فعلهما المشتركة حيال الاضطهادات المعادية للسامية، كان قد تحدث عن هذا المشروع في البداية مع أرنولد زفايغ ثم مع لو أندرياس - سالومي: «لم يكن موسى يهوديًا، حسب قوله، بل هو مصري ذو مركز بارز [...] وهو نصير متحمس لعقيدة التوحيد التي جعل منها أمنحوتب الرابع بتاريخ 1350 قبل الميلاد ديانة الدولة[780]».

شعرت لو أندرياس سالومي بالفرح عندما سمعت بنبأ هذه الدراسة الجديدة. ولكنها بعد عام، أشارت إلى انهيارها الجسدي الذي توافق في غوتنجن مع التقدم الذي يزداد إجرامًا للهيجان النازي. لقد لاحقتها كراهية إليزابيث فورستر، التي كانت قد أسهمت حتى وفاتها بتاريخ 1935، في إعطاء صبغة نازية لمؤلفات نيتشه. وهكذا وجدت سالومي نفسه مجبرة على الانتساب إلى «اتحاد كتاب الرايخ»، وبعد ذلك على تعبئة استمارة تشهد فيها على انتمائها إلى «العرق الآري». وفي كل يوم، كانت تعاين جيرانها، المتوهجين بالهتلرية، وهم يرفعون على نوافذهم الصلبان المعقوفة المضاءة: وكانوا يطلقون عليها اسم «الساحرة». وفي لحظة من لحظات التمزق، كتبت نصًا كانت تريد أن تعهد به إلى أحد الناشرين حول انتمائها إلى ألمانيا الحاضر. لكنها تنبهت إلى أن هذا النص يمكن أن يستخدم ضدها كبرهان على دعمها للنظام ولذلك مزّقته، غير أن صديقها المخلص، إرنست فيفر، جمع النتف وأعاد إلصاقها واحتفظ بها في ملفاته. تحت ذلك العنوان الملتبس، كانت «لو» تشير إلى الروح الألمانية وليس إلى انتمائها لما صارت عليه ألمانيا. لقد استخدمت أسلوبًا ظلّ على الدوام أسلوبها الخاص بها: تمجيد الطبيعة، التعلق بالجوهر الحيوي، الصبوة إلى نوع من الروحانية[781].

حين علم فرويد بموت لو، أسرع بكتابة تأبين يبرز فيه طيب ذكرى تلك المرأة الاستثنائية التي أحبها كثيرًا: «كل من اقترب منها تأثر تأثرًا كبيرًا جدًا بصدقها وبتناغم شخصيتها وتبين له، بدهشة كبيرة، أن جميع نقاط

الضعف النسائية، وربما معظم نقاط الضعف البشرية، كانت بعيدةً عنها أو تم التغلب عليها خلال حياتها[782]».

بعد أيام قليلة، قام موظف من الجستابو بكبسة على منزل لو كي يصادر مكتبتها: وقد رُميت المكتبة في أقبية دار المحافظة. وكان تعليل هذه المصادرة أنها اشتغلت بالتحليل النفسي، وأنها كانت تمارس «عِلمًا يهوديًا»، وأنها كانت صديقة فرويد، كما أن رفوف مكتبتها تضم كتب مؤلفين يهود.

مع ازدياد تعلق فرويد بالماضي وبصداقاته القديمة، أراد في تلك السنة القاتمة جدًا، الرجوع إلى الجدال الذي جعله في تعارض مع اثنين من تلامذته المفضلين: فيرينتزي ورانك، ولهذا السبب نشر في 1937 مقالين مهمين حول تقنية التحليل النفسي: «التحليل النهائي والتحليل اللانهائي» و«بُنيانات التحليل[783]».

يشير في المقال الأول إلى أن رانك كان يسعى من خلال فرضية صدمة الولادة، إلى إلغاء السببية النفسية في العُصاب. كما أنه هاجم محاولة تقصير فترة العلاج مشيرًا إلى أنها كانت على ارتباط بظرف تاريخي: «فذلك العلاج في تلك الحقبة، كما يقول، والذي غُرض بضغط مقارنة التناقض بين بؤس أوربا ما بعد الحرب مع ازدهار أمريكا، ولذلك كان مشروعه تكييف توقيت مدة المعالجة التحليلية بما يتناسب مع سرعة الحياة الأمريكية.»

وأما بشان فيرينتزي، فكان فرويد ينتقد عند هذا «المعلّم في مجال التحليل» الخطر المتمثل في البحث المتواصل عن الرجوع إلى التنويم كبديل عن التحليل التحويلي. ثم يضيف أن ممارسة التحليل النفسي هو تدريب على «مهمة مستحيلة[784]» وأن المحلل لا يستطيع أبدًا أن يكون على يقين، سلفًا، من نتيجة عمله. فالجهد المبذول في العلاج، كما يقول، يتأرجح بين طرفٍ من تحليل الهو وطرفٍ من تحليل الأنا: في الحالة الأولى، يُراد استعادة شيء ما من الهو إلى الوعي وفي الحالة الثانية، يُراد تصحيح الأنا، ويضيف قائلًا: من دون هذا التأرجح لا يمكن تحقيق النجاح العلاجي. ويستمر مؤكدًا أن المحلل، بنتيجة هذا الأمر، ليس طبيعيًا أكثر من مريضه ثم إنه، كشريك «فغال»، يكون خاضعًا أكثر من مريضه لأخطار التحليل. ولهذا السبب، دوريًا، كل خمسة أعوام على سبيل المثال، يجب على ممارس التحليل «أن يكون من جديد موضوع تحليل من دون أن يخجل من هذه الخطوة. وهذا يعني إذن أن التحليل الشخصي، هو أيضًا، وليس التحليل العلاجي المطبق على المريض وحسب، يكفّ عن أن يكون

مهمة ذات نهاية، كي يصبح مهمة دون نهاية[785]».

لقد بيّن هذا المقال بأن فرويد في 1937 كان ما يزال يعارض المنهج الفيرينتزي بخصوص التحكم بالتحويل المضاد وفكرة الدعم الفعال للمريض. وإذا كان تأهيل المعالج يفترض مهمة لا نهاية لها، فهذا مرده، كما يقول على هذا الصعيد، إلى أن تحليل المحللين لا ينتهي أبدًا، مثلما أن الشفاء لا يتم الوصول إليه أبدًا. إن فكرة التحليل اللانهائي تخضع إذن للمثل القائل: «كل ربحٍ إلى خسارة». كان فرويد يؤكد، مثل فيرينتزي على هذه الصورة استحالة التوفيق بين المعالجة والطابع المؤسساتي، ويضع المعالج المستقبلي في وضعية مماثلة لوضعية المريض، من جديد إذن، ها هو يشكّك بفعالية العلاج لكنه يؤكد بأن حالات الفشل التي مرّ بها مرتبطة أيضًا بعوامل متعددة: أنماط المرض، مقاومة المرضى، موقف المعالجين. باختصار، بما هو أبعد من الانتقاد الموجّه إلى رانك وإلى فيرينتزي، يشير فرويد إلى الصعوبات التي واجهها هو شخصيًا في العديد من الحالات العلاجية.

فتح هذا النصُ البابَ أمام تأويلات عديدة لا سيما أمام الفكرة القائلة بأن المحللين، مثلهم مثل المرضى، يمكن لهم ذات يوم اللجوء على امتداد حياتهم إلى «شرائح تحليلية» جديدة كي يستكشفوا إلى ما لا نهاية أسباب أمراضهم.

في المقال الثاني، وهو أكثر أهميةً أيضًا، رجع فرويد إلى قصة سيرغي بانكييف كي يميّز فكرة التحليل عن فكرة البنيان، وقبِلَ في هذا المجال بأن البنيانات الموضوعة قيد العمل في العلاج يمكن تمامًا أن تكون من طبيعة هذيانات المرضى بالذات.

عن طريق هاتين المداخلتين، تمسك فرويد باتخاذ موقف نهائي هذه المرة حيال قضية سوف تتكشف بأنها جوهرية، بعد فترةٍ طويلة من وفاته، في تاريخ حركة التحليل النفسي.

في ذلك الوقت، كان رانك مستمرًا في مجال عمله اللقاح في الولايات المتحدة. إذ إنه بعد أن أبعدته الـ IPA، راح يمارس علاجات قصيرة المدى، وجهًا لوجه، ولم يتوقف عن تحليل النسيانات المؤقتة، والهفوات، والأحلام، وقد طلب إليه أحد المرضى ذات يوم أن يستقبله علمًا أنه كان قد تلّقى التحليل عند أربعة معالجين: اثنين من الفرويديين، ويونغي، وأدلري. وأكّد هذا الشخص بأنه لم يعانِ من أي مشكلة جنسية وإنما هو بحاجة للمساعدة. وكان أن فهم رانك على السريع بأن هذا المريض يسعى لإيجاد وسيلة كي يجعل العلاج ذاته فاشلًا ومهزومًا، ولهذا السبب رضي

أن يساعده بشرط وحيد ألا وهو أن يتناول عنده المسألة الجنسية، بهذه الوسيلة أشار إلى أن أحدًا لا يستطيع أن يفرض إشرافًا على صيرورة التحليل نفسه: لا المريض ولا المعالج.

وفي أغلب الأحيان، كان رانك يسترجع بحنين ذكرياته مع فرويد وشبابه في فيينا. أما فرويد، المصاب بالإحباط، فقد اعتبر بأن تلميذه القديم كان مصابًا منذ فترة طويلة بذهان هوس انهياري تفاقم معه منذ رحيله النهائي إلى القارة الأمريكية[786].

كان هتلر قد وطّد، في برلين، تحالفه مع موسوليني. لقد دعم القوميين الإسبان ووضع هدفًا له بصورة جدّية ضمّ النمسا إلى الرايخ الكبير. في هذه الشروط، لم يعد لدى ويس ما يرجوه من فورزانو وبدأ فرويد يفهم بأن فيينا أصبحت تحت التهديد تمامًا مثل التحليل النفسي: «لم يعد دون شك بالإمكان، هكذا كتب إلى جونز في مارس/آذار 1937، منع انبثاق النازيين؛ والنتائج، ضمنًا ما يشمل التحليل، هي نتائج مشؤومة [...]. إذا سقطت مدينتنا، سوف يُغرق البروسيون أوربا. لسوء الحظ، يبدو بأن القوة التي قامت بحمايتنا حتى الوقت الحاضر - موسوليني - أطلقت اليوم العنان لألمانيا. أود أن أعيش في إنجلترا مثل إرنست والذهاب إلى روما مثلك[787]».

على الرغم من هذا اليقين، كان فرويد ما يزال يُريد أن يقتنع بأن كورت فون شوشنيغ، خليفة دولفوس في المستشارية، وهو رجلٌ من أبناء الطبقة النبيلة الإمبراطورية القديمة، سوف يتمكّن من إنقاذ استقلال البلد. لكنّه كان على خطأ. كان يرفض تقبّل الحقيقة الواقعية علمًا بأنه يراها أمامه، وهذا موقفٌ مماثل للموقف الذي تبنّاه عند زيارته للأكروبول. في نوفمبر/ت2 1937، قام ستيفان زفايغ بزيارته مشيرًا إلى وجوب كتابة كتاب حول مأساة اليهود: «حين يتوجّه تفكيري إلى فيينا ويغمر نفسي الحزن، يتجه تفكيري إليك، سنةً بعد سنة، قسوتك السوداء تُبرهن عن نموذجيتها في نظري، وأشعر بنفسي ازداد عرفانًا بالجميل في علاقتي معك[788]».

إن سياسة «الإنقاذ» المزعومة بشأن التحليل النفسي، والتي أشرف على تنسيقها جونز ودعمها فرويد، انتهت إلى فشلٍ كامل كانت ترجمته، في ألمانيا كما في جميع أرجاء أوربا، التعامل الخالص والواضح مع النازية، إنما على وجه الخصوص من خلال حلّ جميع المؤسسات الفرويدية والهجرة إلى العالم الناطق بالإنجليزية لمعظم ممثلي التحليل النفسي تقريبًا. ولو لم توضع تلك السياسة قيد التطبيق، فما كان ذلك ليُغير شيئًا من مصير الفرويدية في ألمانيا لكن كان قد تحقّق على الأقل الحفاظ على

شرف الـ IPA، على وجه الخصوص، إن ذلك الموقف الكارثي، موقف الحياد، وعدم الانخراط، والبعد عن السياسة ما كان ليتكرر لاحقًا تحت ديكتاتوريات، كما في البرازيل، والأرجنتين، وفي كلّ مكان من العالم.

لقد نخر السرطان جسم فرويد، وها هو في طريقه ليشهد خلال السنتين الأخيرتين من عمره انهيار وتدمير جميع ما كان قد بناه: دور النشر مدمّرة، الكتب محروقة، التلامذة مضطهدون، يتم اغتيالهم، يتم إجبارهم على النفي، المعاهد مقطّعة الأوصال، والمقتنيات منهوبة، وحياة البشر دون أدنى قيمة.

---

699 مارك إدموندسن، «موت سيغموند فرويد. تاريخ أيامه الأخيرة» (2007)، باريس، بايو وريفاج، 2009، ص 9. وحول حياة هتلر، المصدر الأفضل هو كتاب من جزئين بقلم إيان كيرشو، «هتلر» (1889 - 1945)، باريس، فلاماريون، 2009 وفنسان بروم، هو الآخر أقام هذا التوازي التاريخي في كتابه «تلامذة فرويد الأوائل»، المصدر السابق. وكذلك كارل أ. شورسكي، «فيينا، مع نهاية القرن»، المصدر السابق. تجدر الإشارة بأن أدبًا «نفسيًا وسيرةً» جد ضعيف تناول هتلر على يد عدد من المحللين، لكن كيرشو فنّد ضعف مقولاتهم فيما بعد.

700 مارك إيدموندسن، «موت سيغموند فرويد»، المصدر السابق، ص 13 - 14.

701 كُتب هذا النص في 1938 بعد «التواصل - Anschluss - ، توماس مان، «الأخ هتلر» (1939)، برلين، هاين فيرلاغ، 1991. تعود الطبعة الأولى باللغة الإنجليزية 'إلى أبريل/نيسان 1938. وكانت تحمل في البداية عنوان «هذا الرجل هو أخي»، والترجمة الفرنسية «الأخ هتلر»، باريس، غراسيه، 1976. انظر أيضًا جان فانك، «توماس مان والتحليل النفسي»، باريس لي بِلّ ليتر، 1982.

702 توماس مان، «ألمانيا رهن العذاب»، المصدر السابق، ص 186.

703 «الأخ هتلر»، المصدر السابق، ص 359.

704 سوف يعود مان إلى هذه المقولة عن ألمانيا ذات الوجهين في «الدكتور فاوستوس»، كما أن يان كيرشو يؤكد مثله، في نهاية كتابه عن سيرة هتلر: ألمانيا التي أنجبت هتلر، التي جعلت مستقبلها حسب رؤيته وقامت على خدمته بطيب خاطر، باختصار، التي شاركت في الـ hubris - الغطرسة -، هي أيضًا التي شاركت في الـ nemesis - الانتقام - عنده.

705 توماس مان، «مقتضيات الوقت الحاضر»، المصدر السابق، ص 308.

706 مقرّ ثانوي أطلق عليه اسم «Berghol» وحصل عليه هتلر في 1933 بفضل حقوق المؤلف عن كتاب «كفاحي»، وسوف يُصار إلى تدميره في 1945.

707 لدينا بالفرنسية أكثر من ترجمة لـ«وعكة الحضارة». باللغة الألمانية يستعمل فرويد كلمة Kultur ليشير في الوقت نفسه إلى الحضارة (Zivilisation) وإلى فكر عصر التنوير، بالمعنين الفرنسي والألماني (Aufklarung). هو إذن يرفض التمييز بين الثقافة التي تشمل مجموعة أعراف، وصيغ تفكير، ومعتقدات، والحضارة، كمفهوم أوسع آفاقًا يفترض وجود عقل شمولي خاص بالبشرية، حيث يقوم التعارض بين «البدائي»، «الهمجي»، أو «غير المتمدّن» والإنسان المتحضّر. وهكذا يمكن ترجمة الـ Kulturعند فرويد بـ«الثقافة» وبـ«الحضارة» معًا. وثارت جدالات صاخبة في فرنسا بين أنصار كلمة «culture» وأتباع مصطلح «civilization». لقد رسمت ملامح هذا الأمر في HPF JL -، المصدر السابق، ولا سيما حول تقويم إدوارد بيكون للـ«الحضارة الفرنسية»، على حساب الثقافة الألمانية. انظر أيضًا جاك لوريدر، ميشيل بلون، جيرار رولي، هنري راي فلود «حول: وعكة في الثقافة، من تأليف فرويد»، باريس، 1998 ،PUF. وبيير بيليغرين، في«سيغموند فرويد، وعكة في الثقافة» باريس، غارنييه - فلاماريون، 2010، ص7 - 88 و177 - 214. أفضل ترجمتين للكتاب بالفرنسية هما لبرنار ولتولارلي، باريس، سوي، 2010، ومارك كريبون ومارك ب. دولوني، في: «سيغموند فرويد، أنثروبولوجيا الحرب»، المصدر السابق، طبعة بلغتين. هؤلاء الثلاثة اختاروا «وعكة في الحضارة». انظر أيضا OCF.JI، وعكة في الثقافة.ص245 - 333.

708 تحويل النزوة نحو هدف غير جنسي.

709 جان جاك روسو، «مقالة حول أصل وأسس عدم المساواة» (1755)، باريس، غاليمار، سلسلة «أفكار»، 1965، ص 87.

710 حول هذا المصطلح انظر لاحقًا.

711 مقطع بترجمة برنار لورثو لاري، سوي، المصدر السابق، ص 173.

712 ريتشارد نيكولوس فون كودن هوف - كالرجي (1972 - 1894): وهو دبلوماسي النمساوي. أول من خطرت له فكرة اعتماد نشيد الفرح عند بتهوفن كنشيد أوروبي. من بعد «الشعلة»، عاش منفيًا في فرنسا ثم في سويسرا والولايات المتحدة. وسوف يصبح ديغوليًا بعد حصوله

على الجنسية الفرنسية. لقد ألّف كتابًا حول معاداة السامية، ويعرفه فرويد حقّ المعرفة: Das Wesen des Antisemitismus، برلين، كالفاري وشركاه، 1901.

713 منذ رحلته الأخيرة مع ابنته آنـّا، في 1923.

714 «وعكة الحضارة»، المصدر السابق، ترجمة لورثلاري، ص 50 - 52.

715 تلك هي كلمات فرويد.

716 رسالة آينشتاين إلى فرويد 30 يوليه/تموز 1932 في OCF.P، المصدر السابق ص 67.

717 سيغموند فرويد، «لماذا الحرب؟» (1932) OCF.P الجزء التاسع عشر، المصدر السابق، ص 69 - 81.

718 اختار المترجمون الفرنسيون أحيانًا الاحتفاظ بهذه الكلمة الألمانية وحينًا آخر بترجمتها إلى «رؤية العالم». وفي «الطبعة الأمثل»، ليست هذه الكلمة مترجمة. أنا من جانبي أعتمد على ترجمة غاليمار، «حول Weltanschauung»، في «محاضرات جديدة كمدخل إلى التحليل النفسي»، المصدر السابق، ص 211 - 243، وOCF.P، الجزء التاسع عشر، المصدر السابق، ص 242 - 269. حرفيًا، تتألف هذه الكلمة من Welt، بمعنى عالم ومن Anschauung، بمعنى تأمل، رؤية، تجربة. كما تشمل دلالات عديدة: إيديولوجيا، تصور سياسي للعالم، رؤية العالم، وحتى مقالة فلسفية.

719 حول الـ Weltanschauung، المصدر السابق، ص215.

720 المصدر السابق ص237. وقمت شخصيًا بتصحيح ما جاء عند غاليمار.

721 سوف نقرأ حول هذا الموضوع، المقال الجميل لبيرن نيتسيكي، «التحليل النفسي باعتباره علمًا لا سياسيًا»، المجلة العالمية لتاريخ التحليل النفسي، 5، 1992، ص 170 - 182.

722 لم يُكتب بعد تاريخ التحليل النفسي في روسيا. بهذا الصدد، إن كتاب ألكسندر إيتكيند، «تاريخ التحليل النفسي في روسيا»، باريس، PUF، 1993، غير كافٍ. انظر جان مارتي، «التحليل النفسي في روسيا» (1930 - 1909)، و«النقد»، 346، مارس1976، ص 199 - 237. وألبرتو أنجيليني، «التحليل النفسي في روسيا»، نابولي، ليغوري، 1988. وأنا شخصيًا رسمتُ من جديد جانبًا من ذلك التاريخ في - HPF JL، المصدر السابق، بشأن حقبة 1930 - 1950. جرى استئصال حركة التحليل النفسي الروسية تدريجيًا اعتبارًا من 1930. وسوف تُستخدم

صفة «علم برجوازي» اعتبارًا من 1949 لا غير، ضمن إطار الحملة الستالينية على العلوم والفنون، بتنسيق من تروفيم ليسينكو وأندريه جدانوف.

723 Kommunistische Partei Deutschlands: KPD

724 وهي جمعية تأسست في 1920 من أجل استقرار المهاجرين في فلسطين.

725 بشان هذا الموضوع، انظر غيدو ليبرمان، «التحليل النفسي في فلسطين»، 1918 - 1948، المصدر السابق. دافيد مونتاغ إيدر (1866 - 1936): طبيب نفسي ومحلل، مؤسس بالاشتراك مع إرنست جونز لحركة التحليل النفسي الإنجليزية، وهو ابن خال إسرائيل زنغويل (1864ـ 1926)، المناضل الصهيوني والاشتراكي.

726 الرسالة الأصلية بخط يد فرويد، بتاريخ 26 فبراير/شباط 1930 ونسخة التصوير على يد مجهول، هما في الجامعة العبرية في القدس - أورشليم - ضمن مجموعة أبرهام شوادروم. سبق لي أن نشرت هذه الرسالة وعلّقت على مضمونها في «حول رسالة غير منشورة لفرويد بصدد الصهيونية ومسألة الأماكن المقدسة»، عيادات متوسطية، 70، 2004. انظر أيضًا «رجوعًا إلى المسألة اليهودية»، المصدر السابق. والترجمة قام بها جاك لوريدر.

727 رسالة سيغموند فرويد إلى ألبرت آينشتاين 26 فبراير 1930، ويشير إليها بيتر غاي، «فرويد، حياة»، المصدر السابق، ص 688.

728 حول استحالة حل قضية الأماكن المقدسة، انظر شارل أندر لين، «الحلم المحطم»، باريس فايار، 2003؛ «باسم الهيكل. إسرائيل وتصاعد المسيانية اليهودية المستعصية» (1967 - 2013)، باريس، سوي، 2013.

729 من بين أفضل المصادر لدراسة تعاون بعض المحللين النفسيين كعملاء للنازية، انظر «السنوات القاتمة. التحليل النفسي في ظل الرايخ الثالث»، نصوص مترجمة وقدم لها جان - لوك إيفرار، باريس، مطبوعات كونفرونتاسيون، 1984. هانز - مارتن لومان، Psychoanalyse und Nationalsozialismus. Beitrage zur Bearbeitung eines unbewaligten Traumas، فرانك فورت، فيشر، 1984. جيوفري كوكس، «العلاج النفسي في ظل الرايخ الثالث» (1985)، باريس، لو بِلْ ليتر، 1987. ريجين لوكوت، «Erinnern und Durcharbeiten، فرانكفورت، فيشر 1985. جينفر كوريو، «ما جرى مع

التحليل النفسي في ألمانيا»، مذكرة لصالح الـDEA لعلم النفس والتحليل النفسي، بإدارة إميل جالي، جامعة باريس - الشمالية، 1997. أما إرنست جونز وبيتر غاي فيتجاهلان هذه القصة تمامًا.

730 سيغموند فرويد وساندور فيرينتزي، «المراسلات»، الجزء الثالث: 1920 - 1933، المصدر السابق، رسالة فرويد بتاريخ 2أبريل/نيسان 1933، ص 512 - 513.

731 يطلق المؤرخون اسم الفاشية النمساوية على تلك الحقبة من تاريخ النمسا، والتي استمرت من مارس/آذار 1933 إلى يوليه/تموز 1934، تاريخ اغتيال دولفوس على أيدي النازيين النمساويين.

732 رسالة إلى هيلدا دوليتل بتاريخ 5 مارس/آذار 1934، عند هيلدا دوليتل، «حبًا بفرويد» المصدر السابق، ص256.

733 كان يستخدم صفة الهتلرية ليشير إلى سياسة هتلر - Hitlerei -.

734 رسالة موريزيو سيرا إلى إليزابيث رودينسكو بتاريخ 5مارس/آذار 2014. انظر روبيرتو زابيري، «فرويد وموسوليني»، ميلانو، فرانكو أنجيلي، 2013.

735 وسوف يجعل منها فيلمًا في 1934 وفق تعاليم الجمالية الفاشية. انظر «المائة يوم» في ثلاثة فصول مع ثلاث عشرة لوحة، مأخوذة من سيناريو بقلم بينيتو موسوليني وجيوفاكشيو فورزانو، والنسخة الفرنسية لأندريه موبريه، دفاتر برافو، 1932.

736 النسخة الألمانية من كتاب فورزانو موجودة في كتالوغ مكتبة فرويد (2583) مع الإهداء بالإيطالية.

737 إهداء مكتوب بخط اليد بالألمانية وتاريخه 26 أبريل/نيسان 1933. انظر أ. م. أكسر بوني، «التحليل النفسي والفاشية: مقاربتان لا تطابق بينهما. الدور الصعب لإدواردو ويس»، المجلة العالمية لتاريخ التحليل النفسي، 1، 1988، ص. 225 - 240. بول روزين، «مسائل أخلاقية في التحليل النفسي: إدواردو ويس، وفرويد، وموسوليني»، المصدر السابق، ص. 150 - 167. غلوكوكارلوني، «A Minor Drama in Tow Acst, One Interlude and Five Characters»، في كتالوغ معرض Italia nella psicoanalisi، روما، 1989، ص 51 - 60. وتعليقات ويس المرسلة إلى كورت إيسلر مودعة في مكتبة الكونجرس، الصندوق 21.

738 يجب أن يكون المرء شديد الجهل بالتاريخ كي يخيل إليه بأن فرويد يمكن أن يكون قد أصبح «فاشيًا»، كما لم يقصّر باتهامه جازمًا ميشيل أون فراي في بيان صاعق، «غروب صنم. الخرافة الفرويدية»، باريس،

غراسيه، 2010، ص524 - 533و590 - 591 لم يرجع أون فراي إلى الأرشيف في مكتبة الكونجرس ولا إلى المصادر الموثوقة، وها هو يستشهد كيفما اتفق بكتاب كوكس ويهاجم بول - لوران أسون س، مؤلف « قاموس مؤلفات التحليل النفسي»، باريس، 2009، PUF، كي يجزم بأن قصة ذلك الإهداء جرى التكتم عليها من طرف جمعية التحليل النفسي، متناسيًا بأنها جرى التعليق عليها أكثر من مرة من طرف معظم مؤرخي الفرويدية وكُتاب سيرة فرويد.

739 إدواردو ويس أنكر دائمًا وجود ذلك اللقاء، كما سوف يقول لبول روزن. أما أكسيربوني فيجزم على العكس بأنها وقعت فعليًا. يمكن حصول تماس، بطريقة غير مباشرة، مع ويس وسيانو.

740 بتاريخ 1935، وجه كاميلو بيرنيري إلى فرويد كتابه «اليهودي المعادي للسامية»، باريس، فيتا، 1935، وصدّره بالإهداء التالي: «تعبيرًا عن الاحترام والتمجيد». كما كان قد خصص مقالةً لكتاب فرويد عن ليوناردو دافنشي. مكتبة فرويد رقم 217. متحف فرويد في لندن.

741 «تحقيق حول سيغموند فرويد وحول الـWPV على يد الدبلوماسية الفاشية الإيطالية بتاريخ 1935»، المجلة العالمية لتاريخ التحليل النفسي، 5، 1992، ص 143 - 150.

742 إيلينا مانسيني، Magnus Hirschfeld and the Quest for Sexual Freedom. A History of the First International Sexual Freedom Movement، نيويورك، بالغراف مكميلان، 2010.

743 إرنست جونز ، «حياة سيغموند فرويد وأعماله»، الجزء الثالث، المصدر السابق. 209.

744 «هنا تستمر الحياة بطريقةٍ مذهلة». مساهمة في تاريخ التحليل النفسي في ألمانيا (1985)، الطبعة الفرنسية على يد آلان دو ميولا وفيرا رينتز، باريس، الجمعية العالمية لتاريخ التحليل النفسي (AIHB)، 1987، ص 237 - 238. نشر هذا المقال في Deutsche Volksgesundlheit aus Blut und Boden.

745 سيغموند فرويد وماكس إيتنغون، «المراسلات»، المصدر السابق، ص. 785. وفي بيانه اللاهب جزم أون فراي بأن إيتنغون كان من رأي جونز حول « إنقاذ» التحليل النفسي، انظر «غروب صنم»، المصدر السابق، ص 549.

746 سيغموند فرويد وإرنست جونز ، «المراسلات الكاملة»، 1908 - 1939، المصدر السابق، رسالة فرويد تاريخها 29مايو/أيار 1933، ص

824. أما «الأمريكية»، إليزابيث سيفيرن، فقد اشتركت بتجربة التحليل الثنائي. ويشير إليها فيرينتزي في «يوميات عيادية»، بالحرفين الأوليين ر. ن.

747 ساندور فيرينتزي، «يوميات عيادية»، يناير/أكتوبر/ك2/ت1 1932، باريس، بايو، 1985. نُشرت هذه اليوميات بعد فترة طويلة من وفاة فيرينتزي. ولم يطّلع فرويد عليها.

748 سيغموند فرويد وساندور فيرينتزي، «المراسلات»، الجزء الثالث: 1920 - 1933، المصدر السابق، رسالة فيرينتزي تاريخها 9 أبريل/نيسان 1933، ص514.

749 ويلهيلم رايخ، «علم نفس الجمهور عند الفاشية» (1933)، باريس، بايو، 1978؛ «رايخ يتحدث عن فرويد» (1967)، حديث مع كورت إيسلر، باريس، بايو 1970. حول مصير اليسار الفرويدي، انظر روسيل جاكوبي، «أوتو فينيخل: مصائر اليسار الفرويدي» (1983)، باريس، PUF، 1986.

750 «هنا تستمر الحياة بطريقة مذهلة»، مداخلة في تاريخ التحليل النفسي في ألمانيا، المصدر السابق، ص247. ورواية بويم تنسجم تمامًا مع وضعية فرويد كما تشهد بذلك رسالة هذا الأخير إلى إيتنغون، بتاريخ 17 أبريل/نيسان 1933، في «المراسلات»، المصدر السابق، ص789.

751 لقد اتهموه بالاحتيال لأنه سوّق مضاعفات الأورغون، وكان أن أنهى رايخ حياته، بتاريخ 1957، في مركز احتجاز وتأهيل، مركز لويسبورغ في بنسلفانيا. ثمّة جانب من ملفاته، لا سيّما تلك المتعلقة بروابطه مع فرويد، تم إيداعها في مكتبة الكونجرس.

752 انظر هيلدا دوليتل، «حبًا بفرويد»، المصدر السابق. وقد كتبتُ شخصيًا مقدمة للطبعة الثانية الفرنسية لذلك الكتاب.

753 جوزيف وورتيس، «تحليل نفسي في فيينا، 1934. مذكرات حول تحليلي عند فرويد»، المصدر السابق. لقد أدخل جوزيف وورتيس (1906 - 1995) إلى الولايات المتحدة استخدام الأنسولين في علاج الشيزوفرانيا - فصام الشخصية -. كما قدم مساعدته للجمهوريين طيلة حرب إسبانيا، وشارك فيما بعد بالحملة المعادية لفرويد بتنسيق مع الأحزاب الشيوعية، مندّدا بالتحليل النفسي لأنه «علمٌ برجوازي» وكتب، في 1950، أول دراسة جادة عن الطب النفسي الموصوف بأنه «سوفياتي».

754 الجمعية الطبية العامة للعلاج النفسي.

755 إرنست كريتشمر، Archiy fur Psychiatrie، XCVI، 1932، ص 219.

756 كـ.غ. يونغ، «المراسلات»، 1906 - 1940 (1972)، باريس، ألبان ميشيل، 1992، ص181 - 182.

757 كـ.غ. يونغ، «Geleitwort»، in Zentalblatt fur Psychotherapie، 1933، 1، 6، ص. 10 - 11. وتم الرجوع إليها عند يونغ، Gesammelte Werke, Olten Fribourg - en - Brisgau, Walter. Verlag 1974، 10، ص581 - 583. تُرجم إلى الفرنسية ونشر تحت عنوان افتتاحية، «دفاتر يونغ للتحليل النفسي»، 82، ربيع 1995، ص9 - 10.

758 كـ.غ.يونغ، «مقابلة في راديو برلين»، 26 يونيه/حزيران 1933، في كـ. غ. «يونغ يتكلم. لقاءات ومقابلات»، باريس، بوشيه/ شاشتل، 1985، ص 55 - 61. عُرفت الصيغة الأصلية لهذا النص في 1987 وجرى تحليله من طرف م. فون ديرتان، في «A Jungian Perspective on Institute for Psychotherapy: A Basis for Mourning» معهد يونغ سان فرانسيسكو، يوميات، 8، 4، 1989.

759 يشرح هذه السياسة في رسالتين بتاريخ 22 يناير/ كـ2 1934، إحداهما إلى بول بيير، والأخرى إلى ألفوس مايدر، في «المراسلات» المصدر السابق، ص 184.

760 كارل غوستاف يونغ، «Zur gegenwartigen Lage der Psychotherapie»، Zentralblatt fur Psychotherapie، 7، 1934، ص. 1 - 16. وتم الرجوع إلى هذا النص دون تعديل فيC.G.Jung Gesammelte Werk، برنستون، مطبوعات جامعة برنستون، 1970، الجزء العاشر، تحت عنوان «العلاج النفسي اليوم». وتُرجم على الفرنسية تحت عنوان «الوضع الحالي في العلاج النفسي»، «دفاتر يونغ حول التحليل النفسي»، 96، خريف 1999، ص. 43 - 63. انظر أيضًا نسخة النص المترجمة من طرف يوسف حاييم يرو شالمي، في «موسى» عند فرويد. «اليهودية ذات النهاية والتي لا نهاية لها»، المصدر السابق، ص 103 - 104. وكذلك إليزابيث رودينسكو، «رجوعًا إلى المسألة اليهودية»، المصدر السابق ص. 153، حيث أوردتُ النص حسب ترجمة جاك لو ريدر. أنا لا أشترك بالرأي مع ديردر بير، الذي يُخلي ذمة يونغ من كل معاداة للسامية ويعتبر بأن تعاونه مع غورنغ يعود إلى تأثير سمبال (انظر «يونغ»، المصدر السابق، ص.665)، ولا مع

رأي ريتشارد نول (يونغ، المسيح الآري [1997]، باريس، بلون، 1999) الذي ينزل بكل مؤلفات يونغ إلى محض مذهب نازي. حول معاداة يونغ للسامية، انظر أيضًا أندرو صمويل، «علم النفس القومي، الحزب القومي الاشتراكي وعلم النفس التحليلي: تأملات حول يونغ ومعاداة السامية»، المجلة العالمية لتاريخ التحليل النفسي، 5ـ 1992، ص 183 - 222 لقد نظمتُ البيان السادس عشر للجمعية العالمية لتاريخ الطب النفسي والتحليل النفسي (SIHPP) حول هذا الموضوع بتاريخ 24 نوفمبر/ت$_2$ 2001، كارل غوستاف يونغ، «المؤلفات، العيادية، السياسية»، بالمشاركة مع ديردر بير، ميراي سيفالي، كريستيان جامبي، ميشيل بلون، أندرو صمويل.

761 ك. غ. يونغ، «المراسلات» المصدر السابق، رسالة بتاريخ 26 مايو/أيار 1934، ص 216.

762 المصدر السابق، ص 219.

763 ك. غ. يونغ، «المراسلات»، المصدر السابق، ص 219 و268 - 269.

764 فكتور كيلمبرر، «Lingua Tertii Imperii، لغة الرايخ الثالث» (1975)، باريس ألبان ميشيل، 1996.

765 «Man sollte sich nicht allzulaut uber Psychoanalyse des Juden ‘Freud’ emporen, wenn man und solange man uberhaupt nicht anders uber Alles und Jedes ‘denken’ Kann als so, dab Alles als ‘Ausdruck’ ‘des Lebens’ einmal auf ‘Instinkte’ und ‘Instinktschwund zuruckfuhrt’. ‘Diese Denk’ - weise, die uberhaupt im voraus kein ‘Sein’ zuruckfuhrt. ‘Diese Denk’ - weise, die uberhaupt im voraus kein ‘Sein’ zulabt, ist der reine Nihilismus». مقتبس من الدفتر الرابع عشر، بتاريخ 1940 - 1941، في هايدغر، Gesamtaus، الجزء 96، فرانك فورت، كولسترمان 2014، وهو نص جاء به بيتر تراوني، ص 218. انظر أيضًا بيتر تراوني، «هايدغر ومعاداة السامية، حول الدفاتر السوداء»، باريس سوي، 2014.

766 حول العلاقات التي سوف تنشأ بين هايدغر والطبيب النفسي السويسري ميدار بوس (1903 - 1990)، الذي جرى تأهيله في برغولزلي، انظر مارتن هادغر «حلقات البحث في زيوريخ» (1987) باريس، غاليمار، 2010. وحول العلاقات بين لاكان وهايدغر انظر HPF JL -، المصدر السابق، ص 1773 - 1791.

767 «التأريخ الأكثر إيجازًا»، المصدر السابق، ص 200.

768 ليلي فرويد - ماريله، «:Mein Onkel Sigmund Freud Erinnerungen an eine grosse Familie»، رسائل قام بجمعها كريستفريد توجل، برلين، أوفبو، 2006.

769 مكان مشهور للإصطياف، يقع شمال غرب فيينا، وفيه مطاعم وإقامات ثانوية. منذ 1934، كان فرويد يستأجر في غرانزينغ بيتًا جميلًا مع حديقة حيث يستقر به المقام مع عائلته في الربيع أو في الصيف.

770 توماس مان، «فرويد والمستقل»، في فرويد: أحكام وشهادات. نصوص قدّم لها لوران جاكار، باريس، PUF، 1976، ص15 - 43.

771 سيغموند فرويد، «اضطراب في الذاكرة فوق قمة الأكربول»، المصدر السابق.

ورد في النص أن أسنات بنت فوطفار لكن في الكتاب المقدس هي بنت فوطي فارع كاهن أون. (المترجم).

772 الأجزاء الثلاثة موجودة في مكتبته (برقم 2345): قصص يعقوب (1933)، يوسف الفتى، يوسف في مصر. والجزء الأخير يوسف المربي، سوف يظهر في 1943. والطبعة الفرنسية في أربعة أجزاء منشورة في دار غاليمار، تحت عنوان «يوسف وأخوته»، باريس مجموعة «إيماجينير»، 1980. سيغموند فرويد، «المراسلات»، المصدر السابق، رسالة توماس مان بتاريخ 29 نوفمبر/ت$_2$، ص.471 - 473.

773 نابليون فرنسوا شارل جوزيف بونابرت (1832 - 1811)، الملقب «فرخ النسر»، ملك روما ودوق ريخستاد، ابن نابليون من ماري لويز، ابنة امبراطور النمسا.

774 سيغموند فرويد وأرنولد زفايغ، «المراسلات»، 1927 - 1939، المصدر السابق، رسالة فرويد بتاريخ 15 يوليه/تموز 1934، ص 123 - 124. كان زفايغ قد كتب لتوه مسرحية حول الاستيلاء على يافا في 7مارس/آذار 1799 وحول زيارة بونابرت للمصابين بالطاعون.

775 كان فرويد يعرف حياة بونابرت عن طريق برغليه وعن طريق كتاب ألبرت فادال، «صعود بونابرت»، الذي كانت الطبعة الفرنسية منه بتاريخ 1910 موجودة في مكتبته (برقم 3497). إرنست جونز ، «حياة سيغموند فرويد وأعماله»، الجزء الثالث، المصدر السابق، ص 218 - 219. كما قرأ أيضًا كتب أدولف تيير حول المرحلة القنصلية والإمبراطورية.

776 جاك لاكان، «كتابات» المصدر السابق.

777 ريتشارد ستيربا، «ذكريات عن محلل نفسي من فيينا» (1982)، تولوز، بريفا، 1986، ص 142.

778 أبراهام. ماسلو، «هل أدلر تلميذ لفرويد؟ هامش»، يوميات السيكولوجيا الفردية، 18، 1962، ص 125.

779 سيغموند فرويد، رسالة إلى أرنولد زفايغ بتاريخ 22 يونيه/حزيران 1937، ورد ذكرها عند إرنست لأول مرة، ولم تُذكر في المراسلات بين فرويد وزفايغ، وقد ذكرها بول أ. سيتبانسكي في «سيرة عن أدلر»، المصدر السابق، ص 262.

780 لو أندرياس - سالومي «مراسلات مع سيغموند فرويد» المصدر السابق، رسالة فرويد تاريخها 6/ ينايرك2 1935، ص 252.

781 «Mein Bekenntnis zum heutigen Deutschland» (1934)، غير مطبوع، ملفات لوأندرياس - سالومي في غوتنجن. بتاريخ 2008، زعم دوريان أستور بأن هذا النص، غير المسموح للباحثين بالوصول إليه، هو بإلهام نازي وأنه يضم فقرات معادية للسامية. انظر دوريان أستور، «لو أندرياس - سالومي»، باريس، غاليمار 2008، ص348 - 353. وهذه المقولة بيّنت ضعفها إيزابيل مونس مقدمةً حججًا دامغة. انظر إيزابيل مونس، «لو أندرياس سالومي» المصدر السابق، ص300 - 308. لم أطّلع على هذا الملف ولكن إيزابيل مونس نقلت إلي الهوامش التي دونتها بعد معاينته.

782 سيغموند فرويد، OCF.P، المصدر السابق الجزء العشرون ص 11.

783 نُشر المقال الأول بالفرنسية بأكثر من عنوان: «تحليل منتهٍ وتحليل لا نهاية له»، «التحليل بنهاية والتحليل دون نهاية». والمقالان موجودان في «نتائج، وأفكار، ومشاكل» الجزء الثاني: 1921 - 1938، المصدر السابق، وفي OCF.P، الجزء العشرون، المصدر السابق ص 13 - 75. انظر أيضًا «محاضرات جديدة كمدخل إلى التحليل النفسي» المصدر السابق.

784 وهكذا كان يُصنف التحليل ضمن زمرة المهمات المستحيلة لأنه يريد التحكم أو التربية.

785 سيغموند فرويد، «التحليل بنهاية والتحليل من دون نهاية»، في «نتائج، وأفكار، ومشاكل»، الجزء الثاني: 1921 - 1938، المصدر السابق، ص 265.

786 أ. جيمس ليبرمان، «الإرادة قيد الفعل»، المصدر السابق،

ص441.وجوزيف وورتيس، «التحليل النفسي في فيينا»، المصدر السابق ص 135. مقولة «جنون» رانك، وكذلك جنون فيرينتزي، سوف يعود إليهما جونز لاحقًا.

787 سيغموند فرويد وإرنست جونز، «المراسلات الكاملة»، 1908 - 1939، المصدر السابق، رسالة فرويد تاريخها 2 مارس/آذار 1937، ص873.

788 سيغموند فرويد وستيفان زفايغ، «المراسلات»، المصدر السابق، رسالة ستيفان زفايغ تاريخها 15 نوفمبر/ت2 1937، ص 113.

الفصل الثالث

الموت قيد العمل

أثناء السنوات الأخيرة من حياته، عقد فرويد علاقة صداقة جيدة مع ويليام بوليت، الدبلوماسي والصحافي الأنيق، الخارج من عائلة غنية جدًا من محامي فيلادلفيا والمستشار للرئيس وودرو ويلسون. كان قد أرسِل في مهمة إلى روسيا وهو معجب كبير بثورة أكتوبر، وهناك التقى لينين حاملًا معه نيةً حازمة بإقامة علاقات بين الدولتين. لكنّ المفاوضات فشلت، وكان أن شارك بوليت حينذاك في مؤتمر السلام، ثم انتقد انتقادًا فجًا معاهدة فيرساي، التي يرى بأنها لا يمكن القبول بها من طرف المهزومين. وقد حمل جزاء ذلك عداوة كبيرة حيال ويلسون. بتاريخ 1924، كان قد تزوّج من لويز برايان، وهي مناضلة فوضوية جميلة، وعشيقة قديمة لأوجين أونيل وأرملة الصحافي الشهير جون ريد، مؤلف «عشرة أيام هزّت العالم»، وكانت قد أنجبت منه طفلة. ونظرًا لإصابتها في حدود عام 1928 بمرض الـDercum[789] الرهيب،

الذي كان يُشعرها بألم كبير ويجعل منظرها رهيبًا، غرقت لويز بالإدمان على الكحول وفي الجنون، وهذا ما أدى بها، بنصيحة من زوجها، إلى أن تستشير فرويد. كان بوليت أنانيًا، غضوبًا، انفعاليًا، كما كان غير قادر على تحمّل ذلك الوضع، ولذلك لم يكفّ عن إرهاق لويز بالتوبيخات، وانفصل عنها حين تبيّن له بأنها تقيم علاقة مع امرأة تشتغل بالنحت، غوين لو غالبين. وأدهى من ذلك، فقد استفاد من الوضع للحصول على رعاية ابنته وفي نيته المضمرة إبعادها عنه.

وفي مايو 1930 تحديدًا، عند طلاقه من زوجته، كان لقاؤه مع فرويد في برلين، في مصح تيجل. كان حينذاك يتداوى من التهاب رئوي وهو منهار ولم يعد يفكر سوى بالموت، وهذا ما جعله يُصغي باهتمام لأقوال بوليت الذي أطلعه على جانب من رغبته بكتابة سيرة عن ويلسون مستندًا إلى ملفات عديدة تحت تصرّفه. وكما نذكر كان فرويد قد أخذ علمًا بحياة الرئيس الأمريكي الثامن والعشرين من خلال قراءة كتاب هال، «قصّة أسلوب - The Story of a Style -». ولهذا اقترح تقديم خدماته إلى بوليت، إنه منذ فترة طويلة كان يحلم على الدوام بكتابة سيرة نفسية حقيقية تكون مختلفة جدًا بأسلوبها عن الدراسة الأدبية التي خصّ بها

ليوناردو دافنشي، في هذه المرة، سوف يكون بإمكانه من دون شك، بفضل هذا الدبلوماسي الفاتن، الحصول على جميع الوثائق الضرورية، غير أن الصحفي رايستانارد باكر كان، في ذلك التاريخ، هو أيضًا في طريقه إلى كتابة سيرة ضخمة رسمية عن ويلسون، وكان بوليت يعلم بأن عليه التحايل كي يسبب صدمة في وجه مثل هذا المنافس. ومن هنا كان اهتمامه بالتعاون في هذه المغامرة مع معلّم فيينا، فطلب منه أيضًا أن يُجري له تحليلًا. وعلى التوازي، حذّر صديقه إدوار مانديل هاوسن[790]بخصوص مشروعه والذي، كما جاءت التوصية، لا يجوز بحال من الأحوال إثارة ضجّة حوله.

في أكتوبر/ت1، كان فرويد سعيدًا جدًا برؤية بوليت من جديد في جلسات عديدة للعمل وللتحليل، علمًا بأنه كان قد خضع منذ فترة بسيطة لعملية جراحية جديدة. وها هما يُراجعان، سويًا، أكثر من ألف صفحة مكتوبة على الآلة الكاتبة ويتناقشان نقطةً بنقطة حول كلّ لحظة هامة من حياة ويلسون ونشاطه. وضع فرويد حينذاك مسوّدة أولى لبعض الأقسام من المخطوط المقبل، بينما أخذ بوليت على عاتقه كتابة الأقسام الأخرى، واتخذا القرار بنشر الكتاب في الولايات المتحدة وأن يكون بوليت مسؤولًا عن هذا الأمر. في يناير/ك2 1932، سلّم هذا الأخير شريكه في الكتابة مبلغ ألفين وخمسمائة دولار كسلفة عن الطبعة الأمريكية ولكن، في الربيع، نشبَ نزاع لن يعرف أحدٌ أبدًا سببه ويبدو

بأنه لم يسبب كبير ضرر لفرويد. في السنة التالية، صرّح بأن بوليت هو الأمريكي الوحيد القادر على أن يفهم أوربا وأن يرغب بتقديم شيء ما من أجل مستقبله. في الختام، بعد أن عُيّن سفيرًا في موسكو من طرف روزفلت، قرّر بوليت، بالاتفاق مع فرويد، ترك كتابهما إلى أن ينضج وأن يضع كلّ مهما توقيعهُ على الفصول التي قام بكتابتها.

سوف يُنشر هذا الكتاب بالإنجليزية في 1967[791] بعد موت إديث بولنغ غالت، الزوجة الثانية لويلسون وعشيّة وفاة بوليت. وكان اسم الكاتبين موجودا على الغلاف. في ذلك التاريخ، لمَ ينل اهتمام المؤرخين، ولا السياسين، ولا المحللين النفسيين.

وفي جميع الأحوال، فإن ورثة فرويد لم يتبيّن لهم أسلوب المعلّم إلّا في المقدمة. بالتأكيد، كان أسلوب الكتاب جد مختلف عن أسلوب باقي كتب فرويد، فهنا يدور الأمر حول سيرة نفسية حقيقية كان منهجها

منسجمًا انسجامًا تامًا مع نظرية فرويد حول البدائل. بتعبير آخر، نجح بوليت بكتابة كتاب شديد الوفاء للمذهب الفرويدي بحيث بدا أنه في خضوعه الزائد الفرويدي وكأنهُ ليس بقلم فرويد. كان يفتقر إلى الشك، وثنائية العرض، والفرضيات الجريئة، تلك الأمور جميعها التي كانت شديدة التمييز لكتابة الهر بروفسور[792].

كان الكتاب يقترح، وهو من طرف معادٍ لا يلين للنزعة الأمريكية، تحليلًا لجنون رجل دولة يبدو طبيعيًا في الظاهر، وهو يقوم بوظائفه. وإذ جُعل شبيهًا بصورة أبيه منذ نعومة شبابه، وكان ذلك الأب بروتستانتيًا وواعظًا كبيرًا، ولذلك فإن ويلسون قد اعتُبر، حسب بوليت، بأنه ابن الرّب قبل أن ينتمي إلى ديانةٍ من يقينه الشخصي حيث نسب إلى نفسه موضع الرب، وقد اختار أن يدخل الميدان السياسي كي يحقق أحلامه الميسيانية. وحين أصبح رئيسًا لم يكن بعد قد خرج لخطوة واحدة بعدُ خارج حدود الولايات المتحدة، التي كان ينظر إليها، كما الحال سابقًا مع إنجلترا غلادستون، على أنها أجمل بلد في العالم. كان يجهل كلّ شيء، بجميع الأحوال، عن جغرافية أوربا ولم يكن يعلم أنهم يتكلّمون فيها لغات عديدة. وهكذا بمناسبة المفاوضات حول معاهدة فيرساي ظهر بأنه كان قد «نسي» وجود مضيق برينير بحيث قدّم لإيطاليا التيرول النمساوي من دون أن يعلم بأنهم يتكلّمون اللغة الألمانية. كما أنه، صدّق كلمة قريبٍ له أكد جازمًا بأن الجماعة اليهودية تعدادها مائة مليون موزّعين في جميع أرجاء العالم. ونظرًا لكراهيته ألمانيا، كان يظنّ بأن سكانها يعيشون مثل حيوانات متوحّشة.

لم يكن بوليت راضيًا عن هذه الحملة على ويلسون، فها هو يجزم بأنه، في سبيل القيام بسياسته العالمية، كان ويلسون قد استند إلى شعارات هاذية، وهكذا، نظرًا لأن الله خير وأن المرض شر، كان يستنتج بذلك أنه إن كان الله موجودًا، فالمرض لا وجود له. وهذا النمط من المحاكمة العقلية أتاح له إنكار الواقع لصالح الإيمان بقوة عظمة متمثلة في خطاباته، وهذا ما أدّى به، حسب الكاتبين، إلى كارثة دبلوماسية. فهو قدْ أنشأ، بسبب اعتقاده، عُصبة الأمم قبل مناقشة شروط السلام، ما ساعد المنتصرين، بعد اطمئنانهم للحماية الأمريكية على تقطيع أوصال أوربا بكلّ هدوء وإدانة ألمانيا من دون قيد أو شرط.

لقد اعتقد ويلسون حينذاك، حسب رأي بوليت، أنه قد أمسك من خلال

الـ«البنود الأربعة عشر» مفتاح الأخوّة الكونية[793]. لكنه، بدلًا من التعامل مع شركائه بمناقشة القضايا الاقتصادية والمالية، ألقى عليهم موعظة الجبل - مثل المسيح -. ثم غادر أوربا، وهو على يقين بأنه قد نشر على الكرة الأرضية السلام الأبدي.

وفيما يخص «الليبيدو» عند ويلسون، يؤكّد بوليت بأنه كان ضعيفًا بصورة استثنائية. فقد تزوج لأول مرة من صديقة ابنة عمه، إيلين أكسون، ثم تزوج ويلسون فيما بعد إديث بولنغ غالت بعد أشهر قليلة لا غير من وفاة الأولى. وهما معًا بدائل عن أمه، هكذا يضيف قائلًا، وكان فيهما الكفاية لإشباع رغباته الضعيفة، وها هو يستخلص بأن التجربة تبين بأن الرجال الموفقين بزواجهم يميلون إلى الزواج مجددًا بسرعة كبيرة. ونتعرف هنا على الفكرة الفرويدية حول التحويل: فهذه امرأة تحل محل الأم بينما المرأة الثانية تحل محل الأولى.

مهما كان سبب النزاع ما بين فرويد وبوليت، فإن ذلك الكتاب المرفوض من المؤرخين، والمشتبه بأنه مزيف على يد الجماعة الفرويدية، والمتعرض للسخرية من معادي الفرويدية، كان مخلصًا في نقاط عديدة للمفهوم الفرويدي حول التاريخ. فهو يصف فعليًا اجتماع قدر فردي، حيث يعمل توجه لا شعوري، مع موقف تاريخي محدد يؤثر فيه هذا التوجه. لكنه أيضًا يجعلنا نفكر بحلم يتناول بطلًا مهزومًا. وأيًا كان الأمر فإن فرويد، بالمقدمة التي دعم فيها عمل بوليت، قدّم مزيدًا من الصلابة حول معاداته للنزعة الأمريكية، وكراهيته لديمقراطية المساواة، واقتناعه بأن أوربا القديمة قد دمّرها تمامًا دونكيشوت غيبي.

كانت شخصية ويلسون جاهزة لمثل ذلك التحليل وكان فرويد محقًا في بعض أسبابه حين شعر بكراهية ذلك المثالي القسري الذي يدّعي بأنه يجلب إلى الشعوب الأوربية حق القيام بأمورهم بأنفسهم، كما لو أن تلك الشعوب كانت غارقة في الجهل في مجال القانون والديمقراطية غير أن تلك اللوحة السيكولوجية كان العيب فيها أنها جعلت من عصاب ويلسون، ومن وضعيته كنبيٍ ملهم كبث كراهيته نحو أبيه، السببين الوحيدين لما كان فرويد وبوليت يعتبرانه فشلًا في سياسته. فهما ينسيان الدور الكبير الذي قام به كليمنصو، وفوق ذلك، فإن فرضية «الليبيدو الضعيف» لم يكن هناك ما يدل على صحتها، إذا علمنا بأن ويلسون، طوال زواجه الأول، كانت له علاقة مخفية مع امرأة أخرى[794]. وإذا نظرنا إلى الأمر بالعمق فإن

مبدأ تطبيق الطريقة التأويلية على العمل التاريخي هي التي يجب أن تكون موضع الانتقاد. ونعلم مدى الضرر الكبير في هذا المجال؛ إدعاء كشف مصير أي إنسان على ضوء عقدة أوديبية مزعومة.

منذ فترةٍ طويلة، وحتى قبل أن يتكلم عن هذا الأمر مع لو أندرياس سالومي، أو مع زفايغ، أو مع مان، كان فرويد مسكونًا بهاجس صورة النبي الأول لليهودية الذي بشر بيسوع المسيح عند المسيحيين ومهّد لمحمد عند المسلمين. كان معجبًا على وجه الخصوص بموسى الذي جاء من تحت يد النحات مايكل آنجلو، موسى القادر على التحكم بنزواته، موسى عصر النهضة الإيطالية، موسى عصر التنوير الأشد إشراقًا من موسى النص المقدس، موسى الذي أخرج شعبه من رُقاده حين فرض عليه الشريعة، وحين أرشده إلى أرض الميعاد وابتكر له عقلية جديدة (Geistigkeit)[795]. إنه من جديد، في مواجهة انبثاق معاداة السامية، لم يكن يتبين فيها مداها المتجه نحو الإبادة الجماعية، ولا يتساءل لماذا أوقع اليهودي على نفسه كل تلك الكراهية[796]، لكنه على وجه الخصوص، طرح على نفسه سؤالًا حول الهوية اليهودية: كيف يصبح المرء يهوديًا؟

كما في كتاب «الطوطم والتابو»، كان يسعى للإمساك بلبّ قضية الأصول. وفي جميع الأحوال، فالتشابه بين الكتابين يصدم: مجموعة قصص أدبية مترادفة، الاستفهام بعكس التيار حول تطور العلوم الإنسانية في ذلك العصر، الاهتمام نفسه بإعطاء قيمة زائدة للأساطير المتعلقة بالاصول كي يبتكر أساطير أخرى ضرورية لاستقصاء النفس اللاشعورية، والانبهار ذاته بالتفسير الديني وبالبحث الأثري، والإرادة نفسها لربط التحليل النفسي على حدٍّ سواء مع علوم الطبيعة ومع القدرة المؤسّسة للأساطير.

بتاريخ 1934، بدأ فرويد كتابة الدراسة الأولى، تحت عنوان «موسى، هل هو مصري؟»، وفي هذه الدراسة يستمدّ إلهامه من مان، وغوته، وشيلر، لكنْ أيضًا من كتابات عديدة لمؤرّخين مهتمين بالتاريخ المصري القديم ويشغلهم التفكير بتقديم تفسير يُقال عنه إنه « عقلاني» عن التاريخ التوراتي، في هذه الدراسة، يعود إلى الفكرة، التي كانت شديدة الرواج منذ نهاية القرن الثامن عشر، والتي تقول إن موسى ربّما كان وجيهًا رفيع المستوى من وجهاء مصر، نصيرًا للديانة التوحيدية وأن شعبه قد عمل على إعدامه[797]. وكان يُفسّر «مصريته»، بالرجوع إلى فكرة «الرواية

العائلية» التي يمكن تطبيقها، كما يقول رانك، على قصص عديدة، وأساطير، وحكايات خيالية، من بينها قصة أوديب[798]. فهناك طفل «مهجور» بسبب قدر يُفترض بأنه مأساوي وتلتقطه عائلة تقوم على تربيته. في سنّ البلوغ، يكتشف أنه ليس كما كان يظن نفسه، وها هو يُكمل مصيره، في معظم الحالات، العائلة الأولى التي وُلد فيها الطفل، هي من منبتٍ رفيع، بينما الثانية حيث ينشأ الطفل، تكون من منبت متواضع. أما في قصة أوديب، فالعائلتان من منبت رفيع، وفي قصة موسى، كما يُقدمها الكتاب المقدس، العائلة الأولى متواضعة الحال (العبرانيون) والثانية دمها ملكي (الفرعون).

إن فرويد، لرغبته بأن يُبرهن على أن موسى كان مصريًا، اقترح عكس طَرَفَي الأسطورة. فالأسرة الحقيقية ذات الدمّ الملكي، كما يقول، هي التي هجرت الطفل ووضعته في سلّة ضمن مجرى الماء، والعائلة الأخرى، المتواضعة الحال، العائلة المخترعة (من العبرانيين). وهكذا يكون البطل قد نزل من عليائه كي يذهب باتجاه شعب إسرائيل في سبيل إنقاذه[799].

في دراسةٍ ثانية له، «إذا كان موسى مصريًا»، يُعيد فرويد تاريخ ولادة الديانة التوحيدية اعتبارًا من حكم أمنحوتب الرابع (أخناتون)، في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. لقد شعر بمتعة وهو يغوص من جديد في تاريخ غابر حيث تتشابك بعضها مع بعض أعظم شخصيات التاريخ المصري القديم، ويستخلص من ذلك بأن موسى، الشخصية الروائية ذات الملامح القوية، كانت قد نقلت ديانة آبائه إلى شعب إسرائيل[800]. وقد فرض عليه فيما بعد الشعائر المصرية بخصوص الختان كي يُبرهن على أن الرب قد اختاره من خلال هذا الحلف المقدس.

كي يروي فرويد تتمة هذه الحكاية، ها هو يعود إلى أعمال أحد شرّاح التوراة من أبناء برلين، إرنست سيلين، الذي قام بتاريخ 1922، استنادًا إلى قراءة قصة النبي هوشع، بتقديم الفكرة عن أن موسى راح ضحية جريمة جماعية ارتكبها شعبه، ذلك الشعب الذي كان يُفضّل الاستمرار على عبادة الأصنام. وإذ أصبح المذهب الموسوي عرفًا باطنيًا، حسب رأي سيلين، فقد تمّ نقله لاحقًا عن طريق مجموعة من المسترشدين. وعلى هذه الأرضية يكون قد وُلد الإيمان بيسوع، النبيّ الذي يتم اغتياله هو أيضًا، وهو مؤسس المسيحية. من هذا التفسير المسيحي للقصة التوراتية على يد سيلين[801]، استخلص فرويد الفكرة القائلة بأن العبرانيين، بعد

تحرّرهم من الأسر، لمَ يتمكّنوا من الصبر على الديانة الجديدة، وها هم يقتلون الرجل الذي كان يُريد أن يكون نبيّا، ومن ثم محوا ذكرى الجريمة من ذاكرتهم[802]. وفق فرضية إدوار ماير[803]، المستشرق والباحث في الشؤون المصرية القديمة، ربط فرويد أيضًا مع هذه الحادثة قصّة توراتية أخرى، متأخرة بعد ذلك التاريخ، بما يخض الحلف المقدس الذي أقامه الإسرائيليون مع القبائل البدوية

المستقرّة في بلاد مدين[804]، وكان ربّهم يهوه ربًا قاسيًا ونزويًا. وسط تلك القبائل، هناك موسى آخر، من اللاويين، قام باستقباله يثرون، وموسى هذا تزوّج ابنة يثرون وأصبح كاهنًا بعد أن هرب من اضطهادات فرعون، من هاتين القصّتين وُلدت الأسطورة التوراتية حول موسى بشخصية واحدة، مؤسس ديانة تجمع عبادة يهوه القديمة مع الديانة التوحيدية الجديدة المستوردة من مصر[805]. ثمَ يُضيف فرويد بأن ديانة يهوه القديمة قامت باستبعاد ثمَ كبت ديانة موسى التوحيدية، الأكثر عقلانية". في هذه الأثناء، من بعد قرون قليلة، عادت تلك الديانة لتنبثق من جديد. وهكذا أضفيت على يهوه حينذاك صفات الديانة التوحيدية العقلانية، بينما أعيد دمج صورة موسى مع ملامح نبي واحد فرض شريعة ربّ واحد: ربّ الكلمة والاصطفاء، ويحمل رسالة روحية سامية.

إن فرويد، في هذه المرّة أيضًا، يُطبّق على تلك القصّة المبتكرة بصورة جديدة مذهبه حول البدائل مستخدمًا موهبته بفكّ الأحاجي والمعميات. فهنا موسى يتخفّى وراءه موسى آخر، والآخر يأخذ صفات الأول والعكس بالعكس، بينما تظلّ ذكرى الجريمة مكبوتة، وهناك حتى ما هو أبعد مدى، فقد وجد ها هنا صورةً أثيرةً إلى نفسه: التعارض بين موسى غيبيّ، بدائي، مدمّر، وموسى مشرّع وعقلاني[806].

بتاريخ 1937، ما بين يناير/ك2 وأغسطس/آب، نشر فرويد هاتين الدراستين مع مواصلة عمله في الدراسة الثالثة. علمًا بأنه حتى قبل أن ينجزها، كتب «مذكّرتين تمهيديتي»، إحداهما في فيينا قبل مارس/آذار 1938، والأخرى في لندن بتاريخ يونيه/حزيران من السنة نفسها، في المذكرة الأولى، يقوم بجرد الموقف السياسي في أوربا معتبرًا أمرًا واقعًا أن روسيا السوفياتية لمَ تنجح في استئصال «أفيون الشعب» (الدين) في المجتمع الشيوعي الجديد، حتى وإن كانت قد منحت الأفراد جرعة ما من الحرّية الجنسية. ومن ثمّ، بيّن بأن الشعب الإيطالي بات يعيش منذ ذلك

الوقت تحت نير نظام استبدادي، بينما راحت ألمانيا تتراجع نحو أحط أنواع الهمجية. ويستخلص من هذا الأمر بأن الديمقراطيات المحافظة كانت قد أصبحت، تمامًا كما الكنيسة الكاثوليكية، من حرّاس التقدم الثقافي، وهكذا يؤكد أنه لا يريد أن يصدم مواطنيه النمساويين بنشر القسم الأخير من دراسته عن موسى، التي تسهمُ مرةً جديدة في إزالة التقديس عن الديانة التوحيدية - أي عن اليهودية - المسيحية - بتحويلها إلى رواية تاريخية، عامرة بالقصص الخيالية وبالأبطال العُصابيين، وكان يقول بأنه على قناعة تامّة بأن التحليل النفس ليس له «من ركن حميم أسمى وأرفع قيمة من المدينة التي وُلد فيها ونشأ[807]». في ذلك التاريخ، كان فرويد ما يزال يظّن بأن حركته تحميها الكنيسة الكاثوليكية والحكومة النمساوية التي سوف تكون قادرة، حسب رأيه، على مقاومة النازية. ومع ذلك كان أيضًا على وعي، منذ مارس/آذار 1937، بأنه ما من شيءٍ يمكن أن يقف في طريق هتلر. مختصر القول، عشية «الدمج»، كان يعلم، من دون أن يريد أن يعلم، وما يزال لديه أمل.

في المذكّرة الثانية الأولية، التي كُتبت في يونيه/حزيران 1938، بعد أن أصبح منفيًا في لندن، قام فرويد بانقلاب مفاجئ: «ومن ثمّ، حدث الغزو الألماني بغتةً، وتبين بأن الكاثوليكية غصنٌ ليّن، وأصبحتُ على يقين منذ ذلك الوقت أنني سوف يقع عليّ الاضطهاد ليس بسبب طريقتي في التفكير لا غير وإنما أيضًا بسبب /عرقي/، لقد غادرتُ مع عدد كبير من الأصدقاء المدينة التي كانت وطني منذ سنوات طفولتي الأولى على مدى ثمانية وثمانين عامًا. وقد استقبلتني إنجلترا أحسن استقبال بكل مودة وهي الأجمل، والأكرم، والأكثر حرية، أنا أعيش هنا منذ هذه اللحظة كضيف على الرحب والسعة؛ وأسترجع أنفاسي وأنا أفكر بأن ذلك القهر قد ابتعد وأنّ بإمكاني من جديد أن أتكلم وأكتب - كنت على وشك أن أقول: وأفكر - كما أريد أو كما يجب عليّ. وهكذا أغامر وأقدم إلى الجمهور القسم الأخير من عملي[808]».

وهكذا كان لا بد من خمسة أعوام، ما بين استيلاء النازيين على السلطة في 1933 و«الدمج»، كي يفهم فرويد. لكنه لن يكون الوحيد الذي لم ينظر إلى هتلر وجهًا لوجه، هذا الجهل بموقف النمسا وبطبيعة النازية يؤكد في جميع الأحوال كم كان فرويد، رغم بعد نظره عادةً، أكثر ارتباطًا بفيينا وبيهوديته في فيينا مما كان يظن هو نفسه، وأن أعماله كانت، أكثر بكثير

مما كان يظن، نتاج تاريخ آني لم يكن يمسك بمقاليده، وهو ما يجعل ذلك التاريخ في غاية الأهمية. فكلما راح يستقصي القصص الخيالية من الأصول، ازداد تأويله للنصوص المقدسة لكي يجعلها متطابقة مع بنياناته وازداد حديثه عن الزمن الحاضر، أي عن طفرات معاداة السامية وثقل وطأتها على إعادة تعريف الهوية اليهودية.

في دراسته الثالثة «موسى، شعبه، وديانة التوحيد»، تابع فرويد الفكرة حول وجود شخصين باسم موسى، موسى مِدْيَن وموسى المصري، كي يربط مصير اليهودية مع مصير المسيحية. فالشعب الذي اختاره النبي، كما يقول لا بد أنه قتل الأب المؤسس لكنه كبث ذكرى الجريمة، التي عادت من جديد مع المسيحية. كان فرويد هنا يستلهم معاداة اليهودية على يد المسيحية كي يضع تأويلًا معاكسًا لمقاربتها الكلاسيكية، المقاربة القائلة بشعب قاتل لآلهته. وها هو على الفور يربط اليهودية بالمسيحية إذ يجعل من الأولى دين الأب، ومن الثانية، دين الابن، ومن المسيحيين ورثة جريمة كبتها اليهود: «الرب القديم، الرب - الأب، كما يؤكد، انتقل إلى النسق الثاني. والمسيح، ابنه، احتل مكانه مثلما كان يريد القيام به في عصر مندثر كلٌّ من الأبناء الثائرين[809]».

ودائمًا حسب فرويد، فإن بولس الترسوسي - الترسي -، الذي تابع نهج اليهودية، كان في الوقت نفسه مَن دمرها: مِن خلال إدخال فكرة الفداء، إذ أنه بذلك توصل إلى الخلاص من شبح الشعور بالذنب عند البشر لكن الثمن كان مناقضة الفكرة عن أن الشعب اليهودي هو الشعب المختار، ونتيجةً لهذا الأمر، بالتخلي عن الإشارة الظاهرة إلى ذلك الاختيار - عن طريق الختان -، يكون قد حوّل المسيحية إلى عقيدة شاملة قادرة على مخاطبة جميع البشر.

غير أن فرويد يؤكد أيضًا بأن الكراهية حيال اليهود كانت تجد غذاءً لها في عقيدة التفوق عند الشعب المختار، وعن طريق القلق الممزق خوفًا من الخصي، وهو ما يحدث بسبب الختان باعتباره علامة الشعب المختار. فهو يرى بأن هذه الشعيرة تهدف إلى إعطاء صفة نبيلة لليهود وتمهد لهم احتقار الأخرين، غير المختونين. ضمن هذا المنظور نفسه، تناول بحرفيته، كي يغير دلالته، الانتقاد الرئيسي عند معادي اليهودية، أي رفض اليهود والقبول بأن يصير الرب إلى موت. إن الشعب اليهودي، على حدّ قوله، يصرّ على إنكار قتل الأب والمسيحيون لا يكفّون عن اتهام اليهود بأنهم قتلة

الرب لأنهم تحرروا من الخطيئة الأصلية منذ أن ضحى المسيح، بديل موسى، بحياته كي يفتديهم. بتعبير آخر، إذا كانت المسيحية هي دين الابن الذي يعترف بالجريمة ويفتديها، فاليهودية بقيت دين الأب الذي يرفض الاعتراف بقتل الرب، وهذا ما لم يقلل من اضطهاد اليهود بسبب جريمة قتل الابن وهم بريئون منها، ويستخلص فرويد من ذلك بأن ذلك الرفض عرّض اليهود لنقمة باقي الشعوب.

بعد قبوله بأن تاريخ اليهود لا يمكن فصله عن تاريخ معاداة اليهودية عند المسيحيين، يشرح فرويد بأن معاداة السامية الحديثة تشهد على تحويل كراهية المسيحية لتنصب على اليهود: «إن الشعوب التي تنجرف اليوم مع معاداة السامية لم تصبح مسيحية إلّا في وقت متأخر وغالبًا ما أجبرت على هذا الإيمان إجبارًا دمويًا. حتى أن بإمكاننا القول إنهم جميعًا / غير معقدين كما يجب/؛ وتحت قشرة رقيقة من المسيحية، ظلت تلك الشعوب كما كان أسلافهم على تعلّق بتعدد الآلهة البدائية. ولم يتمكنوا من التغلب على نفورهم من الديانة الجديدة لكنهم حوّلوا هذا النفور على المصدر الذي جاءت منه المسيحية [...]. وهكذا فإن معاداة السامية هي بالعمق معاداة للمسيحية، وليس هناك ما يدهشنا إذا رأينا، في الثورة القومية الاشتراكية الألمانية، أن هذه العلاقة الحميمة بين الديانتين التوحيديتين نجدها بوضوح كبير في المعاملة للطرفين بالكراهية والعداوة نفسها[810]»، بتعبير آخر، إذا كانت اليهودية، وهي الديانة «القديمة»، متفوقة على المسيحية بقوتها الثقافية، لكنها غير صالحة للانتشار انتشارًا شاملًا، فيجب دمج الديانتين تاريخيًا - حتى مع اختلافهما بالذات، في سبيل إخصاب ثقافة يهودو - مسيحية قادرة على الوقوف في وجه معاداة السامية الحديثة.

كانت هذه الخطوة تقوم بالعمق على إضاءة الجذور اللاشعورية لمعاداة السامية انطلاقًا من اليهودية نفسها، وليس كما كان الأمر سابقًا بالنظر إلى هذه المعاداة وكأنها ظاهرة من خارج اليهودية، وهذه طريقة للرجوع إلى إشكالية «الطوطم والتابو»، والذي كان كتاب «موسى الإنسان» في واقع الأمر استمرارًا له. فإذا كان المجتمع حقيقةً قد وُلد من جريمة ارتكبت بحق الأب، كي تضع نهاية للحكم المستبد في القطيع البدائي، ثم بتأسيس شريعة حيث الوجه الرمزي للأب استعاد قيمته، فهذا يعني بأن اليهودية يجب أن تخضع للسيناريو نفسه. وفعليًا، إن قتل موسى ولّد المسيحية،

القائمة على الاعتراف بالذنب: فديانة التوحيد مستمدة على هذه الصورة من التاريخ الذي لا نهاية له، تاريخ تأسيس شريعة الأب تلك التي بنى عليها فرويد مذهبه بالكامل.

وفي الوقت نفسه، كان فرويد يخضع للمطالبة بالرجوع في هذه الأمور إلى السلطة العليا للكتاب المقدس ولديانة آبائِهِ. لكنه، كان أبعد ما يكون عن القبول بتغيير الدين ردًا على معاداة السامية، أو القبول بالصهيونية، فهو يعيد تعريف نفسه هذه المرة أيضًا كيهودي من دون ربّ[811] - يهودي تأمل ومعرفة - مع رفضه الكامل لكراهية ذاته اليهودية. أكاد أن أقول من دون تردد إنه قد شرع بتخليص اليهودية من الإحساس باليهودية الخاصة باليهود غير المؤمنين، ملتفًا على حدٍّ سواء من حول العهد المقدّس وفكرة الشعب المختار، حيث أن هذا الأمر هو ضربٌ من الهذيان. في هذه الأثناء، عندما كان يُجرّد موسى من يهوديته كي يجعل منه مصريًا، أسند فرويد لليهودية، بما هي في الوقت نفسه جوهر وانتماء، وضعيةَ خلود. وهذا الإحساس، الذي به يظل مطلق يهودي يهوديًا في ذاتيته حتى عندما يتبنى وضعية خارجية بما يتعلّق باليهودية، وهو ما كان فرويد يشعر به شخصيًا ولا يتردّد عن دمجه مع تُراث النشوء والتطوّر. لقد ظلّ، في بعض الجوانب، مخلصًا ليهودية موسى عن طريق مطالبته الدائمة بهوية يهودية، وكان يُريد من التحليل النفسي أن يأخذ على عاتقه رسالة حمل ونشر تُراث تلك اليهودية المتحوّلة إلى يهودية شتات[812].

كان فرويد يُدرك تمامًا، من خلال كتابه «موسى»، أنه يُدوّن ما يُشبه وصية تشهد على حد سواء عن رفضه لمغادرة فيينا، المدينة التي تحقق فيها انصهار غير مسبوق بين يهودية الشتات وطريقة جديدة في التفكير حول الطابع الشمولي للّاشعور، وكذلك عن رغبته بأن يقبل بالنفي وأن يعيش أخيرًا في مكان يُمكن أن يتحقق فيه انبعاث مذهبه إلى الحياة، ومن هنا حلمه بالعيش في إنجلترا، بلد التحالف بامتياز بين نظام ملكي وديمقراطية ليبرالية. ومما لا شك فيه أن هذا الأمر كان في نظره طريقة للرد على انهيار أوربا التنوير القديمة، مثلما هو رد مدعّم على التحالف بين فكر الانشقاق عند سبينوزا والوجوه الأسطورية الثلاثة في الثقافة الغربية التي كانت ماثلةً دائمًا في بلورة مذهبه: أوديب، طاغية العالم الإغريقي، وهاملت، الأمير المسيحي، وموسى، النبي اليهودي، الذي أعاد إبداعه مايكل - آنجلو، الإيطالي، ثمّ أعطي طابعه المصري على يدِ المثقفين

الألمان في القرن التاسع عشر. في 1938، هذا الموسى، المشرق بأضواء رغبة كبيرة بإنجلترا، كان في نظر فرويد، النقيض الكامل لويلسون، الأمريكي ذي الوجه الحزين.

وفعليًا، كان فرويد متشككًا ومتهيبًا أمام تلك الديمقراطية الأمريكية التي تُندّد بفكرة جمهورية المختارين وترفضها لصالح سيطرة الجماهير. كما كان يلعن النازية التي أطلقت العنان لتدمير الإنسان بنزوات متوحّشة. فمن هذا الطرف وذاك، كانت هاتان الصيغتان للحكم تضعان موضع الشك فكرة السلطة كما كان يفهمها، وكان على قناعة، لا سيّما منذ أزمة 1929 الاقتصادية ونشر كتابه «الوعكة»، بأن السعي اللاهث إلى تجميع الثروات كان يُماثل في الخطر الخضوع للطغيان. وهكذا كان يظن بأن أمريكا سوف يلتهمها ذات يوم عفاريتها الثلاثة: الجنون البيوريتاني، والسعي الفردي نحو أحسن المواصفات الجنسية، والمضاربة التي لا حدود لها. ولهذا السبب فأوربا العجوز الإمبراطورية، أوربا الهابسبورغ، قد وجدت دائمًا لفترة طويلة في نظره عالم الرحمة لأنها كانت تحمي الأقليات وتشجّع على التحكّم بالنزوات. غير أنها ابتلعتها الحرب العالمية الأولى. وهنا أصبح من الضروري نشوء الرغبة الموجّهة نحو إنجلترا.

بتاريخ 1938، كان بإمكان إنجلترا دون سواها أن تكون أرض استقبال وحفاوة لفرويد. كانت تسيطر على إمبراطورية، كما أنها ورثت ماضيًا مجيدًا، وكانت ترعى الحزبية الفردية واحترام السلالات الملكية، وأخيرًا، فقد عرفت دائمًا كيف تقاوم الإغراءات الديكتاتورية، ولو كان الثمن قتل الملك لإعادة تأسيس الكرامة الملكية. كان فرويد يُحب كرومويل، المدافع العظيم عن اليهود[813]، لكنه كان معجبًا أيضًا بأن العائلات الملكية البريطانية لم يتم إقصاؤها عن السلطة - حتى وإن كانت سلطة رمزية - على يد أية جمهورية يعقوبية: « كان فرويد بطركًا - أبًا -، هكذا كتب مارك إدموندسون، عمل بمهارة لا مثيل لها على تفكيك البطركة - الآباء -. لقد كتب وعاش كي يضع حدًا لصيغة سلطوية كان يُجسدها ويستثمرها شخصيًا[814]».

إن كتاب «موسى»، الشهادة على طابع يهودي فرويدي يعيش في المنفى، أفسح المجال لتأويلات عديدة متناقضة. فقد ارتسمت ثلاث مقاربات نقدية. المقاربة الأولى، تعود إلى دافيد باكان، حيث يضع كتاب فرويد ضمن العرف التصوّفي اليهودي[815]، والمقاربة الثانية - من كارل

سكورسكي إلى بيتر غاي مروزا بييرمي ياهو يوئل - سوف تظهر على العكس شخصية فرويد كملحد، منفك عن مركز طابعه اليهودي وفريسة للإشكالية المزدوجة التي تشمل الانشقاق السبينوزي والاندماج بالثقافة الألمانية. والمقاربة الثالثة أخيرًا، من طرف يوسف يروشالمي، سوف تحاول تبيان الثنائيات اليهودية عند فرويد في مواجهة طابعه اليهودي. وأنا شخصيًا في صفّ المقاربتين الأخيرتين إذا كان لي أن أختار.

أمّا من طرف علماء الإسرائيليين المختصين بالتاريخ اليهودي، فلم ينل كتاب فرويد حقّه من التقدير، وتعرّض للانتقاد من دون وجه حق. فهذا مارتن بوبر يأخذ على فرويد جديته العلمية الضعيفة[816]، بينما جيرشوم شوليم سوف يُفضّل عليه يونغ - لبعض الوقت على أقل تقدير، وهو الذي كان قد أصبح صهيونيًا يتزايد حماسه دائمًا مع توضّح معاداته للسامية ودعمه لألمانيا النازية. مع بداية سنة 1938، انتشر سرطان فرويد حتى وصل إلى قاعدة محجر العين، وفي كل إسبوع كان تلف تجويف الفم يتفاقم بينما الأنسجة المتآكلة تزداد إيلامًا، ما يستدعي تنظيفًا يوميًا لها. كانت العمليات الجراحية وعمليات المعالجة للأورام بالكهرباء تؤخر تقدم المرض. ونظرًا لاهتمامه بأن يستمر في العمل وأن يحافظ على يقظته سليمة، كان فرويد، رغم أن النحول بدأ يتجلى لكل ناظر، يرفض تناول المسكّنات. ورغم التلف الذي يحدثه المرض على وجهه، وتزايد الصمم عنده بنتيجة الالتهابات التي تأتي من بعد التدخل الجراحي، كان متمسكًا بالمحافظة على مظهر خارجي لائق. ولذلك فرض على بشلر استئصال ورم هلامي نشأ في الفك وبدأ يتضخم بحيث لم يعد بإمكانه العناية بلحيته: «لعلكِ سوف تلاحظين بأنني أصبحت أجمل. ألم أكن مشوهًا بكيس دهني، بورم، لم تحدثيني أبدًا عنه، كياسةً منكِ دون شك؟ لقد خلصوني من تلك الزينة[817]».

على نقيض فرويد، كان هتلر مصابًا برعب حيال الأسرة المالكة من آل هابسبورغ وهو، منذ أن أصبحت النمسا جمهورية صغيرة، وصارت فيينا مدينة منكوبة لكنها دائمًا فخورة بماضيها الأمبراطوري، لم يكن يدور في ذهنه سوى تدميرها بالكامل: «النمسا الألمانية يجب عليها أن تعود إلى الوطن الألماني العظيم، هكذا أكد في «كفاحي» وهذا ليس بسبب عامل اقتصادي. كلا، كلا، حتى ولو كان هذا الانصهار، من الناحية الاقتصادية، غير ذي شأن وحتى وإن كان مؤذيًا، يجب أن يحصل رغم هذا: الدم

الواحد يقتضي وجود رايخ واحد[818]».

في مطلع سنة 1938، كان ينتظر إذن بفارغ الصبر اللحظة الملائمة للتدخل في النمسا كي يحقق مشروعه بالانصهار، ذلك المشروع الذي راود أحلامه منذ شبابه. كان يشعر بكل بساطة أنه يحمل الرسالة «العظيمة»، رسالة فتح فيينا، والظهور في رابعة النهار، مثل شبح وسط عاصفة ربيعية. وها هو يستدعي كورترفون شوشنغ، رئيس الوزراء إلى برغوف لإجباره على تسليم حقيبتين وزاريتين لأنصاره النازيين، لا سيما حقيبة وزارة الداخلية إلى آرثر سييس - إينكوارت، مهددًا إذا لم يتم الأمر بغزو عسكري. قبل شوشنغ ثم حاول دون جدوى تنظيم استفتاء لإنقاذ استقلال النمسا، وهذا ما سبب غضبًا «هستيريًا» عند هتلر، ولاقتناعه، وهو محق في ذلك، بأن إيطاليا، وفرنسا، وإنجلترا، لن تحرك ساكنًا، فكتب غوبلز يقول: «رُمي النرد، الهجوم الكاسح على فيينا، والفوهرر سوف ينزل بنفسه إلى النمسا[819]»، لقد شعر شوشنغ باليأس فطلب المساعدة من البريطانيين، كي يتلقى برقيةً مخزية من اللورد هوليفاكس: «حكومة صاحبة الجلالة ليست في وضع يسمح لها بضمان حمايتكم». ولذلك قدّم استقالته من منصبه، بتاريخ 11 مارس/ آذار وألقى في المساء، حديثًا مؤثرًا في الإذاعة، بينما في جميع المدن النمساوية، انطلقت الجماهير تهاجم اليهود مع هتافات «الموت ليهوذا»، ممجدين اسم هتلر ومحتلين للأبنية الرسمية.

استمع فرويد، في برغاس، إلى حديث رئيس الوزراء، الذي كانت خاتمته هذه الكلمات: «فليحمي الله النمسا»، وفي 12 مارس/آذار، دوّن في أجندته: «انتهت النمسا». ومرةً ثانية، حازمًا أمره بالصمود حتى النهاية تمسكًا بصفته كأبٍ للتحليل النفسي، ها هو يحضر احتضار العالم الذي كان عالمه. ومع ذلك، بدأ يعلم بأنه في دائرة التهديد: فقد زاره جون ويلي، صديق وليام بوليت والقنصل العام للولايات المتحدة في فيينا، وكانت مهمته منذ ذلك التارخ الاهتمام بتأمين هجرة فرويد مع عائلته، ولن يتأخر الوقت كي ينبه كورديل هول، وزير الدولة عند الرئيس روزفلت، بالخطر المخيّم فوق رأس فرويد، على الرغم من عمره ومن سوء صحته[820]. وفي باريس، توجه بوليت إلى سفارة ألمانيا لتحذير السفير من عدم تعرض الهر بروفسور لأي إزعاج. وأخيرًا كُلفت دوروتي بيرينغهام بتنبيه السفارة الأمريكية هاتفيًا في فيينا كي تتيقظ لأي حادث يمكن أن يقع مع فرويد.

في 13 مارس/آذار حين جرى إعلان ضم النمسا رسميًا - Anschluss

[821] اجتمعت اللجنة الإدارة لـ WPV في برغاس بحضور فرويد وبرئاسة آنا، أعلمهم جونز بأنه كان يتمنى أن يتم في فيينا تبني السياسة نفسها المزعومة حول «الإنقاذ» كما الحال في برلين. فرفض غير اليهودي الوحيد في اللجنة، ريتشارد ستيربا، القيام بدور فيليكس بويم وأعلن أنه ينوي مغادرة النمسا مع عائلته بأسرع ما يمكن كي يقيم في سويسرا ثم في الولايات المتحدة. بنتيجة ذلك، اتخذوا قرارًا بحلّ الـWPV وبجعل مقرها حيث سوف يختار فرويد أن يعيش. وهكذا اكتمل الفعل الأول السياسي لتغيير المركز الذي سوف يجعل من التحليل النفسي مشابهًا تمامًا لليهود في الشتات، وإذا كانت فيينا قد كفّت عن أن تكون المركز المحوري في الحركة - حتى وإن أصبحت موضع تشكيك -، فهذا يعني بأن فرويد كان بإمكانه هو أيضًا مغادرتها كي يعيد التأسيس، في المنفى وقبل أن يموت، تنسيق تنظيم جديد: للذكرى، هذه المرة. في مواجهة التدمير المنظم، كان الواجب يقضي بأي ثمن أن تُنقل إلى الأجيال المقبلة آثار ما شكّل تاريخ حياته، ومذهبه، وتعاليمه، وما يتصل بأول حلقة من تلامذته: كتب، ملفات، مخطوطات، رسائل، مجموعات مختارة، مذكرات العمل، الذكريات المشتركة، إلخ. وكان كل ذلك على ارتباط منذ ذلك الحين بالمستقبل أكثر من الارتباط بالماضي، إنقاذ الآثار، إنقاذ التاريخ، إنقاذ الذاكرة، إنقاذ ذكرى فيينا. كانت تلك المهام لازمة تمامًا كلزوم إنقاذ كلٍ منهم لحياته، وهي بعيدة قدر الإمكان عن كل عقلية تعاون مع النازية.

استلم فرويد الرسالة بوضوح، الرسالة التي وجهها إليه أعضاء اللجنة. وفي هذه المرة، تخلى عن كل إدعاء بالـ«إنقاذ» المزعوم ملقيًا هذه الكلمات: «بعد تدمير تيتوس لهيكل القدس - أورشليم -، طلب الحاخام يوحنان بن صاقاي السماح بفتح مدرسة مختصة بدراسة التوراة، ونحن سوف نفعل الشيء نفسه. فنحن، في جميع الأحوال، معتادون على الاضطهاد في تاريخنا وأعرافنا، وبعضنا عرف الاضطهاد بالممارسة، باستثناءٍ وحيد[822]».

أمّا الجماهير، التي ازداد هياجها مع إعلان وصول هتلر، فانجرفت أكثر في مهاجمتها لليهود، والشيوعيين، والاشتراكيين الديمقراطيين. وكان فرويد يعتقد بأن النمساويين أقلّ عنفًا من الألمان، لكنه أخطأ في تقديره، فقد تفوّقوا بالوحشية على أسياد النازية، حتى أن هؤلاء شعروا بالدهشة حيالهم. فقد اقتُلع اليهود بالقوة من مكاتبهم، ثمّ جُزدوا فورًا من جميع

ممتلكاتهم، وتحوّلوا إلى «جماعات التنظيف» تحت إشراف عصابات السلب والنهب التي أشبعتهم ضربًا وإهانة مع هتافات هايل هتلر!: «كان هادس قد فتح أبواب جهنم وأطلق أشد الأرواح خساسةً، وأكثرها حقارة ونجاسة، هكذا لاحظ المسرحي كارل زوكماير، ألا وقد تحوّلت فيينا إلى كابوس من كوابيس الرسام جيروم بوخ[823]».

لقد حضّر هتلر تحضيرًا جيدًا دخوله إلى النمسا. فتوقّف بدايةً في برونو - آم - إين، مسقط رأسه، حيث كان بانتظاره جمهور منفلت من عقاله. ثمّ توجّه إلى لينز حيث، بسبب تأثّره العميق باستقبال الأهالي هناك، بكى وهو يُلقي خطابًا يطرح فيه نفسه كبطلٍ انتدبته العناية الربّانية ليستكمل الرسالة المقدسة، رسالة القضاء التام على الهوية النمساويّة، وأخيرًا، في 15مارس/آذار تكلّم في فيينا أمام جمهور في حالة هذيان، قبل أن يتمّ استقباله استقبال الفاتحين من طرف كبار رجال الكنيسة الكاثوليكية، الذين قدّموا من دون تمهّل دعمهم للـ Anschluss - للدمج -، ودعمهم للحزب القومي الاشتراكي، وللقوانين المعادية للسامية ولكلّ شكل من أشكال الحملة الصليبية على البلشفية[824]. ووضع الكاردينال إنيتزر، كبير أساقفة النمسا، توقيعه على إعلان الانصهار وأضاف بخط يده عبارة: «هايل هتلر».

في فترة جدّ قصيرة أصبح سلب المشاريع اليهودية أمرًا واقعًا، وسرعان ما كلّف مشرف نازيّ بجميع السلطات للمصادرة، والتصفية، والاعتقال والتشجيع على الوشاية. ثمّ جاءت من بعد ذلك، وبسرعة فائقة، أعمال الترحيل نحو معسكرات الاعتقال التي لم تكن بعد قد أصبحت أماكن إبادة. ومن دون أن يصدّقها فرويد بصورة مبالغة فيها، علم بوجودها من خلال قراءة صحيفة das neue Tagebuch - مذكرات جديدة -، المنشورة في فرنسا برعاية ليوبولد شوارزشيلد وهذا الأخير نفسه هو الذي سوف ينشر فيما بعد في الولايات المتحدة، النسخة الأولى من «الأخ هتلر» بقلم توماس مان. كان قد تراءئ لفرويد بأن الكاثوليكية النمساوية سوف تحمي اليهود. وها هو، مرةً جديدة، يُخطئ خطأً فاحشًا، وأمّا فورزانو، صديق ويس، فقد وجّه رسالة لا فائدة منها إلى موسوليني: «أوصي عظمتكم بعجوزٍ مجيد الشأن عمره اثنان وثمانون عامًا وهو شديد الإعجاب بعظمتكم: إنه فرويد، وهو أحد اليهود[825]».

في هذه المزة، أصبح ملحًا أمر تنظيم رحيل فرويد إلى إنجلترا بأسرع

ما يمكن. في 16مارس/آذار 1938، وصل جونز إلى فيينا، ولحقت به في اليوم التالي ماري بونابرت. وعلى منوال قبطان سفينة التيتانيك الذي رفض مغادرة سفينته الغارقة، أكد فرويد بأنه لن يتخلّى أبدًا عن منصبه. غير أن جونز خطرت له حينذاك الفكرة بمعارضته بقصّة مقابلة لقصّة القبطان: قصّة الضابط من السفينة نفسها الذي ألقى به على سطح الماء انفجار إحدى السّخانات. وأثناء التحقيق، سألوه في أيّة لحظة غادر السفينة فكان جوابه: أنا لم أغادر السفينة، السفينة هي التي تخلّت عنّي. واعترف فرويد بأن تلك الحالة مشابهة لحالته. وحيث إن فيينا قد تخلّت عنه للنازيين، قَبِلَ أن يهاجر نحو إنجلترا.

لكنّه انسجامًا مع قرارات لجنة الـ WPV، كان يُريد أن يصطحب معه أواخر تلامذته من أبناء فيينا. والحال فإن جونز كان يعلم بأن جماعة كلين لن يقبلوا أبدًا بالدخول جماعيًا إلى الـ PBI، وفوق هذا، فالحكومة البريطانية لم تكن تستقبل المهاجرين اليهود إلّا ضمن حدود معيّنة مضغوطة جدًا. باختصار، كان لا بد من التفاوض بشأن هذا الرحيل من خلال استنفار جميع القوى في الساحة: ماري بونابرت، المستعدّة لتوظيف ثروتها وعلاقاتها، بوليت، وويلي، وكورديل غول، الأقوياء بمواقعهم في الولايات المتحدة[826]، وجونز الذي استنفر جميع علاقاته في لندن، صهره ويلفريد تروتر، الذي يحتلّ موقعه في مجلس الجمعية الملكية، والسير ويليم براغ، عالم الفيزياء الكبير، الحائز على جائزة نوبل، والسير صمويل هوار، وزير الداخلية، والعضو في حزب المحافظين.

لقد آن الآوان. وذاك لأن مقرّات الـ Verlag، عشيّة 15 مارس/آذار توجّه إليها فوج المداهمة الـ SA، في 7 برغاس. وقد هدّد مارتن فرويد، المدير، بطلٌ مقدام وضع فوهة مسدسه على صدغه، لم يكن قد توافر لديه الوقت الكافي لإتلاف جميع الوثائق التي تبرهن بأن فرويد يمتلك مقتنيات مالية في بنوك أجنبية. في اليوم نفسه، توجّهت جماعة نازية أخرى ونظّمت تفتيشًا للمنزل العائلي. وقد برهنت مارتا عن رباطة جأش، إذ تعاملت مع الناهبين كزوّار عاديين ودعتهم لوضع أسلحتهم في حمّالة المظلّات عند المدخل. لقد صادروا جوازات سفر عديدة وأخذوا معهم ستة آلاف شيلنغ مقابل إيصال رسمي.

في الولايات المتحدة، بدأت تنتشر إشاعة بأن فرويد تمّ تنفيذ حكم الإعدام به على أيدي النازيين. وها هو موفد صحيفة، أحد المراسلين،

يتوجّه حينذاك إلى فيينا، إلى برغاس، وبصحبته إيمي موبيوس. فاستقبلتهما مارتا قائلةً بأن فرويد في تلك اللحظة يأخذ قيلولة[827].

من جانبها اعتبارًا من 17 مارس/آذار بدأت ماري بونابرت، بمساعدة من آنا، ومارتا، وبولا، بفرز، وترتيب وحزم الكنوز التي كان فرويد قد جمعها طيلة حياته، وهي لاهتمامها بإنقاذ الآثار، راحت تجمع أوراقًا هامة كان يُمكن للهر بروفسور، شخصيًا، أن يُلقي بها للإتلاف أو أن يحرقها، لقد شاركت العائلة حياتها اليومية، وخبأت بعض الأغراض كي تمرّرها إلى الخارج، عن طريق القائم بأعمال السفارة اليونانية حيث كانت تقيم. وقد حصلت على قطع عديدة من الذهب كان فرويد قد وضعها جانبًا. وذات يوم، خبأت تحت تنورتها تمثالًا صغيرًا من البرونز يُمثّل الربّة أثينا وهي تحمل في يدها اليمنى كوبًا، وفي اليسرى رمحًا، وعلى الرأس خوذةً كورنثية وعلى الصدر واقية مزيّنة بوجه ميدوزا. كانت تعلم بأن فرويد متعلّق بأيقونة الحرب تلك، التي تجمع بين فضائل المعركة وفضائل الذكاء، فقرّرت أن تنقذها كي تقدّمها إليه حين تستضيفه في بيتها في باريس. لقد حصل فرويد على حقّ نقل مجموعاته وقسم من كتبه. لكنّه، كان مجبرًا على أن يترك في فيينا ما يقرب من ثمانمائة مجلّد، ذات قيمة لا تقدر بثمن، وهكذا استدعى صاحب المكتبات الكبير هنريخ هنتربرجر، الذي أخذ عددًا لا يستهان به من كتب الفن[828].

في 20 مارس/آذار، بإشراف جونز - الذي ما يزال متعلّقًا بفكرة التعاون مع النازيين -، قبل أعضاء اللجنة الإدارية للـ WPV توقيع بروتوكول اتفاق جعل هذه الهيئة الأخيرة تحت وصاية الـ DBG. وقد اشترك في هذا الاجتماع مولر - برونزفايغ، موفدًا من طرف ماتياس غورنغ، وقد أنشأ هذا الاجتماع ما يشبه ضمّ أبناء فيينا إلى المحلّلين النفسيين من أبناء برلين «الآريين»، وأبناء فيينا هؤلاء، كانوا قد رفضوا كلّ شكل من أشكال «الإنقاذ»، أمّا المدير التجاري للـ Verlag، مارتن فرويد، فقد وضع توقيعه إلى جانب تواقيع خالته آنا، وماري بونابرت، وإدوار هيتشمان، وهاينز هارتمان، وإرنست كريس، وروبيرت فالدر[829]. وقد وقّع الأعضاء اليهود في اللجنة أيضًا على تنحيهم جانبًا لأن تلك الوصاية تقصيهم «بحكم الأمر الواقع» عن كل وظيفة في صميم الـ WPV. وقد شعر جونز بغضب شديد لتغيب ستيربا، ودوّن ملاحظةً بأن الـ Shabbes Gay[830] قد تهرب من واجباته.

بعد شهرٍ من ذلك التاريخ، وكان قد استقر بصورة مريحة في 7 برغاس الذي أصبح اسمه منذ ذلك الحين Judendrei - تجاوب اليهود، أعلم مولر - برانزفايغ ستيربا عن نيته بتحويل مقرّات الـ Verlag إلى معهد «بطابع آريّ» كي يؤمّن «البقاء» المزعوم على قيد الحياة للتحليل النفسي في النمسا، وطلب إليه، بصفته «الآري» الوحيد في الـWPV، الحضور لمواكبة هذه العملية المشؤومة[831]. وقد أجاب فرويد بعدم القبول، وقبل أن يرحل إلى المنفى، أمكنه أن يعاين بأن مدخل بيت فرويد قد علّقت فوقه صورة تمثال معقوف. وحين التقى مع جونز في لندن، أدرك أنه قد ساهم بإفشال تلك السياسة التي لم يكن يحبذها. غير أنه مع ذلك لم يحصل على فيزا للإقامة في إنجلترا، وسعى للهجرة إلى جوار وولف ساش في جنوب أفريقيا، ثم اختار المنفى في الولايات المتحدة. أمّا فرويد وابنته، من جانبهما فكانا قد استحسنا قرارجونز بوضع سياسته حول «الإنقاذ»، تحت وصاية الـ WPV، بعد أن كانا قد رفضا ذلك بتاريخ 13مارس/ آذار.

في اجتماع 20 مارس/آذار أيضًا اشترك أنطون سوير فالد، التلميذ القديم لجوزيف هرتزغ، الأستاذ الكبير في الكيمياء في جامعة فيينا، وهو بصفته مفوضًا نازيًا، كان مكلّفًا بمهمة تجريد اليهود من ثرواتهم من أجل «إلغاء الطابع اليهودي عن الاقتصاد النمساوي». وهكذا كان عليه الاهتمام بممتلكات عائلة فرويد وكذلك بجميع العمليات المتعلّقة بالـ WPV والـ Verlag. كان معاديًا عنيفًا للسامية، ولذلك بدأ بإهانة جميع غير اليهود الذين تجاسروا على التدخّل في قضايا «Judisch Schweinereien[832]» . لكن نظرًا لأنه كان يتعامل مع عالمٍ بارز، وجاهته وكرامته لا يمكن الاستهانة بهما، فقد شرع بقراءة كتب عديدة حول التحليل النفسي واهتم على وجه الخصوص بأن يتمايز عن باقي الموظفين النازيين. وحين تبين له بأن فرويد يملك ثروة كان قد أودعها نقدًا في الخارج، قرّر عدم «الوشاية» به، بل وأن يُساعده في الحصول على الترخيصات الضرورية لتأمين سفره إلى المنفى. لقد توجّه تفكيره نحو استعادة ذلك المال الذي أنقذه من المصادرة، ليضعه بحسابه وقد تعاون لهذه الغاية مع أحد المحامين، ألفريد أندرا، وهو شخص آخر مشبوه من الذين في أزمنة الاضطرابات يجمعون ثروات بإعطاء نصائح إلى كبار الأغنياء في العائلات اليهودية في فيينا الخاضعين لطلب فدية عالية. كان أندرا، الضابط القديم في الجيش الإمبراطوري، المهتم بجمع التحف الفنية،

القارئ المواظب على ملاحقة أعمال كارل كروس، الهاوي للصيد بالكلاب والمحب للكلمات ذات النكهة اللّماحة، مقرّبًا من عائلة ويتجنستن، وعلى ارتباط مع ماري بونابرت وهو يعتبر محاميًا نابهًا ويُفهم زبائنه بأن السلطات النازية غبية وتصدّق ما يقال لها بسهولة. ولذلك أصبح محامي فرويد وتعاون مع جميع الأعضاء في محيطه[833].

في 22مارس/ آذار اقتيدت آنا فرويد إلى أوتيل المتروبول[834]، القيادة العامة للجستابو، كي تخضع لاستجواب نظامي بخصوص «نشاطاتها التخريبية». وقد طالبت ماري بونابرت بأن يأخذوها معها ولكن الـ SS بسبب تأثرهم بصفتها الملكية العريقة، لم يقبلوا ذلك، وقد أحسنت آنا بمهارة إقناع سجانيها بأنها لا علاقة لها بالسياسة. لدى عودتها إلى برغاس، وجدت فرويد بحالة قصوى من الهيجان. ولم يعلم أبدًا أنها كانت قد حملت معها الفيرونال لاستخدامه في حال تعرّضها للتعذيب.

وفي سبيل تجنّب مثل هذه الكبسات مستقبلًا، قرّرت الأميرة أن تقوم بالحراسة عند الدرج. «بفراء أزرق - أسود مشدود حول كتفيها، وبيدين فيهما قفّازان بلونٍ فاتح وبقبعة عريضة متهدّلة ظاهريًا فوق الرأس. وإلى جانبها، حقيبة من جلد تمساح بلون كستنائي، غارقةً في غيمة من عطر ستيفانوتيس، عطرها المفضل، كانت تقضي حراستها جالسةً القرفصاء[835]». ومن دون علم الهر بروفسور، كانت بولا تحمل إليها الشاي أوالشوكولاته.

في ذلك التاريخ، كان أكثر من سبعة آلاف وخمسمائة شخص قد تمّ اعتقالهم وتعذيبهم، والآلاف من اليهود الموقوفين كانوا ما يزالون على جهل بالوجهة التي سوف يتم ترحيلهم إليها، في بداية أبريل/نيسان، ها هو أول قطار من السجناء «السياسيين» - كما يقال - ينطلق نحو داشو. وبمساعدة جونز أو من دون هذه المساعدة أو بمساعدة أصدقائهم الأجانب، لاذ المحلّلون النفسيون بالفرار تاركين ممتلكاهتم، بيوتهم، مفروشاتهم، زبائنهم، ماضيهم، وأحيانًا العديد من أقاربهم الذين لا يستطيعون اللحاق بهم، لعدم حيازتهم على تأشيرة أو على «شهادة براءة ذمّة» (Unbedenklichkeiyserklarung) تبرهن بأنهم قد دفعوا ضريبة الخروج المشهورة (Reichsfluchtsteuer) الضرورية لكلّ رحيل رسمي.

كان إرنست فرويد، ولوسي مع أبنائها الثلاثة، وستيفان، ولوسيان وكليمينس، قد غادروا ألمانيا وأصبحوا يسكنون في لندن؛ أما أوليفر،

وهيني مع ابنتهما إيفا فقد استقر بهم المقام في جنوب فرنسا[836]؛ وكان ماكس هالبرشتات يقيم في جنوب أفريقيا مع زوجته الثانية بيرتا وابنتهما إيفا. وبخصوص الشاب إرنستل هالبيرشتات، «طفل البكرة»، راح يخطط، من لندن، للّحاق بوالده في جوهانسبرغ، بعد جولة له في فلسطين عند إيتنغون ورجوع إلى فيينا. كان قد نجح بالفرار باتجاه باريس بعد «ضمّ» النمسا، وذلك حين قفز إلى قطار: «حالفني حظ غريب الشأن، فلم يدفعني أحد، ولم يحصل معي أي شيء مزعج. وفوق ذلك، كنت سعيدًا؛ لأنني تمكنت من انتظار عائلتي في إنجلترا[837]».

أما ألبرت هيرست، الذي أصبح محاميًا مشهورًا، والذي قاد معركةً شجاعة في وجه حكم الإعدام، فكان لديه بالضبط الوقت الكافي ليعود إلى فيينا كي يساعد أهل بيته على الهجرة إلى الولايات المتحدة، وبعد سنوات عديدة استمر يشعر فيها بحقد على فرويد، تبيّن له بصورة قطعية، بأنه كان قد تغلب على عُصابه وعلى مشاكله الجنسية. وفي 1972، كان تقديره بأن «حياته الجيدة» تلك هي بفضل الله، وأمريكا، وفرويد[838].

في 19 أبريل/ نيسان، احتفل فرويد ضمن العائلة بعيد ميلاد شقيقه آلكساندر وأورثه، بينما كان يستعد للرحيل إلى سويسرا، مجموعة السيجار لديه. لم يكن قد تخلى عن التدخين ولكنه، في ذلك الوقت، لم يعد يستطيب تدخين التبغ، وآلكساندر، الذي راح يبذل جهده للتغلب عن زُهابه حيال الإنجليز، وبرفقة زوجته صوفي شريبر، كان يريد الوصول إلى لندن ليهاجر من بعد ذلك إلى كندا، وكان ابنه هاري موجودًا حينذاك في دافوس، حيث كان يتلقى العلاج، ثم إنه سوف يعود فيما بعد إلى فيينا، بعد الحرب، متطوعًا في الجيش الأمريكي.

بينما راحت تتلاحق تنغيصات متعددة، كان ما يشغل بال عائلة فرويد التساؤل عن كيفية حلّ مشكلة العمات الأربع، العجائز في التسعينات من أعمارهن، واللواتي لم يعد لديهن منذ فترةٍ طويلة أدنى نشاط، كنّ يتلقين الرعاية من الشقيقين، سيغموند وآلكساندر، ومن شقيقتهن، آنا بيرناي - فرويد، وقد طُبعت حياتهن بطابع تراجيدي. فهذه أدولفين فرويد (دولفي) تعيش وحيدةً منذ موت آماليا، محاطة بريجين ديبورا (روزا) غراف، وماريا (ميتزي) فرويد، وبولين ريجين (بولا) ونتيرنيتز، وهنّ ثلاث أرامل مع ذرية تشمل ثلاث بنات مقيمات في الخارج. كانت مرغريت فرويد - مانيوس، ابنة ماريا، تقيم في الدنمارك، بينما شقيقتها ليلي فرويد -

ماري[839] تتابع نشاطها في لندن كممثلة، إلى جانب زوجها أرنولد مارلي، مستفيدةً في ذلك الوقت من الدعم المالي المقدّم بسخاء من خالها. وأما روز ونتيرنيتز، ابنة بولا، المصابة باضطرابات عقلية، فكانت قد تزوجت من الشاعر إرنست والدينجر وقد غادرت منذ فترة بسيطة النمسا ووجهتها الولايات المتحدة، حيث سوف يأخذها على عاتقه بولفيديرن[840].

بالتأكيد، كان فرويد يحس بالخطر المحيق بشقيقاته، لكن لم يكن بإمكانه تخيل أن يسعى النازيون إلى إبادة أشخاص طاعنين في السن دون موارد مالية ولا أي نشاط. كان يظن، كما حال جميع أقاربه، بأن الاضطهادات المعادية للسامية موجّهة قبل كل شيء إلى اليهود العاملين من أصحاب الثروات أو من المزاولين لوظائف. باختصار، كان مقتنعًا بأن شقيقاته يمكنهن الهجرة بعده بفترةٍ قصيرة، من بعد تلامذته وباقي أفراد اسرته. أضف إلى ذلك أن الضرائب المفروضة مقابل إخراجهن كانت كبيرة جدًا ولم يكن لديه الوسائل لتمويل مثل هذا الرحيل، لا سيما أن السلطات البريطانية تطلب من المنفيين أن يكونوا قادرين على تأمين نفقات ما يحتاجون إليه بمجرد وصولهم إلى بريطانيا العظمى. كان فرويد قد طالب بأن يرافقه خمسة عشر شخصًا من الذين كانوا في مواقع تحت التهديد المباشر: مارتا، مينا، آنا، بولا، مارتن وزوجته إيستي مع طفليهما - أنطون والتر وصوفي -، إيرنستل هالبرشتات، ماتيلد وروبرت هوليتشر، ماكس شور مع زوجته هيلين وطفليهما: بيتر وإيفا. كان بوليت مقتنعًا بأن فرويد لن يتمكن أبدًا من تجميع المبلغ الكافي لتنظيم تلك العملية حتى بمساعدة ماري بونابرت، فعرض تقديم عشرة آلاف دولار مشاركةً منه في رحيل تلك «القافلة»[841].

حينذاك تحديدًا قرر فرويد وآلكساندر تقديم مبلغ مائة وستين ألف شيلن نمساوي للشقيقات الأربع، وطلبا من ألفريد أندرا ومن أنطون سوير فالد الإشراف على هذه الثروة بانتظار أوقات أفضل، وعندما غادر فيينا، بعد أن دفع جميع الضرائب المطلوبة، لم يكن يملك آلكساندر ولو قرشًا واحدًا، ووجد نفسه مجبرًا في المنفى على طلب المساعدة من أصدقائه أو من أهله. كانت ثروته قد صودرت ومحاميه النازي، إيريك فوهرر، استفاد منها كي يصبح شخصيًا من الأغنياء.

بعد أسابيع من المفاوضات، حصل جونز على تأشيرة الدخول إلى إنجلترا وعلى أذونات العمل الضرورية لفرويد وللأشخاص المرافقين له،

لكن بقي أمامهم الحصول على السماح بالخروج من النمسا. كان المنتدب لتقدير ثمن مجموعات فرويد، هانز فون ديميل، مدير المتحف Kunsthistorisches Museum، قد أعطى تقديره بثلاثين ألف رايخ مارك (RM) وهو مبلغ أقل من القيمة الحقيقية. بالإضافة إلى تقدير الثروة الشخصية - 125318RM -، والتي يجب على فرويد أن يضيف فوقها ضريبة مقدارها RM 31329 ولكن نظرًا إلى أن ممتلكات الـ Verlag وحسابه المصرفي قد صودرت، فلم يكن بإمكانه الوفاء بذلك «الدين» الإجباري، فكان أن دفعت ماري بونابارت الفديّة.

رحلت مينا، بصحبة دوروتي بورلينغ هام، في 5 مايو/أيار، وبعدها عشرة أيام لحقت بها ماتيلد وروبيرت. كانت إيستي قد انفصلت عن مارتن، بسبب علاقاته العديدة وقد استقلت القطار مع صوفي وأنطون والتر. كانت دائمًا تشعر بكراهية حيال فرويد، وهو بدوره لم يكن يحبها ويعتبرها «مجنونة عياديًا» مع سعيه لتقديم نصائح قيمة لم تكن تلتزم بها. وهي في رحيلها نحو باريس، تركت وراءها قسمًا من عائلتها، وسوف يكون مصير والدتها، إيدا دروكر، الإبادة في أوشفيتز.

أما مارتن فغادر فيينا في 14 مايو/أيار كي يلقي بإيستي وأبنائه في باريس، ولكنه في اليوم التالي عاد ليرحل من دونها مع ابنه إلى لندن. وعاشت صوفي مع أمها في باريس، وأنطون والتر في لندن مع والده، في يونيه/حزيران 1940 رحلت إيستي وصوفي كلتهما إلى جنوب فرنسا، ثم توجتها إلى الدار البيضاء - كازابلانكا - ومن هناك هاجرتا إلى الولايات المتحدة، حيث قدمت لهما عائلة بيرناي مساعدة. لقد لاقى عددٌ من أصدقائهما من أبناء فيينا الموت إبادة في غرف الغاز.

بعد سنوات عديدة من ذلك التاريخ حين أصبحت صوفي مواطنة أمريكية، شعرت بالحاجة لانتقاد مكشوف وقاس لنظريات جدها، لكنها تذكرت بأنها مدينة بحياتها له: «أنا إذن مدينة لجديَ أنني كنت بين السعداء القليلين ممن تمكنوا من مغادرة فيينا قبل بدأ الاضطهاد القاتل لليهود، وحين سمع أخي حديثي عن انتقادات نظريات جديَ، قال لي: لولا جدنا، لكان النازيون قد صنعوا من جلدك مصدًا للشمس[842]».

أما أوغست إيخورن[843]، المهتم هو أيضًا بالمحافظة على آثار روعة البدايات، فقد طلب إلى إيدمون أنجيلمان، المصور من أبناء فيينا والمنتمي إلى عائلة يهودية أصولها من غاليسيا، أن يضع مجموعة من التصاوير عن

الأماكن التي ما تزال سليمة وأن ينجز صورًا نصفية لفرويد. وفي سبيل صرف نظر الملاحقة النازية، وجد أنجيلمان نفسه مضطرًا لتجنب الفلاشات والبروجكتورات. لقد حمل معه Rolle flex وLica، وحاملين وأفلام تصوير بقدر ما تستوعب حقيبته الصغيرة. وعلى مدى أيام عديدة، صَور بكل دقة، بالأسود والأبيض، الأغراض وقطع الأثاث والحجرات بزوايا تصوير مختلفة، مبيِّنًا على هذه الصورة، ما بين العتمة والإضاءة القاتمة، كم كان المكان، أشبه ما يكون بالسير في حلم، أقرب ما يكون إلى رسم بريشة ماكس إرنست مما هو لوحة من عصر النهضة. وبعد أن هدده الجستابو، وجد أنجيلمان نفسه مضطرًا لمغادرة فيينا سريعًا جدًا. وعلى سبيل الاحتياط ترك الكليشيهات بعهدة إيخورن، لكنه رجع بالضبط بعد رحيل فرويد: «كان العمال قد بدأوا بترميم الأماكن، وقد نظفوا ولمّعوا الأرضية: ولذلك اختفى ظل ديوان التحليل[844]».

في 4 يونيه/حزيران، توجّه فرويد إلى مجلة الأوريان - أكسبريس مع آنا، ومارتا، وبولا، وكلبته لون، وجوزفين ستروس. كانت جوزفين ستروس، طبيبة الأطفال، قد شغلت موقع ماكس شور، ووجدت نفسها مجبرة بحالة إسعافية لإجراء عملية بسبب التهاب حاد للزائدة الدودية. وفي 10 يونيه/حزيران اضطر شورت للفرار من المستشفى في قطعة موبيليا مطويّة، وهو ما يزال ملفوف البطن مع أنبوب استخراج الدم الفاسد وذلك كي يهرب مع عائلته من الجستابو. وبفضل تأشيرة الخروج التي أمَنها له فرويد وجونز، تمكن من الوصول إلى باريس، ثم إلى لندن، وأخيرًا إلى نيويورك، حيث قام بجمع الخطوات الضرورية لإقامته النهائية في القارة الأمريكية.

في يوم رحيله، وقّع فرويد تصريحًا إجباريًا كتبه ألفريد أندرا، وفيه يعترف بأنه قد عومِلَ أحسن معاملة: «تصريح. أشهد بطيب خاطر أنني إلى هذا اليوم 4 يونيه/حزيران 1938، لم يوجّه إلى شخصي وإلى المحيطين بي أي إزعاج، لقد تصرفت السلطات والموظفون في الحزب على الدوام بصورة نزيهة مع مراعاة شخصي والاهتمام بالمحيطين بي. فيينا، في 4 يونيه/حزيران 1938. البرفسور سيغموند فرويد[845]». وهناك نفر من مؤرخين، وشهود، وشُرّاح على امتداد عقود من الزمن، كانوا على اقتناع بأن فرويد كتب بخط يده، في نهاية هذا التصريح، الجملة التالية: «أستطيع بكل مودة نصح الجميع بالرجوع إلى الجستابو». وهذه أيضًا

أسطورة حقيقية أكثر من الواقع، بل هي محض إشاعة غير معقولة. وكان من المستحيل فعليًا تحويل وثيقة رسمية إلى مثل هذا النص المضحك، وذاك لأن مارتن استمر يؤكد بأن والده قد أدرج تلك العبارة في أسفل التصريح[846].

لقد اجتاز فرويد والنساء الأربع المسافرات معه مدنًا عديدة قبل الوصول إلى الحدود الفرنسية. وفي أكثر من مرة، كان فرويد على وشك الوقوع في أزمة توقّف للقلب، وقد وصفت له جوزفين ستروس السترشنين وغيره من المنشطات. وأخيرًا، في 5 يونيه/حزيران، في حدود الساعة الثالثة والنصف، اجتاز الموكب نهر الراين من جسر كيل. فهتف فرويد: «الآن نحن أحرار[847]».

لدى وصول القطار إلى محطة «الغرب» في باريس، تأثرت بولا كثيرًا بالاستقبال الذي خُصّ به فرويد، لكنها لاحظت كم كان ضائعًا وسط المصورين والصحافيّين. كان يحيط به بوليت الأنيق بشكل استثنائي مع قبعته المخملية ذات الأطراف الملفوفة ومحفظته ذات الدانتيلا، لكن كان هناك أيضًا ماري بونابرت مرتديةً ثوبًا من تفصيل خياط كبير، وإيشارب بلون السفور، فبدت كأنما هي قادمة من عالمٍ آخر. كانت مارتا تمشي خلفه، ملتفةً في معطف مطري، ممسكةً حقيبتها النسائية بيديها بينما كانت آنّا تبتسم ووجهها نصف مستتر خلف قطعة بسيطة من الصوف ملتفة على جبينها. كان هناك سيارتان فخمتان مع سائق ركب فيهما المنفيون، وأوصلتهم إلى مزرعة الأميرة في سان - كلود، وهناك أمضوا النهار قبل التوجّه إلى كاليه كي يعبروا بحر المانش. في الصور الفوتوغرافية، نلمح فرويد معتمرًا طاقية نازلة على نظارته، متمددًا على مقعد من الخيزران، وساقاه مختفيتان تحت أغطية صوفية، جامد التعابير، مسودّ الوجنة اليمنى الغائرة، أبيض اللحية. أما الكلبة لون فهي مضطجعة على يساره بكل تعقل.

في اليوم التالي وصل المسافرون إلى محطة فيكتوريا وكان في استقبالهم جونز، وزوجته، وإرنست. هنا تخلّوا عن الكلبة لون التي وُضعت تحت إشراف طبيب بيطري لقضاء فترة الحجر الإجباري لمدة ستة أشهر، ثم جعلوا إقامتهم المؤقّتة في Elsworthy Road.

لدى وصوله، التقى فرويد بابن أخته سام وكان قد انقطع عن رؤيته منذ إقامته في مانشستر، وأخذ علمًا بالمقالات الصحفية العديدة التي تعلن

وصوله، في الوقت الذي راحت تصله فيه برقيات، ورسائل، وزهور، وهدايا مثل انهيار ثلجي. وقدمت إليه آنا كلبًا صينيًا أطلق عليه، على سبيل التعارض، اسم جامبو - السيارة الإنجليزية - بتاريخ 17 يوليه/تموز، حكى لأخيه آلكساندر عن قصة نفيه مشيرًا إلى أن جونز واجه كثيرًا من الصعوبات لدى السلطات البريطانية من أجل إدخال مهاجرين، لأنهم يمكن ألّا يجدوا عملًا: «لقد حصل جونز على أشياء كثيرة إنما لصالح المحلّلين النفسيين لاغير». وشرح في رسالته

بأنه قد ساعد هاري بكلمة توصية، وأضاف بأن مارتن لم يكن يعلم بعد ماذا سوف يفعل، وأن روبرت قد وجد وظيفةً، وأنّ مينا مريضة[848]، وفي 27 سبتمبر/أيلول، استقرّ مع عائلته في بيتٍ جميل، رقمه 20 شارع مارسفيلد غاردن في هامستيد؛ كان إرنست فرويد قدْ رتبَه وفق نمط بيت برغاس: وذاك كان مقرّ الإقامة الأخير لفرويد.

بتاريخ 11 أكتوبر/ت1، زاره أنطون سويروالد، الذي جاء من دون شك ليطلب منه مالًا. وحين سأل آلكساندر هذا الأخير ماذا يفعل في لندن، شرح سويروالد بأن شرطة فيينا قد تعاملت معه كخبير في المتفجّرات غير أنه في حقيقة الأمر يصنّعها شخصيًا لصالح تنظيمات نازية سرّية. يا للقصة الغريبة! حسب قول ماكس شو، شرح بأن هتلر كان يحس بنفسه «في حالة حصار» بسبب الفردية الزائدة عند اليهود، ما يمنعهم من الاندماج بأي شعب، وهكذا فالواجب يقضي بإبادتهم، كما يقول، من دون أن يمنع ذلك، بصفة شخصية، أن يقوم شخص ما - وإن كان نازيًا - بمساعدة شخص آخر، مثلما كان قد فعل هو نفسه من أجل عائلة فرويد[849].

أثناء الثمانية عشر شهرًا المتبقية له من عمره، شعر فرويد بسعادة غامرة بسبب التكريم، والزيارات والاعتراف به، والإعجاب، والتنويه به كما لمَ يحصل معه في الماضي أبدًا. كان يحس بنفسه حرًا، وتمكّن من إنجاز كتابه عن موسى بالإضافة إلى كتابة كُتيب، «مختصر في التحليل النفسي»، وفيه يقوم بالتوفيق بين جميع كتاباته ويتنبأ باكتشاف عمّا قريب عناصر كيماوية شديدة الفعالية سوف يكون بإمكانها التأثير بصورة مباشرة على الحالة النفسية. وعاد يؤكد بأن شكسبير كان اسمه إدوار دوفيري، ويكيل التمجيد لعقدة أوديب التي جاء بها - Odipuskomplex[850].

ومع تفاقم انتشار الأورام السرطانية في عظام فكّه، حضر تدمير أوربا القارية. لكنه أصبح واعيًا على التوازي بقدرة مذهبه في العالم الناطق باللغة الإنجليزية، وقد استقبل، بتاريخ 25 يونيه/حزيران، بعثة من الجمعية الملكية التي دعته لتوقيع كتابه رسميًا، وهذا الكتاب بالذات هو الذي يرد فيه اسم تشارلز داروين. وقد استقبل زيارات العديد من الكتاب والمثقفين. وهاهو سلفادور دالي، برفقة ستيفان زفايغ، يرسم مخطّطات أولية عديدة لوجهه المتآكل، وفق المبدأ السريالي، مبدأ «الشكل الحلزوني». بدا على فرويد اللامبالاة، وشرح في ذلك اليوم للرسّام بأنه لا يهتم إلّا بالتصوير الكلاسيكي كي يكتشف فيه التعبير عن اللاشعور، بينما أنه، في الفن السريالي، كان يفضّل معاينة التعبير عن الشعور.

وحينما جاء آرثر كوستلر لرؤيته، في الخريف، أذهله سماع فرويد يتمتم بخصوص النازيين: «كما تعلم، لم يفعلوا شيئًا سوى أنهم أطلقوا القوّة العدوانية المكبوتة في حضارتنا. مثل هذه الظاهرة كان لا بد لها من أن تحصل، عاجلًا أم آجلًا. ولا أعلم، من وجهة نظري، إن كنت أستطيع أن ألومهم[851]». هذه المرة أيضًا، يؤكد فرويد بأن العالم الذي يعيش فيه هو صورة عمّا كان قدْ وصفه في كتابه. إن كوستلر يهودي هنغاري وُلد في بودابست، وهو صهيوني يميني، مقرّب من فلاديمير جابوتنسكي ومن العارفين معرفة دقيقة بالتحليل النفسي، علمًا بأنه يفضّل عليه الدراسة النفسيه الشاملة. ولم يكن يجهل بأن والدته، أديل جيتيل، كانت قد قابلت فرويد بتاريخ 1890 من أجل استشارة وأنها قد أدانته بشكل واضح[852]. كانت مصابة بكآبة مزمنة، وتكره ابنها (الذي تتعامل معه بأنه شاذ)، بمقدار ما كان ذلك الأخير يردّ عليها بالمثل تمامًا، كما تشهد على ذلك سيرته الذاتية[853]. في تلك الساعة، لم يتعرّض الرجلان لذكرى شبابهما في فيينا.

وحين استقبل صديقه القديم، ابن فيينا والتر شميدبيرغ، ذهب فرويد إلى أبعد مدى حين حيّاه بهتاف «هايل هتلر!»، كما لو كان قد رضي أخيرًا بأن يلفظ، من خلال هذه الكلمة ذات الفكر الكالح الاسم الشنيع لمدمّر أعماله[854].

لقد نظر أعضاء الـ PBI إلى وصول فرويد كما لو أنه تطفّل حقيقي. وذاك لأن جماعة كلين منذ سنوات كانوا مسيطرين على الجمعية البريطانية. وقدْ طوّروا طروحاتهم الخاصة، التي لم تعد تمتُّ بصلةٍ كبيرة إلى الفرويدية الأصولية، وفوق ذلك، كانوا قدْ همّشوا الفرويديين القدامى

وينظرون إلى فرويد شخصيًا مثل بطرك من عصرٍ غابر، خارج بخط مستقيم من القرن التاسع عشر. فهم يرون عادات نسائهِ متصلّبة - مارتا، مينا، آنّا، بولا - ويجدون ما يضحك في طريقة كلامهن واختيارهن لثيابهن. لمَ يكونوا يفهمون كثيرًا طقوسهم، وذلك التهذيب الزائد، وروح التهكّم الجليدية، وتلك الأذواق في المأكولات، بكلمة واحدة، كانوا يعتبرونهم كائنات غريبة، مرتبطة بميثولوجيات قديمة، وقليلة الانفتاح على المقاربة الجديدة للأشعور، المتمركزة على الوضعيات، والعلاقات مع الأشياء والنواة الذهانية، والنزوات التدميرية المكتشفة عند الأطفال في أعمار صغيرة. لم يكن أفراد جماعة كلين وجماعة فرويد يتكلّمون اللغة نفسها، وضمن هذا السياق، فإن جونز، الذي كان قد دافع دائمًا عن ميلاني كلين، قام بدور جوهري لدمج آنّا فرويد في صميم الـ PBI.

بتاريخ 29 يوليه/تموز 1938، شاركت آنّا فرويد، في باريس، في المؤتمر الخامس عشر لـ IPA الموضوعة برئاسة جونز، وهناك قرأت الفصل المخصَص في كتاب «موسى» لتقدم الفكر الإنساني ولعظمة الإمبراطورية البريطانية. كان فرويد قد وجّه إلى مناصريه رسالة حول معاداة النزعة الأمريكانية بلهجة لاذعة، وفيها يحضّهم على اليقظة للوقوف في وجه كلّ محاولة لتحويل التحليل النفسي إلى «الخادمة القائمة بكل الأعمال» في ميدان الطبّ النفسي. وفي خطابه الختامي، رفع جونز عبارات التمجيد لسياسته حول «إنقاذ» التحليل النفسي في برلين من دون أن يذكر كلمة واحدة عن نفي اليهود ولا عن الهجرة الجماعية لزهرة الأنتليجنسيا الفرويدية. بلّ وتجزأ على تهنئة نفسه لأنه وضع الـ WPV تحت وصايته[855]. وبعد هذه الأقوال المشؤومة، التقى المشاركون في حفل استقبال في سان - كلود، في الحدائق المحيطة بمقر الأميرة الفخم، حيث كان فرويد قد أقام لساعات قليلة.

وكان ماكس إيتنغون قد حضر إلى باريس ليشارك في المؤتمر. ثم توجّه بعد ذلك إلى لندن في زيارةٍ أخيرة لفرويد. كان حينذاك متهمًا بأنه عميل للـNKVD، التي كان لها يد في خطف الجنرال ليفغويني ميلر، وهذا الأخير كان نيكولا سكوبلين قد نظّمه كعميل مزدوج ألماني - سوفييتي وهو زوج المغنية ناديجدا بليفيتسكايا التي كان يعرفها معرفة جيدة. ولم تتطلب الأمور، فيما بعد أكثر من الإشارة إلى علاقاته مع بليفيتسكايا، كي تتفاقم الإشاعة. أوليس هو شقيق ليونيد إيتنغون، وهو الآخر جاسوس

سوفيياتي ومنظم في 1940 لعملية اغتيال تروتسكي على يد رامون ميركادر؟ ورغم عدم وجود أية صلة قرابة بين ليونيد وماكس، ها هي أسطورة عن إيتنغون فرويدي وستاليني، عميل مزدوج وثلاثي، بائع فراء ومنسق لجرائم، لا تتوقف عن التعاظم، وما تزال ذات استمرارية حتى يومنا هذا بأقلام كُتاب مضرين على الرهان على وجود قرابة قدرية بين أمميّتين، شيوعية وتحليلية[856].

في الطريق نحو أمريكا، توجّهت أفكار المنفيين من أبناء فيينا لآخر مرة وهم مجتمعون في باريس قبل أهوال القيامة، إلى تلك الأوربا التي كانت مقرًّ أحلامهم والتي لن يشهدوا أبدًا بعد ذلك اليوم ألق إشراقها. وإيفيت غيلبيرت العظيمة، محط الإعجاب الكبير من طرف فرويد، غنّت «قل لي إنني جميلة»، أمام جمهور خضع لسيطرة قوة صوتها ولعمرها البالغ ثمانين عامًا. وفي إيطاليا، بالقوانين الأولى المعادية للسامية، عمل موسوليني حينذاك على ترحيل اليهود، وهكذا، في يناير/ك2 1939، سوف يجد إدواردو ويس نفسه مجبرًا على النفي، هو أيضًا، نحو الولايات المتحدة تاركًا وراءه شقيقته وصهره وعائلة زوجته وهؤلاء جميعهم سوف يُبيدهم النازيون. لم يعد يريد أبدًا أن يتذكر آماله التي وضعها في موسوليني من خلال صداقته مع فورزانو.

أما فرويد، تحديدًا يوم استقر مقامه في مارسفيلد غاردن، وكان قد خضع منذ فترة قريبة لعملية جراحية جديدة ومريعة في London Clinic، فقد أخذ علمًا باتفاقيات ميونخ التي بموجبها سلمت فرنسا والمملكة المتحدة تشيكوسلوفاكيا لهتلر. بهذا الصدد، ألقى نيفيل تشامبرلن، الذي استقبل في لندن بصفة منقذ السلام، حديثًا حول عدم جدوى شن معركة لصالح بلد بعيد يجهله الإنجليز، ومن دون أن يصدق فرويد كثيرًا هذا الأمر، أيدَ مع ذلك تلك السياسة، التي أتاحت للنازيين الضم المباشر لمقاطعة السوديت: «نحن أيضًا نشعر بالعرفان لهذا المقدار البسيط من السلم من دون أن يكون بإمكاننا الشعور بالبهجة[857]».

بعد ثلاثة أسابيع، كتب لصحيفة كوستلر، Die Zukunft - المستقبل، مذكرة قصيرة يشير فيها، بعد ضم أقوال لمارك توين إلى أقوال لنيكولوس فون كودن هوف - كالرجي، إلى أي مدى سوف يقوم بحملة معاداة السامية بادئ الأمر عناصر من غير اليهود، وفي هذه الأثناء، كان النازيون يتابعون أعمال الاضطهاد وذلك بالتشهير بالنساء الألمانيات أو النمساويات

بعد حلق شعر رؤوسهن لاتهامهن بإقامة علاقات مع يهود. وطوال ليلة الكريستال الطويلة، دمروا المباني، والمحال التجارية، وأماكن العبادة، وقاموا بترحيل ثلاثين ألف شخص إلى معسكري داشو وبوخنفالد. وفي فيينا، عندما أوقف ضابط نازي البروفسور آرثر فرويد، المولود في مورافيا والصهيوني المناضل، أطلق صيحة النصر، لاقتناعه بأنه أخيرًا أوقع في الأسر اسمًا شهيرًا مشابهًا لفرويد[858].

سوف يقضّ شبح فرويد مضاجع الهتلريين لسنوات طويلة[859]، غير أن فرويد كان مشغول البال بشقيقاته: «إن الأحداث الأخيرة المرعبة في ألمانيا ضاعفت مشكلة إيجاد حل من أجل العجائز الأربع التسعينيات، فالعناية بهن وتأمين حياتهن في إنجلترا فوق إمكانياته، والمال الذي تركناه لهن عند رحيلنا، حوالي ستين ألف شيلنغ النمساوي، ربما يكون قد تمت مصادرته. نحن نفكر بتأمين إقامتهن على الكوت دازير، في نيس أو في المناطق المجاورة. لكن هل سيكون هذا الأمر ممكنًا[860]».

كي تجد حلًا لتلك المخاوف المثيرة للقلق، جربت ماري بونابرت الحصول على تأشيرات من طرف السلطات الفرنسية، أو إذا تعذر هذا الأمر، من المفوضية اليونانية. لكن عبثًا. كان الوقت قد تأخر كثيرًا، كانت الأميرة بعيدة النظر تمامًا بخصوص الاضطهادات التي راحت تضرب اليهود، ولذلك بذلت طاقة كبيرة لإنقاذ الحياة. بل إنها اقترحت على روزفلت، في رسالة بتاريخ 12 ديسمبر/ك١، إنشاء دولة يهودية في جنوب كاليفورنيا كي تستقبل بأسرع ما يمكن آلاف المهاجرين[861]، وهي الأخرى بدورها لن تقبل أبدًا في فرنسا أي تصور بخصوص «الإنقاذ» وسوف تختار المنفى في فبراير/شباط [862]1941.

في 7 ديسمبر/ك١، استقبل فرويد في مسكنه فنيين من إذاعة الـ BBC لتسجيل حديث كان قد كتبه[863]. تكلّم باللغة الإنجليزية، بصوت مختنق بسبب وصلة الفك عنده، وفي نهاية الرسالة، أضاف عبارة بالألمانية: «وأنا بعمر اثنين وثمانين عامًا، غادرت بيتي في فيينا، عقب الغزو الألماني، وجئت إلى إنجلترا حيث أرجو إنهاء حياتي بحرية». وهذه هي الوثيقة الوحيدة التي بين أيدينا بصوت فرويد.

طوال السنة الأخيرة من حياته، وُضعت أفلام صامتة عديدة في مارسفيلد غاردن، بعضها بالألوان[864]. نرى، في كل صورة، فرويد وهو يمشي في حديقته، وقد ازداد انحناء ظهره، مستندًا إلى ذراع آنا، ودائمًا

تحيط به لون وجامبو، وفكه معلق بـ«مِخْلاته»، وشفتاه تتحركان كما لو أنه يمضغ طعامًا ما. وثمة وجع هائل مرتسم على وجهه.

كان فرويد يستقبل دائمًا زيارات عديدة من أصدقائه اللندنيين ومن جميع الذين يأتون لرؤيته وتوديعه الوداع الأخير قبل رحيلهم نحو قارات أخرى. كان ألمه يتزايد، فيتمدد على أرجوحة الحديقة أو على ديوانه، غالبًا تحت ناموسية. كان يفضل أن يأكل وحيدًا بعيدًا عن الأنظار. ناهيك بأنه لم يعد يشتهي الطعام. كانت رائحة عفنة قد بدأت تنطلق من فمه، غير أن عينيه تومضان مشرقتين دائمًا بلهيب الربّ إيروس. كان فرويد يقول دائمًا أنه يفضل في ساعة الاحتضار مشاهدة غرق، جسمه بكل وعي بدلًا من أن يصبح خَرِفًا أو أن يصاب بهجمة دماغية: الموت وهو ممسكٌ بالأعنّة مثل الملك ماكبث. كان يعلم بأن ماكس شور سوف يهتم به حتى اللحظة الأخيرة قبل أن يهاجر نهائيًا إلى الولايات المتحدة.

بتوجيهات هانز بيشلر، ها هو جورج إكسنار الاختصاصي بجراحة الوجه، يتابع المرحلة الأخيرة من المرض مع ولفريد تروتر، صهر جونز، وعضو في الجمعية الملكية، واختصاصي بمعالجة السرطانات. في فبراير/شباط، استقدمت ماري بونابرت إلى لندن البروفسور أنطوان لاكساني، المعلم الكبير في «معهد كوري» في باريس، وكان مجبرًا على التسليم بأنه لم يعد بالإمكان إجراء أي عملية جراحية، وحتى لا يسبب الشعور بالخيبة لآنا ومينا، اللتين كانتا ما تزالان تحملان الأمل، اقترح معالجة مكثفة بأشعة X بدلًا من الراديوم. فكلن تعليق فرويد «لم يعد من شك بأن الأمر يتعلق بهجمة جديدة للسرطان القديم الغالي والذي أتشاطر معه حياتي منذ ستة عشر عامًا، فمن يكون الأقوى الآن؟ بطبيعة الحال لا يمكن قول هذا قبل موعده[865]». حينذاك صارح أميرته الغالية بأنه يود الانتهاء من هذا الأمر.

مع بداية شهر مارس/آذار، قبل أيام من ظهور الطبعة الألمانية لكتاب «موسى» في أمستردام، أقام جونز في فندق سافوي عشاءً احتفاليًا في عيد تأسيس الـ PBI العشرين، بحضور آنا، ومارتن، وإرنست، وفيرجينيا وولف، وهـ. ج. ويلز، وكثيرين غيرهم. كان فرويد أعجز من أن يستطيع التنقل، ولذلك بعث رسالة للدعم: «لقد أرادت أحداث هذه السنوات الأخيرة أن تكون لندن عاصمة التحليل النفسي ومركز هذه الحركة، أتمنى للجمعية أن تؤدي بكلّ تألّق مهامها المنوطة بها[866]». طيلة الصيف، بذل ويلز جهده

من دون جدوى للحصول على جنسية بريطانية لهذا المقبل على الموت، وذلك تجاوبًا منه مع أمنية غالية عليه من أيام الشباب منذ رحيل شقيقه إلى مانشستر: «لم يكن ضروري أكثر من لفتة صغيرة تصدر عن نائب بسيط [...]. وقد تألّمت لأن الأمر لم يكن كذلك[867]». وفي مطلع أغسطس/آب، توقّف فرويد عن استقبال آخر أربعة مرضى لديه. بينما تابعت دوروثي بولنغهام وسميلي بلانتون، حتى نهاية الشهر، علاجًا ذا توجّه تربوي.

في 3 سبتمبر/أيلول 1939، يوم دخول فرنسا وإنجلترا في الحرب على ألمانيا، ودّع جونز معلّمه العجوز. في تلك اللحظة الحرجة، أشار إلى أنهما أخيرًا أصبحا في المعسكر نفسه متحدين في وجه الهمجية نفسها: «في آخر مرّة حاربت فيها إنجلترا ألمانيا منذ خمسة وعشرين عامًا من وقتنا هذا، كان كلٌّ منّا في طرف من الجبهة، لكننا وجدنا الوسيلة لتبادل صداقتنا، وها نحن على مقربةٍ كبيرة أحدنا من الآخر ومتحدان في ميولنا الحربية. لا أحد يستطيع أن يقول إن كنّا سوف نرى نهاية هذه الحرب، لكن، مهما تكن الأحوال، كانت حياتنا في غاية الأهمية وقد أسهمنا معًا في سبيل الحياة البشرية - وإن كان هذا الإسهام بدرجات متفاوتة جدًا[868]».

كان رافاييل دو فالانتين، المولود في عائلة أرستقراطية من أوفيرني، بطل «جلد الأحزان»، الذي أبدعه بالذات، يحلم بالمجد. وبدفع من راستينياك هجر ميدان الإبداع الفني كي يجرّب حظّه في الدنيا إلى أن أفلس وتوجّه تفكيره إلى الانتحار. حينذاك تحديدًا عند بائع تحف أثرية اكتشف طلسمًا - طلسم جلد الأحزان - يملك قدرة سحرية لتحقيق جميع الرغبات. وها هو مثل فاوست، لا يريد التخلّي عن أي شيء ووقّع حلفًا مع الشيطان، وهذا ما سوف يجلب عليه الشقاء. وفي كلّ مرة تأخذه النشوة بملذّاته ينكمش الجلد ويضمر. قُتل العواطف كي يعيش المرء الشيخوخة، أو الموت في عزّ الشباب على مذبح الشهوات: تلك كانت موضوعة هذه الرواية، التي وضعت على المنصة لغز الوجود الإنساني.

وإذا كان فرويد قدَ اختار قراءة هذا الكتاب عشية وفاته، فهو كان يجابه يقينًا ما يُشبه صورة جسده المتآكل واحتضاره جوعًا، لكن، قبل أي شيء، راح يستعرض أمام نظره حياةً شقيّة كان يمكن أن تكون حياته لولا بقاؤه على قيد الحياة بعد أن تغلّب في المعركة على نفسه. لقد كان فرويد الإنسان الذي أراد أن يعلّم البشر كم هي قويةً في أعماقهم رغبة تدمير

أنفسهم، وقال لهم بأن المدخل الوحيد إلى الحضارة هو في السيطرة على تلك النزوة. كان من رأيه أن ما يقع معهم مسجلٌ مسبقًا في اللاشعور عندهم، حتى قبل أن يتبيّن لهم ذلك، وكان مقتنعًا بأن عقدة أوديب هي اسم هذا التسجيل المدوّن. علمًا بأنه لم يكن في مجابهة مع العقدة في تلك اللحظة، وإنما في مجابهة مع جلد الأحزان - أوديب أو ماكبث -، أي في الحدود القصوى لحزيته[869]. إنه يشنّ آخر معركة على حكم الموت، بسلام مع نفسه بالذات، في الوقت الذي دخل العالم في الحرب، في الوقت الذي كان «الهو ينتصر على الأنا»، في الوقت الذي كان المرض ينخر باطن فمه حتى لقد ظهر على صفحة وجنته، وأخيرًا، وفوق مسكنه، في اللحظة التي كانت تعلن فيه صفّارات الإنذار أولى التحذيرات الجوّية. ها هو في 25 أغسطس/آب، يضع ختامًا لأجندته ولحياته، كاتبًا هذه الكلمات «هلع الحرب» (Kriegspanik).

في 21 سبتمبر/ أيلول، ذكّر فرويد شور بالوعد الذي قطعه على نفسه بأن يساعده على الخلاص عند مجيء الأجل وطلب إليه أن يكلّم آنا حول هذا الأمر: «إذا كان رأيها أن هذا العمل صائب، هيا، دعنا ننته». فالعيش في مثل تلك الظروف لم يعد له في نظره أي معنى[870]، وها هو شور، الذي كان قد عاد إلى لندن في 8 أغسطس/آب يضغط بمودّة على يد فرويد واعدًا بأن يعطيه المسكّن المناسب. وصف في المرّة الأولى جرعة من ثلاثة سنتيمترات من المورفين ثمّ كرّر مرتين الحركة نفسها، بساعات عديدة بين الجرعة والثانية. كان يعلم بأن الجرعة المسمّاة «مسكّنة» لا يمكن أن تتجاوز سنتيمترين. هو إذن كان قد اختار الموت بالخمود العميق والمتواصل.

كانت وفاة فرويد في يوم السبت 23 سبتمبر/ أيلول 1939، في الساعة الثالثة فجرًا[871]. في عيد يوم الكيبور - الغفران - أقدس عيد في السنة اليهودية، يوم التكفير عن خطايا العجل الذهبي. في النهار توجّه اليهود اللندنيون المؤمنون إلى الكنيس لطلب الغفران الكبير من ذلك الربّ الذي طالما أساء فرويد إليه. وفي جميع الأرجاء راحت تتكدس أكياس الرمل لحماية المباني من الغارات المعادية، كما جرى نقل بعض التماثيل من مواقعها، وحُفرت خنادق. وفي ذلك الوقت نفسه، في الطرف الآخر من أوربا المنكوبة منذ فترة طويلة بالفرويديين، قَبل آدم شرنياكو مهندس الكيمياء القديم تعيينه من عمدة وارسو، رئيسًا للـ Judenrat، بينما كان

النازيون في مقاطعة قريبة من سوكولو بودلاسكي، يحرقون الكنيس، وقد أخفى شرنياكو في درجٍ قارورة فيها أربع وعشرون حبة سيانور[872]. هو أيضًا سوف يعرف كيف يموت في الوقت المناسب.

لقد حُوّل جثمان فرويد إلى رماد في فرن الحرق في Golders Green من دون أيّة شعائر دينية، وحُفظ رماده في مزهرية من بلاد اليونان القديمة مزيّنة بمشاهد تقديم قربان. أمام ما يقرب من مائة شخص، تولّى جونز الكلام بالإنجليزية كي يكرّم معلّمه، مع استعراض أسماء جميع أعضاء «اللجنة»، الذين أصبحوا موتى أو مشتتين. «إذا كان هناك رجل يمكن أن يُقال عنه بأنه غلب الموت، واستمر بالحياة، رغم أنف "ملك الظلمات"، الذي لم يكن يثير لديه أدنى رهبة، فإن هذا الرجل اسمه فرويد[873]».

من بعده، ألقى ستيفان زفايغ بالألمانية تأبينًا رائعًا: «شكرًا للعوالم التي فتحت آفاقها أمامنا والتي نعبر فيها الآن وحيدين، من دون مرشد، أوفياء أبد الدهر تكريمًا لذكراك، يا سيغموند فرويد، فأنت الصديق الأمثل والمعلّم المعبود[874]».

وسوف ينتحر زفايغ في البرازيل، في بيتروبوليس بتاريخ فبراير/ شباط 1942.

---

789 انظر ماري ف. ديربورن، «Queen of Bohemia, the Life of Louise Bryant»، بوسطن، هوغتون ميفلين، 1996 مرض الـ Dercum هو سمنة مؤلمة مترافقة مع اضطرابات عقلية. وتوفِّيت لويز بريان في فرنسا بتاريخ 1936.

790 إدوار مانديل هاوس (1858 - 1938): دبلوماسي ورجل سياسي مستشار لدى ويلسون لكتابة «البنود الأربعة عشر». وقد نُحّي جانبًا بتاريخ 1919.

791 سيغموند فرويد وويليم بوليت، «الرئيس توماس ويدرو ويلسون» (1967)، باريس، بايو، 1990. المقدمة لا غير هي قد تمّ الرجوع إليها وترجمتها انطلاقًا من الألمانية في الـ OCF.P، الجزء الثامن عشر، المصدر السابق، ص 363 - 372. مع حاشية لتوضيح شروط نشر النص على يد بوليت. انظر على حد سواء، لتأويل النص، «قاموس التحليل النفسي» المصدر السابق. والمال المقدّم من طرف بوليت استُخدم

لتعويم الـ Verlag. يمكننا أن نقرأ أيضًا الحجج التي جاء بها بيتر غاي، «فرويد»، المصدر السابق، ص 869 - 870.

792 وهذا ما يُفسِّر قسوة إريك إركسون، الذي أشار إلى أن النص قام بكتابته طالب قليل الموهبة لا يفهم لا اللغة ولا التفكير عند المعلّم.

793 كتبها ويلسون من دون تنسيق مع زملائه الأوربيين، وكان ذلك الخطاب يزعمُ بأنه يعيد رسم حدود الأمبراطوريات الوسطى القديمة وأنه يقيم العلاقات القديمة بإشراف عصبة الأمم التي أنشأها (SDN).

794 انظر حول هذا الموضوع كاترين كليمان، «من أجل سيغموند فرويد»، باريس، مينجيس، 2005، ص 127 - 143.

795 إن الكلمة الألمانية تدل على «الروحانية» أو «العقلية» أو أيضًا «حياة الفكر». أما كلمة «الروحانية» فلا تتناسب مع الفرضية الفرويدية. هناك ترجمات عديدة للكتاب. وأنا شخصيًا اخترت ترجمة كورنيليوس هيم، «موسى الإنسان وديانة التوحيد» (1939)، باريس، غاليمار، 1986. انظر أيضًا ترجمة جان - بيير لوفيفر، باريس، سوي، 2012، سلسلة «بوان إيسيه»، مع مقدمة رائعة. انظر على حدٍّ سواء OCF.P، الجزء العشرون المصدر السابق، ص 132 - 219. من بين أفضل الشارحين، بالإضافة إلى يوسف حاييم يروشالمي، الذي كان كتابه «موسى فرويد. يهودية ذات نهاية ويهودية لا نهاية لها»، المصدر السابق، كان حدثًا حقيقيًا، سوف نحتفظ بأسماء جاك لو ريدر، «فرويد، من الأكروبول إلى سيناء»، باريس 2002 ،PUF، وإدوار سعيد، «فرويد وعالم ما وراء أوربا» (2003)، باريس، لوسيربون أ بليم، 2004، وهنري راي - فلود، «وخلق موسى اليهود... وصية فرويد»، باريس، أوبييه، 2006. لقد علّقتُ على معظم تلك المؤلفات وكذلك على كتاب فرويد «رجوعًا إلى المسألة اليهودية» المصدر السابق. انظر أيضًا إيلس غروبريخ - سيميتيس، «حلم يقظة. موسى فرويد»، المجلة الفرنسية للتحليل النفسي، 56، 4، 1992. علمًا بأنني، مع رينيه مايور، نظّمتُ في 1994 منتدى لندن في الـSIHPP، وخلال هذا المنتدى ردّ ديريدا على يروشالمي بمداخلته «داء الأرشيف»، باريس، غاليله، 1995وهذه الحادثة كانت موضع تعليق مليء بالأخطاء وبسوء النية، أثناء منتدى لتكريم يرو شالمي، جرى تنظيمه في باريس من طرف سيلفي - أنغولدبيرغ، في متحف الفن والتاريخ لليهودية، في 11 أبريل/نيسان

2011. انظر «التاريخ وذاكرة التاريخ. تكريمًا لـ ي. هـ. يروشالمي»، باريس ألبان ميشيل، 2012. وقد نشرتُ ردًا حول هذا الموضوع على سيبفي أن غولد بيرغ وعلى ميكائيل مولنار، في «نشرة الـ SIHPP»، 30أغسطس/آب 2012.

796 لا نجد اسم ومؤلفات سبيوزا في كتالوغ مكتبة فرويد. وهو لا يعود أبدًا إلى المقطع الشهير في الفصل الثالث حول «الوثيقة اللاهوتية - السياسية» بخوص بقاء اليهود، باريس 1999، PUF.

797 أفضل كتاب حول نشوء القصّة الخيالية لمصريّة موسى منذ نهاية القرن السابع عشر هو كتاب يان أسمان، «موسى المصري. دراسة في تاريخ الذاكرة»، باريس، أوبييه، 2001. وقد جرى الرجوع إليها في سلسلة «شان - فلاماريون» بتاريخ 2010. انظر أيضًا جاك لو ريدر، «موسى مصري»، المجلّة الألمانية العالمية، 14، 2000، ص 127 - 150. وفي مكتبة فرويد، نجد عددًا لا يُستهان به من المؤلّفات في التاريخ المصري القديم وفي تفسير الكتاب المقدس. في هذا الميدان، كان على اطّلاع واسع الآفاق.

798 أوتو رانك، «القصّة الخيالية عن ولادة بطل»، المصدر السابق.

799 في القصّة التوراتية، وجدت ابنة فرعون الطفل في السلّة، فقامت بتبنّيه وجعلت أمّه تتولى إرضاعه.

800 في 1912، نشر كارل أبراهام مقالةً حول هذا الموضوع: «أمنحوتب الرابع. مداخلة تحليل نفسي لدراسة شخصيته والعبادة التوحيدية لآتون»، في «الأعمال الكاملة»، المصدر السابق الجزء الأول، ص232 - 257.

801 إرنست سيلين «Mose une seine Bedeutung fur die Israelitisch - judische Reli - gionsgeschichte»، ليبزيغ وإرلانجن، أ. Deichertsche Verlagsbuchhandlung، 1922. لكنّ مقولة ستيلين حول قتل موسى بيّن ضعفها في ذلك العصر أبراهام شالوم يهودا (1877 - 1951). وقد أخذ فرويد علمًا بالموضوع من أرنولد زفايغ.

802 في الرواية التوراتية، حطّم موسى ألواح الشريعة حين رأى العبرانيين يعبدون العجل الذهبي. وقفل راجعًا إلى سيناء للبحث عن ألواح جديدة عند يهوه ليموت وعمره مئة وعشرون عامًا دون أن يكون

قد وصل إلى أرض الميعاد. وكان يوشع خلفه. فتاه العبرانيون أربعين عامًا في الصحراء.

803 إدوار ماير، «Die Israeliten und ihre Nachbarstamme: Alttestamenliche Untersuchungen»، هال، ماكس نيماير، 1906.

804 ابن إبراهيم، وذريّتهم هم أهل مدين. يُشير فرويد إلى مؤرّخين وشرّاح آخرين. فمؤلّفاتهم وكذلك مؤلّفات ماير تُشكّل جزءًا من كتالوغ مكتبته. أمّا كتاب سيلين، بتاريخ 1922، فلا وجود له فيها.

805 في القصّة التوراتية، تجتمع الحكايتان. إذ أن موسى، في سنّ البلوغ، قتل مصريًا وهرب نحو بلاد مدين، حيث اكتشف رسالته: لقد كلّمه يهوه من علّيقة النار كي يرجع إلى مصر ويحرّر العبرانيين الذين يستخدمون كعبيد.

806 لقد أشار جان لاكان إشارةً شديدة الوضوح إلى هذه الثنائية الفرويدية في «الندوة»، الكتاب السابع: أخلاقيات التحليل النفسي (1959 - 1960)، وهو نض أعده جاك - آلان ميلر، باريس، سوي، 1986، ص 203.

807 سيغموند فرويد، «موسى الإنسان وديانة التوحيد»، المصدر السابق، ص 133.

808 المصدر نفسه، ص 135 - 136.

809 المصدر نفسه، ص 180.

810 المصدر نفسه، ص 185.

811 وهذا ما يُشير إليه تمامًا بيتر غاي، «يهودي من دون ربّ» (1987)، باريس، PUF، 1989. لقد استعرضتُ بالتفصيل هذه الفكرة في «رجوعًا إلى المسألة اليهودية»، المصدر السابق.

812 وهذا ما جعل يرو شالمي يقول بأن فرويد قد جعل من التحليل النفسي امتدادًا ليهودية من دون رب: يهودية لا نهاية لها. وأنا قد أفضّل القول بأنها طابع يهودي لا نهاية له. لقد عرضتُ هذه الفكرة في «رجوعًا إلى المسألة اليهودية»، المصدر السابق.

813 في 1655، بطلب من الحبر ميناشه بن إسرائيل، كان كروموبل قد وضع نهايةً لإبعاد اليهود وسمح لهم بحرّية العبادة.

814 مارك إدموندسون، موت سيغموند فرويد، المصدر السابق، ص 116.

815 دافيد باكان، «فرويد وعرف التصوّف اليهودي» (1958)، باريس،

بايو، 1977.

816 مارتن بوبر، «موسى»، باريس، PUF، 1986. كارل أ. سكورسكي، «فيينا، مع نهاية القرن»، المصدر السابق، يرمياهو يوئيل، «سبينوزا وهراطقة آخرون»، المصدر السابق. بيتر غاي، «يهودي دون ربّ»، المصدر السابق.

817 رسالة إلى ماري بونابرت في 27 يناير/ك2 1938. ملفات غير منشورة. وذكر هذه الرسالة ماكس شور.

818 يان كيرشو، «هتلر»، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 129.

819 المصدر نفسه، ص. 144.

820 بتاريخ 15 مارس/آذار، أرسل برقية بهذا المعنى إلى وزير الدولة. وقد وضعت عنها نسخة طبق الأصل في «التأريخ الأكثر إيجازًا»، المصدر السابق، ص 229.

821 توحيد النمسا وألمانيا.

822 ريتشارد ستيربا، «ذكريات»، المصدر السابق، ص 145 - 146. كان فرويد يشير إلى ستيربا.

823 يان كيرشو، «هتلر»، المصدر السابق، ص 149. قدّم بيتر غاي وصفًا رائعًا عنْ الهيجان المسعور الذي انطلق من عُقاله في النمسا بتاريخ 1938.

824 في 2 أبريل/نيسان 1938، فرنسا، وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة اعترفت بشرعية عملية الضمّ.

825 رسالة جيوفاكشينو فورزانو إلى موسوليني تاريخها 14 مارس/آذار 1938. وقد وردت عند بول روزن، في «قضايا الأخلاق في التحليل النفسي»، المصدر السابق، ص162. ورغم تأكيدات كونسيتا جيوفاكشينو حول هذا الموضوع، يبدو بأن موسوليني لم يستجب لذلك الطلب من طرف والدها. وطلبتُ من موريزيو سيرا القيام ببحوث حول هذا الأمر، فلم يجد شيئًا في الملفات. وفي شهادته المودعة في مكتبة الكونجرس، يقول إدواردو ويس أنه لم يعثر على أدنى برهان عن نوايا موسوليني الحسنة حيال فرويد كما كان يعتقد فورزانو.

826 حول هجرة فرويد، بالإضافة إلى ملفاّت مكتبة الكونجرس وملفاّت ماري بونابرت، يمكن الرجوع إلى المؤلفات التي سبق لإرنست جونز التحدّث عنها، هو وماكس شو، ومارتن فرويد، وإيفا ويسويلر،

وريتشارد ستيربا، ومارك إدموندسون، وديتليف بيرتلسن (حول بولا فيختل)، وإليزابيث يونغ - بروبل. كما يجب على حدّ سواء إجراء تقاطعات في المراسلات بين فرويد وإرنست جونز، وماكس إيتنغون، وأرنولد زفايغ، ومينا برناي، وآنا فرويد وبقية الأبناء. انظر أيضًا «التاريخ الأكثر إيجازًا»، المصدر السابق؛ «هنا تستمر الحياة بطريقة مذهلة»، المصدر السابق؛ وصوفي فرويد، «في كنف عائلة فرويد»، المصدر السابق. إن الرجوع إلى جميع هذه المصادر يُتيح معرفة تفصيلية يومًا بيوم عن جميع التنغيصات المالية، والقضائية، والإدارية التي أدّت إلى هجرة فرويد وأعضاء عائلته، وكذلك نقل ملفاته ومجموعاته إلى إنجلترا. ثمّة إشاعة أطلقتها بربارا هاناه تزعمُ بأن فراتنز بيكلين الابن أرسلهُ يونغ إلى فيينا كي يُسلِّم فرويد مبلغًا كبيرًا لمساعدته على الانتقال إلى المنفى. وتزعم بأن فرويد كان جوابه أنه لا يريد أن يكون مدينًا بشيء لأعدائه. لكنّ هذه الإشاعة بيّن ديردر بيير بطلانها، «يونغ»، المصدر السابق، ص. 692. انظر كذلك شهادة روبير ماك كولي التي تحدّث عنها كورت إيسلر، LoC، صندوق 121، بطاقة 17.

827 شهادة إيمي موبيوس بعد الهجرة إلى فلوريدا، LoC، الوثيقة المذكورة.

828 بعد عام من ذلك التاريخ، حصل عليها جاكوب شاتسكي، المشرف على مكتبة معهد الطبّ النفسي في نيويورك.

829 وهذه الوثيقة منشورة في «المجلّة العالمية لتاريخ التحليل النفسي»، 5، 1992، ص 35.

830 تطلق هذه الصفة على غير اليهودي المكلّف بسماعدة اليهود المؤمنين بالتقاليد للقيام ببعض المهام اليومية في يوم الـShabbat - السبت -.

831 رسالة تاريخها 5 مايو/أيار 1938 وهي مختتمة بالصيغة التقليدية «هايل هتلر»، في ريتشارد ستيربا، «ذكريات»، المصدر السابق، ص 151.

832 «اليهود الخنازير».

833 حول دور ألفريد أندرا، انظر آلكسندر واو، «آل ويدجستن: عائلة في الحرب» باريس، بيران، 2011. حول تفاصيل القوانين المعادية للهيود

والتي طبّقت على عائلة فرويد وعلى شقيقاته انظر هارالد ليوبولد - لوفينتال، «هجرة عائلة فرويد بتاريخ 1937»، المجلة العالمية لتاريخ التحليل النفسي، 2، 1989، ص. 442 - 463. وألفريد غوتوالت، «شقيقات سيغموند فرويد والموت. ملاحظات تتعلّق بمصير ترحيلهن والقتل الجماعي»، المجلّة الفرنسية للتحليل النفسي، 68، 4، 2004، ص 1308 - 1316.

834 على ذلك الموقع للفندق الفخم الذي جرى تدميره في 1945، سوفي يقيم سيمون ويزنتال تحديدًا «مركز توثيق المقاومة النمساوية». وفي 1985، رفعوا نصبًا تذكاريًا تخليدًا للضحايا.

835 ديتليف بيرتلسن، «عائلة فرويد يومًا بيوم»، المصدر السابق، ص 81.

836 إيفا فرويد (1944 - 1924)، سوف تموت في مرسيليا من بعد حدوث تعفن في الدم بنتيجة عملية إجهاض. انظر «قاموس التحليل النفسي»، المصدر السابق.

837 و. إرنست فرويد، «ذكريات شخصية بخصوص عملية الضم»، المجلة العالمية لتاريخ التحليل النفسي، 3، 1990، ص. 409 - 414.

838 دافيد ج. لين، «Sigmund Freuds Psychoanalysis of Alpert Hirst»، المصدر السابق. و«Obituary»، 85، Insurance Advocate، 1974، ص 89. نجد شهادة هيرست مودعة في مكتبة الكونجرس.

839 لقد تبنت أنجيلا، ابنة اختها اليتيمة، ابنه توم سيدمان - فرويد، وكانت قد انتحرت في 1930، مثل زوجها الذي انتحر هو أيضًا قبلها بوقتٍ قصير. في رسالةٍ إلى شقيقته ميتزي، بتاريخ 28 ديسمبر/ك1 1930، شرح فرويد أنه ليس بإمكانه أخذ أنجيلا على عاتقه في فيينا، مكتبة الكونجرس، صندوق3، بطاقة 11.

840 كانت قد وُلدت في الولايات المتحدة، حيث هاجرت والدتها قبل أن تعود إلى فيينا. انظر إرنست والدينجر، «خالي سيغموند فرويد»، بوكس أبرود، 15، يناير/ك2 هناك شهادة طويلة من طرف والدينجر مودعه في مكتبة الكونجرس.

841 ألحّ فرويد، لكن من دون جدوى كي يصطحب في القافلة ماكسيمليان شتينر العضو في الـWPV منذ 1908.

842 صوفي فرويد، «في كنف عائلة فرويد»، المصدر السابق، ص 206. وُلدت صوفي فرويد 1924، وتزوجت في الولايات المتحدة من بول

لوينستن، المهاجر الألماني الذي كان قد هرب من معسكر انتقالي في فرنسا. إنها عالمة في علم النفس وفي علم الاجتماع، وقد جعلت اختصاصها حماية الطفولة.

843 أوغست إيخورن (1878 - 1949) بقي في فيينا، بينما أوقف النازيون ابنه ورحّلوه إلى داشو بصفة سجين سياسي. بعد الحرب وإطلاق صراح ابنه، اشترك في إعادة تأسيس لـ WPV. وإرنست فيديرن (1914 - 2007)، ابن بول فيديرن رحّلوه إلى بوشينوالد ومن هناك كان هربه، كما كان الحال مع برونو بيتليهم (1903 - 1990). ورجع إرنست فيديرن ليقيم في فيينا بتاريخ 1972، بعد جولةٍ أمريكية. بينما استقر بيتلهيم في شيكاغو.

844 «بيت فرويد، برغاس 19 فيينا، صور فوتوغرافية من تصوير إدمون أنجيلمان»، المصدر السابق، ص 27. وقد بيعت الصور الفوتوغرافية في جميع أرجاء العالم. كانت تقدم شهادةً حيّةً عن سبعة وأربعين عامًا مكرّسة للعلم، والفن، والثقافة.

845 „Erklarung. Ich bestatige gerne,dass bis heute den 4. Juni 1938, Keinerlei Behelligung meiner Person oder meiner Hausgenossen vorgekommen ist. Behorden und Funktionare der Partei sind mir und meinen Hausgenossen standig Korrekt und rucksichtsvoll entgegen getreten. Wien, den 4. Juni 1938. Prof. Dr. Sigm. Freud. هذه الوثيقة، التي وقّع عليها فرويد بيده، موجودة في كاتلوغ نيبيهاي بتاريخ 11مايو/أيار 1989. وقد اشترتها دار الكتب الوطنية في النمسا، حيث يمكن الرجوع إليها.

846 إرنست جونز، بيتر غاي، مارك إيدموندسون، وغيرهم كثيرون قدّموا تعليقات غزيرة حول تلك العبارة. وكان آلان دو ميولا أول من شكّك، في فرنسا، بصدق ذلك التصريح. انظر «قاموس التحليل النفسي» باريس كالمان - ليفي، 2002، الجزء الأول، 683.

847 أفضل شهادة حول رحلة فرويد نجدها عند بولا فيختل وقد أخذها عنها ديكليف برتلسن. فهي تقدم وصفًا تفصيليًا لردود فعل المسافرين، ولثيابهم، ولطرقهم في تناول الطعام.

848 رسالة فرويد إلى آلكساندر تاريخها 17 يوليه/تموز 1938، LoC.

أوراق العائلة.

849 ماكس شور، «الموت في حياة فرويد»، المصدر السابق، ص 588. سيغموند فرويد، «التأريخ الأكثر إيجازًا»، المصدر السابق، ص 449. هناك روايات متعدّدة عنّ موقف سويروالد. انظر أيضًا شهادة إرنست والدنجر. الوثيقة المذكورة سابقًا.

850 سيغموند فرويد، » مختصر في التحليل النفسي « (1940)، باريس، PUF، 1967، وOCF.P، الجزء العشرون، المصدر السابق.

851 آرثر كوستلر، «هيروغليفيات»، باريس، كالمان - ليفي، 1955، ص 493. يُشير إرنست جونز إلى أن كوستلر نشر تقريرين مختلفين، في كلّ منهما أخطاء حول زيارته لفرويد. «حياة سيغموند فرويد وأعماله»، الجزء الثالث، ص 269.

852 آديل جيتيل (1871 - 1970)، عاشت حتى سن المائة تقريبًا، وهي من عائلة يهودية من الإمبراطورية النمسو - هنغارية وخالها، المصاب بذهان الكآبة، هو أيضًا استشار فرويد بتاريخ 1900 قبل انتحاره.

853 أنجز كورت إيسلر في 1953حديثًا مع آرثر كوستلر وحديثًا آخر مع والدته، وهذا الحديث سوف يستخدمه مؤّلف سيرة الكاتب، الذي قدّم صورة رهيبة عنّ هذا الأخير، انظر ميكائيل سكانيل، «.Koestler. The Literary and Poli - tical Odyssey of a Twentieth - Century Skeptic»، نيويورك، رندوم هاوس، 2009. وآرثر كوستلر، «مؤلّفات السيرة الذاتية»، باريس لافون، سلسلة بوكان، 1993

854 ميليتا شميدبرغ، «مداخلة في تاريخ حركة التحليل النفسي في إنجلترا» (1971)، مجابهات، 3 ربيع 1980، ص 11 - 22.

855 إرنست جونز، «نشرة عن الـ IPA»، المجلّة العالمية للتحليل النفسي، 1939، ص116 - 127. وJL - HPF المصدر السابق، ص 1606 - 1607.

856 آلكساندر إتكيند رجع إلى هذه المقولة في كتابه «تاريخ التحليل النفسي في روسيا»، المصدر السابق. ومن بعده كثيرون غيره علمًا بأن هذه المقولة تبيّن ضعفها وبطلانها بعد الرجوع إلى الملفات، من طرف غيدو ليبرمان في كتابه «التحليل النفسي في فلسطين»، المصدر السابق.

857 رسالة فرويد إلى ماري بونابرت بتاريخ 4 أكتوبر/ت, 1938في «المراسلات» المصدر السابق، ص493. سوف يقول وينستون تشرشل

في صحيفة التايمز بتاريخ 7 نوفمبر/ت$_2$ 1938: «كان أمامهم الاختيار بين العار والحرب. وقد اختاروا العار وسوف يقعون في الحرب».

858 سيغموند فرويد، «كلمة حول معاداة السامية» (1938)، في OCF.Pالجزء العشرون المصدر السابق، ص 326 - 329. لقد أطلق سراح آرثر فرويد، وترك شهادة مكتوبة يذكرها مارتن جيلبيرت، «Kristallnachl: Prelude to Destruction»، نيويورك، هاربر كولين، 2006، ص 54 - 55.

859 مارك إيدموند سون، «موت سيغموند فرويد»، المصدر السابق، ص 163.

860 رسالة فرويد إلى ماري بونابرت في 12 نوفمبر/ت$_2$ 1938، «المراسلات»، المصدر السابق، ص 497. وهذا خطأ من فرويد: فالأمر يتعلق بمائة ستين ألف شيلنغ.

861 سيليا بيرتان، «ماري بونابرت»، المصدر السابق، ص 327.

862 انظر HPF - JL المصدر السابق.

863 سوف تقدم روث شيبارد نسخة أصلية عن هذا النص في «سيغموند فرويد. اكتشاف اللاشعور»، باريس، لاروس، 2012.

864 انظر «سيغموند فرويد. ابتكار التحليل النفسي»، وثائقي بتاريخ 1997، من انجاز إليزابيث كابنيست وإليزابيث رودينسكو، من إنتاج فرانسواز كاسترو.

865 سيغموند فرويد وأرنولدزفايغ، «المراسلات»، 1927 - 1939، المصدر السابق، رسالة فرويد بتاريخ 5 مارس/آذار 1939، ص.221. انظر أيضًا الملفات غير المنشورة لماري بونابرت.ودينيس توتنو، «فرويد، صورة غير منشورة: استشارة البروفسور لاكساني في لندن، في 26 فبراير 1939»، المجلة الفرنسية للتحليل النفسي، 4، 66، 2002، ص. 1325 - 1334. والتقرير الطبي موجود في مكتبة الكونجرس صندوق 120 بطاقة 53.

866 سيغموند فرويد وإرنست جونز، «المراسلات الكاملة»، 1908 - 1939، المصدر السابق، رسالة فرويد تاريخها 7 مارس/آذار 1939، ص. 877.

867 «التأريخ الأكثر إيجازًا ، المصدر السابق، ص. 306.

868 سيغموند فرويد وإرنست جونز «المراسلات الكاملة»، 1908 - 1939،

المصدر السابق، ص 878. بتاريخ 2 سبتمبر/أيلول 1939 كان النازيون قد غزوا بولونيا.

869 حسب كلمة جون - بول سارتر، وهي مذكورة وهي مبيّنة في هذا الكتاب.

870 مذكرات ماكس شو مودعة في مكتبة الكونجرس. ومضمونها يختلف عن الرواية التي يقدمها في كتابه «الموت في حياة فرويد»، المصدر السابق. وقد أعطاها بيتر غاي اهتمامًا عريضًا في كتابه «فرويد»، المصدر السابق، ص 830 - 832. فهو يشير إلى ثلاث حقنات وليس إلى حقنتين. ارجع أيضًا إلى مارك إدموندسون، «موت سيغموند فرويد. ميراث أيامه الأخيرة»، المصدر السابق، ص 195 - 197. أمّا بولا فيختل في شهادتها، فتؤكد بأن شور لم يكن حاضرًا عند وفاة فرويد، وأن جوزفين ستروس هي التي سمحت بإعطاء الجرعة المميتة. وإن كان صحيحًا بأن شور كان عليه أن يرحل من جديد إلى الولايات المتحدة في أقصر فترة زمنية، فلا شيء يبرهن على عدم وجوده عند وسادة فرويد. ناهيك بأن بولا تخطئ بصدد الجرعة، واليوم، وعدد الحقنات. لكن رواية بولا عاد إليها روا ب. لاكورسيير، في «Freud's Death: Historical Truth and Biographical Fictions»، إيماغو، 65، 2008. يؤكد لاكورسير، في هذا المقال، بأن ستروس أبقى على ملفات هذه القضية لكنّه لا يذكر ما تحتوي عليه وهو نفسه لم يرجع إليها لقد قرأ فرويد رواية بلزاك بالفرنسية في طبعة تعود إلى عام 1920 وهي من كتب آنا. المرجع LDFRD 5680. ومن يريد معرفة المزيد، يجب عليه الانتظار حتى فتح مراسلات جوزفين ستروس، في متحف فرويد.

871 وليس في الساعة 2:45 pmكما تقول ماري بونابرت في يومياتها.

872 راؤول هيلبرغ، «تدمير يهود أوربا»، باريس، فايار 1988، ص 190.

873 إرنست جونز، «حياة سيغموند فرويد وأعماله»، المصدر السابق، الجزء الثالث، ص 228.

874 ستيفان زفايغ، حول جنازة سيغموند فرويد (1939)، في «فرويد، الشفاء بالفكر» باريس، كتاب الجيب، 2013، ص 149.

من نيويورك حيث كان قد نجح في الهجرة إليها، كان هاري فرويد، ابن آلكساندر، هو من أخبر الشقيقات الأربع الباقيات في فيينا بموت شقيقهن سيغموند فرويد: «رحل إلى العالم الآخر الذي نرجو أنه أفضل [...]. وقد أمضى أيامه الأخيرة في مكتبه حيث وضعوا سريره. من هناك كان بإمكانه رؤية الحديقة، وفي الأوقات الأفضل، الاستمتاع برؤية الطبيعة. أتمنى أن تتقبلن هذا الخبر بنفس مطمئنة. أمّا أخبار العائلة عمومًا فهي جيدة[875]».

على سبيل النفس المطمئنة، سرعان ما كان على العجائز الأربع العيش، مثل نساء أخريات مضطهدات، في شقة الكساندر القديمة. وباسم الضريبة العقابية - الـ JUVA - جُزدن من جميع ممتلكاتهن، التي كانت تحت تصرّف إريك ڤهرر، المشرف النازي على ممتلكات آلكساندر. فأعلم هاري ألفريد أندرا، وهذا بدوره حاول الوصول إلى أنطون سويرفالد، غير أن هذا الأخير الذي جرت تعبئته عسكريًا أنذاك كان في الجبهة الروسية. بتاريخ 20 يونيه/حزيران 1940، طالب أندرا بمساعدات فورية لهاري. غير أن جميع المساعي المبذولة لم تحقق أي نفع. وها هنّ، العجائز الأربع، يوجّهن في 15 يناير/ك2 1941، رسالة يائسة إلى المحامي: «فُرضت علينا الإقامة في حجرةٍ واحدة هي في الوقت نفسه غرفة النوم وغرفة الحياة اليومية. نحن، كما تعلم من المتقدمين بالعمر، وغالبًا ما نعاني من المرض ونكون طريحات الفراش، وهكذا فتهوية البيت بصورة طبيعية والقيام بالأعمال المنزلية أمورٌ مستحيلة لأنها تمس صحتنا[876]».

في ذلك التاريخ، نظرًا لتجاوزهن خمسة وثمانين عامًا، جرى غض النظر عنهن حينما تقرر إرسال القوافل الأولى نحو معسكرات العمل، ولكن بعد مؤتمر فانزي - Wannsee - في يناير/ك2 1942 جرى ترحيلهن إلى غيتو غيزينشتات - resienstadt - (تيريزين)، حيث توفيت أدولفين بسبب سوء التغذية في 29 سبتمبر/أيلول [877]1942. وأمّا بشأن الشقيقات الثلاث الأخريات، فجرى نقلهن نحو معسكرات الإبادة، حيث لم يقدر لهن الرجوع من هناك أبدًا: ماريا وبولا في مالي تروستينيك بتاريخ 32 سبتمبر/أيلول 1942، روزا غراف إلى تريلينكا إمّا في 29 سبتمبر/أيلول 1942، أو في اليوم الأول من مارس/آذار 1943.

تحديدًا في 27 يوليه/تموز 1946 قدّم صمويل ريزمان، من أبناء وارسو، هذه الشهادة أمام محكمة نورمبرغ بخصوص كورت ڤرانتز الـ Obersturmbannfuhrer، القائد العسكري الموفد إلى المعسكر: «كان

القطار قادمًا من فيينا. وكنت على رصيف المحطة عندما أُخرج الناس من العربات. ثمّة امرأة متقدّمة في العمر اقتربت من كورت فرانتز، وقدّمت Ausweis - الهوية - وقالت بأنها شقيقة سيغموند فرويد. وطلبت أن تُكلّف بعمل مكتبي سهل. فحص فرانتز الوثيقة بعناية وقال بأن الأمر ربّما على الأرجح مبني على خطأ. وأخذ بيدها إلى الجدول الذي يدلّ على مواعيد سفر القطارات وقال بأن قطارًا سوف يتوجّه إلى فيينا بعد ساعتين. فيمكنها التخلّي عمّا لديها من أشياء ذات قيمة ومن وثائق هنا. وأن تتوجه إلى الحمامات حيث يوجد الدوش، ومن بعد الحمام تستلم تلك الوثائق مع بطاقة السفر إلى فيينا تحت تصرّفها. بكلّ وضوح، دخلت المرأة إلى الدوش، ولمْ تخرج منه أبدًا[878]».

بعد موت الأب والجد، لم يجد أبناء وأحفاد فرويد مهربًا من التكيّف، كما حال تلامذته، مع عالمٍ شديد الأختلاف عن العالم الذي سبق أن عرفوه، وقد وجدوا أنفسهم مجبرين على مجابهة زمن الحرب من دون أن يكون قدْ توافر لهم وقت الاستمتاع بسكينة جديدة. لكنّهم في هذه المرة، في منفاهم، أصبحوا في معسكر المنتصرين، الذين كانوا ينظرون إليهم على أنهم متطفّلون خسروا كلّ شيء[879]. لمْ ينسوا أبدًا أنهم من اليهود لكنّهم أرادوا وهم يكتشفون حجم الدمار الذي وقع على العالم القديم وعلى أولئك الذين لم يتمكّنوا من الفرار، قطع الطريق على ذكريات فظائع الماضي، وكما الحال مع ضحايا عديدين نجحوا في البقاء على قيد الحياة، جابهوا حينذاك مسألة إبادة اليهود، ومنهم نفرٌ اشتركوا في مطاردة النازيين القدماء.

كانت ماتيلد شديدة المهارة في فنّ الخياطة، وها هي تؤسس في لندن مع نمساويين آخرين منفيين، محترفًا للأزياء (الموضة). وتابع مارتن حياته كما في الماضي، منعزلًا، جذّابًا للنساء، ومفلسًا، ناظرًا إلى نفسه على أنه «يهودي عجوز ومريض». وانتهى به الأمر بإمساك كشك لبيع التبغ والصحف قرب المتحف البريطاني. أمّا أوليفر، حين استقر به المقام في فيلاديلفيا، في الولايات المتحدة، فحاول عبثًا أن يتبنى طفلًا هاربًا من الإبادة الجماعية، ثمّ شغل منصب باحث في مشروع للنقل، حيث أصبحوا ينادونه «البروفسور فرويد». وإرنست، الابن المدلل بالثروة، الأكثر أناقة، تابع حياته العملية كمهندس عمارة إنجليزي. واثنان من أبنائه قُدر لهما مصيرٌ استثنائي: لوسيان فرويد، وهو أحد المصورين الرمزيين الأكثر تجديدًا في النصف الثاني من القرن العشرين، وكليمين، الذي أصبح السير كليمان، الرجل السياسي، الصحافي، الرسام والكاتب الساخر وصاحب حانة

ليلية، وقد تابع سير محاكمة نورمبورغ ونشر سيرته الذاتية: «Freud Ego»[880]. - «فرويد الأنا».

رُزق لوسيان أربعة عشر طفلًا من نساء متعدّدات ومختلفات، وكليمين خمسة، بينهم ابنٌ بالتبنّي، وستيفان، الشقيق البكر، المنسي، التاجر، الهامشي، أمضى حياته في تخاصم مع أشقائه الذين كانوا، من جانبهم أيضًا، متباغضين فيما بينهم. وقد روت إستر فرويد، ابنة لوسيان، في عدد من رواياتها مختلف الأوجه لحياتها الصعبة بين أب غائب، لم تعرفه إلّا في المراهقة، وأمّ معذّبة.

، وغالبًا ما أشارت بصمت إلى ذلك الأب حول أحداث سنوات 1930[881]. وأمّا لوسيان شخصيًا، الجامد، الفاسد، الساحر، ذو الجمال الذي لا يصدّق، المطوّر لفنّ التكتّم والاستفزاز، والذي ينسب نفسه إلى مدرسة فيلاسكيز، رسامه المفضّل، فكان يعبد جدّه، الذي يتذكّره بصورة جيّدة، وكان يرعبه كلّ شكل من أشكال التعبير المعادي للسامية.

عندما كان عمره عشرة أعوام تقريبًا، كان أصيلًا منذ ذلك الحين في معاينته للمحيطين به، وقد تشبّث بأن «يرى في هتلر»، العدو المطلق، وأثناء مظاهرة نازية في برلين، قام حتّى بتصويره[882] كي لا ينسى أبد الدهر ملامحه وحركاته الإيمائية. ونظرًا لاختناقه في علاقته مع أمّه لوسي إذْ كانت علاقة أنصهار كما تريدها هي، فلم يتمكّن من الخلاص من هذه الهيمنة إلّا عن طريق عبقريته الإبداعية، على عكس جدّه الذي كان به شبهٌ كبيرٌ منه، اهتم لوسيان، ليس بالكلام وإنما بالجسد في عريه بالضبط، ليس بكبت الرغبة وإنما بالليبيدو بكلّ عنفه النزوي. فحين يريد أن يرسم، كان ينزع ثيابه ويطلب من الموديلات التعزي هم أيضًا، حتّى عندما يرسم بورتريهات أقاربه، وبناته على وجه الخصوص. كما لو كان لوسيان يُعطي حضورًا في أعماله التصويرية للجانب المعتم في أعمال سيغموند، الذي يعتبر نفسه وريثًا شيطانيًا له، وبمقدار ما كان يسستبعد العقدة الأوديبية، كان ينظر إلى الهر بروفسور كعالم حيوانات خرافي، مسحور بالعالم الحيواني، وهو أول عالم قام بتحديد جنس سمك الأنقليس. وكانت تربط لوسيان بالجسد الخيالي لجدّه رابطة تكاد أن تكون حيوانية.

كان يعلم بأنه مدينٌ جزئيًا له بحزيته، وكان يتذكّر بانفعال شديد المشهد الذي تدخّلت أثناءه ماري بونابرت لدى أدوق دو كنت كي يتمكّن لوسيان وعائلته من الحصول على الجنسية الإنجليزية. وبسبب هذا الدين في عنقه حيال العائلة المالكة، قدم إلى الملكة إليزابيث الثانية، بعد خمسة وخمسين عامًا لوحة رسمها لها، وقد أثارت هذه اللوحة فضيحة تمامًا مثل

نظريات فرويد: فقد أكّدت الصحافة بأن المصور قد «غير ملامح» وجه صاحبة الجلالة إذ جعلها ذات عنق كما لاعب الروكبي وذقنًا مائلة للزرقة تبدو وكأنها ذات لحية نابتة. وبسبب ارتكابه لهذا الفعل المهين للمقدّسات، أقترح أحد الصحفيين حبس لوسيان في برج لندن[883].

أمّا أنطون والتر، ابن مارتن، المنخرط في الجيش، والمسيَّس أكثر من والده، فقد كُلّف، في أبريل/نيسان 1945 بتحرير مطار زلتويغ، في أستيريا. أنزلوه بالمظلّة في قلب الليل، وقدّم اسمه، وكانت المفاجأة الكبرى عنده، أنه استُقبلَ استقبالًا غير سيء من ضباط النمساويين يرغبون أن تنتهي تلك الحرب. من بعد ذلك، بعد ترقيته إلى رتبة نقيب، تخصص بالبحث عن قدامى المجرمين النازيين وأسهم، بتحقيقاته، في تسليم برونو تيش إلى العدالة، وهوالذي كانت شركته تنتج الـ Zyklon - سمّ السيانيد - من أجل معسكر أوشفيتز. لقد حكمت عليه المحكمة العسكرية في هامبورغ بأنه مذنب، وكان الحكم الإعدام شنقًا، وقد نُفّذ في مارس/آذار 1946. كما شارك أنطون أيضًا، بمتابعته الدؤوبة، في إدانة ألفريد تريبنسكي، طبيب الـ SS، المشرف على التعذيب، والمختصّ بتجارب حقن البكتيريا على الأطفال. ومن بعد هذا الأمر، أصبح مهندسًا كيميائيًا، وعملَ في شركات إنجليزية متنوّعة، قبل أن يتقاعد عن العمل.

وأمّا ابن عمه هاري فرويد، المجنّد في الجيش الأمريكي، فقد عاد هو أيضًا إلى النمسا لملاحقة أنطون سويرفالد الذي يتهمه بأنه قد نهب أموال عائلته. تمّ توقيفه ومحاكمته على يد السلطات الأمريكية، ودافع المفوّض المشرف القديم بأنه «غير مذنب» وطلبت زوجته شهادةً من آنّا فرويد وهذه الأخيرة كتبتها بطيب خاطر مؤكدةً بأن سويرفالد كان قد مدّ يد المساعدة إلى العائلة[884]. وهكذا فقد أطلق سراحه. قرّرت آنّا، بعد وفاة والدها البقاء في لندن والعيش في المنزل العائلي رقم 20 مارسفيلد غاردن، في هامستيد. وبعد موت مارتا ومينا عاشت فيه مع دوروتي، التي عادت من نيويورك في 1940 لاقتناعها بأنها لم تعد تستطيع الاستغناء عن صديقتها[885]. ومعًا، تابعتا نشاطاتهما حول الطفولة وذلك بتأسيس حضانة هامبستد وعيادة هامبستد لمعالجة الأطفال، وهو مركز للبحوث، ومستوصف حيث طبّقتا فيه نظرياتهما بتعاون وثيق مع أهالي الأطفال الذين تولّيتا أمورهم.

في 1946، علمت عن طريق صديقتها العظيمة كاتا ليفي[886]، شقيقة أنطون فون فروند بمصير عمّاتها الأربع دون أن تعلم بعد أين لقين حتفهن، وسرعان ما نقلت الخبر إلى بنات عمّها: مارغريت ماغنوس، ليلي فرويد -

مارلي، روز والدنجر. وأسرعت مارتا لتشاركهن مأتمهن، وشعرت آنا بأنها مذنبة لأنها لم تكن على ما يكفي من الحذر واليقظة. وعلى مدى سنوات، نسبت إلى النمساويين أنهم من جماعة التلذذ بالقتل ولم تعد تريد أن تسمع أي حديث عن برغاس علمًا بأنها من لندن قدّمت المساعدة إلى صديقها القديم إيخورن من أجل إعادة تأسيس الـ WPV.

وواجهت قضيّة الإبادة حين أخذت على عاتقها، ما بين 1945 و1947، كفالة ستة أطفال يهود ألمان أيتام، ولدوا ما بين 1941 و1942، وكان أهاليهم قد أرسلوا إلى غرف الغاز. لقد احتُجزوا في معسكر ترنستاد (تيريزين)، في قسم الأطفال الفاقدين لأمهاتهم، وهكذا استمروا على قيد الحياة، ملتصقين بعضهم ببعض ومحرومين من الألعاب والطعام، حين جرى إيواؤهم في Bulldogs Bank، ثمّ وضعوا تحت رعاية آنا - التي أعادت صلتها، بهذه المناسبة، مع اللغة الألمانية -، فكانوا يتكلّمون بعضهم مع بعض بلغة سوقية مقزّزة، ويقذفون الهدايا، ويخزبون المفروشات، ويعضّون، ويضربون، ويعوون، ويمارسون العادة السرية، ويوجّهون الإهانات إلى البالغين. بكلمة واحدة لم يتمكنوا من البقاء أحياء إلّا بتشكيل وحدة متكاملة كانت هي حصنهم الذي حماهم. وبعد عام من العناية، عادوا إلى حياة طبيعية. إنهم أطفال الإبادة الجماعية والهجر المطلق، وكانوا أوّل من جُرّبت عليهم مقاربة تحليلية جديدة، سوف تبرهن للأجيال القادمة بأنه لا شيء ينتهي سلفًا بالفشل وأنّ حياةً جديدة حتى في أقسى الظروف، يمكن دائمًا التفكير بها[887]. في هذا المجال، كشفت آنا فرويد عن مواهبها العلاجية الحقيقية.

لقد حافظت على أصدقائها من أبناء فيينا الذين كانوا قد استقروا في الولايات المتحدة. كانوا يحبونها لتفانيها، واستقامتها، وروح الإخلاص عندها. معهم كان يمكنها أن تتذكّر، بحنين، العظمة القديمة للفرويدية في بداياتها. وهي قد بقيت ذاكرةً حيّةً تشهد على عصرٍ أغرقته حربان عالميتان.

كانت الوريثة الشرعية، مع شقيقها إرنست، لملّفات والدها ومؤلّفاته، وهكذا فقد وجّهت آنا تفضيلها نحو جونز، وليس نحو صديقها سيغفريد برنفيلد - كي يكتب السيرة الأولى المسموحة عن فرويد، والتي سوف تنشر في ثلاثة مجلّدات، ما بين 1953 و1957: إنّه كتابٌ بالغ الأهمية مستند على ملّفات ومصادر لا جدال فيها. وهذا الكتاب، ساعد الشتات الفرويدي على تذكّر أصوله ولو بأسلوب سيرة تاريخية، رسمية بالتأكيد، لكنّها ليست قائمة على المبالغة ولا على الورع الزائد. كان جونز يميل إلى

الفكرة القائلة بأن فرويد، العالِم المنعزل وصاحب التوجّه الإنساني الشامل، قدْ نجح بقوّة عبقريته لا غير باقتلاع نفسه من أحضان «العلوم المغلوطة» في عصره كي يكشف للعالم وجود اللاشعور. لمْ يكن شديد الاهتمام بإدخال مؤلّفات فرويد وشخصيته في الاستمرارية الطويلة للتاريخ، كما أنه لمْ يتطرّق أبدًا إلى سياسته هو بالذات، «الإنقاذ» المزعوم للتحليل النفسي، وهو ما لم يعبّر أبدًا عن الندم حياله. وكذلك فقد أخفى الانتحارات، والتشرّد، وقصص العلاج، وعامل معاملةً جد سيئة كلًّا من بروير، وفليس، ويونغ، ورايخ، ورانك، وكثيرين غيرهم أيضًا.

لكنّه على وجه الخصوص، حوّل فرويد إلى عالِم إنجليزي أكثر مما هو من أبناء فيينا، وضعيٍ أكثر مما هو رومانتيكي، وقلّل من شعوره بالمعاناة في اختياراته أكثر مما كان عليه فرويد فعليًا. مختصر القول، لقد وضع تحت تصرّف معاصريه مذكرة على شرف الأمير والعالِم الذي قام شخصيًا على خدمته. هذه السيرة الضخمة أحدثت جدلًا تاريخيًا هائلًا سوف يستمر على مدى أربعين عامًا أكثر حيوية من الخصومات بين المحلّلين النفسيين.

لا يمكن لأي مؤرّخ ألّا يعود في المستقبل ليقف في مواجهة هذه السيرة الأولى التي كتبها معاصر لفرويد، كان أيضًا تلميذه ومنظّم حركته. بالتأكيد، لقد انجرف جونز مع وهم الإستبطان حين صوّر بطلًا يتقدم نحو مصيره، لكنّه في النهاية كان أول من وصل إلى الملفات، وأول من اسخدم منهجية منسجمة وظلّ متمسكًا بها.

لقد ضمّن عمله بحوث سيغفريد برنفيلد، بنيما وجّهت آنّا انتباهها الشديد في اللحظة نفسها، إلى نشر مراسلات، لا سيّما مع فليس[888]، واستبعدت منها، ما يمكن في نظرها، أن يجعل الصورة المثالية التي خلقتها عن والدها باهتة: فهو بطل لا يعرف الخوف ولا يهتم باللوم، إنه فرويد «مستقيم تاريخيًا» يعمل من أجل تحليلٍ نفسي براغماتي مبرمج سرعان ما أصيب بالجمود[889].

في 1972، قام ماكس شور بتصحيح رواية جونز حين قدّم صورة عن فرويد كأحد أبناء فيينا، فهو عالم يطرح أكثر من فرضية، وهو يتعاطى الكوكايين، ويعاني من قلق أمام الموت، ويتردّد بين الخطأ والصواب. وقد كشف لأول مرّة، هو شخصيًا، وجود إيما إكستين، فاتحًا الطريق كي يقوم آخرون، باستقصاء تاريخ مرضى فرويد.

عاشت آنّا ومارتا حياةً سعيدة لكنّها معقّدة. ولم تقبلا أبدًا أن يُنظر إليهما بأنهما سحاقيات علمًا أنهما شكّلا ثنائيًا حقيقيًا، وأبدًا لم تقبل آنّا في

حياتها الاعتراف أمام الناس أو السماح بالكتابة عنها بأنها خضعت للتحليل على يد والدها.

أما الأطفال الذين أحبتهم آنا ودوروتي واشتركت مع صديقتها بتربيتهم، والذين كانوا جميعهم يعانون من اضطرابات، فكانوا يأتون بصورة منظّمة إلى لندن. وقدد ظلّ بوب يتردد على ديوان آنا طوال خمسة وأربعين عامًا، وصار كما شقيقته مابي، إحدى الحالات العشر المذكورة في القسم الأول من «معالجة أطفال بالتحليل النفسي»[890]، وقد توفي محبطًا ومصابًا بالربو، بتاريخ 1969، عن عمر بلغ أربعة وخمسين عامًا. بعد ذلك بخمسة أعوام ها هي مابي الخاضعة دائمًا للتحليل في لندن، وعلى فترات في نيويورك، عند ماريان كريس، تقوم بالانتحار في البيت رقم 20 مارسفيلد غاردن، وذلك بابتلاع حبوب البابيتورات. ورغم أنها كانت المفضّلة عند دوروتي، فلم تتحقق أبدًا النزاع الذي وضع وجهًا لوجه والدها الذهاني، المنبوذ من عائلة فرويد، مع أمّه التي كانت تمثل في نظره عالم الصحة وشفاء النفس.

كان إرنستل ألبرستاد ابنًا للتحليل النفسي، مثل آنا وأبناء دوروتي، وقد اهتم طيلة حياته بالأطفال، وبالعلاقات المبكّرة لصغار السن في نعومة أظفارهم مع أمّهاتهم، بالناضجين قبل الأوان، بأطفال جميع البلدان: في القدس - أورشليم، في موسكو، في جوهانسبورغ. لقد سعى لإيجاد هوية تربطه مع جده، ولذلك جعل اسمه إرنست و. فرويد كي لا يخلط الأمر بينه وبين اسم عمّه. وعند موت آنا توجّه لممارسة التحليل النفسي في ألمانيا، معيدًا بذلك ربط علاقته مجددًا مع الألمانية، لغة طفولته. وهكذا كان الذكر الوحيد من سلالة فرويد الذي أصبح محلّلًا نفسيًا.

غالبًا ما كان يشير مستذكرًا وصوله إلى لندن والغرَابات الفرويدية جدًا عند ابن عمه، لوسيان الشاب الذي قطع علاقته مع أهله، ويكره والدته ويحلم بأن يُصبح رسامًا عظيم الشأن[891]. وذات يوم، في أحد القطارات، حين كان عمره سنة عشر عامًا، نهض لوسيان فجأةً كي يمسك حقيبةً كان يُخفي في داخلها سرًا: «جمجمة حصان. تأمل الجمجمة طويلًا ثمّ أعاد وضعها في الحقيبة: كان قد وجد تلك الجمجمة في دارتمور وتعلّق بها منذ ذلك الحين[892]».

إن إعادة تركيب حياة «الرجل العظيم» والمطبوعات المختلفة تحت الإشراف لم تكن كافية لتربط ربطًا محكمًا جماعة التحليل النفسي المشتتين في أقطار الأرض الأربعة، ولا في إضفاء وجه لطيف ومشرّف على الحركة الفرويدية كما كانوا يريدون لها أن تظهر أمام الرأي العام.

هذا وكان الواجب يقضي أيضًا، استكمالًا لمشروع كتابة الافتتاحيات والتأريخ، إعادة بناء ذاكرة حقيقية كي لا ينسى أحد ما كانت عليه عظمة أوربا الوسطى - الـ Metteleuropa - التي دمّرتها النازية، وهذا العمل سوف يقوم به كورت إيسلر.

لقد وُلد في فيينا بتاريخ 1908، وقام بتحليله إيخورن، وكان قد هاجر إلى شيكاغو في 1938، تاركًا وراءه شقيقًا جرى ترحيله إلى معسكرات الإبادة. ثمّ استقرت إقامته فيما بعد في نيويورك، بعد تطويعه في الخدمة الطبية للجيش الأمريكي كي يوجّه، وهو برتبة نقيب، الاستشارات في معسكر تدريب. كان توجّهه الكامل نحو الماضي، وهو يعبّر عن كراهية شديدة حيال المدرسة الأمريكية، التي عاب عليها تخلّيها عن الفرويدية الأولية. ولهذا قرّر أن يكرّس حياته لبناء معطيات ملفات يمكن أن تسمح للأجيال الجديدة بمعرفة حياة فرويد وأعماله بأدق تفاصيلها: هي حياة مطبوعة بطابع فيينا، حياة مطبوعة بطابع أوروبي. كان برنفيلد قد فكّر بهذا الأمر قبله غير أن إيسلر أبعده استنادًا إلى آنا، مثلما فعل جونز في مشروع كتابة سيرة حياة فرويد، وقد اتّصل مع لوثر إيفانس، المشرف على مكتبة الكونجرس الهامة (LoC) في واشنطن، وهذا الأخير قبِل أن يقوم بحماية الملفّات المقبلة حول فرويد.

في فبراير/شباط 1951، أسّس إيسلر هيئة ملفّات سيغموند فرويد (SFA) التي أصبح حافظًا لها، يحيط به مجلس إدارة مؤلّف حصرًا من محلّلين نفسيين أعضاء في الـ IPA: برترام لوين، إرنست جونز، ويلي هوفر، هيرمان نوبرغ، سيغفريد برنفيلد. وأُضيف إلى هؤلاء أعضاء شرف ألبرت آينشتاين، توماس مان، آنا فرويد.

على مدى ثلاثين عامًا، قام إيسلر بتجميع كنز خرافي: رسائل، وثائق رسمية، صور فوتوغرافية، نصوص، أحاديث مع جميع من عرفوا فرويد، بما فيه المرضى، الجيران، الزوّار مهما كان ضآلة شأنهم. إن جميع المحلّلين النفسيين الذين عرفوا فرويد، ومعظم أعضاء أسرته، قدّموا إلى إيسلر وثائقهم وشهاداتهم. وبالاتفاق مع آنا فرويد، ها هو يخوض سياسة بارعة على مستوى الأرشفة، ومدمّرة على مستوى البحث. في واقع الأمر، إن اهتمامه بالتصنيف، والتنسيق، والتحكّم، والإشراف على كلّ ما يتعلّق بعالم لم يكن قد عرفه إلّا في لحظاته الأخيرة، جعله يرفض تدخل المؤرّخين المهنيين، وحظر عليهم الوصول إلى الملفّات، وجعل استشارتها وقفًا على المحلّلين النفسيين الذين تمّ تأهيلهم حسب الأصول في سراي الـ IPA، والحال، فمنذ سنوات 1960، هؤلاء الأخيرون راحوا ينصرفون إلى أعمال

عيادية أكثر فأكثر، ولم يكونوا جاهزين بما يكفي للشروع ببحوث تأريخية أو حتى محض تاريخية، بصورة مناسبة[893].

اعتبارًا من 1970، سيطرت اللغة الإنجليزية سيطرةً واضحة على الأعمال التأريخية. من بعد كتاب جونز الهائل رأينا، من جانب، نظرة منشقة، ومن جانب آخر مقاربة علمية. وها هي أولا أنديرسون تدشن التأريخ العلمي، في 1962، ليتفتح من بعد ذلك في العمل التجديدي الذي جاء به هنري ف. إيلينبرجر. إن كتابه «تاريخ اكتشاف اللاشعور»، والذي منه سوف يكون انطلاقي لاحقًا للشروع ببحوثي الخاصة حول تاريخ التحليل النفسي في فرنسا[894]، هو الكتاب الأول، فعليًا، الذي استرجع الفترة الطويلة للمغامرة الفرويدية وجعل التحليل النفسي جزءًا من تاريخ الطب النفسي الدينامي. وقد خرج فرويد من هذا العمل عن مساره وارتسمت قسماته كما لو كان عالمًا مشتتًا بين الشك واليقين.

وسوف يكون إيلينبرجر، من دون أن يسعى إلى ذلك، من وراء ولادة تأريخ نقدي، في بداية الأمر، لا سيما عدما نشر فرانك ج. سولواي مؤلَفًا مخصصًا للأصول البيولوجية في التفكير الفرويدي، ليصبح معاديًا للفرويدية فيما بعد بصورة جذرية، من خلال دراسات عديدة - صادرة عن Freud bashing[895] - جعلت من فرويد محتالًا، مغتصبًا، سفاحيًا، بحيث تنتصب على هذه الصورة أسطورة سوداء في مواجهة أسطورة ذهبية.

على الخط الموازي، إن أعمال المؤرخين الأمريكيين أو الإنجليز حول فيينا في نهاية القرن - كارل شوسكي، ويليام جونستن -، والتي استلم رايتها من بعدهم في فرنسا جاك لو ريدر، غيرت النظرة الموجهة إلى الظروف الاجتماعية والسياسية المحيطة بالاكتشاف الفرويدي، وهكذا من بعد فرويد الجونزي - كما رسمه جونز - جاء رجلٌ غارق في حركة أفكار تهزّ الإمبراطورية النمسو- هنغارية في سنوات 1880. وذاك الفرويد كان يجسد، بشكل من الأشكال، جميع تطلّعات جيل من المثقفين من أبناء فيينا الذين يعشش فيهم هاجس الطابع اليهودي، والجنس، وتدهور السلطة الأبوية، وتغلّب الطابع الأنثوي في المجتمع، وأخيرًا إرادة مشتركة لتقضي المنابع العميقة للنفس البشرية، وأمّا التآليف التأريخية المنشقة، فاتخذت قوامًا لها في حدود 1975، بعد نشر بول روزن لكتابه «الخرافة الفرويدية»[896].

اعتبارًا من سنوات 1975 - 1980، توافرت الظروف مجتمعةً كي تفرض وجود مدرسة تاريخية حقيقية عن الفرويدية. ضمن هذا السياق، وفي مواجهة انبثاق كتابات علمية ومقاربات نقدية، خسر ممثلو شرعية

التحليل النفسي، جماعة الـ IPA، الكثير من مكتسباتهم ولم يعد باستطاعتهم منع المؤرِّخين من وضع مؤلّفات لا تولي أدنى اهتمام للصورة الرسمية. ولم يعد لهم سلطة وحيدة: سلطة إدارة الملفات المودعة في مكتبة الكونجرس والإشراف عليها.

وكان أن اتخذ كورت إيسلر وآنا فرويد قرارًا كارثيًا لمواجهة هذا الواقع وذلك حين أسندا تجميع مراسلات فليس إلى جيفري موسايف ماسون، عالم اللغات اللامع، البروفسور القديم لتعليم السنسكريتية، تلميذ بول برونتوم، المتصوّف اليهودي، والمعتنق هو نفسه للروحانية الهندوسية على يد المرشد الديني رامانا ماهارشي. كان ماسون قد خضع للتحليل وفق الأصول من طرف الهيئة، وهو فاتنٌ وذكي، وتبدو عليه ظاهريًا جميع المواصفات المطلوبة للقيام بالعمل الذي كلّف به، غير أنه، وهو في خضم بحوثه، تحوّل إلى مجادل جذري. لقد حلم بأنه نبيّ الفرويدية المنقّحة، وراح يقنع نفسه بأن أمريكا قد جرى تخريبها بأكذوبة فرويدية أولية، وها هو يؤكد بأن رسائل فرويد فيها «سرّ» مخفي: وهو أن فرويد، حسب قوله، تخلّى جبنًا منه عن نظرية الغواية كي لا يكشف للناس فظائع البالغين مع الأطفال الأبرياء. وهكذا اخترع نظرية الهوام: وهي نظرية للتضليل[897].

في 1984، نشر ماسون دراسة حول هذه الفكرة، وقدَ لاقت رواجًا كبيرًا في تاريخ الأدب التحليلي الأمريكي، فكانت الأكثر مبيعًا. لقد وضع فيها بقسوة في قفص الاتهام المذهب الفرويدي، معيدًا إلى الحياة الجدل القديم ما بين فرويد وفيرينتزي حول الصدمة والاستغلالات الجنسية. ومنذ ذلك الوقت، جعل المؤلّف مستنده الفكرة الرائجة كثيرًا في سنوات 1980 والقائلة، بأن أكذوبة فرويدية هائلة في التي خرّبت أمريكا منذ انتصار فرويد في 1909، وهي أكذوبة مرتبطة مع سلطة قائمة على الاضطهاد: استعمار النساء على أيدي الرجال، والأطفال على أيدي البالغين، والعاطفة والانفعال على يد التعصب العقائدي والمفاهيم الذهنية.

ولم يتمالك إيسلر نفسه من تأثير تلك الهزّة التي كان هو بالذات من أطلقها[898]. كان يحبُّ ماسون بعمق وقد وضع نصب عينيه أن يجعله خليفةً له في إدارة الـ SFA، وبدلًا من ذلك وجد نفسه مجبرًا على إقالته من المهام التي كلّف بها. إن إيسلر، وهو الشغّيل الذي لا يتعب، لم يتوقّف أبدًا عن الرد بسعة اطلاع على جميع الانتقادات والهجمات الموجّهة إلى فرويد. وكان بكل وضوح يتمنى لو أن ذاك الذي قام بتأهيله يستمر في الطريق نفسه[899]. وفوق ذلك، كان قد فرض ماسون على آنا، التي كانت حذرةً منه وغير واثقة به، علمًا بأنها قد فكرت بأن تعهد إليه بتحويل 20

مارسفيلد غاردن إلى متحف[900].

عقب تلك القضية، انطلق التيّار الانقلابي الأمريكي - لا سيّما بيتر سوال، وأدولف غرونبوم[901] وكثيرون غيرهما - طوال عشرة أعوام بتمزيق المذهب الفرويدي وفرويد نفسه، حيث أصبح عالمًا شيطانيًا مذنبًا لأنه قام بعلاقات جسدية في وسط عائلته بالذات. ومنذ 1981 ها هو بيتر سوال، الكاتب المعادي للصور المقدسة، المثقّف الموسوعي في مجال الفرويدية، والعارف المدقّق بالملفّات، وقد راح يؤكّد، من دون تقديم أي برهان بأن فرويد أقام علاقات جنسية مع شقيقة زوجته. وقد جعلها حاملًا ثمّ أجبرها على الإجهاض. لقد شعر إيسلر بشيء من التعاطف مع سوال ولكنّ آنا، التي تجاوزتها الأحداث، لم تعد تعلم كيف تواجه أبواب الجنون عند الانقلابيين.

في 1986، بعد أربعة أعوام من وفاته، فتح «متحف فرويد» أبوابه للزوّار. ومع مرور السنين، تأكّد وجوده كمركز رفيع الشأن للبحوث، والمعارض، والمحاضرات. كان يمكن للمرء أن يشاهد في المتحف مجموعات فرويد، مكتبه، مكتبته، كما يستطيع إستشارة خمس وعشرين ألف وثيقة[902]. وفي فيينا، بعد مداولات عديدة، وُلد أول «متحف فرويد» بتاريخ 1971، وهو متحف للأغراض، والمفروشات، من دون مكتبة، متحف للذكرى لكل ما كان قد اختفى في عام 1938، باختصار متحف ما قبل المتحف الثاني.

عقب قضية ماسون، ترسّخت صورة فرويد مستغل، مغتصب، كذّاب، ومُخزٍ في وسائط الإعلام مع نشر روايات ودراسات مخصّصة لنبش حياته الجنسية غير المصرّح عنها، بينما راح يتدهور الاهتمام بالتحليل النفسي في المجتمعات الغربية - لا سيما في فرنسا. وبدأت من جانب المؤرّخين الكلاسيكيين عودة إلى عرف الترجمة الشخصية، مع نشر كتاب بيتر غاي المؤرّخ المختص بالحقبة الفيكتورية، في عام 1988.

وصلت أزمة الملفّات إلى ذروتها القصوى في اللحظة التي نُظّم فيها معرض عن فرويد في مكتبة الكونجرس، وكان مقرّرًا منذ فترة طويلة، حينذاك وقّع اثنان وأربعون باحثًا مستقلًا معظمهم من الأمريكيين، عريضة[903] وجّهوها إلى جيمس بيلينغتون، مدير مكتبة الكونجرس، وإلى ميكاييل روث، المشرف على المعرض، وإلى جيمس هوتسن، المسؤول عن قسم المخطوطات. بين الموقّعين كان هناك كتّابُ بارزون - فيليس غروس كورث، إيلك موهلتنر، ناتان هال، باتريك ماهوني - وهم ينتقدون على حقّ الطابع المؤسّساتي المغالي في الكتالوغ المقبل ويطالبون بوضع أعمالهم

في هذا الكتالوج، لكنّ بيتر سوال وأدولف غرونبوم، دعمًا منهما لهذه الخطوة الجماعية، أطلقا حملةً صحافية مسعورة على فرويد، مكرّرين بحقّه الاتهامات المعتادة. وإذ شعر منظّمو المعرض بالرعب من هذه المطاردة الشبيهة بمطاردة السحرة، فضّلوا تأجيل المعرض، بينما راح عدد كبير من الصحافيين والمثقفين الأمريكيين يعبّرون في الصحف عن كراهيتهم لهذه المواقف الطريفة.

ضمن هذا السياق تحديدًا، وبمبادرة من فيليب غارنييه، الطبيب والمحلّل النفسي الفرنسي، ومنّي شخصيًا، نُظّمت من فرنسا عريضة أخرى تنتقد في الوقت نفسه المجادلين ومنظّمي معرض مكتبة الكونجرس، لعجزهم عن فرض سلطتهم ولتشبثهم الزائد بحرفية أرثوذوكسية قديمة، وقّع على العريضة مائة وثمانون مثقفًا وممارسًا للتحليل النفسي من جميع البلدان، ومن جميع الاتجاهات، ومن جميع الجنسيات، ونجحت هذه العريضة الثانية نجاحًا هامًا[904]. وكانت نتيجة الهجمة المعادية للفرويدية على يد أدولف غرونبوم وبيتر سوال تهميش باقي الموقّعين والتشجيع على الأكاديمية، أمّا معرض مكتبة الكونجرس، الذي جرى تدشينه في أكتوبر/ت1 1998، فقدّم في واقع الحال، صورة عن فرويد بنظريات لم يعد لها أدنى أهمية في نظر العلم والحقيقة: «لا يهمني إن كانت أفكار فرويد صحيحة أو غير صحيحة، هكذا أشار ميكائيل روث. فالمهم أنها تشرّبت بها ثقافتنا بالكامل، والمهم أيضًا الطريقة التي أصبحنا نفهم بها العالم من خلال الأفلام، والفن، والرسوم المتحرّكة، والتلفاز[905]».

رغم ما تحقق لكتابين في فرنسا من نجاح ورواج، وهما «الكتاب الأسود للتحليل النفسي»، وهو كتاب جماعي ضمّ مداخلات ما يقرب من أربعين كاتبًا، و«غروب صنم»، وهو كتاب هجائي بقلم ميشيل أونفري، فإن المقولات عند أتباع الـ Freud bashing لم تترسخ في فرنسا في الوسط الجامعي، حتى لصالح انطلاق المعالجات التعليمية. بل إنها رُفضت بعد أن تلّذذت بها بعض الصحف المكتوبة والمسموعة - المرئية المتعطّشة للإثارات الفرويدية[906].

في جميع الأحوال، ساهمت هذه الأمور في أوساط الرأي العام بنشر صورة مشوّشة عن حياة فرويد ومؤلّفاته، صورة قائمة حسب المناسبة على أشد الإشاعات جنونًا والتي كانت مع جنونها تقدّم كحقائق ثابتة، ومن هنا كان قراري بأن أقوم بكتابة هذه السيرة الذاتية والتاريخية، حيث أن الـ SFA أصبحت أخيرًا في متناول الباحثين، ومع تضاعف المطبوعات والمجادلات الغنية جدًا عن طريق الإنترنت.

في أبريل/نيسان 2014، قبل أيام من رحيلي إلى واشنطن، توجّهت إلى لندن، إلى محرقة الجثث Golders Green[907]، وهو المكان المدني لدفن جميع الأطراف مقابل المقبرة اليهودية التي تحمل الاسم نفسهُ، ويضم المؤمنين، وغير المؤمنين، والكتّاب، والشيوعيين، والممثلين، والمفكريين الأحرار. وقد توقفتُ قليلًا أمام الضرائح، والتماثيل، والمدافن ذات الطراز الغوطي المليئة باللوحات المعدنية، والنقوش، والجرار، والأشياء المتنوعة، وكنتُ أعلم أنه قبل فترة من الزمن، أثناء ليلة رأس السنة[908]، كان مخربون قد حطموا الزجاج الذي وُضعت أمامه المزهرية اليونانية التي تضمُّ رماد سيغموند فرويد ومارتا برناي. كانوا من دون شك يريدون سرقة أشياء ثمينة، فأوقع اللصوص المزهرية من قاعدتها الرخامية، تاركين للزائر صورة المشهد الحزين لنصب فَقَدَ رأسه، لقد شعروا بالذعر، وما كان لهم سوى الفرار من دون أن يحملوا معهم أي شي.

حين نظرتُ إلى ذلك المكان المخرَّب، المغطى بالتقدّمات والذكريات، حيث يستريح في قوارير صغيرة رماد عائلة فرويد وبعض أصدقائه المقرّبين، ورحتُ أستمع لإيريك ويليس المسؤول عن محرقة الجثامين، وهو يروي القصّة الطويلة لذلك العالِم الذي جاء كي يموت في لندن، لم أستطع منع نفسي من التفكير بأن هذا الاعتداء - أو بالأحرى «قطع الرأس ذاك» يُشير إلى أن فرويد، بعد خمسة وسبعين عامًا من وفاته، ما يزال يزعج باستمرار الضمير الغربي، بأساطيره، وبسلالات أمرائه، وولوجه إلى عالم الأحلام، وحكاياته عن الجماعات البدائية، وبغارديفا المنطلقة في سيرها، وبالصقر الذي عثر عليه عند ليوناردو، وبقتل الأب، وبموسى بعد أن ضيّع ألواح شريعته.

وتخيّلته رافعًا عكّازه في وجه معادي السامية، مرتديًا أجمل قميص لديه من أجل زيارة الاكروبول، مكتشفًا روما مثل عاشق مغرم بالسعادة، لاسعًا بسياطه الأغبياء، متكلمًا من دون أوراق أمامه أمام أمريكيين فاغري الأفواه، مسيطرًا في مقرّه القديم الخالد وسط أغراضه، وقططه الشوشو الحمراء، وتلامذته، والنساء المحيطات به، ومرضاه المجانين، منتظرًا هتلر بقدم راسخة من دون أن يتمكّن من لفظ اسمه، وقلتُ لنفسي بأنه لفترةٍ مقبلة من الزمن، سوف يظلّ المفكر العظيم أثناء زمانه وفي زماننا.

---

875 رسالة هاري فرويد بتاريخ 25 سبتمبر/أيلول 1939 إلى دولفي، بولا، روزا، ميتزي، LoC، صندوق 3، بطاقة 7 وما يليها.

876 هارالد ليوبولد - لوفينتال، «هجرة عائلة فرويد بتاريخ 1938»،

المصدر السابق، ص 459.

877 كان قد تم ترحيل سبعة وأربعين يهوديًا من فيينا واغتيالهم. ولا نجد اسم أدولفين في جدول موتى غيزينشتات في ذلك التاريخ. بسبب اختلاط الأسماء، غالبًا ما يوضع لهذه الوفاة تاريخ 5 فبراير/شباط 1943. وفي رواية عالية النبرة، يتهم الكاتب المقدوني سميليفسكي فرويد بأنه المسؤول عن ترحيل شقيقاته، اللواتي رفض حسب قوله أن يُضيف اسمهن إلى «قائمة» طالبي الهجرة. بمثل هذه المحاكمة العقلية، يمكننا أن نجعل أقارب اليهود الذين تمّت إبادتهم من أبناء فيينا الذين نجحوا في اللجوء إلى المنفى

في 1938 مسؤولين عن هذه الإبادة. انظر غ. سميليفسكي، «قائمة فرويد»، باريس، بلفون، 2013. انظر ميشيل رودفوس، «Mediapart»، أكتوبر/ت1 2013.

878 محاكمات مجرميّ الحرب أمام محكمة نورمبرغ، المجلّد الثامن، ملف محاضر من 20 فبراير/شباط إلى 7 مارس/آذار 1946، والمنشور في 1947، ص 359 - 360. وقد وردت هذه الشهادة عند هارالد ليوبولد - لوفنتال وألفريد غوتفالت. وتمكّن صمويل ريزمان من تنظيم الشهادة حول روزا غراف. أمّا كريستفريد توجل فيعتقد بأن روزا نُقلت في أول يوم من مارس/آذار 1943: انظر: Bahnstation Treblinka. Zum Schickal von Sigmund Freuds Schwester Rosa Graf ، Psyche. Zeitschrift fur Psychoanalyse und iher Anwendunen، 44، 1990، ص 119 - 124. وأمّا ألفريد غوتالت، فيشير إلى أن الشقيقتين الأخريين ربما تمّ القضاء عليهن أيضًا في تريبلنكا، وأنّا روزا كانت قد وصلت في 29 سبتمبر/أيلول 1942 في الحافلة رقم 800. لقد راجت شائعات عديدة وانتشرت حول ترحيل شقيقات فرويد. بل إن ميشيل أونفري يمضي إلى التأكيد بأن روزا، وميتزي، وبولا قد ألتقت مع رودولف هوس في أوشفيتز ويتخيل بأن هذا الأخير، وهو أمامهن، هو البديل لشقيقهن، حيث أن شقيقهن جلّاد هو أيضًا، وفاشي من أنصار موسوليني، وكان عاجزًا عن تبين الاختلاف بين الجلّاد والضحية. انظر «غروب صنم»، المصدر السابق، ص 566.

879 مع بداية الحرب، في إنجلترا، عاشوا في معسكرات احتجاز بصفة «أعداء أجانب» (enemy aliens).

880 كليمان فرويد، «فرويد الأنا»، لندن مطبوعات BBC Worldwide، 2001.

881 إستر فرويد، «Marrakech Express»، باريس، سلسلة كتاب الجيب، 1999؛ «ليالي الصيف في توسكانيا»، باريس، ألبان ميشيل، 2009.

882 انظر جوردي غريغ، «موعد مع لوسيان فرويد»، باريس، كريستيان بورجوا، 2014، ص 59.

883 المصدر نفسه، ص 59.

884 «التأريخ الأكثر إيجازًا»، المصدر السابق، ص 304 وخصّص دافيد كوهين كتابًا لتلك القضيّة التي أثارت تأويلات متعدّدة: «The Escape of Sigmund Freud»، لندن، أوفر لوك بريس، 2012.

885 في البداية أقامت دوروتي في بيت في مارسفلد غاردن.

886 كاتا ليفي (1883 - 1969): محلّلة نفسية هنغارية قام فرويد بتحليلها.وسوف تُهاجر إلى لندن مع زوجها بتاريخ 1956. وكانت قد أخذت علمًا عن طريق الصليب الأحمر بإبادة شقيقات فرويد.

887 آنا فرويد، «بقاء وتطور، مجموعة أطفال. تجربة فريدة جدًا»، في «الطفل في مجال التحليل النفسي»، باريس، غاليمار، 1976. وجيني أوبري استلهمت هذه المقولة كي تخوض تجربتها الخاصة مع أطفال مهجورين. انظر «التحليل النفسي للأطفال المهجورين»، باريس، دونوي، 2003. انظر أيضًا البحث غير المنشور لماريا لاندو ضمن إطار اليوم الثالث في جمعية جيني أوبري، المخصص للهجر، بتاريخ 18 أبريل/نيسان 2013. التقرير موجود عند ميشيل روتفوس، mediapart، 26 أبريل/نيسان 2013.

888 ظهرت الرواية المنقّحة في 1950 تحت عنوان «ولادة التحليل النفسي».

889 حول نشوء الكتاب والمصاعب التي واجهت جونز، انظر مايكل بورخ - جاكوبسن وسونو شامدازاني، «ملف فرويد»، المصدر السابق، ص 365 - 418.

890 آنا فرويد، «معالجة أطفال بالتحليل النفسي»، باريس، PUF، 1951.

891 بعد محاولة لوسي الانتحار، عقب موت إرنست، سوف يرسم لوسيان، اعتبارًا من 1972 مايقرب من خمسة عشر بورتريه عنها.

892 إيفا ويسويلر، «آل فرويد. عائلة من فيينا»، المصدر السابق، ص 374. وفي البارك العامة في دارتمور تدور تحديدًا قصّة كونان دويل، «كلب عائلة باسكيرفيل».

893 أنا لا أشترك مع رأي مايكل بورخ - جاكوبسن حين يؤكّد بأن كورت إيسلر خدع - وحتى إحتال - على الشعب الأميركي باستخدامه لمكتبة

الكونجرس كصندوق أمانات مخصّص لمصادرة الملفات لصالحه وفي سبيل إخفائها عن الباحثين. انظر «الملف الفرويدي»، المصدر السابق، ص 424.

894 وهو ما أعيدت طباعته عند فايار بمبادرة من أوليفييه بيتورني، انسجامًا مع اختيار هنري ف. إيلينبرجر بالذات والذي سلّم من بعد ذلك للـ SIHPP، إدارة شؤون الملفات، وهي التي تهتم بها في هذه الأيام بمساعدة ابنه ميشيل إيلينبرجر.

895 «دراسات لتدمير فرويد أو لتشويه صورته».

896 جميع هذه المؤلفات مذكورة في حواشي هذا الكتاب.

897 جيفري موساييف ماسون، «الواقع المخفي»، باريس، أوبييه - مونتيني، 1984.

898 جانيه مالكولم، «عاصفة في ملفات فرويد» (1984)، باريس، PUF، 1988.

899 أتيحت لي الفرصة لمقابلة ج. م. ماسون عند صدور الترجمة الفرنسية لكتابه. كان مقتنعًا بالفعل بأن جميع الأطفال هم ضحايا للاستغلالات الجنسية من طرف البالغين. لقد وُلد في 1941، وهو مؤلّف لكتب عديدة، وهو اليوم نباتيٌ، ومناضل في سبيل حقوق الحيوانات، ويعيش في أوكلاند تحيط به عائلته وكلابه العديدة. وكانت لي، مع إيسلر، رسائل قليلة ما بين ديسمبر/ك1 1994 ويناير/ك2 1995، حول هنري ف. إيلينبرجر، بينما كنت منشغلةً بطباعة «طبابة النفس»، المصدر السابق.

900 انظر إليزابيث يونغ - برويبل، «آنا فرويد»، المصدر السابق، ص 412 - 413.

901 أدولف غرونبوم، «دعائم التحليل النفسي» (1984)، باريس PUF، 1996. في ذلك الكتاب، يُهاجم غرونبوم ثلاثة فلاسفة هجومًا مذعورًا: كارل بوبر، يورجن هابرماس، بول ريكور - ويعيب عليهم أنهم لمْ ينتقدوا التحليل النفسي بما فيه الكفاية. أنا شخصياً قمتُ بتحليل هذا الكتاب في «لماذا التحليل النفسي؟»، المصدر السابق.

902 كما سبق لي أن أشرت أنا شخصيًا نظّمت في 1944، مع رينيه مايور وضمن إطار الجمعية العالمية لتاريخ الطب النفسي (SIHPP)، ندوةً حول الملفات.

903 وثيقة مطبوعة على الآلة الكاتبة بتاريخ 31 يوليه/تموز 1995. وكانت لي مراسلات عديدة بخصوص هذا الموضوع مع كارل

شورسكي، وبيتر غاي، ويوسف يروشالمي، وباتريك ماهوني، وإيلس غروبريخ - سيميتس، وجون فورستر، وآخرين غيرهم. وفي رسالةٍ له، موجّهة في ذلك التاريخ إليّ، أشار شورسكي إلى أنه يرى في تلك العملية الهجومية عودة لشيء من الماكارثية.

904 حديث نيكولا ويل ورافاييل ريرول مع إليزابيث رودينسكو وكذلك حديث نيكولا وايل مع مايكل بورخ - جاكوبسن، صحيفة لوموند بتاريخ 14 يونيه/حزيران 1996.

905 حديث مع باتريك ساباتييه، صحيفة ليبراسيون، 26 أكتوبر/ت1 1998. وكذلك: Freud: Conflict and Culture. Essays on His Life, Work and Lagacy ، المنشور بقلم ميكائيل س. روث، نيويورك، كنوف، 1998.

906 وضعتُ نقاط التقارب بين كتابين جماعيين ردًا على هذين الكتابين اللذين عرفا رواجًا كبيرًا، بالاشتراك مع سيلفان كوراج، بيير دوليون، رولان غوري، كريستيان غودان، فرانك لولييفر، غيوم مازو، جاك راليت، جان - بيير سيور. «لماذا كلّ هذه الكراهية؟»

«تشريح الكتاب الأسود للتحليل النفسي»، باريس، نافارين، 2005، وكذلك «ألا لماذا هذه الكراهية»، المصدر السابق.

907 بصحبة أنطوني باليناتو.

908 وقعت حادثة السطو في ليل 31 ديسمبر/ك1 2013 إلى الأول من يناير/ك2 2014.

شكر

أقدم شكري لأنطوني بالبيناتو، الذي قام من أجل هذا الكتاب ببحوث عديدة باللغة الإنجليزية على الإنترنت كما رافقني إلى لندن وإلى مكتبة الكونجرس (LoC) في واشنطن.

أشكرُ أوليفييه مانوني، مترجم مؤلَّفات فرويد، الذي قدّم لي إيضاحات في أكثر من جانب، كما أشكر إيزابيل مونس، الألمانية وكاتبة سيرة لو أندرياس - سالومي، على المساعدة التي قدّمتها إلي، وكذلك كريستيان سومر، الذي ساعدني على تحليل كتاب لمارتن هايدغر حول فرويد والتحليل النفسي.

أشكر ليزا أبنيانيزي، وداني نوبوس وفريق متحف فرويد في لندن بأكمله على استقبالهم الحارّ لي، وجون فورستر، أستاذ التاريخ وفلسفة العلوم في جامعة كامبردج، العارف المدقّق بأعمال فرويد وبالعلاقات ما بين فرويد ومينا برناي. وجوليا بوروسا، مديرة برنامج في التحليل النفسي في جامعة ميديلسكس. أشكر أيضًا إيريك ويليس، الذي استقبلني في محرقة الجثامين في لندن - Golders Green -.

أشكر أنجي سكولس ستراسر ودانييلا فينزي لاستقبالي في متحف فرويد في فيينا.

كما أشكر مارغريت ماك ألير، رئيسة المحافظة على قسم المخطوطات في مكتبة الكونجرس، التي ساعدتني في أبحاثي. وأنطون و. كريس، مدير ملفّات سيغموند فرويد (SFA) والذي استرجع ذكرياته من أجلي، وأيضًا فرانسوا دولاتر، سفير فرنسا في الولايات المتحدة، الذي استقبلني استقبالًا حارًا، كما أنني مدينة بالعرفان لكاترين ألبرتيني، الملحقة الثقافية في سفارة فرنسا في الولايات المتحدة، لدعمها ولحماستها، ولا أنسى المساعدة التي قدّمها إلي جان - لويس ديمور.

أشكرُ موريسيو سيرا، الدبلوماسي وكاتب سيرة إيتالو سفيفو، الذي ساعدني، على امتداد تبادل وديّ للرسائل، ما جعلني أتبيّن بوضوح العلاقات بين إدواردو ويس، جيوفاكشينو فورزانو، وبرونو فينيزياني، شكرًا لألبريخت هرشمولر لإرشاداته القيّمة حول حياة فرويد.

أشكر على حد سواء كارلو بونومي على معرفته بعلاقات فرويد مع طبّ الأطفال ولكلّ ما قدّمه إليّ بخصوص مسألة الصدمات الطفولية، وغيدو ليبرمان، مؤرّخ التحليل النفسي في فلسطين، الذي قدّم إليّ شهادات حاسمة عن حياة ماكس إيتنغون، وأنا مدينةٌ جدًا بالعرفان

لباتريك ماهوني ولمراسلاتنا منذ عشرين عامًا. أشكر هنري راي - فلود، الذي كان حاضرًا طوال فترة كتابة هذا الكتاب. ولا أنسى الاعتراف بالجميل لكارل شورسكي وجاك لو ريدر.

أشكر جيل بيكو، الذي استقبلني في ندوتي عن تاريخ التحليل النفسي في قسم التاريخ في المدرسة العليا في باريس، وجميع المستمعين المخلصين الذين تابعوا ذلك المنتدى منذ أكثر من عشرين عامًا، شكرًا لتوماس بيكيتي للتقدير الذي قدمه حول مقدار ثروة فرويد، وأشكر لوك فاشيتي لصبره وتأنيه وجان - كلود بايول للتصحيحات الدقيقة التي جاء بها، ولا أنسى الدعم الذي لقيته منذ سنين عديدة من جانب أندريه غيسلين في قسم التاريخ في جامعة باريس السابعة - ديدرو، والشكر كل الشكر في الختام لأوليفييه بيتورني، الذي قام بنشر هذا الكتاب وتنقيحه بموهبةٍ وحماس